فهم الإسلام
فى ظلال
الأصول العشرين

للإمام الشهيد
حسن البنا

طبعة جديدة ومنقحة

تأليف
جمعة أمين عبد العزيز



الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع القانوني: ١٩٩٠/٤٧٨١
الترقيم الدولي: 977-253-001-5

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية
تليفون: ٣٩٠١٩١٤ - فاكس: ٥٩٠١٦٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً ولا تَفَرَّقُوا واذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إخْوَاناً وكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ ولْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلي الخَيْرِ ويَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ۝ ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ وأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران:١٠٣-١٠٥].

صدق الله العظيم

قال ﷺ: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا ثُمَّ أَدَّاهَا إلي مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لا فِقْهَ لَهُ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إلي مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ» [رواه الإمام أحمد].

صدق رسول الله ﷺ.

الإهـــداء

إلى الـذين أراد الله بهـم خـيراً ففـتح علـيهم بـاب العمـل وأغلق عليهم باب الجدل.

وإلى الذين أحيوا الحق بذكره وأماتوا الباطل بهجره.

وإلى الـذين يحسـنون الظـن بـإخوانهم فيلقـون إلـيهم بالثمر.

وإلى كل من علمني وأخذ بيدي وسرت معه طريق الدعوة إلي الله.

وإلى أبنائي وأسرتي ليواصلوا مسيرتي بهذا الفهم الدقيق والإيمـان العميـق والحـب الوثيـق والعمـل المتواصـل، والـوعي المتواصل.

إلي هؤلاء جميعاً؛

أهـدي سـطوري لعلـها تكـون لبنـة يعلـو بهـا صـرح الـدعوة حتى لا ينقطع عملي بعد موتي، ولعلها تكون من العلم الذي ينتفع به.

اللهم أمين.

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تقديم
فضيلة الشيخ محمد عبد الله الخطيب

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد..

فقد جاء في الأثر: «العلم علمان؛ علم في القلب، فذاك العلم النافع، وعلم على اللسان، فذاك حجة الله على ابن آدم»[1]. وبفضل الله فإن من مميزات العاملين للإسلام أنهم دائماً يذكرون النعمة التي وكل الله إليهم رعايتها وحفظها، ويعون تماماً المبادئ التي كلفوا بحراستها، ويسعدون دائماً ويحمدون الله حيث تتضح لهم الرؤية، ويبتعدون عن التلبيس أو الانحراف.

ذلك أن الأقدار الإلهية التي وضعت أقدامهم على الطريق الذي خطه سيد الخلق ﷺ تحرسهم وترعاهم، وصدق الله العظيم: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ﴾.[2]

إن هؤلاء الرجال الأبرار الذين يحملون عبء الدعوة إلي الله على بصيرة من بعد السلف الصالح الكرام، يحسون بالسعادة؛ لأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ووفقهم الله حين وقفوا عند حدود الالتزام بمنهج الله، والذود عنه، ورد أمورهم دائماً إلي الله ورسوله، فكل أعمالهم وأقوالهم تخرج من القلب وإلى القلب، والحمد لله، فليس هناك مجال لغش، ولا مداخل للشيطان أو الهوى، ولا تنازل من أجل مغنم قريب أو بعيد، أو غرض من أغراض الدنيا؛ لأنهم طلاب آخرة، وهؤلاء هم الذين نجلس إليهم، ونتلقى عنهم، ونصغي إلي حديثهم، وأكثر من هذا أنهم دائماً - بإذن الله - أقوى من الدنيا وعواصفها، وأرسخ من المغريات والعوائق التي تقعد بالبعض أو تحولهم في منتصف الطريق..

(١) رواه الدرامي.
(٢) الآية ١٧ من سورة محمد.

إن أقدام الرجال الصاعدين إلي الذُّرى والقمم قد تنزف منها الدماء لوعورة الطريق، لكن كل قطرة تجرى هنا أو هناك لها ثقلها ووزنها عند الله في الدنيا والآخرة.

وإذ تفضل الله علينا وهدانا إلي الطريق، ووفقنا لمتابعة السير عليه، فقد طوقنا بكرامته، وما عند الله خير وأبقى،

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾.[١]

من هذا المنطلق ننظر إلي كُتَّاب الحركة الإسلامية وروّادها، وحين نتعامل مع دعاتها يسيطر علينا هذا الشعور، وإن ما قلته وبدأت به من وصفٍ للرجال الذين تضعهم العناية الإلهية على الطريق، أحسب أنه ينطبق عليهم وعلى الأخ الأستاذ **جمعة أمين**؛ فهو من رجال الدعوة المباركة الأبرار، ومن القلائل الذين خرجتهم هذه الجامعة العتيدة، جامعة الإسلام ومدرسة الإخوان، نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً.

وقد شرح الله صدره فأقدم على شرح رسالة التعاليم، وأظهر لنا جوانب عظيمة مما حوته من توجيهات وأفكار في البناء والتربية، وهي رسالة بالغة الأهمية، ولها دور في حياة الإخوان العاملين المجاهدين من قديم، ولقد أفاض في بيان الأصول العشرين، فجاء شرحه لها أضوأ من الشمس، وأوضح من فلق الصبح، وأبين من غرة النهار.

لقد تحدث المؤلف عن كل أصل، وبيَّن في وضوح الأهداف المقصودة منه، ثم مهّد السبيل للوصول إلي تلك الأهداف، وأشار إلي المناهج المستقاة من هذه الأهداف في جانب العقيدة أو العبادة أو الحركة، كما أشار إلي مصادر التلقي المعتمدة التي يجب على كل مسلم أن يرد أمره دائماً إليها، ويتلقى منها، كما كشف عن المصادر التي لا تعتبر أبداً من أدلة الأحكام الشرعية، ومنها: شطحات الصوفية، وغيرها كالرؤى والأحلام والكشف والإلهام، ثم أشار إلي موقف الإسلام من التمائم والودع والرقى وقراءة الفنجان، وأفاض في ذلك وبيّن للقارئ الأسلوب

---

(١) الآية ١٤٦ من سورة آل عمران.

الصحيح لإنكار المنكر، والشروط التي قررها الفقهاء لذلك، والتي يجب أن تتوفر فيمن يتصدى لهذا الأمر، ونقل عن أئمة السلف الرأي السديد في هذا، لعل البعض من الأدعياء يعرفون حدود الله ويقفون عندها، وأشار إلي معنى السلفية، وبيَّن المقصود منها، ووضع الضوابط الصحيحة في هذا الأمر من غير تفريط ولا إفراط، وهكذا مضى الأستاذ المؤلف مع كل أصل من الأصول العشرين، يحدد المراد منه، ثم يشرحه في ملحمة شاملة مستدلاً من القرآن، ومن الحديث، ومن عمل السلف الصالح، ومن أقوال الفقهاء، حريصاً على بيان الأحكام الشرعية الصحيحة، وما تحتاج الدعوة إليه منّا من فهم صحيح شامل، وعقيدة ربانية، وتوجه سليم، كما تحدث عن البدعة والضلالة التي يجب أن نحاربها ولا نتهاون في أمرها، وعن البدع المُختلف في الحكم عليها، وفرّق بينها في جوانب كثيرة مهمة ومفيدة وحرص على طلب الحق والعمل به، خاصة الشباب.

والحق أن دعوة الإخوان تسع جميع المسلمين على ظهر الأرض على اختلاف اتجاهاتهم وأجناسهم وألوانهم ولغاتهم، تسعهم وتؤلف بينهم، بل وتقيمهم جميعاً للعمل صفّاً واحداً؛ لإقامة فرائض الله التي من جملتها أن تكون كلمة الله وحده هي العليا.

وإن رسالة التعاليم بقواعدها تجمع المسلمين، وتجعلهم جسداً واحداً، وفهماً واحداً، وتنمي بل وتثري حياة كل من رغب في العمل للإسلام، تنمي فكره، وتجدد فهمه الصحيح للإسلام، وتدفعه إلي الأمام بعيداً عن الجدل والفلسفة التي لا طائل من ورائها.

إن رسالة التعاليم تعمل لتحديد الشخصية الإسلامية العاملة المجاهدة، وتضعها في إطارها الصحيح، الإطار الذي يتبلور فيه الإسلام عقيدة وفكراً وأخلاقاً وسلوكاً، كما تعمل على إقامة المجتمع الذي يقتنع ويلتزم بالإسلام كنظام وشريعة حياة نزل بها الوحي من عند الله.

يقول الإمام الشهيد: «نحن نعتقد أن أحكام الإسلام وتعاليمه شاملة تنتظم شئون الناس في الدنيا وفي الآخرة، وأن الذين يظنون أن هذه التعاليم إنما تتناول الناحية العبادية أو الروحية دون غيرها من النواحي مخطئون في هذا الظن، فالإسلام عقيدة وعبادة، ووطن وجنسية، ودين ودولة، وروحانية وعمل ، ومصحف وسيف ،

والقرآن الكريم ينطق بذلك كله، ويعتبره من لب الإسلام ومن صميمه، ويوصي بالإحسان فيه جميعه ، وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[1]»[2].

هذه المفاهيم (مفاهيم الأصول العشرين) كما حددها الإمام الشهيد، وكما بينها المؤلف، ندرك منها أن دعوتنا إسلامية، وهذا يميزها عن المفاهيم الأخرى التي تريد أن تنطلق بالمسلمين من خلال فهم فيه غلو أو تجاوز، وهي مفاهيم لا تكاد تبدأ السير حتى تتوقف، وإذا مضت فعلى غير الطريق السوي، وهؤلاء نناديهم جميعاً: تعالوا إلي الطريق الصحيح هنا.

وأخيراً، جزى الله إمامنا الشهيد خير الجزاء عن الإسلام وأهله، وجزى الله الأخ المؤلف الشارح لهذه الأصول والموضح لها خير الجزاء، وتقبل الله منه هذا العمل، وجعله في ميزانه، وأكثر الله من أمثاله من العاملين الصادقين المجاهدين والمربين ونفعنا الله بما قدم من علم وفقه سديد لدعوته.

وإني أطلب إلي الإخوة أن يحرصوا على قراءة هذه الرسالة ودراستها، والاهتمام بها وفهمها، ثم العمل بعد ذلك والالتزام بكل ما ورد فيها؛ فهي عون لهم على المضي في طريق الدعوة، ومن لم يفهم رسالة التعاليم لم يعرف ما يريده «الإخوان المسلمون» من الأخ المسلم اليوم وغداً..والله أكبر، ولله الحمد.

اللهم اجعل عملنا كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً

اللهم أمين

محمد عبد الله الخطيب
من علماء الأزهر الشريف
القاهرة...شبرا
تحريراً في ١٠ ربيع ثاني ١٤١٣هـ
الموافق ٧ أكتوبر١٩٩٢

---

(١) من الآية ٧٧ من سورة القصص.
(٢) مجموعة الرسائل، للشهيد حسن البنا، رسالة المؤتمر الخامس، ص١٥٣.

مقدمة الطبعة الأولى

لا يشك مسلم رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، أن الإسلام هو روح هذه الأمة، ومبعث حياتها، وقوام رشدها، به نحيا، وله نعيش، وبدونه تنتهي الحياة، قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[1]. فنحن قبل الإسلام كنا موتى، فبعث الله فينا الحياة الطيبة الآمنة المطمئنة، فأصبحنا خير أمة أخرجت للناس؛ نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر ونؤمن بالله. لذلك فإن الذين يريدون سلب هذه الأمة دينها، إنما يريدون سلب الروح من الجسد؛ ليهلك ويموت. ومن هنا فإن استعادتنا لشخصيتنا الإسلامية التي افتقدناها هي استعادة لهذه الروح التي تسري في كياننا فتبعث فيه الحياة، قال تعالى: ﴿وكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ ولا الإِيمَانُ... ﴾[2]. والتيارات التي تحاول سلب روحنا، والمعادية لإسلامنا كثيرة - قديماً وحديثاً - وهي تتزايد يوماً بعد يوم، وليس في هذا ما يدعو إلي الدهشة أو الاستغراب لأن أعداء الحق كثرة في كل زمان ومكان، قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[4]. فالوحدة الوحدة، والتعاون التعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا، والحذر الحذر الوعي الوعي لمكائد الأعداء. وهذه التيارات المعادية للإسلام تمثلت اليوم في الصهيونية الماكرة والصليبية الحاقدة والشيوعية الملحدة. ولقد تفرعت من الصليبية بالذات تيارات خبيثة كالاستشراق الذي تعرف على الأرض والبشر، ثم التبشير الذي أراد أن يهز ثقة المؤمن بدينه، ثم الاستعمار بجيوشه وحقده؛ للقضاء على العالم الإسلامي الذي مر بمراحل يجدر بنا أن نشير إليها:

---

(١) من الآية ١٢٢ من سورة الأنعام.

(٢) من الآية ٥٢ من سورة الشورى.

(٣) من الآية ١٠٣ من سورة يوسف.

(٤) من الآية ١١٦من سورة الأنعام.

أولاً - مرحلة الإشهاد بتطبيق الكتاب والسنة نصّاً وحرفاً كمنهج حياة.

ثانياً - مرحلة الاستعمار بعد الاضمحلال، ثم انحسر بفضل الله ثم بفضل المجاهدين الصادقين في كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي، ولكن للأسف الشديد بعد أن نجح المستعمر بنفوذه العسكري والسياسي الغربي في تغيير طبيعة المجتمع المسلم.

ثالثاً - مرحلة التبعية والاحتواء.

وفيها حرص المستعمر على بناء قاعدته من خلال المدرسة، والصحيفة، والثقافة، والنفوذ الاجتماعي، وانتهت هذه المرحلة برأس جسر للعدو في فلسطين المسلمة.

ومما يؤسف له أن هذه المرحلة انتهت أيضًا بجمود الدولة العثمانية في سنواتها الأخيرة؛ لوهن قواها المادية، وضعف أدوات الحرب والعتاد وعلومها، والانفلات من فريضة الجهاد، فضلاً عن ضعف التيار الفكري الإسلامي، وعدم اتصاله بمنبعه وهو القرآن تربية وتوجيها؛ فتغيرت المفاهيم والعادات والتقاليد، وأدخل في الإسلام ما ليس منه في عقيدته وعبادته ونظامه إلي أن سقطت الخلافة الإسلامية، ومنذ ذلك اليوم وهناك صراع بين الذين يريدون علواً في الأرض وفسادًا وبين من يريدون للإسلام مجداً وحكماً ونظاماً.

في هذا الجو المشحون بالأفكار والقيم والتصورات والمفاهيم الخاطئة للإسلام سواءً من الذين اجتزءوه، أو الذين فصلوا بين عقيدته وشريعته، أو الذين تركوه بالكلية إلي النظم الوضعية وهم يحملون اسمه وشهادته، أو من الذين نشروا الصوفية التي انحرف بعض أصحابها عن الفهم السليم، أو الشيوعية التي حادَّت الله ورسوله، وأصبح لها وجود في مجتمعات المسلمين، أقول: في هذا الجو هيأ الله للدعوة الإسلامية رجلاً جدد أمر دينها، ونادى في الناس أن آمنوا بربكم، وعودوا إلي منهاج رسولكم ﷺ والسلف الصالح من أمتكم، ومن يومها مضت هذه اليقظة الإسلامية يرشدها الإمام حسن البنا رضوان الله عليه إلي الميادين التالية:

أولاً - تحرير العقيدة من زيف الجمود وما داخلها من أوهام وشبهات مصححاً التصور السليم للكون والإنسان والحياة؛ ليتحقق التوازن والاعتدال.

ثانياً - تخليص العقل المسلم من التركيز على النظرة الجزئية للإسلام؛ لأن ذلك يؤدي إلي تضخيم دور بعض الفروع والجزئيات مما يخل بالنظرة الشمولية للإسلام.

ثالثاً - كسر الجمود الذي أصاب العقل المسلم من غلق باب الاجتهاد الذي مثّل الإبداع والعطاء عند الإنسان، وأوقعه في التقليد، وحرم المسلمين من الحلول الإسلامية لمشاكل العصر، الأمر الذي يقتل الإبداع ويصيب قدرة العطاء عند الإنسان، ويوقع في التقليد، ويحرم صاحبه من الإفادة من جهود إخوانه المسلمين، فكان لابد من نظرة شمولية للإسلام ليستعيد بها المسلم تصوره السليم.

وبهذا الفهم المتكامل يستطيع المسلم أن يستعيد قدرته على المقاومة والدفاع عن دينه وعقيدته، فيبذل المهج والأرواح لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

والجدير بالذكر أن الإمام الشهيد حسن البنا أعاد بدعوته المتكاملة هذا الفهم السليم الذي كاد أن يندثر، وحملت جماعة الإخوان المسلمين هذا الفهم ودعت له، وتحملت ما تحملت في سبيل تثبيته في المجتمع، فكم من شهيد سقط في سبيله! وأولهم مرشدها ومؤسسها حسن البنا - ألحقنا الله به في الصالحين وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً - وكم من دماء سفكت، وكم من أطفال يتّمت، وكم من نساء ثكلت! وكم وكم...! وندخر ذلك عند الله تعالى، حتى ثبت هذا الفهم بفضل الله تعالى في مجتمعنا اليوم، وأصبح أمراً بدهيّاً لا يختلف عليه اثنان.

ولكن الذي نريد أن نلفت النظر إليه هو تلك التحديات والفلسفات والنظريات التي تريد أن تنقض على الإسلام فتهدمه، فهذه التحديات قامت عقبة كئوداً أمام الدعوة، وغزت المجتمع في هذا الزمان، بل وما يزال أثرها فينا حتى اليوم.

قالوا: إن التمسك بالإسلام والعمل بمقتضى شريعته نوع من التعصب، ولون من ألوان التجاهل لغير المسلمين في المجتمعات الإسلامية. مما دفع أكثر حكام المسلمين بعد أن انطلت الحيلة عليهم أن يتحاكموا إلي النظم الوضعية وعطلوا الشريعة الربانية.

وادعوا بأن الدين الإسلامي دين ناسب العصر الذي جاء فيه، والبيئة التي عاش

فيها رسول الله ﷺ، يرومون بذلك أن تغزو هذه الفكرة الخبيثة عقول المسلمين حتى يصبح دينهم محليّاً لا عالميّاً، وحتى يثبتوا عجزه عن تلبية حاجات البشر زماناً ومكاناً؛ فلا هو شامل ولا هو عام.

ثم ركزوا بعد ذلك على أن التدين من الأعمال الشخصية الفردية الخاصة بالإنسان في ذاته منفرداً عن الجماعة، ومعنى ذلك وباختصار شديد أن الدين الإسلامي لا صلة له بالجماعات البشرية في نظمها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية، وبذلك عزلوا دين الإسلام عن الحكم، وعطلوا الجهاد، وأماتوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأصبحنا نسمع من يقول: الدين لله والوطن للجميع أو: دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله. وتناسوا قول الله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾**[1].

وكثرت الفتن بعد ذلك، وانتشرت الشبهات والدعاوى الباطلة والجدل العقيم، ورحم الله امرءًا عرف زمانه واستقامت طريقته، فكان البنا الذي أعاد البناء وأرسى دعائمه بعد أن تأكد له أن المشكلة ليست سهلة كما يظن البعض، فإن ما أصاب الكيان المسلم من صدوع ورضوض وكسور وتقطيع أوصال وغزو فكري صدّه عن المضي إلي غايته وحال بينه وبين رسالته، لا يمكن أن يُعالج في يوم وليلة بمحاضرة عابرة، أو درس هنا و دروس هناك، أو موعظة وقتية ثم يمضي الواعظ لحال سبيله، أو مقال منشور أو مؤلف مكتوب، ولكنها التربية الطويلة والجهد المضني اللذان يصنعان الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وهو ما يحتاج إلي:

المنهج السديد، والعمل الدءوب، والخلق القويم، والنفس الطويل، والصبر الجميل، والموعظة الحكيمة، والوعي المستنير، والمتابعة المتأنية.

وأي دعوة صادقة للإسلام لا يتأصل فهمها ويصدر عن الكتاب والسنة، هي دعوة محكوم عليها أن تكون مبتوتة، وأن تجتث من فوق الأرض ما لها من قرار، فإذا ما اتصلت بمعينها ومصدر غذائها وحياتها، أصبح أصلها ثابت وفرعها في السماء

(١) الآيتان ١٦٢، ١٦٣من سورة الأنعام.

تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

ولكي تتعرف على صدق وقيمة أي دعوة من الدعوات، وتزنها بميزان عدل مستقيم معروف لابد من الوقوف على أمور ثلاثة:

١ - تصوراتها ومعتقداتها.

٢- أهدافها وغاياتها.

٣ - وسائلها لتحقيق الأهداف والغايات.

وبفضل الله وحده قد بيَّن الإمام الشهيد حسن البنا في رسائله ذلك تبياناً لا يحتاج إلي إيضاح، فلا غموض فيه من حيث وضوح الفكرة، ووحدة التصور والسلوك، ووحدة الهدف والمصير، ووحدة الغاية، ووسائل تحقيق ذلك كله.

ولتأصيل الدعوة كانت رسالة التعاليم والتي قال الإمام الشهيد في مقدمتها: «إلي الإخوان المجاهدين من الإخوان المسلمين الذين آمنوا بسمو دعوتهم وقدسية فكرتهم، وعزموا صادقين على أن يعيشوا بها أو يموتوا في سبيلها، وهي ليست دروساً تحفظ، لكنها تعليمات تنفذ، أما غير هؤلاء فلهم دروس ومحاضرات، وكتب ومقالات، ومظاهر وإداريات، ﴿وِلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾[1]»[2]. ثم حدد للشخصية المجاهدة معالم وصفات أخلاقية سُمّيت بأركان البيعة، وهي: الفهم، الإخلاص، العمل، الجهاد، التضحية، الطاعة، الثبات، التجرد، الأخوة، الثقة.

وخص الفهم بأصول تعين المسلم على وضوحه حتى لا يبني على الظن والهوى، هذه الأصول هي أصول الفهم الصحيح للإسلام، وليست أصولاً للدين أو الإسلام كما تصور البعض، وهي تعين المسلم - كما قلنا - على تحديد إطار للفهم السليم حتى يتوحد التصور والسلوك؛ ليكون كالشمس في رابعة النهار. ذلك لأن أخطر ما يؤثر في بناء شخصية المسلم، ويقلل أو يزيد من فاعليته في مجتمعه الذي يدعو فيه درجة وضوح فكرته ودعوته، فإذا ما وضحت هذه الدعوة لديه أخذ يدعو إليها كل

---

(١) من الآية ١٤٨من سورة البقرة.

(٢) الإمام حسن البنا، رسالة التعاليم.

قلب متفتح على أنها الخير المحض الذي يؤمن به. لهذا كان لابد للداعي إلي الله أن يقدم التصور السليم الذي يعتقده للناس بالوضوح الذي لديه؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ألا ترى إلي ربعي بن عامر حين خاطب رستم قائد الفرس، كان واضحاً أجلى الوضوح حين قال: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلي عبادة الله، ومن جور الأديان إلي عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلي سعة الدنيا والآخرة[1].

وها أنا ذا - بعون الله وحده - أحاول جهدي أن أدلي بدلوي وإن كان ماؤه قليل، ولكن يكفيني شرفاً أن أخط بعض ما فهمت مما تركه الإمام الشهيد حسن البنا حول فهم الإسلام في ظلال الأصول العشرين، وما كنت أفكر أو يخطر ببالي أن يكون لي قلم يتجاسر أو يخط سطوراً حول هذا الموضوع لولا إلحاح إخواني بأن أقوم بجمع ما قلته في محاضرات سبقت ليكون كتاباً يستفاد به. فاحترمت رغبتهم وأنا أعلم أن لي أساتذة كرامًا وعلماء أفاضل هم أهل للتصدي لهذا الموضوع، وأعتذر إليهم فيما كتبت، فما كان لمثلي أن يتناوله، ولكني استخرت الله تعالى فشرح صدري فكان هذا الكتاب الذي بين يديك، والذي أسأل الله تعالى أن يكون في ميزان الحسنات يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، فإن أصبت فمن توفيق الله تعالى لي، وإن كانت الأخرى فأسأل الله أن يغفر ذنبي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا هو. والله من وراء القصد وهو يهدي إلي سواء السبيل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلى اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه في يوم مولد الرسول ﷺ

١٢من ربيع الأول ١٤١٠هـ - ١٢من أكتوبر ١٩٨٩م

الفقير إلي الله وراجي عفو ربه

جمعة أمين عبد العزيز

(١) انظر تاريخ الطبري ٢/ ٤٠١.

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، وبعونه يوفق العبد لما يحب ويرضى، وبشكره يزيده من فضله، وبالتوكل عليه يكون حسبه، وبتقواه يعلمه ما لم يكن يعلم، فالحمد لله حمداً يوافي نعمه، ويدافع نقمه، ويكافئ مزيده، وأشهد ألا إله إلا وحده لا شريك له.

وأصلي وأسلم على نبي الهدى، الذي أمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر، وأحل لنا الطيبات وحرم علينا الخبائث، ووضع عنا إصرنا والأغلال التي كانت علينا، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزِل معه أولئك هم المفلحون.

أما بعد...

فقد قلت من قبل ما كان يجول بخاطري يوماً أن يكون لي الشرف في أن أكتب كتاباً أو أسطّر سطوراً أشرح فيها دعوة الإخوان المسلمين، وأبين ما تركه الإمام الشهيد حسن البنا من فهم للإسلام بأصوله العشرين، محاولاً بهذه السطور - بتوفيق الله وحده - أن أنفي بها تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، وأقول بإيمان يملأ القلب: ﴿**هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إلي اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[1].

والحق يقال: إني ما كنت أتوقع هذا الإقبال المنقطع النظير على اقتناء الكتاب حتى أن الطبعة الأولى منه نفدت بعد أيام قليلة من صدوره لم تصل إلي الشهرين، ولهذا لم تتح لي الفرصة الكافية لسماع توجيهات الأساتذة الأفاضل، وملاحظات الإخوة الكرام الذين تفضلوا بقراءته؛ لأستكمل بذلك نقصاً قد فاتني أو أصوّب خطأ زل القلم به.

ولذا كانت هذه الطبعة الثانية كأختها الأولى سواءً بسواء لم أزد عليها حرفاً واحداً؛ لقصر المدة والإلحاح في الإسراع بالطبعة الثانية تلبية لرغبات طالبيها.

---

(١) من الآية ١٠٨ من سورة يوسف.

فعذراً لعدم إضافة جديد أو تصويب خطأ، والحمد لله الذي تفضل علينا بهذه الثقة والاهتمام بهذا الفكر الأصيل الذي يقدم الإسلام بفهم دقيق، وإيمان عميق، وحب وثيق، وعمل متواصل، ووعي كامل.

ولعلي أجدُ في الوقت متسعًا إن كان في العمر بقية، أتلقى فيه التوجيهات القيمة من العلماء الذين نحترمهم، ونكن لهم كل حب واحترام، ونثق فيما يقولون، والملاحظات السديدة من الإخوة الذين هم كاليدين تغسل إحداهما الأخرى؛ ليكون كل ذلك أمام الأعين للاستفادة به في طبعة قادمة بإذن الله تعالى.

فشكراً لله على هذه الثقة وهذا الإقبال على فكر جماعة صبرت وصابرت محتسبة على ما أصابها في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، لا تريد جزاء ولا شكوراً، سائلاً الله أن يمكّن لدينه في الأرض ويفتح له قلوب الناس.

وإلى أن نلتقي مع طبعة قادمة بمشيئة الله تعالى لكم مني خالص الحب، ونسألكم خالص الدعوات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلي اللهم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه الفقير إلي عفو ربه

جمعة أمين عبد العزيز

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلي يوم الدين.

أما بعد... فلقد كنت آمل أن تكون هذه الطبعة قد زيدت أفكاراً ونقّحت أخطاءً بعد مرور ما يزيد على العام على الطبعة الأولى والثانية، وكنت في شوق لأستمع إلي توجيهات أساتذتي الكرام وعلمائي الأفاضل وإخواني الأحبة، لكني لم أتلق أية تعليقات أضيفها، أو ملاحظات أحذفها، وكنت كلما سألت إخواني عن كتابي هذا لا أجد إلا استحساناً لما كتبت، ورضاً لما سطرت وأوضحت، فشكرت الله على هذا التوفيق ودعوت الله أن يغفر تقصيري، ويحل عقدة من لساني؛ ليتضح بياني.

والحق يقال - وهذا من نعم الله عليَّ : ما كنت أتصور هذا الإقبال الشديد على هذا الكتاب بالذات في مشارق الأرض ومغاربها، سواء كان في بلادنا العربية والإسلامية التي تلقته بالقبول الحسن، بل فيها من طبعه في بلده ونشره بين إخوانه فأثلج صدري وأسال دمعي، فسجدت لله داعيًا أن يكون ذلك في ميزان الحسنات، ومما زاد سعادتي استئذان الإخوة في أوربا وأمريكا في ترجمته إلي اللغة الإنجليزية؛ ليعم نفعه ويشمل الإخوة المسلمين غير الناطقين باللغة العربية، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم.

وبالرغم من حرصي على مراجعته وتنقيحه لأضيف جديداً أو أحذف مكرراً أو أصحح خطأ؛ إيماناً مني بأنه ما كتب إنسان قطّ كتاباً من قلبه إلا وقال في نهاره: ليتني أضفت كذا، ليتني حذفت كذا؛ لأنه تأليف إنسان لا تصل سطوره إلي الكمال أبداً، ليبقى كتاب الله الخالد «القرآن الكريم» يتحدى العقول على مر الأزمان وهو هو ما زيد عليه ولا نقص منه **﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾** [1]، وهذا أكبر إعجاز أتى به حبيب الرحمن محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه **﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾** [2].

---

(١) من الآية ٨٢ من سورة النساء.

(٢) الآية ٤٢ من سورة فصلت.

إلا أن نفاد الطبعات بصورة سريعة، وإلحاح الإخوة في الطلب لاقتنائه دفع الناشر «دار الدعوة» الحبيبة إلي الإسراع في إعادة طبعه مرة أخرى؛ تلبية للرغبات، ونشراً للأفكار التي أوجزها الإمام البنا إيجازًا هو السهل الممتنع بحق، والذي شرفت بشرح بعضه وتبيانه، غير أني لم تتح لي الفرصة لمراجعته كما ينبغي، فضلاً عن عدم تلقي أي تعليقات أو توجيهات تدفعني للإضافة أو الحذف وإني لمنتظر.

ومما زاد من فرحتي ورفع من قيمة كتابي، هذه المقدمة القيمة التي شرفني بها أستاذ جليل وعالم فاضل، ومرب كريم، وداع فقيه، وأخ في الله حبيب هو فضيلة الأستاذ الشيخ **محمد عبد الله الخطيب**، وهو من هو في علمه وورعه وفقهه وتربيته ومواقفه وجهاده - ولا أزكي على الله أحداً والله حسيبه - فهذا مما زاد في اطمئناني لما كتبت، وثقتي فيما سطرت، وصوابي فيما ألفت؛ لأنها تزكية عالم حصيف، ومجاهد كريم، فهي شهادة أعتز بها تدفعني إلي مزيد عناية بهذا الكتاب في طبعات أخرى قادمة بمشيئة الله تعالى إن كان في العمر بقية.

والله أسأل أن يوفقنا جميعاً لتجلية ما تركه الإمام البنا رضوان الله عليه من كنوز ونفائس ربت رجالاً **﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا﴾**[1]. وصنعت جماعة ملء السمع والبصر ترث طريقاً أوضحه، ومنهاجًا بينه، بالرغم من قلة مؤلفاته وكتاباته، وما كان قياس عظمة الرجال تعدّدَ ما تركوا من كتب، إنما تقاس عظمة الرجل بما خلّف من رجال يواصلون مسيرته، وينهضون بأمتهم، ويحققون أهدافاً نادى بها هي من مشكاة رسول الله ﷺ دون تغيير أو تبديل، أو إفراط أو تفريط، فجزاه الله عنا خير الجزاء، وألحقنا به مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

وإلى اللقاء في طبعة أخرى أسأل الله فيها توفيقاً إلي الأحسن والأصوب، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. والله من وراء القصد وهو يهدي إلي سواء السبيل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصلي اللهم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه في ٢٨من ربيع ثاني١٤١٣هـ - ٢٥ من أكتوبر ١٩٩٢م

الفقير إلي الله وراجي عفو ربه

جمعة أمين عبد العزيز

---

(١) من الآية ٢٣من سورة الأحزاب.

مقدمة الطبعة الرابعة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ومن والاه.

وبعـــد،

فقد علمتنا هذه الدعوة المباركة أنه لا يمكن أن تنجح دعوة بغير فهم دقيق، وإيمان عميق، وحب وثيق، وعمل متواصل، ووعي بالحاضر، وليس هذا فحسب، بل هذا النجاح بعد هذا كله لابد له من تضحية بالنفس والمال وبكل ما نملك من دنيانا التي نعيش؛ لأن المبادئ لا تسود دون بذل وافتداء.

ودعوتنا هذه هي ميراث رسول الله ﷺ، والتي جددها إمامنا الشهيد فى عمره المبارك، وربَّى عليها رجالاً يواصلون الطريق، ويورثونها لجيل بعد جيل إلى أن يأذن الله بالفتح المبين- جاءت تجديدًا للأمة على تعاليمه ﷺ وسنته، ولن تعتز بنا ولن نعتز بها حتى نتنازل عن كل شيء من مال ومتاع ونعيم لأجلها، كما نزل رسول الله ﷺ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﷺ لدعوتهم عن كل لذة محببة ومتعة مشتهاة.

وما كانت كتابات الإمام حسن البنا إلا لترسيخ هذه المعاني فى القلوب، واستوائها في النفوس، وإنزالها على أرض الواقع، ووضعها على محك التجربة العملية التي سياجها المتين هو العلم والفهم والعقيدة السليمة والفقه، فكانت رسالة التعاليم فى مقدمة الرسائل التي أعطت للفهم حقه من الانضباط وعدم الانفلات، فحدد أصولاً للفهم هي حاكمة على مسيرتها ومبينة للوجهة والقصد.

وهذا الفهم الدقيق يحمله رجال يتحلّون بروعة الحب المتبادل بينهم، وسمو الآمال التي تشغلهم ويضحون من أجلها؛ لأنها الحق الذي من أجله يعيشون وبه يلقون الله ﴿يَا أَيُّهَا الإنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾[1]. فهي جهود تستغرق

---

(١) الآية ٦ من سورة الانشقاق.

العمر كله جهاداً في سبيل الله لخير هذه الأمة التي وصفها القرآن بالخيرية، فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1].

وكتابات الإمام البنا كلها بصفحاتها وسطورها تغرس هذه المعاني في أرض الواقع طيبة؛ لتخرج لنا شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ولذلك فإن جنود هذه الدعوة يشعرون بمردود هذه المعاني خاصة وهم يعيشون في ظلال مفاهيم الأصول العشرين، فقد أنضجت مداركهم، ووسعت أفق ثقافاتهم، وسمت بنفوسهم وسرائرهم، وطوّقت بالمآثر أعناقهم. وفضلاً عن ذلك كله، أكسبتهم الأخوة البرَّة الصادقة التي تدفع إلى تحقيق الأهداف برضا نفس حرصًا على الأداء المتقن، ونكران الذات، والسعي لتحقيق رضا الله ﷻ.

ولكي يتحقق ذلك كله على أرض الواقع لابد من العمل مع أنفسنا فهو أول الواجبات، نجاهدها ونحملها على تعاليم الإسلام وأحكامه، ولا نتهاون معها فى ذلك بأي وجه من الوجوه، فنؤدي الفرائض، ونقبل على كل طاعة، ونفر من الإثم، ونتطهر من العصيان، ونصل قلوبنا ومشاعرنا دائمًا بالله الذي له ملك السماوات والأرض، ونقاوم الكسل والعجز، ونوجه مشاعرنا وعواطفنا إلى الفضيلة الطاهرة النقية، ونخالف نزعات الطيش والهوى، ونحرص على الوقت فلا نصرفه فى غير فائدة، ونحاسب أنفسنا حسابًا عسيراً ليكون يوم العرض يسير.

ولذلك فإن الجماعة تسعى لتربية صفوة من الرجال والنساء تحمل مسئولية إقامة المجتمع الذي ننشده، وتضع نصب أعينها قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[2].

---

(١) من الآية ١١٠ من سورة آل عمران.

(٢) الآيتان٧٧، ٧٨ من سورة الحج.

ولن يتحقق ذلك إلا إذا صححنا تفكيرنا بنظرة قرآنية تقرر أمرين:

الأول: أن الدنيا وإن كنا مأمورين بعمارتها وتسخيرها لصالح الإنسان بالعلم النافع الذي أمرنا المولى بتحصيله والاستفادة منه لتحقيق العبودية بمعناها الشامل الكامل في هذه الدنيا التي نعيش، إلا أن فيها المتعة والزخرف ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[١].

من أجل ذلك فإننا حين نرى العصاة الفجرة الكفرة يملكون الدنيا بما حصلوا من علوم وفنون، ولا يحسبون أن ما عندهم هو مبلغهم من العلم، وأن الله يعلم ما لا يعلمون مصداقاً لقول الله:

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[٢]، فلا يغرنّك ما بيدهم من ثمرات وأموال ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۞ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ﴾[٣]. فبالإيمان والعمل والعلم النافع نعمر الكون؛ لنسعد في الدنيا والآخرة ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[٤].

الثاني: ينبغي على الإنسان أن يُرجع إلى الله كل أمر من الأمور حتى تستقيم له الحياة على نهج الشريعة التي أوجبها الله، لذلك كان أمر المولى لرسولنا ﷺ بذلك، فقال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾[٥]. ولذلك فالمسلم على حذر من الشهوات والشبهات، فأولوياته أن يؤدب نفسه ويراقبها ويرقى

---

(١) الآيتان ١٤، ١٥ من سورة آل عمران.
(٢) الآية ٧ من سورة الروم.
(٣) الآيتان ٥٥،٥٦ من سورة المؤمنون.
(٤) الآية ٦٤ من سورة العنكبوت.
(٥) الآيتان ١١٢، ١١٣ من سورة هود.

بها حتى يحقق درجة الإحسان؛ أن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه.

وفضلاً عن ذلك، فإنه يطلب العلم ويكون شعاره الذي يدفعه إلى تحصيله أمر الله ﷻ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[1]. ويخلص في أداء العمل؛ لأن العبرة ليست في نوع العمل الذي يؤديه، ولكن بإخلاصه فيه.

من أجل ذلك كله كانت مهمتنا أن ندعو الناس جميعاً من هيئات وأفراد وجماعات وأحزاب والأمة كلها إلى هذه البدايات في الإصلاح- ومن صحت بدايته صحت نهايته- ندعوهم جميعًا إلى سلوك هذا الطريق، والعمل بهذه المبادئ التي آمنا بها.

وهذه بضاعتنا التي نعرضها على رءوس الأشهاد، ونِعم المعروض على الناس جميعًا كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وشريعة نبيه محمد ﷺ المبعوث رحمة للعالمين، وإنه لعبء ثقيل لا يستطيع النهوض به إلا من وطَّن نفسه على التضحية والثبات والبذل وتقديم كثير من مصالحه وشئونه الخاصة قرباناً لخدمة الأهل والوطن، بل والناس أجمعين، فلا تفتر الهمة ولا تبرد العزيمة.

وإن ما ترونه من أحداث تحيط بالخير دافع إلى السير بهمة الرجال لتحقيق الآمال الكبرى، ولهذا نادى الإمام البنا الناس جميعاً منذ عقود طويلة بهذا النداء فقال: «أيها الإخوان المسلمون، أيها الناس أجمعون، إن الله بعث لكم إماماً، ووضع لكم نظاماً، وفصّل أحكامًا، وأنزل كتاباً، وأحل حلالاً، وحرم حراماً، وأرشدكم إلى ما فيه خيركم وسعادتكم، وهداكم سواء السبيل؛ فهل اتبعتم إمامه، واحترمتم نظامه، وأنفذتم أحكامه، وقدستم كتابه، وأحللتم حلاله، وحرمتم حرامه؟

كونوا صرحاء في الجواب، وسترون الحقيقة واضحة أمامكم، كل النظم التي تسيرون عليها في شئونكم الحيوية نظم تقليدية بحتة لا تتصل بالإسلام، ولا تستمد

---

(١) الآية ١ من سورة العلق.

منه، ولا تعتمد عليه، فماذا أنتم فاعلون؟»[1].

ومن أجل تحقيق ذلك كله كانت كتابات ودروس الإمام البنا، والذي بدأ بتعميق العقيدة في نفوس أتباعه وتلاميذه بالشعور بعظمة الرسالة التي يحملونها، والاعتزاز بالانتساب إليها، والثقة في نصر الله، مستمدًا هذه المعاني وهذه المشاعر من عقيدة التوحيد التي إذا تمكنت من النفوس، واستولت على القلوب، وتغلغلت بين الجوانح، واستقرت في أعماق الأفئدة، ودانت بها الأرواح واعتقدتها، فلابد أن يكون لها مظاهر وآثار تدل عليها وتنتج عنها، فإذا لم تترك العقيدة أثرًا ظاهراً، ولم تحمل على عمل واضح، كان ذلك لأحد أمرين لا ثالث لهما؛ إما لأنها عقيدة عقيمة لا تأتي بخير، وإما لأن الإيمان بها ناقص، وسلطانها على القلب ضعيف.

وكثير من أولى العقائد قضَوا وهم أثبت من شُمّ الجبال، لم يتزحزحوا عن مبادئهم، ولم يفارقوا عقائدهم، ولم يؤمنوا بغير ما آمنت به قلوبهم، ولم يبيعوا إيمانهم رغبة أو رهبة، وذلك أروع مظاهر البطولة، وأقدس عواطف الإيمان، وتاريخ البشرية حافل بعظمة هؤلاء الأبطال الكرام الذين تبدو عظمتهم قديماً وحديثاً تاجاً على هام الزمن، وغرة في جبين الأيام.

ولذلك ما كانت دعوة الإمام البنا إلا لنستعيد شخصية هؤلاء الرجال الذين يفتح الله بهم قلوب العباد، فتفتح لهم البلاد والأمصار ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ اللهِ﴾[2]. وبداية السير إلى هذه الغاية المنشودة وضوح الرؤية، وفهم للتصورات والمعتقدات، فضلاً عن المبادئ والأهداف؛ ليصحَّ المسير. ومن هنا كانت هذه السطور «الفهم في ظلال الأصول العشرين»، والتي أضفت إليها جديدًا في المعاني، وزدت فيها السطور التي كنت آمل كتابتها قبل ذلك بسنين وأنا أنتظر تعليقات الأساتذة الكرام والإخوة المحبين، ولكن لم أجد إلا إقبالاً شديدًا على ما سطّرته قديما دون تعليقات تُذكَر عليه، مما دفعني إلى أن أضيف جديدًا؛ تبويباً وتنظيماً ومفاهيم دقيقة.

---

(١) مجموعة الرسائل، حسن البنا، رسالة الإخوان تحت راية القرآن، ص٩٦، بتصرف.

(٢) من الآيتين ٤،٥ من سورة الروم.

والله نسأل أن تكون مفيدة، وفي ميزان الحسنات فى اليوم الذي يفر فيه المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه؛ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه.

فاللهم اجعله من العلم النافع الذي لا ينقطع العمل به، إنك سميع قريب مجيب الدعوات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه في ١٦ من المحرم ١٤١٦ — ٢٥ من فبراير ٢٠٠٥م

الفقير إلي الله وراجي عفو ربه

جمعة أمين عبد العزيز

توطئـــــة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ومن والاه، وبعد..

فإن الله ﷻ إذا أنعم على عبد فقهه في الدين ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾[1]. وهو ﷻ يعطى الدنيا لمن أحب ولمن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب، فمن أحبه الله أعطاه الدين، وجعل له مذاقاً حلواً يجد حلاوته في قلبه «**ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولا**»[2].

ومن نعم الله علينا أن أنعم علينا بفهم كامل شامل لهذا الدين كما جاء به المصطفي ﷺ، ولا شك أن توريث هذه الدعوة أمر يلزم كل مسلم، كلٌّ بقدره، وعلى قدر ما يحمل من هذه الدعوة « **بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً** »[3]، لكي يكون المجتمع كله عاملاً لهذا الدين، ولا يكون هناك أفراد يسمعون وآخرون يعملون، بل الجميع يشارك بقدر ما يحصّل من علم.

هذه الدعوة المباركة التي مَنَّ الله ﷻ بها علينا، وأصبحنا نحملها - ونشكر الله أن اصطفانا من بين خلقه وحَمَّلنا هذه الأمانة - وننشرها بين الناس بعد أن مَنَّ علينا وبصرنا بمعالم الطريق، كلما رأينا معلماً ثبتت الأقدام، وتوجهنا للغاية المنشودة نرجو رحمته ونخشى عذابه، وكما تعلمنا فإن العبرة ليست بثمرة المنهج الصحيح فحسب، ولكن بالالتزام بخطواته كما جاء بها الرسول ﷺ، أما الثمرة فـ **﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾**[4] إن جنيناها في حياتنا الدنيا فنحمد الله، وإن لم نجنها استكمل غيرنا جنيها، فهذه حكمة الله، وما علينا إلا أن ننظر لخطواتنا؛ فنصحح الخطأ فيها، ونثبت على الصواب، ونتوكل على الله فهو حسبنا.

---

(١) من الآية ١٢٥ من سورة الأنعام.

(٢) رواه الإمام مسلم.

(٣) رواه الإمام البخاري.

(٤) من الآية ١٢٤ من سورة الأنعام.

من أجل هذا كان الإمام البنا يؤكد هذا المعنى، ويقدم المنهج بوضوحه ووسائله وأهدافه، كي يكون المؤمن بهذه الطريقة على بينة من أمره، ولقد اهتم الإمام البنا بتوضيح الفهم اهتماماً بالغاً؛ ذلك لأن الإنسان المسلم إذا شاب فهمه أي ضعف أو قصور في أمر من أمور دينه، فسيعوقه ذلك عن المسير في الطريق المستقيم الذي سماه ربنا صراطاً مستقيماً.

نقول هذا لأننا لا نستطيع أن نتكلم عن أصول الفهم العشرين إلا إذا حددنا معنى الفهم ذاته كركن من الأركان قبل أن نتكلم عن أصوله، ولكي يستبين لنا الأمر فإننا إذا نظرنا في مجتمعاتنا الإسلامية نجد كثيراً من الراغبين في العمل الإسلامي يتساءلون: أي الجماعات أهدى سبيلاً؟ فهم يرون في سوق الدعوة تصورات كثيرة، قد يحمل بعضها بضاعة مزجاة، وقد يكون البعض الآخر شابه شيء من الإفراط أو التفريط، أو من النقص أو الزيادة، فكيف نفرق بين السوي من هذه الدعوات والمنحرف، وصحيح الفهم وسقيمه، وبين المفرِط والمفرِّط، وبين الصواب والخطأ، والناس في حاجة إلي توضيح ذلك كله، ولا نستطيع أن نقدم الفهم السليم إلا إذا كان عندنا واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار؛ لأن الناس في حاجة إلي تصويب ما أخطئوا فيه، وإلى تأكيد ما أصابوه، وإلى تقديم الدعوة كاملة لا تشوبها شائبة، ولهم أن يسألوا كي يصلوا إلي الصواب، وعلينا الإجابة والتوضيح، وليس لنا أن تضيق صدورنا بأسئلتهم، فقديماً سألت الملائكة ربها ﷻ: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾[1]. وسأله إبراهيم عليه السلام: ﴿**كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى**﴾[2].وسأله موسى عليه السلام: ﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ**﴾[3]، وسأل الناس رسول الله ﷺ حتى أننا نرى ذلك في كتاب ربنا: يسألونك عن ....، فقل....، فلا يجوز للداعي أن يضيق صدره بأي سؤال مهما كان، وعليه أن يتقبله بقبول حسن، ويجيب عليه بما علمه الله، والحقيقة أن المقياس الذي يقيس به الناس هذا الأمر لكي يتبينوا الصواب من الخطأ ما كان متروكاً يوماً من الأيام للاجتهاد الشخصي وحده، وما كان

(١) من الآية ٣٠ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ٢٦٠ من سورة البقرة.
(٣) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.

متروكاً للميزان العقلي وحده، ولكنه ميزان دقيق؛ لأنه أمر دين ودعوة خطاها رسول الله ﷺ بخطوات محددة، وله مقياس واضح تحدث عنه العلماء باستفاضة، فقد يسألنا سائل: أي الجماعات مصيب، وأيها عاملة بمنهاج الله، وتابعة لرسوله ﷺ ومقتدية به، كي نستبين الصواب من الخطأ؟ نقول - وبالله التوفيق -: إذا أردت أن تقيّم فكراً أو منهجاً أو جماعة من الجماعات التي تحمل منهاجاً، فلابد أن تتأكد من معرفة التصور الذي تدعو إليه، والفكر أو المنهج الذي تحمله من حيث:

أولاً - التصورات والاعتقادات والقيم والمبادئ التي يقوم عليها هذا المذهب أو هذه الجماعة من حيث عاداتها، وأساسها الفكري والعقدي الذي قامت عليه، ونظرة هذه القيم والمبادئ للكون والإنسان والحياة.

ثانياً - الأشخاص الذين يدعون لهذا المنهج من حيث سلوكهم ككل وأخلاقهم كمجموعة، وتكوينهم العقلي، ومدى تطبيقهم لما يدعون إليه، وتحملهم المشاق والتضحية من أجله، ثم موقع هؤلاء الأفراد من الناس.

ثالثاً - نتائج هذا الفكر وأثره في حياة معتنقيه، ثم أثره في أسرهم ومجتمعهم.

رابعاً - هل هذه النتائج وهذا التغير الذي حدث تغير وقتي ينتهي بزوال هؤلاء الناس، أم أن هذا الفكر مستمر بعدهم يرثه جيل بعد جيل؟

خامساً - هل هذا المنهج يرغم الناس على اعتناقه ويكرههم عليه، ولا يسمح لمعارضيه بصوت، ولا يسمع الرأي الآخر ولا ينتصح بمشورة، أم أن معتنقيه يلتزمون به ولا يلزمون به أحدا، ويقنعون بالحجة والقول الحسن، ولا يكرهون أحدًا عليه، ويتركون الناس يختارون؟

هذه مقاييس خمسة يستطيع أي إنسان أن يقيس بها أي جماعة من الجماعات عندما تعرض فكرها، وبهذه المقاييس يتبين لنا الغث من الثمين، والصواب من الخطأ، ولذلك وضع الإمام البنا لأتباع فكره ثلاثة مناهج محدودة: منهج العقيدة، ومنهج العبادة، ومنهج الحركة، فمن أراد أن يتعرف على ما تحمله الجماعة من فكر وتصور، فما عليه إلا أن يدرس هذه المناهج الثلاثة، والتي تقدم لنا الإسلام بشموله وعمومه

وسموه وكماله ودوامه، ثم بعد ذلك يقيس هذا الفهم بالمقياس الثابت الذي لا يتغير، وهو منهج رسول الله ﷺ الذي جاء به، والذي حمله جيل بعد جيل إلي يومنا هذا، وخير تفسير له سيرته ﷺ كما بينها العلماء الثقات.

منهج العقيدة:

منهج العقيدة عند الجماعة لا إفراط فيه ولا تفريط، وباختصار هو منهج عقيدة أهل السنة والجماعة، ومن فضل الله دُونت هذه العقيدة تدوينًا واضحًا من أهل السنة والجماعة بحيث لا نترك لمتأول فرصة، ولكننا نعود دائماً للسلف، والذي قرأ كتابي «فهم الإسلام في عرض عقيدة الإسلام»، يرى أن فكر الجماعة هو فكر أهل السنة والجماعة، كما أن منهج الإخوان في عرض العقيدة يلتزم بهذا الفهم التزاماً واضحاً بصرف النظر عما يقوله أهل الهوى والذين تعودنا منهم أن يرمونا بالحجارة بينما نلقي نحن عليهم الثمر.

وبهذا المنهج الذي نحرص عليه ونلتزم به لا تنشأ بيننا الفرق الإسلامية كما نشأت من قبل كالخوارج والمعتزلة والشيعة وغيرهم من الجماعات التي حادت عن منهج أهل السنة والجماعة والتي ظهرت في زماننا هذا في أشكال مختلفة كجماعة التكفير والهجرة وغيرها من الجماعات التي تُكفر المسلمين بالكبيرة، بل ويتمادى بعضهم ويُكفّر بالصغيرة، ويعيدون بذلك سيرة الخوارج مرة أخرى.

ولقد نشأ هذا الفكر في سجون عبد الناصر سنة ١٩٦٥ حين اشتد التعذيب على الإخوان بوجه خاص وعلى المسجونين الآخرين بوجه عام، فلم يروا إلا صورة من الحرب الشديدة على الإسلام والمسلمين حيث لم يكن يسمح بصلاة ولا قرآن، وكنا نسمع التهجم على الله ﷻ والتهكّم عليه، ولا نرى إلا صورًا بشعة لا تحتمل تأويلاً إلا الكفر - وحامل الكفر ليس بكافر - فاشتط البعض فكفَّر المجتمع كله، مما دفع الإمام الهضيبي أن يكتب كتاب «دعاة لا قضاة»، وضّح فيه الفرق بين أصول العقيدة وفروعها، وحدد هذه الأمور تحديدًا واضحًا كما بينها الإمام البنا من قبلُ سواء في رسالة العقائد أو في الأصول العشرين.

والذي نريد أن نؤكد عليه بعد ذلك أن الإمام البنا بالرغم من هذا التوضيح المهم

لم يهتم بعلم العقيدة فحسب، وإنما اهتم أيضا بأثر العقيدة في بناء الإنسان حتى لا تكون العقيدة علمًا يحفظ، ومادة تدرّس، وينتهي الأمر بحصيلة علمية تبحث عن أثرها في القلب فلا تجد، وهذا المعنى هو الذي أكد عليه الإمام ابن القيم حين قال: إن لـ «لا إله إلا الله» قلبًا وقالبًا، قالبها علمها. فالقالب الإطار الذي يحددها، ويشترك فيه المؤمن والكافر على حد سواء، يقرأ المسلم ويحصّل، ويستطيع المشرك أن يفعل ذلك وأكثر؛ فالمستشرقون قرءوا أكثر، وأصحاب الهوى الذين يحاربوننا بالشبهات يقرءون ويلتقطون الشبهات، ولذلك فليست العبرة بقالب «لا إله إلا الله» فحسب، ولكن الأهم قلبها، وقلبها هو أثرها في القلب، وهذا الذي ينفرد به المسلم عن الكافر، وهو أساس العقيدة عند المسلم، فليس أساس العقيدة حفظ النصوص فحسب، لكن الأهم الأثر وما تترك صفات الله فيه، فإن كان الله رحيما فهو يتحلى بالرحمة، وإن كان قويًا يتحلى بالقوة، وإن كان عزيزاً يتحلى بالعزة، كل اسم من أسماء الله وصفاته يترك أثره فيه؛ ليصبح ذا شخصية عابدة مؤمنة ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾[1].

وإذا تأملت آيات الله في القرآن لا تجد كلاماً عن وصف الإيمان مجرداً، لكن تجد كلامًا عن المؤمنين بصفاتهم، كأن الإيمان أصبح رجالاً يمشون على الأرض ترجمة لهذا الإيمان، ولذلك لا تجد تعريفات عن الإيمان والإسلام، بل إن حديث جبريل المشهور حين أتى النبي ﷺ بين أصحابه وسأله عن الإيمان والإسلام؟! وبعد أن أجابه النبي ﷺ وانصرف، نظر رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال:« **يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ؟**». قال عمر: الله ورسوله أعلم. فقال النبي ﷺ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُم**»[2]. فمهمة جبريل هي العلم فحسب، أما مهمة الرسول ﷺ فهي: ﴿يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[3]، فمهمة جبريل لم تكن تزكية وتربية، وإنما تعليم فحسب، بينما الرسول ﷺ يعلمهم ويزكيهم، ولذلك إذا وقفنا نحن عند تحصيل العلم نكون قد أخذنا جانباً واحداً من مهام الرسول، وتركنا أهم مهمة له

---

(١) من الآية ٦٣ من سورة الفرقان.

(٢) الحديث بتمامه رواه الإمام مسلم في صحيحه.

(٣) من الآية١٢٩ من سورة البقرة.

وهي التزكية والتربية التي تتحقق بها صفات المؤمنين، ومن هنا فإننا نتعبد الله بذكر هذه الصفات التي يتحلى بها المؤمنون فنقول في صلواتنا: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۞ وفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ والْمَحْرُومِ﴾[١].

إنها صفات رجال في منتهي الصفاء والنقاء بعد أن أصبحت واقعاً ملموسًا يبرز فيه الجانب الأخلاقي والسلوكي، وهو نتيجة حتمية من أثر الاعتقاد، ولذلك فإن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتفاوتون في تحصيل العلم، فهذا ترجمان القرآن، وهذا عالم الفرائض، وهذا عالم الفقه، بينما لا يتفاوتون خلقاً، فجميعهم على خلق حسن كريم، وإذا كان الإسلام يشجع الإنسان على تحصيل العلم بقدر طاقته، فإنه يلومه إن فقد شيئًا من الصفات الأخلاقية؛ لأن تحصيل الأخلاق يستوي فيها العالم والجاهل على حد سواء، ولهذا فاهتمامنا بأثر العقيدة في غاية الأهمية في منهجنا الإسلامي، أما العلم فيتحلى به ويحصله القادر عليه، يقول ربنا: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ﴾[٢]. وأما الأخلاق فبضاعة كل مسلم؛ لأن الرسول ﷺ يقول:«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٣]. من أجل ذلك فإن الرسول ﷺ غرس في صحابته مشاعر ثلاثة؛ شعورا بعظمة الرسالة التي يحملها المسلم، وشعورا بالاعتزاز بالانتساب إليها حتى ليقول قائلهم: كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة بغير الإسلام أذلنا الله[٤].

وأما الثالثة فشعور الثقة في نصر الله مهما اسودت الليالي، ومهما طال الزمن سيأتي نصر الله ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[٥]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾[٦]، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٧]، وتأمل مسلماً تربّى على هذه المشاعر فهو يشعر بأنه يحمل شيئاً

(١) الآيات ١٧ - ١٩ من سورة الذاريات.
(٢) من الآية١٢٢ من سورة التوبة.
(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول.
(٤) رواه الحاكم في مستدركه.
(٥) من الآية ٢١ من سورة يوسف.
(٦) الآية٥١ من سورة غافر.
(٧) الآية ٢١ من سورة المجادلة.

عظيمًا يعتز بالانتساب إليه ويثق في نصر الله له، إنه في هذه الحالة ليقول لكل جبار: جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد لعبادة الله وحده، ومن جور الحكام لعدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلي سعة الدنيا والآخرة، وتأمل ما حدث في غزوة الخندق ووصف القرآن لقوة الأعداء وموقف المؤمنين منهم، يقول القرآن: **﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾**[١]. هنا افترق الناس إلي فريقين يحملان قلبين مختلفين؛ قلبا خاويا من الإيمان مريضا، وقلبا مليئا بالنور الرباني والثقة في الله، فالذين انتسبوا إلي الدعوة لمصلحة شخصية قالوا: **﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُورًا﴾**[٢]، أين النصر والتمكين الذي تتحدثون عنه؟

بينما الفئة التي تعمقت العقيدة في قلبها، وثبتت أقدامها على الطريق يصفها القرآن بقوله: **﴿وَلَمَّا رأي الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾**[٣].قالوا هذا الكلام وهم في شدة وحصار شديد لأن العقيدة ملكت عليهم حياتهم نتيجة التربية التي أكد عليها القرآن لرسولنا ﷺ حتى صعدت روح الرسول ﷺ لخالقها، فكل آية فيها الكثير من الدروس والعظات والعبر والمواقف سواء كان ذلك في العقيدة أو العبادة أو التشريع، لذلك فإن الإمام البنا اهتم بهذا الأمر اهتماماً بالغاً، وركز على أثر العقيدة في بناء الرجال، وهذا ما تركه البنا، فلم يترك مؤلفات فحسب، بل ترك ما هو أحسن؛ الرجال الذين ما يزالون يحملون الدعوة، ويضحون من أجلها، ويورّثونها لمن بعدهم حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

منهج العبادة:

إذا تركنا منهج العقيدة الذي يسّر شرحه الإمام البنا، فحري بنا أن نشير إلي منهج العبادة، والتي أعطاها الإمام معنى الشمول، فلم تقتصر على الشعائر فحسب،

---

(١) الآية ١٠ من سورة الأحزاب.
(٢) من الآية ١٢ من سورة الأحزاب.
(٣) الآية ٢٢ من سورة الأحزاب.

ولكي يتضح لك فإن الدارس لأحوال المسلمين قبل هذه الدعوة المباركة يرى الصوفية قد انتشرت انتشاراً واسعًا في بلادنا فرقًا لا حصر لها، واجتُزأ الإسلام اجتزاءً، وحصر مفهومه في الجانب التعبدي، ولذلك حوربت هذه الدعوة لغرابة الفهم الذي جاءت به من المسلمين بوجه عام، ومن بعض العلماء بوجه خاص، ولقد أقام الإمام البنا منهجه على أمرين: صحة الاعتقاد، وصدق الاتباع، فهو يهتم بصحة العقيدة باتّباع السلف الصالح ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾[١]، وأقام فهم العبادة على الشمول والعموم والسمو والدوام والكمال، فمنذ أقوم من نومي فأقول: «**الْحَمْدُ للَّه الَّذي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْه النُّشُورُ**»[٢]، إلي أن أقول عند نومي: «**باسْمكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي**»[٣]. فأنا في عبادة طوال النهار وآناء الليل، منطلقاً في حياتي المعتادة وأنا لا أتوقف عن العبادة لحظة من اللحظات حتى وضع اللقمة في فم امرأتي كل ذلك عبادة لله، روى أبو داود في سننه: «إذا خرج رسول ﷺ من الخلاء فإنه يقول: «**أستغفر الله**» ثلاثًا. ويعلق أبو داود قائلاً: لماذا يستغفر الرسول ﷺ بعد خروجه من الخلاء؟ فيجيب: لأنه جلس في مكان لا يستطيع أن يذكر الله فيه، فاستغفر الله على الوقت الذي قضاه دون ذكر الله فيه.

إن العبادة تسري وتتحقق في كل أمر من أمور حياتنا، وليست وقفًا على الشعائر التي نؤديها فحسب كما ذكرنا من قبل، ولا شك أن الشعائر هي الزاد الرباني الذي يتزود به العبد السائر في طريق الله، وبدونه ينقطع الطريق وتزل الأقدام، ومن هنا أُمِر رسول الله ﷺ في أول الدعوة بتحصيل هذا الزاد﴿**قُمِ اللَّيْلَ إلا قَليلاً ۞ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ورَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۞ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً**﴾[٤]، فهو ﷺ ومن معه من الصحابة وهم الضعفاء يواجهون أهل الباطل بهذا الزاد، ﴿**وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وإذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ۞ ولَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ۞ إذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وضِعْفَ المَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ**

(١) من الآية ٣١ من سورة آل عمران.
(٢) رواه الإمامان البخاري ومسلم.
(٣) رواه الإمامان البخاري ومسلم.
(٤) الآيات ٢ - ٥ من سورة المزمل.

عَلَيْنَا نَصيراً ۞ وإن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وإذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إلا قَليلاً ۞ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ من رُّسُلِنَا ولا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ۞ أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلي غَسَقِ اللَّيْلِ وقُرْآنَ الفَجْرِ إنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾[١]، فلابد أن نكون عُبّادا لله أولاً وقبل كل شيء، ولذلك جاءت الحركة متأخرة يتقدمها الزاد الرباني أولاً، فإذا تحقق فليقم العبد ليتحرك بدعوته ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۞ ورَبَّكَ فَكَبِّرْ ۞ وثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۞ والرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[٢] فتتحقق الحركة الربانية المنضبطة.

منهج الحركة:

نحن لا نريد أن نسود العالم بأي شكل من الأشكال، ولا نصبو إلي السلطة والحكم، ولكننا نريد أن نقيم ديناً يقول ربنا عنه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[٣].فقضيتنا هي قضية إقامة الدين وليست الاستيلاء على السلطة، ومرشدنا – رحمة الله عليه – هو القائل: **أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم على أرضكم**.لأن أساس التغيير عندنا قبل الحركة تغيير النفس، نبدأ بإصلاح النفس أولاً؛ لأن المجتمع لا يتغير إلا إذا تغيرنا نحن من داخلنا ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[٤]. والمتأمل لإقامة الدولة في المدينة يجدها قامت على أمرين؛ أولهما عقد الإيمان، وهو أول أمر اهتم به النبي ﷺ حين هاجر إلي المدينة، فبنى مسجدًا ليتحقق هذا العقد، وثانيهما عقد الأخوة، لتتحقق قوة الوحدة، فإن تحققت هذه القوة تأتي بعد ذلك قوة العلم، وقوة الجيش، وأي قوة من القوى التي أمرنا المولى بإعدادها، والتي يسبقها تقوى الله وحسن الخلق، وهذه هي البداية الصحيحة التي لا بداية قبلها.

وبهذا المنهج المتكامل حقق الإمام البنا أموراً ثلاثة:

أول هذه الأمور أنه حرر العقيدة من زيف الجمود وما داخلها من أوهام

(١) الآيات ٧٣ – ٧٨ من سورة الإسراء.
(٢) الآيات ٢ – ٥ من سورة المدثر.
(٣) من الآية ١٣ من سورة الشورى.
(٤) من الآية ١١ من سورة الرعد.

وشبهات، وصححها وقدمها بالتصور السليم والنظرة الصائبة للكون والإنسان والحياة، وحقق التوازن والاعتدال، واهتم بأثر هذه العقيدة في بناء الرجال ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾(١)، ونحن نرى صدق هذا الوصف فيهم ولا نزكي على الله أحداً، فمنهم ﴿مَن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا﴾(٢).

الأمر الثاني: تخليص العقل من النظرة الجزئية للإسلام إلي النظرة الشمولية، فخلَّص العقل من التركيز على الجزئيات إلي الاهتمام بكليات الإسلام.

الأمر الثالث: كسر الجمود الذي أصاب العقل، فقد نادى الإمام بفتح باب الاجتهاد كما دعا إلي ذلك علماء من قبل، لأنه لا معنى للمناداة بغلق باب الاجتهاد؛ لأن الاجتهاد يمثل الإبداع عند الإنسان، ويجعل العلماء يجتهدون فيما جد من أقضية تمس زمانهم ومجتمعهم، صحيح هناك ثوابت لا يجب الاقتراب منها، ومتغيرات ظنية هي مجال المعاصرة والاجتهاد، للعلماء دور فيها، وخير مثال على ذلك أستاذنا الفاضل الدكتور القرضاوي الذي اشتهر باجتهاداته في القضايا المعاصرة، ومحاولاته إيجاد حلول للمشاكل الحالَّة إسلاميًّا، من نظرة إسلامية أفادت كثيرًا من المسلمين، وهو لا شك من تلاميذ البنا، وتخرج من مدرسته، فكل هذه الأمور مرتبطة بفهم الإخوان ارتباطاً وثيقاً بالرغم من اختلافهم في فروع المسائل، ومن أراد زيادة بيان فليرجع إلي رسائل الإمام البنا، خاصة رسالة العقائد ورسالة التعاليم.

إننا إذا تأملنا ما يركز عليه الإمام البنا بعد الفهم الدقيق، والإيمان العميق، والحب الوثيق، فسنراه يركز على ضرورة تحقيق قوة الجماعة؛ لأنه بقوتها تتحقق الأهداف، وهي تقوى برباطين: الرباط الإيماني وأساسه الفهم، والرباط التنظيمي وأساسه الأخوة، فيقوى الرباط الإيماني بالفهم والإخلاص والتجرد، وفي الأمر تفصيل ليس مجاله هنا.

وقوة الرباط التنظيمي عندنا بالأخوة والطاعة والثقة، فكلما تحققت الأخوة

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة الأحزاب.

(٢) من الآية ٢٣ من سورة الأحزاب.

وقويت بين الأفراد، كلما تحققت الطاعة وازدادت الثقة، ولا تتحقق شريعة الإسلام إلا بهذا الركن الركين ركن الأخوة، وإذا اختل الرباط الإيماني ستختل تبعاً لذلك قوة الرباط التنظيمي، فكان لابد من الحب والود بين أفراد الجماعة أولاً **﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾**(١)، وتدبر قول الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ﴾**(٢)، ثم يقول: **﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾**(٣)، فقوة الرباط الإيماني من الأهمية بمكان، لأنه يحفظ المسلم من الزلل، ويحفظ الحاكم من الطغيان، وهو الذي دفع عمر بن الخطاب ﷺ أن يقول: «لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها»(٤).

فإذا تحققت قوة الرباط الإيماني - بالفهم والإخلاص والتجرد كما ذكرنا - وقوة الرباط التنظيمي - بالأخوة والطاعة والثقة - دفعت هاتان القوتان الأفراد داخل الجماعة إلي العمل والجهاد والتضحية والثبات، وهذه هي أركان البيعة العشر.

ونريد أن نقول بهذه المناسبة: إن ما نقوله من أركان وصفات ليس على سبيل الحصر لا يزيد ولا ينقص، بل هو اجتهاد الإمام البنا، فجعلها عشرة، وهي في نظري لا تنقص عن العشرة، ولكنها قد تزيد، وهذا ما فعله فضيلة الأستاذ الشيخ القرضاوي حيث قال: وأنا أزيد عليها كذا؛ لأن الزيادة في ذلك فضل، لأنها أخلاق كريمة يجب أن يتحلى بها المسلم.

نسأل الله ﷻ أن يجمعنا على طاعته، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ويثبتنا في هذه الدنيا بالقول الثابت وفي الآخرة حتى نلقى الله وما علينا خطيئة، كما نسأل الله أن نكون قد أضفنا جديداً ينفع الناس بعد هذه المدة

---

(١) من الآية ٦٣ من سورة الأنفال.
(٢) من الآية ٥٤ من سورة المائدة.
(٣) من الآية ٥٤ من سورة المائدة.
(٤) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لابن الجوزي، ص١٤٨.

الطويلة التي حظي فيها هذا الكتاب بثقة الجميع، وأصبح بعون الله مصدراً لتلقّي الكثيرين للفهم بالرغم من أنني لم أضف جديداً طوال هذه الفترة.

والله نسأل أن يجعل ذلك في ميزان الحسنات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
وصلي اللهم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه في ٢٥ فبراير ٢٠٠٥
الفقير لعفو ربه
جمعة أمين عبد العزيز

تعالوا إلي كلمة سواء

نود قبل أن نبدأ الحديث في «**فهم الإسلام في ظلال الأصول العشرين**» للإمام الشهيد حسن البنا أن نتفق على قواعد كلية يجب أن تكون محل اتفاق بين المسلمين إذا عرضوا أمورهم للنقاش، لأننا لا ندري لما هذه الحرب الضروس، والهجوم الذي لا ينقطع على فكر الإمام حسن البنا - رحمه الله - في أماكن متفرقة، تزامنت في وقت واحد من أناس من جلدتنا وممن يدافعون عن إسلامنا وعقيدتنا، ولا ندري لما أصبح هذا الفكر خطراً على الدعوة الإسلامية في أيامنا هذه بالذات، وحصوننا مهددة من الداخل والخارج على حد سواء، والأمر جد لا هزل فيه، ويحتاج منا أن نهتم بعظائم الأمور ونترك سفاسفها.

إننا نفعل فيما بيننا ما عجز عنه أعداء الإسلام ولم يستطيعوا تحقيقه، وحققنا لهم بأيدينا أهدافًا ما كانوا ببالغيها، وأصبح البعض من المسلمين يرى أن فكر الإمام البنا أخطر من فكر أمريكا في العراق وبلاد الإسلام، وإسرائيل في القدس، وفرنسا في شمال إفريقيا، أو الصليبية في جنوب السودان، وليت الأموال التي أنفقت في الصد عن دعوة الإخوان المسلمين في صفحات سوّدت للهجوم عليهم أُنفقت في التبشير بالإسلام في إفريقيا، أو تعليم أبناء المسلمين في بيشاور بباكستان، أو شراء سلاح للمقاتلين من أجل الإسلام في كل مكان، أو حتى شراء حجارة لإرسالها لأطفال الحجارة في فلسطين لكان خيراً لنا جميعاً، إلا أن يكون فكر الإخوان المسلمين أخطر من ذلك وأعظم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

إن الأمور -يا أحبة- المتنازع حولها ومن أجلها يترتب عليها التمزق وتفريق الشمل، بل هي الحالقة التي لا أقول تحلق الشعر، بل تحلق الدين، فهل نتقي الله جميعاً في إسلامنا؟ ونحب لله، ونبغض لله، ونعطي لله، ونمنع لله حتى نستكمل إيماننا، ويكون ميزاننا الذي نزن به الأمور هو ميزان السلف الصالح.

نسأل الله أن يجمعنا على كلمة سواء، ويجري الخير على أيدينا جميعاً، وأن يؤلف بين قلوبنا؛ لنتعاون فيما اتفقنا عليه من أصول، ويعذر بعضنا بعضاً في الفروع، وأن

يعيد بناء أمة الإسلام من جديد، إنه نعم المولى ونعم النصير.

وهيا إلي القواعد الكلية التي نود أن نتفق عليها جميعاً قبل أن نعرض فهمنا للإسلام من خلال الأصول العشرين[١].

أولاً: عدم التعصب للرأي في سبيل كسب الأنصار، والتفرقة بين التعصب والتمسك بالحق، فالتعصب يدفع الفرد إلي أن ينسب لغيره الضلال واضطراب العقيدة وينقد الدعاة ويلمزهم حتى ولو ارتكب في حقهم جريمتي الغيبة والنميمة، بينما التمسك بالحق يصبغ صاحبه بالأخلاق الكريمة، والكلمات العفيفة، والموعظة الحسنة، والدعوة الحكيمة، والمجادلة بالتي هي أحسن، ووجوب رد التنازع في كل أمر إلي الله ورسوله.

ثانياً: لا يصح لفرد أو جماعة أن تدعي العصمة فيما تقول، وتجعل رأيها - في أمور الرأي - هو الحق وما عداه الباطل، أو تدعي أنها تملك الحسم في الأمور الخلافية بحيث يصبح الخروج على رأيها خروجاً عن الإسلام أو ضعفاً في الاعتقاد؛ فلا عصمة لأحد، وكل يؤخذ من كلامه ويرد.

ثالثاً: الأمور الخلافية لا إنكار فيها شرعاً، والتماس العذر فيها ليس كتماناً للحق أو انتقاصاً للعقيدة، لكنه تعاون فيما اتفقنا عليه، وتفهم عذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه.

رابعاً: أن يكون منهجنا قائماً على تحري الحق وبلوغ الصواب، ليس استظهاراً لرأي، أو محاولة إظهار أن رأينا هو الصواب، ولكن نبحث عن الحق أيا كان مصدره، سواء ظهر على لساني أو لسان خصمي، يقول الإمام الشافعي: ما ناظرت أحداً إلا رجوت الله أن يظهر الحق على لسانه. فالحق يقبل من كل من تكلم به.

خامساً: لا يجوز التشنيع والإرجاف على جماعة ما بسبب مسائل تحتمل وجوهاً في الفهم والرأي، ولا يحل فيها التكفير والتضليل والتفسيق؛ لخطورة ذلك.

---

(١) بعض هذه القواعد من مقالات للدكتور عصام البشير والمنشورة بمجلة المجتمع الكويتية، وغيره من الأساتذة الكرام بتصرف شديد.

سادساً: لا يجوز أن نبحث عن سقطات الآخرين، ولا مواطن السقوط والضعف ونذيعها؛ لننفر الناس ممن يخالفنا؛ فليس هذا من منهج الإسلام ولا من أخلاق المسلمين.

سابعاً: الاتفاق العام على أصول المنهج لا يعني بالضرورة الاتفاق على التفاصيل، ومخالفة المرء لبعض فروع المنهج لا يخرجه عن صحة أصل هذا المنهج، فمثلاً: اختلفت السيدة عائشة رضي الله عنها وعبد الله بن عباس في رؤية النبي ﷺ لربه عز وجل؛ فنفت السيدة عائشة رضي الله عنها الرؤية؛ لما بلغها أن رسول الله ﷺ قال حين سئل عن رؤية الله: «نُورٌ أَنَّى أَرَاه»[١]. بينما قال ابن عباس أنه ﷺ رأي ربه بفؤاده[٢]، فاختلفا[٣]، وما خرجا عن أصل المنهج.

ثامناً: لا ينبغي الحكم على طائفة ما بأنها خارجة عن المنهج الصحيح بسبب خلاف جزئي مع اتفاقها على معظم الكليات، فالحكم باعتبار الغلبة والرجحان.

تاسعاً: ضرورة التوسط والاعتدال حتى عند احتدام العداوة واستحكام الخلاف، فلابد من الإنصاف.

فمثلاً الصوفية يجب الإنصاف في الحكم عليها لا المغالاة، يقول ابن القيم في شطحات الصوفية: منهم من أساء الظن بالكلية وفرطوا، ومنهم من أحسن الظن وأفرطوا. وقال الحاكم في مستدركه على الصحيحين: «هم طائفة من المسلمين منهم أخيار ومنهم أشرار»[٤].

ويقول ابن القيم: «وكل أهل نحلة ومقالة يكسون نحلتهم ومقالتهم بأحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومقالة مخالفيهم بأقبح ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومن

---

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي.

(٢) الحديث في صحيح مسلم.

(٣) ذكَر مسألة اختلاف الصحابة في رؤية النبي ﷺ لربه علماء كثيرون، منهم البيهقي في الاعتقاد ص٣٠٣، ٣٠٤، والقرطبي في تفسيره ٧/ ٥٦، ٥٧.

(٤) المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري ٣/ ١٩.

رزقه الله بصيرة فهو يكشف بها حقيقة ما تحت تلك الألفاظ من الحق والباطل، ولا تغتر باللفظ كما قيل في هذا المعنى:

تقـــول هذا جنى النحل تمدحه وإن تشأ قلت ذا قيء الزنابير

مدحاً وذماً وما جاوزت وصفهما والحـق قد يعتريه سوء تعبير

فإذا أردت الاطلاع على كنه المعنى هل هـو حـق أو باطـل، فجـرده مـن لباس العبارة، وجرد قلبك من النفرة والميل، ثم أعط النظر حقه ناظراً بعين الإنصـاف، ولا تكن ممن ينظر في مقالة أصحابه ويحسن الظن بهم نظراً تامًّا بكـل قلبـه، ثـم ينظـر في مقالة خصومه ويسيء الظن بهم كنظر الشـرر، فالنـاظر بعـين العـداوة يـرى المحاسـن مساوئ، والناظر بعين المحبة عكسه، ولا يسـلم مـن هـذا إلا مـن أراده الله لكرامتـه، وارتضاه لقبول الحق، وقد قيل:

وعين الرضا عن كل عيب كليلةٌ ولكن عين السخط تبدي المساويا»[1]

عاشراً: ضرورة الجمع بين النصوص التي قالها عالم من العلماء أو إمام من الأئمة، بمعنى أننا قبل أن نتهم إمامًا بأن عقيدته فاسدة، أو لديه خطأ في تصور معين، ينبغـي ألا نجتزئ كلاماً من كلامه ثم نعمم الحكم، ولكـن ينبغـي أن نجمـع كـل كلامـه مـن متفرقات أقواله، فإن أجمل في وضع وفصّل في آخر، فإننا نحمل المجمل علـى المفصّـل، وإن أبهم في موضع وأوضح في آخر، فيحمل المـبهم علـى الواضـح الـبين، وكـذلك نحمل المطلق على المقيد وهكذا..، ذلك لأن الاجتزاء قد يؤدي إلي الخطأ في الحكـم، فلو أنك علمت أن ابن القيم يقول بفناء النـار والجنـة بعـد أن ينـال المحسـن إحسـانه والمسيء جزاءه - وهذه مقولة الجهمية - فهل تتسـرع بـالحكم علـى ابـن القـيم بأنـه جهمي؟ بالطبع لا يجوز ذلك.

حادي عشر: ضرورة احتمال كلام العالم على أحسن المحامل إحساناً للظن بأخيك المسلم، فإذا كان هناك كلام له وجوه باطلة وأخرى صحيحة، نأخذ بالصحيح ونحسن

---

(١) مفتاح دار السعادة، لابن القيم ١/ ١٤١.

الظن بهذا الإمام، واسمع إلي ابن تيمية حين تكلم بعض الصوفية فقال: مَن أحبه الله لم يضره الذنب. وهذا كلام له دلالة خطيرة يحمل الإرجاء، فإذا بابن تيمية يفسره لصالح قائله ويقول: يقصدون أن من أحبه الله وفقه إلي التوبة والاستغفار حتى لا يبقى على الذنب. وهكذا حمله حملاً جميلاً إحساناً للظن بقائله.

ثاني عشر: إن عرض مسائل الخلاف فيما نختلف فيه مع غيرنا ينبغي أن يكون مستوعبًا، أي يجب عرض جميع الجوانب كلها، فلا نعرض جانباً ونترك آخر، فلابد من الاستيعاب وتخير المقام الذي تقال فيه المسألة، قال الإمام علي رضي الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟» [1].

ثالث عشر: الأئمة المشهود لهم بالإمامة في الدين والتقى والورع والجهاد تنغمر هفواتهم في حسناتهم وفضائلهم، ويجب أن نعرف أقدارنا في العلم ولا نتسرع في أمر الفتوى، قال الإمام السبكي: «يجب أن نسلك الأدب مع الأئمة الماضين، ولا نخوض فيما وقع بينهم من خلاف، فإن القوم أئمة أعلام، ولأقوالهم محامل ربما لا يُفهم بعضها، فليس لنا إلا السكوت عما شجر بينهم، ونأخذ الحق من سبيله».

رابع عشر: العناية بدراسة ومعرفة الفرق الإسلامية لا يلزمنا اليوم إلا بمقدار ما نتعرف على المنهج الصحيح الذي رد به سلف هذه الأمة على فرق الضلال؛ لنجابه به الضلالات المعاصرة، فأهل السنة في كل زمان واجهوا الباطل في زمانهم.

واليوم هناك فرق ضالة حديثة كالإسماعيلية، والبهائية، والقاديانية، والماسونية، والماركسية، وغيرها من الفرق الضالة التي ظهرت لحرب الإسلام، أليست هي الأَولى بالمواجهة من الفرق القديمة التي اندثرت وليس لها وجود؟ إننا لا حاجة لنا بالفرق القديمة إلا بقدر معرفة وجه الشبه بين القديم والحديث، وننظر في منهج العلماء الذي واجهوا به أهل الباطل في زمانهم، فإن أفادنا ونفعنا فبها ونعمت، وإلا فلا داعي لتجديد قديم غير موجود حتى لا تكون الحرب في غير ميدان.

---

(١) رواه البخاري.

وأخيراً.. نقولها من الآن وبصوت مسموع: إن الحق الذي ندين به هو منهاج أهل السنة والجماعة، وهو منهج السلف الصالح الذي يقوم على صحة النقل وصراحة العقل؛ لأن العلم إما أن يكون عن قائل معصوم، أو عن قول عليه دليل معلوم؛ فإما قولُ مصدَّق، أو استدلالُ محقِّق، ونحن لا نلقي الكلام على عواهنه، ولكنك سترى بمشيئة الله تعالى صدق ما نقول.

نسأل الله التوفيق في عرض أصولنا العشرين،
وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.
فإلي الأصول العشرين وما حوت من مفاهيم.

***

الأصل الأول

أصل الشمول

«الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء»[1].

(1) مجموعة الرسائل، للشهيد حسن البنا، رسالة التعاليم، ص٢٦٨.

هذا الأصل يعالج:

١ - ربانية المصدر.

٢ - شمول المنهج.

٣ - عمومية الرسالة.

٤ - عالمية الدعوة.

٥ - أخلاقية الوسيلة والغاية وخصائص الدعوة الإسلامية بوجه عام.

لم يتوقف الإسلام عن الانتشار منذ بزوغ فجره حتى في أشد أيام غزوه من القوى المعادية له، فهم يريدون له انحساراً والله يريد له انتشاراً ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1].

ولم يترك أعداء الإسلام وسيلة من الوسائل الخسيسة إلا استخدموها للصد عن سبيل الله ومحاولة إبعاد المسلمين عن منهاج حياتهم بشتى الطرق. يقول زويمر - كبير المبشرين في البلاد العربية في الثلاثينات -: «إن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين المسيحية فإن هذا هدية لهم وتكريم، إن مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالدين». هذا الكلام يبين قدم الكيد للإسلام والتخطيط القديم لذلك، ولنرى فضل الله علينا بهذه الدعوة التي جددت فهم الإسلام بشموله وعمومه، يقول القس دولسن: «إنه لا شك في أن التربية الغربية هي من قبيل قوة تنحل بها عُرى الروابط الإسلامية» وهذا هو التخطيط الذي خططه أعداء الإسلام لهذا الدين. ويقول تاكلي: «يجب أن نشجع فتح المدارس على النمط الغربي العلماني؛ لأن كثيراً من المسلمين قد تزعزع اعتقادهم في الإسلام والقرآن حينما درسوا في المدارس الغربية وتعلموا اللغات الأجنبية».

---

(١) الآية ٨ من سورة الصف.

هذا التخطيط وُضع للأسف موضع التنفيذ ونتج عنه من تحولت عقولهم إلي عقول غربية يحملون أسماء إسلامية لكن كل أفكارهم وتصوراتهم هي أفكار وتصورات غربية، بل إن الصليبي **كاتلي** يقول: «يجب أن نستخدم القرآن وهو أخص سلاح الإسلام ضد الإسلام نفسه حتى نقضى عليه تماماً، يجب أن نبين للمسلمين أن الصحيح في القرآن ليس بجديد وأن الجديد ليس بصحيح».

ويقول **ابن جوريون**: «نحن لا نخشى الاشتراكيات ولا الثوريات ولا الديمقراطيات في المنطقة، نحن نخشى فقط الإسلام ذلك المارد الذي نام طويلاً وبدأ يتململ».

ولكي تزداد قناعة استمع إلي جلادستون يصعد مجلس العموم البريطانى ومعه نسخة من القرآن يلوح بها في وجه الأعضاء ويقول: «إنه ما دام هذا الكتاب باقياً في الأرض فلا أمل لنا في إخضاع المسلمين» فإذا بأحدهم يأخذ الكتاب منه ويمزقه فيقول له: «ليس هذا ما أردت، إنما أردت أن نفرغه من معانيه».

لقد بدأت حرب جديدة لا هوادة فيها، حرب فكرية تغزو عقول المسلمين وقلوبهم: غزو فكري وثقافي لأبعد الحدود مُمَكّن له في مدارسنا وبلادنا، كل هذا لكي يصيغوا العقل صياغة غير إسلامية، فإذا أصبح العقل غير إسلامي فإن تفكيره ونتاجه يصبح غير إسلامي؛ لذلك فقد ركزوا على هذا الأمر تركيزاً شديداً، وكان من نتيجة ذلك بُعد المسلمين عن الفهم الصحيح الشامل للإسلام كما أراده المولى سبحانه وتعالى في قوله: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[1].

فهذه آية واحدة من آيات الله بينت الشمول في الإسلام بما تضمنه من: العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات. إن المسلم الذي يفهم إسلامه فهماً سليماً لا يفرق

---

(١) الآية ١٧٧ من سورة البقرة.

بين نداء الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١) وهذه عبادة لله، وبين ندائه سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾(٢) وهذا تشريع من الله، والذي يأمر بالعبادة هو الذي يأمر بالتشريع، وعلى المسلم ألا يفرق بين أحد منها ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾(٣)، فإذا استطاع الفرد أن يحقق الإسلام في الصيام ألا يستطيع أن يحققه في القصاص وغيره من الأمور التي جاءت في كتاب الله: فَمَن يرد المظالم ومن ينشر العدل ومن يقيم الحدود على الأرض أليست هذه كلها من الإسلام؟ إن الإسلام هو دين الجماعة ولابد للجماعة من منهج وأمير أو حاكم يضع المنهج موضع التنفيذ.

بين دعوة البنا والدعوات الأخرى:

إن دعوة الإمام البنا التي تؤكد أن الإسلام دين ودولة ونظام مجتمع ومنهج حياة قد أحدثت تحولاً في الفكر الإسلامي في زمانه الذي برز فيه مفهوم الإسلام مجرداً من جانبه السياسي والاجتماعي وفرض مفهوم جزئي يقوم على العبادات والمظاهر الدينية المختلفة، وأن يكون المجتمع المسلم أشبه بالمجتمع الغربي في نظرته للدين.

لقد اختلف المسلمون في ذلك الوقت في معنى الإسلام اختلافاً عظيماً، فمن الناس من لا يرى الإسلام شيئاً غير حدود العبادة الظاهرة فإن أداها أو رأي أحداً يؤديها اطمئن إلي ذلك ورضي به وحسبه قد وصل إلي لب الإسلام وذلك هو المعنى الشائع عند عامة المسلمين.

ومن الناس من لا يرى الإسلام إلا الخلق الفاضل والروحانية الفياضة والغذاء الفلسفي الشهي للعقل والروح والبعد بهما عن أدران المادة الطاغية الظالمة، ولا مانع أن يستشهد بقول النبي ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»(٤)، علماً بأن الشريعة

---

(١) الآية ١٨١ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ١٧٨ من سورة البقرة.
(٣) من الآية ٥٤ من سورة الأعراف.
(٤) رواه البيهقي في السنن الكبرى، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول.

الإسلامية تنبع وتنبثق من عقيدة أساسها الخلق، بل كل معاملاتنا مبنية على الأخلاق؛ ولذلك يجب ألا نحصر معنى الأخلاق في الأخلاق الفردية التي يتحلى بها الأفراد من أمانة وصدق وإخلاص وغير ذلك من الصفات الكريمة فحسب بل تتعدى ذلك كله إلى جميع مناحي الحياة والسلوك الفردي والجماعي.

ومنهم من يقف إسلامه عند حد الإعجاب بهذه المعانى الحيوية العملية في الإسلام، فلا يتطلب النظر إلي غيرها ولا يعجبه التفكير في سواها.

ومنهم من يرى الإسلام نوعاً من العقائد الموروثة والأعمال التقليدية التي لا غناء فيها ولا تقدم معها، فهو متبرم بالإسلام وبكل ما يتصل بالإسلام، وتجد هذا المعنى واضحاً في نفوس كثير من الذين ثقفوا ثقافة أجنبية ولم تتح لهم فرص حسن الاتصال بالحقائق الإسلامية، فهم لم يعرفوا عن الإسلام شيئاً أصلاً أو عرفوه صورة مشوهة بمخالطة من لم يحسنوا تمثيله من المسلمين، وهؤلاء هم أصحاب المدرسة الغربية أو تلاميذها الذين ينادون بأن لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين وهم الذين قاموا بفصل الدين عن الدولة وعادوا الحركة الإسلامية سواء أكانوا يمثلون الحركة القومية أو الوطنية أو غيرها من التيارات التي كانت موجودة في زمان الإمام البنا وناوأت الحركة التي نادت بشمول الإسلام وعمومه لدرجة أنك كنت تسمع في هذه الفترة أن التمسك بالدين نوع من التعصب، وأن الاستمساك بالدين فيه تجاهل لغير المسلمين، وأن هذا الدين ناسب عصره، ونزل لفترة محددة من الزمان على قوم معهم رسول الله ﷺ والصحابة، وهو لا يناسب غير هذا العصر الذي نزل فيه.

ثم ركزوا على أن التدين من الأعمال الشخصية التي تتصل بالفرد، يقول: «إيمانى في قلبى»، «أنا بينى وبين ربنا عمار»، «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» ونسوا أن «ما لقيصر لله وما لله لله»، فكل أمر من الأمور الخاصة بالبشر يجبأن تكون لله.

هذه المفاهيم التي رآها الإمام البنا رضوان الله عليه وأرضاه في هذا الوقت والتي دعى إلى تصحيحها بعد أن انحصرت الخلافة الإسلامية في بلاد المسلمين وغاب الحكم الإسلامي وأصبح واقع المسلمين هكذا، وغزا أعداء الإسلام المسلمين بالشبهات والشهوات والدعاوى الباطلة، وإثارة ونشر المفاهيم المنحرفة البعيدة عن الإسلام

لخلق شخصية ممسوخة؛ ذلك لأن أعداء الإسلام يعلمون أن الشخصية الإسلامية لا تكتمل فهماً وتطبيقاً إلا ويتأكد الخطر الداهم الذي يهددهم أعداء الإسلام فعملوا على هدم هذه الشخصية وبذلوا كل الجهود حتى لا تكون واقعاً على الأرض؛ لأنها الشخصية الإسلامية الأخلاقية التي بناها رسول الله ﷺ أولاً فأقامت الإسلام في قلبها ثم بعد ذلك جعلته حقيقة على أرضها.

هذه هي الحال التي دعا فيها الإمام البنا بدعوته وصحح فيها هذه المفاهيم الخاطئة قائلا:

«نحن نعتقد أن أحكام الإسلام وتعاليمه شاملة تنتظم شئون الناس في الدنيا والآخرة، وأن الذين يظنون أن هذه التعاليم إنما تتناول الناحية العبادية أو الروحية دون غيرها مخطئون في هذا الظن، فالإسلام عقيدة وعبادة، ووطن وجنسية، ودين ودولة وروحانية وعمل ومصحف وسيف. والقرآن الكريم ينطق بهذا كله ويعتبره من لب الإسلام ومن صميمه ويوصي بالإحسان فيه وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[١]»[٢].

وإنك لتقرأ القرآن فتجد فيه:

في العقيدة والعبادة: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[٣].

وفي الحكم والسياسة: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[٤].

وفي التجارة والدَّيْن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلي أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ

---

(١) من الآية ٧٧ من سورة القصص.

(٢) مجموعة الرسائل، للشهيد حسن البنا، رسالة المؤتمر الخامس، ص١٥٣.

(٣) الآية ٥ من سورة البينة.

(٤) الآية ٦٥ من سورة النساء.

وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾[١]

وفي الجهاد والقتال والغزو: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾[٢].

دعوة الإخوان المسلمون:

وهكذا اتصل الإخوان المسلمون بكتاب الله واستلهموه واسترشدوه فأيقنوا بالفهم الشامل للإسلام الذي يجب أن يهيمن على كل شئون الحياة وأن تصطبغ جميعها به وأن تنزل على حكمه وأن تساير قواعده وتعاليمه وتستمد منه حياتها ما دامت الأمة تريد أن تكون مسلمة إسلاماً صحيحاً.

ولكي يتأصل هذا الفهم للاتباع وضع الإمام الشهيد أهدافاً محددة تصل بنا إلي الغاية المنشودة وهي:

١ - إصلاح النفس.

٢ - تكوين البيت المسلم.

٣ - إرشاد المجتمع.

٤ - دعوة الحكومة لتطبيق شرع الله بالوسائل الحكيمة وآداب الإسلام.

٥ - الدعوة إلي الوحدة الإسلامية.

والسبيل إلي ذلك:

أولاً - دعوة تضبطها الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هي أحسن لا إكراه فيها ولا عنف. شعارها [لا إكراه في الدين].

ثانياً - تربية إسلامية أساسها منهاج القرآن وسنة الرسول ﷺ، شعارها [اعرف ربك وأصلح نفسك وادع غيرك وأقم دولة الإسلام في قلبك].

---

(١) من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ١٠٢ من سورة النساء.

ثالثاً - من هذه اللبنات تنشأ الأسرة، فالجماعة، فالحكومة المسلمة كي يتحقق الغرض المنشود بإذن الله، شعارها «كونوا عبّادًا قبل أن تكونوا قوادًا تصل بكم العبادة إلى أحسن قيادة».

ثلاثة مناهج تحدد إطارًا للفهم السليم للإسلام:

ولقد وضع الإمام البنا مناهج ثلاثة تحدد إطاراً للفهم السليم للإسلام وهي:

منهج للعقيدة: لا إفراط فيه ولا تفريط حيث يُستقى من معين السلف الصالح ويبني رجالاً تُغرس في نفوسهم مشاعر ثلاثة:

١ - الشعور بعظمة هذه الرسالة.

٢ - الاعتزاز بالانتساب إليها.

٣ - الثقة في نصر الله.

منهج للعبادة: يقوم على صحة الاعتقاد وصدق الاتباع ويمتاز بالشمول والعموم والسمو والكمال والدوام ولا يفرق بين العقيدة والشريعة ولا الصلاة والجهاد: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ**... [1]﴾ وبذلك يتحقق الشمول.

وعموم يحقق قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**...﴾ [2].

وكمال يحقق قوله تعالى: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ [3].

ودوام يحقق قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [4]

منهج للحركة: يهتم بالداعي بصفاته الأخلاقية والسلوكية كالأمانة والصدق والإخلاص والرحمة والوعي والفقه فضلاً عن أركان البيعة...إلخ.

---

(١) الآيتان ١٦٢، ١٦٣ من سورة الأنعام.

(٢) من الآية ١٥٨ من سورة الأعراف.

(٣) من الآية ٣٨ من سورة الأنعام.

(٤) الآية ٨٥ من سورة آل عمران.

كما يهتم بالوسائل المشروعة والقواعد المنضبطة في الدعوة[١] والمراحل المتدرجة التي يجب أن يمر بها، وللعلم فإن هذا الذي دعا إليه الإمام الشهيد حسن البنا ليس إسلاماً جديداً بل جدد قديماً كاد الناس أن ينسوه وأكد على خصائص المنهج الإسلامي، فهو ليس تصوراً عقيدياً فحسب ولا ديناً عبادياً روحياً وكفى، ولا نظاماً اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً مجرداً ولكنه منهج حياة يجمع بين رقة التوجيه ودقة التشريع وإلى جلال العقيدة وجمال العبادة وإلى إمامة المحراب وقيادة الحرب.

«إنه منهج متكامل الجوانب شامل النظرة، فيه تنظيم علاقة الفرد بنفسه وعلاقته بأسرته وعلاقة مجتمعه به. وفيه بيان للأصول والقواعد التي تقوم عليها النظم والقوانين التي تحكم سير المجتمع والناس وفق نظرة الإسلام للكون والإنسان والحياة»[٢].

وما العجيب في هذا فصانع الشريعة هو الله، وتتمثل فيها قدرة الخالق وكماله وعظمته وإحاطته بما كان وما هو كائن، ومن ثم صاغها العليم الخبير بحيث تحيط بكل شيء في الحال والاستقبال حيث أحاط علمه بكل شيء وأمر جل شأنه أن لا تغير ولا تبدل حيث قال: ﴿**لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ**﴾[٣] لأنها ليست في حاجة للتغيير والتبديل مهما تغيرت الأوطان والأزمان وتطور الإنسان[٤]﴿**أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾[٥].

ونحن نطالع آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ الخاصة بقيام الدولة في الإسلام لا نلتقي بآية ولا بحديث يقول: « يا أيها الذين آمنوا أقيموا دولة الإسلام أو اتخذوا منكم إماماً وحاكماً يضع القرآن موضع التنفيذ في شئون الدنيا كلها» تماماً كما لا نلتقي بآية تقول أو بحديث يقول: «يا أيها الذين آمنوا تنشقوا

---

(١) لمزيد من التفصيل؛ ينظر كتاب الدعوة قواعد وأصول، للمؤلف.
(٢) الإسلام فكرة وحركة، فتحي يكن، ص١٧، بتصرف.
(٣) من الآية ٦٤ من سورة يونس.
(٤) التشريع الجنائي في الإسلام، للشهيد عبد القادر عودة، ١/ ١٨.
(٥) الآية ١٤ من سورة الملك.

الهواء...!! ذلك أن القضية من البداهة بحيث لا تتطلب أمراً بها ودعوة إليها وإنما جاء الإسلام أكمل وأسمى من أن يعرض لجزئيات في هذه الحياة وخصوصاً في الأمور الدنيوية البحتة فهو يضع القواعد الكلية في كل شأن من هذه الشئون ويرشد الناس للطريقة العملية للتطبيق عليها والسير في حدودها. ويتجه القرآن وتتجه الأحاديث النبوية مباشرة إلي الحديث عن شكل هذه الدولة ومقاييسها وأخلاقياتها وعن المسئوليات المتبادلة بينها وبين الأمة. وهذا ما أدركه صحابة الرسول ﷺ بفطرتهم وذكائهم، فهذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه بمجرد وفاة الرسول ﷺ حدث أمر خطير في سقيفة بني ساعدة[١] فإذا بأبي بكر يجمع المسلمين ويقول: «أيها المسلمون لابد لهذا الأمر من قائم يقوم عليه»، قالوا: صدقت يا أبا بكر فلابد أن يكون هناك أمير يقود المسلمين ولذلك وجدنا سيدنا عثمان ﷺ هو يقول: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»[٢]، أما سيدنا على ﷺ فقد قال: «لابد للناس من إمارة بارة أو فاجرة، قيل يا أمير المؤمنين هذه البارة قد عرفناها، فما بال الفاجرة؟ قال تقام بها الحدود وتؤمن بها السبل ويجاهد بها العدو ويقسم بها الفيء»[٣].

فلابد أن يكون هناك نظام يحكم المسلمين وينظم حياتهم مما يؤكد وجوب وجود الجماعة وأميرها. وما أكثر أحاديث الرسول ﷺ في هذا المعنى، والتحذير عن البعد عنها، يقول الإمام الماوردي: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»، ويقول ﷺ: «**يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إلي النَّارِ**»[٤]. ويقول: «**عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ**»[٥]. ويقول عنها ابن مسعود: «حبل الله المتين الذي أمر به وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الخلاف والفرقة»[٦] ويقول علي ﷺ:

---

(١) انظر صحيح البخاري، باب قول النبي لو كنت متخذا خليلا.

(٢) رواه ابن الأثير في جامع الأصول، تحقيق عبد القادر الأرنئوط ٤/ ٨٤، ٨٣، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٤/ ١٠٧.

(٣) نقلا عن كتاب الدولة في الإسلام، خالد محمد خالد، ص ٣٨.

(٤) رواه الترمذي، وقال: حديث غريب من هذا الوجه.

(٥) رواه أحمد، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٦) تفسير الطبري ٤/ ٣٢ بتصرف.

«كدر الجماعة ولا صفاء الفرد»[1] فإذا قلنا إن الإسلام عقيدة وشريعة فإننا نؤكد على أن الشريعة تنبثق من هذه العقيدة، عقيدة التوحيد التي نحملها بين جنبينا، فإذا صلحت العقيدة وصحت صح السلوك وصح التصرف ولن يقبل المولى الشريعة إلا إذا صحت العقيدة.

ويقول الإمام البنا: «كونوا عُبَّاداً قبل أن تكونوا قوادًا تصل بكم العبادة إلي أحسن قيادة»، ففي البداية ينبغي تصحيح العقيدة؛ لأن صحة العقيدة أمر مهم، يقول ابن القيم: «إن لـ «لا إله إلا الله» قلبا وقالبا، وقال: إن قالبها علمها، ولكن قلبها أثرها»، ولذلك اهتم الرسول ﷺ ببناء الرجال الذين يقام بهم البناء؛ لأن قوة المسلمين في عقيدتهم التي لا تفرق بين أبيض وأسود، وعجمي وعربي، ورئيس ومرءوس، بل تسوي بين الجميع إلا بالتقوى فهي ميزان التفاضل بين الناس: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2] لقد جاءت العقيدة ووحدت المشاعر ثم جاءت الشعائر بعدها وعمقت العلاقة بين العبد وربه وأصبح أصحاب العقيدة الواحدة يعبدون رباً واحدًا ويتجهون لقبلة واحدة، ويتلقون بل ويتعلمون من رسول واحد، ويقرءون كتاباً واحدًا، ثم جاءت أخيراً الشرائع بعدما تحققت وحدة المشاعر، وهكذا نزل القرآن بهذا الترتيب وجاءت قضية البناء في الشرائع متأخرة؛ لأن أمرها سهل إذا حققنا كمال العقيدة ثم تابعنا الرسول ﷺ فيما أمر ونهى فما أسهل البناء بعد ذلك وما أمتنه؛ لأنه أسس على التقوى من أول يوم.

أثر العقيدة:

إن نظرة واحدة لهؤلاء الذين عاشوا في الجاهلية، ما الذي حدث لهم وجعل منهم رجالاً يقول الواحد منهم: «إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلي عبادة الله، ومن جور الأديان إلي عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلي سعة الدنيا والآخرة»، نحن نريد رجالاً حراساً على العقيدة يقولون للحاكم: « والله لا سمع ولا

---

(١) البيان والتبيين، للجاحظ ١/ ١٤٢، وفيه: «الفرقة» بدلا من «الفرد».

(٢) من الآية ١٣ من سورة الحجرات.

طاعة حتى تخبرنا من أين أتيت بهذا الثوب»[1] ويقولون له: « اتق الله يا عمر»، فلم يغضب بل يقول: «لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها»[2] هذه الأمور أساسها اعتقاد وإيمان سرى في العروق كما حدث مع سحرة فرعون الذين كانوا يبحثون عن المال والأجر قبل أن تسري العقيدة في كيانهم يقولون له: ﴿إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾[3] ما بال هؤلاء القوم الذين حين سرت العقيدة في عروقهم وشرح الإيمان صدورهم وقال لهم الفرعون: ﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾[4] قالوا: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[5]. إذن وحدة المشاعر سابقة على وحدة الشرائع والتي نحققها متدرجة على أرض الواقع.

إن توحيد الله بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ليس أمر عقيدة تستقر في النفوس فحسب دون السعي في بناء المجتمع وإلا لبقي النبي ﷺ في مكة لا يغادرها، لأن الإسلام ليس عقيدة توحيد تعمل عملها في نفس الإنسان فحسب ولكن لابد أن يتعدى العمل في النفس إلي العمل في المجتمع؛ ولذلك هاجر ﷺ إلى المدينة لأن الإسلام يحتاج إلي مجتمع ولهذا سعى ﷺ إليه لكي يبنيه ويقيمه في التربية الصالحة.

إن المسلم لابد أن يكون صالحاً في ذاته مصلحاً لغيره يسعى لإقامة دين الله على الأرض، ولن يكون الأمر كذلك إلا بعد أن تصاغ العقول الصياغة الإسلامية بحيث تبنى على أمرين:

الأمر الأول: إن الإسلام ليس عقيدة تستقر في القلب فحسب ولا شعائر يؤديها وينتهي الأمر:

ولكنه منهج حياة يقام به دين الله على الأرض ولكي نقيم الإسلام بشموله

---

(١) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لابن الجوزي، ص١٣٩.
(٢) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لابن الجوزي، ص١٤٤.
(٣) من الآية ١١٣ من سورة الأعراف.
(٤) من الآية ٧١ من سورة طه.
(٥) الآيتان ٧٢، ٧٣ من سورة طه.

وعمومه لابد أن يسبق هذا الأمر خطوات نحقق بها يقظة روحية إيمانية. فنوقظ قلب الأمة وعقلها أولاً وقبل كل شيء. يقول الإمام البنا في هذا المعنى: «نحن لا نسعى للحكم ولكن الحكم هو الذي يسعى إلينا». ولن يسعى الحكم إلينا إلا بعد يقظة إيمانية وحب لدين الله، يومها يطالب الناس بالإسلام ولا يُفرض عليهم والأمة على هذا الحال.

الأمر الثاني: تربية الفرد المسلم تربية إسلامية بمفهومها الشامل:

نربي الفرد تربية إسلامية أساسها إيمان بالله وتوحيد يملأ القلب وثبات على الطريق ووثوق في نصر الله، لا يخشى في الله لومة لائم ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ**﴾[1]، فرد يُربى تربية إسلامية متأنية تصنع ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾[2] هذا الفرد المسلم هو نفسه الذي يُكوِّن الأسرة المسلمة التي تقيم حدود الله: «**فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ**»[3]. و «**إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ**»[4]. فهذه الخطوات مقصودة لذاتها لا يمكن أبداً بأي حال من الأحوال أن يتجاوزها أي فرد مسلم، لأننا نريد بهذه التربية أهدافاً محددة، أهمها:

أولاً – أن الهدف من تطبيق أحكام الإسلام هو إيجاد واقع عملي إسلامي ملموس:

يراه الناس كي يزدادوا إيمانًا بما ندعو إليه وأن ما نرفعه من شعار «**الإسلام هو الحل**» حقيقة واقعة تتمثل في سلوك الأخ أو الأخت كنموذج للإسلام حركة وسلوكاً وحديثاً وعلاقة، نريد هذا النموذج سواءً نموذج الفرد أو نموذج الجماعة التي تقدم الحلول لأصحاب المشاكل.

---

(١) من الآية ٣٦ من سورة الزمر.
(٢) الآية ٢٣ من سورة الأحزاب.
(٣) رواه البخاري ومسلم.
(٤) رواه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حديث حسن غريب. وحسنه الألباني.

ثانياً – إن العمل لتحقيق هذه الأهداف يجب أن يقوم على أساس التخطيط المرحلي:

فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهراً أبقى، والمنبت هو الذي يضرب الدابة كي تقطع الطريق بسرعة، يظل يضربها حتى يهلكها فيضيع منه الدابة بحماقته ولن يقطع الطريق وبالتالي فلن يصل إلي الهدف المنشود، كذلك لابد أن يكون للإنسان المسلم عقلية تخطيطية ذات أهداف ومراحل. كل هدف يوصل إلي الآخر حتى نصل إلي الغاية المنشودة وكل مرحلة من المراحل يكون لها أهداف وهكذا.

ثالثاً – إن العمل لتحقيق هذه الأهداف لابد أن يقوم على أساس العمل الجماعي:

لأن العمل الفردي لا يستطيع أن يحقق هذه الأهداف، بل لابد من طليعة تتحلى بصفات أخلاقية وتحمل هذه المعاني الإيجابية.

يقول الأستاذ عمر التلمساني (رحمه الله): إن الأستاذ المرشد حسن البنا (رحمه الله) سأله يوماً: «هل تقرأ القرآن؟» فأجاب: نعم، ثم قال: « وأخرجت من جيبي مصحفاً لأؤكد له ما أقول»، فسألني: «ولماذا تحتفظ به في جيبك؟» فقلت: «إنه خير وبركة»، فما كنت أعرف أن القرآن كتاب رسالة ومنهج ولكنى كنت أقول ما أفهمه من حمله وأنه بركة توضع على الرأس إكباراً أو في الجيب حراسة أو في المأتم رحمة، فقال المرشد: ما لهذا نزل القرآن يا عمر، لقد نزل تشريعاً يربط بين الدنيا والآخرة، لقد نزل لنعمل به في سبيل الله وخير المسلمين، لا لكي تضعه في جيبك أو لكي تقرأه لوحدك فحسب، وعندما تتمعن في قراءة القرآن وإدراك معانيه فسوف تجد أن القراءة لمجرد القراءة لا يفيد المسلمين، فأنت عبد من عباد الله تقرأ القرآن تقرباً لله وهذا صحيح، وإنما هذا أمر لا يكفي فالمسألة ليست مسألة بركة فحسب وإنما العمل بتعاليم القرآن، فهل يرضى الإسلام أن يكون المسلم ذليلاً؟ هل يرضى أن يكون في مؤخرة العالم كله؟ هل يرضى أن يكون حملة كتاب الله على هذه الصورة من التبعية؟ إنه القرآن الذي جاء لكي يعز الذليل ويُمكّن للضعيف وأن ينشر رحمته ونوره في العالم.

يقول الإمام البنا: «إن الله قد بعث لكم إماماً، ووضع لكم نظاماً، وفصّل أحكاماً، وأنزل كتابا، وأحل حلالاً، وحرم حراماً، وأرشدكم إلي ما فيه خيركم

وسعادتكم، وهداكم سواء السبيل، فهل اتبعتم إمامه، واحترمتم نظامه، وأنفذتم أحكامه، وقدستم كتابه، وأحللتم حلاله، وحرمتم حرامه؟ كونوا صرحاء في الجواب، وستجدون الحقيقة، سترون الحقيقة واضحة أمامكم. كل النظم التي تسيرون عليها في شئونكم الحيوية نظم تقليدية بحتة لا تتصل بالإسلام من قريب ولا بعيد، ولا تستمد منه ولا تعتمد عليه؛ نظام الحكم الداخلي، نظام العلاقات الدولية، نظام القضاء، نظام الدفاع والجندية، نظام المال والاقتصاد للدولة والأفراد، نظام الثقافة والتعليم، نظام الأسرة والبيت، بل نظام الفرد في سلوكه الخاص، وروحه العام الذي يهيمن على الحاكمين والمحكومين، ويشكل مظاهر الحياة على اختلافها، كل ذلك بعيد عن الإسلام وتعاليم الإسلام»[1] ...«إننا نناديكم والقرآن في يميننا، والسُّنة في شمالنا، وعمل السلف الصالح من أبناء هذه الأمة قدوتنا، ندعوكم إلي الإسلام وتعاليم الإسلام وأحكام الإسلام وهدي الإسلام، فإن كان هذا من السياسة عندكم فهذه سياستنا..وإن شئتم أن تسموا ذلك سياسة فقولوا ما شئتم، فلن تصرفنا الأسماء متى صحت المسميات وانكشفت الغايات»[2].

إنه دستور نزل على رسول الله ﷺ تبياناً لكل شيء، وصدق الله حين قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾[3].

القرآن دستورنا:

دستور لا يزاحم ولا ينافس ولا يضاهي به سواه وليس أمام الدولة المسلمة أي خيار في أن تأخذ بعضه وتذر بعضه وإن فعلت صمها تأنيب الله وهو يقول: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[4]

فكل ما تحتاجه الحياة ويحتاجه الناس من توجيهات ونظم وقوانين وآداب موجود

---

(١) مجموعة الرسائل، للشهيد حسن البنا، رسالة الإخوان تحت راية القرآن، ص٩٦، ٩٧.
(٢) مجموعة الرسائل، للشهيد حسن البنا، رسالة إلي أي شيء ندعو الناس، ص٣٥، بتصرف يسير.
(٣) من الآية ٥١ من سورة العنكبوت.
(٤) من الآية ٨٥ من سورة البقرة.

في إسلامنا وفي قرآننا العظيم، وليس ثمة ما يدعو إلي هجر القرآن ولا هجر الإسلام اللذين ارتضاهما الله لنا كتاباً وديناً.

وصدق رسول الله ﷺ فيما رواه الحارث، عن علي رضي الله عنه، قال: سمعت رسول ﷺ يقول: «سَتَكُونُ فِتَنٌ»، قلت: وما المخرج منها؟ قال: «كِتَابُ اللَّهِ فيه نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ هُوَ الَّذِي مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ فَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ وَهُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلَا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ أَنْ قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا هُوَ الَّذِي مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلي صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[1]. إنه كتاب الله الذي يمتاز بالشمول والعموم والدوام والكمال والسمو في الدعوة والداعي على حد سواء.

***

(١) رواه الترمذي والدارمي، وقال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وضعفه الألباني.

مردود الأصل الأول

أولاً - حصيلة العقل:

أ – اختر الإجابة الصحيحة (من الممكن أن تكون أكثر من إجابة صحيحة):

١ – يتناول هذا الأصل الموضوعات التالية:

أ	مصادر أدلة الأحكام	ب	شمولية الإسلام
جـ	عمومية الرسالة	د	جميع ما سبق

٢ – كانت النظرة السائدة للإسلام خلال القرن السابق قبل بداية دعوة الإمام البنا أنه:

أ	روحانيات فياضة	ب	نظام شامل للحياة
جـ	عقائد وتقاليد موروثة	د	عبادات ظاهرة

٣ – من المفاهيم التي سادت خلال القرن السابق قبل دعوة الإمام البنا أن:

أ	التمسك بالإسلام تعصب	ب	التدين عمل قلبي بحت
ج	الإسلام عقيدة وشريعة وخلق	د	جميع ما سبق

٤ – المناهج الثلاث التي وضعها الإمام البنا كإطار للفهم السليم للإسلام هي:

أ	منهج للعلوم الشرعية	ب	منهج للعبادة
ج	منهج للعقيدة	د	منهج للحركة

٥ – من مظاهر شمول الإسلام أنه وضع:

أ	تفاصيل دقيقة لكل أمور الحياة	ب	قواعد كلية تحكم شئون الحياة
ج	منهج يحيى به الناس	د	جميع ما سبق

ب – ضع (أ) أمام العبارة الصحيحة و (ب) أمام العبارة الخطأ فيما يلي:

٦	يوجد أدلة عامة وأخرى تفصيلية على شمولية الإسلام.	
٧	من يرى الإسلام عقيدة وخلقًا أفضل ممن يراه عقيدة وعبادة.	
٨	يحصر الفكر العلماني الإسلام في دائرة الأخلاق الفاضلة.	
٩	من آثار الفهم الشامل للإسلام أن يهيمن على كل سلوكيات الإنسان.	
١٠	العمل الجماعي ضروري لجعل شمولية الإسلام أمراً واقعياً.	

قارن إجاباتك بالإجابات النموذجية في آخر مردود الأصل، وأعطِ نفسك درجة لكل إجابة صحيحة وصفرًا للإجابة الخاطئة.

أكثر من ١٥	١٣ – ١٥	١١ – ١٢	٩ – ١٠	أقل من ٩
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثانيًا: رصيد القلب:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائماً	غالباً	أحياناً	نادراً	أبداً
١	لا أشك لحظة في أن الإسلام منهج شامل للحياة.					
٢	يزداد يقيني بشمولية الإسلام عندما أتلو آيات القرآن.					
٣	أحزن لحجب القرآن عن إدارة حياة المسلمين.					
٤	أعتقد أن أي عمل - وافق الشرع - يثاب عليه المرء ما أخلص نيته لله.					
٥	أومن أنه لا فلاح للأمة إلا بالعودة للإسلام الشامل.					
٦	يؤلمني أن يطبق من الإسلام بعضه ويترك بعضه.					

دائما=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ٢٠	١٨ - ٢٠	١٥ - ١٧	١٢ - ١٤	أقل من ١٢
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثالثًا: حساب الجوارح:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائماً	غالباً	أحياناً	نادراً	أبداً
١	أحرص على الالتزام بتعاليم الإسلام في أنشطتي الحياتية.					
٢	ألفت انتباه من حولي إلي شمولية الإسلام.					
٣	لا أدخر جهدًا في بناء مجتمع يضبط الإسلام كل شئونه.					
٤	أجتهد في إخلاص نيتي لله قبل أي عمل أقوم به.					

دائما=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٣	١٢ - ١٣	١٠ - ١١	٨ - ٩	أقل من ٨
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

إجابات حصيلة العقل (١)

السؤال	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
أ		✓	✓			✓			✓	✓
ب	✓		✓	✓	✓		✓	✓		
ج	✓	✓		✓	✓					
د		✓		✓						

الأصل الثاني

مصدر التلقي

«والقرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم في تعرّف أحكام الإسلام، ويُفهم القرآن طبقاً لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف، ويرجع في فهم السنة المطهرة إلي رجال الحديث الثقات»[1].

---

(١) مجموعة الرسائل، للشهيد حسن البنا، رسالة التعاليم، ص ٢٦٨.

هذا الأصل يعالج:

١ - المصدر الأول القرآن الكريم.

٢ - المصدر الثاني السنة النبوية وما يتعلق بها.

حين نقول: إن الإسلام دين ودولة، كان لابد أن يكون لهذا الكلام مصدره الذي يوثقه، ويؤيده وكل كلام في دين الله ليس له مصدره الصحيح من كتاب أو سنة هو كلام أبتر لا يعتد به.

ولذلك كان الأصل الثاني هو الأصل الذي يحدد مصدر التلقي؛ «لأن القرآن والسنة هما أساس الشريعة وهما اللذان جاءا بنصوص الشريعة المقررة للأحكام الكلية أما باقي المصادر فهي لا تأتي بأسس شرعية جديدة فلا تقرر جديدًا ولا تقرر زيادة وإنما هي طرق للاستدلال على الأحكام الفرعية من نصوص القرآن والسنة ولا يمكن أن تأتي بما يخالف القرآن والسنة؛ لأنها تستمد منهما وتستند إلى نصوصهما»[١].

المصدر الأول- القرآن:

القرآن هو المصدر الأول؛ لأنه كلام الله المعجز ووحيه المنزل على نبيه محمد ﷺ المكتوب في المصاحف والمنقول عنه بالتواتر والمتعبد بتلاوته.

ولا خلاف بين المسلمين في أن القرآن من عند الله وأنه سبحانه وتعالى تجب له الطاعة، فالقرآن حجة على كل مسلم ومسلمة وأحكامه واجبة الاتباع أياً كان نوعها.

وأحكام القرآن على نوعين:

أولاً- أحكام يراد بها إقامة الدين، وهذه تشمل أحكام العقائد والعبادات.

ثانيًا- وأحكام يراد بها تنظيم الدولة والجماعة وتنظيم علاقات الأفراد بعضها ببعض، وهذه تشمل أحكام المعاملات والعقوبات والأحوال الشخصية والدستورية والدولية...إلخ.

---

(١) التشريع الجنائي في الإسلام، للشهيد عبد القادر عودة ١/ ١٦٥.

ولقد نزلت هذه الأحكام بقصد إسعاد الناس في الدنيا والآخرة، ومن يتتبع آيات الأحكام يجد كلاً منها يترتب عليه جزاءان: جزاء دنيوي وجزاء أخروي.

ولم تشرع آيات الأحكام للدنيا والآخرة عبثاً وإنما اقتضى ذلك منطق الشريعة، فهي في أصلها تعتبر أن الدنيا دار ابتلاء وفناء وأن الآخرة دار بقاء وجزاء وأن الإنسان مسئول عن أعماله في الدنيا ومجزى عنها في الآخرة، فإن فعل خيراً فلنفسه وإن أساء فعليها، والجزاء الدنيوي لا يمنع من الجزاء الأخروي إلا إذا تاب الإنسان وأناب.

أحكام القرآن وحدة واحدة:

وأحكام القرآن لا تتجزأ ولا تقبل الانفصال؛ لأن النصوص الشرعية تمنع من العمل ببعضها وإهمال البعض الآخر كما تمنع من الإيمان ببعضها والكفر ببعض وتوجب العمل بكل أحكامها والإيمان بكل ما جاءت به **﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾**[١].

«وتمتاز الشريعة الإسلامية عن الشرائع الوضعية بميزات عظيمة هي أن أحكامها شرعت للدنيا والآخرة - كما قلنا - وهذا هو السبب الوحيد الذي يحمل معتنقيها على طاعتها في السر والعلن والسراء والضراء؛ لأنهم يؤمنون بأن الطاعة لله نوع من العبادة تقربهم إليه وأنهم يثابون على هذه الطاعة، ومن استطاع منهم أن يرتكب جريمة ويتفادى العقاب الدنيوي فإنه لا يرتكبها مخافة العقاب الأخروي وغضب الله عليه»[٢].

ولذلك فهي تلزم معتنقيها أن يتخلقوا بالأخلاق الفاضلة ومن تخلق بالأخلاق الفاضلة ندر أن يرتكب جريمة، وهم بعد ذلك يعلمون أن الله رقيب مطلع على أعمالهم وأنهم مهما استخفوا من الناس فلن يستخفوا من الله وهو معهم أينما كانوا،

---

(١) من الآية ٨٥ من سورة البقرة.

(٢) التشريع الجنائي في الإسلام، للشهيد عبد القادر عودة ١/ ١٧١.

وبذلك تقل الجرائم ويحفظ الأمن وتصان الجماعة ومصالحها العامة بعكس الحال في القوانين الوضعية، فإنها ليس في نفوس من تطبق عليهم ما يحملهم على طاعتها، ومن استطاع أن يرتكب جريمة ما وهو آمن من سطوة القانون فليس ثمة ما يمنعه من ارتكابها من خلق ودين؛ ولذلك تزداد الجرائم زيادة مطردة في البلاد التي تطبق القوانين الوضعية حيث تضعف الأخلاق ويكثر المجرمون من الطبقات المستنيرة تبعاً لزيادة الفساد الخلقي في هذه الطبقة ولقدرة أفرادها على التهرب من سلطان القانون.

ولأنها من عند الله فإنها أصلح نظام وأكمله وأعدله وأشمله، لا نقول تَصلح لكل زمان ومكان ولكننا نقول: تُصلح الزمان والمكان للشمول الذي تمتاز به من حيث نظرتها للإنسان ونظرتها للكون ونظرتها للحياة.

فالعقيدة تنطلق منها وحدة المشاعر، والعبادات تمثل وحدة الشعائر، والنظام يمثل وحدة الشرائع، «ومزج الشريعة بين أحكام الدنيا والدين وإيمان المسلمين بها ضمن للشريعة الاستمرار والثبات، وبث في المحكومين روح الطاعة والرضاء ودعاهم إلي التخلق بالأخلاق الكريمة وجعل الشريعة قوة في الردع ليست لأي قانون وضعي آخر مهما أحكم وضعه وأحسن تطبيقه وتنفيذه»[١].

ما اشتمل عليه القرآن:

واشتمل القرآن الكريم على أصول الشريعة وقواعدها وفي الحلال والحرام وجاءت أكثر أحكامه مجملة تشير إلي مقاصد الشريعة وتضيء للأئمة والمجتهدين المصباح الذي يستنبطون في ضوئه أحكام جزئيات الحوادث في كل زمان ومكان، وهذا سر خلود الشريعة وشمول قواعدها الكلية ومقاصدها العامة لما يحدث في الناس من أقضيات.

«وإنما فصل القرآن ما لابد فيه من التفصيل الذي يجب أن يسمو عن مواطن الخلاف والجدل كما في العقائد وأصول العبادات، أو لأنه يبنى على أسباب لا تختلف ولا تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة، وذلك كما في تشريع المواريث ومحرمات

---

(١) التشريع الجنائي في الإسلام، للشهيد عبد القادر عودة ١/ ١٧٣، بتصرف.

النكاح وعقوبة بعض الجرائم»[١].

وللقرآن علوم منها المكي والمدني، والعام والخاص، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والمجمل والمشكل وأسباب النزول وغيرها من العلوم التي عرفت عند العلماء بعلوم القرآن.

علوم يحتاجها المفسر:

ولذلك كان لابد للمفسر لآيات القرآن من علوم يحتاج إليها، من أهمها:

١ - اللغة والاشتقاق؛ ذلك لأن بعض الفرق الإسلامية المنحرفة حرفت بعض آيات القرآن وأولتها تأويلاً بعيداً عن معاني اللغة وضوابطها كأصحاب التأويلات الباطنية والرمزية وغيرهما، وصدق عمر بن الخطاب ﷺ حين قال: «عليكم ديوانكم لا تضلوا»[٢] ويقول مجاهد: «لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب»[٣].

٢ - النحو والصرف.

٣ - الأدب وعلوم البلاغة.

٤ - علوم القرآن.

٥ - علم أصول الدين والتوحيد.

٦ - أصول الفقه.

٧ - الحديث النبوي والفقه والسيرة.

٨ - علوم أخرى كالعلوم الاجتماعية والتاريخ والجغرافيا..إلخ

وقد وضع الإمام السيوطي في كتابه: «الإتقان في علوم القرآن» ثلاثة عشر علماً منها ما سبق يجب أن يحيط بها من يتكلم في التفسير، وبعد أن عدَّدها قال: وعلم

---

(١) التشريع والفقه في الإسلام تاريخا ومنهجا، للشيخ مناع القطان، ص٤٨.
(٢) ذكره القرطبي في تفسيره ١٠/ ١١١بمعناه.
(٣) الإتقان في علوم القرآن ١/ ١١٣.

الموهبة، فقيل له: وما علم الموهبة؟ قال: «نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده»[١].

ولهذا فإن الصحابة أنفسهم كانوا يتفاوتون في فهم القرآن تبعاً لمواهبهم وتمكنهم من لغتهم وآدابهم فضلاً عن معرفة أسباب النزول.

فهذا ابن عباس ترجمان القرآن يقول: «كنت لا أدري ما فاطر السماوات حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها. يقول: أنا ابتدأتها»[٢].

وها هو ذا أبو بكر - وفي رواية عمر رضي الله عنهما - لا يعرف معنى «وأبًا» في قول تعالى: ﴿وفَاكِهَةً وأَباً﴾[٣] فيقول: «أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن قلت في القرآن برأيي»[٤].

والذي نريد أن نشير إليه إشارة سريعة أن قوماً اكتفوا بالقرآن وأنكروا السنة، يقول عنهم الإمام الشاطبي:

«إن الاقتصار على الكتاب رأي قوم لا خلاق لهم خارجين عن السنة، إذ عولوا ما بنيت عليه من أن الكتاب فيه تبيان كل شيء فطرحوا أحكام السنة فأداهم ذلك إلي الانخلاع عن الجماعة وتأويل القرآن على غير ما أنزل الله»[٥].

وعلى هذا فإن القرآن هو أساس الدين ومصدر التشريع وحجة الله البالغة في كل عصر ومصر، بلّغه رسول الله لأمته لأمر ربه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[٦] وأمرهم باتباعه: ﴿اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ١/ ١١٣ بتصرف.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، وذكره الطبري في تفسيره ٧/ ١٥٩، والقرطبي في تفسيره ١/ ٤٤، وابن كثير في تفسيره ٣/ ٥٤٣.

(٣) الآية ٣١ من سورة عبس.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، والبيهقي في شعب الإيمان، والقرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٢٣، وابن كثير في تفسيره ٤/ ٤٧٤.

(٥) الموافقات، للإمام الشاطبي ٤/ ١٢٠.

(٦) الآية ٦٧ من سورة المائدة.

قَلِيلاً مَّا تَـذَكَّرُونَ﴾[1] فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، وعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، واعتبروا بأمثاله، وعلموا أن الرسول ﷺ أوتي القرآن ومثله معه وهو المصدر الثاني للتشريع.

المصدر الثاني - السنة:

التشريع إما أن يكون وحياً إلهياً بالمعنى واللفظ، وذلك يتمثل في القرآن الكريم الذي أنزله الله على رسولنا ﷺ. وإما أن يكون إلهيا بالمعنى دون اللفظ، وذلك يتمثل في سنة الرسول ﷺ، فإن اللفظ لفظ الحديث من كلامه وإن كان معناه وحياً لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾[2]، والله سبحانه وتعالى هو المشرع ورسوله ﷺ هو المبين لشرعه ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ...﴾[3] وأوجب الله ﷻ طاعة الرسول ﷺ لأنها من طاعته: (مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ..﴾[4]، وجعل حكمه عن إلهام منه ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾[5]، فلا شرع إلا ما شرَّع الله وإلا ما شرَّع رسوله ﷺ، «ولهذا كان للتشريع الإسلامي مصدران أساسيان هما: الكتاب والسنة وبانتهاء حياة الرسول ﷺ انتهي عهد التشريع»[6].

والسنة هي ما أثر عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير مع اختلاف في هذا التعريف بين العلماء وهي على ثلاثة أنواع:

السنة القولية: وهي أحاديث الرسول ﷺ التي قالها في مختلف المناسبات مثل قوله: «**لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلا بِإِحْدَى ثَلاثٍ الثَّيِّبُ الزَّانِي وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**»[7].وقوله ﷺ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ**»[8].

---

(١) الآية ٣ من سورة الأعراف.

(٢) الآيتان ٣، ٤ من سورة النجم.

(٣) من الآية ٤٤ من سورة النحل.

(٤) من الآية ٨٠ من سورة النساء.

(٥) من الآية ١٠٥ من سورة النساء.

(٦) التشريع والفقه في الإسلام تاريخا ومنهجا، للشيخ مناع القطان، ص٢٨.

(٧) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي والدارمي.

(٨) رواه مسلم وأحمد والدارمي.

السنة الفعلية: وهي أفعاله ﷺ سواء أكان في الصلوات أو كان في الأفعال مثل قضائه بالعقوبة في الزنا بعد الإقرار وقطعه اليد اليمنى في السرقة وقضائه بشاهد واحد ويمين المدعي.

السنة التقريرية: وهي ما صدر عن بعض أصحابه ﷺ من أقوال أو أفعال أقرها الرسول ﷺ بسكوته وعدم إنكاره أو بموافقته وإظهار استحسانه، فيعتبر عمل الصحابي أو قوله بعد أن أقره الرسول ﷺ كأنه صادر من الرسول ﷺ نفسه ومثل ذلك أن النبي ﷺ لما بعث معاذًا إلي اليمن سأله: «**كَيْفَ تَقْضِي**»؟ قال: بكتاب الله، قال: «**فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللَّهِ**»، قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: «**فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ**»، قال أجتهد رأي، فأقره الرسول ﷺ على ذلك حيث قال: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ**»(١). أو كما حدث مع الصحابة الذين ذهبوا إلي بني قريظة حيث صلى بعضهم العصر قبل وصوله، وصلى بعضهم بعد الوصول، فأقر هؤلاء وأقر هؤلاء(٢)، فهذه تسمى سنة تقريرية، يقرها رسول الله ﷺ، ولذلك فإن السنة هي المصدر الثانى بعد القرآن، وتلي القرآن في المرتبة.

أحكام السنة:

وأحكام السنة من الناحية التشريعية لا تعدو أن تكون واحدة من ثلاثة:

١ - إما أن تكون سنة تقرر وتؤكد حكماً جاء به القرآن فيكون الحكم مرجعه القرآن والسنة معاً كتحريم القتل بغير حق وشهادة الزور والسرقة ومثل تحريم القتل، يقول ربنا ﷻ في كتابه الكريم: ﴿**وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾(٣) ويقول الرسول ﷺ: «**لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلا بِإِحْدَى ثَلاثٍ الثَّيِّبُ الزَّانِي وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**»(٤). فهنا جاءت السنة ومن قبل جاء القرآن بهذا التحريم وغيره من الأمور التي جاء بها القرآن والسنة معاً.

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والدارمي.

(٢) الحديث المشار إليه(الصلاة في بني قريظة) رواه البخاري ومسلم.

(٣) من الآية ٣٣ من سورة الإسراء.

(٤) تقدم تخريجه.

٢ - وإما أن تكون سنة مفصلة مفسرة حكماً جاء به القرآن مجملاً أو مقيداً ما جاء في القرآن مطلقاً، أو مخصصة لما جاءت به السنة لأن الله ﷻ جعل لرسوله ﷺ حق البيان لنصوص القرآن ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**...﴾[(١)]، فالسنة هي التي فصلت الصلاة قال تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ**﴾[(٢)]، لكن جاء الرسول ﷺ وقال: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»[(٣)].فمنه أخذنا الصبح اثنين والظهر أربعًا ...وهكذا الحج «**لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ فَإِنِّي لا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ**»[(٤)]، والزكاة لأن القرآن يأمر بها ولم يبين لا كيفية الصلاة ولا مقادير الزكاة ولا مناسك الحج فجاءت السنة وبينت ذلك:

ونصوص القرآن أحلت البيع وحرمت الربا والسنة هي التي بينت البيوع، ونصوص القرآن حرمت الميتة والدم والسنة قيدت هذا الإطلاق.

٣ - وإما أن تكون سنة مثبتة حكماً سكت عنه القرآن فيكون الحكم أساسه السنة وليس له دليل من القرآن كقول الرسول ﷺ: «**لا تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا**»[(٥)]، وكقوله في تحريم الذهب: «**الْحَرِيرُ وَالذَّهَبُ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي وَحِلٌّ لإِنَاثِهِمْ**»[(٦)]، وكقوله: «**يَحْرُمُ مِنْ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنْ النَّسَبِ**»[(٧)] وهكذا.

حفظ السنة:

يقول الإمام ابن حزم ليس القرآن فقط الذي حفظه الله ﷻ ولكنه حفظ السنة أيضًا في صدور رجال، ويستشهد ابن حزم استشهاداً لطيفاً يقول: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[(٨)] فيقول: الذكر هنا ليس القرآن وحده، ولكن الذكر هو القرآن

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة النحل.
(٢) من الآية ٤٣ من سورة البقرة.
(٣) رواه البخاري والدارمي.
(٤) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والنسائي.
(٥) رواه أحمد والبخاري والنسائي.
(٦) رواه أحمد وابن ماجه.
(٧) رواه أحمد والبخاري والنسائي وابن ماجه.
(٨) الآية ٩ من سورة الحجر.

والسنة بدليل قوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[١] فالتبيان داخل في الذكر فحفظ الله قد جمع بين القرآن والسنة[٢].

أنواع السنة:

أنواعها بحسب روايتها: سنة متواترة ومشهورة وآحاد.

السنة المتواترة: هي ما رواه عن رسول الله جمع يمتنع عادة أن يتواطأ أفراده على الكذب لكثرتهم وأمانتهم ثم رواه عن الجمع جمع مثله وعن هذا الجمع جمع آخر وهكذا حتى وصلت إلينا بسند كل طبقة من رواته جمع لا يتفقون على كذب من مبدأ التلقي عن الرسول ﷺ حتى وصلت السنة إلينا، ومن هذا القسم السنن العملية في أداء الصلاة والصوم وغير ذلك من شعائر الدين تلقاها المسلمون جموعاً عن الرسول ﷺ ولقنوها جموعاً أخرى دون خلاف عليها مع اختلاف الأعصار وتباعد الأمصار.

السنة المشهورة: هي ما رواها عن الرسول صحابي أو أكثر دون أن يبلغ الرواة حد التواتر ثم نقلها من الراوي أو الرواة جمع من جموع التواتر، وتناقلها عن هذا الجمع جموع أخرى حتى وصلت إلينا بسند أوّل طبقة منه فرد أو أفراد لا يبلغون حد التواتر وباقي طبقاته من جموع التواتر، ومن هذا القسم ما رواه عمر بن الخطاب وابن مسعود وغيرهما من الصحابة.

سنة الآحاد: هي ما رواه عن الرسول ﷺ آحاد أو جمع لم يبلغ حد التواتر وتناقلها عن هؤلاء أمثالهم من الآحاد أو الجموع التي لم يبلغ حد التواتر ومن هذا القسم معظم الأحاديث[٣].

والسنن جميعاً قد تكون قطعية الدلالة إذا كانت لا تحتمل تأويلاً وقد تكون ظنية الدلالة إذا كانت تحتمل التأويل وجميعها مصدر تشريعي واجب الاتباع ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة النحل.
(٢) الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم، ١/ ٩٥، ١١٤، ١١٥، ٢/ ٢٠١، بتصرف.
(٣) نقلا عن كتاب التشريع الجنائي في الإسلام، لعبد القادر عودة ١/ ٧٦.

آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ.. ﴾[١]

ويجدر بنا أن نشير إلي أن جميع الأقوال والأفعال التي صدرت عن الرسول ﷺ بقصد البيان والتعليم والإرشاد هي تشريع ملزم.

أما التي صدرت عنه بخبرته الخاصة بالشئون الدنيوية كالاتجار والزراعة وتنظيم الجيوش فليست تشريعاً؛ لأنها من الخبرة الشخصية التي قال فيها: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»[٢]

وما صدر منه باعتباره بشر كالقيام والقعود والشرب لا تعتبر تشريعاً فليست جزءاً من رسالته إلا ما سنَّه ﷺ.

وكذلك الأفعال التي صدرت عنه ودل الدليل على أنها من خصائصه لا يشاركه فيها أحد كالزواج بأكثر من أربعة ودخوله مكة بغير إحرام والوصال في الصوم لا يعتبر تشريعاً؛ لأن ذلك خاص به ﷺ لا يشاركه فيه غيره.

وإذا كانت هناك الأحاديث القولية والفعلية والتقريرية فهناك أيضًا الحديث القدسي الموحى معناه دون لفظه وهذا هو الفرق بينه وبين القرآن إذ إن القرآن موحى بلفظه ومعناه وترتيبه فليس للنبي ﷺ إلا التبليغ وهو متواتر كله.

وأما الحديث القدسي ففيه الصحيح والضعيف والموضوع.

علوم السنة:

ومن هنا فإنه لابد من دراسة الحديث سنداً ومتناً، ولقد وضع العلماء لدراسة كل منهما موازين ومقاييس تساعدهم على الوصول إلي أدق الأحكام وأصحها.

فمن العلوم التي استنبطوها لدراسة السند:

١- علم تاريخ الرواة .

٢ - علم الجرح والتعديل.

٣ - علم علل الحديث.

---

(١) من الآية ٥٩ من سورة النساء.

(٢) رواه مسلم.

ومن العلوم التي استنبطوها لدراسة المتن:

١- علم غريب الحديث ويبحث في غريب الكلمات وألفاظه التي تخفى.

٢ - علم مختلف الحديث يبحث في الحديثين اللذين ظاهرهما التعارض.

٣ - علم الناسخ والمنسوخ.

يقول الإمام ابن حزم: «نقل الثقة عن الثقة يبلغ به النبي ﷺ مع الاتصال أخص الله به المسلمين دون سائر الملل»(١) فقد حرص الصحابة والتابعون ومن بعدهم على أداء ما سمعوه من رسول الله ﷺ بأمانة وإخلاص وتحروا في النقل حتى انتهي هذا إلي أئمة رجال الحديث ودونت السنة.

ويالها من دقة لم تسبق إليها أمة، فقد وضع العلماء مع هذه العلوم شروطاً للصحة والحسن والضعف من حيث:

اتصال السند والعدالة والضبط وعدم الشذوذ وعدم العلة.

وقالوا: إذا ضعفت صفة من هذه الصفات أو فقدت صار الحديث ضعيفاً، بل وقسموا الضعيف نفسه الذي لم تجتمع فيه صفات الحديث الصحيح أو الحسن إلي أنواع:

المرسل والمنقطع والمعضل والمدلّس والمضطرب والمقلوب والشاذ والمنكر والمتروك والمعلل وهكذا.

بل ورتبوا كتب الصحاح كما اتفق عليها العلماء كالآتي:

أولاً: ما اتفق عليه البخاري ومسلم.

ثانياً: ما انفرد به البخاري.

ثالثاً: ما انفرد به مسلم.

رابعاً: ما كان على شرطهما وإن لم يخرجاه.

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم ٢/ ٨٢.

خامساً: ما كان على شرط البخاري.

سادساً: ما كان على شرط مسلم.

سابعاً: ما صححه غيرهما من الأئمة.

وهكذا يتضح أهمية هذا المصدر من مصادر التشريع.

خلاصة هامة:

إن من الآفات التي تتعرض لها السنة أن يقرأ بعض الناس المتعجلين حديثاً فيتوهم له معنى في نفسه يفسره به وهو معنى غير مقبول عنده فيتسرع برد الحديث لاشتماله على هذا المعنى المرفوض ولو أنصف وتأمل وبحث لعلم أن معنى الحديث ليس كما فهم، وأنه فرض عليه معنى من عنده لم يجيء به قرآن ولا سنة ولا ألزمت به لغة العرب ولا قال به عالم معتبر من قبل.

قرأ بعضهم الحديث الذي رواه ابن ماجه عن أبي سعيد الخدرى والطبراني عن عبادة بن الصامت: «**اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1]. ففهم المسكنة الفقر من المال والحاجة إلى الناس وهذا ينافي استعاذة النبي ﷺ من فتنة الفقر وقوله لعمرو بن العاص: «**نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ**»[2]، ولقد امتن الله عليه بالغنى فقال له: ﴿**وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى**﴾[3]. والمعنى هنا هو التواضع وخفض الجناح. قال ابن الأثير: «أراد التواضع والإخبات وألا يكون من الجبارين المتكبرين».

وقرأ أحدهم حديث رواه أبو داود والحاكم عن أبي هريرة مرفوعاً: «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»، ففهم من التجديد التطوير والتغيير بما يلائم الزمان، بينما التجديد هو تجديد الفهم له والإيمان والعمل به، التجديد يعني العودة به مرة أخرى حيث كان في عهد الرسول ﷺ وصحابته ومن

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه والطبراني، وصححه الألباني.

(٢) رواه أحمد، والبخاري في الأدب المفرد.

(٣) الآية ٨ من سورة الضحى.

تبعهم، ومن الخطورة بمكان أيضًا أن تقرأ حديثاً وتقف عنده وتحاول فهمه بنفسك بينما المولى يقول: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[١]، فعدم سؤال أهل الذكر قد يؤدي بك إلي الشطط. وأعطيكم مثالاً: تقول السيدة عائشة رضي الله عنها في حديث: «ما بال رسول ﷺ واقفاً منذ أنزل عليه القرآن، ومن حدثكم أن رسول الله ﷺ بال واقفاً فلا تصدقوه»[٢]. ما سيكون الموقف إذا وقع هذا الحديث بين يديكم ثم جاءك من يقول: جائز أن يبول الرجل واقفاً.بينما كلام السيدة عائشة ينهي عن ذلك بقول صريح: «ومن حدثكم أن رسول الله ﷺ بال واقفاً فلا تصدقوه»[٣].

ونأتى لحذيفة ﷺ وهو يقول: أتيت لرسول الله ﷺ بوَضوء (الإناء الذي فيه ماء للوضوء)، فبال واقفاً ثم توضأ.

الحديث الأول صحيح والحديث الثاني متفق عليه، فالاثنان صحيحان.وللعلماء فيهما كلام وعلم.

أفرد الإمام ابن القيم باباً لهذين الحديثين تحت عنوان: تبول الرسول ﷺ وقوفاً، وجاء بحديث السيدة عائشة التي قالت: «ما بال رسول ﷺ واقفاً منذ أنزل عليه القرآن، ومن حدثكم أن رسول الله ﷺ بال واقفاً فلا تصدقوه»، وقال: «إن علماء الحديث يقولون: إذا كان هناك حديثان ظاهرهما التعارض (مثل هذين الحديثين اللذين ظاهرهما التعارض) فالتوفيق بينهما أولى».

فكيف وفق العلماء بين هذين الحديثين؟

يقول ابن القيم: أسأل سؤالاً: من قال إن السيدة عائشة كانت قادرة ومقتدرة على إحصاء تبول رسول الله ﷺ في كل مكان بال فيه في بيته وفي خارج بيته، في أسفاره، في ترحاله، في كل مكان؟ كيف تقول السيدة عائشة: «ومن حدثكم أن رسول الله ﷺ بال واقفاً فلا تصدقوه». فما هي القضية؟

---

(١) من الآية ٤٣ من سورة النحل.

(٢) رواه أحمد.

(٣) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه.

قال: إن السيدة عائشة تحكي حال رسول الله في بيته لأنها زوجته.

أما حذيفة فكان يصاحب رسول الله ﷺ في أسفاره وفي كل خطواته فهو يتحدث عن حال رسول الله ﷺ في أسفاره، وبذلك وفق العلماء بين الحديثين واستنبطوا جواز التبول وقوفاً[1].

«إن رد كل حديث يشكل علينا فهمه - وإن كان صحيحاً مجازفة - لا يجترئ عليها الراسخون في العلم ومن أجل ذلك ألف الإمام أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة كتابه (تأويل مختلف الحديث) للرد على مثل هذه الزوابع»[2].

إنه لا فقه بغير سنة ولا سنة بغير فقه وقوام الإسلام بركنيه كليهما من كتاب وسنة كما قال الإمام البنا رضوان الله عليه.

والفقه شيء غير حفظ النصوص وسرعة الاستشهاد بها، ففهم الدين هو الأصل في التدين وعليه يتوقف إنجازه ولذلك كان للفهم فقهه الخاص به، وقد أفاض الأصوليون في بيانه وتبويبه وتنظيره حتى غدا منضبط القواعد، ولما كان الدين محرراً في أصول ثابتة هي القرآن والسنة، وكلاهما يختص بخصائص، ويتصف بصفات من حيث حملها لتعاليمه كما أن الدين غايته الفعل في الواقع لإجرائه على ما يحقق المصلحة، فإن ذلك يقتضي أن يكون فهم المراد الإلهي بأوامره ونواهيه مبنياً على أساسين:

«**أولهما**: خصائص الأصول في الدلالة على الأوامر والنواهي - وسيأتي تفصيل ذلك بإذن الله حين نتكلم عن الخلاف الفقهي.

ثانيهما: اعتبار الغاية التطبيقية فيهما.

وكلما اختل الفهم في أحد هذين السببين أو كلاهما أدى ذلك إلي الخطأ في إدراك المراد الإلهي من تعاليمه»[3].

---

(١) تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة ١/ ٩٢، وزاد المعاد، لابن القيم، ١/ ١٧٢، ١٧١.

(٢) كتاب الأمة«في قصة التدين فهما وتنزيلا»، للدكتور عبد المجيد النجار، ص٤٣.

(٣) المصدر السابق، ص٨١.

ولهذا فإن فهم الدين من أصله النصي ليس بالأمر الهين كما يظن بعض الناس، بل هو أمر خطير الشأن وخاصة إذا لابسته ظروف من الضعف في فقه اللغة العربية وقوانينها في التعبير أو من الميل إلي التعسف في استخراج المعاني من وعائها اللغوي وقد وقعت من ذلك نماذج كثيرة في التاريخ الإسلامي.

والنص الديني نفسه ورد يحمل من المعنى ما يناسب البشر جميعاً في كل مكان وزمان باعتبار خاتمية الوحي فيه، وهذا ما يجعل المجموع النصي يحمل من كنوز المعاني ما لا يستنفده - فهماً - جيل واحد من المسلمين، بل يمكن أن يكتشف فيه كل جيل ما لم يكتشفه الذي قبله، وذلك وجه من وجوه إعجازه كما أن لعملية الفهم علاقة بكسب العقل البشري من العلوم والمعارف التي يكتسبها من خارج دائرة النص.

إذن نحن نقصد بهذا الكتاب وهذه السنة المباركة المطهرة إلي عدة مقاصد:

المقصد الأول: إقامة أمة صالحة، أي ماذا نريد؟ لا نريد دولة وحكومة وهياكل ونظم، نريد أمة صالحة ولا تصلح الأمة إلا إذا توفرت فيها أمور، فإذا كنا نريد أن نقيم الأمة يجب أن تتحقق فيها أمور أولها أن يكون لها رسالة من مبادئ وقيم، لأن رسالة الإسلام رسالة تربية قبل أن تكون رسالة تنظيم وتشريع، رسالة قيم وأخلاق ومبادئ قبل أن تكون رسالة جهاد وقتال. ورسالة مبادئ يراها الغادي والرائح في تطبيق عملي قبل أن تكون رسالة انتشار واتساع، فيجب أن نضع في اعتبارنا أن رسالتنا رسالة أخلاقية قبل كل شيء، نريد أن نبنى أمة متحابة مترابطة ذات رسالة وهذا هو المقصود الأول.

المقصد الثاني: أن تكون الأمة مُضحية لدينها تعمل وتضحي بالغالي والرخيص **﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾**[(١)].

المقصد الثالث: أن يكون على رأس هذه الأمة حكومة صالحة، تقيم الدين، لذلك يقول تعالى: **﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ...﴾**[(٢)]، فمهمتنا إقامة الدين، ولذلك لابد

---

(١) من الآية ١١١ من سورة التوبة.

(٢) من الآية ١٣ من سورة الشورى.

أن تكون الحكومة صالحة خادمة للشعب ولا تشعر بالسيادة والفوقية، مصدر حكمها رباني ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [1]، ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [2] إنها:

- ربانية وسطية في اختيارها.
- إيجابية في نظرتها للكون والإنسان والحياة.
- أخلاقية في غايتها ووسائلها.
- واقعية حين تتعامل مع الفرد والمجتمع.
- شمولية في منهاجها.
- عالمية في دعوتها.
- شورية في حكمهما.
- جهادية في تربيتها.

هذه كلها خصائص تتميز بها دعوة الإسلام التي نعمل على تمكينها على الأرض واضعين نصب أعيننا المعاني الآتية:

أولاً – إن التمكين لدين الله لا يتم إلا بعد أن يسود في المجتمع القيم والأخلاق والعادات والتقاليد الإسلامية.

ثانياً – إن التمكين لدين الله بهذا المعنى يكون شاملاً لجميع وحدات المجتمع، فنحن لسنا جماعة انتقائية ننتقى من المجتمع، بل نحن جماعة جهادية تريد أن تقيم شرع الله على الأرض فتبسطه للأبيض والأسود والأعجمي والعربي والسيد والمسود في آن واحد، توضحه لجميع شرائح المجتمع دون انتقاء طبقة أو مستوى دون آخر.

ثالثاً – إن التمكين لدين الله لا يتحقق في الأمة قسراً ولا قهراً، ولكن رغبةً

---

(١) من الآية ٤٢ من سورة فصلت.

(٢) من الآية ٣٨ من سورة الأنعام.

وطواعية واختياراً واقتناعاً وإيماناً تستمر عليه طوال حياتك: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾(١).

رابعًا - إن استمرارية المنهج ودوامه لا يمكن أن يتحقق بحالة مؤقتة، لكن بالتخطيط البعيد والقريب مع استمرارية المنهج.

خامساً - إن التمكين لدين الله ليست قضية وطنية ولا قومية ولا قُطرية ولا محلية، إنما هي عالمية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(٢)، ومن هنا فنحن في حاجة للارتقاء بالمجتمع كي يكون الإسلام مرجعاً يرجع إليه الفرد في سلوكه واعتقاده وأفعاله، ثم نرتقي بالمجتمع كي يكون له مرجعية إسلامية يعود إليها في صغير الأمر وكبيره.

ومن هنا كانت دولتنا دولة مدنية مرجعيتها إسلامية، ومصدر تشريعها من الكتاب والسنة كمصدر أساسي للتشريع.

***

(١) الآية ١٤٤ من سورة آل عمران.

(٢) من الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

مردود الأصل الثاني

أولاً: حصيلة العقل:

أ – اختر الإجابة الصحيحة (من الممكن أن تكون أكثر من إجابة صحيحة):

١ – اكتفى الإمام البنا بالقرآن والسنة كمرجعية للمسلم؛ وذلك:

أ	لحرصه على جمع الأمة	ب	لرفضه باقي المصادر الأخرى
ج	لأنهما أصل باقي المصادر	د	جميع ما سبق

٢ – من أحكام القرآن التي يراد بها تنظيم الدولة:

أ	أحكام العبادات والمعاملات	ب	أحكام العقوبات والمعاملات
ج	أحكام الأحوال الشخصية والعقوبات	د	أحكام العقائد والعقوبات

٣ – من العلوم التي يحتاج إليها المفسرون:

أ	الأدب والبلاغة	ب	أصول الفقه
ج	العلوم الاجتماعية والتاريخ	د	جميع ما سبق

٤ – سنة النبي ﷺ هي:

أ	ما أقره النبي ﷺ ولم يفعله	ب	ما قاله النبي ﷺ
ج	ما فعلة النبي ﷺ	د	جميع ما سبق

٥ – من علوم السنة النبوية الشريفة:

أ	العام الخاص	ب	الناسخ والمنسوخ
ج	تاريخ الرواة	د	الجرح والتعديل

٦ – يرجع في فهم السنة المطهرة إلي:

أ	الفقهاء المخلصين	ب	العباد الزاهدين
ج	رجال الحديث الثقات	د	المفسرين النبهاء الأمناء

ب – ضع (أ) أمام العبارة الصحيحة و (ب) أمام العبارة الخطأ فيما يلي:

٧	القرآن والسنة هما وحدهما مصدرا الأحكام الكلية.	
٨	جاءت أكثر آيات القرآن مفصلة للأحكام الجزئية.	
٩	-تناول القرآن أصول العبادات والعقائد بشكل إجمالي.	
١٠	- قد يكون الوحي الإلهي بالمعنى دون اللفظ.	
١١	جميع أقوال النبي ﷺ وأفعاله سنة للمسلمين ولو صدرت عن خبرة شخصية.	
١٢	قد تأتي السنة بأحكام جديدة لم يذكرها القرآن.	

قارن إجاباتك بالإجابات النموذجية في آخر مردود الأصل، وأعطِ نفسك درجة لكل إجابة صحيحة وصفرًا للإجابة الخاطئة.

أكثر من ١٣	١٢ – ١٣	١٠ – ١١	٨ – ٩	أقل من ٩
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثانيًا: رصيد القلب:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائماً	غالباً	أحياناً	نادراً	أبداً
١	أتألم حين أرى أحد يحتكم إلي غير القرآن والسنة.					
٢	أعتقد أن القرآن والسنة مرجع كل مسلم في معرفة أحكام الإسلام.					
٣	أوقن أن فهم القرآن ينبغي أن يكون طبقًا لقواعد اللغة العربية.					
٤	أتمنى أن أجيد التحدث باللغة العربية الفصحى.					
٥	لا ينتابني شك في أن السنة وحي من الله ينبغي العمل بأحكامها.					
٦	لا أطمئن في فهم السنة إلا إلي علماء الحديث الثقات.					

دائما=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ٢٠	١٨ - ٢٠	١٥ - ١٧	١٢ - ١٤	أقل من ١٢
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثالثًا: حساب الجوارح:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائماً	غالباً	أحياناً	نادراً	أبداً
١	أحرص على الالتزام بما جاء في القرآن والسنة من أحكام.					
٢	أبين لمن حولي وجوب الرجوع إلي الوحي في كل أمورنا.					
٣	لا أحمّل ألفاظ القرآن مالا تحتمله من معاني.					
٤	أحرص على تعلم قواعد اللغة العربية.					
٥	أوضح لمن حولي أن السنة وحي ينبغي العمل بأحكامها.					
٦	لا أرجع في فهم السنة إلا لعلماء الحديث.					

دائما=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ٢٠	١٨ - ٢٠	١٥ - ١٧	١٢ - ١٥	أقل من ١٢
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

إجابات حصيلة العقل (٢)

السؤال	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢
أ	✓						✓			✓	✓	
ب		✓			✓			✓	✓			✓
ج	✓	✓			✓	✓						
د			✓	✓	✓							

الأصل الثالث

مصادر ليست من أدلة الأحكام الشرعية

«وللإيمان الصادق، والعبادة الصحيحة، والمجاهدة نور وحلاوة يقذفها الله في قلب من يشاء من عباده ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه»[1].

(١) مجموعة الرسائل، حسن البنا، رسالة التعاليم، ص٢٦٨.

هذا الأصل يعالج:

١ - الإيمان الصادق.

٢ - العبادة الصحيحة والمجاهدة.

٣ - المصادر التي ليست من أدلة الأحكام الشرعية كالإلهام والخواطر والكشف والرؤى.

فهو يضع أيدينا على أمر من الأهمية بمكان، فليس الأمر أمر معارف فحسب. فنحن عندما تكلمنا في الأصلين الأول والثاني كانا يشملان المعارف والعلوم النافعة ومصدر التلقي وتحديد للمفاهيم. وهذا أمر ضروري أوضحه قول الله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ﴾[١]، ثم يأتي بعد ذلك العمل ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾[٢]، هذا أمر لا نشك فيه ولكن هذا الأمر لا يقف عند العلم والمعرفة فحسب؛ لذا فما أكثر من يعلمون ولا يعملون قال تعالى واصفًا حال الكافرين: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[٣]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[٤]، فليس الأمر أمر تحصيل علوم وتخزينها في العقول وإيمان بها فحسب، بل لابد للإيمان من نبض قلبي وحركة شعورية ونور يملأ الفؤاد، وهذا كله ثمرة المعارف والأقوال؛ لأنه في أحيان كثيرة لا يتعدى الأمر القول باللسان، لذا فإننا نريد المفكر المسلم العملي الذي يضع ما يعتقده من فكر سليم موضع التنفيذ، لأن ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ...﴾[٥] مجرد قول باللسان: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾[٦] ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۝ وإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ ۝ وإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ

---

(١) من الآية ١٩ من سورة محمد.

(٢) من الآية ١٩ من سورة محمد.

(٣) من الآية ٢٥ من سورة لقمان، و٣٨ من سورة الزمر.

(٤) من الآية ٨٧ من سورة الزخرف.

(٥) الآية ١٠ من سورة العنكبوت.

(٦) الآية ٤٧ من سورة النور.

بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾[1] ونحن كمسلمين مؤمنين بأنه لابد أن يتفاعل قلبنا بهذا الإيمان ويتأثر به، يقول تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾[2] ولا يقول للناس حسنًا إلا صاحب القلب السليم وصاحب المشاعر الفياضة الذي يربط القول بالعمل، وبالحركة التي يشترك فيها القلب النابض مع الجارحة الخاشعة.

وكما نريد كذلك العبد المتبتل، العبد القانت لله، الذي يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[3] والذي مهما حصَّل من علوم، فهي لتحقيق عبوديته لله رب العالمين، وقد تأثر أصحاب الرسول ﷺ بالقرآن تأثراً عجيباً، فكانت الآيات حياة لهم، يترجمونها واقعاً على الأرض، وها هو سيدنا عمر ﵁ يقرأ قول الله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۞ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾[4] فيصاب بالحمى ويمكث في بيته شهراً كاملاً يرتجف جسده كله؛ لأن العقيدة ما كانت في يوم من الأيام مجرد كلام يُقرأ أو علم يُحصَّل فحسب، بل هي انفعال قلبي ووجداني يشعر به المسلم وينفعل به ويترجمه عملاً وسلوكًا مشاهدًا.

ونحن لا تنقصنا العلوم المقروءة والنصوص المحفوظة ولكن ينقصنا هذا الجانب التعبدي لله ﷻ. تنقصنا الأيدي المتوضئة والعيون الدامعة وتنقصنا الوقفة بين يدي الله بتذلل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً﴾[5] فأين هؤلاء؟ أين ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾[6]؟ حتى يحقق الله النصر على أيديهم، نحن ننتصر بضعفائنا، ننتصر بالسُجَّد الرُكَّع، ننتصر بـ ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[7] ننتصر بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ

---

(١) الآيات ٢٠٤-٢٠٦ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ٨٣ من سورة البقرة.
(٣) الآية ٥ من سورة الفاتحة.
(٤) الآيتان ٧، ٨ من سورة الطور.
(٥) الآيات ٢ - ٤ من سورة الأنفال.
(٦) من الآية ١١٢ من سورة التوبة.
(٧) من الآية ٥٤ من سورة المائدة.

فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1] هذه هي أسباب النصر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2] ثم يأتي بعد ذلك كله الأخذ بالأسباب المادية والعلمية.

ولذلك فإن هذا الأصل يتكلم عن هذا الجانب «الأثر الإيماني»، أثر الإيمان في قلب المؤمن والذي يتحقق بالتقرب إلي الله عبادة ومجاهدة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[3].

الإيمان والعبادة والمجاهدة:

يتحقق الإيمان الصادق بصحة الاعتقاد وصدق الإتباع، والإيمان كما يعرفه الأستاذ الدكتور القرضاوي في كتابه «الإيمان» هو: «عمل نفسي يبلغ أغوار النفس ويحيط بجواسها كلها من إدراك، وإرادة، ووجدان، فلابد من إدراك ذهني تنكشف به حقائق الوجود على ما هي في الواقع، وهذا الانكشاف لا يتم إلا عن طريق الوحى المعصوم، ولابد أن يبلغ هذا الإدراك الجزم الموقن أو اليقين الجازم الذي لا يزلزله شك ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾[4] ولابد أن يصحب المعرفة الجازمة إذعان قلبى وانقياد إرادى يتمثل في الخضوع والطاعة والرضى والتسليم: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[5] »[6].

والعبادة الصحيحة: تتحقق بإخلاص النية ومتابعة عمل الرسول ﷺ.

وأما المجاهدة: فمتعددة، فتجاهد النفس حتى تصبح نفسك مطمئنة، والهوى حتى

---

(١) الآية ٥٤ من سورة المائدة.
(٢) الآيتان ٤٥، ٤٦ من سورة الأنفال.
(٣) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.
(٤) من الآية ١٥ من سورة الحجرات.
(٥) الآية ٦٥ من سورة النساء.
(٦) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوى، ص ١٨، ١٧.

يكون تبعاً لما جاء به المصطفى ﷺ، وتجاهد الشيطان بطاعة الملك الذي يأمرك بأمر الله لتحقق التقوى.

وقد ورد في حديث مشهور أن عمر بن الخطاب ﷺ سأل أُبى بن كعب عن التقوى: **ما التقوى؟**

«قال: يا أمير المؤمنين أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال: بلى، قال: فما عملت؟ قال: شمرت واجتهدت، قال فذلك التقوى»[1]، تشمير عن المعاصي واجتهاد في الطاعات.

ومن فضل الله على العباد أن أرسل الرسل وأنزل الكتب، بل وأيد الإنسان بملك كريم في مقابل هذا الشيطان اللعين كلما أمره شيطانه بأمر، أمر الملك بأمر الله، والإنسان على نفسه بصيرة، كما جعل المولى له مقابل النفس الأمارة بالسوء نفساً مطمئنة تعده بالخير فضلاً عن أن المولى سبحانه وتعالى جعل له نوراً وبصيرة وعقلاً والعاقل من هدى إلي صراط مستقيم.

والعبد لابد له من أمر يفعله ونهي يجتنبه وقدر يصبر عليه وهو بين فعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور يغزو الشيطان قلبه بسلاحين:

سلاح الشهوات ليفسد به سلوكه وعمله.

وسلاح **الشبهات** يفسد به فكره وتصوره واعتقاده.

ومن فضل الله عليه أن منحه ما يواجه به عدوه: سلاح الصبر يجاهد به الأهواء والشهوات وسلاح اليقين يجاهد به الشكوك والشبهات، وصدق الله القائل: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾[2].

وتأملوا حال الصحابة رضوان الله عليهم وأرضاهم أصحاب العيون الدامعة، الذين هانت عليهم الدنيا، يقول أحدهم: «أبينى وبين الجنة تلك التمرات؟ والله إنها لحياة طويلة»[3].

---

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير ٢/ ٣٥١، وذكره القرطبي في تفسيره ١/ ١٦٢، ١٦١.

(٢) الآية ٢٤ من سورة السجدة.

(٣) الحديث بتمامه رواه الإمامان أحمد ومسلم.

وأما الصحابي الآخر الذي صدق مع الله فصدقه الله حين جاء بالغنيمة التي هي حق له يقول للرسول ﷺ حين أعطاه نصيبه منها: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى إلي هاهنا وأشار إلي حلقه بسهم فأدخل الجنة، فقال: «**إِنْ تَصْدُقْ اللَّهَ يَصْدُقْكَ**»، وبعد قليل أتوا به محمولاً على الأيدي لرسول الله بعد أن نال الشهادة، فنظر إليه رسول ﷺ وقال: « **أَهُوَ هُوَ؟**» قالوا: نعم. قال: «**صَدَقَ اللَّهَ فَصَدَقَهُ**»[1].

ولقد رأينا بفضل الله مثل هذا الصنف من الرجال - الذين يقتدون بهؤلاء المؤمنين - رأي العين في السجون والمعتقلات وما أدراك ما هي نار حامية، رأينا الأخ المتبتل لله ﷻ الدامع العينين، الخاشع لله، الذليل أمامه، القائم، الصائم، الصابر على التعذيب والمحتسب وهو يقول أحد أحد والذي يضعونه في زنزانة فيها من الكلاب الضارية سبعة ينام معهم، وبعد الليالي التي قضاها معهم يضحك معه أحد الأخوة ويقول: كيف قضيت لياليك؟ فيقول: **نعم تدبير الله، هل هذا اختياري؟ هذا اختيار الله لي، فنعم اختيار الله لي والله لقد بت ليالٍ آمنة مطمئنة كلها ذكر وتبتل لله أستعذب العذاب في سبيل الله.**

ولا عجب في هذا فإن المولى ﷻ جعل قلب الإنسان يشعر بالسعادة والشقاء كما تشعر الأبدان بالسقم والصحة لذلك يعرف الإمام ابن القيم السعادة بقوله: «أطباق السعادة ثلاثة: إذا أُنعم عليه شكر، وإذا أُبتلى صبر، وإذا أذنب استغفر»، وهذا حال المؤمنين الشاكرين الصابرين.

فقد يشقى الإنسان بالمال والجاه والسلطان، وقد يسعد مع الفقر وقلة المال، وقلة الولد، لكن لو امتلأ القلب بالإيمان، فإن الإيمان الصادق الذي يتحلى به المسلم هو الحياة الطيبة: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾[2] وهو النور الذي يمشي به المؤمن: ﴿**وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**﴾[3] ﴿**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾[4] وهو الروح التي يحيا بها: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ**

---

(١) رواه النسائي.
(٢) من الآية ٩٧ من سورة النحل.
(٣) من الآية ١٢٢ من سورة الأنعام.
(٤) من الآية ٤٠ من سورة النور.

أَمْرِنَا﴾ [(١)] فهـو يعـيش مطمـئن الـنفس مرتـاح البـال في جنـة الـدنيا بشـكره وصـبره واستغفاره فهل بعد هذه الجنة التي يعيشها في دنياه شقاء أو ضلال أو ضنك أو رهق، صدق ربي القائـل: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ونَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وقَدْ كُنتُ بَصِـيراً ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسَى﴾ [(٢)].

إن للإيمان الصادق حلاوة يتذوقها المؤمن الذي رضى بالله ربـاً وبالإسـلام دينـاً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، يتذوقها العبد القانت لربه الواقف بين يديه ركوعاً وسجوداً فيجد الحلاوة، وهذه الحلاوة ليست معنوية بـل يكـاد يلمسـها حـين يجـد لهـا مـذاقاً، وكيف لا يشعر بهذا المذاق من يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [(٣)] فقـد عبـد الله بمـا يحبه ويرضاه فشكره وأحبه ومن تفضل الله عليه بهذ المذاق كان بعد موته مع النبـيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

إنك بهذا الإيمان الصادق دخلت جنة الدنيا فكيف تُحرم من جنة الآخرة، والـتي قال عنها الإمام ابن تيمية: «للمؤمن جنتان، جنة في الدنيا وجنة في الآخرة، حُرم جنة الآخرة من لم يدخل جنة الدنيا» [(٤)]

وجنة الدنيا ندخلها بالطاعة وبالإيمان وبالإخبات إلي الله والخشية منه، بـالركوع والسجود، بالاستغفار وبالتوبة النصوح، ولا يزال العبد يخرج من طاعـة إلـي طاعـة، فإذا به يرزق الرضا والسكينة وطمأنينة النفس، وطهارة القلب، وسعادة الدنيا.

إنك تعيش بين الناس بهذا الإيمان، تصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك فيتقبل الله منك القبول الحسن وينادي: «يا جبريل إنى أحب فلانًا فأحبـه فينادى جبريل في ملائكة السماء: يا ملائكة الله إن الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهـل السماء ثم ينـزل الله له القبول على الأرض» [(٥)] مصـداقاً لقولـه: ﴿إِنَّ الَّـذِينَ آمَنُـوا

---

(١) من الآية ٥٢ من سورة الشورى.
(٢) الآيتان ١٢٣، ١٢٦ من سورة طه.
(٣) الآية ٥ من سورة الفاتحة.
(٤) الوابل الصيب، لابن القيم١/ ٦٩، ومدارج السالكين، لابن القيم١/ ٤٥٤.
(٥) يشير إلي الحديث المشهور الذي رواه الإمامان البخاري ومسلم.

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾[١] هذا في الدنيا، وأيضًا يتجلى فضل الله ورحمته على العبد حتى في ساعة الاحتضار تطمئنه الملائكة ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۞ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[٢] فالإنسان الذي يذهب إلي مكان مجهول دائماً يهابه، والله ﷻ يزيل عنه هذه المخاوف وهو ما زال في الغرغرة لم يمت حيث تتنزل عليه ملائكة الرحمة تقول: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[٣] أي بشارة وأي اطمئنان نفس، حتى إذا ما نزل القبر فسرعان ما تدافع عنه الصلاة، والصيام، والزكاة، وأعماله الصالحة، ويعيش في روضة من رياض الجنة في قبره إلي أن يلقى الله حين ينفخ في الصور نفخة واحدة: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۞ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۞ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[٤] وبعد ذلك؟ لكي تكمل فرحته بصحبة الجماعة التي كان يأتنس بها في دنياه يجتمع معها في أخراه: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَي الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ۞ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[٥] فأي راحة نفسية، وسعادة في الدنيا والآخرة وملائكة يستغفرون لك: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾[٦].

ولسائل الجنة وقاصدها نسوق إليه حديثًا يقول فيه رسول الله ﷺ: «اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمْ الْجَنَّةَ اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ

---

(١) الآية ٩٦ من سورة مريم.
(٢) الآيات ٣٠ - ٣٢ من سورة فصلت.
(٣) من الآية ٣٠ من سورة فصلت.
(٤) الآيات ٦٨ - ٧٠ من سورة الزمر.
(٥) من الآية ٧٣،٧٤ من سورة الزمر.
(٦) الآية ٧ من سورة غافر.

وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ»[١]، تطهير للداخل والخارج، للباطن والظاهر فهل من مؤمن عاقل يضع ذلك موضع التنفيذ ليسعد بالجنة، يقول قتادة ﷺ: «خلق الله الملائكة عقلاً بلا شهوة، وخلق البهائم شهوة بلا عقل، وخلق الإنسان عقلاً وشهوة، فمن سبقت شهوته عقله فهو مع البهائم، ومن سبق عقله شهوته فهو مع الملائكة».

عقل مرتب على طاعة الله ﷻ ليحظى بنفس مطمئنة يناديها ربها من علٍ: **﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَي رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾**[٢] يقول ابن عباس ﷺ: نزلت وأبو بكر جالس مع رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ما أحسن هذا! فقال: «**أما إنه سيقال لك يا أبا بكر، سيقال لك هذا**»[٣].

ولذلك كان من دعاء الرسول ﷺ الذي علمه أحد الصحابة: « **اللهم إني أسألك نفساً بك مطمئنة، تؤمن بلقائك وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك**»[٤]. يقول محمد بن عمرة وكان من أصحاب رسول الله ﷺ: «لو أن عبداً خر على وجهه من يوم ولد إلي أن يموت في طاعة الله لحقره يوم القيامة ولود أنه رد إلي الدنيا كي ما يزداد من الأجر والثواب »[٥].

التفكر:

من أجل هذا كله يجب على المسلم أن يجعل لنفسه أوقاتاً يخلو فيها مع ربه يتفكر في خلق السماوات والأرض، وفي هذا الكون وقدرة الله ﷻ فاجعل لنفسك وقتاً تخلو فيه مع ربك، فمن السنة إذا قام الإنسان من الليل فإنه يقلب وجهه في السماء ويقول: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾**[٦] فيكتسب السكينة والأمن والأمان.

---

(١) رواه أحمد.
(٢) الآيتان ٢٧، ٢٨ من سورة الفجر.
(٣) رواه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة.
(٤) رواه الطبراني في الكبير، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة.
(٥) رواه ابن المبارك في الزهد، والبيهقي في الشعب، وأبو نعيم في حلية الأولياء.
(٦) الآيتان ١٩٠، ١٩١من سورة آل عمران.

فأي سعادة وأي حلاوة بهذا الإيمان، وأي صلاح بال كما قال القرآن: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾(١) فكيف لا يسعد المؤمن وهو الذي إذا أصابته سراء شكر وإذا أصابته ضراء صبر فكان خيراً له في كل الأحوال والأوقات.

وقد دلنا الحكيم العليم الرؤوف الرحيم على سعادة الدنيا قبل الآخرة، بل والنصر الذي وعدنا به في الدنيا قبل الآخرة ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أين؟ ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾(٢)، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾(٣)، ولكن هذا النصر مشروط ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾(٤).

إن هذه السعادة لا توهب إلا لمن أحبه الله من عباده؛ لأنه ﷻ يعطي الدنيا لمن أحب ولمن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الدين فقد أحبه.

كيف يحبنا الله؟

ولك أن تسأل: وكيف يحبنا الله حتى ننعم بهذه الحلاوة؟

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٥)، وهكذا يتحدد للطريق معالمه فاسلك طريق رسول الله ﷺ يتحقق لك حب الله، والله تعالى إذا أحب عبدًا فتّح له القلب فيتلقى به ما يرضي به ربه حتى يصبح ولياً من أولياء الله الذين قال الله فيهم في الحديث القدسي: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ

---

(١) الآيات ٢،٣ من سورة محمد.
(٢) الآية ٥١ من سورة غافر.
(٣) من الآية ٥٥ من سورة النور.
(٤) من الآية ٥٥ من سورة النور.
(٥) الآية ٣١ من سورة آل عمران.

عَبْدي يَتقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافلِ حَتَّى أُحبَّهُ فَإذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به وَبَصرَهُ الَّذي يُبْصرُ به وَيَدَهُ الَّتي يَبْطشُ بهَا وَرجْلَهُ الَّتي يَمْشي بهَا وَإنْ سَأَلَني لَأُعْطيَنَّهُ وَلَئنْ اسْتَعَاذَني لأُعيذَنَّهُ»[1]، فهل بعد هذا يخاف الإنسان من بشر؟! ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾[2].

وينقل إلينا ابن تيمية ما قاله بعض السلف يقول: «قال بعض السلف: بصيرة المؤمن تنطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بأثر، فإذا جاء الأثر كان نوراً على نور»[3]، فهو دائماً على بصيرة من ربه إن أقبلت عليه الدنيا قال: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾[4]، وإن أدبرت قال: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾[5]، فالمؤمنون دائماً يستبشرون بنعم الله وفضله، وهم الذين استجابوا لله من بعد أن أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم.

علامات حب الله للعبد:

ربما يسأل سائل: **ما هي دلائل هذا الحب، وكيف نعرف أن الله يحبنا؟**

هناك كثير من الأمور التي إذا ظهرت في سلوك العبد دل ذلك على حب الله له، منها:

١ - يحبب الله إليه الإيمان ويزينه في قلبه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[6]، فكلما زاد حبك للإيمان كان هذا دليلاً على حب الله لك.

٢ - أن يجد حباً لكل عمل فيه طاعة وقربى إلي الله ﷻ، كما يجد بغضاً لكل عمل يبغضه الله.

٣ - أن يوفق الله العبد أن يتبع الطاعة بطاعة أخرى، والحسنة بحسنة أخرى، فيستعمله الله في طاعته.

---

(١) رواه البخاري وابن حبان.
(٢) الآية ٣٦ من سورة الزمر.
(٣) الفتاوى، لابن تيمية ٢٤/ ٣٧٦.
(٤) الآية ٨ من سورة العلق.
(٥) الآية ٤٢ من سورة النجم.
(٦) من الآية ٧ من سورة الحجرات.

٤ - أن يؤلف الله بين قلب العبد وقلوب الصالحين، فإن الله تعالى إذا أحب عبداً حبب الصالحين فيه، يقول عيسى عليه السلام: «تحببوا إلي الله ببغض أهل المعاصي وتقربوا إلي الله بالتباعد عنهم والتمسوا رضا الله بسخطهم، قالوا: يا روح الله فمن نجالس؟ قال: جالسوا من تذكركم بالله رؤيته ومن يزيد في إيمانكم كلامه ومن يرغبكم في الآخرة عمله»[١].

ولذلك فإن قيمة الحياة يحصرها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ثلاثة أمور فيقول: «لولا ثلاثة ما أحببت البقاء: لولا أن أحمل على جياد في سبيل الله ومكابدة الليل ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب التمر» **﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾**[٢].

وقد ردد ابنه عبد الله بن عمر نفس المعنى فقال: والله لو صمت النهار لا أفطره، وقمت الليل لا أنامه، وأنفقت مالي غلقاً غلقاً في سبيل الله، أموت يوم أموت وليس في قلبي حب لأهل طاعته، ولا بغض لأهل معصيته ما نفعني ذلك شيئًا.

ونحن عندما نحب بعضنا البعض ونجد هذه الألفة، نشعر بأن الله هو الذي غرس هذه المحبة والألفة في القلوب؛ لأنه هو القائل: **﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾**[٣].

٥ - أن يشعر العبد دائماً بأنه كلما وُفق إلي طاعة فإنه لم يوفِ شكر الله عليها فيزداد منها.

٦ - يوفقه الله تعالى إلي التوبة النصوح؛ لأن الله تعالى يعلم أن عباده يخطئون، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»**[٤] والعبد عندما يذنب فإن حسن الصلة بينه

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في الزهد، وذكره الغزالي في إحياء علوم الدين ٥ / ٩٢٤.
(٢) الآية ٢٨ من سورة الكهف.
(٣) من الآية ٦٣ من سورة الأنفال.
(٤) رواه أحمد، والضياء المقدسي في المختارة، وأبو يعلى في مسنده.

وبين الله تجعله يشعر بالذنب الذي فعله وأن الله تـواب رحـيم وأنـه غـافر الذنب وقابل التوب، فإذا تاب فإنه يشعر بأن الله ﷻ وفقـه للتوبـة مـن هـذا الذنب.

٧ - زيادة العلم والفقه، فكلما زاد علمه وفقهه وعمله دل ذلك علـى حـب الله له؛ لأنه: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا فَقَّهَهُ فِي الدِّينِ»[١].

٨ - صلاح البال وطمأنينة النفس، يقول تعالى في سورة محمد: ﴿الَّـذِينَ كَفَـرُوا وصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ والَّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَات وآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وهُوَ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[٢].

٩ - الصبر على الـبلاء: «لا يَزَالُ الْبَلاءُ بِالْمُؤْمِنِ أَوْ الْمُؤْمِنَةِ فِي جَسَدِهِ وَفِي مَالِهِ وَفِي وَلَدِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ»[٣].

١٠ - اليقين بالله والقناعة بما في يدك وعدم التطلع إلي ما في يد الغير.

١١ - استعمال المولى للعبد في كل أمر من أموره، وأن يوفق الله العبـد إلـي نيـة خالصة في كل عمل يقـوم بـه: ﴿إِنَّ صَلاتِي ونُسُكِي ومَحْيَايَ ومَمَاتِي لِلَّـــهِ رَبِّ العَالَمِينَ ۝ لا شَرِيكَ لَهُ وبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾[٤]، وبذلك يصبح مـن الـذين عنـاهم المولى في قوله: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وفِي الآخِرَةِ﴾[٥]

لا نعبد أشخاصاً:

والمسلم لكي يذوق طعم الإيمان يعمل لفكرة وعقيدة وتصور وليس لشخص أياً كان هذا الشخص «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي ابن ماجه وابن حبان.

(٢) الآيتان ١، ٢ من سورة محمد.

(٣) رواه أحمد والدارمي والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٤) الآيتان١٦٢، ١٦٣ من سورة الأنعام.

(٥) الآيات٦٢ - ٦٤ من سورة يونس.

حي لا يموت ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [١]»[٢]، وهناك فرق كبير بين احترام العلماء وتقدير المجاهدين ورد الفضل لأهله، وبين عبادة الأشخاص وتقديسهم، فنحن نحترم علماءنا ولا نقدس إلا الله ﷻ، ومن الأمانة أن نرد الفضل لأهله.

إن الإمام ابن القيم كان يكثر ذكر اسم شيخه في كتاباته فيقول في كثير من كتبه: «قال شيخنا». يقصد ابن تيمية فهل هو بكثرة ترديده اسمه يقدسه، أم هو يقدره ويؤكد فضله بعد الله عليه؟

ونحن لا نجامل أحداً في ديننا أبدًا، وعلى يقين من أن الذي قال به الإمام البنا هو من الإسلام.

وليس معنى ما نقول أننا ننكر الولاية والكرامة بل نثبتها ولكننا نقول ما قاله الإمام البنا من أن الإلهام والخواطر والكشف والرؤيا ليست من أدلة الأحكام الشرعية ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه وهذا نفس ما قاله الإمام ابن تيمية قال: «والرؤيا المحضة التي لا دليل يدل على صحتها لا يجوز أن يثبت بها شيء بالاتفاق»[٣]؛ فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ: حَدِيثُ النَّفْسِ وَتَخْوِيفُ الشَّيْطَانِ وَبُشْرَى مِنْ اللَّهِ**»[٤] ورضوان الله على عثمان بن عفان حين دخل عليه رجل فقال له عثمان ﷺ: مالكم تدخلون عليَّ وأثر الزنا في وجوهكم، قال الرجل: أوحيٌ بعد رسول الله؟ قال: لا ولكنها الفراسة[٥]، واعترف الرجل بعد ذلك بأنه نظر إلى امرأة وهو في الطريق إليه. وبالرغم من هذه الفراسة فإنه لا ينبني عليها حكم ولا هي مصدر من مصادر الأحكام، يقول ابن عباس ﷺ: «إن للحسنة ضياء في الوجه ونوراً في القلب وقوة في البدن وسعة في الرزق ومحبة في

(١) الآية ١٤٤ من سورة آل عمران.
(٢) يشير إلي حديث أبي بكر بعد وفاة النبي(ص) الذي رواه أحمد والبخاري وغيرهما.
(٣) فتاوى ابن تيمية ٢٤ / ٣٧٦.
(٤) رواه البخاري والترمذي والدارمي وابن ماجه.
(٥) ذكره ابن القيم في الطرق الحكمية، ص٤١.

قلوب الخلق وإن للسيئة سواداً في الوجه وظلمة في القلب ووهناً في البدن ونقصاً في الرزق وبغضاً في قلوب الخلق»[١].

شطحات ننكرها:

إذا كانت معجزات الرسل نفسها حجة على من رآها، فماذا عن الكرامات إذا كنا لا نراها، إننا نصدقها أو لا نصدقها لا شيء في ذلك، هناك كرامات؟ نعم توجد كرامات وما «**يا سارية الجبل**»[٢] منا ببعيد، بل وقصة الصحابي الذي كان يمشي بالعصا وتضيء له في الليلة الظلماء. فليست بأساطير الأولين؟

إن هذه الفرق من الصوفية التي غالت في تصوراتها كانت موجودة ومنتشرة في مصر، وحذر الإمام البنا من شطحاتهم وسلوكهم في كتاباته ودروسه ومجالسه.

وهذه شطحات بعضهم: قال أحد الحكام لأحد رعاياه: تعال واحضر النطع والسيف، فقال: ما حدث؟ قال رأيت في المنام أنك تعرض عني وتعطيني قفاك وعبَّرها معبري أنك تضمر لي شراً وتظهر لي طاعة، فقال له: ما أنت بإبراهيم الخليل ولا معبرك بيوسف عليه السلام أفبهذه الرؤيا تقطع رقاب الرجال بتأويلها، هذا التأويل الفاسد.

إن الرؤيا عند بعض الصوفية تعتبر من الأحكام والواقع أن الرؤيا لا يكون لها حكم إلا أن يراها نبي كما رأي سيدنا إبراهيم رؤيا ذبح إسماعيل أو يقرها نبي كما أقر النبي ﷺ رؤيا الأذان أما غير ذلك فلا.

والمضحك المبكى أن بعضهم يقول: «حدثني قلبي عن ربى»، ويقول أحدهم: «إن على كل قدم نبي من الأنبياء وليّ من أولياء الله وأن في الأرض سبعة أبدال، ونقباء، ونجباء، وكلما مات رجلٌ أقام الله ﷻ عوضه رجلاً ولا تزال الوراثة دائمة في علم الباطن إلي قيام الساعة».

بل وصل الأمر أن بعضهم يقول: «أنتم تأخذون كلامكم عن ميت يقصد

---

(١) ذكره ابن القيم في الوابل الصيب ١/ ٤٨.

(٢) رواه البيهقي في الاعتقاد، وذكره ابن الجوزي في مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ص١٧٣، ١٧٢.

الصحابة، أما نحن فنأخذ من الحي الذي لا يموت مباشرة»، ويقول آخر: «صح عندنا كشفاً ولم يصح عندنا سنداً» ويذكرني ذلك ما كان يحدث في السجن حين كان بعض الإخوان يرون رؤى كثيرة ويصبح الأخ وقد أولها مستبشراً منتظراً فرج الله عليه، فلما كثرت الرؤى وكثر المؤولون لها أطلق الإخوان على كثرة الرؤى وأخبارها «وكالة أبشروا» من باب الدعابة والتفكه والأمل.

وبعد ذلك كله فإننا نتساءل: هل قال الإمام البنا ما قاله هؤلاء من الصوفية أو أقرهم على قولهم أم خالفهم وبيَّن خطأ بعضهم بل بيَّن موقفه من الصوفية ذاتها.

ما هي الصوفية؟

وحتى يتبين لنا حقيقة ما قال الإمام البنا فلنعرف ما هي الصوفية؟

بالنسبة للمصطلح قالوا:

إنها من لبس الصوف: وعلى هذا فنحن نتساءل: هل الأحق بالولاية لابس الصوف؟ لقد تهكم أحدهم فقال: لو كان التقى بالصوف لطار الخروف.

أما الإمام ابن تيمية فيقول: إنها أول ما ظهرت في البصرة على يد بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد وهو من أصحاب أبي الحسن البصري ورجح ابن تيمية هذه التسمية من لبس الصوف زهداً.

وقال آخرون: هي نسبة إلي أهل الصفَّة لاتصافهم بالمحامد أو أنه من الصفاء لصفاء قلوبهم وطهارتها.

وأهل الصفة: هم قوم عبدوا الله حق عبادته واتقوا الله حق تقاته وجاهدوا في الله حق جهاده وأذاعوا علماً وفضلاً كانوا إذا ضرب أمر وجد جد، وعدا على المسلمين عادٍ خرجوا للجهاد باذلين أرواحهم في سبيل الله فلم يكونوا كفقراء التكايا يأكلون ويشربون ويصلون وينامون، ولم يكونوا أهل دعة وتكفف فكانوا زهاء أربعمائة من فضلاء العباد والزهاد انقطعوا للذكر والتبتل في مسجد المصطفي ﷺ ولكنهم لم يكونوا من القاعدين عن نصرة الحق والإسلام في يوم من الأيام، فأنت ترى أن المصطلح اختلف أصلاً كما اختلف في النظر إليهم.

فهل يجوز استخدام المصطلح؟

إن استخدام المصطلح جائز شرعاً حين يقصد به الجانب الإيجابي والمفيد للمسلمين وأنت تقرأ قول الله تعالى: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ**﴾[١] وذكرها المولى هنا في مجال الذم إلا أننا نرى رسول الله ﷺ استخدمها في مجال يعود على المسلمين بالنفع حيث قال: «**ورهبانية أمتي الجهاد**»[٢] فأخذ الجانب الإيجابي فيها.

فالقرآن ذم الرهبانية والرسول استخدم الكلمة فيما يفيد المسلمين تربية:

وفي الحديث الثابت عن النبي ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ أُعَلِّمُكُمْ**»[٣] بينما القرآن يقول: ﴿**مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ**﴾[٤] والنبي ﷺ أخذ الجانب الإيجابي فيه: التعليم والتوجيه والتربية، وقد ذهب بعض العلماء إلي أنه لا يقال فيه ﷺ أنه أبو المؤمنين وإن كان يقال في أزواجه أمهات المؤمنين فيقال هو مثل الأب أو كالأب أو بمنزلة أبينا ولا يقال هو أبونا أو والدنا.

روي أن رجلين قدما على رسول الله فخطب أحدهما فعجب الناس من فصاحته وبلاغته فقال الرسول ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا**»[٥]. فإن قيل: كيف سمي النبي ﷺ روعة البيان سحراً مع أن السحر مذموم عقلاً ونقلاً؟

«فالجواب أن هذا على المجاز لا على الحقيقة فالخطيب يستميل القلوب بحسن بيانه وروعة أدائه وجمال تعبيره كما يستميل الساحر قلوب الحاضرين إليه بخفته ورشاقته وتمويهه على الحاضرين فمن هذا الوجه سمي البيان سحراً»[٦]، إذن فمن الجائز شرعاً أن نستخدم الجانب الإيجابي في المصطلح.

أفلا يجوز من باب المجاز أن يستخدم الإمام البنا مصطلح «حقيقة صوفية» في بعض أوصاف جماعته؟

---

(١) من الآية ٢٧ من سورة الحديد.
(٢) رواه ابن حبان في صحيحه واللفظ له، والطبراني في المعجم الكبير، والقضاعي في مسند الشهاب.
(٣) رواه أبو داود.
(٤) من الآية ٤٠ من سورة الأحزاب.
(٥) رواه البخاري والحاكم وأبو داود والدارمي.
(٦) تفسير آيات الأحكام، للصابوني ١/ ٧٦.

لقد كان الإمام البنا ابناً فقيهاً لوالد فقيه، وكان من بيت فقه وعلم فضلاً عن أنه كان نابغة وملهمًا، وكل كلمة يقولها الإمام البنا لها مرمى ومغزى ومحكومة بالفقه، فعندما قال: «حقيقة صوفية» كان يعني ما يقول. ولا ندري لماذا هذا الهجوم الضاري عليه؟

إن للنقد آداباً وإنصاف العلماء أمر مطلوب ومرغوب، فهم إن أصابوا لهم أجران وإن أخطأوا فلهم أجرهم، فحسن الظن بهم مقدم واسمع إلي أدب الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي وهو يعلمنا كيف يكون موقفنا من العلماء إن قالوا غير ما نعتقد، يقول عن الشيخ محمد عبده «: وقد أُخذ على الشيخ محمد عبده بعض فتاواه وبعض آرائه في تأويل القرآن كقوله في قصة آدم وكلامه عن الطير الأبابيل ونحو ذلك وعذره أن الحضارة الغربية كانت في أوجها وكان الانبهار بها على أشده لذلك غلبت النزعة العقلية ومحاولة إخضاع النص حتى يوافق المفاهيم الجديدة».

ومن الإنصاف لمن يريد تقويم شخص ما وتقدير فكره وعمله أن يضعه في إطاره التاريخي لا يعدو به زمانه ومكانه إلي زماننا نحن ومكاننا، فبعض ما يبدو لنا اليوم واضحاً مسلماً لم يكن كذلك في زمنه فرحم الله امرأ أنصف من نفسه وأعطى كل عامل ما يستحقه وأقام الشهادة لله»[١].

انطباع خاطئ:

عند بعض الناس انطباع عجيب إذا ذكر التصوف فهو عندهم صور مشوهة لحلقات الذكر المليئة بالبدع والمنكرات والخرافات فإذا ذُكر التصوف فهو التصوف الفلسفي الذي نقل عن الهنود واليونان الأقدمين، وانطباعه عن الصوفية دائماً أنها عقائد وحدة الوجود والحلول وشطحات المنحرفين والمخربين منهم كالحلاج وابن عربي والفارابي وغيرهم ونحن لا نختلف في انحرافهم. كيف لا وقد وصل بهم الأمر إلي تفسير بعض آيات القرآن بهذا الأسلوب المنكر، يقول بعضهم في قول الله تعالى:

(١) فقه الدعوة ملامح وآفاق، للدكتور يوسف القرضاوي، ص١٥٧.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾[(١)] قالوا هي النفس أمرنا بقتال من يلينا لأن النفس أقرب الشر إلي الإنسان نفسه، وهم بهذا يسقطون فريضة الجهاد.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾[(٢)] يقولون: نوح هو العقل ويعتقدون أن الله تعالى يلقي إليهم كلاماً ينتفعون به حتى أن ابن الصلاح يقول: «إن الإمام أبا الحسن الواحدي المفسر رحمه الله قال: إن كان قد اعتقد أن ذلك من التفسير فقد كفر، وإن كان غير ذلك فقد سلك مسالك الباطنية وهذا فيه من الإبهام والالتباس ما فيه»[(٣)].

يقول بعضهم: «خاتم النبيين»[(٤)] يعني زينة النبيين، وجاءت من الخاتم الذي يلبس للزينة، ويقولون: ما الذي يمنع أن يأتي نبي ورسول بعد محمد ﷺ ونسوا أن الرسول ﷺ قال: «وأنا خاتم الأنبياء، ولا نبي بعدي»[(٥)].

وهذا لا يختلف فيه مسلم أنه من المناكير التي يجب محاربتها.

ولكن يبقى سؤال: هل كل الصوفية على هذا المنوال وهذا الانحراف؟ وهل كلهم يتمايلون ذات اليمين وذات اليسار في حلقات منكرة وأقوال منكرة وأفعال منكرة؟

رأي علماء أهل السنة في الصوفية:

يقول ابن تيمية: قد انتسب إلي الصوفية طوائف من أهل البدع والزندقة، كالحلاج وابن عربى.

ثم يقسم موقف العلماء منهم إلي:

طائفة ذمتهم وقالوا مبتدعون خارجون على أهل السنة.

---

(١) من الآية ١٢٣ من سورة التوبة.

(٢) من الآية ١ من سورة نوح.

(٣) فتاوي ابن الصلاح، لابن الصلاح، ص٣٥.

(٤) من الآية ٤٤ من سورة الأحزاب.

(٥) رواه الحاكم، وابن حبان في صحيحه.

وطائفة غالت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء.

ثم يقول رأيه في الصوفية: إنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل الطاعات ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين ومنهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب.

«ويقول: وهذا من باب قد تنازع فيه، يقول هذا: أنا حنبلي ويقول هذا: أنا أشعري وقد أحضرت كتب الأشعري وكتب أكابر أصحابه مثل كتب أبي بكر الباقلاني وأحضرت أيضًا من نقل من مذاهب السلف من المالكية والشافعية والحنبلية وأهل الحديث وشيوخ الصوفية وأنهم جميعاً متفقون على اعتقاد واحد»[1].

ولنا وقفة:

إن التصوف الفلسفي والذي قارب من الرهبانية البوذية والنصرانية وحارب الجسد واستدار عن عمارة الدنيا وكوَّن أجيالاً من الكسالى القاعدين المنسحبين وكذلك التصوف الذي يدعو لتشييد القبور في المساجد ليطاف بها ويحتفي بأصحابها في موالد ينكرها كل عاقل لما يفعل فيها.

أقول إن هذا التصوف نرفضه وننكره بقواعد الإنكار المعروفة ابتداءً ولكن هناك تصوف المجاهدين كعبد الله بن المبارك أو شفيق البلخي، هذا التصوف الذي نبت في أكناف الإيمان والإسلام والإحسان وأتم بالعبودية الحقة والحس الرقيق الذي يقول فيه: إن سجني لخلوة وإن نفي لسياحة وإن موتي لشهادة.

يقول ابن عطاء السكندري: شكوت همومي وأحزاني إلي العباس المرسي فقال لي: **أحوال العبد أربعة لا خامس لها**: النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية.

فإن كنت في **النعمة** فمقتضى الحق منك **الشكر**.

وإن كنت في **البلية** فمقتضى الحق منك **الصبر**.

وإن كنت في **الطاعة** فمقتضى الحق منك **شهود منته عليك**.

---

(١) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية ٢/ ٢٠٥.

وإن كنت في **المعصية** فمقتضى الحق منك **وجوب الاستغفار.**

يقول ابن عطاء السكندرى: فقمت من عنده وكأنما كانت الهموم والأحزان ثوبًا نزعته.

وهذا الإمام جعفر الصادق يقول: إذا سمعت المولى يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ فأصغ إليه فإنما هو أمر أو نهي، ويقول وإجابة ذلك على الحقيقة ثلاثة: **تصديقه، والعمل به، وإرادة وجهه بالعمل به،** واعلم أن أصل كل معصية وشهوة وغفلة: الرضا عن النفس، وعلامة ذلك هي رؤية الحق لنفسه، والشفقة عليها، والإغضاء عن عيوبها، وأصل كل طاعة وعفة ويقظة عدم الرضا منك عنها وعلامة ذلك اتهامها والحذر من آفاتها وحملها على المكاره في عموم أوقاتها.

ويقول ابن عطاء السكندرى عن سهل بن عبد الله التستري: احذر صحبة ثلاثة من أصناف الناس: القراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين، والجبابرة الغافلين.

ويقول: كن طالباً للاستقامة، ولا تكن طالباً للكرامة، فإن نفسك تهزك لطلب الكرامة ومولاك يطالبك بالاستقامة ولئن تكون بحق ربك أولى من أن تكون بحظ نفسك.

ويقول: عمى البصيرة ثلاثة: إرسال الجوارح في معاصي الله، والطمع في خلق الله والتصنع بطاعة الله.

وسُئل أحد الصوفية: بم أدركت ما أدركت؟ قال: وجدته بأفضل التوحيد، وخدمته خدمة العبيد، وأطعته فيما أمرني ونهاني فكلما سألته أعطاني.

ويقول آخر: اليقين نور يجعله الله في قلب المؤمن حتى يشاهد به أمور آخرته ويخرق به كل حجاب بينه وبينها حتى يطالع الآخرة كالمشاهد لها.

ويقول آخر: من علامات الاكتفاء بالله ثلاثة: الرضا عن الله، والاهتمام بأمره، وعدم الالتفات لغيره.

هذا تصوف يؤدي إلي س التكاليف برضي نفس رحب، ويترك المعاصي

باستغناء واستعلاء ويتذوق الإيمان فينقله من التعريف إلي الإحساس القلبي؛ لأن العالم الذي لا قلب له كالشجرة التي لا ظل لها ولا ثمر، فالدين عقل وقلب. وهنا نرى علماء جمعوا بين العقل والقلب. ألا ترى ابن القيم حين يتكلم في مدارج السالكين كم يخفق قلبك أو تدمع عيناك أو يقشعر جسدك وكأنك ترى الجنة رأي عين، أو أبا حامد الغزالي وهو يكشف لك اعوجاج أرسطو في فكره وأفلاطون في نظره وأما عن الإمام الجنيد فيقول ابن تيمية: وكان الجنيد رضي الله عنه سيد الطائفة وإمام هدى ومن أحسنهم تعليماً وتأديباً وتقويماً[١] وأثنى عليه ابن القيم في مدارج السالكين[٢] وأبو الحسن الشاذلي وغيرهم الكثير.

ماذا تقول عن تصوف أهل العلم والاستقامة كالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم وأبي سليمان الداراني وسهل بن عبد الله التسترى الذين ضبطوا التصوف بضوابط الشريعة فقدموا لنا دراسة عن البواعث النفسية وفرضوا رقابة صارمة على بواعث العمل حتى تصفو النية وعلمونا كيفية التمرس بمقام الإحسان وطول البقاء في نطاق أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

فإذا وهم يتتبعون آيات الله في الأنفس والآفاق ومحاولة تدارس الحاضر والماضي والارتقاء على مستوى الكتاب والسنة ليحققوا الشخصية الإسلامية التي افتقدناها.

أبعد هذا يرفض التصوف بالكلية؟ ليس من النصفة في شيء فإن التعميم في الأحكام ليس من شيمة العلماء ولا هو بمنهج علمي.

واسمع إلي أحد تلاميذ الإمام البنا يقول:

الأصل في الصوفية أخذ النفوس بأسلوب يطهرها من أدرانها ويزكيها ويصقلها فيرقى بها إلي مدارج الكمال الإنساني وهو أسلوب من أساليب التربية ونحن الإخوان المسلمون نعتبر التربية الروحية أساس دعوتنا لتكوين الفرد.

ثم يقول: «وليس معنى هذا أن ينقطع المسلم لهذا الأسلوب وينعزل عن المجتمع

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية ٥/ ٤٩١.
(٢) مدارج السالكين، لابن القيم٢/ ٢٧٦.

ولا يتخذ هذا الأسلوب للارتزاق وجمع المال والتسلط على الناس وكسب الصيت والسمعة فإن بعض مشايخ الطرق انحرفوا بأتباعهم عن الطريق الصحيح وانعزلوا عن المجتمع ولما أحسوا بتيار الإخوان المسلمين الحركي يجذب بعضهم بعد أن عرضت عليهم فكرة الشمول أعلنوا الحرب على الجماعة خاصة في الريف»[1]، أليس هذا الفهم من الواقع الذي عايشه ولمسه؟

وإن تعجب فعجب قولهم أن الإخوان المسلمين صوفيون مبتدعون، بينما الرجل هنا بين لنا - كما رأيت - أن بعض الصوفيين الذين انحرفوا عن الطريق الصحيح حاربوا الجماعة، أليس هذا يدعو إلى العجب؟! فبالأمس كان يحاربنا بعض الصوفيين المنحرفين عن الفهم السليم واليوم نُحارب؛ لأننا صوفيون مبتدعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فمع أي الفريقين نحن؟ لا شك أننا مع السلف الصالح.

الحقيقة التي ندين بها:

من هنا فإننا لا نرفض الصوفية بالكلية وكيف نرفضها بالكلية وهم الذين نشروا الإسلام في أفريقيا ورفعوا راية الجهاد في بلادهم: السنوسية في ليبيا، والمهدية في السودان، بل وفي الجزائر وتونس ومراكش وغير ذلك من بلاد المسلمين فضلاً عن أفاضل علمائهم الذين أشرت إليهم.

كما أن الحكم الدقيق في هذه المسألة أن منهم العالم التقي الورع المجاهد ومنهم الجاهل بدينه ومنهم الكاذب المشعوذ وقد تجد ذلك في غيرهم من الجماعات..فهل أخطأ الإمام البنا حين قال عن دعوة الإخوان أنها «حقيقة صوفية».

«فاللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنا لما اختلف فيه من الحق إنك تهدي من تشاء إلي صراط مستقيم»[2].

---

(١) الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ، للأستاذ محمود عبد الحليم ١/ ١٣٦.

(٢) دعاء مأثور رواه الإمام مسلم.

مردود الأصل الثالث

أولاً: حصيلة العقل:

أ – اختر الإجابة الصحيحة (من الممكن أن تكون أكثر من إجابة صحيحة):

١ – من الإشارات التي نبه إليها هذا الأصل:

أ	الاهتمام بالتحصيل العلمي	ب	ربط الأقوال بالأفعال
ج	أن للإيمان حلاوة في القلب	د	جميع ما سبق

٢ – من المصادر التي قد يُعمل بها في استنباط الأحكام الشرعية:

أ	القرآن والسنة	ب	الإجماع والإلهام
ج	الكشف والعرف	د	جميع ما سبق

٣ – قد تعتبر الخواطر من مصادر التشريع إذا:

أ	لم تصطدم بأحكام الدين	ب	كانت من العلماء الصالحين فحسب
ج	كانت من أي مسلم صالح	د	لا شئ مما سبق

٤ – قد تكون الرؤيا تشريعاً إذا:

أ	رآها الأنبياء	ب	رآها الصالحون
ج	أقرها الأنبياء	د	لا شيئ مما سبق

ب – ضع (أ) أمام العبارة الصحيحة و (ب) أمام العبارة الخطأ فيما يلي:

٥	يَعتبر الإسلام الخوارق التي تحدث لبعض الصالحين خرافات لا يُلتفت إليها.	
٦	منح الله للعبد سلاح الصبر ليجاهد به الشكوك والشبهات.	
٧	رد الفضل لبشر – إن كانوا أهل له – يعد من صورة تقديسهم.	
٨	من الأحوط أن نرفض التصوف بكل صوره وأشكاله.	

قارن إجاباتك بالإجابات النموذجية في آخر مردود الأصل، وأعطِ نفسك درجة لكل إجابة صحيحة وصفرًا للإجابة الخاطئة.

أكثر من ٨	٧ – ٨	٦	٥	أقل من ٥
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثانيًا: رصيد القلب:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائماً	غالباً	أحياناً	نادراً	أبداً
١	لا أقبل الكشف والخواطر والرؤى إلا بشرط موافقتها للكتاب والسنة.					
٢	لا يغيب عني أن الكشف والخواطر والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية.					
٣	أومن أن الله قد يكشف لبعض عباده الصالحين عن بعض ما غاب عنهم.					

دائما=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٠	٩ – ١٠	٧ – ٨	٦	أقل من ٦
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثالثًا: حساب الجوارح:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

العبارات	دائماً	غالباً	أحياناً	نادراً	أبداً
١ - لا أعتبر الخواطر والكشف والرؤى إلا بموافقتها للوحي.					
٢ - أنشر فيمن حولي أن الكشف والخواطر والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية.					
٣ - لا أقبل اجتهادًا في الأحكام استند إلي الكشف أو الخواطر أو الرؤى.					

دائما=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٠	٩ - ١٠	٧ - ٨	٦	أقل من ٦
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

إجابات حصيلة العقل (٣)

السؤال	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨
أ		✓		✓				
ب	✓				✓	✓	✓	✓
ج	✓			✓				
د			✓					

الأصل الرابع

المنكر الذي يجب محاربته

«والتمائم والرقى والودع والرمل والكهانة وادعاء معرفة الغيب وكل ما كان من هذا الباب منكر تجب محاربته إلا ما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة »[1].

---

(١) مجموعة الرسائل، للشهيد حسن البنا، رسالة التعاليم، ص٢٦٩، ٢٦٨.

تكلمنا من قبل عن قول الإمام ابن القيم ﷺ: «إن لـ لا إله إلا الله قلبًا وقالبًا»، فقالبها علمها وهذا يشترك فيه المؤمن والكافر على حد سواء، أما قلبها فهو أثرها وهذا هو الذي يتميز به المسلم عن غيره.

ولذلك ركز الإمام البنا على أثر لا إله إلا الله في بناء الرجال، فالتركيز على أثر العقيدة في البناء والتربية أمر من الأهمية بمكان إلا أن الإمام البنا رضوان الله عليه وأرضاه لفت نظرنا إلى أن حركة القلب قد تتجه اتجاهاً خاطئاً حين تعتمد على الإلهام والخواطر والكشف والرؤى وهي أمور تتصل بالقلب والتي قد تحدث التأثير الخاطئ البعيد عن تأثير عقيدة لا إله إلا الله المطلوبة، أما الكشف والرؤى والخواطر فهي من الأمور التي لا يعتد بها ألبتة، خاصة إذا اصطدمت بالشرع الحكيم

والذي نريد أن نؤكد عليه هو أن الإلهام لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يعتد به إذا اصطدم بقاعدة شرعية أو نص صريح من نصوص الدين، ولذلك كان هذا الأصل الذي يوضح هذه المعاني ويركز على حماية التوحيد والعقيدة من أن يشوبها شائبة وأن لله ﷻ سنن مبثوثة في الكون والإنسان والحياة فيجب أن تراعى هذه السنن وأن توضع في موضعها دون إهمال ودون إفراط أو تفريط.

فرعاية سنن الله في الخلق والاجتماع البشري واحترام نظم الأسباب والمسببات هي من صميم الإسلام، فإذا كان من سنن الله التداوي فذلك لا يتعارض مع الرقى الشرعية التي علمنا الرسول ﷺ إياها بعيداً عن الشركيات والمناكير.

ولذا فقد ارتكز هذا الأصل على قاعدتين في غاية الأهمية:

١ - **القاعدة الأولى وهي تجريد التوحيد لله ﷻ** حتى لا نركن للأسباب، نحن نأخذ بالأسباب ولكن لا نعتقد في أنها هي التي تفعل، بل الله ﷻ هو الذي يفعل فيجب علينا أن نعتقد بأن الشافي هو الله وليس الرقية حتى نجرد التوحيد من أي شيء شابه أو لحق به إلا أن يكون لله ﷻ لأن من الإيمان أن نعتقد أن الضار والنافع هو الله ﷻ والذين من دونه لا يملكون لا حياة ولا موتاً ولا نشورًا ويقول ربنا: ﴿**وَإِن يَمْسَسْكَ**

اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾ [(١)]، **﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾** [(٢)].

٢- **القاعدة الثانية وهي رعاية سنن الله تعالى في الخلق والحياة** والإنسان واحترام نظام الأسباب والمسببات لتنقية التوحيد مما لحق به من شوائب من الدَخَن والدَخَل هذا هو الأمر الأول.

والأمر الثاني أنني أرعى الأسباب والمسببات ولابد من الأخذ بها عبادة لله ﷻ - كما قلنا- لأنه شاع جو من الشرك والوثنية حينما دب الضعف في الجسد المسلم فدخل الدجالون بالشعوذة والسحر والكهانة والاتصال بالجان ولا أقول قديماً بل وحديثاً، وانتشرت الأباطيل والخرافات مما أحدث خللاً في فهم العقيدة ومنكراً في المجتمع يجب محاربته، فتصدى العلماء لهذه المنكرات والتي منها التمائم والرقى والودع والرمل والكهانة وادعاء معرفة الغيب وكل ما كان من هذا الباب.

قواعد وأصول محاربة المنكر:

هذا الأصل يعتبر استكمالاً للأصل الثالث، فهو ينفي من مصادر التشريع ما ليس منها، ليتحدد الفهم السليم تحديداً دقيقاً، ولقد تعرض الإمام البنا لهذه الأمور لأنها كانت منتشرة في زمانه فكان من الطبيعي أن يقدم العلاج لمشاكل عصره وزمانه.

والغريب أن بعض الناس حتى يومنا هذا يدَّعون معرفة الأسرار والغيبيات، ومع تقدم العلم وانتشاره إلا أن بعضهم تراه يتشاءم من أماكن معينة وأيام محددة بل وأشياء بعينها، وهذا لون من الجهل حاربه الإسلام ووجه العباد إلى الله وحده كي يعتمدوا عليه في تذليل ما قد يعترضهم: **﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [(٣)].

---

(١) من الآية ١٧ من سورة الأنعام.

(٢) من الآية٣٨ من سورة الزمر.

(٣) الآية ٧١ من سورة الأنعام.

حب الإنسان لمعرفة الغيب:

يرجع حب الإنسان لمعرفة الغيب إلى أمرين يتملكان الإنسان:

أولاً- رغبته الملحة في سرعة اكتشاف الغيب وخاصة فيما يتعلق بمستقبله ومستقبل من يتصل به: ﴿**خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ**﴾ [١]، ﴿**وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً**﴾ [٢].

ثانياً-خوفه الشديد من اعتراض ما يعوقه عن أهدافه التي يتجه إليها ويعزم عليها، ولذلك أخذ يتسمع لما يجري بين الناس من الوهم والخيال عن طريق معرفة الغيب في خيره وشره[٣]، وهذا قدح في التوكل والتفويض لله ﷻ، فما على الإنسان إلا أن يأخذ بالأسباب ثم يتوكل ﴿**عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۞ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۞ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾ [٤]ومن هنا وجب البعد عن الوهم والخيال.

ومن هذه الطرق الشاذة: الولاية والكهانة والتنجيم وضرب الحصى والودع وخطوط الرمل والفنجان والمندل واستخارة المسبحة واستخارة القرآن والتشاؤم بالزمان والمكان سواء أكان في الساعة أو اليوم أو الشهر أو الأشخاص والأشياء والكلمات وأضغاث الأحلام وأضف إلى كل هذا تحضير الأرواح وحظك اليوم في زماننا هذا.

وهذا الدجل وهذه الشعوذة التي أشرنا إليها تعطل الأعمال وتهمل سنن الله التي وضعها للسعادة والشقاء وتتعامى عن الأخذ بالأسباب فكم من ابنة منعوها من الزواج دجلاً وكم من تاجر قعد عن السفر وأهمل تجارته اعتماداً على نبوءة دجال كاذب وكم من مريض أهمل العلاج وأخذ بهذه الشعوذات والخزعبلات وكم تنشر الصحف والمجلات من هذا الدجل الكثير وهي التي يفترض فيها أن تكون مصدراً للثقافة، والعجيب أننا سمعنا عن قرارات سياسية في دول عظمى صدرت بعد استشارة منجمة كان يستشيرها الحاكم الأمريكي.

---

(١) الآية ٣٧ من سورة الأنبياء.

(٢) من الآية ١١ من سورة الإسراء.

(٣) الفتاوى، للشيخ محمود شلتوت، ص٢٤.

(٤) الآيات ٢١٧-٢١٩ من سورة الشعراء.

موقف الإسلام من التشاؤم:

لقد أنكر الإسلام التشاؤم، ونهي عنه بشكل قاطع وبيَّن أنه لا يجوز أبداً للمسلم أن يتشاءم، كما تشاءم قوم موسى ﴿فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ﴾ (١)، أو تشاؤم قوم صالح الذين: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ (٢)، أو تشاؤم أهل القرية برسلهم: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ (٣)، فكان الرد عليهم أن الشر جاء من قبلكم ومن عند أنفسكم بكفركم وعنادكم وإهمالكم سنن الله: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهُ﴾ (٤).

والغريب أن هؤلاء المتشائمين يستشهدون بالقرآن للتدليل على صوابهم في مثل قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ (٥)، ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾(٦)، ﴿وأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۞ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى القَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ (٧).

إن الإمام الألوسي وضح هذا اللبس الذي لديهم وهذا الفهم المعكوس حين تساءل عن قول الله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾. فقال فإذا كانت نحوسة الأيام لذلك فقل لى: أي يوم من الأسبوع خلا منها، والحق كما قال: إن كل الأيام سواء ولا اختصاص ليوم بنحوسة ولا لآخر بسعد وأنه ما من ساعة من الساعات إلا وهي سعد على شخص ونحس على آخر باعتبار ما يقع فيها من خير على هذا ومن شر على ذاك وهكذا.

الغيب:

والإنسان المسلم من صفاته أنه يؤمن بالغيب وهو ما استتر عنه وغاب عنه وهو

---

(١) من الآية ١٣١ من سورة الأعراف.
(٢) من الآية ٤٧ من سورة النمل.
(٣) من الآية ١٨ من سورة يس.
(٤) من الآية ١٣١ من سورة الأعراف.
(٥) من الآية ١٦ من سورة فصلت.
(٦) من الآية ١٩ من سورة القمر.
(٧) الآيتان ٦، ٧ من سورة الحاقة.

لا يستطيع أن يتوصل للغيب إلا وحياً؛ لأنه لا يعرف شيئاً عن الغيب إلا عن طريق الوحي، فإذا كنا نؤمن بالغيب فإننا نؤمن به لأنه جاء من عند الله ﷻ فعندما يخبرنا القرآن ويكلمنا عن الملائكة فنحن نؤمن بها بالرغم من أنها غيب بالنسبة لنا وإيماننا بها يرجع إلى تصديقنا بالكتاب والسنة؛ لأنه لا يمكن أبداً للمسلم أن يؤمن بالغيب إلا عن طريق الكتاب والسنة المطهرة التي بينها رسول الله ﷺ.

والذي نريد أن نؤكد عليه أن الفرق بين الإنسان والحيوان هو الإيمان بالغيب، والإيمان بالغيب أمر حسي ومعنوي يدركه الإنسان بعقله وإن كان لا يصل إليه يشعر أن وراء هذا الكون الكثير مما يغيب عنه. والعلماء يبذلون كل الجهد ليدركوه وذلك من خلال سُنة من سنن الله التي تتكشف لهم عن طريق العلم، ومهما اكتشفوا فسيستمر قول الله: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾(١) فكلما اكتشفوا سُنة من سنن الله المبثوثة في الكون بحثوا عن غيرها لحاجتهم إليها بالرغم من كل ما اكتشفوه فستبقى هناك أمور لا يدركها العقل، هذا هو الإدراك الحقيقي، يقول سيدنا علي ﷺ كلمة لطيفة في هذا المعنى وهي: (**عدم الإدراك إدراك**). فاعترافي بعجزي عن إدراك ما في الكون هو الإدراك بعينه (عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي) نحن لم نعرف الله بعقولنا فحسب، يمكن أن نكون قد عرفنا التوحيد ووصلنا إليه بعقولنا ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾(٢)، ﴿**قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً**﴾(٣) كل هذه قضايا عقلية وبعد كل ذلك يتساءل العقل أسئلة كثيرة: ماذا يريد ربنا؟ ماذا يحب؟ماذا يكره؟ ماذا بعد الموت؟ إلى آخر هذه الأسئلة.

أسئلة كلها عقلية تريد إجابة ولا يستطيع العقل أن يجيب عنها فيأتي الوحي فيجيب عن هذه الأسئلة، ولذلك سيأتي يوم يقول ويعرف السائل الهدى ويمسك لسانه ويحترم عقله وسيرى من أنكروا وجود الإله يوم القيامة وهم يقولون: ﴿**لَوْ كُنَّا**

---

(١) من الآية ٥٣ من سورة فصلت.
(٢) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.
(٣) الآية ٤٢ من سورة الإسراء.

نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۞ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(١)، فإذن إدراك وجود المجهول أمر لا يستطيع أن ينكره عاقل ولكن محاولة إدراك العقل لهذا الغيب لون من ألوان العبث، لماذا؟ لأن استخدام الحاسة في غير ما خلقها الله له لون من ألوان العبث فعلاً فالأذن مهمتها السمع فلا يمكن أن نسأل: لماذا لا ترى؟ بل إن حاسة السمع نفسها لها مدى معين لا تستطيع أن تسمع ما فوقه وما دونه، فالعقل خلقه ربنا ﷻ للإنسان ووظيفته في إدراك الماديات والعلاقات بين الأمور بعضها ببعض أما ما وراء المادة فلا يملك العقل إلا التسليم به إن آمن بربه واهتدى **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾**(٢)حتى ولو كان هذا الأمر غير معقول المعنى.

فصلاة الصبح ركعتان والعقل يقول الزيادة أفضل فهل نستطيع أن نصليها أربعًا أو خمسًا. كلا إنه التسليم لأمر الله فالغيب أمر اختص الله به نفسه أو من ارتضى من رسول **﴿قُل لا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ﴾**(٣) ولذلك فإن رسول الله ﷺ أمره الله ﷻ بأن يقول: **﴿لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾** .(٤)

والإيمان بالغيب صفة من صفات المؤمنين **﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾**(٥)، فهم يصدّقون بما غاب عنهم وما لم تدركه حواسهم من البعث والجنة والنار والصراط والحساب وغير ذلك مما أخبر عنه القرآن أو النبي ﷺ.

يقول تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**(٦).

---

(١) من الآيتان ١١،١٠ من سورة الملك.
(٢) من الآية ٣٦ من سورة الأحزاب.
(٣) من الآية ٦٥ من سورة النمل.
(٤) من الآية ١٨٨ من سورة الأعراف.
(٥) من الآية ٣ من سورة البقرة.
(٦) الآية ٣٤ من سورة لقمان.

وصدق الله القائل: ﴿**عَالِمُ الغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ۞ إلا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ**﴾ (١)، لذا وجدنا يوسف عليه السلام يقول لصاحبي السجن: ﴿**لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي**﴾ (٢)، وترى اعتراف الجن بعجزهم حين خر سيدنا سليمان: ﴿**فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ**﴾ (٣).

فيجب على المسلم أن يفرق بين ما يخبر به الوحي من غيب من عند الله نزل به الروح الأمين وبين من يخبر به من المشعوذين والدجالين عن طريق الكهانة والعرافة والدجل والشعوذة، فالتصديق بالأول إيمان وأما التصديق والإيمان من هؤلاء المشعوذين شرك قد يؤدي إلى الكفر، يقول الرسول ﷺ: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ لَمْ يُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا**»(٤)، ويقول ﷺ: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**»(٥).

أبعد هذا يدعي مدع أنه يعلم الغيب...إنه لكاذب بل ويفتري على الله الكذب.

لهذا فإننا سنبين بوضوح ما هي التمائم، والرقى، والكهانة، والسحر، التي أشار إليها الإمام البنا في هذا الأصل.

ما هي التميمة؟

عرفها العرب في الجاهلية بأنها عبارة عن خرزة يعلقها العربي في رأسه أو رقبته لتدفع عنه الضر والشر، ومن التمائم أيضاً ما يُعلق على الأبواب مثل الكفين الأزرقين والخرزة الزرقاء وما يعلق في السيارة وغيرها، وكانوا يعتقدون في الخرزة بينما لا يعتقدون في الله النافع الضار، كما كانوا يعتقدون في العين والحسد وأن تعليق مثل هذه الأشياء تدفع عنهم الضرر، ولا يصيبهم أذى بفضلها، يقول المولى ﷻ: ﴿**قُلْ**

---

(١) الآيتان ٢٦، ٢٧ من سورة الجن.
(٢) من الآية ٣٧ من سورة يوسف.
(٣) من الآية ١٤ من سورة سبأ.
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه أحمد واللفظ له، والترمذي وابن ماجه وغيرهم.

أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [١].وروى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر مرفوعاً «**مَنْ تَعَلَّقَ تَميمَةً فلا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فلا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ**» [٢]، وفي رواية «**مَنْ عَلَّقَ تَميمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ**» [٣] والمعنى من علق هذه الأشياء متعلقاً بها قلبه في طلب خير أو دفع شر فلا أتم الله له، وهو دعاء عليه بعدم حصوله ما أراد.

ولقد بين لنا الرسول ﷺ أن هذا الأمر لون من ألوان الشرك، يقول الإمام أحمد في مسنده عن عقبة بن عامر أن الرسول ﷺ أقبل إليه رهط يبايعونه فبايع تسعة وترك العاشر، فقالوا له: يا رسول الله بايعت تسعة وتركت هذا، قال: «**إِنَّ عَلَيْهِ تَميمَةً**» فأدخل يده فقطعها فبايعه الرسول ﷺ وقال: «**مَنْ عَلَّقَ تَميمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ**» [٤]، ويقول ﷺ:«**مَنْ تَعَلَّقَ تَميمَةً فَلا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فَلا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ**» [٥] أي لا أتم الله له ما أراد ولا جعله الله في دعة وسكون، ولقد ذكر العلماء حكم التميمة أنها لون من ألوان الشرك يربأ المؤمن عن فعله، فعن عمران بن حصين أن الرسول ﷺ رأى في يد رجل حلقة فقال: «**ما هذا؟**» قال: اتخذتها من الواهنة (الواهنة عرق في القدم أو اليد يصيب الإنسان بشيء من المرض) قال:«**ما تزيدك إلا وهناً، انبذها عنك؛ فإنك إن مت وهي عليك وكلت إليها**» [٦].

إلى هذا الحد يكره الرسول ﷺ ويأمر الرجل بأن ينزع هذه عن يده؛ لأنه يعتقد أنها سبب في شفائه، وفي رواية أخرى في مسند الإمام أحمد: « **فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا**» [٧]، وفي الآية القرآنية: **﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ﴾** [٨]، وفي الصحيحين عن أبي بشر الأنصاري ﵁ أنه كان مع رسول الله ﷺ في

---

(١) من الآية ٣٨ من سورة الزمر.
(٢) رواه أحمد في مسنده.
(٣) رواه أحمد في مسنده.
(٤) روا أحمد في مسنده.
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) رواه الطبراني في المعجم الكبير.
(٧) رواه أحمد في مسنده.
(٨) من الآية ١٠٦ من سورة يونس.

بعض أسفاره.. والناس في مبيتهم فأرسل رسول الله ﷺ رسولا: «**أَنْ لا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلادَةٌ مِنْ وَتَرٍ أَوْ قِلادَةٌ إلا قُطِعَتْ**».(١)

ويذكر الإمام ابن الجوزي أن هناك ثلاثة أقوال في هذا الموضوع (البعير) فيقول:

١- كانوا يضعونها خشية أن تصيبها عين فتدفع القلادة العين.

٢- كانوا يضعونها خشية أن البعير عندما يشرب ويرفع رقبته أن يختنق فحرصًا من الرسول ﷺ على حياة البعير أمر برفعها من رقبته.

٣- كانوا يضعون فيه الأجراس حتى إذا غابت البعير عرفوا مكانها.

والحقيقة أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتميزون بخشيتهم من الشرك الأصغر فضلاً عن الشرك الأكبر فكانوا يتحرون في ذلك كل الأمور، خاصة وأن الرسول ﷺ حذرهم من الشرك ووصفه بأنه أدق من دبيب النملة السوداء على الصخرة الملساء في الليلة الظلماء، فقالوا: وكيف نتّقيه وهو أخفى من دبيب النّمل يا رسول اللّه؟ قَالَ: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا نَعْلَمُ**»(٢)

ويروى ابن مسعود ﷺ قصة سمعها من زوجته زينب، كانت زينب تقول: «كانت عجوز تدخل علينا ترقي من الحمرة وكان لنا سرير طويل القوائم وكان عبد الله إذا دخل تنحنح وصوت -كراهية أن يهجم منا على شيء نكرهه- فدخل يومًا، فلما سمعت صوته احتجبت منه، فجاء فجلس إلى جانبي فمسني، فوجد مس خيطٍ فقال: ما هذا؟ فقلت: رقًى لي فيه من الحمرة. فجذبه وقطعه فرمى به، وقال: لقد أصبح آل عبد الله أغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول:«**إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**»(٣).

والرقى هنا المقصود بها الرقى التي بها ألفاظ شركية، **وأما التولة** فهي شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب الزوجة إلى زوجها والزوج إلى زوجته وهو نوع من السحر وإنما كان من الشرك لما يراد من جلب المنافع ودفع المضار من غير الله.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم.

(٢) رواه أحمد.

(٣) رواه أحمد وابن ماجه.

موقف الصحابة والتابعين والعلماء:

أحاديث رسول الله ﷺ التي سبقت وقف منها الصحابة والتابعون بل وأصحاب المذاهب موقفين:

١ - **أهل العراق** وهم تلاميذ ابن مسعود وأصحاب المذهب الحنفي كانوا يكرهون التمائم كلها سواء أكانت من القرآن أم من غير القرآن ولا يجوزونها على الإطلاق.

٢ - أما **عبد الله بن عمرو** فلم يكن يمانع ذلك، روى عمرو بن شعيبٍ عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلماتٍ نقولهن عند النوم من الفزع: «**بِسْمِ اللَّهِ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ**»(١) قال فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيرا لا يعقل أن يحفظها، كتبها له، فعلقها في عنقه(٢). فالمسألة كما ترى خلافية، و[المختلف فيه لا إنكار فيه] كما قال الإمام النووي.

يقول **ابن حجر العسقلاني** في فتح الباري أنه يميل إلى الرأي الذي يقول بجواز تعليق التميمة إذا كانت من قرآن أو سنة يقول: هذا في ما ليس فيه قرآن فأما ما فيه ذكر الله فلا نهي فيه وإنما يجعل للتبرك بأسمائه وذكره.

أما العراقيون وعلماؤهم فقالوا بكراهة ذلك فيما فيه القرآن وما ليس فيه قرآن.

فإذا تركنا هؤلاء وجئنا إلى الإمام محمد بن عبد الوهاب الذي يعتبره البعض متشدداً فإنه يقول في كتاب «التوحيد» تعليقاً على هذا الحديث:«**إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**»(٣). يقول: إن هذا رخص فيه بعض علماء السلف وبعضهم لم يرخص فيه وجعله من المنهي عنه وللمسلم إذن في هذه القضية أن يأخذ ما يطمئن له قلبه.

أما أستاذنا وشيخنا الدكتور القرضاوي فهو من الذين لا يجوزون، وأيد رأيه بأمور أربعة فيقول: إني أرجح كراهية التمائم كلها للأسباب الآتية:

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه أحمد واللفظ له، والترمذي وأبو داود.

(٣) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه.

١- عموم النهي عن التمائم حيث لم تفرق النصوص بين بعضها وبعض ولم يوجد مخصص وأن النصوص التي قالها الرسول ﷺ واضحة في أن فيها عمومًا وليس فيها مخصص يخصصها.

٢- سد الذريعة حتى لا يفضي لتعليق ما ليس كذلك وحتى لا يتصور بعض الجهلة أن الجواز مصروف للكل.

٣- إنه إذا علق ذلك لابد أن يمتهنه (من المهانة) كحمله في قضاء الحاجة ودورة المياه مثلاً.

٤- إن القرآن أنزل ليكون هداية ومنهاجاً للحياة لا أن يكون تمائم وحجباً وما إلى ذلك.

ونحن نلخص حكمها في الآتي:

١-إما أن تكون بألفاظ شركية وهذا مجمع عليه بعدم الجواز مع كراهيته وحرمته.

٢-تميمة فيها أدعية أو قرآن أو اسم من أسماء الله الحسنى هذه كما حدث من عبد الله بن عمرو.

والإمام ابن حجر والإمام ابن عبد الوهاب قالوا بالجواز في هذه المسألة أيضًا، وهذا يدل على أنها خلافية في حكمها.

الرقى:

جمع رقية وهي العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع ولدغ الثعبان ويضاف إليها الرقية من العين.

والرقية ليست على إطلاقها قال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ۝ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾[1]، والاستفهام هنا استنكاري إذا بلغت الروح الحلقوم من يرقيهم ومن يحميهم، وهذه الرقى كانت معروفة عند العرب وقبل مجيء الإسلام وكان فيها

(١) الآيتان ٢٦،٢٧ من سورة القيامة.

شركيات ظاهرة، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**»[١]. إلا أن الرقى منها ما كان بأسماء الله وهي الرقية المشروعة؛ لأنها بأسماء الله وصفاته وأمرها مطلوب مرغوب وسنة عن الرسول ﷺ حين تقول: « **أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ**»[٢]. أو تقول: «**أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**»[٣]، أو تقول: «**اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ أَذْهِبْ الْبَاسَ اشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي لا شِفَاءَ إِلا شِفَاؤُكَ شِفَاءً لا يُغَادِرُ**»[٤]، أو تقرأ فاتحة الكتاب والمعوذتين وغير ذلك من الأدعية والرقى المأثورة، وقد رقى جبريل رسول الله ﷺ ورقى رسول الله ﷺ نفسه ورقى بعض الصحابة، فالرقية مشروعة ومأمور بها ما لم يكن بها شرك، هذا إجماع على غير التميمة.

يقول الإمام ابن تيمية: إن هناك بعض رقى بألفاظ غير عربية، ولا معنى لها في كلام العرب وكل اسم مجهول ليس لأحد أن يرقى به فضلاً عن أن يدعو به، ومكروه بل ممنوع الرقية بغير العربية، أما لغير الناطقين بالعربية فقد جوزوا الرقية بالمعنى، لكن الأصل أن يرقى بالعربية.

يقول ابن حجر: أجمع العلماء على جواز الرقى عند توافر **ثلاثة شروط**:

١-أن تكون بكلام الله وأسمائه وصفاته.

٢-أن تكون باللسان العربي وبما يعرف معناه ويرخص لغير العرب بالترجمة باللسان.

٣-أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله.

والرقية كالدواء، والدواء من عند الله ﷻ والذي يؤمن بأن الدواء من عند الله يؤمن بأن بالرقية يتم الشفاء بقدر الله لا فرق بين الاثنين، بل إن بعض العلماء يقول: إن الطب الروحاني لا يمنع من الطب الجسماني ولا يمنع الطب الجسماني أبداً الطب

(١) تقدم تخريجه.
(٢) رواه مسلم والترمذي وأبو داود وغيرهم.
(٣) رواه مسلم وابن ماجه.
(٤) رواه أحمد والبخاري والترمذي وغيرهم.

الروحاني؛ لأن رسول الله ﷺ الذي شرع الرقية قال إن: « **لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ**»[١]، ولا تعارض بينهما. ويقول الإمام ابن القيم في زاد المعاد: «واعلم أن الأدوية الطبيعية الإلهية تنفع من الداء قبل حصوله وتمنع من وقوعه وإن وقع لم يقع وقوعاً مضراً وإن كان مؤذياً وإنما الأدوية الطبيعية تنفع بعد حصول الداء».

والتعوذات والأذكار إما أن تمنع من وقوع هذه الأسباب أو تحول بينها وبين كمال تأثيرها بحسب كمال التعوذ وقدره، وذلك يرجع لصفاء النفس وحسن العلاقة بالله تعالى، يقول أبو خزامة سُئل رسول الله ﷺ أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقي بها وتقى نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا؟ قال: «**هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّه**».[٢]

فالرقية مجمع عليها بين العلماء وهي سنة رسول الله ﷺ، وقد أمر فيها بقراءة المعوذتين، يقول النبي ﷺ: «**مَنْ نَزَلَ مَنْزِلا ثُمَّ قَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّه التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِه ذَلِكَ**»[٣]. ويقول سهيل بن أبي صالح عن أبيه قال: سمعت رجلاً من أسلم قال كنت جالسا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أصحابه فقال يا رسول الله لُدغت الليلة فلم أنم حتى أصبحت قال: «**مَاذَا**» قال عقرب. قال: «**أَمَا إِنَّكَ لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّه التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ تَضُرَّكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ**»[٤]، وتقول عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نفث في كفيه بقل هو الله أحد وبالمعوذتين جميعا، ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده [٥]. وكانت تقول أيضًا: أنه ﷺ كان يقرأ آخر آيتين من سورة البقرة في ليلته.

وكان في سفره ﷺ يقول: «**يَا أَرْضُ رَبِّي وَرَبُّكِ اللَّهُ أَعُوذُ بِاللَّه مِنْ شَرِّكِ وَشَرِّ مَا فِيكِ وَشَرِّ مَا خُلِقَ فِيكِ وَمِنْ شَرِّ مَا يَدِبُّ عَلَيْكِ وَأَعُوذُ بِاللَّه مِنْ أَسَدٍ وَأَسْوَدَ وَمِنَ الْحَيَّةِ وَالْعَقْرَبِ**

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود.
(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.
(٣) رواه أحمد ومسلم والترمذي.
(٤) رواه أحمد ومسلم وأبو داود واللفظ له.
(٥) رواه البخاري والترمذي وأبو داود.

وَمِنْ سَاكِنِ الْبَلَدِ وَمِنْ وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ»[١].

وأفضل الرقى هي الصيغة المأثورة عن رسول الله ﷺ وما رقى بها جبريل الرسول ﷺ وهي أفضل الرقى لوجهين:

١-إنها ذكر ودعاء واستعانة بالله.

٢-اتباع المأثور عنه ﷺ وهذا أمر مطلوب فنأخذ أجر الذكر وأجر الاتباع.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى منا إنسان مسحه بيمينه ثم قال: «**أَذْهِبْ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي لا شِفَاءَ إلا شِفَاؤُكَ شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا**» فلما مرض رسول الله ﷺ وثقل أخذت بيده لأصنع به نحو ما كان يصنع فانتزع يده من يدي ثم قال: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَاجْعَلْنِي مَعَ الرَّفِيقِ الأَعْلَى**»[٢]؛ لأنه ﷺ كان يعلم أن المنية قد اقتربت، وأما حديث العين فكان الرسول ﷺ يقول فيه: « **إن ربي الله هو الذي لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ما شاء الله كان وما لا يشأ لا يكون لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم أشهد أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما أعوذ بالذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه من شر كل دابة ربي آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم لم ير يومئذ في نفسه ولا أهله ولا ماله شيئا يكرهه**»[٣]، ومن المعلوم أنه يجوز للرجل والمرأة على حد سواء أن يرقيا، إلا أن المرأة ترقي المحارم فحسب، ولا يجوز لها أن ترقي المحارم على التأقيت، بل المحارم المقطوع بهم ويكفيها أن ترقي بنات جنسها.

الكهانة:

هي ادعاء علم الغيب والأصل في هذا الموضوع استراق الجن السمع من كلام الملائكة ثم يأتون في أذن الكاهن ويقولون ما سمعوه من كلام في الملأ الأعلى.

والكاهن: هو العراف أو المنجم أو من يضرب بالحصى وكل من يرجم بالغيب.

---

(١) رواه أمد وأبو داود.

(٢) رواه البخاري ومسلم واللفظ له وأحمد وغيرهم.

(٣) رواه الطبراني في الدعاء، وابن السني في عمل اليوم والليلة، والحارث بن أبي أسامة في بغية الباحث.

وكانت الكهانة فاشية في الجاهلية تماماً وهي على أنواع متعددة ومنها ما يتلقونه من الجن فلقد كان الجن يركب بعضهم البعض ليتسمّع في الوقت الذي لم يحُل المولى ﷻ بينهم وبين السمع فكان كل واحد يلقي ما يسمعه للآخر حتى يصل للكاهن وكان الكاهن يزيد عليه أو ينقص منه بل يضيف إليه ما يشتهيه ﴿**إلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ**﴾(١)، وهذا كله كان قبل رسالة الرسول ﷺ.

فكان الجن نفسه يخبر وليّه بما يسمع ويصبح الجن مصدر المعلومة للكاهن أو من يتصل به.

أو عن طريق الظن والتخمين والحدس وهذا فيه كثير من الكذب والاستنتاج أو يكون للكاهن خبرة وتجربة يستند إليها من تراكم المواقف فيدعي علم الغيب.

وعلى كلٍ فهو لون من ألوان السحر، تقول عائشة رضي الله عنها: سُئل رسول الله ﷺ عن الكهانة فقال: «**إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ**».فقالوا: يا رسول الله، فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقا، فقال النبي ﷺ: «**تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنْ الْحَقِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ فَيُقَرْقِرُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجَةِ فَيَخْلِطُونَ فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ**»(٢).

لذلك قال النبي ﷺ: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ** ﷺ»(٣)، وفي رواية:«**لَمْ يُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا**»(٤)، ولقد ذكر الرسول ﷺ في حديث السحر، «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**» قالوا: يا رسول اللّه، وما هنَّ؟ قال: **الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَالسِّحْرُ...**» (٥).

ولنا وقفة مع الجن:

الجن غيب من الغيب وما عرفنا الجن إلا عن طريق الوحي، قال تعالى: ﴿**قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا**

(١) الآية ١٠ من سورة الصافات.
(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد.
(٣) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم.
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه البخاري ومسلم والنسائي وغيرهم.

به﴾[١]، كما عرفنا الوحي أن مع الجن الذين خُلقوا من نار الملائكة الذين خلقوا من نور، والجن أرواح عاقلة مريدة (عندها إرادة) يحاسبون مثل الإنس، لذلك بُلغ القرآن والرسالة لهما وهم مجردون عن المادة البشرية لديهم القدرة على التستر عن الحواس لا نراهم على طبيعتهم ولا على صورتهم الحقيقية، بل لهم القدرة على التشكل.

ولقد علمنا الكتاب الكريم مادة خلقهم فقال: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ**﴾[٢]، وهم طوائف منهم المؤمن كامل الاستقامة، ومنهم العاصي ومنهم الكافر: ﴿**كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا**﴾[٣] أنواع وطرائق متعددة وكل هذه الأصناف لا نعرفها إلا عن طريق الوحي ﴿**وأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً ۞ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً**﴾[٤]، ولقد روى لنا ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان مع رسول الله ﷺ وانطلق معه حتى إذا وصلا إلى مكان معين قال له ﷺ:«**لا تتجاوزه**» ثم ذهب رسول الله ﷺ إلى وادي الجنة وبلغهم رسالة ربه[٥]﴿..**فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ**..﴾، ولقد بين لنا القرآن تسخير الجن لسيدنا سليمان عليه السلام وقصتهم معه معروفة، والجدير بالذكر أن أشد أنواع الجن خروجاً على طاعة الله تعالى إبليس اللعين وهو أبو الشياطين، والشياطين هم المتمردون من الجن، ولذلك عندما نستعيذ فنحن نستعيذ من الشيطان ولا نستعيذ من الجن؛ لأن فيهم المسلم والمؤمن، ولكن نستعيذ بالله من الشيطان؛ لأن الشيطان هو المتمرد الكافر منهم، فالشياطين هم المتمردون على الله، ولذلك كانت العداوة بيننا وبين الشيطان الذي أمرنا المولى باتخاذه عدوًا ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾[٦]، فمطلوب من الإنسان تعبد الله بأن يحذر ألاعيب إبليس وكلما اقترب الإنسان من الله واتقاه تعالى، ابتعد عنه الشيطان ولا يستطيع أن يفرض سلطانه

---

(١) الآيتان ١، ٢ من سورة الجن.

(٢) الآيتان ٢٦، ٢٧ من سورة الحجر.

(٣) من الآية ١١ من سورة الجن.

(٤) الآيتان ١٤، ١٥ من سورة الجن.

(٥) الحديث بتمامه رواه أحمد من قول ابن مسعود.

(٦) من الآية ٦ من سورة فاطر.

علينا، يقول ربنا: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۞ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[1]، إذن لا سلطان للشيطان على الإنسان، وتبين لنا السيرة أن الفاروق عمر ﷺ كان إذا رآه الشيطان يسير في فج سار في فج آخر من مهابته، ولقد جاء اللعين لسيدنا عيسى عليه السلام وهو يسير في الطريق وقال: يا عيسى ألم تقل إن ربك قادر على أن يحيي الموتى وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قال: بلى، قال فاصعد هذا الجبل وألق بنفسك من فوقه وأرني كيف يصنع الله بك؟ قال عيسى عليه السلام: خسئت يا عدو الله يا لئيم، لله أن يختبر العبد وليس للعبد أن يختبر ربه، و لذلك حذرنا المولى من اتباع خطوات الشيطان فهو يستدرج الإنسان خطوة بعد خطوة حتى يقول: اكفر ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[2]، وهكذا يستدرج الشيطان الساحر خطوة خطوة حتى يكفر بالله.

إننا ولا شك نؤمن بالسحر ولكن في نفس الوقت نؤمن بأن النفع والضر من الله ومن شاء أن يتحصن من الشيطان فلا يضره إلا بإذن الله فعليه بأمور ثلاثة:

١-قراءة القرآن لأن الإنسان الذي يقرأ القرآن ويلجأ إلى الله تعالى تصفو نفسه وتصبح نفساً مطمئنة صافية لا يمسها السوء في الدنيا ويناديها ربها من عل: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[3].

٢-الاستعاذة الدائمة بالله من الشيطان الرجيم.

٣-الإيمان بالله والتوكل عليه.

والسحر من الأمور التي يشارك فيها الجن بل يتولى كبرها وما قصة طالوت منا ببعيد، يقول ربنا تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ

---

(١) الآيات من ٩٨ – ١٠٠ من سورة النحل.

(٢) من الآية ١٦ من سورة الحشر.

(٣) الآيات ٢٧-٣٠ من سورة الفجر.

عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾(١).

لقد أرسل الله تعالى ملكين إلى قوم انتشر فيهم السحر في عهد سليمان عليه السلام وأرسل الله الملكين حتى يعلموا الناس السحر لرد كيد هؤلاء السحرة، فكانوا يعلمون الناس السحر لرد كيد السحرة عن الناس فكان الذي يتعلم هذا السحر يستخدمه في الضرر، ولذلك أصبح فتنة له، يقول المولى:**﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾**(٢) وعندما كانا يعلّمان أحدًا يحذرانه ويقولان له:**﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾**(٣)، نحن نعلمك لاستخدامه في دفع المضرة واستخدامه في الخير لتجزى خيراً واستخدامه في الشر فتنة وكفر، ولذلك كان تعلم السحر فتنة وبلاء وامتحان، يقول ربنا: **﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ﴾**(٤).

ولذلك كان للعلماء حكم على الساحر.

حكم الساحر:

وقف العلماء أمام حديث رسول الله ﷺ الذي يقول: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**»(٥). وهنا اختلف أيضًا العلماء واختلفوا في تأويله.

قال أبو حنيفة: يقتل ولا يستتاب حتى لو قال: سأترك السحر. فحكم الساحر حكم المرتد.

أما الإمام مالك فقال: يقتل ولا يستتاب إلا أن يكون من أهل الكتاب وإذا كان

---

(١) الآيتان ١٠١،١٠٢ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ١٠٢ من سورة البقرة.
(٣) من الآية ١٠٢ من سورة البقرة.
(٤) من الآية ١٠٢ من سورة البقرة.
(٥) رواه البيهقي في السنن الكبرى وأبو يعلى في مسنده.

يؤذي المسلمين يقتل وإذا كان إيذاؤه بعيداً عن المسلمين فهو وشأنه.

أما الإمام الشافعي فقال: لا يكفر بسحره إلا أن يكون متعمداً لذلك.

وللإمام أحمد روايتان في توبته: قال يكفر بسحره وإن كان له روايتان في توبته رواية تقول: تقبل توبته، ورواية أخرى تقول: لا تقبل توبته.

وعن عقبة بن نافع قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتْ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾** و**﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾**»(١) تقول عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يقرأ بهن وينفث في كفيه ويمسح بكفيه على جسده»(٢).

وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فنظر إلى القمر فقال: «**يَا عَائِشَةُ تَعَوَّذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ هَذَا غَاسِقٌ إِذَا وَقَبَ**»(٣). هذا فضلاً عن الحديث الذي أخبرنا أن جِبْرِيلَ أَتَى النبي ﷺ فقال: يا مُحَمَّدُ اشتكيت فقالَ: «نَعَمْ»، قال: «**باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك باسم الله أرقيك**»(٤).

فكيف نحارب هذه المنكرات؟

أول أمر نهتم به في محاربة هذه المناكير العمل على إزالة الجهل وتوضيح الأمر بالتثقيف وبث الوعي والتعريف بالإسلام الصحيح والدعوة بالحكمة الموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، فإذا لم يفد ذلك فبالزجر وبالتعنيف وهذا يدعونا إلى أن نتكلم عن كيفية إنكار المنكر.

كيفية إنكار المنكر:

قد يظن القارئ حينما يسمع ما قاله الإمام البنا «**وكل ما كان من هذا الباب منكر تجب محاربته**» أن الأمر يحتاج إلى استخدام العنف والقوة والإرهاب لأنه يقول: «تجب

---

(١) رواه أحمد ومسلم والنسائي وغيرهم.
(٢) رواه البخاري والترمذي وأبو داود.
(٣) رواه أحمد واللفظ له، والترمذي والحاكم.
(٤) رواه أحمد ومسلم والترمذي.

محاربته» هذا نظر من لا فقه عنده، أما من يرجع إلى علماء الأمة الثقات، وصحيح أن العلماء اتفقوا على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولكنهم اختلفوا في تحديد هذا الواجب من وجهين:

١-في صفة الواجب.

٢-فيمن يلزمهم هذا الواجب.

فقال بعض الفقهاء في صفة الواجب أنه فرض عين على كل مسلم ولو كان هناك من هو أقدر منه، وأما الجمهور على أنه فرض كفاية؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ولْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ ويَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ [١]، و(من) هنا للتبعيض.

وأما فيمن يلزمهم الواجب فالجمهور على أنه كل أفراد الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ...﴾ [٢]وغيرهم قالوا: القادرون عليه وهم علماء الأمة دون غيرهم وحجتهم أن الجاهل ربما نهي عن المعروف أو أمر بمنكر وقد يغلظ في مواطن اللين والعكس وربما عرف الحكم في مسألة وجهل الأخرى؛ ولذلك فهم يقولون: إنه فرض على العلماء دون البعض ولقد رد عليهم العلماء وقالوا: إن الواجب لا يسقط بتحميله للبعض دون البعض وإنما يسقط بالأداء فإذا لم يقم به العلماء فهو فرض على غيرهم؛ لأن فرض الكفاية يقتضي أن يلزم به الكل أولاً حتى يقوم به من يكفيهم [٣]؛ ولذلك وضعوا شروطاً يجب أن تتوفر في الآمر بالمعروف.

الشروط الواجب توافرها في الآمر بالمعروف [٤]:

١-أن يكون مكلفاً أي مدركاً مختاراً رجلاً وهذا أمر له فقهه وقواعده، فالعبرة

---

(١) الآية ١٠٤ من سورة آل عمران.

(٢) من الآية ١١٠ من سورة آل عمران.

(٣) التشريع الجنائي في الإسلام، للشهيد عبد القادر عودة ١/ ٤٩٥، بتصرف.

(٤) المصدر السابق ١/ ٤٩٩، بتصرف.

ابتداءً ليست في إيذاء من يرتكبون المنكر ولكن الداعي بفقهه وخلقه يصرف الذين يرتكبون المنكر بحكمته عنه فينتهوا.

٢-أن يكون مؤمناً بالدين الإسلامي بشموله وعمومه ومنهاجه.

٣-القدرة بمعنى أن يكون صاحب ولاية عليه فإن كان عاجزاً فلا وجوب عليه بل يغيره بقلبه.

٤-العدالة وهذه مختلف فيها.

٥-الإذن: وهو مختلف فيه أيضًا بين العلماء فهل يأذن له الإمام أم لا، علماً بأن الجمهور لا يشترط هذا فضلاً عن العلم والورع وحسن الخلق.

ويشترط عند النهي عن المنكر لتغييره:

١- وجود منكر وهو - كما عرفه العلماء - كل معصية حرمتها الشريعة أو كل ما كان محظوراً في الشرع.

٢- أن يكون معلوماً دون اجتهاد أي من الأمور القطعية المجمع عليها؛ لأن المختلف فيه ليس فيه أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر.

٣- أن يكون موجوداً في الحال، أي وقت ارتكاب المنكر.

٤- أن يكون ظاهراً دون تجسس ولا تفتيش؛ لأن الرسول ﷺ نهي عن تتبع عورات المسلمين وقال لمعاوية: «**إِنَّكَ إِنْ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ أَوْ كِدْتَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ**»[١]، وهناك قصة معروفة مشهورة حدثت مع عمر بن الخطاب ﷺ فقد اعتلى بيت رجل ليضبطه متلبساً بجريمته فقال له الرجل: إن كنت قد ارتكبت منكراً واحداً فقد ارتكبت ثلاثة مناكير يا عمر: تجسست والمولى يقول: ﴿**وَلا تَجَسَّسُوا**﴾[٢]، وأتيت البيت من ظهره والمولى يقول:﴿**وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا**﴾[٣]

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) من الآية ١٢ من سورة الحجرات.

(٣) من الآية ١٨٩ من سورة البقرة.

ولم تستأذن والله يقول: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ (١)، فتركه عمر واشترط عليه التوبة(٢).

٥- دفع المنكر بأيسر ما يندفع به لا بأقل، فلا يقف عند القليل من الدفع إن كان يقدر على الأكثر ولا بأكثر إن كان الأيسر لا يحتاج إلا القليل.

وسائل تغيير المنكر:

١- **التعريف**: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(٣)، ويقول المولى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٤) فوجب التعريف أولا (٥).

٢- **النصح والوعظ**: فالدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

٣- **التعنيف**: ويكون عند العجز عن المنع باللطف ويوجه إلى المصر المستهزئ بالوعظ والنصح ويشترط في التعنيف شرطان:

أ- ألا يقدم عليه إلا عند الضرورة والعجز بعد اللطف.

ب- ألا ينطق المعنف إلا بالصدق ولا يسترسل بالتعنيف بما لا يحتاج إليه.

٤- **اليد**: وتكون لمن له ولاية ولها شروط:

أ- لا يكون إلا في المعاصي التي تقبل بطبيعتها التغيير المادي أما معاصي اللسان والقلب فليس في الاستطاعة تغييرها مادياً بعكس كسر أواني الخمر أو إخراجه من الدار المغصوبة.

ب- لا يباشر التغيير باليد طالما استطاع أن يحمل فاعل المنكر على التغيير فليس له أن يريق الخمر مثلاً بنفسه إذا استطاع أن يكلف شاربها بإراقتها وهكذا.

---

(١) من الآية ٢٧ من سورة النور.
(٢) نقلا عن التشريع الجنائي في الإسلام، للشهيد عبد القادر عودة، ١/ ٤٩٩.
(٣) من الآية ١٥ من سورة الإسراء.
(٤) الآية ١١٥ من سورة التوبة.
(٥) لمزيد من التفصيل انظر: الدعوة قواعد وأصول، للمؤلف.

ج- أن يقتصر فيه على القدر المحتاج إليه؛ لأنه إذا زاد ظلم واعتدى، بمعنى لا يشده من لحيته إن كان يستطيع أن يجذبه من يده أو يحرق أدوات الملاهي إن استطاع كسرها أو يكسر أواني الخمر لأن الأصل في التغيير لا يقصد منه عقوبة فاعل المنكر ولا زجر غيره.

٥- **التهديد بالضرب والقتل**: التهديد يسبق الضرب كلما أمكن أي استخدام اللسان، ويشترط فيه ألا يهدد بوعيد لا يجوز تحقيقه كقوله: لأنهَبَنَّ دارك أو لأضربن ولدك أو لأسجنن والدك، أو لأسبين زوجتك... إلخ.

وكل هذه الوسائل في حق الكافة عدا:

أ-**الوالدان**: فالولد ليس له على والديه إلا التعريف ثم النهي بالوعظ والنصح وليس له أن يعنفهما أو يهددهما أو يضربهما ﴿**فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا**﴾ [١].

ب-**الزوجة**: حكمها مع زوجها حكم الولد مع أبويه لقول الرسول ﷺ: «**لَوْ أَمَرْتُ أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**»[٢] فلا تؤذي الزوجة زوجها.

ج-**الحاكم**: ليس للرعية على الحاكم المسلم الذي يحكم بما أنزل الله إلا التعريف والنهي بالموعظة والنصح أما التغيير باليد فالرأي الراجح أنه غير جائز؛ لأنه يفضي إلى خرق هيبته وإسقاط حرمته وذلك محظور لقول الرسول ﷺ: «**من كانت عنده نصيحة لذي سلطان فلا يكلمه بها علانية وليأخذ بيده فليخل به فإن قبلها قبلها وإلا قد أدى الذي عليه والذي له**»[٣] وقوله: «**مَنْ أَهَانَ سُلْطَانَ اللَّهِ فِي الأَرْضِ أَهَانَهُ اللَّهُ** [٤]» [٥].

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة الإسراء.

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.

(٣) رواه الحاكم والبيهقي في السنن الكبرى والطبراني في المعجم الكبير وغيرهم.

(٤) رواه الترمذي واللفظ له، وأحمد.

(٥) التشريع الجنائي في الإسلام، للشهيد عبد القادر عودة، ١/ ٥٠٦.

تغيير المنكر وابن القيم:

جعل ابن القيم إنكار المنكر أربع درجات، فأنت حين تفكر في التصدي لإنكار المنكر تحدث إحدى الاحتمالات الأربعة الآتية:

الأول- إذا استطاع الإنسان أن يزيله بالكلية دون مضرة وجب عليه أن يزيله.

الثاني- إذا استطاع أن يزيل جزءًا من المنكر دون مضرة، وبقي جزء فيه مضرة، يزيل الجزء الذي ليس فيه مضرة ويترك الذي به مضرة.

الثالث- إذا أزاله ونتج عنه منكر مساوٍ له، فله الخيار إن شاء تركه وإن شاء أزاله.

الرابع- إذا أزاله وحل محله منكر أشد يكون آثماً إن غيره ويبقيه على ما هو عليه[١].

وهكذا ترى الإمام الشهيد رضوان الله عليه يضع القواعد والضوابط والأصول حتى يكون سلوك المسلم منضبطاً ودعوته مؤصلة وخطواته ممنهجة ووعيه بعصره دقيق ثم يدعو إلى الله على بصيرة لتقوية الروح الإنسانية والسمو بها عن مزالق الأوهام والخرافات إلى ميدان الحقائق والسنن الإلهية الثابتة التي بنى عليها صرح هذا العالم ينقي العقائد مما شابها إذ إن العقيدة الصحيحة ما جاءت إلا لتخلص الإنسان من هذه الأوهام فبين – رحمه الله – دجل الدجالين وشعوذة المشعوذين، ونبه إلى عبث العابثين حتى تصفو العقيدة فيجمع المسلم بين صحة الاعتقاد وصدق الاتباع ثم ينطلق في طريقة متوكلاً على الله متحملاً الإيذاء في سبيله يقول: ﴿**وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾[٢].

***

(١) إعلام الموقعين، لابن القيم ٣/ ٤، بتصرف.

(٢) الآية ١٢ من سورة إبراهيم.

مردود الأصل الرابع

أولاً- حصيلة العقل:

أ- اختر الإجابة الصحيحة (من الممكن أن تكون أكثر من إجابة صحيحة):

١- يؤكد هذا الأصل على عدد من الأمور هي:

أ	تجريد التوحيد لله	ب	تحديد مصادر التشريع
ج	رعاية سنن الله في الحياة	د	جميع ما سبق

٢- من الطرق المقبولة شرعًا لمعرفة الأمور الغيبية:

أ	القرآن والسنة	ب	الولاية واستخارة المسبحة
ج	استخارة القرآن	د	ضرب الحصى والودع

٣- يرى أصحاب المذهب الحنفي في التمائم أنها:

أ	لا تجوز مطلقا	ب	لا تجوز إذا كان بها شرك
ج	تجوز مطلقا	د	تجوز إذا كانت من القرآن

٤- الرقية:

أ	سنه عن النبي ﷺ	ب	عادة جاهلية مرفوضة
ج	مكروهة	د	تجوز بشروط

٥- من أتى عرافًا فسأله عن شيء:

أ	كان منافقا معلوم النفاق	ب	لا تقبل صلاته أربعين ليلة
ج	يجلد ثمانين جلده	د	يعزره الإمام بما يرى

٦- يرى الإمام مالك أن الساحر:

أ	يقتل ولا يستتاب	ب	يُقتل إذا لم يتب
ج	يقتل ولو كان غير مسلم ولا يؤذى المسلمين	د	ورد عنه كل ذلك

٧- من شروط النهي عن المنكر أن يكون:

أ	متفق على تحريمه	ب	ظاهرًا لا خفيًا
ج	موجودًا في الحال	د	جميع ما سبق

٨- من وسائل تغير المنكر بصفة عامة:

أ	النصح والإرشاد	ب	التعنيف والضرب
ج	التعريف والتهديد بالضرب	د	جميع ما سبق

ب- ضع (أ) أمام العبارة الصحيحة و (ب) أمام العبارة الخطأ فيما يلي:

٩	من نتائج محاولات الإطلاع على الغيب التوقف عن الأخذ بالأسباب.	
١٠	من المقبول شرعًا وعقلاً أن بعض الأيام في العام هي أيام نحس مستمر.	
١١	التميمة هي حجر يتفاءل به العرب ويتوارثونه.	
١٢	الرقى هي شيء يشبه الصدف تعلق للوقاية من الحسد.	
١٣	يأثم المرء إذا أزال منكر وترتب عليه منكرا أشد منه.	

قارن إجاباتك بالإجابات النموذجية في آخر مردود الأصل، وأعطِ نفسك درجة لكل إجابة صحيحة وصفرًا للإجابة الخاطئة.

أكثر من ١٢	١١-١٢	٩-١٠	٧-٨	أقل من ٧
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثانيًا- رصيد القلب:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائماً	غالباً	أحياناً	نادراً	أبداً
١	لا يغيب عن قلبي أن النافع والضار هو الله وحده.					
٢	لا أؤمن بالتشاؤم.					
٣	أوقن أنه لا يعلم الغيب إلا الله وحده.					
٤	أعتقد أن تعليق التمائم منكر يجب إزالته.					
٥	يحزنني أن أرى مسلمًا يذهب إلى ساحر أو عراف.					
٦	عقيدتي أن الجن لا يعلمون مثقال ذرة من الغيب.					
٧	أستشعر مسئوليتي نحو تبصير الناس بتجنب التمائم والودع... إلخ.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ٢٣	٢١- ٢٣	١٨-٢٠	١٤- ١٧	أقل من ١٤
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثالثًا- حساب الجوارح.

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائماً	غالباً	أحياناً	نادراً	أبداً
١	أبتعد عما كان محرمًا من التمائم والرقى... إلخ.					
٢	أذكر من حولي بأن الله وحده هو النافع الضار.					
٣	لا أتشاءم من ساعات أو أماكن بعينها أو غير ذلك					
٤	أبين لمن حولي حرمة التمائم والودع... إلخ.					
٥	أبصر من حولي بخطورة الذهاب إلى السحرة والعرافين.					
٦	ألتزم الضوابط الشرعية عند إنكاري للمنكر.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ٢٠	١٨-٢٠	١٥- ١٧	١٢- ١٤	أقل من١٢
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

إجابات حصيلة العقل (٤)

السؤال	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣
أ	✓	✓	✓	✓		✓			✓				✓
ب					✓					✓	✓	✓	
ج	✓												
د				✓			✓	✓					

الأصل الخامس

مصالح العباد والأصل في الإشياء

«ورأي الإمام ونائبه فيما لا نص فيه، وفيما يحتمل وجوهاً عدة وفي المصالح المرسلة معمول به ما لم يصطدم بقاعدة شرعية، وقد يتغير بحسب الظروف والعرف والعادات، والأصل في العبادات التعبد دون الالتفات إلى المعاني، وفي العاديات الالتفات إلى الأسرار والحِكم والمقاصد».[1]

(١) مجموعة الرسائل، حسن البنا، رسالة التعاليم،ص٢٦٩.

هذا الأصل يعالج:

١-رأي الإمام ونائبه فيمسا لا نص فيه وفيما يحتمل وجوهاً عدة.

٢-المصالح وأنواعها وحكمها.

٣-الأصل في الأشياء الإباحة.

٤-الأصل في العادات والعبادات.

هذا الأصل يشير ضمناً إلى معنى نردده دائماً، ألا وهو أن الإسلام دين الجماعة، فهذا الأصل يؤكد هذا المعنى؛ لأن الإسلام لو لم يكن دين الجماعة، فما كان له إمام ولا كان له نائب وما كانت له شريعة تنظم هذا الأمر تنظيماً دقيقاً فكلمة: (ورأي الإمام ونائبه) تدل على أن الإسلام دين لا يتحقق واقعاً على الأرض إلا بالجماعة، فلابد أن يكون له إمام وأن يكون له أمير يتناول السياسة الشرعية المنوطة بالإمام، والإمام هنا يقصد به خليفة المسلمين أو رئيس الدولة أو نائبه ورأيه في أمور السياسة والحكم ومدى اعتبار ذلك، **هذه واحدة**.

أما الثانية فيعالج الأصل المجالات المختلفة التي يُعمل بها في هذا الأمر، وقد حدد الإمام البنا إعماله فيما لا نص فيه وفيما يحتمل وجوهاً عدة وفي المصالح المرسلة.

ثالثاً: هل يقبل هذا الرأي التغير تبعاً للظروف والأوضاع أم هو جامد لا يلين؟ ثابت لا يتحرك؟ قطعي لا ظن فيه ولا اجتهاد.

رابعاً: من خلال النص يتبين لنا أن الشورى أمر ضروري للجماعة، فما هو موقف الإمام منها؟

وأخيراً: هل يعمل بهذا الرأي الذي يقوله الإمام في العبادات والمعاملات على حد سواء أم أن هناك فرقًا في النظر إلى المقاصد والعلل أو عدم النظر إليها، فابتداء إذا كنا سنتكلم في هذا الموضوع فإننا سنتناول الأمور التي لا نص فيها وما فيه وجوه عدة، وكذلك المصالح المرسلة، فهذه كلها أمور تتصل بالتشريع والفقه، فلابد أن نفهم أن الفقه الإسلامي فقه شمولي بمعنى أنه يشمل جميع علاقات الإنسان.

يشمل علاقة الإنسان بربه وأيضًا علاقة الإنسان بحياته خاصة ما يتصل بمأكله ومشربه وملبسه، ويشمل الإنسان بأسرته من زواج وطلاق وميراث حدده هذا كله الشرع الحكيم تحديداً واضحًا، فضلاً عن علاقة الإنسان بالمجتمع الذي يعيش فيه، فكل هذه الأمور شملها الفقه الإسلامي وتناولها بتفصيل دقيق واضح؛ لذلك حين يتعامل علماء المسلمين مع هذه القضايا والتي منها الثابت الذي لا يتغير ولا يجوز فيه الاجتهاد رأي قطعي في حكمه، ومنها الظني الذي يجتهد فيه ودائرة الاجتهاد فيه واسعة وهو هنا ما يسمى بالسياسة الشرعية التي يراعي فيها العلماء المصلحة المعتبرة شرعاً، ومن فضل الله علينا أن الأمور القطعية قليلة جدًا وتكاد تكون محدودة، أما المجتَهد فيه فما أكثره، ودائرة المجتهد فيه ليست متروكة كما يظن البعض لكل إنسان يستطيع أن يُعمل عقله، فقبل أن يعمل هذا العقل لابد أن تكون ثقافته إسلامية ونظرته إسلامية وعلمه يخدم إسلامه؛ لأن كل إناء بما فيه ينضح، وقد يظن البعض أن مصطلح الرأي هو القول في مسألة بالهوى والظن دون قواعد ولا أصول، وهذا فهم خاطئ للمصطلح؛ لأن الرأي في الشرع قد يكون مرادفاً للاجتهاد كما ذكر الإمام الشافعي وهو على كل حال الاعتماد على الفكر في استنباط الأحكام الشرعية.

الرأي:

فاستخدام الرأي بمعناه الشرعي هو الاجتهاد وإعمال العقل في استنباط حكم ما، فالاجتهاد هو علم يجتهد فيه في نصوص ظنية تحتمل وجوهاً عدة ولذلك فإن المجتهد لابد أن يكون عالماً بالعلوم الشرعية والدنيوية فضلاً عن القواعد الفقهية الأصولية، وهناك مدرستان في الفقه: مدرسة الرأي وعلى رأسها الإمام أبو حنيفة وكانت في العراق، وأما المدرسة الثانية فهي مدرسة الأثر وكانت في المدينة وعلى رأسها عبد الله بن عمر، ونريد أن نلفت النظر إلى أن الأحاديث التي تذم الرأي يقصد به الهوى والظن ولا يقصد به الاجتهاد الفقهي.

يقول سيدنا على: «لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه»[1]، ويقول جابر بن زيد أن ابن عمر لقيه في الطواف فقال له: يا أبا الشعثاء

---

(١) رواه أبو داود.

إنك من فقهاء البصرة فلا تفت إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية».[١]

والذي يدل على أن الرأي هنا ليس هو الهوى والظن أن بعض الصحابة أنفسهم قضوا بالرأي، أي قضوا بالاجتهاد ولذلك يجب أن نفرق بين الرأي المذموم والرأي المحمود.

يقول ميمون بن مهران: «كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصم نظر في كتاب الله فإن وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به وإن لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله ﷺ في ذلك الأمر سنة قضى به فإن أعياه خرج فسأل المسلمين فقال أتاني كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى في ذلك بقضاء، فربما اجتمع إليه النفر كلهم يذكر من رسول الله ﷺ فيه قضاء، فيقول أبو بكر الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ على نبينا، فإن أعياه أن يجد فيه سنة من رسول الله ﷺ جمع رءوس الناس وخيارهم فاستشارهم، فإن أجمع رأيهم على أمر قضى به»[٢]، وهم علماء الأمة وكذلك كان يفعل عمر، فقد كتب لأبى موسى يقول له: اعرف الأشباه والأشياء والأمثال وقس الأمور[٣].

بل إن رسول الله ﷺ يقول لمعاذ بن جبل: «**كَيْفَ تَقْضِي إِنْ عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟**». قال: أقضي بكتاب الله. قال: «**فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللَّهِ**» قال: فسنة رسول الله ﷺ. قال: «**فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي سَنَةِ رَسُولِ اللَّهِ** ﷺ» قال: أجتهد رأيي ولا آلو. قال: فضرب صدري فقال: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا يُرْضِي رَسُولَهُ**»[٤]

لقد سُئِل عليٌّ عن مسيره في صفين: هل كان بعهد عهده إليه رسول الله أم رأي رآه، قال: بل رأي رأيته.

وأورد الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «إن الله اطلع على قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير القلوب فاختاره لرسالته، ثم اطلع على قلوب العباد

---

(١) رواه الدارمي.

(٢) المصدر السابق.

(٣) من حديث طويل رواه البيهقي في السنن الكبرى والدارقطني في سننه.

(٤) رواه أحمد والترمذي وأبو داود.

بعده فرأي أصحابه خير قلوب العباد فاختارهم لصحبته، فما رآه المؤمنون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المؤمنون قبيحاً فهو عند الله قبيح»(١).

يقول الإمام ابن القيم في هذه القضية: «فالرأي ثلاثة: رأي باطل بلا ريب، ورأي صحيح بلا ريب، والثالث الرأي موضع الاشتباه، فهل هو باطل بالكلية أم صحيح بالكلية، هذه أمور أشار إليها السلف الصالح واستعملوا كلمة الرأي في هذه الوجوه الثلاثة»(٢).

والرأي الباطل أنواع: نوع هو مخالف للدين بمخالفته النص، أو الكلام في الدين بالظن والخرص والتخمين، أو الرأي المتضمن التعطيل مثل المعطلة الذين يعطلون أسماء الله، أو الرأي الذي أحدث البدع وغيَّر من السنن، وهذه كلها آراء اتفق السلف الصالح على ذمها وإخراجها من الدين، وأضاف بعض العلماء نوعًا آخر من الرأي المذموم وهو ما سموه في التاريخ (الأرأيتيين) وهم الذين يسألون عن أشياء لم تقع بعد، ويقولون: أرأيت إن حدث فما هو الحكم؟ وهذا أمر مذموم، يقول ربنا: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ (٣)، فعندما تنزل النازلة يجتهد فيها العلماء ولكن قبل نزولها أمسك عليك لسانك لأنه أمر لا دخل لك فيه ومكروه أن تتكلم فيه؛ ولذلك ذم العلماء هذا النوع من الآراء.

إن مسروقًا وهو من التابعين يقول: «كنت أمشي مع أبي بن كعب فقال: فتى ما تقول يا عماه في كذا وكذا، قال: يا ابن أخي أكان هذا، قال: لا، قال: فأعفنا حتى يكون - أي اتركنا- فإذا كان اجتهدت لك رأينا»(٤).

وهذه القضايا سميت المعضلات أو الأغلوطات؛ لأنك تسأل عن أشياء لم تقع بعد، تريد أن ترى فيها رأياً، وهذا لون من ألوان المغالطة؛ ولذلك نهي الرسول ﷺ عن ذلك.

---

(١) رواه الطيالسي في مسنده والطبراني في المعجم الكبير وأبو نعيم في حلية الأولياء.
(٢) إعلام الموقعين، لابن القيم ١/ ٦٧،بتصرف.
(٣) من الآية ١٠١ من سورة المائدة.
(٤) رواه الدارمي، وذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم.

وأما الرأي المحمود فهو رأي الصحابة رضوان الله عليهم ومن جاء بعدهم من فقهاء الأمة والذي يفسر النصوص ويبين وجه الدلالة فيها ويقرها ويوضح محاسنها ويسهل طريق الاستنباط منها، يقول ابن المبارك: «ليكن ما تعتمد عليه الأثر وخذ من الرأي ما يفسر لك الحديث»[(١)] وهذا هو الفهم الذي يختص به الله من يشاء من عباده فضلاً منه ونعمة: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [(٢)].

والخلاصة نجد أن الرأي إما رأي مجرد لا دليل عليه ويخضع للتخمين فحين سُئل أبو بكر عن الكلالة قال: «أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله برأيي»[(٣)].

ومن الآراء المحمودة الرأي الذي اجتمعت عليه الأمة وتلقاه الخلف عن السلف بالقبول ولابد أن يكون اجتهاد الرأي في ضوء الشرع، يقول عمر لأبي موسى: «الفهم الفهم لما أدلى إليك فيما ورد عليك وليس في قرآن ولا سنة قايس الأمور عند ذلك واعرف الأمثال ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق»[(٤)] وذلك بمشاورة أهل الاختصاص يقول ربنا: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [(٥)]، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [(٦)]، وهذا يعني أن تكون المشاورة فيما يحكم فيه بطريق الاجتهاد لا فيما يحكم فيه بطريق الوحي، وقد ورد عنه ﷺ قوله: «**أنا أقضي بينكم فيما لم ينزل فيه وحي**»[(٧)]، وروي عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: قلت يا رسول الله الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن ولم يمض فيه منك سنة، قال: «**اجمعوا له العالمين أو قال العابدين من المؤمنين فاجعلوه شورى بينكم ولا تقضوا فيه برأي واحد**»[(٨)].

فالرأي إذن الاجتهاد والاجتهاد له شروطه وقواعده وأصوله -كما قلنا- فليس

---

(١) ذكره السيوطي في مفتاح الجنة.
(٢) من الآية ٢١ من سورة الحديد، والآية ٤من سورة الجمعة.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) من حديث طويل رواه البيهقي في السنن الكبرى والدارقطني في سننه.
(٥) من الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.
(٦) من الآية ٣٨ من سورة الشورى.
(٧) ذكره الآمدي في الإحكام ٤/ ٣٨،٤١.
(٨) رواه ابن حزم في الإحكام، وابن حجر في لسان الميزان.

كل أحد يقول برأي في الشرع ولذلك قال الإمام البنا: ورأي الإمام ونائبه [الأصل الذي نحن بصدده].

وهنا ستدور في الخاطر أسئلة، من هم الذين يستشارون؟ وكيف يختارون؟ وفيم يكون مشاورتهم؟ وما الحكم إذا اختلفوا فيما بينهم أو اختلفوا مع ولي الأمر؟ وهل الشورى ملزمة أم معلمة؟ والشورى دائماً فيما لا نص فيه أما ما فيه نص محكم فليس فيه شورى، إذ لا شورى في القطعي وإنما في الأمور الظنية المجتهد فيها فحسب، نكرر هذا لنؤكد على هذا الفهم.

فأما الذين يستشارون فهم أهل الحل والعقد، وأهل الاختصاص: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [1]، ويبين لنا القرآن ذلك فيقول: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [2]، ولقد اخترنا الشورى الملزمة فيما يتعلق بالحركة، وإن الإمام البنا أخذ بالشورى المعلمة في بداية الدعوة ثم عاد إلى الأخذ بالشورى الملزمة، أما فيما يتعلق بالعبادة فله أن يختار المذهب الفقهي الذي يراه.

وحكم الشورى مختلف فيه بين العلماء، فمنهم من قال أنها ملزمة، ومنهم من قال هي معلمة فهذا أمر خلافي ولكن عندما تختار الجماعة وجهًا من وجوه الفقه المتعددة ويتصل بحركتها فلابد للأفراد أن ينزلوا عليه حسماً للخلاف وإعمالاً للشورى.

فحين يحتمل الأمر وجوهاً عدة، فإن الشريعة تركت للمسلم أن يختار ما شاء من هذه الوجوه، فعلى سبيل المثال كفارة اليمين فيها إما الصيام أو الإطعام وكلا الوجهين صواب وكذلك معاملة الأسرى في الحرب فيها المن أو الفداء أو الاسترقاق أو القتل أو الحرية فاختيار أحدهم للمصلحة متروك، وللإمام اختيار ما هو في صالح المسلمين، فمثلاً يمنّ في حالة قوة المسلمين كي يظهر حسن أخلاق المسلمين ورحمتهم

(١) من الآية ٤٣ من سورة النحل، ومن الآية ٧ من سورة الأنبياء.
(٢) من الآية ٨٣ من سورة النساء.

بالأسرى، ويقبل منهم الفداء إذا كان المسلمون فقراء ويحتاجون لمال يتقوون به، ويقتل لو كان فيهم عتاة مثلما حدد الرسول ﷺ أشخاصًا بعينهم وقال: «**اقْتُلُوهُمْ وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ**»(١)، وهكذا نرى في حالة التعدد في أوجه الاجتهاد للإمام أن يختار ما فيه مصلحة مجتمعه.

فعندما فتح عمر بن الخطاب ﷺ العراق وغنم المسلمون أرض السواد كان الحكم الفقهي فيها أن توزع الغنائم على المحاربين المجاهدين ولما كانت تلك الأرض أرضاً زراعية ضخمة اجتهد سيدنا عمر ورأي أنه إذا قسمها فإن القوة الاقتصادية التي ستعود على المسلمين ستضعف، فأبقاها واستثمرها لصالح المسلمين.

لقد فعل ذلك عمر ﷺ مستنداً إلى مصلحة المسلمين من جانب ويسر الشريعة من جانب آخر؛ لأن المولى ﷻ أقام الشريعة على اليسر أساساً لا العسر، أقامها على التخفيف وليس التشديد، على رفع الحرج عن الناس وقال ﷻ: ﴿**يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾(٢)، وقال: ﴿**يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا**﴾(٣)، وقال: ﴿**مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ**﴾(٤)، وقال: ﴿**هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾(٥).

فمنح الشريعة دائماً منح تيسيري فتجد الرخص في مقابل العزائم، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ**»(٦)، ووضع العلماء لرفع الحرج من القواعد الأصولية قاعدة [الضرورات تبيح المحظورات] واختيار أكبر المصلحتين وأقل المفسدتين وارتكاب أهون الشرين وأخف الضررين.

تعريف السياسة الشرعية:

السياسة الشرعية بكلمات قليلة هي تدبير أمور المسلمين في دنياهم حسب قواعد

---

(١) رواه النسائي.
(٢) من الآية ١٨٥ من سورة البقرة.
(٣) الآية ٢٨ من سورة النساء.
(٤) من الآية ٦ من سورة المائدة.
(٥) من الآية ٧٨ من سورة الحج.
(٦) رواه أحمد والبيهقي في السنن الكبرى.

الشرع فينظر الفقهاء في تدبير شئون الناس في أمور دنياهم بشرائع الدين، ولهذا يعرفون الخلافة بأنها نيابة عن رسول الله ﷺ في حراسة الدين وسياسة الدنيا به، وقد يقصد بكلمة السياسة كما يقول الدكتور القرضاوي ما يراه الإمام أو ما يصدر عنه من الأحكام قرارات زجراً عن فساد واقع أو وقاية من فساد متوقع أو علاج لوضع خاص وهو معنى خاص.

والحقيقة أن هناك فهماً مغلوطاً عند بعض المسلمين وهو أن السياسة الشرعية يجب أن تكون في أمور فعلها الرسول ﷺ أو تكون في الأمور المنصوص عليها في كتاب الله ولو كان كذلك ما كان هناك اجتهاد؛ لأن العلماء يجتهدون فيما لا نص فيه.

لقد حدث حوار بين رجلين أحدهما شافعي المذهب والآخر حنبلي، يقول الشافعي: لا سياسة إلا ما وافق الشرع، فقال الحنبلي السياسة ما يكون معه الناس أقرب للصلاح وأبعد عن الفساد وإن لم يضعه الرسول ﷺ أو نزل به وحي فإن أردت بقولك إلا ما وافق الشرع، أي لم يخالف ما نطق به الشرع فهذا صحيح؛ وإن أردت ألا سياسة إلا ما نطق به الشرع أي ما يقوله الشرع لفظاً فهذا هو الخطأ بعينه.

والأمثلة كثيرة في الأمور التي لم ينطق بها الشرع ولكنها أصبحت صحيحة باجتهاد العلماء فيها، فهل تجد فيما فعله عثمان ﷺ من حرقه للمصاحف نص، إن سبب حرقه المصاحف هو أن بعض الناس في عهده بدأوا يكتبون المصاحف ويدخلون فيها بعض المعاني التي يفهمونها فاختلطت بعض المعاني بالقرآن فرأي أن يجمعهم على مصحف واحد هو ما تلاه رسول الله ﷺ على جبريل، وأما باقي المصاحف الأخرى فحرقها، حتى لا يظن الناس أن المعاني التي أدخلوها على المصاحف من القرآن.

وإليك أمثلة من السياسة الشرعية:

- الغل من الغنيمة (وهو الذي يخفي شيئاً من الغنيمة) ويأخذه خلسة، فالرسول ﷺ أسقط سهمه وحرق متاعة، وهذا أمر ليس منصوصًا عليه لكن الرسول ﷺ وجد من المصلحة فعل هذا الأمر.

- القطع في السرقة بشروط، فلابد أن يكون مال مُحرزاً ومقوماً أي له قيمة وبلغ

حد النصاب فإذا لم تصل السرقة حد النصاب كان يجلد فيها الرسول ﷺ ولم يقطع وهذا غير منصوص عليه.

- أمر الرسول ﷺ بقتل شارب الخمر بعد الثالثة أو الرابعة، في حين أن شارب الخمر يجلد ولا يقتل، والرسول ﷺ قتله ولم يقم عليه الحد.

- حرق سيدنا أبو بكر اللوطية في عهده واعتبر هذا الأمر جرمًا عظيماً، عندما كتب له سيدنا خالد بن الوليد وقال إنه وجد في بعض نواحي العرب رجلاً ينكح كما تنكح المرأة فاستشار أبو بكر أصحابه وكان فيهم سيدنا عليّ فقال: إن هذا الذنب لم تعص به أمة من الأمم إلا أمة واحدة فصنع الله بهم ما قد علمتم، فأرى أن يحرقوا بالنار، (وهذا أمر غير منصوص عليه ولكنه أمر اجتهادي فيه مصلحة للمسلمين كما رأي الصحابة) فأرسل أبو بكر لسيدنا خالد وقال حرقهم وجاء من بعده عبد الله بن الزبير وهشام بن عبد الملك وفعلوا مثله.

- سيدنا عمر وقصة نصر بن حجاج عندما افتتنت به النساء نفاه من المدينة، فهذه أمور كلها غير منصوص عليها ولكنه اجتهاد لمصلحة الأمة.

- بل إن الأمر وصل عند سيدنا عمر ﷺ أن اختار للناس الإفراد بالحج وعدم التمتع ليعتمروا في غير أشهر الحج فيصير البيت عامراً طوال العام، فظن الناس أنه يمنع التمتع بينما هو يدعو للأفضل والأولى لعمارة البيت.

يقول ابن القيم هذه سياسة بحسب المصلحة تختلف باختلاف الأزمنة، والأمثلة السابقة على هذه السياسة تختلف زماناً ومكاناً وشخصاً لأنها مسألة اجتهادية والاجتهاد يختلف من زمان لزمان، ومن مكان لمكان فهذا ليس حكماً شرعياً ثابتاً بل هو أمر اجتهادي، والدليل على ذلك قضية اللبن المغشوش الذي أراقه سيدنا عمر في زمانه وجاء الإمام مالك للبن المغشوش وهي نفس القضية ولم يسكبه حتى لا تضيع منفعته وتصدق به على الفقير ليستفيد منه طالما أنه خُلط بالماء ولم يخلط بمحرم، والمجال في هذا الأمر واسع والأمثلة كثيرة.

وبعد فإننا نقول أن الأمر -كما رأيت- خلافي بين العلماء تبعاً لاجتهادهم في

المصلحة التي تعود على المسلمين بالنفع إذا رأي إمام المسلمين ذلك، فمن هو الإمام؟

من هو إمام المسلمين؟

الإمام في العرف الإسلامي هو الخليفة الذي يحكم الأمة نيابة عن رسول الله ﷺ في إقامة الدين وسياسة الدنيا به، وقد ينوب عنه من يدير البلاد من الولاة يقومون بالسلطة التنفيذية وهؤلاء أيضًا طالما أنهم أُنيبوا عن الإمام فلهم السمع والطاعة فيما أمروا به شرط أن يكون الأمر في معروف؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق كما جاء في حديث الرسول ﷺ: «**مَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي**»(١)، ولقد وضع علماء المسلمين شروطاً لمن يحكم المسلمين حتى يطلق عليه إمام المسلمين أو خليفتهم.

فما هي شروطه؟

١- **الإسلام**: فهو من المسلمين لقول الله: ﴿**أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾(٢)، ويقول: ﴿**وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً**﴾(٣).

٢- **الذكورة أو الرجولة**: «**لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً**»(٤)،ونحن نتكلم هنا عن الولاية العامة أي الحاكم، أما دون ذلك ففيه خلاف واجتهادات عند العلماء كمثل أن تكون قاضية أو يكون لها حق الانتخاب وتدلي بصوتها وتشارك في المجالس التشريعية، فالذكورة هنا نقصد بها الولاية العامة أي الخليفة أو الحاكم.

فالولاية العامة لا تصلح لها المرأة لأن الإمامة والولاية العامة تحتاج لمن يسهر في حاجات الناس بالليل ويتحسس الناس بالنهار وينظم الجيوش ويقودها، وهذه كلها أمور لا تقوى عليها المرأة وإن كان لا يمنعها أن تشارك في الجهاد كما فعلت أم سليم

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي.

(٢) من الآية ٥٩ من سورة النساء.

(٣) من الآية ١٤١ من سورة النساء.

(٤) رواه البخاري والترمذي والنسائي.

حين أشيع أن رسول الله ﷺ قتل في أحد، قالت للرجال: «قوموا وموتوا على ما مات عليه نبيكم».

٣-أن يكون عدلاً في دينه لا يعرف عنه فسق متقياً الله ورعاً عارفاً بأمور السياسة وشئون الحكم، جريئاً على إقامة حدود الله ولا تأخذه في الله لومة لائم، شجاعاً ذا دراية بمصالح الأمة وسبل تحقيقها مع الحرص عليها.

٤-أن يكون جامعاً للعلم بالأحكام الشرعية؛ لأنه مكلف بتنفيذها إذ لا يمكنه التنفيذ مع الجهل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [١].

«هذا الإمام ونائبه هو الذي له حق الرأي فيما لا نص فيه» [٢]. فإذا اختلف الفقهاء في مسألة خلافية فيها أكثر من رأي فله هو أو نائبه إلزام الجماعة المسلمة برأي من هذه الآراء يلزمها ولا تحيد عنه وهذا رأي الإمام البنا في القديم، وإن كان قد أخذ بعد ذلك بالشورى الملزمة كما قلنا.

ما هو النص؟

إن علماء الأصول بحثوا عن دلالات الألفاظ والعبارات وما فيها من وضوح أو غموض؛ لأن بعضها يكون واضحاً وبعضها يكون غامضاً ثم بحثوا اللفظ من حيث اشتراكه في أكثر من معنى؛ ذلك لأن قواعد التفسير اللغوي تقتضي أن ندرس الدلالات والعبارات والألفاظ ومفهوماتها؛ لأن النص الشرعي مكون من ألفاظ لها دلالاتها وعبارات لها مفهومات، مفهوم العبارة، ومفهوم الإشارة، ومفهوم الدلالة، ومفهوم الاقتضاء، ومفهوم المخالفة وغير ذلك من المفهومات.

وتنقسم الألفاظ والعبارات والنصوص من حيث ظهور معناها إلى:

أ-نوع واضح الدلالة على معناه وليس في دلالته غموض ولا إبهام وهو ليس على درجة واحدة بل وضوح دلالة بعضه أوضح من بعض وهو مقسم إلى:

---

(١) من الآية ١٩ من سورة محمد.

(٢) جميع الشروط ذكرها الشهيد عبد القادر عودة في كتابه «التشريع الجنائي في الإسلام»، الجزء الأول.

الظاهر، والنص، والمفسر، والمحكم.

ب-نوع غامض الدلالة، وفيه غموض وخفاء وليس أيضًا على درجة واحدة فهناك: الخفي، والمشكل، والمجمل، والمتشابه.

وفي الأمر تفصيل ليس هنا مجاله ولكن المهم هو أن النص ما دلت صيغته دلالة واضحة على معناه المقصود من السياق كقول الله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [١]، فهذا نص على عدم المماثلة بين البيع والربا.

فهو إذن اللفظ الدال على معنى لا يحتمل غيره، بعكس المتشابه الذي يحتمل معنيين احتمالاً متساوياً فرأي الإمام إذن كما قال البنا فيما لا نص فيه أي النصوص التي تحتمل تأويلاً والتي لها وجوه عدة معمول به ومعتبر فإذا اصطدم بنص أو قاعدة شرعية لا يعتد به ولا يعتبر على خلاف وهاك مثالاً على ذلك:

هناك إجماع أن رسول الله ﷺ كان يصلي العيد أولاً ثم يخطب الناس وهناك أحاديث صحيحة كثيرة تثبت ذلك منها:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «شهدت مع رسول الله ﷺ العيد وأبي بكر وعمر وعثمان فكلهم صلي قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة» [٢].

إلا أن طارق بن شهاب روى عن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال: أخرج مروان المنبر في يوم عيد فبدأ بالخطبة قبل الصلاة، فقام رجل وقال: يا مروان خالفت السنة أخرجت المنبر في يوم عيد ولم يكن يخرج فيه، وبدأت بالخطبة قبل الصلاة، فقال أبو سعيد الخدري: من هذا؟ قالوا: فلان بن فلان، فقال: أما هذا فقد قضى ما عليه [يقصد أمر ونهي عن منكر] سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ رَأى مُنْكَرًا فَاستَطَاعَ أَنْ يُغَيِّرَهُ بِيَدِهِ فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**» [٣].

---

(١) من الآية ٢٧٥ من سورة البقرة.

(٢) رواه أحمد والبخاري.

(٣) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه.

فهذا حاكم المسلمين في زمانه رأي أن من مصلحة العباد تقديم خطبة العيد على الصلاة فأصبحت هذه المصلحة غير معتبرة لاصطدامها بنص ولذلك تصدى له الرجال ليمنعوه من فعله، أما ما لا نص فيه فيسميه العلماء منطقة العفو التي دلت على مرونة الشريعة الإسلامية فهي منطقة الاجتهاد بقواعد الشرع للمصلحة المعتبرة، فما هي المصلحة.

تعريف المصلحة:

المصلحة هي كل ما فيه صلاح ونفع للخلق في دنياهم ودينهم وفي معاشهم ومعادهم سواء أكانت فردية أو جماعية، مادية أو معنوية، آنية أو مستقبلية.

مصلحة العباد: ومصلحة العباد ورفع الحرج عنهم أصل الشريعة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [1]، بنيت شريعة الله على ذلك فلا يوجد نص في الكتاب والسنة يصطدم بمصلحة العباد: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [2].

فمصلحة العباد هي ما يدفع عنهم المضرة ويجلب لهم المنفعة: ﴿النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [3].

ولذلك قسم الفقهاء المصالح إلى ثلاثة أنواع:

أولاً – **مصالح معتبرة**: وهي التي أعطاها الشارع الحكيم درجة الاعتبار ونص على حلها كالزواج، والبيع والشراء وكل ما أمر الله به فعلاً للمأمور وتركاً لمحظور ولا يمكن أن يكون هناك حكم من الله يضاد مصلحة العباد على القطع لأن الشرع وحي من الله وهو معصوم من ذلك وهو يقدر المصلحة التي تعود على العباد بالفائدة في حياتي الدنيا والآخرة وحكم الله يتعدى العقل والحكمة.

---

(١) من الآية ٧٨ من سورة الحج.
(٢) الآية ١٤ من سورة الملك.
(٣) من الآية ١٥٧ من سورة الأعراف.

وتنقسم المصالح المعتبرة إلى:

أ-المصالح الضرورية: وهي التي لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا إذا فقدت لم تحصل المصالح وهي «حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال»، وكل أمر فيه مفسدة لهذه الأمور لابد أن يدفعها الشارع الحكيم لأنها تعتبر مصلحة غير معتبرة عند الشارع الحكيم؛ ولذلك فإننا نجد المولى في هذه الضرورات أوجب القصاص في قتل الكافر وعقوبة المبتدع وإيجاب القصاص في حد شرب الخمر كي يحفظ العقل والدين.

ب-المصالح الحاجية: وهي المصالح التي توسع على المكلفين وترفع الضيق الذي يؤدي إلى الحرج كرخصة الفطر في السفر والمرض، وقصر الصلاة، وإباحة الصيد...إلخ.

ج-المصالح التحسينية: وهي ما يرجع إلى التحسين والتزيين كستر العورة والزينة والنوافل وآداب المأكل والمشرب وأي أمر يتصل بالعادات والمعاملات من نواحيها الخلقية والتعبدية، وهكذا.

ثانياً-مصالح مهدرة: أي الغير معتبرة وهي المصالح التي أعطاها الشارع الحكيم درجة الإهدار ونص على حرمتها بالرغم من أن فيها منافع للناس، فالخمر والميسر فيهما إثم كبير ومنافع وغيرها الكثير، ومن أمثلة المصالح المهدرة:

الذي يأمر بالإفطار في رمضان لمصلحة الإنتاج.

والذي يجعل صلاة الجمعة متعددة في أوقات مختلفة بإمام واحد حرصاً على الدخل القومي.

أو الذي يصلي الجمعة يوم الأحد في بلاد الغرب لعدم الاستطاعة يوم الجمعة.

أو الذي يساوي بين الرجل والمرأة في الميراث.

أو الذي يحرم البنت من الميراث حتى لا تُعطي الأموال للغريب.

أو الذي يقيد الطلاق ويحدد عدد الزوجات بواحدة.

أو الاعتراف بالزواج المثلي.

أو الذي يحدد النسل باثنين فقط.

أو من يجيز الربا لمصلحة البلاد والعباد.

أو الذي يحل الخمر والنساء للسياحة ولزيادة العملة الصعبة.

أو الاختلاط بين الجنسين.

كل ذلك مصالح مهدرة غير معتبرة؛ لأنها تصطدم إما بقاعدة شرعية أو نص في كتاب الله أو سنة رسول ﷺ.

ثالثاً-مصالح مرسلة:

وهي التي أرسلها الشرع فلم ينص عليها باعتبار أو إهدار ولا تصطدم بقاعدة شرعية وهذه أدنى رتب المصالح لأن أعلى رتب المصالح شهد لها الشرع بالاعتبار ومن هنا اختلف الفقهاء في الأخذ بها كدليل شرعي، وقد أخذ بها الإمام مالك، وهي ضمن الأدلة الشرعية عند بعض العلماء، وكان البعض الآخر لا يعتبرها ضمن الأدلة، ومن أمثلتها:

لا ضرر ولا ضرار، درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها، الضرر يدفع بقدر الإمكان، وغير ذلك.

ومن أمثلة المصالح المرسلة زراعة صنف معين كالذرة والقمح أو القطن لحاجة البلاد عندما يتدخل الحاكم لصالح المجتمع فيفرض زراعة معينة للمصلحة فهو أمر مطلوب ومصلحة مرسلة وإن كان ليس فيها نص بالإيجاب ولا بالمنع فلا بأس بها؛ لأنها لا تصطدم لا بقاعدة شرعية ولا نص، وكذلك أنواع الصناعات المختلفة وكل شيء فيه مصلحة للناس لم ينص عليها الشرع كالترع والمصارف والكباري والمستشفيات والمدارس.. إلخ، كل ذلك من المصالح المرسلة.

فرأي الإمام يعمل به في هذه المصالح وفقاً للظروف والعادات والأعراف، والقاعدة فيها: يمكن تغيير الحكم فيها طبقاً للمصلحة الإسلامية، يقول الإمام الشافعي: واجتهادات الإمام قد تتغير بحسب الظروف والعرف والعادات.

الأصل في الأشياء الإباحة:

الأصل فيما خلق الله من أشياء ومنافع هو الحل والإباحة ولا حرام إلا أن يكون هناك نص بمنعه وحرمته، ونص صريح وصحيح من الشارع بتحريمه، فإذا لم يكن النص صحيحاً كبعض الأحاديث الضعيفة أو لم يكن صريحاً في الدلالة على الحرمة بقى الأمر على أصل الإباحة.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً**﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ...**﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾[٣]، ومن هنا يجب أن تتنبه إلى أن دليل الحل ليس هو المطلوب وإنما المطلوب هو دليل التحريم فإذا عرفته استبان لك الحلال لأن الأصل في الأشياء الإباحة-كما قلت- ولذلك فإن المولى يقول: ﴿**وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ**﴾[٤].

«من هنا ضاقت دائرة المحرمات ضيقاً شديداً واتسعت دائرة الحلال اتساعاً بالغاً، فالنصوص التي جاءت بالتحريم قليلة وما لم يجئ نص بحله أو حرمته فهو باق على أصل الإباحة في دائرة العفو الإلهي»[٥].

يقول النبي ﷺ: «**الْحَلالُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ مِمَّا عَفَا عَنْهُ**»[٦]، لم يحدد له حكم ثابت؛ لأنه ربما يسبب حرجًا للمسلمين؛ لأنه من رحمة الله أن جعل النصوص الظنية فيما يتصل بتنظيم حياة البشر في داخل مجتمعهم لأن هذا هو المتغير فيه زماناً ومكاناً فهو مرن، يقول ابن عباس: «كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرًا، فبعث الله تعالى النبي ﷺ وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه فما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام وما

(١) من الآية ٢٩ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ١٣ من سورة الجاثية.
(٣) من الآية ٢٠ من سورة لقمان.
(٤) من الآية ١١٩ من سورة الأنعام.
(٥) الحلال والحرام، د. يوسف القرضاوي، ص٢٠، بتصرف.
(٦) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم.

سكت عنه فهو عفو وتلا: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١]»[٢].

وعن سلمان قال سئل رسول الله ﷺ عن السمن والجبن والفراء فقال: «**الْحَلاَلُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ مِمَّا عَفَا عَنْهُ**»[٣].

ويقول النبي ﷺ: «**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها**»[٤].

يقول الدكتور القرضاوي: لا تقتصر الإباحة على الأشياء والأعيان بل تشمل الأفعال والتصرفات التي ليست من أمور العبادة وهي التي نسميها العادات والمعاملات وقوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾[٥] عام في الأشياء والأفعال هذا بخلاف العبادة[٦].

ويقول ابن تيمية: «إن تصرفات العباد من الأقوال والأفعال نوعان: عبادات يصلح بها دينهم وعادات يحتاجون إليها في دنياهم»[٧].

العبادات توقيفية:

فباستقراء أمور الشريعة نعلم أن العبادات التي أوجبها الله أو أحبها لا يثبت الأمر بها إلا بشرع فنحن نصلي الصبح ركعتين ولا نبحث لماذا ولا نبحث عن المعاني؛ لأن العلماء يسمون العبادات غير معقولة المعنى، فالصبح ركعتان وهي توقيفية نبتعد عن المعاني فيما يتصل بالعبادات فلا نبحث عن المقاصد والمعاني.

---

(١) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام.
(٢) رواه أبو داود والحاكم.
(٣) رواه الترمذي وابن ماجه.
(٤) رواه الحاكم، والبيهقي في السنن الكبرى، والدارقطني في سننه، والطبراني في المعجم الصغير والأوسط والكبير، وحسنه النووي..
(٥) من الآية ١١٩ من سورة الأنعام.
(٦) الحلال والحرام، د. يوسف القرضاوي.
(٧) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية ٣/ ٤١٢.

وأما العادات فهي ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه، والأصل فيه عدم الحظر فلا يحظر منه إلا ما حظره الله؛ وذلك لأن الأمر والنهي هما شرع الله، أما في العادات والمعاملات فأبحث فيها عن المعاني والمقاصد، فهذا هو الذي يبحث عن الحكمة فيها.

يقول الإمام أحمد وفقهاء الحديث: إن الأصل في العبادات التوقيف فلا يشرع منها إلا ما شرعه الله وإلا دخلنا في معنى قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ (١)، ويجب أن نعلم أن العادات الأصل فيها العفو فلا يحظر منها إلا ما حرمه وإلا دخلنا في معنى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (٢).

ويقول ابن القيم: «الأصل في العبادات البطلان إلا ما شرعه الله ورسوله والأصل في الفروج التحريم إلا ما أباحه الله ورسوله، وعكس هذا العقود، أما المطاعم فالأصل فيها الصحة والحلال إلا ما حرم الله ورسوله وأبطله»(٣).

ومن هذا الباب قول جابر بن عبد الله: «كنا نعزل والقرآن ينزل»(٤). فلو كان شيء ينهى عنه لنهى القرآن، فهم في حل لأفعالهم حتى يبين القرآن(٥).

فالقاعدة أن الأصل في العبادات التوقيف والتعبد بها لله ﷻ، والأصل في العادات البحث في الحِكم والمقاصد، فإن فهمنا حكمة الله في شيء حمدنا الله على ذلك أما إن عجز العقل عن إدراكها اتهمنا العقل بالعجز ولا نتهم الشرع بالنقص...فهل في هذا ما يخالف كلام البنا الذي قال: «الأصل في العبادات التعبد دون الالتفات إلى المعاني وفي العاديات الالتفات إلى الأسرار والحكم والمقاصد»(٦).

---

(١) من الآية ٢١ من سورة الشورى.
(٢) الآية ٥٩ من سورة يونس.
(٣) أحكام أهل الذمة، لابن القيم٢/ ٧١٥.
(٤) رواه البخاري ومسلم والترمذي.
(٥) الحلال والحرام، د. يوسف القرضاوي.
(٦) مجموعة الرسائل، حسن البنا، رسالة التعاليم، ص٢٦٩.

مردود الأصل الخامس

أولاً- حصيلة العقل:

أ- اختر الإجابة الصحيحة (من الممكن أن تكون أكثر من إجابة صحيحة):

١- المقصود بالرأي:

أ	إعمال العقل في استنباط الأحكام	ب	القول في مسألة بما يوافق الهوى
ج	قد يكون مرادفًا للاجتهاد	د	جميع ما سبق

٢- السياسية الشرعية هي:

أ	ما نطق به الشرع من أمور السياسة	ب	تدبير أمور المسلمين بما يوافق الشرع
ج	ما يراه الإمام من الأحكام لصالح المسلمين	د	جميع ما سبق

٣- أدلة الأحكام الشرعية هي:

أ	قد يُفهم منها معنى واحد	ب	قد يُفهم منها معاني عديدة
ج	قد لا تنص على أحكام بعض الأمور	د	لم تترك شيئًا إلا ونصت عليه

٤- المصالح المرسلة هي:

أ	نص الشرع على حلها	ب	نص الشرع على تحريمها
ج	لم ينص الشرع عليها	د	جميع ما سبق

٥- من أمثلة المصالح الحاجية:

أ	قصر الصلاة في السفر	ب	حفظ العقل
ج	آداب المأكل والمشرب	د	جميع ما سبق

٦- من أمثلة المصالح المهدرة:

أ	زراعة صنف تحتاجه البلاد	ب	حرمان الإناث من الميراث
ج	صلاة الجمعة يوم الأحد	د	البيع والشراء

٧- رأي الإمام ونائبه معمول به في:

أ	المصالح المهدرة	ب	المصالح المرسلة
ج	مالا نص فيه	د	ما لا يتحمل إلا معنى واحد من النصوص

ب- ضع (أ) أمام العبارة الصحيحة و (ب) أمام العبارة الخطأ فيما يلي:

٨	يُجمع العلماء على أن الشورى معلمة وليست ملزمة للإمام.	
٩	من المقبول شرعًا أن تتولى المرأة حكم البلاد.	
١٠	ينبغي طاعة الإمام ولو خالف اجتهاده نص قطعي الدلالة.	
١١	ما لم يرد نص بحله أو حرمته فهو أمر مباح شرعًا.	
١٢	الأصل في العبادات البحث عن الحكم والمقاصد من تشريعها.	
١٣	من المقبول شرعًا تغير رأي الإمام في المصالح المرسلة بحسب الزمان والمكان.	

قارن إجاباتك بالإجابات النموذجية في آخر مردود الأصل، وأعطِ نفسك درجة لكل إجابة صحيحة وصفرًا للإجابة الخاطئة.

أكثر من ١٦	من ١٤-١٦	١٢- ١٣	٩- ١١	أقل من ٩
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثانيًا- رصيد القلب:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	أستشعر عظمة الإسلام في تركه لبعض الأمور دون نص ملزم.					
٢	أوقن أن الشورى هي الأسلوب الأمثل للوصول للقرارات صائبة.					
٣	أعتقد أن رأي الإمام لا وزن له إذا خالف قاعدة شرعية.					
٤	لا أشعر بحرج في اتباع رأي الإمام وإن خالف رأيي.					
٥	أومن أن الأصل في العبادات التعبد دون البحث عن مقاصدها.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٧	١٥- ١٧	١٣- ١٤	١٠- ١٢	أقل من ١٠
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثالثًا- حساب الجوارح:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائماً	غالباً	أحياناً	نادراً	أبداً
١	١-أبين لمن حولي عظمة الإسلام في تركه لبعض الأمور دون نص ملزم.					
٢	ألتزم رأي الإمام ما لم يصطدم بقاعدة شرعية.					
٣	أبين لمن حولي ضرورة اتباع رأي الإمام وإن خالف رأيهم.					
٤	٤-أوضح للناس أن الأصل في العبادات التعبد دون البحث عن مقاصدها.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٣	١٢- ١٣	١٠- ١١	٨- ٩	أقل من ٨
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

إجابات حصيلة العقل (٥)

السؤال	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣
أ	✓		✓		✓						✓		✓
ب		✓	✓			✓	✓	✓	✓	✓		✓	
ج	✓	✓	✓	✓		✓	✓						
د													

الأصل السادس

الميل القلبي والتعصب للأشخاص

«وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ وكل ما جاء عن السلف رضوان الله تعالى عليهم موافقاً للكتاب والسنة قبلناه وإلا فكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ أولى بالاتباع ولكننا لا نعرض للأشخاص فيما اختلف فيه بطعن أو تجريح ونكلهم إلى نياتهم وقد أفضوا إلى ما قدموا»(١).

(١) مجموعة الرسائل، للشهيد حسن البنا، رسالة التعاليم،ص٢٦٩.

الحديث في الأصول العشرين يزيد الإنسان المنتمي إلى هذه الجماعة بصيرةً وفهماً؛ لأنها تحدد له إطاراً للفهم وتوضيحاً للتصور وتبصرة بثوابت هذا الدين ومتغيراته وقد وفق الله الإمام البنا رضوان الله عليه في صياغة هذه الأصول كثابت من ثوابت الفهم عند الجماعة نفسها لا يستطيع المنتمي لها أن يخرج عليه، فبعد أن قدم الإمام البنا الفهم الشامل للإسلام وحدد مصادر هذا الفهم من الكتاب والسنة وبين لنا المصادر التي ليست من أدلة الأحكام الشرعية والمنكر الذي يجب محاربته بالقواعد الفقهية والأصول الشرعية انتقل بنا إلى احترام رأي الإمام ونائبه والعمل به فيما لا نص فيه وحدد مصالح العباد المعتبرة والمهدرة والمرسلة ووجوه الفقه التي تعدد بها الأحكام التي يتعدد فيها وجوه الفقه، ثم قدم لنا معالجة للميل القلبي والتعصب للآراء والأشخاص وأكد على أن الطاعة يجب أن تكون لله وحده لا شريك له **وهذا الأصل الذي نحن بصدده يعالج:**

١- مصدر التلقي يجب أن يكون من الكتاب والسنة، أما غير ذلك فيؤخذ منه ويرد ولا عصمة لأحد إلا لرسول الله ﷺ.

٢- احترام العلم والعلماء وليس الميل القلبي للأشخاص والتعصب لهم.

٣- من هم السلف والسلفية ووجوب اتباعهم.

٤- احترام الصحابة وحبهم وعدم الخوض في الخلاف الذي كان بينهم.

والجدير بالذكر أن بعض الشباب حين يستشهد بهذا النص «وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ» ينتابه شعور بأن من حقه أن يقول برأيه دون أن يكون معه أدوات الاجتهاد وقواعده بل يزيد على ذلك بالتطاول على العلماء ورد ما يقولون بعقله ودونما علم أو فقه أو أدوات تخول له أن يرد عالماً وينسى أن حق الرد على العلماء للعلماء أمثالهم فليس للمتفيقهة حق في ذلك؛ ولذلك وجب علينا أن نؤكد على أن للعلم والعلماء فضل نحب أن نعرفه كما أن لهم منزلة يجب احترامها حتى يعرف كل إنسان قدره وحدّه.

فضل العلم:

لا يجهل مسلم أن أول ما نزل على رسول الله ﷺ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [١] فالقراءة البناءة هي وسيلة تحصيل العلم،

ثم أقسم الله تعالى بمادة العلم: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[٢]، وجعل القلم أداة للقسم لعظم هذا الأمر ثم قرن شهادته بشهادة العلماء: ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٣]، وكلما حصّل الإنسان العلم وشرح الله صدره له زاد قربًا من الله وخشية منه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [٤]، ولذلك أمر المولى رسوله ﷺ أن يسأله الزيادة في العلم ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [٥]، فردد كل مسلم من بعده «**اللهم إني أسألك علماً نافعاً**»[٦].

ولعن المولى ﷻ الذين يكتمون العلم النافع الذي يقوى به الدين ويعمر به الكون؛ لأن كتمانه من الخطورة بمكان إذ بدونه تُبنى المفاهيم على الباطل وتفسد التصورات. من أجل ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ [٧]، فلا يتحقق صلاح الناس في دنياهم إلا بصلاح علمائهم ويفسدون بفسادهم والحكمة تنطق بذلك: «اثنان إذا فسدا فسد الناس وإذا صلحا صلح الناس: العلماء والحكام»، ومن أجل ذلك أخذ الله الميثاق من الذين أوتوا الكتاب أن يبينوا للناس ﴿وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [٨].

---

(١) من الآية ١ من سورة العلق.
(٢) الآية ١ من سورة القلم.
(٣) الآية ١٨ من سورة آل عمران.
(٤) من الآية ٢٨ من سورة فاطر.
(٥) من الآية ١١٤ من سورة طه.
(٦) رواه أحمد وابن ماجه.
(٧) الآية ١٥٩ من سورة البقرة.
(٨) الآية١٨٧ من سورة آل عمران.

ولهذا السبب فليس من المعقول شرعاً ولا عقلاً أن يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون والقرآن يبين ذلك فيقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾(١)، ويقول: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(٢)، ويقول: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ﴾(٣)، أليس العلماء ورثة الأنبياء؟

يقول ابن مسعود ﷺ قال رسول الله ﷺ: « **لا حَسَدَ إِلا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا** »(٤)، وإذا كان هذا فضل العلم فلا عجب أن يدعونا رسول الله ﷺ أن نحصل علماً يقربنا إلى الله ﷻ ونعمر به كوننا لأن المولى ﷻ خلقنا لنعمر الكون عبادة وأنزل الكتاب الذي بين أيدينا الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لنؤدي رسالتنا في هذا الوجود؛ ولذلك حث الرسول ﷺ أصحابه على المسارعة إلى تحصيل العلم، فعن معاوية ﷺ يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ** »(٥).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ** ».(٦)

وعن أبي أمامة الباهلي قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم فقال رسول الله ﷺ: « **فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ** » ثم قال رسول الله ﷺ: « **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ** »(٧)، ويتفاوت الناس في تحصيل العلم كما تفاوت الصحابة أنفسهم فليسوا جميعاً سواء في ذلك وليسوا على درجة واحدة من العلم،

---

(١) من الآية ٩ من سورة الزمر.
(٢) من الآية ١١ من سورة المجادلة.
(٣) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت.
(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم.
(٥) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.
(٦) رواه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم.
(٧) رواه الترمذي والدارمي.

كما أنهم ليسوا جميعًا علماء ولا فقهاء فمنهم العالم في الفقه، ومنهم من لا يضارعه أحد في علم الفرائض (المواريث) ومنهم ترجمان القرآن ومنهم من هو عالم بالسِيَر، وإن كانوا جميعًا أسوة في القيم والمبادئ لأنهم يقتدون برسول الله ﷺ الذي شبههم بالكواكب في السماء يهتدي بهم الحائر في صحراء دنياه ولأنهم كانوا يتنافسون في تحصيل العلم وكان الواحد منهم يحترم صاحب العلم فيهم.

فضل العلماء:

كان ابن عباس رضي الله عنهما يأخذ بركاب زيد بن ثابت ويقول: «هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا»[١].

وعن عبد الله بن بريدة قال: قال سمرة بن جندب: «لقد كنت على عهد رسول الله ﷺ غلاما فكنت أحفظ عنه فما يمنعني من القول إلا أن ها هنا رجالاً هم أسن مني»[٢].

واسمع إلى ما يقوله على ﷺ في حق العالم: إن من حق العالم عليك:

- أن تسلم على القوم عامة وتخصه بالتحية.
- وأن تجلس أمامه.
- ولا تعينه في الجواب.
- ولا تطلبن عثرته.
- وإن زل قبلت عثرته.
- ولا تقولن له سمعت فلاناً يقول: كذا ولا فلاناً يقول: بخلافك.
- ولا تصفن عنده عالماً فإنما هو بمنزلة النخلة تنتظر حتى يسقط عليك منها شيء.

ويقول ابن عمر عن رسول الله ﷺ: **«أفضل العبادة الفقه وأفضل الدين الورع»**[٣]، وقال رسول الله ﷺ: **«ثلاث لا يستخف بهم إلا منافق: ذو الشيبة في**

---

(١) رواه الحاكم والبيهقي في السنن الكبرى.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه الطبراني في المعجم الصغير والأوسط والكبير،والقضاعي في مسند الشهاب، وضعفه الألباني.

الإسلام وذو العلم وإمام مقسط»[١].

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يظهر الإسلام حتى يختلف التجار في البحار وحتى تخوض الخيل في سبيل الله ثم يظهر قوم يقرءون القرآن يقولون: من أقرأ منا؟ من أعلم منا؟ من أفقه منا؟**» ثم قال لأصحابه : «**هل في أولئك من خير؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «**أولئك منكم من هذه الأمة وأولئك هم وقود النار**»[٢].

ويقول ابن عباس عن النبي ﷺ إن عيسى عليه السلام قال: «إنما الأمور ثلاثة: أمر تبين رشده فاتبعه، وأمر تبين لك غيه فاجتنبه، وأمر اختلف فيه فرده إلى عالم»[٣].

من أجل ذلك قال أبو أمامة: قال رسول الله ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ وَقَبْضُهُ أَنْ يُرْفَعَ..**» ثم قال: «**الْعَالِمُ وَالْمُتَعَلِّمُ شَرِيكَانِ فِي الأَجْرِ وَلا خَيْرَ فِي سَائِرِ النَّاسِ**»[٤].

وعن عبد الله بن مسعود قال: «اغد عالمًا أو متعلمًا أو مستمعًا ولا تكن الرابع فتهلك»[٥].

فالعلماء هم روح هذه الأمة وعليهم يقوم صلاح المجتمع وبهم تتحقق آيات الله ﷻ على الأرض وهم الذين بعملهم يعمر الكون.

والعلماء هم المتواضعون أصحاب الأخلاق العالية فهم أحاسن الناس أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون؛ ولذلك يقول عمر بن الخطاب ﷺ: «تعلموا العلم وعلموه الناس، وتعلموا له الوقار والسكينة، وتواضعوا لمن يعلمكم العلم، وتواضعوا لمن تعلمون العلم، ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم»[٦].

وتقول عائشة رضي الله عنها: «تغفلون أعظم عبادة: التواضع»[٧].

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، وضعفه الألباني

(٢) رواه الطبراني في الأوسط، والبزار في مسنده وأبو يعلى في مسنده.

(٣) رواه الطبراني في الكبير.

(٤) رواه ابن ماجه.

(٥) رواه البخاري في التاريخ الكبير، والدارمي،وابن حزم في الإحكام.

(٦) رواه البيهقي في شعب الإيمان، والديلمي في مسند الفردوس، وابن أبي عاصم الشيباني في الزهد..

(٧) ذكره الإمام شمس الدين بن عبد السلام الحنبلي في كتابه «الآداب الشرعية والمنح المرعية» ٢ / ٥١.

وقال الشعبي: «اتقوا الفاجر من العلماء والجاهل من المتعبدين فإنه آفة كل مفتون»[١].

وقال الثوري: «نعوذ بالله من فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون»[٢]

وقال الفضيل بن عياض: «إن الله يحب العالم المتواضع ويبغض العالم الجبار»[٣]

فكلما ازداد العلماء علماً ازدادوا تواضعاً وسكينةً ووقاراً، وصحابة رسول الله ﷺ أجمعون كانوا يتحلون بهذا التواضع.

ولقد رأينا ترجمان القرآن عبد الله بن عباس وهو الذي دعا له الرسول ﷺ بأن يفقهه الله في الدين ويعلمه التأويل يشد ركاب زيد بن ثابت ويقول: «هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا»[٤].

لهذا كان العلماء يتورعون عن الفتيا وكثرة الكلام وكانوا يتعففون عن إبداء الرأي وإظهار الحكم في مسائل الاجتهاد وكانوا لا يرغبون فيها.

يقول عبد الرحمن بن أبي ليلى: «لقد أدركت في هذا المسجد عشرين ومائة من الأنصار وما منهم من أحد يحدث بحديث إلا ود أن أخاه كفاه الحديث، ولا يُسأل عن فتيا إلا ود أن أخاه كفاه الفتيا[٥]، ثم آل الأمر إلى أقوام يدعون العلم يقدمون على الجواب في مسائل لو عرضت لعمر بن الخطاب لجمع لها أهل بدر واستشارهم»[٦].

يقول سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ: «العلم ثلاثة: كتاب ناطق وسنة ماضية ولا أدري»[٧].

وقال ابن مسعود ﷺ:«إن الذي يفتي الناس في كل ما يستفتونه لمجنون»[٨].

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، والمزي في تهذيب الكمال،وابن حبان في الثقات.
(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان.
(٣) ذكره الإمام شمس الدين بن عبد السلام الحنبلي في كتابه «الآداب الشرعية والمنح المرعية».
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) رواه الدارمي.
(٦) ذكره ابن القيم في إعلام الموقعين ٢/ ١٨٥، ٤/ ٢١٩.
(٧) رواه الطبراني في الأوسط، والخطيب في تاريخه، والذهبي في ميزان الاعتدال.
(٨) ذكره ابن القيم في إعلام الموقعين٢/ ١٨٥.

وقال الإمام أحمد: ليس كل شيء ينبغي أن يتكلم فيه ولقد كان النبي ﷺ حين يُسأل يقول: «**لا أدري حتى أسأل جبريل**».

وقال سفيان: «من فتنة الرجل إذا كان فقيهاً أن يكون الكلام أحب إليه من السكوت»(١).

وقال عبد الملك بن عمير: إضاعة الحديث أن يحدث به من ليس بأهل.

وصدق الرسول الكريم ﷺ القائل: «**إِنَّ اللَّهَ لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»(٢).

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ وَيَظْهَرَ الزِّنَى**»(٣)، وقد كان أحد إخواننا -وهو على علم غزير- يتورع عن الحديث في بعض القضايا كالطلاق، وعندما يأتي إليه من يسأله في مثل هذه القضايا، كان يقول له:«أفضل أن تذهب إلى العالم فلان»، فسألته عن ذلك فضحك وقال: «إن هذه القضايا تُحل فروجاً وتُحرم فروجاً، وأنا أرسله إلى عالم أثق في علمه أما أنا فإذا أخطأت في حقوق الرب كالصلاة أو الصوم أو الحج فهذه أمور يتجاوز الله عنا فيها إن اجتهدنا فيها بعلم ولم نصب، لكن هذه أمور أبتعد عنها؛ لأن الكلمة فيها تحل فروجاً أو تحرمها وأنا لا أقوى على ذلك».

فأين نحن من هذا الفضل العميم الذي يتمتع به علماء الأمة والذين يقولون:**كل يؤخذ من كلامه ويرد إلا المعصوم ﷺ**.

من له حق رد العلماء:

وأولو العلم من لهم حق الرد على العلماء فليس لكل إنسان هذا الحق وإلا لفسدت الأمور واختل النظام وهلك الحرث النسل، حين يتصدى غير المتفقه وغير

---

(١) الأقوال السابقة منقولة من كتاب «الآداب الشرعية والمنح المرعية».
(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم.
(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم.

العلماء لمثل هذه الأمور العلمية الشرعية الدقيقة وحين يوسد الأمر إلى غير أهله.

فعن زياد بن لبيد قال: ذكر النبي ﷺ شيئًا فقال: «ذَاكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ الْعِلْمِ». قلت: يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ زِيَادُ إِنْ كُنْتُ لأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ، أَوَلَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ لا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهِمَا»(١).

وعلى هذا فإن الذي يرد قول العلماء لابد وأن يكون أهلاً لذلك ويجب أن يتحلى بـ:

١-تحري الصدق.

٢-تحري القصد.

٣-تحري الأسلوب الطيب.

٤-تحري الموضوعية.

٥- عالماً بالمسائل التي يفتي فيها.

صحيح أنه لا عصمة إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلا أن الله ﷻ رفع قدر العلماء ومنزلتهم فقال: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(٢). وهذا العلم الذي يرفعهم به ليس وقفًا على العلوم الشرعية كأصول العقائد والعبادات والأخلاق الحميدة فحسب، إنما نتكلم عن علم يحقق منهج الله بسننه وآياته ويعيش الناس في كنفه آمنين مطمئنين بيعاً وشراءً زواجاً وطلاقاً، علماً يمكّن المسلمين من أن يعيشوا باكتفائهم الذاتي آمنين مطمئنين، ليسوا عالة على أحد؛ ولذلك فالتقدم العلمي الذي يعود على المسلمين بخير سواء في الهندسة أو الطب أو الزراعة أو أي علم فهو ينطوي تحت لواء هذه الآية شرطهم الوحيد أن يكونوا ممن يخشون الله ﷻ ويعبدونه ويقدرونه حق قدره وعندنا بفضل الله من العلماء في غير المجال الشرعى الكثير ممن خلدهم التاريخ في العلوم الطبيعية وغيرها، فليس الأمر

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه.

(٢) من الآية ١١ من سورة المجادلة.

وقفاً على العلوم الشرعية فحسب، وربنا ﷻ يقول: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ﴾[١]. وقد أُمرنا أن نحترم هؤلاء العلماء وهم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ»[٢]؛ لأنه ﷺ كما جاء بالعبادة والعقيدة فقد جاء أيضًا بشريعة ودعا إلى تعلمها، وعلماؤنا في الإسلام هم الذين تواضعوا لله ودعوا الناس للتعرف عليه من خلال علومهم المختلفة ومن فضل الله أن جعل علماء أمة محمد ليسوا كغيرهم من علماء الأمم، يقول ابن تيمية: «كل أمة قبل مبعث نبينا محمد ﷺ علماؤها شرارها وأن الله تعالى شرف هذه الأمة بعلمائها بعد رسول الله ﷺ كما قال ﷺ فهم خيارهم؛ لأن الخشية لباسهم وتقوى الله ديدنهم». قال ابن عمر بن الخطاب ﷺ: «لا يكون الرجل عالماً حتى لا يحسد من فوقه ولا يحقر من دونه». لذلك كانوا هم ورثة الأنبياء، ولا يأخذ ميراث الإنسان إلا من هم أقرب الناس إليه، أي أن العلماء أقرب الناس إليه ﷺ. يقول سفيان بن عيينة: «إن أرفع الناس عند الله منزلة من كان بين الله وبين عباده وهم الرسل والعلماء». ومن هنا وجبت طاعتهم، وطاعة العلماء من طاعة الله طالما أننا تحرينا صدق ما يقولون وتحرينا أخلاقهم ومسلكهم، ودعوة الإسلام نفسها تحذر من التطاول على العلماء لأننا حينما نتطاول على العلماء فإننا نهدم الركن الركين عندنا ونهدم مصدر التلقي لدينا، نهدم هذا الصرح الشامخ الذي يمد المجتمع بالعلوم التي تجعله في رخاء وصفاء وأمن وإيمان.

يقول ابن عباس في قول ربنا ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٣]. فسر ابن عباس أولى الأمر بأهل الفقه والدين، وقال مجاهد وابن عطاء: هم العلماء؛ ولذلك كان توقير العلماء أمر واجب نطق به القرآن وأثبتته السنة الشريفة ولهذا التوقير مظاهر.

فما هي مظاهر هذا التوقير؟ إن من أهمها:

١- كثرة الثناء عليهم.

٢- إظهار الاحترام لهم في صورة عملية.

---

(١) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت.

(٢) رواه أحمد والترمذي وأبو داود.

(٣) من الآية ٥٩ من سورة النساء.

٣- عدم التقدم بين أيديهم وإعلاء كلمتهم.
٤- صيانة حرماتهم والمحافظة على أوقاتهم.
٥- رد الغيبة عنهم.

يقول معاوية بن أبى سفيان عن عبد الله بن عمر وهو يقف في الحج مفتياً متحدثاً مع زوجته: «هذا هو الشرف بل هذا والله شرف الدنيا والآخرة».

أما الإمام أبو حنيفة فيقول: ما صليت صلاة منذ أن مات حماد (هو شيخه الذي تلقى منه) إلا استغفرت له مع والدي، وإني لأستغفر لمن تعلمت منه علماً أو علمته علماً.

ويقول الإمام أحمد بن حنبل: «ما صليت منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي رحمه الله»[1]. فقال له ابنه: أي رجل كان الشافعي حتى تدعو له كل هذا الدعاء؟ فقال الإمام أحمد: «يا بني، كان الإمام الشافعي رحمة الله تعالى عليه كالشمس للدنيا والعافية للناس، فانظر هل لهذين الاثنين من خلف»[2].

أما الإمام مسلم عندما لقي الإمام البخاري ﷺ قبَّله بين عينيه وقال: دعني حتى أقبِّل رجليك يا أستاذ الأستاذين. وحكي أن الخليفة هارون الرشيد بعث ابنه إلى الأصمعي ليعلمه العلم والأدب فرآه يوماً يتوضأ ويغسل رجله وابن الخليفة يصب الماء على رجله فعاتب الأصمعي في ذلك، وقال له: إنما بعثته إليك لتعلمه وتؤدبه فلماذا لم تأمره أن يصب الماء بإحدى يديه ويغسل بالأخرى رجلك؟!

فهل استفاد الشباب من هذه الدروس العملية الأخلاقية كي يتعلم الأدب ويحدد العلاقة السليمة التي يجب أن تكون بين العالم والمتعلم؟ أما الذين يرموننا بتقديس البنا فإننا نأمل أن نكون بهذه السطور قد فرّقوا بين التقديس والتوقير ورد الفضل لأهله ونستغفر لهم ونزيدهم توضيحًا فنقول:

عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله ﷻ: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ**

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء.
(٢) رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء، والمزي في تهذيب الكمال، والخطيب في تاريخه.

آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»[1]، ومن يكون الولي إذا لم يكن علماء الأمة هم أولياء الله ومن أولى منهم بذلك؟ ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾[2]. فإيذاء الولي كآكل الربا كلاهما آذنه الله بالحرب.

يقول الإمام الشافعي: إن لم يكن العلماء العاملون أولياء الله فليس لله ولي، ويقول الإمام ابن القيم: ورثة الأنبياء سادات أولياء الله ﷻ، ويقول ابن عباس: «من آذى فقيهاً فقد آذى رسول الله ﷺ ومن آذى رسول الله ﷺ فقد آذى المولى ﷻ».

فإذا كان المسلم- بوجه عام - مصون دمه وماله وعرضه: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»[3] فما بالك إذا وجد التخصيص؟! فلا شك أن تكون الحرمة أشد.

يقول ابن رجب الحنبلي: من علامات العلم النافع أن صاحبه لا يدعي العلم ولا يفخر به على أحد ولا ينسب غيره إلى الجهل إلا من خالف السنة وأهلها فإنه يتكلم فيه غضباً لله لا غضباً لنفسه ولا قصداً لرفعتها على أحد، أما من علمه غير نافع فليس له شغل إلا التكبر بعلمه على الناس وإظهار فضل علمه عليهم ونسبتهم إلى الجهل.

الحسد:

وقد يكون هذا الموقف من العلماء والنيل منهم سببه الحسد كما قال ربنا: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[4]، وهذا مرض من أمراض القلوب أن يحسد الإنسان عالماً من العلماء فيهاجمه ويتطاول عليه.

ونخلص من هذا كله بأن احترام العلماء وإجلالهم وإمساك اللسان عن التشهير بهم أمر واجب ولا شك أن احترامهم من الدين ومن أخلاق الإسلام، فلا يجوز

---

(١) رواه البخاري.
(٢) الآيتان ٢٧٨، ٢٧٩ من سورة البقرة.
(٣) رواه مسلم والترمذي وأبو داود وغيرهم.
(٤) من الآية ٥٤ من سورة النساء.

للمسلم أن يعيب عالماً أو ينال منه، وقد رأي أحد الحكماء رجلاً يعيب غيره فقال له: لقد استدللت على كثرة عيوبك بما تكثر من عيوب الناس؛ لأن طالب العيوب يطلبها بقدر ما فيه منها.

ويقول إبراهيم بن أدهم: «إن أحدكم إلى أدب حسن أحوج منه إلى خمسين حديثاً»، وأشرف الإمام الليث على أصحاب الحديث فرأي منهم شيئًا فقال: «أنتم إلى يسير الأدب أحوج منكم إلى كثير العلم، يقول ابن تيمية «ما يفسد الدنيا ما يفسد نصف متكلم ونصف متفقه ونصف متطبب ونصف نحوي، هذا يفسد البلدان، وهذا يفسد الأديان، وهذا يفسد الأبدان، وهذا يفسد اللسان».

هل معنى ذلك أن العلماء ليس لهم أخطاء؟

إن العصمة لأنبياء الله تعالى فحسب، أما العلماء فيصيبون ويخطئون وهذا أمر طبيعي جدًا؛ لذلك يجب أن يكون للمتلقي منهج للتعلم كما يجب عليه أن يمحص مصدر التلقي، وذلك بالآتي:

أولاً: وجوب التثبت مما ينسب لأهل العلم من أخطاء.

ثانياً: ضرورة تحديد نوع الخطأ والتعامل معه بقدر حجمه دون تجاوز.

يقول الإمام السبكي: الصواب عندنا أن من ثبتت إمامته وعدالته وكثر مادحوه ومزكوه وندر جارحوه - من أهل العلم والصلاح - وكانت هناك قرينة دالة على سبب جرحه من تعصب مذهبه أو غيره فإنا لا نلتفت إلى الجرح فيه.

يقول ابن جرير الطبري: لو كان كل من ادُعِيَ عليه مذهب من المذاهب الرديئة ثبت ما ادعى به وسقطت عدالته وبطلت شهادته بذلك للزم ترك أكثر محدثي الأمصار؛ لأنه ما منهم إلا وقد نسبهم قوم مما يرغب به عنه.

يقول الإمام أبو حامد الغزالي: المجتهدون ومقلدوهم كلهم معذورون بعضهم مصيب لما عند الله وبعضهم يشارك المصيب في أحد الأجرين فمناصبهم متقاربة وليس لهم أن يتعاندوا أو يتعصب بعضهم مع بعض ولا سيما المصيب لا يتعيب.

ويقول الإمام ابن تيمية: لا نعتقد في القوم العصمة - يقصد الأئمة - بل تجوز

عليهم الظنون ونرجو لهم مع ذلك أعلى الدرجات لما اختصهم الله من الأعمال الصالحة، والأحوال السُنية وإنهم لم يكونوا مصرين على ذنب، ولا نكون من الذين إذا رأوا حسناً ستروه وإذا رأوا سيئاً أذاعوه ولكن لابد من رد الفضل لأصحابه وننظر إلى أقوالهم بعين الإنصاف.

يقول محمد بن سيرين: «ظلم لأخيك أن تذكر منه أسوأ ما تعلم وتكتم خيره»[١]. ويقول سعيد بن المسيب: «إنه ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، وقال من كان فضله أكثر من نقصه وُهب نقصه لفضله»[٢].

يقول ابن القيم: «ومن له علم بالشرائع والواقع يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح وآثار حسنة وهو من الإسلام وأهله بمكان قد تكون منه الهفوة والزلة هو معذور، بل مأجور لاجتهاده فلا يجوز أن يُتبع فيها ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته ومنزلته في قلوب المسلمين»[٣].

وها هو الإمام ابن القيم وهو يستدرك على بعض المعاني التي أتى بها الإمام الهروي في كتابه مدارج السالكين يقول: «شيخ الإسلام حبيبنا ولكن الحق أحب إلينا منه»[٤] وهو يقول هذا الكلام في مجال انتقاد ما يقول ولكنه يثبت له هذه الصفة النبيلة.

واسمع للإمام الذهبي وهو يتكلم عن إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، يقول عنه: وأما الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة وفيه خير كثير لولا ما فيه من آراء ورسوم وزهد من طرائق الحكام ومنحرفي الصوفية نسأل الله علماً نافعاً، وقال: انظر إلى إمام كبير وليس من شرط العالم أنه لا يخطئ وقال رحم الله أبا حامد فأين مثله في علومه وفضائله ولكن لا ندعي عصمته من الخطأ والغلط.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في صفوة الصفوة ٣/ ٢٤٥.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٨١...
(٣) إعلام الموقعين، لابن القيم ٣/ ٢٨٣.
(٤) مدارج السالكين ٣/ ٣٩٤.

ألا يكفي هذا لإقناع الذين لا همّ لهم إلا الهجوم على الإمام البنا فكأنه لا حسنة له ويسودون الصفحات كسواد القلوب الضالة ويفترون على الرجل الكذب وهم بعين عوراء لا ترى الوجه بكامله.

يقول الإمام الشافعي: إذا صح الحديث فهو مذهبي، ويقول غيره من العلماء: إذا خالف قولي حديث رسول الله ﷺ فاضربوا به عرض الحائط فأين هذا الكلام من المتعصبة الذين قال أحدهم: كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو منسوخ أو مؤل. فأي غلو وأي تعصب هذا!!وهل هذا ما يفعله تلاميذ الإمام البنا،كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً.

أعتقد أن الفرق الآن واضح بين التعصب واحترام العلماء وكيف نختلف معهم؟ فالإخوان المسلمون يحترمون ويقدرون إمامهم البنا رحمة الله عليه ويسندون ما يقولونه إليه؛ لأنه كما قيل من بركة العلم إسناده لقائله، بل ومن باب رد الفضل لأهله.

وإلا فماذا نقول عن إمام كابن القيم فكثيراً ما يقول: قال شيخنا -يقصد ابن تيمية- ويسند ما يقوله إليه، بل إن ابن تيمية نفسه كثيراً ما يذكر الإمام أحمد بن حنبل ويسند ما يقوله إليه وأحمد بن حنبل يذكر الشافعي، والشافعي يذكر الإمام مالك، وهكذا فهل هؤلاء متعصبون لعلمائهم أم مقدرون لهم يحترمونهم ويقدرونهم ويدعون لهم؟

إننا نلتزم بالأصول التي قالها الإمام البنا وأصّل بها دعوته؛ لأنها مستمدة من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالأهداف التي حددها لا يختلف عليها مسلمان، وكذلك الغايات، أما الوسائل فقد تختلف من زمان إلى زمان ومن بيئة إلى بيئة أخرى، فما العيب في ذلك؟!

إننا في كل ما يقول الإمام البنا ويعتقده نرده إلى الله ورسوله؛ ذلك لأن الله يقول: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (١)، ويحذر المولى فيقول: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ (٢)، فالله وحده

(١) من الآية ٨٣ من سورة النساء.
(٢) من الآية ٢١ من سورة الشورى.

المشرع ورسوله هو المبين فلا شرع إلا ما شرع الله أو ما شرع رسوله ﷺ وبوفاة الرسول ﷺ انتهي عهد التشريع أي انتهت العصمة وحمل العلم من بعده علماء غير معصومين، فما هي العصمة؟

العصمة:

معناها حفظ ظواهر الأنبياء وبواطنهم من التلبس بمعصية، فالرسول ﷺ معصوم من القتل حتى يبلغ رسالة ربه.

معصوم من العيوب التي تنفر الناس منه؛ لأن وجودها يمنع الفائدة من الرسالة وما قيل عن أيوب عليه السلام أنه مرض مرضاً منفراً كذب وافتراء عليه.

لكنهم لهم صفات البشر:

١- يأكلون ويشربون ويتصلون بأزواجهم.

٢- يرضون ويفرحون ويحزنون ويغضبون ويخافون.

٣- يمرضون بأمراض لا تعجزهم عن أداء رسالتهم ولا تنفر الناس منهم فلا يجوز عليهم الإغماء الطويل ولا الجذام والبرص والجنون والعمى وغير ذلك من الأمراض التي تعوقهم عن تأدية رسالتهم.

٤- يجوز عليهم السهو وعدم إصابة الأولى، وأما المعاصي والنسيان من جانب الشيطان فمستحيل عليهم.

والذين يعتقدون في عصمة علمائهم وأئمتهم هم الشيعة وغلاة المتصوفة، فالكيسانية من الشيعة تقوم على أساس أن الإمام شخص مقدس يبذلون له الطاعة ويثقون بعلمه ثقة مطلقة ويعتقدون فيه العصمة عن الخطأ؛ لأنه رمز للعلم الإلهي وكذلك الاثنا عشرية الذين يعتبرون الأئمة أوصياء استودعهم النبي أسرار الشريعة ليبينوا ما لم يبينه النبي ﷺ وإن ما يقول الأوصياء شرع إسلامي؛ لأنه تتميم للرسالة حتى إنهم يخصصون النصوص العامة ويقيدون النصوص المطلقة؛ ولذلك قرروا أن الإمام معصوم عن الخطأ والنسيان والمعاصي ويجوز أن تجري خوارق العادات على يده لتثبت إمامته ويسمونها معجزة.

ونحن لا نصف علماءنا بهذه الصفات ولكننا نعطيهم حقهم من الاحترام والتقدير، بل نعطي العلماء جميعاً هذا الحق طالما تحققت فيه صفة العالم من أخلاق ودين وعلم فله منا الاحترام والتقدير وعدم النيل أو الحط من شأنه.

فهل ترون بعد هذا التوضيح والتبيان أن أتباع الإمام البنا يعتبرونه معصوماً ويصفونه كما تصف الشيعة علماءها وينشرونها بين الناس كعقيدة لديهم؟ أجيبونا بصدق وأنصفونا يرحمكم الله فرضوان الله عليه حين قال: «وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ» هذا ما طالبنا به رحمة الله عليه، وهذا ما اتبعه السلف وساروا على منهاجه وسرنا بعدهم نقتفي أثرهم ونقتدي بهم فهل نحن مخطئون في ذلك؟ أليسوا هم من سلف هذه الأمة؟

السلف والسلفية:

معناها زماناً: القرون الثلاثة الأولى والتي تنتهي عند المأمون تقريباً: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»[١].

والسلفية ليس المقصود بها الزمان فقد انتهي زمانها وليس المقصود بها مكاناً معيناً ولا علماء معينين فبعض الناس يقصرون السلفية على فقه الإمام ابن حنبل، فماذا عن غيره من الأئمة؟ وماذا عن فقهاء السلف الذين خالفوا الإمام أحمد في أصول مذهبه؟

والذين يظنون أن السلفية هي مدرسة النص فماذا عن مدرسة الرأي وهي كمدرسة الأثر سواء بسواء؟! أم نعتبر الإمام أبا حنيفة ليس سلفياً لا هو ولا تلاميذه ولا مدرسته؟! أجيبونا غفر الله لنا ولكم.

ونحن نرى أن السلفية هي نزعة عقلية وعاطفية ومنهجية ترتبط بخير القرون وتعمق ولاءها لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتبذل الجهد لإعلاء كلمة الله على الأرض؛ ولذلك فهي لها منهج للعقيدة يفسر الكون والحياة والإنسان بعيداً عن علم الكلام ومستمداً من منهج القرآن[٢]، ومنهج للعبادة يقوم على الشمول والعموم

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم بنحوه.

(٢) يراجع كتاب «منهج القرآن فيعرض عقيدة الإسلام» للمؤلف.

والكمال والسمو والدوام، ينبع من صحة الاعتقاد وصدق الاتباع ومنهج للحركة تعريفاً وتكويناً وتنفيذاً.

فالسلفية تكون بالاقتداء الكامل بصحابة رسول الله ﷺ في مجال العلم والعمل معاً وليس في مجال العقائد فحسب، لكن حصرها في جزء من العلم النافع لا يجوز أبداً وكلما التزم الإنسان بما جاء به السلف الصالح والصحابة واقتدى بهم فهو من السلفيين.

فإذا جاء عالم من العلماء بهذا التصور في أي زمان وفي أي مكان وبأي لغة يعبر بها عن هذا المنهج وبلغة عصره كان سلفياً عقيدة وعبادة وحركة طالما أنه يقدم مفاهيم السلف الصالح ويتمسك بسنة الخلفاء الراشدين المهديين.

فعن العرباض بن سارية قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**»(١).

والحقيقة فإن قصور السلفية على هذه النظرة الضيقة بهذه الصورة التي توقف معناها وتقصرها على مفاهيم بعينها تتصل بالاعتقاد وتترك التطبيق والعمل والحركة لإقامة المجتمع بعقيدته وبعبادته وشريعته لها سلبيات كثيرة، فأول شيء أننا لو قصرنا السلفية على منهج الاعتقاد وركزنا عليه وتركنا الجوانب الأخرى، بل وأهملت وأصبحت النظرة إلى السلفية والسلف كأنهم هم أصحاب العقيدة الصحيحة أي الذين يهتمون بالجانب الاعتقادي فحسب، ولا يشغلهم الباطل ومناكيره وأهله وكيف يغيرونه لإقامة مجتمع العدل، ويكتفون بشرح العقيدة لا يبرحونها، ويتهمون الآخرين في دينهم وعقيدتهم، عليهم أن يراجعوا أنفسهم، صحيح أن الانطلاق السليم والاهتمام البالغ لابد أن يبدأ بتصحيح العقيدة هذا أمر لا نختلف فيه، لكن لابد أن يكون هناك استمرار الانطلاق بعد ذلك لاستكمال البناء ولإتمام الدين؛ لأنه

(١) رواه الترمذي وأبو داود والدارمي.

وإن كانت العقيدة هي الأساس وهي الجدار فأين البناء ليسكنه الناس ويحتموا به، والله يقول: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ ورِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ واللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[١].

ومن السلبية أيضًا أن تعرف السلفية بهذا المعنى القاصر على العقيدة ظن بعض المسلمين أن هذا هو الإسلام، فيقدمون الإسلام من جانب العقائد فحسب ويتركون الشرائع حتى يخيل لبعض المسلمين أن الإسلام قاصر على هذا الجانب ويرضون بذلك ويتصورون أنهم قد أدوا الذي عليهم.

ونحن إن قلنا إننا الإخوان المسلمون لتسمينا بهذا الاسم والأسماء لا تعلل، فلقد ألهم المولى الإمام البنا هذا الاسم الذي يحمل معنى العقدين معاً، عقد الإيمان وعقد الأخوة الذي بهما يقوم الإسلام، وبالرغم من هذا فإننا لا ننكر على الناس سلفيتهم أبداً إن كانوا يتبعون منهج السلف الصالح؛ وإن اختلفنا مع أحد في فروع المسائل، ونقول لهم: نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه.

فإلى متى نصحح للناس عقائدهم ولا ننتقل إلى شرائعهم؟ لقد أقام الرسول ﷺ الجماعة المسلمة في المدينة وكان الشرك موجوداً، وقد نزلت آيات التشريع في المدينة وكان الشرك موجوداً في مكة فهل ظل الرسول ﷺ يصحح عقائد الناس فحسب أم أنه كان يطبق آيات التشريع التي تنزل وفي نفس الوقت يصحح ويبين، وإلا فأين شرع الحج؟ وأين شرع الصيام؟ ألم يشرعا في المدينة، فهل أوقف الرسول ﷺ تنفيذ هذه العبادات حتى يصحح للناس عقائدهم أولاً؟ أم أنه أقام الشرائع والأحكام التي نزلت بعد ذلك واقعًا على الأرض كل ذلك واقعاً على الأرض؟

والأمر العجيب أن بعض إخواننا جعلوا معنى السلفية وكأنها مدرسة حديث فلا يجوز لك أن نقول إنك حنفي المذهب أو شافعي أو مالكي أو حنبلي، ولا تكون في عرفهم سلفيًا إلا إذا أخذت من الكتاب والسنة مباشرة، وكأن هذه المذاهب لم تأخذ أحكامها من الكتاب والسنة، ثم يغالون في حربهم للمذهبية إلى حد الحرمة.

---

(١) الآية ١٠٩ من سورة التوبة.

جاءني أحد الإخوة من هؤلاء الذين ينكرون المذهبية ويريدون أن يأخذوا من الحديث فحسب، فقلت له: «هذا الكلام الذي تقوله مقنع تمامًا ولكنني أسألك سؤالاً: ما رأيك في صحيح الإمام مسلم؟ قال: هو مصدر من مصادر الأحاديث الصحيحة والتعلم السليم، قلت له: هل تقرأ النصوص والمتون وتستخرج منها الأحكام أم أنك تقرأ تفسير الحديث عند الإمام مسلم؟

قال أقرأ التفسير بالطبع، قلت له: أتدري من كتب هذا التفسير لهذا الكتاب الجليل؟ إنه الإمام النووي وهو شافعي المذهب، فلِمَ تضيق واسعاً؟ أم أنك تنكر على الإمام النووي مذهبيته الشافعية، وقس على ذلك كثير من العلماء الذين فسروا وشرحوا كتب الحديث كالإمام ابن حجر العسقلاني الذي شرح أحاديث الإمام البخاري وغيره الكثير.

وللأسف الشديد إن إخواننا حين يتعصبون لمثل هذه الأمور فإنهم يلقنون الشباب الغض هذه المفاهيم المغلوطة، فلا يربي الشباب على الحب، ولكن يغرس في نفوسهم الكره والبغض والتعصب وكأنهم في معركة بينهم وبين الآخرين من المسلمين؛ ونتيجة لذلك يقسم الناس عندهم بين مسلم وكافر ومبتدع، ويتركون الدعوة إلى الله والباطل المستشري والمذاهب الفاسدة المفسدة كالشيوعية والعلمانية والماسونية وغيرها من الاتجاهات المدمرة وينشغلون بالحكم على المسلمين.

والحقيقة أن كل مسلم له حظ من السلفية بقدر حظه من الاهتداء بهدي رسول الله ﷺ وهذا أمر لا نستطيع أبداً أن ننكره على أي مسلم التزم بمنهاج محمد ﷺ وصحبه، ومن هنا كانت دعوة الإخوان دعوة سلفية، فهذه المعاني التي أوضحناها.

فضل الصحابة:

الآيات القرآنية في فضل الصحابة كثيرة منها: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾[1]، وقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2]،

---

(١) الآية ١٨ من سورة الفتح.
(٢) الآية ١٠٠ من سورة التوبة.

وقوله: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

وها هو ذا عمر ﷺ يقول مرفوعاً: «سألت ربي عن اختلاف أصحابي من بعدي فأوحى إليَّ: يا محمد، إن أصحابك عندي بمنزلة النجوم في السماء بعضها أقوى من بعض، ولكل نور، فمن أخذ بشيء مما هم عليه من اختلافهم فهو عندي على هدي» (٢).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «من كان مستناً فليستن بمن قد مات أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير أمة، أبرها قلوبًا وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ونقل دينه فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم فهم أصحاب محمد ﷺ كانوا على الهدى المستقيم»(٣).

وعن قتادة قال: «سئل ابن عمر رضي الله عنهما: هل كان أصحاب النبي ﷺ يضحكون؟ قال: نعم، والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبال»(٤).

ولهذه المنزلة العالية فإننا لا نتعرض لخلافهم وأشخاصهم بشيء فيما اختلفوا فيه، ويا لروعة ما قاله بعض العلماء عندما سُئل عما وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم من خلاف فقال: تلك دماء قد طهر الله منها أيدينا فلا نلوث بها ألسنتنا وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته حين قال: لا تثريب عليكم.

وسئل الحسن البصري عن قتالهم قال: «قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغبنا وعلموا وجهلنا واجتمعوا فاتبعنا واختلفوا فوقفنا».

وقال المحاسبي: «فنحن نقول كما قال الحسن ولا نبتدع رأياً منا، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا وجه الله ﷻ» (٥).

فهل نتأدب بهذا الأدب وننهج هذا النهج القويم؟! ونعمل بما جاء في هذا الأصل المبين.

---

(١) الآية ١١٧ من سورة التوبة.

(٢) جمع الفوائد، لابن القيم ٢/ ٢٠١.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء.

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء.

(٥) ذكره القرطبي في تفسيره ١٦/ ٣٢٢، والصابوني في روائع البيان ٢/ ٤٨٢.

مردود الأصل السادس

أولاً- حصيلة العقل:

أ- اختر الإجابة الصحيحة (من الممكن أن تكون أكثر من إجابة صحيحة):

١- يتناول الأصل السادس موضوعات:

أ	مصدر التلقي	ب	المصادر التي ليست من أدلة الأحكام الشرعية
ج	كيفية التعامل مع العبادات والعاديات	د	احترام العلم والعلماء

٢- كل الناس يؤخذ من كلامه ويترك إلا:

أ	النبي ﷺ	ب	صحابة النبي ﷺ
ج	العلماء من التابعين	د	جميع ما سبق.

٣- ميزان قبول الكلام هو موافقته:

أ	للقرآن فقط	ب	للقرآن والسنة
ج	لأراء الصحابة والتابعين	د	لرأي من أراء الأئمة الأربعة

٤- السلفيون هم:

أ	مسلمو القرون الثلاثة الأولى فقط	ب	الذين يتبعون أراء السلف الفقهية
ج	الذين يتبعون السلف الصالح بإحسان	د	جميع ما سبق

ب- ضع (أ) أمام العبارة الصحيحة و (ب) أمام العبارة الخطأ فيما يلي:

٥	لكل مسلم أن يقول برأيه في المسائل الاجتهادية ما لم يتطاول على العلماء.	
٦	يصلح الناس بصلاح حكامهم وعلمائهم ويفسدون بفسادهما.	
٧	من المقبول شرعًا التجاوز عن عثرات وأخطاء العلماء.	
٨	من الضروري أن يثق المسلم في علم علماء الشرع ثقة مطلقة.	
٩	لا حرج أن نحقق فيما دار بين الصحابة من خلاف لنعلم المخطئ من المسيء.	

قارن إجاباتك بالإجابات النموذجية في آخر مردود الأصل، وأعطِ نفسك درجة لكل إجابة صحيحة وصفرًا للإجابة الخاطئة.

أكثر من ٨	٧- ٨	٦	٥	أقل من ٥
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثانيًا- رصيد القلب:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

العبارات	دائماً	غالباً	أحياناً	نادراً	أبداً
١- أومن أنه لا عصمة لأحد من الخطأ إلا الأنبياء.					
٢- أعتقد أن كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ.					
٣- لا أرتضي من أقوال العلماء إلا ما وافق الكتاب والسنة.					
٤- أحب السلف الصالح وأرجو أن أكون في صلاحهم.					
٥- أتألم حين أرى أحد يطعن في العلماء والدعاة وإن أخطأوا.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من١٧	١٥- ١٧	١٣- ١٤	١٠- ١٢	أقل من ١٠
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثالثًا: حساب الجوارح:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

العبارات	دائماً	غالباً	أحياناً	نادراً	أبداً
١- أبين لمن حولي أنه لا عصمة لأحد إلا للأنبياء.					
٢-لا أمس أحد من العلماء أو الدعاة بطعن أو تجريح.					
٣- أسعى لأكون سلفيًا باتباعي لمنهج السلف الصالح.					
٤-أبين للناس ضرورة احترام العلماء وعدم تتبع عثراتهم.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من١٣	١٢- ١٣	١٠- ١١	٨- ٩	أقل من٨
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

إجابات حصيلة العقل (٦)

السؤال	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
أ	✓	✓				✓	✓		
ب			✓		✓			✓	✓
ج				✓					
د	✓								

الأصل السابع

المذهبية ودرجة النظر – أو الاجتهاد والتقليد



«ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماماً من أئمة الدين ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلته، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صلاح من أرشده وكفايته وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر»[1].

(١) مجموعة الرسائل، للشهيد حسن البنا، رسالة التعاليم،ص٢٦٩.

هذا الأصل يعالج:

١-قضية الاجتهاد والتقليد.

٢-المذهبية وهل للعامي أن يتبع مذهبًا؟

٣-عدم التعصب للمذهب.

٤-الحث على استكمال النقص العلمي.

إن هذا الأمر شُد بين طرفيه وغالى كل طرف في رأيه، فمجموعة من الدعاة بل ومن بعض علماء العصر وهم القلة طالبوا الناس بالنظر والاجتهاد في كل ما يعرض عليهم حتى ولو لم يملكوا أدوات الاجتهاد والنظر وحرموا على الناس اتباع المذاهب والأئمة وقالوا: لا نأخذ من أحد إلا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وفريق آخر حرموا على المجتهد أن يجتهد أو ينظر في الدليل ويقولون: لا يجوز التعبد لله إلا من خلال كتب المذاهب وعلى كل مسلم أن يتخذ مذهباً يتبعه ولا يحيد عنه.

والحقيقة أن الفريقين ما أصابوا؛ لأنهم بين إفراط وتفريط في المسألة؛ ولذلك عالج العلماء هذه القضية في كتب كثيرة وحسموها حسماً لا يحتاج إلى نزاع أو إلى جدال حتى لا يكون لسائل في هذه القضية وغيرها مهما كان سؤاله إلا أن يجد الإجابة عنه، ونحن نريد في هذه المسألة الاعتدال والتوسط ونلتزم بما التزم به أهل السلف وجماهير الأمة، من العلماء الذين يقولون إن الاجتهاد جائز وهذا قول الإمام ابن تيمية في فتاواه، حيث يقول: «إن الاجتهاد جائز في الجملة والتقليد جائز في الجملة» وليس للذين يقولون بالاجتهاد أن يحرموا التقليد أو العكس.

ونأخذ نموذجاً من الذين كتبوا في هذا الموضوع حديثاً وأعطوه حقه مثل الدكتور عصام البشير الذي كتب بعض المقالات توضح هذه القضية في مجلة المجتمع ومما قال: «الناس في أمر الاجتهاد والتقليد ثلاث مراتب:

الأولى: عالم يفقه الآيات ودلالتها والأحاديث ومضامينها، راسخ في معرفة قواعد

الاستنباط ومدارك الأدلة وضوابط الاستدلال وأصول التدقيق فيما ظاهره الاستدلال ملمٌّ بلغة العرب وتصاريفها وله خبرة بمدلولات الألفاظ وعارف بمواقع الاختلاف والإجماع ومسالك المجتهدين، فهو يجتهد.

والثانية: متبع ليست عنده القدرة على الاستقلال في البحث واستخراج الدلالات من النصوص واستنباط الأحكام منها لكنه في الوقت نفسه يفهم الحجة ويعرف الدليل، فهو يتبع ما يقوى عنده من الأدلة.

الثالثة: وهو عامي لا يفقه نصوصًا من القرآن والسنة، ولا يستطيع الاستنباط منها ولا معرفة ما يطلب منه، فهو يقلد إمامًا من الأئمة.

هؤلاء هم الثلاثة أصناف من الناس الذين بين مجتهد وبين ناظر في بعض الأدلة وبين جاهل بهذه الأمور جهلاً تاماً».

وكذلك ما كتبه الأستاذ سعيد حوى - رحمه الله - «جولات في الفقهين الكبير والأكبر» يقول: «الناس في الأحكام العملية التي هي مدار علم الفقه ثلاثة أقسام: إنسان وصل إلى رتبة الاجتهاد وإنسان عالم بمصادر القول وموارده ولم يصل إلى رتبة الاجتهاد وإنسان عامي، أما الأول فمكلف بالسير على ما وصل إليه اجتهاده فهو يجتهد وينظر؛ لأن معه أدوات الاجتهاد، وأما الثاني فهو مكلف أن يسير على رأي من اقتنع أن معه الحق من الأئمة، وأما الثالث فله أن يتابع أي إمام من الأئمة ممن سأله فأفتاه فله أن يعمل بفتواه إن كان من أهل الفتيا والهدى، ومن ثم قال العلماء: العامي لا مذهب له أو يتبع مذهب مفتيه».

يقول الشيخ ابن عبد البر: «العامة لابد لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها؛ لأنها لا تتبين موقع الحجة ولا تصل لعدم الفهم إلى علم ذلك؛ لأن العلم درجات لا سبيل إلى أعلاها إلا بنيل أسفلها وهذا هو الحائل بين العامة وطلب الحجة، ولم يختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها وأنهم المرادون بقول الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [(١)]، وأجمعوا على أن الأعمى لابد له

(١) من الآية ٤٣ من سورة النحل، ومن الآية ٧ من سورة الأنبياء.

من تقليد غيره ممن يثق بمعرفته بالقبلة».

وابتداءً لا يمكن تصور تساوي الناس علماً وفهماً وتحصيلاً في أي مجتمع من المجتمعات، فهذا محال؛ لأن المولى ﷻ أخرجنا جميعاً من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً ومنحنا أدوات المعرفة. وتفاوت الناس إنما يرجع إلى اختلاف قدراتهم في استخدام هذه الأدوات. يقول المولى ﷻ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]، وقال: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[2]؛ ولذلك كان التفضيل بين المؤمنين بالعلم والعمل فلا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون. ورفع الدرجات بينهم يرجع للعلم الذي بذل فيه الجهد البشري والتوفيق الرباني: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[3]، وهناك جهد بشري تفاوت الناس فيه، فالمولىﷻ رفع بعضهم فوق بعض درجات وكان المقياس كما سمعنا في الآية: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾. وتدبر الآيات إنما يكون بهذا العلم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[4]، ﴿وَتِلْكَ الأمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ﴾[5]. فكان من الطبيعي أن يكون أحق الناس بخشية الله هم العلماء لأنهم عرفوا الله حق المعرفة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[6]، فهم ورثة الأنبياء لا شك في ذلك.

فهذه الآيات تؤكد هذا المعنى وتبين أن الناس صنفان: صنف عالم وصنف جاهل وإلا كيف يفضل الله ﷻ الناس وهم متساوون في القدرة والنظر، وإذا كان الأمر كذلك فمن الطبيعي أيضًا أن تختلف درجة العلم من فرد إلى آخر، وكان من الطبيعي أيضًا أن يتوجه الجاهل إلى العالم بالسؤال ليكشف له ما غُمّ عليه وحدث هذا مع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، والمولى ﷻ يبين لنا ذلك فيقول: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى

---

(١) الآية ٧٨ من سورة النحل.
(٢) الآية ٣٦ من سورة الإسراء.
(٣) الآية ١١ من سورة المجادلة.
(٤) من الآية ٢٢ من سورة الروم.
(٥) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت.
(٦) الآية ٢٨ من سورة فاطر.

﴿الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[١]، والآية واضحة أن هناك من يستطيع الاستنباط ومن لا يستطيع أن يستنبط حكماً، وإذا كان الأمر كذلك كان لابد من وجود العلماء في المجتمع لحاجتنا إليهم، ولكي نصل إلى الصواب عن طريقهم في مجتمع المسلمين فيُرد إليهم ما استشكل من أمر ولو خلا المجتمع من العلماء لأثم المجتمع كله حتى توجد مجموعة من العلماء الذين يكفونه حاجاته في شئون دينهم ودنياهم يقول تعالى: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٢].

ومجتمع رسول الله ﷺ نفسه كما وُجد فيه العلماء في أبواب العلم المختلفة وجُد فيه أيضًا العامي والأمي والجاهل، فهناك الفقيه الورع وترجمان القرآن والمحدث عن رسول الله ﷺ وعالم الفرائض وكاتم سر النبي ﷺ وهكذا، ومع وجود هؤلاء نجد الجاهل بأمور دينه وأحكامه بل إن الصحابة تفاوتوا في درجات العلم وأبوابه.

درجات الصحابة من حيث الرواية:

فالعلماء من الصحابة متنوعون من حيث الرواية فمنهم[٣]:

المكثرون وهم سبعة: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعائشة أم المؤمنين، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، يقول ابن حزم: يمكن أن يجمع لكل واحد منهم سفر ضخم، وقد جمع لابن عباس رضي الله عنهما فتيا في عشرين كتاباً.

المتوسطون: أبو بكر، وأم سلمة، وأنس بن مالك، وأبو سعيد الخدري، وأبو هريرة، وعثمان بن عفان، وغيرهم.

المقلّون: لا يروي الواحد منهم إلا المسألة أو المسألتين كأبي الدرداء وأبي عبيدة والحسن والحسين، وأبي طلحة، وأبي ذر وغيرهم، يقول ربنا: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

---

(١) من الآية ٨٣ من سورة النساء.
(٢) من الآية ١٢٢ من سورة التوبة.
(٣) إعلام الموقعين،لابن القيم ١/ ١٢.

﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ (١)، قالوا: هم أصحاب محمد ﷺ.

قال أبو البحتري: قيل لعلي بن أبي طالب ﷺ حدثنا عن أصحاب رسول الله ﷺ قال: «عن أيهم؟ قالوا عن عبد الله بن مسعود، قال: قرأ القرآن وعلم السنة ثم انتهى، وكفاه بذلك، قالوا: فحدثنا عن حذيفة، قال: أعلم أصحاب محمد بالمنافقين، قالوا: فعمار؟ قال: خلط الله الإيمان بلحمه ودمه ليس للنار فيه نصيب، قالوا: فأبو موسى؟ قال: صُبغ في العلم صبغة، قالوا: فسلمان؟ قال: علم العلم الأول والآخر، وهو بحر لا ينزح وهو منا أهل البيت، قالوا: فحدثنا عن نفسك يا أمير المؤمنين. قال: إياها أردتم، كنت إذا سُئلت أعطيت وإذا سكت ابتديت» (٢).

وصدق مسروق إذ يقول: «جالست صحابة رسول الله ﷺ فكانوا كالإخاذ، الإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المائة، والإخاذ لو اجتمع له أهل الأرض لأصدرهم» (٣).

غياب بعض المعاني عن الصحابة:

ومع هذا الذي قلناه فإننا نجد أن بعض المعاني قد غابت عن بعض الصحابة - وهم بين ظهراني رسول الله ﷺ - فهذا ابن عباس رضي الله عنهما - بالرغم من أنه ترجمان القرآن - يقول كنت لا أدري ما (فاطر السماوات) حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها يقول: أنا ابتدأتها (٤)، فتعلم ابن عباس من الأعرابي معنى كلمة (فاطر). ففهم بعدها معنى (فاطر السماوات).

وهذا عدي بن حاتم حين قرأ: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (٥) أتى بعقالين أحدهما أبيض وآخر أسود حتى ضحك

(١) من الآية ٦ من سورة سبأ.

(٢) ذكره ابن القيم في إعلام الموقعين ١/ ١٦.

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى، وذكره ابن الجوزي في صفوة الصفوة ١/ ٤٠٣، وذكره ابن القيم في إعلام الموقعين ١/ ١٦.

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان، وذكره الطبري في تفسيره ٧/ ١٥٩، والقرطبي في تفسيره ١/ ٤٤، وابن كثير في تفسيره ٣/ ٥٤٣.

(٥) من الآية ١٨٧ من سورة البقرة.

رسول الله ﷺ من تصرفه وأعلمه أنه بياض النهار وسواد الليل.

وهذه عائشة تسأل رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: **﴿والَّذينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وقُلُوبُهُمْ وجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾**[١]. أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر وهو يخاف الله ﷻ؟ فقال: « **لا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُمْ الَّذينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لا يُقْبَلَ مِنْهُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ**»[٢].

وها هم أصحاب رسول الله ﷺ لما نزل قول ربنا: **﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وهُم مُّهْتَدُونَ﴾**[٣]، أشفقوا منها وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: «**لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ بِشِرْكٍ أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لابْنِهِ: ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [٤]**»[٥]، فالظلم هنا بمعنى الشرك، وليس لأحد أن يفسرها بغير هذا بعد تفسير رسول الله ﷺ.

وهذا هو سيدنا عمار ﷺ عندما لم يجد الماء أراد أن يتيمم فتمرغ في التراب وظن أن التيمم هكذا، فلما ذهب لرسول الله ﷺ علمه كيف يتيمم، فضلاً عن ذلك فهناك القصة المشهورة التي غضب منها رسول الله ﷺ عندما كان الصحابة في ليلة ممطرة شديدة البرودة واحتلم أحد الصحابة، فلما قام من نومه سأل ماذا أصنع والجو بارد وسيقتلني الماء البارد إن استعملته، فقالوا له لا نجد لك رخصة مادام الماء موجود، فاغتسل فمات لأن رأسه كانت قد شجت من حادثة، فلما ذهبوا إلى رسول الله ﷺ غضب وقال: « **قَتَلُوهُ قَتَلَهُمْ اللَّهُ أَلا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ**»[٦].

هؤلاء هم صحابة رسول الله ﷺ فما بالك بالمستعربين والأرقاء وأهل الحيرة والطلقاء، بل ماذا نقول في زماننا هذا عن المسلمين الذين لا يعرفون عن العربية شيئاً ولا يعرفون للقرآن قراءة، بل ماذا نقول عن الأوربي والأمريكي والروسي الذي

---

(١) الآية ٦٠ من سورة المؤمنون.
(٢) رواه الترمذي في سننه.
(٣) الآية ٨٢ من سورة الأنعام.
(٤) من الآية ١٣ من سورة لقمان.
(٥) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.
(٦) رواه أبو داود في سننه وغيره.

يسلم وجهه لله، أمثل هؤلاء يجتهدون ولا يقلدون؟!

رضوان الله عليك يا ابن عباس حين قلت: نزل القرآن على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من لغتها ووجه لا يعذر مسلم بجهله، ووجه لا يعلمه إلا العلماء، ووجه لا يعلمه إلا الله، فالناس إذن من عهد رسول ﷺ إلى يومنا هذا بين: عالم ومتعلم، وتابع ومتبوع، ومقلد ومجتهد.

ونسأل سؤالاً: إذا جاء إنسان شرح الله صدره للإيمان ويريد أن يتعلم الصلاة مثلاً ماذا أنت فاعل؟ هل تقول له: يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ﴾ [1]، ثم تتركه يجتهد في فهمها، أم أنك تقول له: تعال وافعل مثل ما أفعل وتتوضأ أمامه كي يتعلم فهل هو في هذه الحال يقلد أم يجتهد؟ وكذلك في باقي الأمور والأحكام الأخرى من صلاة وحج وصيام... إلخ.

وهنا لابد لنا من الحديث عن التقليد ثم عن الاجتهاد؛ حتى تتبين لنا حقيقة المسألة.

فما هو التقليد:

المعنى اللغوي:

التقليد لغة هو جعل القلادة في العنق، ومعني ذلك أن التقليد في الدين كأن المقلد فيه جعل الحكم الذي يأخذه من العالم كالقلادة سواء بسواء لا ينظر فيها بل يأخذها كما هي.

المعنى الاصطلاحي:

هو الأخذ بقول الغير ممن ليس قوله حجة شرعية من غير مطالبته بالدليل الذي بنى عليه حكمه، أو نقول: إنه العمل بقول غيرك من غير حجة، فعندما نطلب الحكم من العالم ليس من حقنا أن نطالبه بدليل ما يقول؛ لأن الدليل وعدمه عند الجاهل

(١) من الآية ٦ من سورة الأنعام.

يستوي، والواقع أن التقليد لا يكون إلا في الأمور الاجتهادية، أما الأمور المنصوص عليها أي ما يتصل بالعقائد والنصوص القطعية فلا مجال للاجتهاد فيها.

يقول الإمام ابن القيم: الاجتهاد يكون في أمرين: ما لا نص فيه أصلاً وما فيه نصوص ظاهرها التعارض فيجب الاجتهاد في الجمع بينهما أو الترجيح بين هذه النصوص أو يكون في النصوص الظنية في الأحكام العملية.

ويقول الإمام الشاطبي في كتاب الاعتصام: المكلف بأحكام الشريعة لا يخلو من أحد أمور:

أولها: أن يكون مجتهداً فيها.

ثانياً: أن يكون مقلداً صرفاً خلياً من العلم الحاكم جملة فلابد من قائد يقوده.

ثالثاً: أن يكون غير بالغ مبلغ المجتهدين لكنه يفهم الدليل وموقعه ويصلح فهمه للترجيح بالمرجحات المعتمدة وله القدرة على تحقيق المناط (يعنى أنه يثبت الحكم الذي وصل إليه بمدركه الشرعي).

يقول العز بن عبد السلام بعد أن تكلم فيمن تجب طاعته ومن تجوز طاعته: «ويستثنى من ذلك العامة فإن وظيفتهم التقليد لعجزهم عن التوصل إلى معرفة الأحكام بالاجتهاد بخلاف المجتهد فإنه قادر على النظر المؤدي إلى الحكم»

ويقول الفقيه الحافظ البغدادي: أما من يسوغ له التقليد فهو العامي الذي لا يعرف طرق الأحكام الشرعية فيجوز له أن يقلد عالماً ويعمل بقوله تعالى: ﴿**فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [1]، ولأنه ليس من أهل الاجتهاد فكان فرضه التقليد كتقليد الأعمى في القبلة فإنه لما لم يكن معه آلة الاجتهاد في القبلة (التي هي البصر) كان عليه تقليد البصير فيها وإذا كان العامي لابد له أن يقلد العالم فهل للجاهل أن يسأل عن الدليل؟ نعم له أن يسأل ولكنه يسأل لكي يتعلم؛ ولكي يزداد فهمًا وبصيرة ولكنه لا يسأل ليرجح بين أحكام أو ليعرف قوة الدليل؛ لأن قوة الدليل عنده واحدة؛ فهو ليس لديه الميزان الذي يزن به قوة الدليل.

---

(١) من الآية ٤٣ من سورة النحل، ومن الآية ٧ سورة الأنبياء.

وإذا كانت لديه القدرة وكان من الصنف الثاني الذي يستطيع أن يعرف الدليل في المسألة ونظر إلى من أفتاه ثم انتقل إلى عالم آخر ووجد دليله أقوى بل وجد الأول أضعف والثاني هو الأقوى، فهل له أن يتمسك بالتقليد مع من أفتاه أولاً؟ إن كانت عنده القدرة أن ينظر في هذه المسألة جزئيًا فإنه إذا تبين له خطأ الأول فعليه أن يتبع الثاني.

وقد اتفق العلماء على تقليد العامي للعالم في الأحكام العملية مع مراعاة ما يلي:

أولاً-تقليد العامي لعامي مثله هو تقليد محرم اتفاقاً.

ثانياً-«تقليد مجتهد اجتهد في مسألة لمجتهد آخر في تلك المسألة هو ممنوع أيضًا اتفاقاً»[١].

وذلك لأن الأول استفرغ الجهد وبذل الوسع فوصل الظن الغالب عنده إلى صحة المسألة فأصبح هذا هو الصواب عنده فلا يأخذ من مجتهد آخر؛ لأن الاثنين في درجة واحدة من الاجتهاد واضحة؟

ثالثاً-تقليد مجتهد لعامي، وهذه وإن كانت بعيدة الاحتمال إلا أن العقل لا يستبعدها؛ وهذه ممنوعة أيضًا اتفاقاً بالقياس على السابقة.

رابعاً-«تقليد مجتهد قبل اجتهاده في مسألة لضيق الوقت أو لتكافؤ الأدلة أو عدم ظهور دليل له في تلك المسألة، قد وقع فيه خلاف، والراجح جواز التقليد في هذه الحالة»[٢].

خامساً-تقليد عامي لمجتهد من غير أن يطلب منه دليلاً على ما وصل إليه من الأحكام، وهذه الصورة التي حددها العرف لتكون محلاً للخلاف بين العلماء وتقسيماتهم:

يقول ابن القيم في إعلام الموقعين: يجوز التقليد لمن لم يبلغ مرتبة الاجتهاد وأن

---

(١) الثبوت، للإمام مسلم ٢/ ٣٩٢.
(٢) الإحكام، للآمدي ٤/ ٢٠٤.

عليه اتباع إمام يسترشد به ويقلده في أحكام الحلال والحرام، ولا يجوز لمثل هذا الإنسان أن يفتي الناس ولو توفرت له كتب «الحديث».

فهل هناك فرق بين هذا الكلام وكلام الإمام البنا؟ ارجع إلى ما قاله الإمام البنا تراه متطابقاً تمام التطابق مع ما قاله علماء الأمة.

يقول الإمام ابن القيم في إعلام الموقعين:

المذموم من التقليد ثلاثة:

١-الإعراض عما أنزل الله وعدم الالتفات إليه اكتفاء بتقليد الآباء: **﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾** [١]؛ لأن أصل الإيمان هو اليقين الجازم ونحن لا نصل إلى اليقين الجازم في التقليد؛ ولهذا تجد كثيراً من الاستدلالات العقلية التي توصل إلى الإيمان بالوحدانية في كتاب الله في مثل قوله: **﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الابِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾** [٢]، وفي قوله **﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الارْضَ مِهَادًا﴾** [٣]، وفي قوله: **﴿فَلْيَنظُرِ الانسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾** [٤]، وفي قوله: **﴿فَلْيَنظُرِ الانسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾** [٥] وفي مثل قوله: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الألْبَابِ﴾** [٦].

«والآيات في هذا المجال كثيرة» [٧]، يقول فيها ابن القيم: «الأمور الاعتقادية المتعلقة بأصول الدين لا يجوز التقليد فيها بالإجماع؛ لأن هذه الأمور لا يغني فيها الظن وإنما سبيلها اليقين والقطع لقوله تعالى: **﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾** [٨]» [٩].

يقول الإمام أحمد: «من ضيق علم الرجل أن يقلد في اعتقاده. وقال لرجل: «لا

---

(١) من الآية ٧٤ من سورة الشعراء.
(٢) الآية ١٧ من سورة الغاشية.
(٣) الآية ٦ من سورة النبأ.
(٤) الآية ٥ من سورة الطارق.
(٥) الآية ٢٤ من سورة عبس.
(٦) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران.
(٧) انظر كتاب «منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام»، للمؤلف.
(٨) الآية ٣٦ من سورة الإسراء.
(٩) إعلام الموقعين،لابن القيم.

تقلد دينك أحد وعليك بالأثر». ويقول ابن مسعود: «ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً إن آمن آمن وإن كفر كفر». ويقول:«لا يكون أحدكم إمعة يقول إنما أنا رجل من الناس إن ضلوا ضللت وإن اهتدوا اهتديت»[١].

٢-تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ منه بقوله.

٣-التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المُقَلَّد.

بين التقليد والاتباع:

إذا تكلمنا في هذه القضية عن التقليد والاتباع، فالمقصود بالاتباع هي الأمور التي لا يجتهد فيها: ﴿اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾[٢]، والاتباع ما جاء به المصطفي ﷺ وحكمه ظاهر لا اجتهاد فيه ألبتة، ولا يجوز فيه التقليد أيضًا، أما المعنى الآخر ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ﴾[٣] فالمقصود به هنا هو التقليد.

ولا يصح الاجتهاد في الأمور الموحى بها في الآيات: ﴿اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[٤] فالعلم بفريضة الصلاة أمر فيه اتباع وليس فيه اجتهاد سواء أكان في فرضية الصلاة أو الزكاة والصوم وفرضية الوضوء، والأمور التي فرضها المولى علينا إجمالاً ودون دخول في مسائلها الفرعية، هذه يشترك فيها العوام والمجتهدون على حد سواء وليس لأحد أن يجتهد في هذه المسألة لكنها من المعلوم من الدين بالضرورة وليست من الأمور الأخرى التي تتصل بالأحكام العملية، فكلها ينطبق عليه ما قلناه إذا كان عنده القدرة على الاجتهاد.

فلا فرق بين التقليد والاتباع لغة، والذين يقولون: إننا نتبع ولا نقلد نقول لهم: إن المولى ﷻ في كتابه الكريم يقول: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[٥]، وهذا تعبير عن التقليد

(١) الثبوت، للإمام مسلم ٢/ ٣٩٢.
(٢) من الآية ٣ من سورة الأعراف.
(٣) من الآية ١٦٦ من سورة البقرة.
(٤) الآية ٣ من سورة الأعراف.
(٥) الآيتان ١٦٦، ١٦٧ من سورة البقرة.

في أسوأ أنواعه وهو التقليد الأعمى الذي يهلك صاحبه.

ويقول الإمام الغزالي في المستصفي: دليل إجماع الصحابة أنهم كانوا يفتون العوام ولا يأمرونهم بنيل درجة الاجتهاد، علماً بأن المستفتى لم يلتزم مع ذكر الحكم ببيان دليله.

ويقول الآمدي في الأحكام: أما الإجماع فهو أنه لا تزال العامة في زمن الصحابة والتابعين يستفتون المجتهدين ويتبعونهم في الأحكام الشرعية، والعلماء منهم من يبادرون إلى إجابة سؤالهم من غير إشارة إلى ذكر دليل، فكان إجماعاً على جواز اتباع العامي للمجتهد المطلق.

يقول الإمام الشاطبي في الاعتصام: فتاوى المجتهدين للعوام كالأدلة الشرعية بالنسبة للمجتهدين.

الاجتهاد المطلق:

المجتهد المطلق هو الذي يستنبط الأحكام من أدلتها الشرعية وهذا قمة الاجتهاد ويسمونه مجتهد مطلق؛ لأنه لديه القدرة على النظر في الأدلة من الكتاب والسنة واستنباط الحكم منها، ودرجة الاجتهاد المطلق تحصل بتمكنهم من تعرف الأحكام الشرعية من أدلتها استدلالاً من غير تقليد.

الاجتهاد المقيد:

والمجتهد في المذهب يجتهد في اجتهاد عالمه وصاحب مذهبه، وقد يخالفه ويكون الاجتهاد في أدلة المذهب نفسها، وأما الاجتهاد المقيد فهو درجة تحصل بالتبحر في مذهب إمام من الأئمة بحيث يتمكن من إلحاق ما لا ينص عليه ذلك الإمام بما نص عليه معتبراً قواعد مذهبه وأصوله.

ولكل إمام تلاميذ وقد يخالفون إمامهم في بعض المسائل العملية، وأكبر دليل يستشهد به العلماء على ذلك هو محمد بن الحسن وأبو يوسف، فهما من تلاميذ أبي حنيفة وفي نفس الوقت خالفاه في المذهب واجتهدوا فيه.

سئل ابن الصلاح: هل إمام الحرمين، والإمام الغزالى والإمام أبو إسحاق رضي

الله عنهم بلغ أحد من هؤلاء الأئمة المذكورين درجة الاجتهاد في المذهب الشافعي على الإطلاق أم لا؟ وما حقيقة الاجتهاد على المذهب؟ وهل بلغ أحد منهم درجة الاجتهاد المطلق؟

فأجاب ابن الصلاح بقوله: «لم يكن لهم الاجتهاد المطلق وبلغوا الاجتهاد المقيد في مذهب الشافعي ﷺ ودرجة الاجتهاد المطلق تحصل بتمكنه من تعرف الأحكام الشرعية من أدلتها استدلالاً من غير تقليد وأما الاجتهاد المقيد فهو درجة تحصل بالتبحر في مذهب إمام من الأئمة بحيث يتمكن من إلحاق ما لا ينص عليه ذلك الإمام بما نص عليه معتبراً قواعد مذهبه وأصوله»[١].

فما هو المذهب؟

تعريف المذهب: «المذهب يقتضى أن يتكون من منهاج علمي لفريق من الدارسين الباحثين، يبنون فيه أصولاً لتفكيرهم متميزة واضحة ثم يكون لكل منهاج طائفة أو مدرسة تعتنق هذه الأصول وتدافع عنها وتقويها بموالاة البحث والدراسة»[٢] وللمذاهب أدلة أصلية وأدلة فرعية.

وقد اجتمعت المذاهب على الأدلة الأصلية وهي الثلاثة: كتاب، وسنة، وإجماع، واختلفوا في القياس ثم تأتي بعد ذلك الأدلة الفرعية التي منها: الاستحسان وقول الصحابة والمصالح المرسلة وغيرها ويُبنى كل مذهب على قواعد؛ ولذلك فإن الإمام المطلق يجب أن يكون لديه قواعد يستنبطها ويبني عليها مذهبه، وعندما يأتي المجتهد في المذهب لا يخرج عن قواعد المذهب ويكون اجتهاده داخل قواعد المذهب نفسه.

والجدير بالذكر أن المذاهب الفقهية غير الفرق الإسلامية: فهذه اختلافاتها في أمور العقيدة أما المذاهب فاختلافاتها في فروع الأحكام وشتان بين الاثنين، فالأولى تفرق وتمزق وتخرج عن منهاج أهل السنة والجماعة، والثانية تجمع وتعطى سعة وتوسعة واختلاف الرأي فيها لا يفسد للود قضية.

---

(١) فتاوى ابن الصلاح، لابن الصلاح،ص٣٨.
(٢) المذاهب الإسلامية، للشيخ أبو زهرة ١/ ٢٣.

وعلى هذا فإننا نرى أن العلماء اتفقوا على تقليد العامي لمذهب معين فهو سُلّم لابد منه للوصول إلى هدي الرسول ﷺ، فالمذاهب هي لب الإسلام وجوهره وهي التي بصرت المسلمين في كل زمان بأحكام دينهم ويسرت لهم سبيل التمسك بالكتاب والسنة وفرق كبير بين اتباع مذهب وبين التعصب له.

فالمسلمون الذين لم يبلغوا درجة النظر - درجة الأخذ من الكتاب والسنة مباشرة - عليهم أن يتبعوا مذهب إمام من الأئمة، وللواحد منهم أن يلازم إماماً من الأئمة إن شاء، وله أن يتحول إلى غيره وقد كان في الصحابة من يأخذ برأي ابن عباس في مسألة ويتحول إلى غيره ولم ينكر عليه ذلك.

ولقد عاش أهل العراق أمداً طويلاً من الزمن وهم يلتزمون مذهب عبد الله بن مسعود متمثلاً في شخصه أو في أشخاص تلاميذه من بعده دون أن ينكر عليهم أهل العلم ذلك، كما عاش أهل الحجاز أمداً مثله يلتزمون مذهب عبد الله بن عمر وتلاميذه وأصحابه دون أن ينكر عليهم أحد من أهل العلم ذلك.

«وقد انفرد عطاء بن رباح ومجاهد بالفتوى في مكة زمناً طويلاً وكان يصبح منادي الخليفة أن: »لا يفتي الناس أحد إلا هذان الإمامان«. ولم يقم من علماء التابعين من ينكر على الخليفة أو على الناس هذا الالتزام، فكيف يمنع البعض ذلك»[1].

نبذة عن تاريخ المذاهب:

بعد الفتوحات الإسلامية بدأ الصحابة في عهد سيدنا عمر رضي الله عنه وأرضاه موجة من المد الإسلامي في المشرق والمغرب على حد سواء وكان العرب المسلمين والفاتحين مؤهلين بما حملوا من علم ومعرفة؛ لأنهم عاشوا حياة رسول الله ﷺ ومكثوا فترة ليست بالقليلة يأخذون العلم من مصادره وينابيعه الطيبة فلما انتشروا في البلاد وكان الصحابة متفاوتين علماً -كما قلنا- بدأ الناس الذين يتصلون بهم في البلاد المختلفة يتناولون العلوم من هذه المصادر وهم الصحابة رضوان الله عليهم

---

(١) رسالة «المذهبية أخطر بدعة»،د. محمد سعيد البوطي.

وأرضاهم، والجدير بالذكر أن الرسول ﷺ نفسه في حياته أرسل أناساً إلى اليمن وإلى البحرين ووجدنا سالم بن عبد الله بن عمر يقول كنا مع ابن عمر يوم مات زيد بن ثابت فقلت مات عالم الناس اليوم، فقال ابن عمر يرحمه الله فقد كان عالم الناس وحبرهم. يقول سيدنا عمر حين خرج معاذ بن جبل إلى الشام: لقد أخلَّ خروجه بالمدينة وأهلها في الفقه وما كان يفتيهم به، ولقد كنت كلمت أبا بكر رحمه الله أن يحبسه لحاجة الناس إليه فأبى عليَّ وقال: رجل يريد الشهادة فلا أحبسه. فقلت: والله إن الرجل ليرزق الشهادة وهو على فراشه. وكتب سيدنا عمر لأهل الكوفة: «إني بعثت إليكم بعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً وآثرتكم به على نفسي فخذوا عنه». فقدم الكوفة ونزلها وابتنى بها داراً إلى جانب المسجد، وبهذه الصورة انتشر الصحابة في هذه البلدان كما يحدثنا التاريخ وكان لكل واحد منهم مدرسته.

كيف نشأت هذه المذاهب؟

قلنا أن الصحابة انتشروا في الأمصار بل إن الرسول ﷺ كان يرسل الصحابة لبعض الأمصار لتعليم الناس وبعد وفاة الرسول ﷺ مكثت مجموعة من الصحابة في المدينة ولم تغادرها وانتشرت مجموعة أخرى في البلاد وجميعهم يحملون علماً بالكتاب والسنة بل والفتوى، ففي مكة مثلاً كان سيدنا معاذ بن جبل يعلم أهلها الحلال والحرام وكان يعتبر معلم مكة، وعندما حدث الخلاف بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير - في القصة المعروفة - ذهب ابن عباس إلى مكة أيضًا وعلم بها، فكان يجلس في البيت الحرام يعلم الناس التفسير والحديث والفقه بل والأدب وتخرج من تحت يديه تابعين مثل مجاهد وعطاء بن أبي رباح وطاوس بن كيسان، وفي المدينة دار الهجرة ومركز الخلافة تفرغ للحياة العلمية كثير من الصحابة كزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، وتخرج على يد علماء الصحابة كثير من التابعين مثل سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير بن العوام وكان ابن شهاب الزهري قد أخذ من كبار التابعين وحفظ فقه علماء المدينة، وفي الكوفة كان من أصحاب الرسول ﷺ علي بن أبي طالب، عبد الله بن مسعود، وكان ابن مسعود أكثرهم في الأثر والعلم، بعثه سيدنا عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة يعلمهم وتكونت في الكوفة

حركة علمية كبيرة وتخرج من التلاميذ على يد هؤلاء الصحابة علماء معروفين كعلقمة الأسود ومسروق وشريح والشعبي والنخعي وسعيد بن جبير، كل هؤلاء تلامذة لصحابة رسول الله ﷺ، وكان في البصرة أبو موسى الأشعري وأنس بن مالك رضوان الله عليهم وقد أخذ منهم الحسن البصرى ومحمد بن سيرين ثم في الشام أيضًا رأينا أبا الدرداء رضوان الله عليه وأرضاه كان هناك وأخذ منه من التابعين أبو إدريس الخولاني ومكحول الدمشقي وعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة، وتخرج أيضًا من هذه المدرسة إمام أهل الشام المشهور عبد الرحمن الأوزاعي، وفي مصر كان عبد الله بن عمرو بن العاص من أشهر الصحابة الذين نزلوا في مصر وتتلمذ على يديه الليث بن سعد فقيه مصر وكان تلميذًا من تلاميذه في اليمن مطرف بن مازن وعبد الرزاق بن همام وكل هؤلاء الصحابة أعطوا للتابعين من العلم الكثير.

وعندما تفرق الصحابة بهذه الصورة أصبح هناك فريقان من الصحابة فريق في داخل الحجاز يأخذ الأثر ويعيش حياة رسول الله ﷺ ويتمسك بالنص وفريق ساح في البلاد الأخرى واحتك بالفرس واحتك بالعجم ورأوا هناك مشاكل غير موجودة بالحجاز، فبدأ العلماء يفكرون في استنباط الأحكام التي تصلح لهذا الزمان وبذلك انقسم الناس فريقان:

أولاً- فريق أسموه أهل الأثر وهم أهل الحجاز.

ثانيًا- فريق أسموه أهل الرأي وهم أهل العراق والشام، وبذلك أصبحت هناك مدرستان مشهورتان في الفقه

وعندما فكر الإمام الشافعي في وضع قواعد لأصول الفقه قسم الأدلة إلى نوعين: فرعي وأساسي، فالمجمع عليها والتي لا يختلف فيها أي إمام من الأئمة هي: الكتاب والسنة والإجماع (إجماع الصحابة)، فلا يوجد إمام من الأئمة ولا عالم من العلماء يستطيع أن يخرج عن هذه الثلاثة وهي موجودة في كل مذهب من المذاهب، ولكنهم اختلفوا في القياس كدليل، فالغالبية يعتبرونه من الأساسية، ثم تأتي بعد ذلك الأدلة الفرعية التي يأخذ بها بعض الأئمة ولا يعتبرها البعض الآخر.

ومن الأدلة التي انفرد بها الإمام مالك عن باقي الأئمة «عمل أهل المدينة» يقول:

إن أهل المدينة أقرب لرسول الله ﷺ ثم انتقل الأمر من فئة إلى فئة ومن جماعة إلى جماعة، فإذا واختلفوا ووجدنا أهل المدينة يعملون عملاً فيها صار هذا العمل دليلاً عند الإمام مالك يأخذ به، في حين أن الإمام الشافعي لم يأخذ به بهذ الدليل؛ لأن له أدلته الخاصة بمذهبه، فالمسألة ليست مسألة دليل ضعيف وقوي بقدر أن المسألة مسألة الأدلة التي استند إليها العلماء أنفسهم إذ الخلاف الذي بين الأئمة هو خلاف في الأحكام الفرعية؛ لأنهم جميعاً متفقون في الأحكام القطعية فحسب، مختلفون في الظنية، ولما انتشر الصحابة في الأمصار بقيت مدرستان: مدرسة سُميت بمدرسة الرأي وأخرى سميت بمدرسة الأثر.

وصار أهل المدينة يعتمدون في أحكامهم وعلمهم على حديث رسول الله ﷺ وبينما أهل العراق يعتمدون على الرأي، يقول الشعبي: كانت القضية ترفع إلى عمر رضي الله عنه فربما تأمل في ذلك شهراً ويستشير أصحابه فيها، وكان لتدوين الحديث أكبر الأثر في اتساع الحركة العلمية والفقه.

أسباب انتشار مدرسة الرأي في العراق:

١-تأثر أهل العراق بوجود صحابي جليل هو عبد الله بن مسعود يتلقى منه التابعون هذه العلوم.

٢-قلة وجود الصحابة وحفظة الحديث في العراق جعل إعمال العقل والرأي أكثر من الأثر.

٣-احتكاك المسلمين بغيرهم مثل الفرس جعل هناك أموراً تجدّ ومشاكل هي في حاجة إلى النظر وإعمال العقل فيها للوصول إلى حكم شرعي.

٤-كان العراق موطناً للشيعة والخوارج الذين كانوا متمركزين في هذا المكان وبحدوث الفتن والأمور التي ليس فيها نص كان من الطبيعي أن يجتهد العلماء للوصول إلى حكم فيها.

مميزات مدرسة أهل الرأي:

١- كان لديهم كثرة التفاريع في المسائل ولم يكتفوا بالحكم.

٢-قلة روايتهم للحديث واشتراطهم فيه شروطاً شديدة جعل الذي يصل إليهم من الأحاديث يدققون فيه ويخرجونه بمنتهى الدقة للحرص على صحته.

أما المدرسة الأخرى وهي مدرسة أهل الحجاز وهي التي تعتمد على الحديث كما ذكرنا.

وسبب انتشارها وجود الصحابة رضوان الله عليهم وأرضاهم في مدينة رسول الله ﷺ وما يحملونه من ثروة كبيرة جداً من أحاديث رسول الله ﷺ.

مميزات مدرسة أهل الحجاز:

١-وجود ثروة هائلة من أحاديث رسول الله ﷺ.

٢-كانت الحياة بسيطة وميسرة فلم توجد لديهم مشاكل مثل التي كانت عند أهل العراق نتيجة احتكاكهم بالفرس.

٣-البعد عن أرض الفتنة.

٤-كانوا يكرهون كثرة السؤال.

ومن هاتين المدرستين نشأت المذاهب، فكان أبو حنيفة هو صاحب مدرسة الرأي؛ لأنه عاش في العراق. أما الإمام مالك فقد نشأ في المدينة وهو صاحب مدرسة الأثر؛ ولذلك بدأت المذاهب تظهر في هاتين المدينتين وعندما جاء الإمام الشافعي وكان صاحب مذهب، فاجتهد في قواعد كل مذهب من هذه المذاهب ثم كتب كتابه المسمى بـ«الرسالة» والذي وضع فيه قواعد أصول الفقه وكان أول من وضع هذه القواعد.

والجدير بالذكر أننا عندما نتكلم عن المذاهب الأربعة نتكلم عن المذاهب الشهيرة، والحقيقة أن المذاهب المشهورة قديمًا كانت أكثر من ثلاثة عشر مذهباً، لكن اندثر منها ما اندثر لعدم التدوين ودُون منها حوالى تسعة مذاهب، بل إن هناك من المذاهب ما لا نعرفه لأنها اندثرت مثل مذهب الإمام الطبري، والمعلوم أنه إن اندثر المذهب لا يندثر معه اجتهاد صاحبه، فالاجتهاد في المسائل باق رغم اندثار المذهب.

وهذه أمثلة من أصحاب المذاهب:

الإمام أبو سعيد الحسن البصرى والذي توفي سنة ١١٠هـ، والإمام أبو حنيفة الذي توفي سنة ١٥٠هـ، والإمام الأوزاعي الذي توفي سنة ١٥٧هـ، والإمام سفيان ابن سعيد بن مسروق، الثورى الذي توفي سنة ١٦٠هـ، والإمام الليث ابن سعد والذي توفي سنة ١٧٥هـ، والإمام مالك بن أنس الذي توفي سنة١٧٩هـ، والإمام سفيان بن عيينة الذي توفي سنة ١٩٨هـ، والإمام محمد بن إدريس الشافعي الذي توفي سنة ٢٠٤هـ، والإمام أحمد بن حنبل الذي توفي سنة ٢٤١هـ، ونضيف إلى هؤلاء الإمام ابن داود الظاهري وابن حزم الذي توفي سنة ٢٧٠هـ وهؤلاء هم الذين جُمعت مذاهبهم وسُجلت ولكن هناك كثير من الفقهاء والأئمة اندثر مذهبهم لعدم تسجيله، وعلى هذا نقول أن الأئمة الثلاثة: مالك والشافعي وأحمد بن حنبل من مدرسة الأثر والإمام أبو حنيفة من مدرسة الرأي، وأعطيك أمثلة بسيطة تظهر الخلاف بين المدرستين فمثلاً:

القراءة خلف الإمام، يقول أهل الأثر نقرأ خلف الإمام فيما لا يجهر فيه بالقراءة وأغلب أهل الرأي يقول: عدم القراءة خلف الإمام سواء جهر أم أسر على السواء، وأيضًا صفة الجلوس يقول أهل الحجاز بأن الجلوس على الورك الأيسر سواء أكانت الصلاة ثنائية أو رباعية، أما أهل العراق فقالوا: يفترش قدمه اليسرى. ويوم أن يكون هناك فهم سليم وفقه للمذاهب فإن الخلاف يرفع ولا تجد تعصبًا ويبقى الود والحب ويختفي التعصب البغيض.

التعصب للمذهب:

وصل التعصب للمذهب والبعد عن الفهم السليم للإسلام إلى أن اتباع الشافعية في فترة من الفترات كانوا يحرمون الصلاة خلف تلاميذ المالكية، بل وازداد الأمر سوءًا لدرجة تحريم تزويج ابنة الشافعي من المالكي. وهذا التعصب للمذهب هو الهوى بعينه والتعصب المذموم والممنوع، وهو مكروه غير مرغوب فيه؛ لأن التعصب هو الميل مع الهوى لأجل نصرة مذهب بعينه سواء أكان على صواب أو على خطأ. وبهذا ينشأ لون من ألوان الاحتقار والحط من المذاهب الأخرى وهو مخالف لتوجيه

رسول الله ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إلا مَنْ أَبَى**». قالوا: يار سول الله ومن يأبى؟ قال: « **مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**»[1] وهذا الذي جعل العلماء يحذرون من التعصب للمذهب. يقول الإمام أبو حنيفة رضوان الله عليه وأرضاه: «لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه». وهو بذلك يخاطب من استطاع أن يجتهد اجتهاداً كلياً أو جزئياً، وفي رواية:«حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي، فإننا بشر نقول القول اليوم ونرجع عنه غداً». ومعنى هذا الكلام أن أصل الاجتهاد والفتيا تختلف زماناً ومكاناً وشخصاً، فقد ينظر في المسألة بظروفها ومكانها وشخصها ويفتى بفتوى فإذا اختلفت الظروف في نفس المسألة فسيختلف معها الحكم؛ لأن الحكم يدور مع العلة حيث دارت، **يقول الإمام مالك**:«إنما أنا بشرٌ أُخطئ وأصيب، فانظروا في رأيى فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه. **ويقول الشافعي**:«أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة من رسول الله ﷺ لم يحل له أن يدعها لقول أحد».

ويقول الإمام أحمد:«لا تقلدني ولا تقلد مالكاً ولا الشافعي ولا الأوزاعى ولا الثوري وخذ من حيث أخذوا »

هذه النصوص قرأها بعض الشباب وضل فهمهم فهؤلاء العلماء لا يقولون هذه النصوص ليجتهد العامي والجاهل إنما قالوا هذه النصوص خشية التعصب فلقد قالوا هذا الكلام لأمرين: الأمر الأول للحث على التعلم ودفع الغير لكي يحصل العلوم النافعة.

والأمر الثاني: حتى لا يتعصب للمذهب ولا يأخذ بغيره وهو ليس أهلاً للاجتهاد، وقد قال العلماء أن الصحابة رضي الله عنهم كان الواحد منهم يقتدي بالآخر.

مما سبق نخلص إلى أن تقليد العامي أو من لم يبلغ مرتبة الاجتهاد يلزم أي مذهب إمام مجتهد سواء التزم واحداً بعينه أو عاش يتحول من واحد لآخر- دون ترقيع أو تتبع للرخص- وهو أمر جائز شرعاً، وأكبر دليل على ذلك هو صحة اتباع مذهب ابن عباس وعبد الله بن مسعود وأم المؤمنين عائشة.

---

(١) رواه أحمد ومسلم.

وهناك مقولة ظاهرها الرحمة تقول: إن الأخذ بأقوال العلماء وقياساتهم بمنزلة التيمم إنما يصار إليه عند عدم وجود الماء، فحيث وجد النص من الكتاب أو السنة أو أقوال الصحابة رضي الله عنهم فالأخذ به واجب لا يعدل عنه إلى أقوال العلماء.

وظاهر هذا القول لدى الرجل العامي صحيح ولكن العلماء يعتبرون هذا القول من البلاء العظيم والشر المستطير!!

ولكي يتضح ذلك الشر، ضع صحيحي البخاري ومسلم أمام سواد المسلمين اليوم وقل لهم: حاولوا أن تفهموا أحكام دينكم من النصوص التي فيهما ثم انظر كيف سيكون الجهل والتخبط والعبث بالدين، فالحال سيكون مثل مزين الصحة الذي يدعي مهارة في الطب ويودى بمريضه ويهلكه. إن توفر كتب السنن وحدها-كما قال ابن القيم- لا يكفي في صحة الفتوى، بل لابد إلى جانبها من بلوغ درجة الإستنباط وتوفر أهلية البحث والنظر، وإن لم يتوفر لديه ذلك ففرصته متاحة في قول ربنا: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [1].

«أما إذا تمرس المقلد في فهم مسألة من المسائل وتبصر بأدلتها من الكتاب والسنة وأصول الاجتهاد وجب عليه أن يتحرر في الأخذ بها من مذهب إمامه وحرم عليه التقليد طالما أمكنه أن يجتهد فيها معتمداً على طاقته المتوفرة لديه فلا يرجح رأي إمامه على ما هداه إليه اجتهاده في تلك المسألة وهذا ما يسمى أو يطلق عليه »مجتهد في المذهب« وهو غير المجتهد المطلق»[2] كما أوضحنا من قبل.

ضوابط التقليد:

ونختم قضية التقليد بضوابط منها:

أولاً-إذا استبان للمُقلِّد حكم صحيح بخلاف ما انتهى إليه إمام مذهبه وتيقن ذلك بصدق من أرشده وكفايته العلمية ورسوخه الفقهي لزمه أن يتحرر من قول إمامه أو مذهبه.

---

(١) من الآية ٤٣ من سورة النحل، ومن الآية ٧ من سورة الأنبياء.

(٢) رسالة «المذهبية أخطر بدعة»،د. محمد سعيد البوطي.

ثانياً-إذا تبصر إنسان بمعرفة مسألة ما من وجوهها المختلفة وصورها المتعددة وأحاط بأدلتها ونصوصها فعليه أن يتبع في تلك المسألة ما انتهى إليه اجتهاده وهداه إليه علمه.

ثالثاً- العالم بمصادر النصوص وقواعد الفهم إذا عجز عن الاجتهاد في مسألة ما إما لتكافؤ الأدلة أو لضيق وقته أو لعدم ظهور دليل له جاز له التقليد، فالاجتهاد ليس أمراً واحداً لكنه قابل للتجزئة والانقسام.

رابعاً - إن المقلد يجوز له التنقل من مذهب إلى آخر بناء على قوة الحجة وظهور الدليل وليس من قبيل التتبع للرخص بغير مستند شرعي، نقل الشاطبي عن ابن حزم أنه حكى الإجماع على أن تتبع رخص المذاهب بغير مستند شرعي فسق لا يحل.

ونهى العلماء عما يسمى بالترقيع، وهو أن يأخذ من كل مذهب رخصه، فلا تجوز عملية الترقيع هذه.

وأيضًا عدم التجاسر على الفتيا لمن ليس من أهلها بل الواجب احترام التخصص والرجوع في كل فن إلى عارفيه، فدلائل النصوص مشتملة على العام والخاص والمطلق والمقيد والمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ والجلي والخفي ومعرفة مواطن الإجماع ومواطن الخلاف؛ كي يتصدى لهذا الأمر، جاء عن ابن مسعود: «إن أحدكم ليفتي الفتيا لو سُئل عنها عمر لجمع لها أهل بدر»، و**«أَجْرَؤُكُمْ عَلَى الْفُتْيَا أَجْرَؤُكُمْ عَلَى النَّارِ»**[1] أعاذنا الله من هذا.

وأخيراً فإن أحد المجتهدين إذا ترك العمل بحديث من الأحاديث لعذر من الأعذار المعتبرة مثل اعتقاده عدم صحة الحديث أو أن ظاهر القرآن يخالفه أو القياس أو عمل بعض الأمصار ثم تبين لمن يقلده أن ظاهر القرآن لا يخالفه وأنه صحيح مقدم على الظاهر والقياس والعمل لم يكن عذر ذلك الإمام المجتهد عذراً في حقه فإن ظهور المدارك الشرعية وخفاءها أمر لا ينضبط طرفاه فتعين عليه العمل بما أوجبه الحديث الذي اعتقد صحته ودلالته وإن خالف إمامه.

---

(١) رواه الدارمي من قول النبي ﷺ.

الأئمة على حق:

وينبغي أن نفهم أن جميع الأئمة على حق بمعنى أن اجتهاد كل منهم جعله معذوراً عند الله ﷻ إن هو لم يستيقن حقيقة الحكم الذي أراد الله ﷻ لعباده في تلك المسائل الاجتهادية فليس عليه إلا أن يسير فيه حسب ما هداه إليه اجتهاده.

ومن هنا كان اتباع المقلد لمن شاء منهم اتباعاً لحق وتمسكاً بهدى وهو إذ يختار واحداً منهم لا ينبغى أن يتصور أن الآخرين على خطأ؛ ولذلك أجمع العلماء على صحة اقتداء الحنفي بالشافعي أو المالكي والعكس، ولك أن تعلم أن العز بن عبد السلام مثلاً شافعي المذهب، وابن القيم حنبلي المذهب والدهلوي حنفي المذهب والجميع من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ملتمس.

يقول الإمام الشاطبي في الموافقات:

إن المكلف بأحكام الشريعة لا يخلو من أحد ثلاثة أمور:

أولاً- أن يكون مجتهداً فيها فحكمه ما أداه إليه اجتهاده فيها.

ثانياً- أن يكون مقلداً صرفاً خلياً من العلم الحاكم جملة، فلابد له من قائد يقوده وحاكم يحكم عليه، وعالم يقتدي به، ولا يحل اتباعه إذا علم أنه ليس أهلاً لذلك؛ لأنه لا يسلم المريض نفسه إلى أحد يعلم أنه ليس بطبيب إلا أن يكون فاقد العقل.

ثالثاً- أن يكون غير بالغ مبلغ المجتهدين لكنه يفهم الدليل وموقعه ويصلح فهمه للترجيح بالمرجحات المعتبرة وله القدرة على تحقيق المناط وهو في هذه الحالة إما أن يعتبر نظره أو لا يعتبر.

ولذا وجب علينا أن نتعرف على ما هو الاجتهاد؟ ومن هو المجتهد حتى نعرف قدرنا؟

الاجتهاد:

الاجتهاد هو بذل غاية الجهد، واستفراغ الوسع في استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها بطريق النظر وإعمال الفكر، ويقول الآمدي في استفراغ الوسع: هو طلب الظن بشيء من الأحكام الشرعية على وجه يحس من النفس العجز عن المزيد فيه. فمثلاً

قوله الله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ﴾[١]، كيف تطبق في حالة وجود الخمر مع استشراف الإنسان على الموت مع عدم وجود الماء، يجوز له شرب القليل منها بعد أن يبحث ويجدّ في البحث عن الماء حتى يشرف حقيقة على الموت، فيبدأ في شرب القليل لينجو.

هذان الأمران هما اللذان لابد أن يتوفرا عند المجتهد وهما بذل الجهد والوسع وشرب القليل دون عدوان.

«ولا يوجد في الإسلام طبقة تحتكر الاجتهاد فليس عندنا رجال دين ولكن لدينا علماء دين، عالم متخصص يملك أدوات الاجتهاد وتتحقق فيه شروطه فوجب عليه الاجتهاد»[٢].

شروطـــه:

هذه الشروط منها شروط علمية وثقافية مثل: العلم باللغة العربية والكتاب والسنة ومواضع الإجماع المتيقن والعلم بأصول الفقه، وطرائق القياس والاستنباط والعلم بمقاصد الشريعة وقواعدها الكلية.

وفضلاً عن ذلك لابد أن يكون لديه ملكة الاستنباط وهي تنمو بممارسة الفقه ومعرفة اختلاف الفقهاء ومدارسهم ولهذا قالوا: «من لم يعرف اختلاف الفقهاء لم يشم رائحة الفقه»[٣].

ويضيف ابن القيم في إعلام الموقعين أن يكون عالماً بالناس؛ لأن الفتيا تتغير زماناً ومكاناً وشخصاً فضلاً عن شرط الإخلاص والعدل وأن يكون مرضي السيرة يخشى الله تعالى.

والمجتهد الحق هو الذي ينظر إلى النصوص والأدلة بعين وينظر إلى الواقع والعصر بعين أخرى حتى يوائم بين الواجب والواقع ويعطي لكل واقعة حكمها المناسب

(١) من الآية ١٧٣ من سورة البقرة.
(٢) انظر: كتاب الأمة «فقه الدعوة ملامح وآفاق»، د. يوسف القرضاوي، ص١٥٧، بتصرف.
(٣) المصدر السابق، ص ١٦٠.

لمكانها وزمانها وحالها: فهل هذا يتوفر لكل الناس؟

قال حذيفة: يفتي الناس أحد ثلاثة، من يعلم ما نسخ من القرآن، أو أمير لا يجد بداً، أو أحمق متكلفاً. قال ابن سيرين فلست بواحد من هذين ولا أحب أن أكون الثالث.

ويقول الإمام مالك: ما جلست للفتيا إلا بعد أن شهد لى سبعون من أهل العلم أني أهل لذلك.

وكما يقول الإمام الشافعي: لا يحل لأحد أن يفتي في دين الله إلا رجلاً عارفاً بكتاب الله ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه وتأويله وتنزيله، مكيه ومدنيه وما أُريد منه، وكذلك السنة كما عرف من القرآن، بصيراً باللغة والشعر وما يحتاج إليه للسنة والقرآن وإلا لا يفتي.

ويقول الإمام أحمد: قلت لأبي: ما تقول في الرجل يُسأل عن الشيء فيجيب بما في الحديث وليس بعالم في الفقه؟ قال: ينبغي للرجل إذا حمل نفسه على الفتيا أن يكون عالماً بالسنن عالماً بوجوه القرآن عالماً بالأسانيد الصحيحة[1].

كما يقول رضوان الله عليه: لا ينبغي للرجل أن ينصِّب نفسه للفتيا حتى يكون فيه خمس خصال:

أولاها: أن تكون له نية فإن لم تكن له نية لم يكن عليه نور ولا على كلامه نور.

الثانية: أن يكون على علم وحلم ووقار وسكينة.

الثالثة: أن يكون قوياً على ما هو فيه وعلى معرفته.

الرابعة: الكفاية وإلا مضغه الناس.

الخامسة: معرفة الناس.

واسمع إلى حديث دار بين الإمام أحمد ووالده، يقول يا أبت الرجل يحفظ مائة ألف حديث أيكون مفتياً؟ قال: لا

---

(١) نقلا عن إعلام الموقعين، لابن القيم ١/ ٤٦.

قال الرجل: يحفظ مائتي ألف حديث؟ أيكون مفتياً؟ قال: لا

قال الرجل: يحفظ ثلاثمائة ألف حديث؟ أيكون مفتياً؟ قال: لا

قال الرجل: يحفظ أربعمائة ألف حديث؟ أيكون مفتياً؟ فأشار بيده هكذا (أي من الممكن وهذا هو الحد الأدنى)

فهل بعد ذلك كله يقول قائل للعامي: لا تقلد ولا تتمذهب وعليك بالكتاب والسنة وربما لا يعرف قراءتهما فضلاً عن معرفة الأحكام فيهما!!

فمن هؤلاء الذين تقولون لهم لابد من النظر في الدليل؟ إن كانوا أولئك الذين أوتوا القدرة على فهم الحكم من الكتاب والسنة بدون استعانة بمفت أو إمام فهذا لا يخالفكم فيه أحد، فهم أهل لذلك إذ لا يصح لهم تقليدهم لأحد وليس في المسلمين عالم حديثاً أو قديماً يخالفكم في ذلك!!

وإن كان من عامة الناس ومن لا يملك أدوات الاجتهاد والاستنباط والتبصر بالأدلة فنقول: هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟ اللهم إلا علم من أعطى لنفسه حق تشخيص الداء والدواء وهو ليس أهلاً لذلك؛ فتكون الهلكة.

وانظر إلى القاسم بن محمد بن أبي بكر يُسأل عن شيء فيقول: لا أحسنه. فقال السائل: إني جئت إليك لا أعرف غيرك. فقال القاسم: لا تنظر إلى طول لحيتي وكثرة الناس حولي والله ما أحسنه، فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه: يا ابن أخي ألزمها، فوالله ما رأيتك في مجلس أنبل منك اليوم. فقال القاسم:«والله لئن يقطع لساني أحب إليَّ من أن أتكلم بما لا علم لي به».

وقال أحد أصحاب مالك: شهدت مالكًا وقد سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها لا أدري، وقيل ربما كان يُسأل عن خمسين فلا يجيب في واحدة منها، وكان يقول: من أجاب في مسألة فينبغي من قبل أن يجيب أن يعرض نفسه على الجنة والنار وكيف يكون خلاصه في الآخرة ثم يجيب عنها.

وسُئل عن مسألة فقال لا أدري، فقيل له إنها مسألة خفيفة سهلة. فغضب وقال:

ليس في العلم خفيف أما سمعت قول الله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[(١)].

وسُئل الشعبي عن شيء فقال: لا أدري. فقيل له: ألا تستحي أن تقول لا أدري وأنت فقيه العراق؟ فقال لكن الملائكة لم تستح عندما قالت: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾[(٢)]، وصدق أبو الذيال حين قال: تعلم [لا أدري] فإنك إن قلت: لا أدري. علموك حتى تدري، وإن قلت: أدري. سألوك حتى لا تدري.

وقال عبد الله: كنت أسمع أبي كثيراً يسأل عن المسائل فيقول: لا أدري. ويقف إذا كانت مسألة فيها اختلاف وكثيراً ما كان يقول: سل غيري. فإن قيل له: من نسأل؟ قال: سلوا العلماء.

هكذا حال العلماء، إمساك اللسان عن الفتيا لا الإسراع فيها سواء أكان هؤلاء العلماء من الصحابة أو من التابعين أو من تابعي التابعين إلى أن جاء القرن الرابع وما بعده وبدأ التقليد المذموم والتعصب البغيض والتشنيع على من يخرج عن آراء المذهب ومرت على الفقه الإسلامي فترة جمود قيل فيها: **قفل باب الاجتهاد** ولا ندري من الذي أغلقه وكيف؟ والناس تجدّ لها مشاكل وأحوال يحتاجون إلى النظر فيها وهي تختلف عن سابقها فلكل زمان مشاكله وظروفه فكيف يغلق باب الاجتهاد؟ يجب أن نعلم أن الممقوت ليس اتباع مذهب ولكن الممقوت هو التقليد مع القدرة على الاجتهاد بعد أن تتحقق شروطه كما ذكرت؛ ولذلك سمعنا من الأئمة كلمات تثلج الصدور عند الاجتهاد:

يقول الإمام أبو حنيفة: هذا أحسن ما وصلنا إليه فمن رأى خيراً منه فليتبعه.

وقد سأله بعض الفقهاء: أهذا الذي انتهيت إليه هو الحق الذي لا شك فيه؟ فقال الإمام: لا أدري لعله الباطل الذي لا شك فيه.

ويقول الإمام الشافعي: أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا جاء حديث رسول الله ﷺ وخالفته، إذا صح الحديث فهو مذهبي.

---

(١) الآية ٥ من سورة المزمل.
(٢) من الآية ٣٢ من سورة البقرة.

ولذلك رأى الإمام أبو حنيفة تلميذه أبا يوسف يكتب ما يقوله فقال له: ويحك يا يعقوب أتكتب كل ما أقول، إني قد أرى رأياً اليوم وأخالفه غداً، وقد أرى الرأي غداً وأخالفه بعد غد«؛ ذلك لأن الناس لم تفهم أن أقوال الفقهاء ليست دينًا يتبع، وما دعوا هم الناس إلى اتباعهم بل دعوهم إلى اتباع الدليل الذي يوصل إلى الحق ولو خالف أقوالهم، لو كانوا أهلاً لذلك.

وصدق القائل: إن أقوال الفقهاء بالنسبة للشريعة كمثل أغصان الشجرة تتشعب وتتفرع والأصل الذي انبعث عنه واحد يغذي جميع الأغصان المتفرعة.

بقي أن تعلم أن **الاجتهاد يعمل في منطقتين:**

إحداهما: منطقة ما لا نص فيه مما تركه الشارع لنا قصداً منه ورحمة غير نسيان.

ثانيهما: منطقة النصوص الظنية سواء أكانت ظنية الثبوت ومعظم الأحاديث النبوية كذلك، أو ظنية الدلالة ومعظم نصوص القرآنية كذلك.

وهكذا ترى الإمام البنا يضع الضوابط في كل شيء فعلى من لم يبلغ درجة النظر أن يتبع إماماً من أئمة الدين ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلته، وبذلك يحث القادر على الاجتهاد أن يجتهد، ويحث الذي يتبع إماماً أن يجتهد في تحصيل العلم ويستكمل فقهه العلمي حتى يبلغ درجة النظر. وهذا ما يوافق ما قاله العلماء الأثبات في كل زمان ومكان.

***

مردود الأصل السابع

أولاً- حصيلة العقل:

أ- اختر الإجابة الصحيحة (من الممكن أن تكون أكثر من إجابة صحيحة):

١- يرى الإمام بن تيمية في قضية الاجتهاد والتقليد:

أ	جواز الاجتهاد	ب	غلق باب الجهاد
ج	جواز التقليد	د	عدم جواز التقليد

٢- من الأمور التي يقبل فيها الاجتهاد:

أ	أحكام العبادات	ب	أصول العقيدة
ج	أحكام المعاملات	د	جميع ما سبق

٣- يكون الاجتهاد في:

أ	النصوص الظنية	ب	النصوص القطعية
ج	ما لا نص فيه	د	جميع ما سبق

٤- لا يجوز تقليد:

أ	العامي المجتهد	ب	العامي لعامي مثله
ج	المجتهد لمجتهد مثله	د	جميع ما سبق

٥- من مصادر الأدلة التي اتفق عليها أئمة المذاهب:

أ	قول الصحابي	ب	القياس
ج	الإجماع	د	جميع ما سبق

٦- للمقلد أن:

أ	يتحول من أمام لأخر	ب	يجتهد في معرفة الأدلة
ج	يتعصب لرأيه	د	جميع ما سبق

ب- ضع (أ) أمام العبارة الصحيحة و (ب) أمام العبارة الخطأ فيما يلي:

٧	التقليد هو العمل بقول غيرك من غير حجة.	
٨	للعامي أن يسأل العالم المجتهد عن الدليل ليرجح بين الآراء.	
٩	من المقبول شرعًا تتبع الرخص والأخذ بها من كل مذهب.	
١٠	الاجتهاد المطلق هو الاجتهاد في ضوء أحد المذاهب الفقهية.	
١١	وجود المذاهب الفقهية يؤدي إلى تفرق الأمة وتمزقها.	

قارن إجاباتك بالإجابات النموذجية في آخر مردود الأصل، وأعطِ نفسك درجة لكل إجابة صحيحة وصفرًا للإجابة الخاطئة.

أكثر من ١٣	١٢- ١٣	١٠- ١١	٨- ٩	أقل من ٨
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثانيًا- رصيد القلب:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائماً	غالباً	أحياناً	نادراً	أبداً
١	لا يغيب عني أن الناس متفاوتون في العلم.					
٢	أعتقد أن الاجتهاد ضروري لمواكبة تغيرات الحياة.					
٣	أتألم حينما أجد غير العلماء يفتون بما لا يعملون.					
٤	لا أتعصب للرأي الذي أعمل به في المسائل الخلافية.					
٥	أشعر باطمئنان لسلامة الفتوى المصحوبة بأدلتها من الكتاب والسنة.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٧	١٥- ١٧	١٣- ١٤	١٠- ١٢	أقل من ١٠
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثالثًا- حساب الجوارح:

اختر الخانة التي توافقك فيما يلي:

العبارات	دائماً	غالباً	أحياناً	نادراً	أبداً
١- أبين لمن حولي أن باب الاجتهاد مفتوح لمن يملك أدواته.					
٢- لا أستفتي إلا أهل العلم والصلاح.					
٣- أحرص على معرفة أدلة الأحكام التي أتعلمها من العلماء.					
٤- ألتزم الدقة وعدم التعصب عندما أنقل حكمًا شرعيًا لغيري.					
٥- أبين لمن حولي خطورة التعصب لرأي فقهي.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من١٧	١٥- ١٧	١٣- ١٤	١٠- ١٢	أقل من ١٠
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

إجابات حصيلة العقل (٧)

السؤال	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١
أ	✓	✓	✓			✓	✓				
ب				✓		✓		✓	✓	✓	✓
ج	✓	✓	✓	✓	✓						
د											

الأصل الثامن

ما يجوز الخلاف فيه وما لا يجوز

«والخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سبباً للتفرق في الدين ولا يؤدي إلى خصومة ولا بغضاء ولكل مجتهد أجره، ولا مانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب»[1].

(١) مجموعة الرسائل، للشهيد حسن البنا، رسالة التعاليم، ص٢٦٩.

هذا الأصل يعالج:

١-الخلاف الفقهي في الفروع.

٢- أنواع الخلاف.

٣- المختلف فيه لا إنكار فيه.

٤-نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه.

هذه الدعوة التي منَّ الله بها علينا تحتاج منا إلى الفهم الدقيق، والإيمان العميق، والحب الوثيق، والعمل المتواصل، والوعي الكامل؛ وذلك لأن الفهم الدقيق يؤلف القلوب ويوحد الصفوف ويعالج النفوس فنتعاون مع من يوافقنا ونعذر من يخالفنا والقاعدة الذهبية تقول: «المختلف فيه لا إنكار فيه» وهو الخلاف المعتبر، فالفهم يحدد معالم الطريق، بل هو الضمانة الحقيقية لشرعية علاقاتنا والملاذ الوحيد في تصفية خلافاتنا فإذا بإيماننا يزداد وعلاقاتنا تقوى وحبنا يعمق: ﴿وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[١].

لذلك فإننا نحب أن نؤكد على بعض الأمور التي تتصل بهذه القضية ومنها -لا شك- إحداث التنازع وإحداث التعصب في أمور نبه العلماء فيها على أن المختلف فيه لا إنكار فيه ابتداءً، ومن أجل ذلك حذرنا الرسول ﷺ من التشرذم والتفرق والتقاطع والتدابر، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **« لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلا مِلَّةً وَاحِدَةً قَالُوا وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»**[٢]، والحديث عن الافتراق مشهور عن رسول الله ﷺ من حديث أبي هريرة وسعد ومعاوية وغيرهم.

الخلاف المعتبر شرعًا:

فما هو الاختلاف المقصود هنا والذي نهى عنه الرسول ﷺ؟ والخلاف المعتبر شرعاً؟

إن رسول الله ﷺ أخبر بافتراق أمته على ثلاث وسبعين فرقة اثنتان وسبعون هم

(١) من الآية ٤٦ من سورة الأنفال.

(٢) رواه الترمذي، وقال:حديث حسن غريب.

الذين خاضوا كخوض الذين من قبلهم وهو اختلاف إما في الدين فقط، وإما في الدين والدنيا ثم يؤول إلى الدين وقد يكون في الدنيا فقط.

وهذا الاختلاف الذي دلت عليه هذه الأحاديث هو ما نهى عنه المولى ﷻ في قوله: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1]. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾[2]. وقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[3] والاختلاف المنهي عنه هو الخلاف الذي يفرق الأمة كالاختلاف الذي حدث بين الفرق الإسلامية التي اختلفت في أمور تتصل بالعقائد لا يجوز الخلاف فيها، فتمزق الصف وتشتت الجمع وهذه الفرق الإسلامية غير المذاهب الإسلامية كما قلنا من قبل وكما سنبين بمشيئة الله تعالى.

ولكي نوضح المسألة -بتوفيق الله- لابد أن نبين ما ذكره القرآن في قضية الاختلاف.

أنواع الاختلاف التي ذكرها القرآن[4]:

إحداها: أنه يذم الطائفتين المختلفتين جميعاً كقوله تعالى: ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾[5] فجعل أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف وقوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[6] وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[7]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[8] وترى وصف القرآن لاختلاف النصارى في قوله: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ

---

(١) من الآية ١٠٥ من سورة آل عمران.
(٢) من الآية ١٥٩ من سورة الأنعام
(٣) من الآية ١٥٣ من سورة الأنعام.
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم،لابن تيمية،ص٣٦،٣٧.
(٥) الآيات ١١٨، ١١٩ من سورة هود.
(٦) من الآية ١٧٦ من سورة البقرة.
(٧) من الآية ١٠٥ من سورة آل عمران.
(٨) من الآية ١٤ من سورة الشورى.

﴿يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾(١) ووصف اختلاف اليهود أيضًا بقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ﴾(٢) وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(٣).

وهذا الاختلاف المذموم من الطرفين سببه:

١- فساد النية لما في النفوس من البغي والحسد والعلو في الأرض والفساد؛ ولذلك يجب أن يذم قول غيره أو فعله.

أو غلبته ليتميز عليه أو نصرة مذهب معين أو حصول الرياسة وهذا لا شك من الظلم.

٢- جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذي يتنازعون فيه، أو الجهل بالدليل الذي يرشد به أحدهما الآخر، أو جهل أحدهما بما عند الآخر من الحق في الحكم أو في الدليل وإن كان عالماً بما مع نفسه من الحق حكماً ودليلاً.

والجهل والظلم هما أصل كل شر: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الامَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الانسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا﴾(٤).

ثانيهما- «وأما الاختلاف من النوع الثاني المذكور في كتاب الله فهو ما حُمِد فيه إحدى الطائفتين وهم المؤمنون، وذم الأخرى»(٥) كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾(٦) وكقوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۞ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۞ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۞

(١) من الآية ١٤ من سورة المائدة.
(٢) من الآية ٦٤ من سورة المائدة.
(٣) من الآية ٥٣ من سورة المؤمنون.
(٤) من الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.
(٥) اقتضاء الصراط المستقيم،لابن تيمية،ص٣٦-٣٨،بتصرف.
(٦) الآية ٢٥٣ من سورة البقرة.

كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۞ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾(١) ففي الصحيح أنها أُنزلت كما ذكر أبو ذر في المقتتلين يوم بدر: علي وحمزة وعبيدة بن الحارث من الصحابة والذين بارزوهم من الكفار: عتبة وشيبة والوليد بن عتبة. والحقيقة أن أكثر الاختلاف الذي يؤول إليه الأهواء بين الأمة من القسم الأول، وقد يصل إلى سفك الدماء والبغضاء واستباحة الأموال؛ ذلك لأن إحدى الطائفتين لا تعترف للأخرى بما معها من الحق ولا تنصفها، بل تزيد على ما مع نفسها من الحق زيادات من الباطل والأخرى كذلك وكلٌّ يبتغي الانتصار على الآخر؛ ولذلك فإن الرسول ﷺ بيّن أن عامة المختلفين هالكون من الجانبين إلا فرقة واحدة هم أهل السنة والجماعة ممن كانوا على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

والنزاع دائماً منتهاه الفشل يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(٢) لأنه ليس قائمًا على الوصول إلى الحقيقة والصواب بقدر ما هو انتصار للنفس وللذات وتعصب للرأي؛ ولذلك فهو دائماً مؤداه الفشل؛ لأن النية فسدت وولغ الشيطان بين هذه وتلك.

وهناك فرق كبير بين التنازع وبين الخلاف الفقهي، فالخلاف الفقهي خلاف معتبر يقول به العلماء ويستندون في خلافهم إلى أدلة شرعية لكن النزاع يتحكم فيه الهوى والظن، ولكي نفرق بين ما يجوز الخلاف فيه وما لا يجوز، فإنه يجدر بنا أن نتعرف على أحكام القرآن أولاً.

أحكام القرآن:

أولاً– ما أبانه الله لخلقه نصاً وجاء بصيغة قاطعة لا مجال للاجتهاد فيها وقد جاءت هذه الأحكام تفصيلية سمواً بها عن الجدل ببنائها على أسباب لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة كآيات وجوب الصلاة والزكاة والصيام وكالمواريث التي حددت أنصبة الوارثين وتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن كحرمة الزنا والقذف

---

(١) من الآية ١٩ حتى الآية ٢٢ من سورة الحج.
(٢) من الآية ٤٦ من سورة الأنفال.

والخمر والربا، وأكل أموال الناس بالباطل والقتل بغير حق وأكل الميتة ولحم الخنزير وما إلى ذلك من العقائد والعبادات، وأمهات الأخلاق والرذائل، مما اشتهر عند المسلمين وأخذ حكم المعلوم بالضرورة.

ثانياً- ما جاء حكمه في القرآن مجملاً وبينه الرسول ﷺ بسننه القولية والعملية وهي الأحكام التي تشير إلى مقاصد الشريعة وقواعدها الكلية وتدع للمجتهدين في مجال الفهم والاستنباط على ضوء هذه القواعد وتلك المقاصد وهذا المنهج من ضرورة خلود الشريعة ودوامها.

وجدير بالذكر أن هذه الأحكام المجملة منها ما فصله الرسول ﷺ كمواقيت الصلاة وعدد الركعات وسائر أحكامها وبيان مقادير الزكاة وأوقاتها، والأموال التي تزكى وبيان أحكام الصوم وتفاصيل الأنكحة والبيوع والحج ومناسكه...إلخ، وهذا يدخل في قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[١].

«وهذا الذي بينه الرسول ﷺ منه ما هو متفق عليه مجمع على حكمه وتواتره، فلا مجال للاجتهاد فيه، وبعضه لا يتعين المراد منها فهي ظنية الدلالة فكانت مجالاً للبحث والاجتهاد؛ لأنه ليس من المعقول أن تعرض شريعة جاءت على أساس من الخلود والبقاء والعموم لتفصيل أحكام الجزئيات التي تقع في حاضرها ومستقبلها فإنها مع كثرتها الناشئة من كثرة التعامل وألوانه متجددة بتجدد الزمن وصور الحياة فلا مناص إذن من هذا الإجمال والاكتفاء بالقواعد العامة والمقاصد التي ينشدها للعالم وبإزاء هذا حثت على الاجتهاد واستنباط الأحكام الجزئية التي تعرض حوادثها من قواعدها الكلية ومقاصدها العامة وبذلك ظهرت بحق أنها صالحة لتنظيم جميع الشئون الاجتماعية والفردية إلى يوم الدين»[٢].

الفرق بين ما فيه اجتهاد وغيره:

والفرق بين الذي لا مجال للاجتهاد فيه والذي مجاله البحث والاجتهاد أن الأول بمنزلة العقائد واجب الاتباع عيناً على كل إنسان، فمن أنكره يكون خارجاً عن الملة -

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة النحل.

(٢) التشريع والفقه في الإسلام تاريخا ومنهجا، للشيخ مناع القطان، ص٦٦، بتصرف.

بالقواعد الشرعية- بخلاف الثاني فإن من أنكر فيها فهماً معيناً تحتمله الآية كما تحتمل غيره لا يكون كذلك، وكل مجتهد يتبع فيه ما ترجح عنده.

ثالثاً- وهو ما سنه الرسول ﷺ مما ليس فيه حكم بالقرآن حيث فرض الله في كتابه طاعة رسوله والانتهاء إلى حكمه ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾[١] فمن قبل هذه السنة امتثل أمر الله ففي السنة أشياء لا تحصى ولم ينص عليها القرآن كتحريم الرسول ﷺ للحُمُر الأهلية وتحريم كل ذى ناب من السباع، وألا يُقتل مسلم بكافر، وتحريم الذهب والحرير على الرجال... إلخ، فلا مناص من الاعتراف بأحكام في الشريعة لم تثبت إلا في السنة وحدها، وصدق ﷺ إذ يقول: «**ألا إنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ألا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِه يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيه مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ**»[٢]، وفي رواية: «.. **فَيَقُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّه، مَا وَجَدْنَا فيه مِنْ حَلَال اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ، ألا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ هُوَ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ**»[٣].

ومن ألوان الضلال أن يخرج أناس يسمون أنفسهم بالقرآنيين يريدون اتباع القرآن فحسب، فمن أين أتوا بأن صلاة الصبح ركعتان والظهر أربع...إلخ؟ بل ومن أين أتوا بأنصبة الزكاة ومناسك الحج؟ وهذا لون من ألوان الضلال، والرسول ﷺ يحذرنا من هذا الأمر؛ لأنه ﷺ ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى**﴾[٤] فإذاً لم يختلف العلماء والفقهاء في الأصول والمسائل الإيمانية أو ما يمس الاعتقاد، كذلك في وجوب العمل بما أنزل الله ووجوب العمل بالحديث وأمهات الأخلاق وأمهات الرذائل التي نسميها النصوص القطعية، إنما اختلفوا في النصوص الظنية، يقول الدكتور القرضاوى في فقه الأولويات:«لو شاء الله أن يجمع الناس على فهم واحد ورأي واحد لأنزل كتابه كله آيات محكمات وجعل النصوص كلها قاطعات»[٥].

---

(١) من الآية ٥٩ من سورة النساء.
(٢) رواه أحمد، وأبو داود.
(٣) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم.
(٤) الآيات ٣، ٤ من سورة النجم.
(٥) فقه الأولويات، د. يوسف القرضاوي.

ومن هذا يتضح معنى قول العلماء «**تفصيل ما لا يتغير وإجمال ما يتغير**».

وعلى هذا يجب أن نعلم:

أولاً- «إن الفقهاء لم يختلفوا في النصوص القطعية في ثبوتها وفي دلالتها من الكتاب والسنة المتواترة سواء أكانت الأحكام الدالة عليها معلومة من الدين بالضرورة أو كانت مما خفي على بعض الناس كأنصبة المواريث مثلاً أو كانت من المقدرات الشرعية التي لا مجال للرأي فيها وثبتت بالسنة المتواترة كعدد الركعات في كل صلاة ومواقيت الصلاة وما شاكلها»[1].

هذا بالإضافة إلى الإجماع الصريح المنقول إلينا بالتواتر والذي لا يجوز الاجتهاد معه بل ويكفر جاحد الحكم الثابت لهذا الإجماع القطعى إذا كان معلوماً بالضرورة في أحد أقوال ثلاثة للعلماء.

ثانياً-اختلفوا فيما كان ظنياً في ثبوته ظنياً في دلالته على الحكم وما كان من الأدلة ظنياً في ثبوته قطعياً في دلالته فهذا يقبل الاجتهاد أيضاً وما كان من الأدلة قطعياً في ثبوته ظنياً في دلالته على الحكم وهذا يتمثل في آيات كثيرة من الكتاب العزيز تحتمل التأويل.

وهنا قد يعن سؤال: **لماذا لا تكون كل الأدلة قطعية** حتى لا تختلف الأنظار فيها فتتفرق الكلمة ويختلف الصف ولا تكون كلمة المسلمين واحدة ويقع الخلاف المفضي إلى النزاع وتفريق الكلمة؟

لماذا لم تكن كل الأدلة قطعية؟

الحقيقة أن المسائل الأساسية في الدين سواء أكانت اعتقادية أو عملية والتى يكون الخلاف فيها مفضياً إلى التشتت والنزاع وتفريق الكلمة تأتى أدلتها قطعية -لا تحتمل التأويل- والاختلاف فيها اختلاف في الدين والله يقول: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ**﴾[2] وهذه دائرة لا يعذر فيها أحد باختلافه فيها بل

---

(١) الإحكام، للآمدي ٤/ ١٦٤، والمدخل للفقه الإسلامي، للأستاذ/ محمد سلام مدكور، ص٢٩٣.

(٢) من الآية ١٥٩ من سورة الأنعام.

يجب التعاون فيها كواجب مفروض على محاربة المخالف بالطرق الشرعية.

«أما ما وراء ذلك من أحكام فليس الاختلاف فيها ضرراً أو مفسدة بل هو توسعة على الأمة في مجال الاختيار وفسحة أمامهم في طريق العمل يأخذون من هذه الأحكام ما يحقق مصالحهم ويتفق مع ما تتطلبه حياتهم ويرفع عنهم الحرج والضيق»(١).

«بل كان هذا الاختلاف نفسه مصدر ثروة تشريعية عظيمة وتراث فقهي رائع يستوعب حاجات الناس في ظلال شريعة الإسلام الخالدة»(٢).

وهنا يظهر بوضوح الفرق بين الفرق الإسلامية والمذاهب الإسلامية.

الفرق بين الفرقة والمذهب: الفرقة هم أصحاب الاختلاف العقائدى والسياسى كالمعتزلة والشيعة والمرجئة والقدرية والجبرية وغيرهم فالاختلاف عندهم اختلاف في العقائد فالشيعة وهم فرق كثيرة اختلافهم كبير فيما يتصل بالعقائد والخوارج كَفَّروا بالكبيرة والمعتزلة قالوا بالمنزلة بين المنزلتين والمرجئة قالوا لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة والجبرية نفوا صفات الخالق حتى لا يشبه المخلوق والقدرية قالوا لا قدر والأمر أُنف.

فهل يتساوى هؤلاء مع المذاهب التي لا تتنازع في الأصول ولا تختلف فيها فالنتائج في الأولى كبيرة والفروق شاسعة بينما الاختلاف في المذاهب وبين الأئمة في الفروع ونتائجها محدودة وأظهر هذا الاختلاف مرونة في هذا الدين إذ لو جاءت الشريعة كلها قطعية لجمدت وما اتسعت بعالميتها مشارق الأرض ومغاربها لتشمل الزمان والمكان والأشخاص فأقوال الفقهاء بالنسبة للشريعة كمثل أغصان الشجرة تتشعب وتتفرع والأصل الذي انبعثت منه واحد والذي تتغذى منه واحد يغذى جميع الفروع والأوراق والأغصان المتفرعة؛ ولذلك قال العلماء:

١- إن الأدلة لو جاءت قطعية كلها لكان في هذا حجر على العقول البشرية وفي هذا جمود الأفكار.

---

(١) المدخل للفقه الإسلامي، للأستاذ عيسوي أحمد، ص١٤٠.
(٢) والمدخل للفقه الإسلامي، للأستاذ محمد سلام مدكور، ص٢٩٥.

٢- إلزام الناس كلهم في مشارق الأرض ومغاربها بحكم موحد فيه حرج شديد وتضييق كبير فكان اختلاف الرأي في غير المسائل الأساسية توسعة على العباد وهذا ملحظ الإمام مالك ﷺ عندما رفض أن يكون موطأه دستوراً للأمة الإسلامية حين عرض عليه المنصور أن يعلق الموطأ في الكعبة ويحمل الناس عليه حسماً لمادة الخلاف فرد الإمام مالك قائلاً: «لا تفعل فإن الصحابة تفرقوا في الآفاق وردوا أحاديث أهل الحجاز التي اعتمدتها وأخذ الناس بذلك فاتركهم على ما هم عليه»[1].

٣- إن قطعية النصوص تجعلنا نقف عاجزين أمام المسائل المتجددة في كل عصر والتى يطلب الناس معرفة حكمها ولا يكون ذلك على الوجه الأكمل إلا إذا نظر المجتهدون في الظنى من النصوص واستنبطوا منها أحكاماً لما يجد من الحوادث وبذلك تتعامل الشريعة مع مصالح الناس في كل مصر وعصر.

ولو جاءت النصوص قطعية لقال قائل: هلا جاءت مرنة حتى لا نكون أمام النصوص آلات لا إرادة لها ولا اختبار ولا إعمال عقل: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.[2]

أقوال العلماء عن الخلاف:

واسمع ما قاله علماء السلف في قضية الخلاف الفقهي:

يقول عمر بن عبد العزيز: ما يسرني أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا؛ لأنهم إذا اجتمعوا على قول فخالفهم رجل كان ضالاً، وإذا اختلفوا فأخذ رجل بقول هذا ورجل بقول هذا كان في الأمر سعة.

ويقول الإمام أحمد: «الخلاف سعة»[3].

ويقول القاسم بن محمد بن أبي بكر: لقد نفع الله باختلاف أصحاب رسول

---

(١) تاريخ الفقه الإسلامي، للشيخ السايس، ص٩٨، وقد نسب الإمام ابن تيمية هذه المحاورة إلى الرشيد في كتابه«الفتاوى» ٣/ ٧٩.

(٢) من الآية ١٤ من سورة الملك.

(٣) مسودة ابن تيمية، ص٤٩٧.

الله ﷺ في العمل لا يعمل الواحد منهم إلا لأنه يرى في ذلك سعة.

ويقول يحيى بن سعيد: أهل العلم أهل التوسعة، وما برح المفتون يختلفون فيحل هذا ويحرم هذا فلا يعيب هذا على هذا.

ويقول الإمام الشاطبي: إن اختلافهم كان رحمة بالأمة.

ويقول الإمام النووي: إن المختلف فيه لا إنكار فيه، ولكن ندبه على جهة النصيحة إلى الخروج من الخلاف فهو حسن محبوب مندوب إلى فعله برفق.

وعلق المحقق المقدسي على كلام الإمام النووي قائلاً: هو التحقيق الذي عليه جماهير العلماء من جميع المذاهب.

ويقول ابن تيمية: إن ما فيه خلاف إن كان الحكم المخالف يخالف سنة أو إجماعاً وجب الإنكار عليه وكذلك يجب الإنكار على العامل بهذا الحكم وإن كانت المسألة ليس فيها سنة ولا إجماع ولا اجتهاد فيه مساغ فإنه لا يُنكر على المخالف لرأي المنكر ومذهبه سواء أكان المخالف مجتهداً أو مقلداً.

ولذلك قالوا: من لم يعرف اختلاف الفقهاء لم يشم رائحة الفقه.

يقول الإمام الخطأبي: الاختلاف في الدين ثلاثة:

١-في إثبات الصانع ووحدانيته وإنكاره كفر.

٢-في صفاته ومشيئته وإنكارهما بدعة.

٣-في أحكام الفروع المحتملة وجوهاً فهذا جعله الله رحمة وكرامة.

ويقول أبو حنيفة: أعلم الناس هو أعلمهم باختلاف الناس؛ لأن من ينظر للأمر من كل وجوهه يكون أجدر على الحكم فيه بالصواب والخطأ.

لا إنكار على المخالف في الفروع: لو فقه المسلمون هذه القاعدة «المختلف فيه لا إنكار فيه» لانتهت كثير من المعارك في غير ميدان.

يقول الإمام الغزالي:كل ما هو محل اجتهاد لا حسبة فيه.

ولذلك رأينا الإمام أبو حنيفة يقول: هذا أحسن ما وصلنا إليه فمن رأى خيراً منه

فليتبعه وحين سأله رجل: أهذا الذي انتهيت إليه هو الحق الذي لا شك فيه؟ قال الإمام: لا أدرى لعله الباطل الذي لا شك فيه.

وكان تلميذه أبو يوسف يكتب كل ما يقوله الإمام من فتاوى فقال له: ويحك يا يعقوب! أتكتب كل ما أقوله؟! إني قد أرى رأياً اليوم فأخالفه غداً وقد أراه غداً فأخالفه بعد غد.

وقد أصاب الإمام البنا حين قال: «يجب أن نعلم أن الخلاف الفقهي في الفرعيات أمر ضروري لابد منه إذ إن أصول الإسلام آيات وأحاديث وأعمال تختلف في فهمها وتصورها العقول والأفهام؛ لذا كان الخلاف واقعاً بين الصحابة وأنفسهم وما زال كذلك وسيظل إلى يوم القيامة»[1].

فهل اختلف الصحابة حقاً؟ نعم اختلفوا.

أسباب اختلاف الصحابة:

الذي لا خلاف فيه بين العلماء أن الصحابة رضوان الله عليهم قد أجمعوا على أن يستقوا الأحكام الشرعية من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأن يحكموا بالرأي والاجتهاد في كل واقعة وقعت لهم ولم يجدوا لها نصاً فيهما، وأحياناً كانوا يجمعون على ما وصلوا إليه من حكم وتكون المسألة من مسائل الإجماع الذي لا يجوز الخلاف فيه، وأحياناً أخرى يبقى كل فريق عند رأيه وتبقى المسألة مختلفاً فيها قابلة للبحث والنظر والمناقشة والمشاورة.

والمسائل الخلافية بين الصحابة لا تعد ولا تحصى ابتداءً من قصة بنى قريظة وأمر الرسول ﷺ لصحابته أن يصلوا العصر في بنى قريظة وخلافهم في ذلك إلى أمور أخرى كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر:

خلافهم في التلبية والتكبير فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: غدونا مع رسول الله ﷺ إلى عرفات منّا المكبر ومنّا الملبي[2].

---

(١) مجموعة الرسائل، حسن البنا، رسالة المؤتمر الخامس، ص١٥٨، بتصرف يسير.
(٢) رواه أحمد ومسلم وأبو داود وغيرهم.

فالشائع بين الحجيج أنه لا تكبير في عرفات، ولكن الجميع يلبي، قال العلامة السندي في حاشيته على النسائي: «الظاهر أنهم كانوا يجمعون بين التلبية والتكبير فمرة يلبي هؤلاء ويكبر آخرون ومرة العكس، والظاهر أنهم ما فعلوا ذلك إلا لأنهم وجدوا النبي ﷺ فعل مثله».

ولقد ذكر الحافظ ابن حجر ما هو صريح في ذلك قال: عند أحمد وابن أبي شيبة والطحاوي من طريق مجاهد عن معمر عن عبد الله قال: «خرجت مع رسول الله ﷺ فما ترك التلبية حتى رمى جمرة العقبة إلا أن يخلطها بتكبي»ر[١]، «فالأقرب للعامل أن يأتي بالذكرين جميعاً لكن يكثر التلبية، ويأتي بالتكبير في أثنائها والله أعلم»[٢].

قول السندي رحمه الله: «مرة يلبي ويكبر آخرون وبالعكس وليس بلازم على هذا النظام بل يجوز أن كل واحد منهم كان يجمع التلبية والتكبير بغير هذا النظام والله أعلم»[٣].

ومثل خلافهم في رؤية رسول الله ﷺ ربه في الدنيا، تقول السيدة عائشة: «من زعم أن محمداً رأي ربه فقد أعظم على الله تعالى الفرية»[٤]، وابن عباس ثبت عنه هذا الحديث، واختلف الصحابة في هذه القضية بين مثبت ومخالف.

قضية عذاب الميت ببكاء أهله أيضًا فيها خلاف بين العلماء والسيدة عائشة أنكرت أن يكون الأموات يسمعون أقوال أهليهم أو سلامهم عندما ندخل المقابر ونقف على قبر من نزور ونقول: السلام عليكم أهل الديار، ماذا يحدث؟ الرسول ﷺ ورد عنه أنه قال أن الله يرد عليه روحه ليرد السلام على أهله، والسيدة عائشة أنكرت أن الأموات يسمعون، بينما ورد أن الرسول ﷺ قال لمن سأله أيسمعوننا يا رسول؟ قال: «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ »[٥]، وبالرغم من هذا فإن السيدة عائشة أولتها أي أنهم ليعلمون ما قلت لهم في الدنيا.

---

(١) رواه أحمد والطحاوي في شرح معاني الآثار.
(٢) حاشية السندي، لأبي الحسن السندي ٥/ ٢٥٠.
(٣) الفتح الرباني، للبنا ١٢/ ١١٢.
(٤) رواه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم.
(٥) رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم.

وكما يقول **ابن تيمية**: لو كان كل ما اختلف في شيء تهاجر المسلمان لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة.

ولذلك لابد للفقيه أن يتوقف إذا وجد عقل السائل لا يدرك ما يقوله، كما أن عليه أن يؤخر البيان لحين الحاجة إليه، فهذا سيدنا على رضوان الله عليه وأرضاه يقول: «حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون، أتحبون أن يُكذَّب الله ورسوله»[١].

ويقول ابن مسعود: ما من رجل يحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم. وكذلك فإن ابن عباس رضي الله عنهما قال لمن سأله عن معنى قول الله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الارْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الامْرُ بَيْنَهُنَّ﴾[٢] قال له: ما يؤمنك أني لو أخبرتك بتفسيرها لكفرت.

وأيضًا يقول لمن سأله عن: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[٣]، فقال: هو يوم أخبر الله به والله أعلم.

وحين خرج رجلان من الصحابة في سفر وحضرت الصلاة وليس معهما ماء فتيمما صعيداً طيباً ثم وجدا الماء في الوقت فاختلفوا، نعيد الوضوء ونصلي أم أننا أتينا بالفريضة ولا يجوز إعادة الصلاة؟ فاجتهدوا فمنهم من قال: إذا وُجد الماء فلابد أن نعيد صلاتنا؛ لأن الوقت مازال موجوداً وفيه سعة، ومنهم من قال لا لقد أدينا الفريضة بالتيمم، فأقر رسول الله ﷺ الاثنين على ذلك.

وهذا عمار ﷺ يقول: أجنبت فلم أصب الماء فتمعكت بالصعيد وصليت فذكرت ذلك للرسول ﷺ فقال: «إِنَّمَا يَكْفِيكَ هَكَذَا »[٤]، وأشار إليه وعلمه كيفية التيمم التي يجب عليه أن يفعلها.

وفيما يسمى **ضالة الإبل**، سأل رجل الرسول ﷺ عنها فقال: ماذا نفعل في ضالة

---

(١) رواه البخاري دون جملة: «ودعوا ما ينكرون».
(٢) الآية ١٢ من سورة الطلاق.
(٣) الآية ٤ من سورة المعارج.
(٤) رواه البخاري ومسلم والنسائي واللفظ له.

الإبل التي لا نعرف صاحبها؟ فغضب رسول ﷺ وقال للسائل: «**مَا لَكَ وَلَهَا مَعَهَا سِقَاؤُهَا وَحِذَاؤُهَا تَرِدُ الْمَاءَ وَتَأْكُلُ الشَّجَرَ حَتَّى يَلْقَاهَا رَبُّهَا**»(١) -يعني مالكها وصاحبها- وظل الحال على ذلك في عهد الرسول ﷺ، وجاء من بعده أبو بكر الصديق رضوان الله عليه وأرضاه حتى ذهب الأمر لسيدنا عثمان ﷺ فقد أمر أن تُعَرَّف ثم تباع فإذا جاء صاحبها أُعطي له ثمنها، وبالرغم من هذا النص إلا أن هذا اجتهاد للمصلحة ولرفع الحرج؛ لأن الفتوحات في عهد عثمان ﷺ بدأت تزيد وبدأ يدخل في الإسلام من ليس منه وبدأت الانحرافات تظهر داخل المجتمع، فلو تركنا ضالة الإبل فاحتمال وجود من يأخذها ويسافر بها إلى بلد آخر ويبيعها أمر وارد، فلكي يحفظ لمالكها حقه قال: نبيعها ونحتفظ بثمنها. ولما جاء سيدنا على ﷺ أقام لها مربضًا (المعلف) خاصًا، تعلف وتسمن وتأكل وتشرب ويحافظ عليها من مال بيت المال، فإذا جاء صاحبها وأقام البينة على ملكيته لها أخذها وضمها إلى إبله.

ولو انتقلنا إلى العبادات لوجدنا الخلاف في فروع المسائل بين الصحابة لا عد لها ولا حصر، بل إن هناك ما سماه العلماء بالخلاف المعضل وإليك مثال منه فلقد جرت العادة أننا ننبه الناس في صلاة الجنازة ونقول: صلاة الجنازة أربع تكبيرات الأولى نقرأ الفاتحة والثانية الصلاة على الرسول ﷺ والثالثة الدعاء للميت ثم الدعاء لأموات المسلمين، وهذا رأي الجمهور، فإذا بالإمام أبي حنيفة يخالف الجمهور ولا يجوّز قراءة القرآن في صلاة الجنازة ويقول: كل التكبيرات الأربع يتخللها الدعاء فحسب، وكذلك **قصة الطلاق الثلاث**، أمضاه عمر بن الخطاب على خلاف ما كان عليه الأمر قبله فعن طاوس عن ابن عباس أنه قال: كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر ﷺ طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر بن الخطاب: إن الناس قد استعجلوا أمراً كان لهم فيه أناة لو أمضيناه عليهم فأمضاه عليهم.

أيضًا اختلفوا في صلاة التراويح، جاء قيام رمضان وصلى رسول الله ﷺ بصحابته جماعة ثم ترك ذلك مخافة أن توجب عليهم، فصلاها الناس فرادى في زمان رسول الله ﷺ وأبي بكر وصدراً من خلافة عمر، فخرج عمر ليلة فرأى الناس

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم.

أوزاعاً في المسجد فقال: لو اجتمعتم على إمام فأمر أبي بن كعب فصلى بهم ثم خرج ليلة أخرى فرآهم مجتمعين على أبيّ بن كعب فصلى بهم.

اختلافهم في صلاة الكسوف والخسوف: ذكر الإمام مسلم في رواية ابن عباس أنها الركعتان في كل ركعة ثلاث ركعات، ومن رواية ابن عباس وعلى فكل ركعة أربع ركعات، وقال الشافعي إنها ركعتان في كل ركعة قيامان وقراءتان وركوعان وأما السجود فسجدتان كغيرهما وقال: الكوفيون هما ركعتان كسائر النوافل عملاً بظاهر الحديث الذي رووه.

بل في راوية أبي بن كعب: ركعتان في كل ركعة خمس ركعات، وقد قال بكل نوع من هذه الهيئات بعض الصحابة.

قال الشوكانى: إن صح تعدد الواقعة أن الأحاديث المشتملة على الزيادة الخارجة من مخرج صحيح يتعين الأخذ بها لعدم منافاتها للمزيد وإن كانت الواقعة ليست إلا مرة واحدة فالمصير إلى الترجيح أمر لابد منه، وأحاديث الركوعين أرجح.

قال الحافظ ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد: «وذهب جماعة من أهل الحديث إلى تصحيح الروايات في عدد الركعات وحملوها على أن النبي ﷺ فعلها مراراً وأن الجميع جائز»[1]، أضف إلى ذلك اختلافهم في حكم النائم: هل ينتقض وضوؤه أم لا؟ وهم في هذا على ثمانية مذاهب كما ذكر الإمام النووي وكذلك اختلافهم في أحكام الصيام وما يجوز فيه الزكاة ومسائل كثيرة لا نستطيع أن نحصيها في فروع العقيدة والعبادة والشريعة.

وبالرغم من أن مصادر تشريعهم كانت واحدة إلا أنهم اختلفوا في جزئيات تتعلق بهذه المصادر وتبيان ذلك.

أولاً- بالنسبة للقرآن الكريم كانت أسباب خلافهم في هذا المصدر ترجع إلى:

١- ما كان يسبب تعارض النصوص واجتهادهم في دفع هذا التعارض.

---

(١) زاد المعاد ١/ ٤٥٥.

مثال: خلافهم في عدة الحامل المتوفي عنها زوجها وقد قال عمر بن الخطاب وابن مسعود رضي الله عنهما: بأن الحامل المتوفي عنها زوجها تعتد بوضع الحمل. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تعتد بأبعد الأجلين.

والمسألة كما رآها الصحابة فيها نصان هما قوله تعالى: ﴿وَأُوْلاتُ الاحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [(١)] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[(٢)].

ولهذا اختلفوا فهماً بالرغم من أن الرسول ﷺ حكم في قضية سبيعة الأسلمية مبيناً رفع هذا التعارض، فقد قتل زوجها وبعد ليالٍ وضعت حملها فأحلها النبي ﷺ للأزواج[(٣)].

ولقد حكم ابن عباس بما حكم به؛ لأنه لم يصل إليه حديث سبيعة؛ ولهذا أرسل غلامه كريباً إلى أم سلمة -بعد وقوع نقاش في هذه القضية- فأخبرته بما وقع لسبيعة الأسلمية.

فالخلاف قد يرجع من جهة أخرى إلى السنة، فالبعض لم يسمع الحديث والبعض سمعه واختلفا.

٢- ما كان بسبب فهمهم للفظ مجمل مثل تردد اللفظ بين معنيين كخلافهم في عدة المطلقة الحائض فقد أفتى ابن مسعود ووافقه عمر بأنها لا تخرج من عدتها إلا إذا اغتسلت من الحيضة الثالثة، ومنشأ الخلاف اختلافهم في فهم لفظ (القرء) الوارد في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوَءٍ﴾[(٤)] فهل القرء الوارد في الآية هو الحيض أم هو الطهر؟ ولما كان (القرء) من الألفاظ المشتركة؛ لذا كان الأمران صواباً.

٣- ما كان بسبب وقوف بعضهم عند ظاهر النص والبعض الآخر نظر إلى المعنى المقصود من تشريع الحكم فقد أفتى ابن عباس فيمن ماتت عن زوج وأبوين بأن

---

(١) من الآية ٤ من سورة الطلاق.
(٢) من الآية ٢٣٤ من سورة البقرة.
(٣) الرسالة،للشافعي، ص٢٥، ومجموع الفتاوى، لابن تيمية ٢/ ٢٣٨.
(٤) من الآية ٢٢٨ من سورة البقرة.

للزوج النصف وللأم الثلث وللأب الباقي تعصيباً تمسكاً بظاهر قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾[(١)] وقال زيد بن ثابت وبقية أعلام الصحابة: لها الثلث ما بقي بعد فرض الزوج نظراً للمعنى المقصود من تشريع الحكم؛ لأن الأم والأب ذكر وأنثى ورثا بجهة واحدة، فللذكر مثل حظ الأنثيين شأنهما في ذلك شأن الأولاد وغيرهم[(٢)].

٤- ما كان بسبب وقوف البعض عند ظاهر النص ولم ير له مخصصاً بينما يرى البعض الآخر أنه مخصص كموقف ابن عباس من قوله تعالى في شأن البنات: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾[(٣)] فيرى أن البنات لا يأخذن الثلثين إلا إذا كان عددهن فوق اثنتين عملاً بظاهر الآية، وغيره يرى أن البنتين فصاعداً يأخذن الثلثين، أما البنتان فبالقياس على الأختين حيث يقول الله فيهما: ﴿فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾[(٤)] وأما ما فوق الاثنين فبالنص.

٥- ما كان بسبب موقفهم في بيان الإجمال في التراكيب فقد أفتى عبد الله بن مسعود بأنه إذا آلى-الإيلاء- الرجل من زوجته ومضت أربعة أشهر دون أن يفيء - يرجع- فقد طلقت منه طلقة بائنة وزوجها خاطب من الخطاب وأفتى غيره بأنها لا تطلق بمضي المدة بل يؤمر الزوج بعدها بالفيء أو التطليق.

ومنشأ الخلاف هو فهمهم لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[(٥)] فكان الحكم حسب فهم كل منهم وكلاهما على صواب.

ثانياً- بالنسبة للسنة النبوية يرجع الاختلاف فيها إلى أسباب كثيرة منها:

١-ما كان بسبب عدم سماعهم للحديث لعدم تفرغ بعضهم للسماع فهم مشغولون بمعايشهم وأحوالهم وجهادهم وأعمالهم ولهذا نرى البعض يسمع الحديث

---

(١) من الآية ١١ من سورة النساء.
(٢) تاريخ الفقه الإسلامي، للأستاذ السايس، ص٤٦.
(٣) من الآية ١٠ من سورة النساء.
(٤) من الآية ١٧٦ من سورة النساء.
(٥) الآيات ٢٢٦، ٢٢٧ من سورة البقرة.

والبعض لا يسمعه كما حدث في حديث سبيعة الأسلمية السابق ذكره.

٢- ما كان بسبب ردهم للحديث لعدم الثقة في الراوي، «فقد توقف أبو بكر ﷺ في خبر المغيرة في ميراث الجدة وطلب الاستظهار بقول راو آخر، فلما ثبت عنده قضاء رسول الله ﷺ فيها قضى به»[١].

٣- ما كان بسبب عدم علمهم بالنسخ فيعمل البعض بالحديث وهو لا يعلم بنسخه.

٤-ما كان بسبب معارضة الحديث لما هو أقوى منه.

٥-ما كان بسبب تغير أحوال الناس، فقد قال ابن عباس ﷺ كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر: إن الناس قد استعجلوا في أمرٍ كان لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم فأمضاه عليهم.

أي لما تغيرت أحوال الناس؛ لأنهم كانوا يستعملون الطلاق على الوجه الذي شرعه الله ويفهمون الحكمة من جعله ثلاثاً فلما استعملوا ما جعل الله لهم فيه الأناة عجل لهم عمر بحكمه بإيقاع الطلاق الثلاث في مجلس واحد فهو عمل بالمصلحة.

٦-ما كان بسبب اختلافهم في فهم السنة بعد ثبوتها، ومن ذلك اختلافهم في الرّمل في الطواف هل هو سنة أو كان سياسة لإرهاب المشركين وإذهاب ما في نفوسهم من ظن أن حمى يثرب أثرت في المسلمين؟ والذي يؤيد أنه سُنة أن رسول الله ﷺ فعله في حجة الوداع فكان سببه ما ذكرناه ثم أصبح سُنة متبعة[٢].

ثالثاً-ما كان بالاجتهاد في الرأي:

وها هو ذا ابن تيمية في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم» يقول:

أنواع الاختلاف قسمان: اختلاف تنوع واختلاف تضاد.

اختلاف التنوع: وهو على وجوه منه ما يكون كل واحد من القولين أو الفعلين

(١) فتاوى ابن تيمية ٢٠/ ٢٤٣.
(٢) سبل السلام، للصنعاني، ٢/ ٢٠٥.

حقاً مشروعاً كما في القراءات التي اختلفت فيها الصحابة حتى زجرهم رسول الله ﷺ عن الاختلاف بقوله ﷺ: «**كلاكُمَا مُحْسِنٌ** » فعن عبد الله بن مسعود قال: سمعت رجلاً يقرأ آية سمعت النبي ﷺ يقرأ خلافها فأخذت بيده فانطلقت به إلى النبي ﷺ فذكرت ذلك فعرفت في وجهه الكراهة وقال: « **كِلاكُمَا مُحْسِنٌ، لا تَخْتَلِفُوا فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا**»[1]، فالرسول ﷺ هنا ينهي عن الخلاف الذي فيه جحود ونكران ولأن كلا المختلفين على صواب وحق.

ومثله اختلاف الأنواع في صفة الأذان والإقامة والاستفتاح والتشهدات وصلاة الخوف وتكبيرات العيد وتكبيرات الجنازة إلى غير ذلك مما شرع جميعه.

وإن كان يقال إن بعض أنواعه أفضل فنجد الاختلاف في مثل هذه الأمور بسبب الجهل أو الهوى لأحد هذه الأنواع والإعراض عن الآخر والنهي عنه وهذا ما نهى عنه رسول الله ﷺ.

ومنه ما يكون المعنيان مختلفين لكن لا يتنافيان، فهذا قول صحيح وذاك قول صحيح وإن لم يكن معنى أحدهما هو معنى الآخر وهذا كثير في المنازعات.

ومنه ما يكون طريقين مشروعين ولكن قد سلك رجل أو قوم هذه الطريقة، وآخرون قد سلكوا الأخرى وكلاهما حسن في الدين، ثم الجهل أو الظلم يحمل على ذم أحدهما أو تفضيله بلا قصد صالح أو بلا علم أو بلا فقه.

اختلاف التضاد: وأما اختلاف التضاد فهو القولان المتنافيان إما في الأصول وإما في الفروع عند الجمهور الذي يقول: «المصيب الواحد» وإلا فمن قال: «كل مجتهد مصيب» فعنده: هو من باب اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد.

فهذا الخطب فيه أشد؛ لأن القولين يتنافيان لكن نجد كثيراً من هؤلاء قد يكون القول الباطل الذي مع منازعة فيه حق ما، أو معه دليل يقتضي حقاً، ما فيرد الحق في هذا الأصل كله حتى يبقى هذا مبطلاً في البعض كما كان الأول مبطلاً في الأصل كما رأيته لكثير من أهل السُنة في مسائل القدر والصفات والصحابة وغيرهم وأما أهل البدع فالأمر فيهم ظاهر.

---

(١) رواه أحمد والبخاري.

ولك أن تتصور أن الخلاف في فروع المسائل قد يصل إلى ثمانية آراء، يقول الإمام النووي في شرح مسلم: اختلف العلماء في مسألة النوم الذي ينقض الوضوء إلى مذاهب عدة، ثم عددها إلى ثمانية مذاهب فضلاً عن صلاة الضحى والقنوت وغير ذلك من أمور الفروع.

بل إن قضية كقضية تارك الصلاة فيها ثلاثة آراء فمنهم من قال: يكفر إذا تركها جحوداً ونكراناً، ومن تركها وهو معذور لقرب عهده بالإسلام أو لأنه نشأ في بادية فإنه لا يكفر ويُعلم أحكامها، فإن أنكر بعد ذلك كفر وأقيم عليه الحد، ومن تركها كسلاً حتى يخرج الوقت فقيل يكفر وقيل لا يكفر ولكل دليله، ولك أن تعلم أن الجمهور يقول بعدم كفره.

«ومن الفقه أن تعلم أن من الاختلاف ما هو قريب كاختلاف العلماء في أمر هل هو سنة أو واجب، كالاختلاف في ترتيب أعضاء الوضوء، فمن العلماء من يقول إنه واجب، ومنهم من يقول إنه سنة، والكل متفق على أنه مشروع أصلاً وكان الاختلاف في كون الشيء أو الفعل حراماً أو مكروهاً مع الاتفاق أصلاً على عدم مشروعيته، كخطبة الجمعة من خطيب غير متوضأ فهو حرام عند جماعة ومكروه عند آخرين»[1].

«ومنه ما هو اختلاف تنوع -كما ذكر ابن تيمية- وهذا وإن كان أحدهما أرجح من الآخر فمن فعل المرجوح فقد فعل جائزاً»[2].

فهذا النوع من الاختلاف دال على الإباحة والتوسع على العباد، وكل الأقوال جائزة وإن كان البعض يفضل قولاً على آخر.

ومن الاختلاف أنواع متباعدة كالاختلاف في أمر: هل هو سنة أو مكروه؟ وكالاختلاف في أمر هل هو واجب أو محرم؟ فمن النوع الأول رفع اليدين عند كل تكبيرة من تكبيرات صلاة العيد، مستحب عند البعض، ومكروه عند البعض، ومن أمثلته أيضًا: الصلاة على النبي ﷺ في التشهد مستحب عند البعض ومكروه عند الآخرين.

---

(١) ما لا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين، د. عبد الجليل عيسى، ص٣٢.
(٢) المصدر السابق، ص ١٨.

«ومن النوع الثاني وهو ما كان الاختلاف فيه في أمر هل هو واجب أم حرام؟ وهذا ما عبر عنه بعض العلماء بأنه أخطر أنواع الخلاف»[1] ومن أمثلته قراءة الفاتحة في صلاة الجنازة بعد التكبيرة الأولى، فالقراءة واجب عند الشافعية والحنابلة، وتبطل الصلاة بتركها. وأما عند الأحناف فحرام ويأثم المصلي إذا قرأها. ومن أمثلته أيضًا رفع اليدين عند الركوع والرفع منه، فهو واجب عند البعض محرم عند البعض الآخر، «قال الحافظ ابن حجر بعد أن ذكر الخلاف في ذلك ومستمسك كل قول: ومقابل هذا قول بعض الحنفية بأنه يبطل الصلاة، ونسب بعض محققيهم كما حكاه ابن دقيق إلى تركه درءاً لهذه المفسدة»[2].

«روى عن عبد الوارث بن سعيد أنه قال: قدمت مكة فألفيت فيها أبا حنيفة وابن أبي ليلى وابن شبرمة فأتيت أبا حنيفة فقلت: ما تقول في رجل باع بيعاً وشرط شرطاً؟ فقال البيع باطل والشرط باطل، وقال ابن أبي ليلى: البيع جائز والشرط باطل وقال ابن شبرمة: البيع جائز والشرط جائز، فقلت: سبحان الله ثلاثة من فقهاء العراق لا يتفقون على مسألة، ثم ذكر الحديث الذي احتج به كل من الفقهاء الثلاثة ليعضد كلٌ رأيه»[3].

حكم القاتل المكره:

أي الذي أكرهه آخر على القتل وهو الذي يقتل إنسانًا بغير حق خضوعاً وإذعاناً لمن أكرهه (مسألة في الفقه)، يقولون: هل في هذا القتل قصاص أم لا؟ وممن يكون القصاص؟

أربعة أقوال ذهب إليها الفقهاء:

من قال القصاص على القاتل المكرَه؛ لأنه لم يكن له أن يسمع للآخر ولو أدى

---

(١) الإنصاف في الأسباب الداعية للخلاف، لابن السيد، ص١٣٠، والفقه المقارن، لحسن الخطيب، ص٢٢٠، والسنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، ص١٣٠.

(٢) فتح الباري، لابن حجر العسقلاني ٢/ ٢٢٠.

(٣) التنبيه على الأسباب التي أوجدت الخلاف بين المسلمين، للفقيه البطليوسي، تحقيق د. أحمد حسن كحيل، ود. حمزة النشرتي.

إلى قتله هو نفسه، لأنه هو الذي باشر القتل ولم يكن له أن ينقذ نفسه بقتل غيره.

الرأي الثاني: القصاص على المكرِه؛ لأن القاتل مُكرَه، وقد كان بمثابة الآلة.

الرأي الثالث: لا قصاص على أي منهما؛ لأن شروط القتل لم تتوفر في الاثنين؛ لأن جناية كل منهما لم تكتمل ولم تستوف العناصر المطلوبة للقتل العدواني.

الرأي الأخير: القتل عليهما معاً.

الواجب علينا:

والواجب علينا أن نقبل الخلاف ونسعه ما دام معتبراً بل ونرحب به؛ لأنه من أبواب الوصول إلى الحق، والجدير بالذكر أنه كما اختلف الصحابة رضوان الله عليهم في فروع المسائل اختلف كذلك التابعون والأعلام واختلف من بعدهم الفقهاء المتقدمون فما زادت الثروة الفقهية من هذا الخلاف المعتبر إلا حضارة شهد لها الجميع.

ثروة في الفقه واتساع ومرونة وتجدد وعطاء في هذا الجانب مع ثبات الأمور القطعية التي تمثل هوية الأمة الإسلامية، لو فقه الشباب المسلم هذا الأمر لتعاونوا فيما اتفقوا عليه ولعذر بعضهم بعضاً فيما اختلفوا فيه ولجمعوا بذلك بين الأصالة والمعاصرة.

ونختم بأمر نحب أن ننبه إليه لكي يستبين لك ما يفعل أعداء الإسلام، وتأمل فيما قاله **ريتشارد ميتشل**، وقد كان رئيس هيئة الخدمة السرية في المخابرات الأمريكية، فضمن ما وصى به قومه لغزو المسلمين كما قال: «تعميق الخلافات المذهبية والفرعية وتضخيمها في أذهانهم».

فانظر إلى أفعال بعض أبنائنا الشباب المسلم الغير مدرك لأبعاد المؤامرة، إنك تجدهم يكتبون الكتب يهاجمون فيها العلماء دون بينة ولا فقه يخدمون بذلك مخططات الأعداء، فهل هم منتهون.

وهذا **وليام جيفارد** يقول: «متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية بعيداً عن محمد وكتابه».

إنه بمجرد توقف الفكر وانحسار الآراء وانعدام النظر في الأحكام، وتعميم التقليد وتحريم الاجتهاد نكصت الحضارة الإسلامية على عقبيها وعقمت الثقافة الإسلامية

من كل مجتهد فيها، وأصبح المسلمون على ما نراهم اليوم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، يثيرون قضايا جميعها يدخل في دائرة المختلف فيه: ابتداءً من اللحية ومروراً بالحجاب والنقاب والقنوت والموسيقى والتمثيل والشرب وقوفاً وقعوداً والتبول وقوفاً وقعوداً وتكبيرات العيدين ودخول مجلس الشعب ودخول المقبرة حافي القدمين، ولولا أن المجال لا يتسع لعددت هذه القضايا التي تدخل جميعها في دائرة الاجتهاد، أي أنها ليست قطعية بما فيها حكم اللحية والحجاب والنقاب، فالمهم أن يعلم المسلمون بوجه عام والشباب بوجه خاص أن هناك منطقة لا اجتهاد فيها هي منطقة القطعيات -وقد بيناها بتوفيق الله- وهذه المنطقة هي التي تجسد الوحدة الفكرية والسلوكية للأمة فلا يجوز أن تدخل دائرة الاجتهاد، بل يتعاون الجميع على وجوب تنفيذها، وأما غيرها من المناطق الشرعية فهي محل اجتهاد وخلاف بين العلماء بما فيها الموضوعات التي أشرنا إليها فلا يصح أن تكون سبباً للفرقة والتخاصم والتدابر، ونخلق ميدانًا للقتال فيما بيننا ونترك أعداء الإسلام يشجعون هذه الخلافات، بل ويغذونها حتى تكون الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين؛ وذلك لأن أكثر الجهل إنما يقع في نفي ما عليه الآخرون وجحوده وتكذيبه لا في إثبات ما هو عليه وأحاط به؛ لأن إحاطة الإنسان بما يثبته أيسر من إحاطته بما ينفيه عن غيره.

إننا نريد الوعي مع فهم الإسلام لندرك ما قاله رشيد رضا وجاء الإمام البنا بعده يؤكده في هذه المقولة الذهبية: «نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه».

ورضوان الله على الإمام البنا حين قال: «إن الخلاف أيها الإخوان قد يتناول فروع الأعمال والعبادات ولا يرقى بحال إلى مرتبة العقيدة وصحيحها، وهذا الخلاف لا يحرج صدراً ولا يؤذي أحداً وأمره دائر بين خطأ وصواب، فإذا عرفنا أن المخطئ والمصيب مأجوران هان الخطب واستطعنا في ظل الإخاء والحب أن نصل إلى الحقيقة، واستطاع الحكم الشرعي أن يرفع الخلاف..ثم يقول: «ومن الخلاف أيها الإخوة ما يتصل بالعقيدة وصحيحها ومصدره عدم تحديد العبارات وعدم تعرف المقاصد والجمود على عبارات ومصطلحات لم يتعبدنا الله تبارك وتعالى بالجمود عليها،

وأعتقد أيها الإخوان لو حُددت العبارات وتعرف كل فريق على مقاصد الآخر، ولم يتقيد بعبارات ومصطلحات خاصة -ما دام المعنى المقصود سليماً- لاستطعنا الجمع بين الآراء المتنافرة والفكر المتخالف وقربنا بين وجهات النظر ولوصلنا إلى نتيجة محمودة أقلها أن نخرج من حيز كفر وإيمان إلى حيز خطأ وصواب»[1].

فهل أخطأ البنا حين قال: نتعاون فيما اتفقنا عليه من الأصول والعقائد والأمور القطعية التي لا تحتمل تأويلاً ولا اجتهاداً -ويعذر بعضنا بعضاً- في الأمور الخلافية الظنية الاجتهادية وأحسب أنه كان موفقاً بتوفيق الله حين قال: «**والخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سبباً للتفرق في الدين ولا يؤدي إلى خصومة ولا بغضاء ولكل مجتهد أجره، ولا مانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب**» فجزاه الله عنا خير الجزاء.

* * *

(١) دروس الثلاثاء، الإمام حسن البنا، ص ٥٠٨.

مردود الأصل الثامن

أولاً- حصيلة العقل:

أ- اختر الإجابة الصحيحة (من الممكن أن تكون أكثر من إجابة صحيحة):

١- الخلاف بين العلماء في المسائل الفرعية:

أ	من سنن الله في خلقه	ب	يسبب الفرقة بين المسلمين
ج	رحمة للمسلمين	د	مجال لإعمال العقل

٢- لو جاءت مصادر التشريع (القرآن والسنة) بنصوص قطعية:

أ	لما حدث الخلاف الفقهي	ب	لعجزنا عن مواكبة التغيرات
ج	لحدث جمود تشريعي	د	جميع ما سبق

٣- لا يجوز الاختلاف إلا فيما كان:

أ	قطعي الثبوت وظني الدلالة	ب	ظني الثبوت وقطعي الدلالة
ج	قطعي الثبوت وقطعي الدلالة	د	ظني الثبوت وظني الدلالة

٤- يرجع الخلاف بين الصحابة في استقائهم الأحكام من القرآن إلى:

أ	اجتهادهم في دفع التعارض بين بعض نصوصه	ب	اختلافهم في فهم معاني الألفاظ
ج	وقوف بعضهم عند ظاهر النص وبعضهم عند المراد به	د	جميع ما سبق

٥- يرجع الخلاف بين الصحابة في استقائهم للأحكام من السنة النبوية إلى:

أ	عدم سماع بعضهم للحديث	ب	تغير أحوال الناس
ج	عدم العلم بنسخ الحديث	د	جميع ما سبق

ب- ضع (أ) أما العبارة الصحيحة و (ب) أمام العبارة الخطأ فيما يلي:

١-	كل ما ورد في القرآن قطعي الدلالة والثبوت.	
٢-	كل ما ورد في السنة ظني الثبوت وقطعي الدلالة.	
٣-	الاختلاف بين العلماء يعد مصدرًا للثروة التشريعية.	
٤-	قد يختلف أصحاب المذاهب الفقهية في أصول العقيدة.	
٥-	المسائل المختلف فيها لا إنكار فيها.	

قارن إجاباتك بالإجابات النموذجية في آخر مردود الأصل، وأعط نفسك درجة لكل إجابة صحيحة وصفرًا للإجابة الخاطئة.

أكثر من ١١	١٠-١١	٩	٧-٨	أقل من ٧
ممتاز	جيد جدًّا	جيد	متوسط	ضعيف

ثانيًا- رصيد القلب:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	أومن أن الخلاف في الرأي من سنن الله في خلقه.					
٢	أعتقد أنه لا يجوز الخلاف حول القطعيات الشرعية.					
٣	أستشعر رحمة الله الواسعة في اختلاف العلماء في الفروع.					
٤	أكره أن يؤدي اختلاف العقول إلى اختلاف القلوب.					
٥	لا يغيب عني أن لكل مجتهد أجرًا وإن أخطأ.					
٦	أميل إلى مناقشة المسائل الخلافية بهدوء وفي ظلال الحب.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ٢٠	١٨-٢٠	١٥-١٧	١٢-١٤	أقل من ١٢
ممتاز	جيد جدًّا	جيد	متوسط	ضعيف

ثالثًا- حساب الجوارح:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	أوضح لمن حولي أن الخلاف في الرأي من سنة الله في خلقه.					
٢	أبين لمن حولي أن الخلاف في الفروع رحمة للمسلمين.					
٣	أتألم حين أرى الفرقة بين المسلمين بسبب الاختلاف الفقهي.					
٤	أشرح لمعارفي أن الاختلاف في الفروع لا ينبغي أن يكون سببًا للتفرق.					
٥	أحترم من يأخذ برأي فقهي غير الذي أعمل به.					

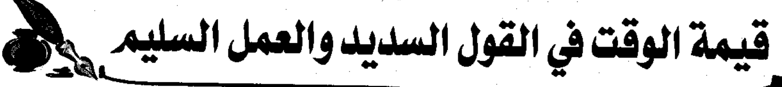
دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٧	١٥- ١٧	١٣- ١٤	١٠ – ١٢	أقل من ١٠
ممتاز	جيد جدًّا	جيد	متوسط	ضعيف

إجابات حصيلة العقل (٨)

السؤال	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
أ	✓		✓					✓		✓
ب			✓			✓	✓		✓	
ج	✓									
د	✓	✓	✓	✓	✓					

الأصل التاسع



قيمة الوقت في القول السديد والعمل السليم

«وكل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذي نهينا عنه شرعاً، ومن ذلك كثرة التفريعات للأحكام التي لم تقع، والخوض في معاني الآيات القرآنية التي لم يصل إليها العلم بعد، والكلام في المفاضلة بين الأصحاب ﭬ وما شجر بينهم من خلاف، ولكل منهم فضل صحبته وجزاء نيته وفي التأول مندوحة»(١).

(١) مجموعة الرسائل، للشهيد حسن البنا، رسالة التعاليم، ص٢٦٩.

هذا الأصل يعالج:

١-عدم الخوض في المسائل التي لا ينبني عليها عمل.

٢-قيمة الوقت بالنسبة للمسلم.

٣-آفات اللسان وإمساكه.

٤-عدم الخوض والكلام في المفاضلة بين الأصحاب.

هذا أصل في التربية عظيم يعتمد أساساً على جانب من جوانب تربية الإنسان المسلم ويبرزه؛ ذلك لأن الإسلام عني عناية فائقة بالفرد المسلم تربيةً؛ لأن أداة التغيير هي الإنسان الصالح؛ ولذلك رأينا في الفترة المكية عناية القرآن المكي كله بتعميق معاني العقيدة وتغيير السلوك وربط الإنسان برباط قوي بالله ﷻ، ولا شك أن شخصية المسلم الذي كلفه المولى ﷻ بحمل الرسالة شخصية سوية متوازنة ومتكاملة في كل شيء، في خلقها وعبادتها وسلوكها وحركتها وتعاليمها ولكي تكتمل هذه الشخصية كان لابد أن تصطبغ توجيهاتها وسلوكها بصبغة كتاب الله الذي: ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾(١)، هذا الكتاب الذي تعهد بالفرد تربية وبالأسرة ترابطاً والأمة بناءً، والحضارة إبداعًا؛ وذلك لأن المسلم صاحب رسالة من أجلها خلق: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾(٢) فهو شخصية عابدة عاملة جادة تعمر الكون بمنهاج الله ﷻ وله رسالة مجيدة ودور عظيم في هذا الوجود الذي يعيشه، فهو لا يعرف لهواً ولا لغواً ولا عبثاً ولا هراءً ولا جدلاً ولا مراء، ينشغل بعظائم الأمور ويترك سفاسفها فجميع سلوكه وتكاليفه من توجيهات الله ﷻ وأوامره، وذلك من المهد إلى اللحد، وهو مطالب بأن تكون حركاته وسكناته لله رب العالمين لا شريك له؛ ولذلك فهو يخضع جوارحه للمحاسبة فيحاسب العين على ما ترى والأذن على ما تسمع واليد على ما امتدت والرجل على ما سعت والبطن على ما حوت والعقل فيما يفكر حتى يطرد منه الخواطر السيئة ليكون عبداً خالصاً لله ﷻ في كل أمر من

---

(١) من الآية ٤٢ من سورة فصلت.

(٢) من الآية ٥٦ من سورة الذاريات.

أموره، ومن أجل اكتمال هذه الشخصية أنزل الله على رسوله ﷺ كتاباً عرفنا جميعاً أموراً أربعة.

١- عرفنا بربنا لنعبده.

٢- عرفنا بأنفسنا حتى لا نغتر، وحدد لنا العلاقة التي يجب أن تكون بين العبد وربه واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار لكي يقوم بالدور المنوط به فها هي الملائكة حين قال لها ربها: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾[١]، فبين لنا المولى من خلال هذا الموقف القرآني أنه سبحانه علم آدم الأسماء كي يتعامل مع ذاته، ومع بني جنسه، ومع الطبيعة والكون الذي يعيش فيه.

٣- عرفنا بالكون الذي نتعامل معه لنسخره.

٤- عرفنا بالمصير الذي سنصير إليه، إما إلى جنة إن هو أجاد هذا الدور وأدى الرسالة على وجهها الصحيح بفعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور وأطاع الله ﷻ في سره وعلانيته في كل أمر من أمور حياته حتى يقول: ﴿**إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ**﴾[٢] أو إلى نار - أعاذنا الله منها- إن عصى الإنسان الله تعالى وأطاع شيطانه وهواه.

والإنسان في هذه الدنيا يكد ويتعب ويجتهد ويجاهد ليجد ثمرة عمله هناك في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ**﴾[٣] والكدح هذا مرتبط بعمره ومدة أجله.

ومن هنا فإن الوقت عنده له قيمة وهو عند المسلم هو الحياة «وما إن ينبثق فجر يوم جديد إلا وينادي منادٍ: يا ابن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد فاغتنمني فإني لا أعود إليك أبداً إلى يوم القيامة»؛ ولذلك لكي يحقق هذه الغنيمة فإنه لا يقوم

---

(١) الآيات ٣٠، ٣١ من سورة البقرة.
(٢) الآيات ١٦٢، ١٦٣ من سورة الأنعام.
(٣) الآية ٦ من سورة الانشقاق.

بعمل ولا يقول قولاً إلا وهو يحاسب نفسه قبل أن يُحاسب: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1].

الوقت ليس من ذهب:

إن الوقت بالنسبة للمسلم ليس من ذهب كما يقول الذين يقيسون الوجود من الناحية المادية ولكنه الحياة؛ لأن حياة الإنسان في هذا الوجود هي الوقت الذي يمضي بين الوفاة والميلاد، فقد يذهب الذهب وينفد ولكنك تستطيع الحصول عليه بعد ذلك بل وأن يكون معك منه أضعاف ما فقدت، ولكن الوقت الذاهب والزمن الفائت لا تستطيع له إعادة أو إرجاعاً.

ولذلك كان أعظم الناس تعرضاً للخسارة والإخفاق أولئك المضيعون لوقتهم الغافلون عن رسالتهم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[2]، فالغافل المعطل لهذه الجوارح ضاع منه وقته وضاع منه يومه وضاع منه نهاره وضاع منه ليله وبالتالي ضاعت منه حياته وسيأتي في هذا اليوم نادماً على الغفلة التي أصابته، أما المسلم اليقظ فدائماً في طاعة لله ﷻ آناء الليل وأطراف النهار؛ ولذلك كان من دعاء الصديق ﷺ: «اللهم لا تدعنا في غمرة ولا تأخذنا على غرة ولا تجعلنا من الغافلين» ومن هنا سأل ربه: «اللهم إني أسألك البركة في الأوقات وإصلاح الساعات». ذلك بأن اللحظات والثواني والدقائق والساعات والأيام إما أن تكون لك أو عليك فإن كانت لك فهي الصديق الودود وإن كانت عليك فهي العدو اللدود.

ولذلك كان على المسلم أن يبتعد عن الأمور الآتية:

الأمر الأول: الثرثرة وعدم إمساك اللسان؛ وذلك لأن المسلم واجباته أكثر من أوقاته فلا ينبغي عليه أن يضيع شيئاً منه ليؤدي رسالته وهو يبلغها للناس، فما

---

(١) الآية ١٨ من سورة ق.

(٢) من الآية ١٧٩ من سورة الأعراف.

أحوجه إلى وقت لتعلم البيان بالإضافة إلى حاجته ليتعلم كيفية عرض هذا التبيان الذي يقدمه للناس مقتدٍ برسول الله ﷺ الذي قال له ربه: **﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾**[١]، فالمسلم بالتبعية له دوره في تبيان هذه الرسالة، ونشر الدعوة، وشرح مفاهيمها، وشرح عقيدتها وعباداتها وضوابط حركتها، ففي كل أمر من الأمور هو مطالب بالتبليغ والتوضيح؛ ولذلك فإننا كأصحاب دعوة نبتعد عن الثرثرة والكلام الذي لا طائل تحته بأي شكل من الأشكال ملتزمين بقول ربنا ﷻ: **﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاءَ مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾** [٢] والمسلم الجاد الذي يرغب في الاستفادة بوقته دائماً يسأل نفسه قبل أن يتكلم: هل هناك داعٍ لهذا الكلام؟ وما فائدة هذا القول؟ وما هو مردوده التعبدي والتربوي والدعوي؟ فيمسك لسانه عن الثرثرة.

يقول ابن مسعود ﷺ: «والذي لا إله غيره ما على ظهر الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان». ويقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:« خمس أحسن من الدُهم الموقذة - يعني الجيد منها: «لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل، ولا آمن عليك الوزر، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً، فرب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فَعِيب»، ويقول: «ولا تماري حليماً ولا سفيهاً فإن الحليم يغريك، وإن السفيه يؤذيك، واذكر أخاك إذا تغيب عنك بما تحب أن يذكرك به، وأعفه عمن تحب أن يعفيك منه، واعمل عمل رجل يرى أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالإجرام».

واستمع إلى نصيحة الرسول ﷺ لأبي ذر يقول: «**عليك بطول الصمت؛ فإنه مطردة للشيطان وعون لك على أمر دينك**»[٣]، لأن الثرثرة حبل في يد الشيطان يقود به الإنسان إلى كل شر، فيقوده إلى الغيبة والنميمة، وإلى الهمز واللمز؛ ولذلك يقول الرسول ﷺ: «**لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسانُهُ**»[٤].

الأمر الثاني: الإعراض عن اللغو فأولى مراحل الاستقامة الإعراض عن اللغو؛

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة النحل.
(٢) الآية ١١٤ من سورة النساء.
(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، والطبراني في المعجم الكبير، والبيهقي في شعب الإيمان.
(٤) رواه أحمد والطبراني في المعجم الكبير والقضاعي في مسند الشهاب.

لأن الإنسان لا يكون مستقيماً إلا أن ينفض يديه مما لا شأن له به هذه أولى الاستقامة، وألا يقحم نفسه فيما لا يُسأل عنه؛ لأن «**مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ**»[١]، فالبعد عن اللغو من أركان الفلاح. وتدبر الآية التي تكلمت عن اللغو تجدها بين فريضتين، بين الصلاة والزكاة يقول ربنا: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ والَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ والَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ**﴾[٢] فأتى باللغو بين فريضتين ليبين أن الأمر جد خطير، والمسلم الذي يصبو إلى الفلاح لا بد أن ينأى بنفسه عن اللغو؛ لأن الإنسان إذالم يشغل نفسه بعظائم الأمور لغى في سفسافها، يقول ﷺ: « **إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يُضْحِكُ بِهَا جُلَسَاءَهُ يَهْوِي بِهَا مِنْ أَبْعَدِ مِنْ الثُّرَيَّا** »[٣]، ويقول ﷺ: «**يهوى بها أبعد ما بين السماء والأرض، وإن المرء ليزل عن لسانه أشد مما يزل عن قدمه**»[٤] فإذا تكلم المرء لا يتكلم إلا بما يرضي الرب وإذا قال للناس قال حسنًا، يقول ربنا: ﴿**وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً**﴾[٥]، لأن القول الحسن هو الذي يحفظ المودة ويديم الصداقة ويمنع كيد الشيطان كما قال ربنا: ﴿**وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ**﴾[٦]، ولا شك أن اللغو يوصلنا إلى الجدل وهو لون من ألوان اللغو الذي لا طائل تحته ولا فوقه، والرسول ﷺ كما بين لنا أن المسلم يعرض عن اللغو فكذلك عليه أن يمسك عن الجدل الذي لا يستفيد منه المسلم؛ لأنه ليس كل الجدل محرم أو مكروه، بل هناك جدل محمود كما قال تعالى: ﴿**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[٧]، ﴿**وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[٨].

لما نزلت آية تحريم الميتة وكان المشركون يأكلون الميتة فجادلوا المسلمين في هذا التحريم وقالوا لهم: «والله إننا نعجب من أمركم تأكلون ما تذبحون بأيديكم وتتركون

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم.
(٢) الآيات ١-٤ من سورة المؤمنون.
(٣) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه والطبراني في المعجم الكبير.
(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان، وابن المبارك في الزهد، وهناد في الزهد.
(٥) من الآية ٨٣ من سورة البقرة.
(٦) من الآية ٥٣ من سورة الاسراء.
(٧) من الآية ١٢٥ من سورة النحل.
(٨) من الآية ٤٦ من سورة العنكبوت.

ما قتله الله» فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[1]، وها هي ذا امرأة تجادل رسول الله ﷺ وسمعها المولى من فوق سبع سماوات: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾[2] ومن هنا فليس كل الجدل مكروه أو ممنوع؛ لأنه إذا كان يعود بالفائدة أو الوصول به إلى الحق أو تبيان بينة وتأكيد حجة فلا شك أنه في هذا الحال مرغوب ومطلوب، يقول رسول الله ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا..»[3]، فالمسلم يمسك لسانه ولا يحركه إلا بما ينفع إلا في حالة مداراة السفيه بشروط منها:

أولاً- إننا لا نعطي الدنية أبداً في حديثنا معه في ديننا بأي شكل من الأشكال، فلنضبط النفس أمام عوامل استقرارها.

ثانياً: إن المولى ﷻ أجازه في القول الذي تعافه نفس المسلم حين يسمع الجهر بالسوء من القول: ﴿لاَّ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾[4]، فإذا أراد أنه يقتص لنفسه ويرد على من أهانه فله الحق ولكن ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[5].

اللدد في الخصومة، لا يجوز للمسلم أن يوصف بهذا الوصف؛ لأنه يخشى من قول رسول الله ﷺ: «أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الأَلَدُّ الْخَصِمُ »[6]، كل هذا الذي ذكرناه من مداخل الشيطان ليقتل وقته؛ ولذلك وجب على المسلم المحافظة على وقته واقتناص الفرص وانتهاز الساعات عبادة لله ﷻ؛ ولذلك كان لابد له من تحصيل العلم النافع الذي يملأ به وقته؛ ولذا كان من دعاء الرسول ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا وَرِزْقًا طَيِّبًا وَعَمَلا مُتَقَبَّلا»[7]، ولما كان الوقت هو الحياة فإنه إذا لم يقض في طاعة الله قُضي في

---

(١) من الآية ١٢١ من سورة العنكبوت.
(٢) الآية ١ من سورة المجادلة.
(٣) رواه أبو داود.
(٤) من الآية ١٤٨ من سورة النساء.
(٥) من الآية ٤٣ من سورة الشورى.
(٦) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.
(٧) رواه أحمد وابن ماجه.

معصيته، وخير استفادة بالوقت هو تحصيل العلم النافع ونقول العلم النافع؛ لأن هناك علوم لا تنفع بل وتضر.

أقسام العلوم:

ولذلك قسم العلماء العلوم إلى:

١- علوم حث الإسلام على تعلمها وأمر بها وأوجب بذل الجهد والوقت في تحصيلها، وهي علوم نافعة تفيده في تأدية رسالته واستخلافه في الأرض كعلم القراءة والكتابة والقراءات والتجويد والنحو والصرف والبلاغة واللغة والعلوم الكونية والكيمياء وعلم النبات وعلم الأحياء والهندسة والحساب والجغرافيا والتاريخ والصناعات المختلفة التي عليها قوام المجتمع وعمارته؛ لأن المسلم مأمور بعمارة الكون أساساً، يقول الشيخ الغزالي رحمه الله: « إننا لو حصرنا الآيات التي تتكلم عن العبادة والعقيدة لن تصل إلى ثلث القرآن بينما عمارة الكون وتنظيمه والنظر فيه والسعي فيه نجد أن معظم آيات القرآن شملت هذه النواحي لكي تعين المسلم على عمارة الكون وهو بتحصيلها عابد لله؛ لأن معنى العبادة أشمل وأعم من أن تحصر في العلوم الشرعية والدينية.

٢- علوم اختلفوا في جوازها كعلم المنطق، فقد ذهب البعض إلى المنع المطلق والبعض الآخر إلى الجواز المطلق يقول الشيخ عبد الرحمن الأخضر في منظومته عن الحكم في علم المنطق:

فابن الصلاح والنووي حرما وقال يوم ينبغي أن يعلما
والقولة المشهورة الصحيحة جـــوازه لكامل القريحة
ممارس الســـــنة والكتاب ليهتـــدي به إلى الصواب

وعلى هذا فالسؤال لتحصيل هذه العلوم التي حث الإسلام على تعلمها وأمر بها أو التي اختلف في جوازها عند الذين يجوزون لا يعتبر خوضاً في باطل ولا مراءً ولا جدلاً طالما أن النية هي تحصيل العلم للاستفادة به.

٣-العلوم التي لم يختلفوا في تحريمها قطعياً وذلك لضررها وخلوها من أي منفعة

تعود على الإنسان كالسحر والرمل والكهانة والودع والتنجيم والشعوذة وكل ما كان سبباً لإثارة الشكوك أو تعلم ما ينشط إلى الشر أو يخدمه وما يثبط عن الخير أو ما يستعان به على الشر، فالخوض فيها ليس من التكلف الذي نهينا عنه، بل هو إثم عظيم وذنب كبير لا يحطه المولى عنه إلا بالتوبة وعدم الاشتغال فيها.

يقول الإمام الغزالي: العلم ثلاثة[1]:

١- قسم محمود قليله وكثيره وهو العلم بالله وصفاته وأفعاله وسننه في خلقه...إلخ.

٢- قسم مذموم قليله وكثيره كالسحر والكهانة والنجوم والودع...إلخ.

٣- قسم لا يحمد منه إلا بمقدار مخصوص مثل: فروض الكفايات.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « **الْعِلْمُ ثَلاثَةٌ فَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ، أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ، أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ** »[2].

ولذلك كان من منهج القرآن في التربية أن نمسك اللسان فيما لا يعنينا وألا نتكلم إلا فيما يفيدنا وأن تكون مناقشاتنا وأسئلتنا ومجادلاتنا بالتي هي أحسن في كل ما يخدم دعوتنا ويحقق رسالتنا: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ**﴾[3]، ذلك لأن وقتك ثمين ومشاركتك في ضياعه إثم مبين.

أمة مجادلة:

لقد ضرب الله لنا المثل بأمة مجادلة هي أمة بني إسرائيل لينبه المسلمين إلى أن اليهود قد احترفوا اللجاجة والجدل العقيم من قديم، وهذا داء أصابهم وأراد القرآن أن ينفر المؤمنين من هذا الداء الوبيل حتى لا يكونوا مثلهم في المماراة واللجاج الباطل، خاصة فيما يتعلق بشريعة الله تعالى حتى تتلقى بالقبول الحسن لا بالمماراة والجدل العقيم.

وانصت إلى القرآن وهو يقول: ﴿**يَسْئَلُكَ أَهْلُ الكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ**

---

(١) إحياء علوم الدين،للغزالي١/ ٦٥.
(٢) رواه أبو داود وابن ماجه.
(٣) من الآية ٦٨ من سورة الأنعام.

السَّمَاء فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ من ذَلكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعقَةُ بظُلْمهمْ ثُـمَّ اتَّخَذُوا العِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلكَ وآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِيناً﴾[١]، وما قصة البقرة منا ببعيد حين قال لهم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾[٢]، فكان الجدال والمراء واللجاجة ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾[٣] ثم قالوا: ﴿إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾[٤]، وفي قصة تحويل القبلة قالوا: ﴿مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾[٥] قال لهم الله: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٦]. وحين علموا أن جبريل هو الذي ينزل بالوحي قالوا ليته ميكائيل الذي ينزل بالنماء والخير.

وهذه دروس لأمة محمد ﷺ الذي قال لهم: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لاتَّبَعْتُمُوهُمْ»[٧] حتى يتركوا ما ارتكبه أهل الكتاب من أخطاء بجدلهم ومماراتهم.

وانظر إلى لفت أنظارهم حين سألوا عن الأهلة. يقول المفسرون في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾[٨] سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إن الهلال يبدو ضعيفاً ضئيلاً ثم يكبر إلى أن يصير بدراً ثم يأخذ في النقص.

فلما كان السؤال لا ينبني عليه عمل أنزل الله ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِـيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾[٩] فعدل بهم ﷻ عن الانشغال بالسؤال عن جرم الهلال إلى الإخبار بما يترتب عليه خلق الهلال من المصالح والأحكام إذ هي المقصود الأعظم من خلق الهلال، يقول الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[١٠].

---

(١) من الآية ١٥٣ من سورة النساء.
(٢) من الآية ٦٧ من سورة البقرة.
(٣) من الآية ٦٧ من سورة البقرة.
(٤) من الآية ٧٠ من سورة البقرة.
(٥) من الآية ١٤٢ من سورة البقرة.
(٦) من الآية ١٤٢ من سورة البقرة.
(٧) رواه البخاري ومسلم وابن ماجه.
(٨) من الآية ١٨٩ من سورة البقرة.
(٩) من الآية ١٨٩ من سورة البقرة.
(١٠) الآية ٥ من سورة يونس.

إذ ما يفيد لو سألنا كما يسأل البعض عن أمور لا ينبني عليها عمل وأمور لا يجب السؤال عنها والتي سألها بعض الناس ودخلوا في منزلق خطير كأصحاب الفرق الإسلامية والتي ضل بعضها بكلامها وأصبحت خارج الملة حين كفرت بالله ﷻ وحين تكلمت كلاماً عظيماً أخرجها من الدين، يقول العلماء: ما فائدة أن تسأل عن الفرق بين الجوهر والعرض؟ وما فائدة أن تسأل هل الصفات زائدة عن الذات أم لا؟ وما عدد أصحاب الكهف بالتحديد؟ وكيف كلم الله موسى تكليماً، أكان الكلام باللفظ والصوت أم ماذا؟ كيف اتخذ الله إبراهيم خليلاً؟ وكيف انعقدت المودة بين الله وبينه؟ ما هي الشجرة التي أكل منها آدم على التحديد؟ كيف تكلم الهدهد وماذا قال؟ وبأي لغة؟ وهل نملة سليمان ذكر أم أنثى؟ كيف شق صدر رسول الله ﷺ؟ وهل كان الإسراء بالجسد والروح أم بالروح فقط؟ أين والدا رسول الله ﷺ: في الجنة أم في النار؟ من هذا الذي أتى بعرش بلقيس؟ وما اسمه؟ من أمثال هذه الأسئلة التي لا تعد ولا تحصى وتثير جدلاً ولا ينبني عليها عمل، فهي لا ينبني عليها حفظ العقيدة أو بيان أداء الفريضة أو تجنبنا الكبائر وتجعلنا نتسامى عن الصغائر أو تتصل بفعل المأمور وترك المحظور...لا شك أنها من باب: ﴿وخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾[1]، ومن هنا كان لابد للمسلم أن ينشغل بما يفيد. يقول الإمام مالك: أدركت هذا البلد- يقصد المدينة - وما عندهم علم غير الكتاب والسنة، فإذا نزلت نازلة جمع الأمير لها من حضر من العلماء فما اتفقوا عليه أنفذوه وأما أنتم تكثرون المسائل في الأمور التي لم تقع بعد وقد كرهها رسول الله ﷺ؛ ولذلك وجدنا بعض العلماء - لا أقول ينهون عن الخوض في مثل هذه المسائل فهذا أمر متفق عليه - ولكن يكرهون المناظرات العلمية ويجعلون لها آداباً يجب على المسلم إن شارك فيها أن يلتزمها.

آداب المناظرة:

كره بعض العلماء المناظرة والجدال في العلم واحتجوا بقول الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلا﴾[2] وقوله: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا﴾[3] فلامهم

(١) من الآية ٦٩ من سورة التوبة.
(٢) من الآية ٥٨ من سورة الزخرف.
(٣) من الآية ٥٤ من سورة الكهف.

على المجادلة وذمهم عليها.

وروت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «**أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الأَلَدُّ الْخَصِمُ**»(١) كما روى أبو أمامة الباهلي عن النبي ﷺ: «**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلا أُوتُوا الْجَدَلَ**»(٢).

وقال بعض أهل العلم: لا بأس بها إذا قصد بها ظهور الحق: ﴿**وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾(٣)، وقوله: ﴿**فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا**﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾(٥).

ولكنهم شرطوا شروطاً منها:

١-أن ينوي بالتعليم الخروج من الجهل.

٢-أن ينوي به إحياء العلم؛ لأن الناس لو تركوا التعلم لذهب العلم كما روي عن الرسول ﷺ قال: « **تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ وَقَبْضُهُ أَنْ يَذْهَبَ أَهْلُهُ أَلا وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنَطُّعَ وَالتَّعَمُّقَ**»(٦).

٣- أن ينوي منفعة الخلق؛ لأن النبي ﷺ قال: «**خير الناس أنفعهم للناس**»(٧).

٤- أن ينوي أن يعمل به لا بخلافه، فالعلم بلا عمل وبال والعمل بلا علم ضلال.

٥- أن يقصد وجه الله ولا يعجب بذاته فإن العجب كالرياء، يقول الإمام

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.
(٣) من الآية ١٢٥ من سورة النحل.
(٤) الآية ٢٢ من سورة الكهف.
(٥) الآية ١٥٨ من سورة البقرة.
(٦) رواه الدارمي.
(٧) رواه الطبراني في المعجم الصغير والأوسط والكبير، والقضاعي في مسند الشهاب.

الشافعي: «وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم حتى أن لا ينسب إليّ حرف منه، ويقول: ما ناظرت أحداً قط على الغلبة ووددت إذا ناظرت أحداً أن يظهر الحق على يديه».

٦- أن يأخذ بوصية لقمان الحكيم لابنه ويلزم نفسه بما دلت عليه ولا يتجاوزها يقول: «لا تجادل العلماء فتهون عليهم ويرفضونك، ولا تجادل السفهاء فيجهلون عليك ويشتمونك، ولكن اصبر نفسك لمن هو فوقك في العلم ولمن هو دونك فإنما يلحق بالعلماء من صبر لهم ولزمهم واقتبس من علمهم في رفق»[١].

فضول الكلام:

يقول الرسول ﷺ: «**أَلا هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**» ثلاثاً[٢]، والمتنطعون هم المتكلفون. يقول ربنا سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿**قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ**﴾[٣].

لقد تربي الصحابة رضوان الله عليهم على عدم التكلف والتنطع، يقول أنس ﷺ: كنا عند عمر ﷺ فسمعته يقول: نهينا عن التكلف حتى إنه رضي الله عنه كان يمر يوماً فسقط عليه شيء من الميزاب ومعه صاحب له فقال: يا صاحب الميزاب ماؤك طاهر أم نجس؟ فقال عمر: لا تخبره ومضى.

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدول ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»[٤].

ويقول الإمام النووي:«واعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلام ظهرت فيه المصلحة وحتى الكلام وتركه في المصلحة فالسنة الإمساك عنه لأن الكلام المباح قد يجر إلى حرام أو مكروه؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «..**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»[٥]

---

(١) العلم والعلماء، للشيخ أبو بكر الجزائري، ص٣١.
(٢) رواه أحمد ومسلم وأبو داود.
(٣) الآية ٨٦ من سورة ص.
(٤) رواه الطبراني في مسند الشاميين، وابن حبا ن في الثقات، وابن عدي في الكامل.
(٥) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وهذا صريح في أنه ينبغي ألا يتكلم إلا إذا كان الكلام خيراً وهو الذي ظهرت فيه المصلحة ومتى يشك في ظهور المصلحة فلا يتكلم، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **إنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**»[١] وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: « **مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ**»[٢].

يقول المولى ﷻ: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ**﴾[٣] إلى آخر هذه الآيات التي تجعلنا نتساءل: من هؤلاء الذين كتب الله لهم هذه الوثيقة ووعدهم هذا الوعد وأعلن هذا الإعلان عنهم؟

من هؤلاء: ﴿**..الْوَارِثُونَ ۞ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[٤]، هذه صفاتهم وهذه هي السمات التي يتميزون بها ومنها إمساك اللسان عن لغو الكلام ولغو الفعل، بل ولغو الشعور؛ ذلك لأن قلب المؤمن مشغول بأشياء كثيرة لا يجب عليه أن ينشغل بأمر غير هذه الأمور التي منها مثلاً الانشغال بذكر الله ﷻ وتدبر ما في الأنفس وما في الكون: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ**﴾[٥]، ومنها أيضًا ما يشغله من هموم المسلمين وحالهم الذي نعيشه؛ فمن هذا الذي ينشغل بسفاسف الأمور وهو يرى ما يحدث في بلاد المسلمين؟ إنه ينشغل بالأمور الجسام ويضع يده في يد إخوانه كي ينقذ المسلمين من حالهم الذي ترددوا فيه، فيستخدم اللب ويشغل الفكر في أمر المسلمين ومعاصيهم فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويصبر على البلاء الذي يصيبه فيبعد عن الجدل والمراء، والغضب واللغو واللهو وينشغل بالبناء والتعمير والإصلاح ولا يضيع وقته أبداً فيما لا طائل

---

(١) رواه أحمد والبخاري.
(٢) رواه أحمد والبخاري والترمذي.
(٣) الآيات ١،٥ من سورة المؤمنون.
(٤) من الآيات ١٠، ١١ من سورة المؤمنون.
(٥) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران.

تحته، وليس معنى ذلك أن المسلم لا يروح عن نفسه ساعة ولكنه حتى الترويح لا يكون إلا لتجديد النشاط ثم مواصلة العمل، وهو بذلك يضع أمام ناظريه قول الرسول ﷺ: «**لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلاهُ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا وَضَعَهُ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ**»[1]، لو تأملنا هذا الحديث لوجدنا أن الرسول ﷺ يوجهنا فيه لاقتناص الوقت في كل ثانية ودقيقة؛ لأن المولى ﷻ سيسألنا عنه في ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ ۞ إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾[2] واسمع إلى ما يقوله غير المسلمين حول هذا الموضوع:

يقول كسرى: «إذا قلت ندمت وإذا لم أقل لم أندم»، **ويقول قيصر**: «أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت»، **ويقول ملك الصين**:«إن تكلمت بالكلمة ملكتني وإن لم أتكلم بها ملكتها».

ويقول أبو سعيد: «إذا أصبح ابن آدم قالت الأعضاء كلها للسان: اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا»، وأتى عمر بن الخطاب ﷺ على أبى بكر الصديق ﷺ فوجده يمسك لسانه ويشده شداً فقال عمر: مه غفر الله لك، فقال أبو بكر: إن هذا أوردني الموارد.

ولذلك قالوا: أحسن الكلام ما كان قليله يغني عن كثيره وما دار معناه في رمزه فليست البلاغة بكثرة الكلام ولا بخفة اللسان ولا بكثرة الهذيان ولكنه إيصال المعنى والقصد إلى الحجة، يقول الإمام الشافعي رضوان الله عليه وأرضاه: ما ناظرت أهل الكلام إلا مرة وأنا أستغفر الله من ذلك، يستغفر الله من الوقت الذي قضاه وهو يجادل أهل الكلام وهذا يذكرنا بحديث الرسول ﷺ الذي رواه أبو داود قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب إلى الخلاء وخرج منه قال «**غفرانك**» ويعلق أبو داود على هذا القول: «غفرانك»، يعني أطلب منك المغفرة لأنه وهو يقضي حاجته يمسك لسانه عن ذكر الله فالرسول ﷺ يطلب المغفرة من الله عن وقت قضاه في قضاء حاجته ولم يذكر الله فيه ﷻ وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة أن الرسول ﷺ نهى عن قيل وقال

---

(١) رواه الترمذي والدارمي.
(٢) الآيتان ٨٨،٨٩ من سورة الشعراء.

وإضاعة المال وكثرة السؤال[١].

أصالة المنهج الإسلامي:

إن أصالة المنهج الإسلامي وواقعيته جعلت من كل مسألة لا ينبني عليها عمل نافع الخوض فيها مضيعة لوقت لا طائل من ورائه؛ لأن كل فكرة لا تتحول إلى واقع يتمثل في عمل صالح يعتبر لهواً أو لغواً في نظر الإسلام، ومن أجل ذلك وجدنا القرآن الكريم يمنع صراحة الخوض النظري في مسائل العقيدة ويدعو إلى تجنب جعل المباحث الدينية ألعوبة للاستدلالات والمناقشات المجردة، قال تعالى: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[٢]، وإنا نجد في إعراض الرسول ﷺ عن سؤال الأعرابي عن زمن الساعة وإجابته الحازمة له: «**مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**»[٣] فهو ﷺ ينقله من الجدل والنقاش إلى الجانب العملي التطبيقي الذي سيعود عليه بالنفع، وفي هذا دلالة تربوية هامة فهي تدعم المسلك القرآني الدافع إلى ميادين العمل والبناء.

ولقد أراد الرسول ﷺ أن يلقن السائل ومن ورائه كل الأمة أن البحث في قضايا الساعة وموعدها خروج عن المنهج الإيجابي الذي زكاه الإسلام والذي ينزع إلى ملء حياة المسلمين بما يصلح أحوالهم ويؤهلهم للفوز بنعيم الآخرة.

الخوض في القدر وبعض معاني القرآن:

حين يكثر الجدل والمراء ولا يمسك الإنسان لسانه عن الخوض فيما لا يفيد، فإنه يتكلم الكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم، فهذا أحدهم يقول: كيف يكتب الرب علينا الشقاء ويعذبنا بالنار؟!. ويقول آخر: يخلق الله إبليس ويسلطه على الناس، ثم يعذب من أطاعه بالنار، والذنب ذنب الذي خلق إبليس!! كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا إنهم وهؤلاء مجوس هذه الأمة.

لهذا كله فالخوض في قضايا القدر منهي عنه وربنا ﷻ ﴿**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ**

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) من الآية ٦٨ من سورة الأنعام.
(٣) رواه البخاري ومسلم.

﴿يُسْأَلُونَ﴾[١] وهذا رسول الله ﷺ يوجه العقل لكي يفكر التفكير السليم فيقول: «**تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذات الله**»[٢] في رواية: «**فتهلكوا**»، وفي رواية «**فإنكم لن تقدروا قدره**»، وعن طارق بن شهاب قال: جاء يهودي إلى عمر بن الخطاب ﷺ وقال له: «أرأيت قوله تعالى: **﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾**[٣] فأين النار؟ فقال عمر لأصحاب محمد ﷺ: أجيبوه. فلم يكن عندهم فيها شيء. فقال عمر: أرأيت إذا جاء الليل يملأ الأرض فأين الآخر؟ فقال له:حيث شاء الله، فقال عمر: والنار حيث شاء الله. فقال اليهودي والذي نفسي بيده يا أمير المؤمنين إنها لفي كتاب الله المنزل كما قلت»[٤].

من أجل ذلك كان الصحابة لا يخوضون في القدر ولا في المسائل الجدلية العقيمة ولا التفريعات الكثيرة حتى أنه يحكى أن عمر بن الخطاب ﷺ حين أتاه رجل قد سرق فقال له: ما حملك على السرقة؟ قال: حملني عليها قضاء الله وقدره قال: وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره، ولم يخض معه في مقولته ولم يجادله فيما قال.

عدم الكلام في المفاضلة بين الصحابة ولا فيما شجر بينهم:

ومن هذا الباب أيضًا عدم الخوض في الخلاف بين الصحابة فيما لا طائل تحته، ولا ينبغي الخوض في هذه الخلافات. ولقد سئل بعض العلماء عما وقع من خلاف بين الصحابة فقال: «تلك دماء قد طهر الله منها أيدينا فلا نلوث بها ألسنتنا، وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته».

وسئل الحسن البصري عن قتالهم فقال: قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغبنا عنه وعلموا وجهلنا اجتمعوا فاتبعنا واختلفوا فوقفنا.

قال المحاسبي: «فنحن نقول كما قال الحسن ولا نبتدع رأيًا منا ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا وجه الله ﷻ»[٥].

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة الأنبياء.
(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، والأصبهاني في العظمة، والذهبي في ميزان الاعتدال.
(٣) من الآية ١٣٣ من سورة آل عمران.
(٤) نقلا عن حياة الصحابة، للكاندهلوي، ٣/ ٢٩.
(٥) تقدم تخريجه.

وصدق الله إذ يقول: ﴿**لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ**﴾[١] وصدق الرسول ﷺ إذ يقول لمعاذ: «**وأخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان**»[٢] فإن الإنسان لا يغلب الشيطان إلا بالسكوت.

يقول الإمام النخعي: يهلك الناس من فضول الكلام والمال. وهذا معنى ما قاله الرسول ﷺ إذ يقول: «**طوبى لمن أنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من لسانه**»[٣] ذلك أن نطق اللسان يدخل فيه الشرك وهو أعظم الذنوب، ويدخل فيه القول على الله بغير علم؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ قِلَّةَ الْكَلامِ فِيمَا لا يَعْنِيهِ**»[٤] ولقد دخلوا على صحابي في مرضه ووجهه متهللاً فسألوه عن سبب ذلك فقال: ما من عمل أوثق عندي من خصلتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، وكان قلبي سليماً للمسلمين.

ويقول الحافظ ابن رجب: إن كف اللسان وضبطه وحبسه هو أصل الخير وأن من ملك لسانه فقد ملك أمره وأحكمه وضبطه.

واللسان له عبوديات:

عبودية واجبة: لابد أن يؤديها، لأن واجب اللسان: النطق بالشهادتين وتلاوة ما يلزم تلاوته من القرآن والتلفظ بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر بها رسوله ﷺ، في الركوع والسجود والتشهد ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل وإرشاد الضال وأداء الشهادة متعينة على الشخص نفسه، وهذه كلها أمور يسمونها عبودية اللسان وهي أن ينطق بهذه الأشياء جميعاً.

أما العبودية المستحبة كتلاوة القرآن ودوام ذكر الله والمذاكرة في العلم النافع وتوابع ذلك كله.

أما العبودية المحرمة على اللسان: النطق بكل ما يبغض الله تعالى ورسوله ﷺ كالنطق

---

(١) الآية ١١٤ من سورة النساء.
(٢) رواه الطبراني في الصغير، وأبو يعلى في مسنده، والقضاعي في مسند الشهاب.
(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى وشعب الإيمان، والطبراني في المعجم الكبير ومسند الشاميين.
(٤) رواه أحمد.

بالبدعة والدعوة إليها وتحسينها والقذف وسب المسلم وكل ما من شأنه أن يغضب المولى ﷻ كالكذب وشهادة الزور والقول بغير العلم، ومنها أيضًا التكلم بأمور تركها خير من التكلم بها مع عدم العقوبة عليها، وفضول الكلام اختلف العلماء في المباح منه وقالوا: إنه ليس هناك كلام متساوي الطرفين، يقول رسول الله ﷺ: «**كُلُّ كَلامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لا لَهُ إلا أَمْرٌ بِمَعْرُوف أَوْ نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ أَوْ ذِكْرُ اللَّهِ**»[1]، «**وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إِلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»[2].

منهج الإمام البنا رضوان الله عليه في هذا الموضوع:

بعد هذا العرض كله نود أن نركز على منهج الإمام البنا في هذه الأمور نفسها، فللإمام البنا منهج متميز معروف، فهو يعلمنا كيف نستغل الوقت فيما يفيد، وكيف نبين دعوتنا دونما إضاعة للوقت في أمور لا طائل تحتها؛ فكان من منهجه في الدعوة الاعتماد على طريقة القرآن وسبيل الرسول ﷺ في بناء الرجال؛ لذا كان يهتم بأثر العقيدة في بناء الرجال وينفق في ذلك جل وقته، أما علم العقيدة فربما نجده في رسالة مثل رسالة العقائد معدودة الصفحات مركزة المعنى، وكان يبتعد عن التعمق في الألفاظ أو التشعب في البحوث وإيراد الآراء المذهبية الكثيرة وكان لا يخوض في مصطلحات الفلاسفة والمناطقة والكلاميين والجدليين وهذه هي طريقة السلف الصالح رضوان الله عليهم وأرضاهم التي كان يتبعها الإمام البنا رضوان الله عليه وأرضاه؛ لأن بيان آثار هذه العقائد في النفوس تعلم الإنسان أين هو من درجة استيلاء هذه العقيدة والإسلام عليه وعلى نفسه وكيف تأثر بها؛ ولذلك حين أراد أن يكتب في مجلة [المسلمون] بيَّن هذا المنهج الطيب الذي كل كلمة فيه ينبني عليها عمل، ويبعد عن الأمور الجدلية التي لا تفيد، حتى إنه سجل بخط يده في منهجه ما يجب الابتعاد عنه ومنه:

أولاً – البعد عن التفريعات والفروض.

ثانياً – عدم استعمال الألفاظ الاصطلاحية الغامضة ما أمكن.

ثالثاً– سهولة العبارة وبساطتها.

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه.
(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.

رابعاً- مزج الأحكام الفقهية بما يذهب جفافها من الفوائد والأسرار وحكم التشريع؛ لأن هذا الجانب -حقيقة- هو الذي يؤثر على العقل علماً وعلى الروح مشاعراً وهذا هو منهج القرآن فليس من آداب الإسلام أن تجلس مع الذين يخوضون في آيات الله ويضيعوا الوقت في السؤال عن أمور لا ينبني عليها عمل -كما قلنا- ويخوضون في هذه الأمور التي حذرنا منها فقال: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُواْ﴾(١) فالمسلم بدل أن يجلس مع هؤلاء الذين نهى المولى عن مجالستهم في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ﴾(٢) فإنه يجلس ويصبر مع الطائعين كما أمرنا ربنا: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَه عن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾(٣).

فمسألة الوقت والحرص عليه أمر نبه إليه العلماء حتى شبهوه بالسيف البتار، وقالوا: الوقت سيف بتار حاد تأخذه بحقه أو يقطعك، ويقول ابن الجوزي: «كن في الدجى نادماً، وقف على الباب تائباً، واستدرك من العمر ذاهباً، ودع اللهو والهوى جانباً وإذا لاح الغروب رأي راهباً فطلق الدنيا إن كنت للأخرى طالباً». وقال حكيم: «من لم يمض يوماً من عمره في حق قضاه أو فرض أداه أو مجد أثله-يعنى ورثه- أو حمد حصله أو خير أسسه أو علم اقتبسه فقد عق يومه وظلم نفسه».

هكذا المسلم ينشغل دائماً بوقته ويقضيه فيما يفيد نفسه وأهله وبني وطنه، بل الإنسانية جمعاء. ولقد أدرك البعض أهمية الوقت حتى إنهم نحتوا علماً سموه «إدارة الوقت»، أُلفت فيه المؤلفات وكتبت فيه الكتب وعملت فيه الدورات وإن كان هذا العلم قصد به خدمة التجارة والصناعة والأعمال المعيشية وزيادة خبرة رجال الأعمال وكيف يستغلونه فيما يجلب عليهم المنافع المادية، ونحن المسلمين أولى الناس بتعلم كيفية إدارة الوقت وكيف أن الله ﷻ علمنا تنظيمه من خلال الأوقات الخمس موزعة على اليوم والليلة، فالحج له أيام معدودة والصيام له

(١) من الآية ٦٩ من سورة التوبة.
(٢) من الآية ٦٨ من سورة الأنعام.
(٣) الآية ٢٨ من سورة الكهف.

شهر معلوم، وكذلك كل أمر من الأمور في حياة المسلم منظم دقيق لتحقيق رسالته على الأرض، يقول الجاحظ محذراً المتحدث وناصحاً له: وأنا أحذرك من اللجاج والتتابع في الأمر - يعنى السير فيه على خلاف الناس- وأرغب إلى الله لك في السلامة من التلون والتزين والاستطراف والتكلف، فإن اللجاج لا يكون إلا من خلل القوة وإلا من نقصان قد دخل على التمكين.

يقول رسول الله ﷺ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**»[١]، ويعلق ابن بطان الفقيه على الحديث وعلى قول رسول الله ﷺ:كثير من الناس أي أن الذي يوفق لذلك قليل، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملهما في معصية الله فهو المغبون؛ لأن الفراغ دائماً يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقم فإما أن تكون الصحة والفراغ في صالحك أنت وإما أن تكون عليك، والحسن البصري يقول: «أدركت أقواماً كان أحدهم أشح على عمره»، كما أن ابن القيم يشير إلى إضاعة القلب وإضاعة الوقت فيقول: «سبب كل بلية إضاعة القلب من إيثار الدنيا على الآخرة، وإضاعة الوقت من طول الأمل، فاجتمع الفساد كله باتباع الهوى وطول الأمل، والصلاح كله في اتباع الهدي والاستعداد للقاء الله.

فالمسلم يعقل لسانه إلا عن: باطل يدفعه أو حكمة ينشرها أو نعمة يذكرها، قال العلماء: رأس مال العبد أوقاته، فالمفروض ألا يصرفها فيما لا يعنيه، فإما أن يصرفها فيما يفيد أو يدخرها لوقتها.

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: « **مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلا أُوتُوا الْجَدَلَ**»[٢].ثم قرأ: ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾[٣]، وقول ربنا: ﴿**فَأَمَّا الَذينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ومَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ**﴾[٤]، قالوا هم أهل الجدل الذين عناهم الله.

---

(١) رواه أحمد والبخاري والترمذي.
(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.
(٣) من الآية ٥٨ من سورة الزخرف.
(٤) من الآية ٧ من سورة آل عمران.

الأمور التي تساعد المسلم في استغلال وقته:

١-**معرفة أهمية الوقت:** لأن فهم القضية جزء من العلاج وفهم الأمر دافع ومثير للإنسان أن يضعه موضع التنفيذ كما يقول ابن عباس رضي الله عنه: «يا ابن آدم إنما أنت أيام كلما ذهب يوم ذهب بعضك» فكيف تضيعه؟

٢- **الزهد في الدنيا:** وما الدنيا؟ قال الرسول ﷺ: «**إن الله لا يحب كل جعظري جواظ صخاب بالأسواق جيفة بالليل حمار بالنهار عالم بأمور الدنيا جاهل بأمور الآخرة**»[١] ونحن لا ندعو إلى ترك عمارة الدنيا، كيف والرسول ﷺ يطلب منا استغلال آخر دقيقة في حياتنا فيقول: « **إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ**»[٢] وفي نفس الوقت لا تكن الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولكن تشغلنا الآخرة ومن شغلته الآخرة عمَّر دنياه.

٣- **الخوف من الله:** الخوف من الله سيدفعك إلى الطاعة وطاعة الله تأمرك بعمارة الكون وعمارة الكون تقتضي العمل لا الجدل.

٤- **تنوع أنشطتك:** ولكي ينجح المسلم في ذلك عليه أن يتدبر قول رسول الله ﷺ: « **إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ** »[٣]، ساعة وساعة، وهذا التنوع يدفع الإنسان إلى استغلال الوقت استغلالاً مفيداً.

٥- **ترتيب الأولويات:** فترتيب الأولويات بالنسبة للمسلم أمر واجب؛ حتى لا يضيع وقته في أمر مهم ويترك الأهم.

٦- **تنمية الهمة العالية:** يقول ربنا: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[٤].

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في السنن الكبرى.
(٢) رواه أحمد.
(٣) رواه البخاري.
(٤) من الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.

٧- **معرفة قيمة شبابك**: استفراغ وقت الشباب في طاعة الله، فلم لا تنتهز هذه الصحة، وهذه القوة وهذه الفتوة فتوجه الطاقات وتحافظ على الأوقات وتعمل بتوجه رسول الله ﷺ.

٨- **وأخيراً الدعاء لله ﷻ أن يبارك في الأوقات: قال بعض السلف**: يكون آخر الزمان قوم يغلق عليهم باب العمل ويفتح عليهم باب الجدل ويقول رسول الله ﷺ: «**لا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا به الْعُلَمَاءَ أَوْ لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ لِتَصْرِفُوا وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ فِي النَّارِ**»(١).

نلزم الجماعة ففيها النجاة من هذه الأمراض جميعاً واسمع إلى قول رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمْ الْجَمَاعَةَ**»(٢) ويقول عليّ ﷺ: «كدر الجماعة خير من صفو الفرد». ويقول المُزني رحمة الله عليه: سمعت الشافعي ﷺ يقول: ليس لأحد إلا وله محب ومبغض فإذا كان لابد من ذلك فليكن المرء مع أهل طاعة الله ﷻ.

* * *

(١) رواه الترمذي وابن ماجه واللفظ له والدارمي.

(٢) رواه أحمد والترمذي.

مردود الأصل التاسع

أولاً: حصيلة العقل:

أ- اختر الإجابة الصحيحة (من الممكن أن تكون أكثر من إجابة صحيحة):

١- من التكلف الذي نهينا عنه:

أ	السؤال عن حكم مالم يقع بعد	ب	تفسير القرآن بنظريات علمية لم تثبت
ج	المفاضلة بين الصحابة	د	جميع ما سبق

٢- قسم العلماء العلوم من حيث حكم دراستها والانشغال بها إلى:

أ	مندوبة وجائزة.	ب	جائزة ومحرمة.
ج	مندوبة ومحرمة	د	مندوبة وجائزة ومحرمة.

٣- من أمثلة العلوم التي اختلف العلماء على جوازها:

أ	الكيمياء وعلم النبات	ب	المنطق
ج	الرمل والكهانة	د	التجويد والنحو

٤- من أمثلة الأسئلة التي لا ينبني عليها عمل:

أ	متى الساعة؟	ب	ماهية الروح؟
ج	ما دور المسلم في الحياة؟	د	كيف كلم الله موسى عليه السلام؟

ب- ضع (أ) أما العبارة الصحيحة و (ب) أمام العبارة الخطأ فيما يلي:

٥	من المقبول شرعًا بحث الخلاف بين الصحابة لتحديد المخطئ من المصيب.	
٦	قيمة الوقت عند المسلم تعدل الذهب.	
٧	كره بعض العلماء المناظرة والجدال في العلم.	
٨	من شروط المناظرة العلمية أن يقصد بها نفع الناس.	
٩	كل كلام لا ينبني عليه عمل يعتبره الإسلام لغوًا.	

قارن إجاباتك بالإجابات النموذجية في آخر مردود الأصل، وأعط نفسك درجة لكل إجابة صحيحة وصفرًا للإجابة الخاطئة.

أكثر من ٩	٨-٩	٧	٦	أقل من ٦
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثانيًا: رصيد القلب:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	لا يغيب عني أن الوقت هو الحياة.					
٢	أكره أن أضيع وقتي في الخوض فيما لا ينبني عليه عمل.					
٣	لا أشغل نفسي بالسؤال عن تفريعات لأحكام لم تقع بعد.					
٤	لا أتحرج من الربط بين قطعي العلم وقطعي القرآن.					
٥	يؤلمني أن أرى أحد يخوض فيما دار بين الصحابة من نزاع.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٧	١٥- ١٧	١٣- ١٤	١٠ – ١٢	أقل من ١٠
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثالثًا: حساب الجوارح:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	لا أضيع وقتي في الخوض فيما لا ينبني عليه عمل.					
٢	لا أسأل عن تفريعات الأحكام التي لم تقع بعد.					
٣	ألفت انتباه الناس إلى ما ثبت حقيقته من العلم وأشار إليه القرآن.					
٤	لا أخوض فيما دار بين الصحابة من خلاف ونزاع.					
٥	أوضح لمن حولي فضل ومكانة كل صحابة النبي ﷺ.					
٦	أحرص على استثمار وقتي في كل نافع مفيد.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ٢٠	١٨-٢٠	١٥-١٧	١٢-١٤	أقل من ١٢
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

إجابات حصيلة العقل (٩)

السؤال	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
أ				✓			✓	✓	✓
ب			✓	✓	✓	✓			
ج									
د	✓	✓		✓					

الأصل العاشر

أسمى عقائد الإسلام

«معرفة الله تعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام، وآيات الصفات، وأحاديثها الصحيحة وما يلحق بذلك من المتشابه، نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء ويسعنا في ذلك ما وسع رسول الله ﷺ وأصحابه ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[1]»[2].

---

(١) من الآية ٧ من سورة آل عمران.

(٢) مجموعة الرسائل، للشهيد حسن البنا، رسالة التعاليم، ص٢٦٩.

هذا الأصل يعالج:

١- قضية الأسماء الصفات.

٢- آراء الفرق الإسلامية فيها.

٣- رأي السلف الصالح الذي ندين به.

هذه قضية كثر فيها اللغط والغلط، وكثر فيها الحديث واختلطت فيها المفاهيم وكثر فيها الكلام واتهُم فيها علماء أفاضل ومجاهدون باعوا أنفسهم رخيصة في سبيل الله وممن اتهُم فيها الإمام البنا- رحمة الله عليه- فهو مرة جهمي وثانية من المفوضة وثالثة من المبتدعة وما أكثر ما قيل عن هذا العالم الجليل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وللأسف فإن أصحاب هذا الاتهام من ذوي القربى الذين أمرنا أن نصل أرحامهم الدينية وممن يدعون إلى الله ويسيرون طريقه رجال لا نتهم نياتهم ولكن نعتب عليهم فيما يقولون وما يرمون به من تهم لا جذر لها ولا ساق؛ لأنهم لم يتبينوا وظنوا أن ما يقولونه هو الحق الذي يجب أن يُرجع إليه وليس الصواب الذي يحتمل الخطأ، وكما قال علماء الأمة رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.

ولا شك أن القضية شأنها عظيم؛ لأنها تتصل بالعقائد، وهي أهم العلوم على الإطلاق بالنسبة للمسلم؛ لأن الاعتقاد الصحيح والسليم أمرٌ لازم للمسلم قبل أن يعزم على أي سلوك؛ ذلك لأن العقيدة هي أساس التصور السليم وهي الدافع لأي تصرف أو سلوك فإن كانت العقيدة فاسدة كان السلوك التابع لها كذلك، وإن كانت صحيحة كان السلوك المنبثق منها صحيحًا بإذن الله.

ذلك لأن أنواعاً كثيرة من الانحرافات في الفكر والتصور والسلوك والاعتقاد لم يكن لها سبب إلا البعد عن فهم أصول هذا الدين؛ ولذلك فإن هناك بعض الإخوة الذين لم يفرقوا بين أصول العقيدة وبين فروعها فالأمر عندهم سواء بينما علماء الأمة فرَّقوا بين أصول العقيدة وفروعها، وأضرب لك مثلاً لتستبين الأمر فالإسراء من حيث حدوثه أصل لا يختلف فيه مسلم، أما كيفيته: هل بالروح أم بالجسد، فهو فرع

من الاعتقاد، ولذلك يختلف الحكم بإنكار كل منهما، فالذي ينكر أصل حدوث الإسراء ليس كمن ينكر كيفيته بالروح أو بالجسد فهذا خلاف بين العلماء واضح، وذاك أمر مجمع عليه؛ لأنه من العقيدة، ومثال آخر وهو أننا كمسلمين نعلم أن عيسى عليه السلام رسول الله وكلمته وهذا الاعتقاد لا يستطيع مسلم أن ينكره أو ينكر رسالته فهو أصل من أصول العقيدة عند المسلمين جميعًا، أما رفعه فهو فرع من الاعتقاد اختلف فيه العلماء، ولذلك فهما لا يستويان حكماً. فمن البديهيات أن هناك أصولاً لابد أن نجتمع عليها جميعاً كما أن هناك فروعاً قد نختلف فيها؛ ولهذا فإن العلماء وضعوا شرطين أساسيين لقبول العمل ألا هو صحة الاعتقاد أولاً مع صدق الاتباع ثانياً.

وهذا هو السبب الرئيسي الذي بسببه ما جاء رسول ولا نبي إلا وأوضح أصل العقيدة في دعوته: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[1] ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة وهذا ما دعى به كل نبي كأصل من أصول الاعتقاد ما خالف في ذلك نبي ولا رسول.

فلو شاب هذه العقيدة في أصولها أي شائبة لأدى ذلك إلى الانحراف وإلى إبطال العمل: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[2] وذلك لأن أي انحراف عن أصول العقيدة الصحيحة انحراف عن الإيمان نفسه الذي قد يؤدي إلى إبطال العمل: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا﴾[3] فالاختلاف في أصول العقيدة اختلاف كفر وإيمان، أما الاختلاف في فروعها فهو اختلاف صواب وخطأ وشتان ما بين الاثنين؛ ولذلك لم يختلف العلماء في أصول الاعتقاد ولكن اختلافهم كان في فروع العقيدة فحسب.

مسلك الأنبياء في تقديم العقيدة:

والذي نريد أن نؤكد عليه أن مسلك الأنبياء والرسل في تقديم العقيدة لم يكن تقديماً نظرياً ولا تجريبياً ولا مصطلحياً إنما كان منهجاً متحركاً باعثاً للحياة الأفضل

---

(١) من الآية ٢٥ من سورة الأنبياء.
(٢) من الآية ١١٠ من سورة الكهف.
(٣) من الآية ٢٣ من سورة الفرقان.

التي ينشدها كل عامل في مجتمعه؛ ولذلك كان التقديم لها يتصل بواقع المجتمع الذي يعيشونه.

فالعقيدة إذن حين قدموها إنما قدموها ليعالجوا بها مشكلات كانت مستأصلة في زمانهم ولم يقدموها على أنها علم مجرد يجب أن يحفظ ومصطلحات يجب أن تحدد وينتهي الأمر بهذا العلم.

فنوح عليه السلام قال لهم: ﴿اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾[1] ليستقيم سلوكهم وتصورهم ويعرفوا مصدر الخير لأنفسهم ولبلادهم، لكن لما وجد إعراضاً من هؤلاء القوم وتصوروا أن الخير يأتي من غير طريق الله تعالى وصموا آذانهم و﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾[2]، أراد سيدنا نوح عليه السلام أن يبين لهم أن هذا الإصرار ليس فيه خير وأن الخير يأتي بالذكر والاستغفار ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ۞ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً ۞ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً﴾[3] فلما استكبروا ردهم إلى الصواب: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ۞ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ۞ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً ۞ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ۞ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً ۞ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ۞ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً ۞ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً﴾[4]، وهكذا بهذه العقيدة عالج خللاً في الرءوس لكي يستقيم تفكيرها كي تفكر تفكيراً سليماً وترتب عقلها ترتيباً ربانياً لتعي معنى العبودية «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ»[5].

وهود عليه السلام هو نفسه قالها: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[6] ليعالج بها خللاً وانحرافًا في مجتمعه، فقومه غرتهم قوتهم المادية، وعاثوا في الأرض فساداً بما يملكون من قوة مادية، وهذه القوة المادية التي ملكوها ظنوا أنهم أصبحوا بها أقوى من أي قوة أخرى على هذه الأرض فقال لهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۞ وَتَتَّخِذُونَ

---

(١) من الآية ٥٩ من سورة الأعراف.
(٢) من الآية ٧ من سورةنوح.
(٣) الآيات ١٠-١٢ من سورة نوح.
(٤) الآيات ١٣-٢٠ من سورة نوح.
(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده.
(٦) من الآية ٥٩ من سورة الأعراف.

مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۞ وإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[(١)] ليعيدهم إلى رشدهم ويصحح لهم تصوراتهم فيستقيم حالهم.

وكذلك عالج صالح عليه السلام بالعقيدة الحضارة المادية أيضًا التي سادت في مجتمعه، فلفت أنظارهم إلى فساد تفكيرهم قائلاً لهم: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[(٢)]، إنه التركيز على صحة منهج التفكير.

وأما لوط عليه السلام فقد عالج بها التحلل الأخلاقي والانحراف الذي ساد مجتمعه يقول لهم: ﴿أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ العَالَمِينَ ۞ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[(٣)]

ولم يختلف عن هذا المنهج سيدنا شعيب عليه السلام فعالج بها مشكلة اقتصادية في مجتمعه متمثلة في تطفيف الكيل والميزان، فلفت نظرهم إلى الداء قائلاً: ﴿أَوْفُوا الكَيْلَ ولا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ۞ وزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۞ ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ولا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[(٤)].

وجاء موسى عليه السلام فعالج بها ثلاثة أنواع من الطغيان: الطغيان السياسي متمثلاً في فرعون، والطغيان المالي متمثلاً في قارون، والبطانة الفاسدة متمثلة في هامان، ثم جاء عيسى عليه السلام متمماً لما جاء به موسى عليه السلام ومصححًا انحرافات ارتكبوها: ﴿وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[(٥)].

من هذا الاستعراض السريع نجد أن قضية الاعتقاد حين ترسخ في القلوب وتعيد التفكير إلى صوابه فإنها تغير السلوك وتعالج أمراض القلوب فليست العقيدة مساجلة ولا مناظرة ولا أمراً تجريدياً إنما هي أمر قلبي بها يتغير القلب فتتغير أحوال

---

(١) الآيات ١٢٨- ١٣٠ من سورة الشعراء.
(٢) من الآية ٧٤ من سورة الأعراف:٧٤]
(٣) الآيات ٨٠، ٨١ من سورة الأعراف.
(٤) الآيات ١٨١- ١٨٣ من سورة الشعراء.
(٥) من الآية ٥٠ من سورة آل عمران.

الناس ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(١).

ولما أرسل محمد ﷺ ما كان بدعاً من الرسل إنما جاء بهذه العقيدة -عقيدة التوحيد- كمنهاج حياة كامل؛ لأنه الدين الخاتم فكانت رسالته مستوعبة مناحي الحياة جميعاً اقتصادية واجتماعية، وسياسية وتعليمية، وأخلاقية وفكرية وأسرية وفردية وما كانت هذه الرسالة إلا لتحق الحق وتبطل الباطل ويسود الأمن والأمان والسلام ولتكون ﴿كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾(٢) وكلمة الله التي جاء بها رسول الله ﷺ كانت شاملة لكل أمر من الأمور ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾(٣).

فإذن قضية العقيدة كما رأينا جاءت لكي تعالج فساداً موجوداً في المجتمع فيه الربا والخنا والخمر والميسر والأصنام بل والشرك الأكبر والتمييز بين أفراد الأمة بين الأبيض والأسود والعربي والعجمي فكانت لا إله إلا الله محمداً رسول الله ﷺ هي العلاج الناجع لكل هذه الأوضاع والأسقام، ومن هنا رأينا رسول الله ﷺ أول ما اهتم، اهتم في مكة بتغيير القلوب لتتوجه إلى الله أولاً بقانونه وسننه ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(٤) فليست العبرة بحفظ المصطلحات، وتحديد المفاهيم فحسب، فهذه أمور علمية بحتة هي رصيد العقل التي لا غنى عنها، ولكن الأهم هو رصيد القلب الذي أشارت إليه السيدة عائشة أم المؤمنين رضوان الله عليها وهي تتحدث عن نزول القرآن فتقول:«إنما نزل أول ما نزل من سور المفصّل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبداً»؛ لأن علاج القلوب بالعقيدة تستقيم معه العقول وتفكر تفكيراً سليماً فتنصاع لخالقها ويصبح لدى المرء وازعاً داخلياً يغير سلوكه، فيفعل المأمور ويترك المحظور ويصبر على المقدور، إذا أُنعم عليه شكر، وإذا أُبتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، ذلك لأن هناك فرق كبير جداً بين مقام الدعوة والتعليم، وبين الفهم والتطبيق، صحيح وبديهي أننا يجب أن نتعلم ولكن العلم

(١) من الآية ١١ من سورة الرعد.
(٢) من الآية ٤٠ من سورة التوبة.
(٣) من الآية ٣٨ من سورة الأنعام.
(٤) من الآية ١١ من سورة الرعد.

-كما أسميناه- هو العلم التكويني الذي يكوِّن الإنسان ويغير تصوراته ويصحح أفكاره ويكسبه المنهج السليم، ومن هنا كانت العبرة في فقه الداعي أن توجه العقيدة التي يعتقدها إلى حل مشاكل عصره الذي يعيشه فلا ينفصل المسلم أبداً عن الواقع الذي يراه ويصبر عليه تحقيقاً لتوجيه رسول الله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الَّذي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ الْمُؤْمِنِ الَّذي لا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**»[1] وإلا لأصبح الداعي في وادٍ والناس في وادٍ آخر؛ لأنهم يعيشون مشاكل يريدون لها حلاً في حين أن الداعي منفصل عنهم تماماً وعن مجتمعهم، ومستغرق في تحصيل العلوم التي ما كانت إلا لإنزالها على أرض الواقع فنعالج شبهات عصرنا المنتشرة فضلاً عن الظواهر السيئة في حياتنا التي نحياها الآن، كالإلحاد والعلمنة والعولمة والتحاكم لغير شرع الله ﷻ فضلاً عن العادات والتقاليد التي ليست من شرعنا، هذه قضايا عصرنا إذا أردنا أن نعالج قضايانا ومن أجل ذلك حذر العلماء من تقديم العقيدة وتعليمها للناس بالأساليب الكلامية أو المناهج الفلسفية التي صيغت بها كثير من الكتب القديمة فضررها أكثر من نفعها، ولذلك لابد أن نقدم العقيدة بمنهج القرآن؛ لأنه خير تقديم وأصوبه، فبهذا المنهج تصل المفاهيم الربانية إلى العقول فتنيرها وإلى القلوب فتطمئنها وتطهرها ولا يتحقق ذلك أبداً بمنهج الفلسفة وعلم الكلام والمنطق بل ولا أي منهج من هذه المناهج، ولكن بالالتزام بمنهاج رسول الله ﷺ والطريقة التي قدم بها العقيدة للعرب والعجم على حد سواء، بهذا المنهج الذي غرس به رسول ﷺ مشاعر ثلاثة في نفوس الجيل الأول فأحيا القلوب الغلف والأعين العمي والأذان الصم بـ:

١-الشعور بعظمة هذه الرسالة.

٢-الاعتزاز بالانتساب إليها.

٣-الثقة في نصر الله.

هذه بعض آثار [لا إله إلا الله] القلبية والإيمانية، أما الجانب العلمي منها فلا إله إلا الله فيها نفي تسقط معه الألوهية عن كل الطواغيت التي ادَّعت من دون الله ﷻ، وهي كلمة تحمل نفياً فتُسقط الصنم والوثن والنظام والشعار والبشر وصدق الله إذ

---

(١) رواه ابن ماجة.

يقـول: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الكِتَابَ والْحُكْمَ والنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ ولَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۞ ولا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا المَلائِكَةَ والنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1].

وأما **الإثبات** فهو يعطي للألوهية كل أوصافها وسماتها وأفعالها لله رب العالمين لا شريك له، يخلق ويرزق ويحكم ويأمر ويشرع ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[2] وهكذا تتحقق العبودية الحقة بكمال الحب وكمال الذل كما يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: إنه علم رباني وتربية ربانية يصحبها معاناة وتربية ومجاهدة وجهاد، تلمح ذلك في مهام الرسول التي حددها قول ربنا: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[3] فمهمة الداعي إلى الله ﷺ تنحصر في:

١-تلاوة آيات الله.

٢-تعليم الكتاب والحكمة (السنة).

٣-التزكية وهي التربية

وعلى هذا فإن تقسيم الإمام ابن تيمية للعقيدة من حيث توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات إنما هي من باب التعلم البحث الذي كان يراد به الرد على مشكلات ومباحث ظهرت في عصره -سنتناولها في حينها- هذا التقسيم ليس توقيفياً بل هو اجتهاد بشر لعالم جليل فقيه عصره وإلا كيف كانت تقدم العقيدة قبل هذا التقسيم؟

وما أطيب وأعمق وأشمل هذا التعريف الذي ذكره فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي يقول:

«الإيمان عمل نفسي يبلغ أغوار النفس ويحيط بجواسها كلها من إدراك وإرادة ووجدان فلابد من إدراك ذهني تنكشف به حقائق الوجود على ما هي في الواقع، وهذا الانكشاف لا يتم إلا عن طريق الوحي الإلهي المعصوم، ولابد أن يبلغ هذا

(١) من الآية ٧٩، ٨٠ من سورة آل عمران.
(٢) من الآية ٥٤ من سورة الأعراف.
(٣) من الآية ١٦٤ من سورة آل عمران.

الإدراك الجزم الموقن، أو اليقين الجازم الذي لا يزلزله شك ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾[١]، ولابد أن يصحب المعرفة الجازمة إذعان قلبي وانقياد إرادي يتمثل في الخضوع والطاعة والرضا والتسليم ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[٢]، ولابد أن يتبع تلك المعرفة وهذا الإذعان حرارة وجدانية قلبية تبعث على العمل بمقتضيات العقيدة والالتزام بمبادئها السلوكية والخلقية والجهاد في سبيلها بالمال والنفس، وبذلك تنفذ هذه العقيدة إلى العقل فتقنعه وتطمئنه، وإلى القلب فتهزه وتحركه، وإلى الإرادة فتدفعها وتوجهها وإذا اقتنع العقل وتحرك القلب واتجهت الإرادة، استجابت الجوارح واندفعت إلى العمل، استجابة الرعية للراعي الصالح» إنه تعريف شامل أحاط بكل مكونات العقيدة من علم وتفكير وإرادة ومن قلب وجوارح تتحرك، وهذا هو الإيمان الحق وليس الإيمان الجامد الخامل، وهذا هو المفهوم القرآني للإيمان.

منهج القرآن في عرض الإيمان:

إن آيات خمس في مواضع ثلاثة من الذكر الحكيم صورت لنا أبرز سمات الإيمان في أحسن تصوير، وتحدد لنا معالمه:

ففي سورة الأنفال يقول ربنا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[٣].

وفي سورة النور يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[٤]

وفي سورة الحجرات يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ

---

(١) من الآية ١٥ من سورة الحجرات.
(٢) من الآية ٦٥ من سورة النساء.
(٣) الآيات ٣-٤ من سورة الأنفال.
(٤) من الآية ٦٢ من سورة النور.

يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[١].

والمتأمل في هذه الآيات يجد الأمور الآتية:

أولاً-كل منها مصدّر بهذا القول: «**إنما**» وأهل البلاغة يقولون: «**إنما**» أداة قصر وهي تفيد قصر سمات المؤمن الصادق على الصفات والخصائص التي بينتها كل آية وهي:

أ-وجل القلب عند ذكر الله.

ب-ازدياد الإيمان به عند تلاوة آياته.

ج-التوكل عليه وحده.

د-إقامة الصلاة.

هـ-الإنفاق مما رزقه الله.

هذا في الآية الأولى يضاف إلى هذه الصفات في الآيتين الأخريين.

و-الإيمان بالله ورسوله.

ز-عدم الذهاب في الأمور الجامعة إلا بعد إذنه ﷺ.

ح-عدم الارتياب في الإيمان.

ط-الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس.

ولا يعني هذا أن صفات المؤمنين تقتصر وتنحصر في هذه الأوصاف أو تلك إنما تضاف لهذه الصفات صفات أخرى ذكرها القرآن كالتي في صدر سورة «**المؤمنون**» مثلاً وغيرها من السور، فليس ما قلناه حصراً ولكن على سبيل المثال لكي نبين أن الإيمان ليس كلاماً يقال وليس أمراً مجرداً دون حركة قلبية ووجدانية، واسمع إلى قول الله وهو يصف هذا الصنف من المؤمنين فيقول: **﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾**[٢] إنها صفات تلبست برجال صدقوا في إيمانهم فكانوا: **﴿التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾**[٣]

---

(١) من الآية ١٥ من سورة الحجرات.

(٢) الآيات ١٧-١٩ من سورة الذاريات.

(٣) من الآية ١١٢ من سورة التوبة.

هكذا منهج القرآن في عرض العقيدة يجمع بين القلب والعقل كما يجمع بين الإيمان والعمل، فيستجيش العاطفة فتندفع الجوارح للعمل برغبة وحب.

كلام القرآن عن المؤمنين وليس الإيمان:

إن مبنى أمر حديث القرآن في هذه المواضع وغيرها هو على المؤمنين لا على مفهوم الإيمان المجرد فلم يقل ربنا مثلاً «إنما الإيمان وجل القلب وذكر الله..... إلخ» إنما جرى على ما جرى عليه لحكمة جليلة وعبرة سامية-والله أعلم بمراده- أن الحكيم الخبير يعلمنا أن الإيمان لا يصلح ولا ينبغي له أن يكون مجرد اعتبار كونه مفهوماً نظرياً يتصوره الذهن دون أن يكون له حظ من التطبيق أو صدق في السلوك العملي الواقعي، وبذلك يصح مفهوم الإيمان على وجهه المرضي المستقيم بأن يكون ترجمة صادقة لسلوك المؤمنين في القول والعمل، وهذا يدعو كل مؤمن ألا تركن نفسه أو ينخدع قلبه بمجرد صوت خافت لداعي الإيمان يختلج في ضميره، وأيضًا ليس مجرد كلمة أو اصطلاح يلوكه لسانه ثم لا يلبث أن تموت حروفها على شفتيه بل يتطلب مصداق ذلك سلوك حياته العملية مع ربه ونفسه ومجتمعه والكون كله حتى يصحح كما قال القرآن: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ**﴾[1].

من أجل ذلك رأينا الحديث عن المؤمنين وليس على الإيمان المجرد، أو بعبارة أخرى عن الإيمان بوصفه متحققاً في الأفراد المنعوتين به «المؤمنين» وباسم مخصوص هو «الذين» وصفوا بهذه الصفات النبيلة «أولئك هم »المؤمنون حقاً- وهذا هو منهج القرآن في عرض العقيدة.

ابن القيم والعقيدة:

وسار على هذا الدرب ابن القيم إذ يقول: «إن للا إله إلا الله **قلب وقالب** قالب أو جسد هو ما نعلمه وما نتعلمه حول الربوبية والألوهية وسماه **بعلم القلب**، وقلب أو روح يحرك هذا الجسد فتبعث فيه الحياة وسماه عمل القلب، ثم قال: إن علم

(١) الآيات ١٦٢،١٦٣ من سورة الأنعام.

القلب يتساوى فيه المؤمن والكافر على حد سواء واستشهد بقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[١]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[٢].

أما عمل القلب فهذا هو النور الذي يبعثه الله في قلب من يحب من عباده، وبهذه البساطة عرف المسلمون دينهم وعرفوا ربهم منذ بعثة رسول الله ﷺ وصحابته الأبرار، فلم يكن هناك حاجة للتقعيد والتعقيد إذ لم يكن قد حصل تبلبل في العقيدة ولا تشتت في الفكر والنظر، وما أبسط إجابة أبي بكر الصديق ﷺ حين سئل: بم عرفت ربك؟ فقال عرفت ربي بنقض العزائم، وكما قال سيدنا علي ﷺ: «عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي»، وأليس هذا الأعرابي البسيط الذي سئل نفس السؤال فقال: البعرة تدل على البعير والروثة تدل على الحمير وآثار الأقدام تدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ألا تدل على الصانع العليم القدير؟ إنها عقيدة راسخة في النفس عبر عنها هذا الأعرابي هذا التعبير البسيط الذي ينفذ إلى القلوب فيحيها.

ذلك لأن المؤمنين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان كانوا يستقون عقيدتهم من القرآن الكريم والسنة فهما الينبوع الذي يستقي منه المسلمون عقائدهم وأخلاقهم وأوامرهم ونواهيهم، وتصوراتهم وأفكارهم، ومنهما عرفوا ما يليق بذات الله تعالى وما ينزه عنه عز وجل تعالت كلماته فلم يكن بينهم جدل في شأن العقيدة وكانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً لا شك فيه:

١-إنه يجب لله تعالى كل صفة كمال تليق بجلاله ووصف نفسه بها.

٢-إنه يستحيل على الله كل صفة نقص لا تليق بجلاله.

٣-إنه يجوز في حقه تعالى كل ممكن أو تركه كالإحياء والإماتة مثلاً.

والحقيقة أن هذه هي النصاعة والوضاءة، وهذه السهولة في تلقي العقيدة في الجيل الأول وبعد وفاة الرسول ﷺ واتباع الصحابة له.

---

(١) من الآية ٢٥ من سورة لقمان،من الآية ٣٨ من سورة الزمر، من الآية ٦١ من سورة العنكبوت.

(٢) من الآية ٨٧ من سورة الزخرف.

وكاد ينتهي العصر الأول في إيمان خالص من الجدل حتى أواخر عهد عثمان ﷺ، حيث ظهر الخلاف في المسائل السياسية والذي كان سببًا في بدء الخلاف الديني الذي ظهر بعده الفرق الإسلامية، فمن حزب علي ﷺ تكونت الشيعة، ومن لم يرض بعلي كونوا منهم الخوارج، ومن كره الخلاف بينهما كونوا المرجئة وهكذا بدأت الفرق الإسلامية في الظهور.

ظهور الفرق الإسلامية:

لما غزا الإسلام كثيراً من البلاد المتحضرة- في ذلك الزمان - ودخل فيه كثير من أهل الحضارات ممن لهم ثقافات وعلوم وكان لهم نظر في المعتقدات ثم أضيف إليهم دخول اليهود والنصارى والمجوس الإسلام وكان لكل أولئك أفكارهم الدينية الباقية من دياناتهم القديمة التي استولت على مشاعرهم، فكانوا يفكرون في الحقائق الإسلامية على ضوء اعتقاداتهم القديمة فأثاروا بين المسلمين ما كان يثار في دياناتهم من الكلام في الجبر والاختيار وصفات الله هل هي شيء غير الذات أم هي والذات شيء واحد؟ إلى غير ذلك من المسائل الكلامية التي ليست لها أي مردود تربوي، بل هي مثيرة للجدل والمراء.

وبالإضافة إلى ذلك كانت حركة الترجمة للكتب الفلسفية مما كان له أثر أيضًا على الفكر الإسلامي فتأثر بمنازع الفلسفة والمذاهب القديمة في الكون والمادة وما وراء الطبيعة المحسوسة وظهر علماء من المسلمين نزعوا منزع الفلاسفة الأقدمين وأخذوا بطريقتهم وظهر في العصر العباسي من سلك مسلك «السوفسطائيين» والأرأيتيين (أرأيت إن حدث كذا) يخترعون قضايا ويبحثون لها عن حلول وليس هذا من الإسلام في شيء؛ لأن الإسلام يتعامل مع الواقع، ولذلك ثار خصام وعراك ودارت مناقشات ومناظرات وأدلى كل بدلوه فكان الناس أصنافاً شتى، فمنهم الزنديق المنافق الذي يبغي هدم الإسلام ومنهم الجاهل المخدوع، ومنهم المستقيم على الحق، ولقد أنتجت هذه المعارك مذاهب مختلفة منها ما هو على صواب ومنها ومنها ما هو على الباطل، بل ومنها الخليط بين الحق والباطل.

فبعد أن كان المسلمون ينتهجون منهج القرآن في رده على أهم الفرق التي كانت

منتشرة في عصر النبوة بأسلوب بليغ حكيم في نقض أقوالهم بسلوك علماء المسلمين في ذلك الوقت مسلك القرآن في الرد على المخالفين، إلا أنه لما كان كثير ممن دخل الإسلام بعد الفتح من ديانات مختلفة كاليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة والبراهمة وغيرهم قد أظهروا آراء دياناتهم القديمة في لباس دينهم الجديد مما جعل الفرق الإسلامية الأولى وخاصة المعتزلة التي كان همها الأول الدفاع عن الدين والرد على المخالفين من اليهود والنصارى وغيرهم الذين تسلحوا بالفلسفة السبب الذي دفع المعتزلة لدراستها ليستطيعوا الدفاع بنفس السلاح، فاضطرهم ذلك إلى قراءة الفلسفة اليونانية والتكلم في شأنها والرد عليها وأخذوا في إثبات العقائد الإسلامية بالأقيسة المنطقية، والتعديلات الفلسفية، والدراسات العقلية المجردة وجرهم ذلك إلى دراسة مسائل ليس في استطاعة العقل البشري أن يصل بها إلى نتائج مقررة ثابتة عنها كمسألة إثبات صفات الله تعالى ونفيها، ومسألة قدرة العبد بجوار قدرة الرب وغير ذلك مما فتح باباً واسعاً من أبواب الاختلاف بين علماء الكلام.

وللأسف فإن اتساع الحياة أمام المسلمين بعد فتح الأقطار والأمصار جعلتهم ينشغلون بأمور الحكم فقل تفرغهم لكتاب الله والسنة بقدر ما شغلهم بما واجههم من الأمور الجديدة باستثناء إلا فئة قليلة من الباحثين والقراء المتفرغين؛ ولذلك فقد نازعت بعض النفوس غير المطمئنة آراء وأفكار وشكوك حول العقائد فظهرت على ألسنة بعضهم وفي آرائهم فتحدثوا بها وتناقشوا فيها.

وهنا خشي الراسخون في العلم على الناس أن تتزلزل عقائدهم، فدعوا الناس إلى الرجوع للقرآن ومنهجه وحفزهم هذا الوضع الذي عاشوه إلى وضع قواعد وضوابط وبراهين واستدلالات عقلية يرد بها على أولئك المجادلين، ثم أخذت هذه البراهين تعمق وتؤصل حتى تكونت عن هذه الحركة فكرة وضع أسس للعقائد سميت أول الأمر علم الكلام ثم علم التوحيد أو علم العقائد.

وكانت العراق- خاصة البصرة- مظهراً لجميع النِحل والملل فقامت جماعات بَعُدت عن منهج القرآن في عرض عقائد الإسلام وكثر الكلام في كلام الله هل هو مخلوق أم غير مخلوق وكثرت الزندقة وظهر ما يسمى بالفرق الإسلامية التي منها.

القدرية: وهي تقول بحرية الإرادة وعلى رأسهم معبد الجهمي تقول: «لا قدر والأمر أُنفُ» فأنكروا قدرة الله.

الجبرية: وهم يسلبون الإنسان إرادته وأقاموا في الكوفة وقالوا: إن الإنسان كالريشة في مهب الريح ونفوا صفات الرب ﷻ.

ووسط هذا الجو المضطرب قامت جماعة من المخلصين يشرحون عقائد المسلمين بأسلوب القرآن ومنهجه من أشهرهم الحسن البصري الذي قال: لابد من العودة لمنهج القرآن في عرض العقيدة واختلف معه تلميذه واصل بن عطاء وتكونت المعتزلة، وفي أواخر القرن الثالث ظهر الإمام أبو منصور الماتريدي ورد على أصحاب العقائد الباطلة وتكونت الماتريدية، كما ظهر الإمام أبو الحسن الأشعري وأعلن انفصاله عن المعتزلة وأعلن مبادئه التي وافق عليها خيرة علماء المسلمين في ذلك الوقت، وظهرت فرقة الأشاعرة ثم تكونت بعد ذلك جماعة أهل السنة والجماعة[1].

ولقد نشأ علم الكلام في جو غريب عن طبيعة الحياة الإسلامية الأصيلة يتناول قضايا التوحيد بغير أسلوب القرآن مما انتهى بهذا العلم الجليل إلى الجفاف والتعقيد فجهله عامة المسلمين ونفر منه خاصتهم وهاجمه كثير من الأئمة كالإمام مالك والشافعي وأحمد.

يقول الشيخ محمود شلتوت: «وجاء المتأخرون الذين فقدوا الذوق العربي الفصيح والاسترشاد الداعي من القرآن والسنة فصبوا قوالب التوحيد في قواعد جافة ومن ثم ضعف الإيمان وضعفت الإرادة تبعاً؛ لذلك بل وضعفت الأخلاق».

ولقد قيض الله لهذه الأمة من مسح عن وجه عقيدتها ما شابها من غبش مثل الإمام أحمد بن حنبل في القرن الثالث الهجري فكانت كتاباته دعوة إلى النهج السديد وسار على دربه الإمام البنا رضوان الله على الجميع.

أمر يجب التنبيه عليه: إن القضايا التي سنتناولها في هذه المسألة ليست للعامة بل هي مسألة انشغل بها علماء الأمة دون غيرهم؛ لأنه ليس المطلوب من المسلمِ العامي أو الأمي أن يعرف صفات الله الواجبة ويعرف صفة الوجود وأن يفرق مثلاً بين صفات

(١) المذاهب الإسلامية، للشيخ أبو زهرة ١/ ٤١٣ بتصرف.

الذات وصفات المعاني ويشتغل بأدلة كل مسألة فليس مكلفاً بذلك كما يقول الإمام الغزالي: « اكتفى رسول الله ﷺ من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل.. ثم يقول وهناك حديث مشهور في كتب السير والحديث «**قصة ضمام بن ثعلبة**» رواه الإمام مسلم يبين أن رسول الله ﷺ لم يعلم ضمام بن ثعلبة دليلاً واحداً حين آمن به كما أنه -أي ضمام- حين دعا قومه للإيمان لم يقدم لهم أدلة علي ذلك؛ ولذلك حين أُتهم ابن تيمية بأنه يقوم بإثارة البلبلة الفكرية والحيرة النفسية عند الناس من كثرة الكلام في آيات وأحاديث الصفات.

قال رحمه الله: «وأما قول القائل: لا يُتعرض لأحاديث الصفات وآياتها عند العوام فأنا ما فاتحت عامياً في شيء من ذلك قط»[١].

ويقول: «أنا ما بغوت علي أحد، ولا قلت لأحد: وافقني علي اعتقادي وإلا فعلت بك ولا أكرهت أحداً بقول ولا عمل، بل ما كتبت في ذلك شيئاً قط إلا أن يكون جواب استفتاء بعد إلحاح السائل واحتراقه وكثرة مراجعته ولا عادتي مخاطبة الناس في ذلك ابتداءً»[٢].

رأي العلماء في علم الكلام:

للعلماء الأعلام رأي واضح في علم الكلام فهذا:

الإمام الشافعي: رأي بعض تلاميذه يتناظرون في علم الكلام فقال لهم: «أتظنون أني لا أعلمه؟ لقد دخلت فيه حتى بلغت مبلغاً عظيماً إلا أن الكلام لا غاية له تناظروا في شيء إن أخطأتم فيه يقال: أخطأتم ولا يقال: كفرتم»[٣].

الإمام مالك: يقول الإمام الشاطبي: «كان الإمام مالك بن أنس يقول: الكلام في الدين أكرهه ولم يزل أهل بلدنا -أي العلماء - يكرّهونه وينهون عنه نحو الكلام في رأي جهم والقدر وما أشبه ذلك ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل فأما الكلام في

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية ٥/ ٢٦٦.
(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية ٣/ ٢٤٣.
(٣) نقلا عن كتاب «المذاهب الإسلامية» لأبي زهرة،ص٢٤٩.

الدين وفي الله ﷺ فالسكوت أحب إلي؛ لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل».

وقال ابن عبد البر: «قد بين مالك رحمه الله أن الكلام فيما تحته عمل هو المباح عنده وعند أهل بلده-يعني العلماء منهم- فأخبر أن الكلام في الدين نحو القول في صفات الله وأسمائه وضرب مثلاً نحو رأي جهم والقدر قال: والذي قاله مالك عليه جماعة الفقهاء قديماً وحديثاً»(١).

ويقول الإمام الشاطبي: «وأما الجماعة فعلى ما قاله الإمام مالك -رحمه الله- إلا أن يضطر أحد إلى الكلام فلا يسعه السكوت إذا طمع في رد الباطل وصرف صاحبه عن مذهبه أو خشي ضلالة عامة أو نحو»(٢)، ومع ذلك فقد قال الإمام الشاطبي لا بأس بتعلم طرق الاستدلال في الحدود التي لا يأخذ بها البحث الطرق الوعرة والمسالك الشائكة فتعلم الحجة والبرهان أمر مطلوب وليس محظوراً شرعاً إنما المحظور هو التوعر فيه وسلوك السبل المعقدة والدخول به في طرق تؤدي إلى الأهواء والظنون أما معرفة طرق الاستدلال من أيسر طرق البرهان فهذا أمر مطلوب والمولى يقول: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء﴾(٣) والحق يقال بأن الرسول ﷺ كان يدعو زعماء القبائل بل الناس جميعاً فكان يقدم لهم أركان الإيمان في غاية البساطة ولا عبرة بما يقال أنهم كانوا يفهمون من هذه الكلمات البسيطة كل تفاصيل العقيدة بأصولها وفروعها وما يترتب عليها بدليل أن رسول الله ﷺ خاطب بنفس هذه الكلمات البسيطة الفرس والروم والحبش والقبط خارج الجزيرة العربية بل العرب أنفسهم ولقد وقع من العرب بل ومن الصحابة أنفسهم رضوان الله عليهم جميعاً ما يدل على عدم فهم بعض المعاني التي تتصل بالعقيدة ونبههم لها رسول الله ﷺ وما قصة حادثة ذات أنواط منا ببعيد.

وعلى هذا فقضيتنا بعد هذا الإطناب الذي قصدنا به تبيان منهج القرآن وكيف

---

(١) معا على طريق الدعوة، لمحمد عبد الحليم حامد،ص١٤٢.
(٢) الاعتصام، للشاطبي ٢/ ٣٣٢.
(٣) من الآية ٨٣ من سورة الأنعام.

بدأ علم الكلام وما أثير حول قضية الأسماء والصفات إنما هي قضية ما عرفها مجتمع رسول الله ﷺ على هذه الصورة التي نحن عليها اليوم دون تمييز بين أصل وفرع، ولا كفر وإيمان، وصواب وخطأ، وأصبحت القضية التي يجب أن تفاصل عليها الناس في نظر بعض المسلمين، بل أصبحت تقسيمات العقيدة من حيث توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات كأنها توقيفيه من عند الله ﷻ وليست اجتهاد بشر أو عالم أراد أن يواجه مشاكل عصره ويخدم دينه بلغة زمانه، وإلا فماذا نقول عن المسلمين جميعاً قبل هذه التسميات والتقسيمات التي ذكرها الإمام ابن تيمية ليعالج بها فكراً ظهر في زمانه والتي لم يعرفها المسلمون على هذه الصورة؟

ورضوان الله على الإمام الشافعي حين قال: «وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه لكان الإمساك أولى به وأقرب من السلامة إن شاء الله».

قضية الأسماء والصفات:

فما هي قضية الأسماء والصفات التي أثيرت؟

يقول ابن القيم: التوحيد نوعان:

توحيد في المعرفة والإثبات: وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات بمعنى أن يعتقد المؤمن إثبات ذات الله وصفاته وأفعاله فهو تعالى الأول والآخر والظاهر والباطن والخالق إلى آخر ما يجب أن يتصف به من أسماء وهذا لم يكن مثار جدل بين المسلمين والمشركين: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.[(١)]

توحيد في العبادة والقصد: وهو توحيد الألوهية والعبادة أي لا يعبد إلا الله ولا يقصد إلا الله ولا يتوكل إلا عليه ولا يعادي إلا فيه ولا يعمل عملاً إلا ابتغاء وجهه وهذا الذي بسببه سُمي الكفار مشركين وهذا وقع فيه كثير من المسلمين بقصد وبغير قصد: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾.[(٢)]

أسماء الله: وجميع أسماء الله تعالى كلها تعتبر صفات لله تعالى إلا اسم واحد فقط

(١) من الآية ٢٥ من سورة لقمان،من الآية ٣٨ من سورة الزمر، من الآية ٦١ من سورة العنكبوت.
(٢) من الآية ٣١ من سورة التوبة.

هو «الله» علم على الذات وليس صفة، ويقول جمهور الفقهاء: إن أسماء الله توقيفية. يقول أبو هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: « **إِنَّ لِلَّه تسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مائَةً إلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[١] وفي رواية: « **لا يَحْفَظُهَا أَحَدٌ إِلا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَهُوَ وَتْرٌ يُحِبُّ الْوَتْرَ**»[٢] ولقد تعلم الصحابة صفات الله من كتاب ربهم كما وصف الله نفسه وكما وصفه رسوله ﷺ دون تقعر ولا تنطع ولا جدال وما أثاروا قضية وما تكلم أحد منهم حول الأسماء والصفات بل فهموها كما نزلت.

يقول المقريزي في خططه: «اعلم أن الله تعالى لما بعث من العرب نبيه محمدًا ﷺ رسولاً إلى الناس جميعاً وصف لهم ربهم ﷻ بما وصف به نفسه الكريمة في كتابه العزيز فلم يسأله رسوله ﷺ من العرب قرويهم وبدويهم عن معنى شيء من ذلك كما كانوا يسألونه عن أمر الصلاة والزكاة والحج»، وغير ذلك مما لله ﷻ فيه أمر ونهي وكما سألوه عن أحوال يوم القيامة والجنة والنار إذ لو سأله إنسان منهم عن شيء من الصفات الإلهية لنقل كما نقلت الأحاديث الواردة عنه ﷺ في أحكام الحلال والحرام، وفي الترغيب والترهيب.... إلخ، ومن أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يُرو قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله ﷺ عن معنى شيء مما وصف الرب ﷻ نفسه الكريمة في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه ﷺ بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا على الكلام في الصفات ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام والعزة وساقوا الكلام سوقاً واحداً فهذا حال أصحاب رسول الله ﷺ أما غير هؤلاء من الذين لم يتربوا في مدرسة النبوة ولم يلتزموا منهج القرآن فإنهم أثاروا قضايا تتصل بالعقيدة وفروعها وأصول القدرية الذين قالوا بإنكار قدر الله والمغالاة في إثبات قدرة الإنسان باعتباره حر الإرادة كما قالوا بخلق القرآن.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه.

(٢) رواه البخاري في صحيحه.

والجبرية (أو الجهمية أو المعطلة) الذين اعتبروا الإنسان مجبوراً كالريشة في الهواء فنفوا صفات الرب حتى لا يشبه المخلوق وقالوا بفناء الجنة والنار بعد نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار كما قالوا بخلق القرآن، وإنكار رؤية الله في الآخرة.

أما المعتزلة فهم الذين قالوا بالمنزلة بين المنزلتين وأن العبد يخلق أفعال نفسه بقدرة أودعها الله فيه، ونفوا أيضاً صفات الله القديمة وقالوا بخلق القرآن.

الأشاعرة: زعيمهم أبو الحسن الأشعري تخرج في مدرسة المعتزلة في علم الكلام وتتلمذ على شيخهم في عصره أبي علي الجبائي وابتعد عن المعتزلة في تفكيرهم وأثبت الصفات وقرر أنها صفات تليق بذات الله ولا تشبه صفات المخلوق فسمع الله تعالى ليس كسمع الحوادث وكذلك بصره وكلامه..إلخ.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: قال في قول الله: ﴿**يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾[1] يده يد تليق بذاته الكريمة وليست يد جارحة كأيدينا، بل يده يد صفة كالسمع والبصر وهذا ما ذكره في كتاب **الإبانة** ولكن يظهر أنه رجع عن هذا الرأي وأوّل الصفات في كتاب **اللمع** إذ أوّل اليد بالقدرة.

يقول فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي بأنه يحتمل أن يكون الأشعري قد رجع عن التأويل إلى منهج السنة في آخر زمانه وهذا هو الراجح عنده- وإن كان رأيه الأول في التأويل له وجه في اللغة تحتمله ورأي السلف أولى بالاتباع.

ويقول فضيلة الشيخ أحمد بن حجر قاضي المحكمة الشرعية الأولى بدولة قطر: قال الإمام الأشعري في كتابه «الإبانة» وكتاب «مقالات الإسلاميين» صرح رحمه الله بإثبات جميع الصفات الواردة في القرآن والحديث كالاستواء والوجه واليد والنزول إلى غير ذلك فما عذر هؤلاء المنتسبين إلى أبي الحسن الأشعري رحمه الله زاعمين أنهم أشعريون وعقيدتهم في هذه الصفات كعقيدة المعتزلة والجهمية، ولا شك أن انتسابهم إلى أبي الحسن الأشعري رحمه الله في هذه الصفات غير صحيح ولا أدري بماذا يعتذرون إلا أن ينكروا كتاب الإبانة وكتاب مقالات الإسلاميين فإن إنكارهم لا

---

(١) من الآية ١٠ من سورة الفتح.

يجدي؛ لأن المؤرخين ذكروا هذين الكتابين في ترجمته وأثبتهما الإمام ابن عساكر في كتابه «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري» وكذا ذكر السبكي في الطبقات أن عقيدة الإمام نحو ما ذكرت، واسمع إلى سماحة الشيخ محمد بن صالح العثيمين في شرح «لمعة الاعتقاد» لموفق الدين ابن قدامة يقول فيه الرجل العالم الجليل: «اعلم أن حكم التأويل على ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون صادراً عن اجتهاد وحسن نية بحيث إذا تبين له الحق رجع عن تأويله فهذا معفو عنه؛ لأن هذا منتهى وسعه وقد قال تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[1].

الثاني: أن يكون صادراً عن هوى وتعصب وله وجه في اللغة العربية فهو فسق وليس بكفر إلا أن يتضمن نقصاً أو عيباً في حق الله فيكون كفراً أعاذنا الله منه.

الثالث: أن يكون صادراً عن هوى وتعصب وليس له وجه في اللغة العربية فهذا كفر؛ لأن حقيقته التكذيب حيث لا وجه له».

وقد صدرت فتوى صادرة من اللجنة الدائمة للإفتاء بالمملكة العربية السعودية جاء فيها «موقفنا من أبي بكر الباقلاني والبيهقي وأبي الفرج ابن الجوزي وأبي زكريا النووي وابن حجر وأمثالهم ممن تأول بعض صفات الله تعالى أو فوضوا في أصل معناها كمثل (وَجَاء رَبُّكَ) قالوا وجاء أمر ربك أنهم في نظرنا من كبار علماء المسلمين الذين نفع الله الأمة بعلمهم ورحمهم الله رحمة واسعة وجزاهم عنا خير الجزاء وأنهم من أهل السنة فيما وافقوا فيه الصحابة ﷺ وأئمة السلف في القرون الثلاثة التي شهد لها النبي ﷺ بالخير وأنهم أخطأوا فيما تأولوه من نصوص الصفات وخالفوا فيه سلف الأمة وأئمة السنة رحمهم الله سواء تأولوا الصفات الذاتية وصفات الأفعال أم بعض ذلك» رقم الفتيا ٣/ ١٧٣.

وقد تعصب كثير من الأئمة لمذهب الأشعري منهم أبو بكر الباقلاني المتوفي سنة ٤٠٣هـ والإمام الغزالي والبيضاوي المتوفي سنة ٧٠١هـ وكان مناظرًا مجيداً وإماماً

---

(١) من الآية ٢٨٦ من سورة البقرة.

متعبداً وفقيهاً مدققاً وله في علم العقائد كتاب الطوالع وكذلك الشريف الجرجاني وكان فقيهاً حنفياً وغيره كثير.

الماتريدية: إمامها هو محمد بن محمد بن محمود المعروف بأبي منصور الماتريدي ولد بماتريد بسمرقند فيما وراء النهر وتوفي سنة ٣٣٣هـ.

قرر العلماء أن ما وصل إليه يتفق مع ما رواه الإمام أبو حنيفة فهم يعتبرون معرفة الله مدركة الوجوب بالعقل بعكس الأشاعرة الذين يعتبرونها واجبة بالشرع وهم يعتبرون للأشياء حسناً ذاتياً يدركه العقل فالعقل عندهم يستقل بمعرفة الله ولكنه لا يستقل بمعرفة الأحكام التكليفية وهذا رأي أبي حنيفة ﷺ وهم يؤولون الصفات.

هذه هي أهم الفرق الإسلامية وآراءها- باختصار شديد- في قضايا العقيدة فما هو رأي السلف؟

رأي ابن تيمية: يقول: إن طرائق العلماء في فهم العقائد الإسلامية أربعة أقسام:

القسم الأول: الفلاسفة وهؤلاء يقولون: جاء القرآن بالطريقة الخطابية والمقدمات الإقناعية التي تقنع الجمهور ويدَّعون أنهم هم أهل البرهان واليقين؛ لأن العقائد طريقها البرهان واليقين.

القسم الثاني: المتكلمون (المعتزلة) وهؤلاء يقدمون قضايا عقلية قبل النظر في الآيات القرآنية فهم يأخذون بالنوعين من الاستدلال -العقل والنقل- ولكن يقدمون النظر العقلي على الدليل القرآني. فيؤلون على مقتضى العقل وإن كانوا لا يخرجون عن عقائد القرآن.

القسم الثالث: طائفة من العلماء-الماتريدية- تنظر إلى ما في القرآن من عقائد للعقل فتؤمن بها فتأخذه لا على أنها أدلة هادية مرشدة موجهة للعقل ليلتمس المقدمات من بينها بل على أنها آيات إخبارية يجب الإيمان بما اشتملت عليه من غير أن يتخذ مضمونها مقدمة للاستنباط العقلي وهم يستعينون بالعقل ليبرهنوا على عقائد القرآن.

القسم الرابع: وهو قسم يؤمن بالقرآن -عقائده وأدلته - ولكنه يستعين بالأدلة العقلية بجوار الأدلة القرآنية وهم الأشاعرة.

ثم يقول ابن تيمية: ومنهج السلف ليس واحداً من هذه الأربعة بل هو غيرهم؛ لأن العقائد لا تؤخذ إلا من النصوص القرآنية.

فأهل السلف يثبتون ما جاء في القرآن والسنة عن أوصافه ﷻ أو شئونه فيثبتون له المحبة، والغضب، والسخط والرضا والنداء والكلام والنزول إلى الناس في ظلل من الغمام، ويثبتون الاستواء على العرش، والوجه واليد من غير تأويل ولا تفسير بغير الظاهر؛ لأن هذه الصفات ليست كشأن الحوادث.

فالصواب في هذا هو أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث.

وقال: إن مذهب أهل السلف بين التعطيل والتمثيل فلا يمثلون صفات الله تعالى بصفات خلقه كما لا يمثلون ذاته بذوات خلقه ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ فيعطلون أسماءه الحسنى وصفاته العليا ويحرفون الكلم عن مواضعه ويلحدون في أسماء الله وآياته.

ولقد سبق ابن تيمية في هذا الرأي طائفة من الحنابلة منهم أبو يعلي الحنبلي سنة ٤٠٥هـ وابن الزاغوني سنة ٥٢٧هـ والجدير بالذكر أن طائفة أخرى من الحنابلة خالفوا هذا الرأي وقالوا إنه يؤدي إلى التشبيه والجسمية لا محالة وكيف لا يؤدي إليهما والإشارة الحسية إليه جائزة، ومن هؤلاء:

ابن الجوزي الفقيه الحنبلي الذي تصدى لهذا الرأي وقال: ليس هذا بمذهب السلف بالنفي أن يكون هذا رأي الإمام أحمد بن حنبل وقال بالتأويل، وقالت طائفة من الحنابلة في أبي يعلي القاضي الحنبلي «لقد شان أبو يعلي الحنابلة شيئاً لا يغسله ماء البحر» وكذلك قالوا في ابن الزاغوني:«إن في قوله من غرائب التشبيه ما يحار فيه التنبيه».

وقد استنكر الحنابلة هذا الاتجاه عندما شاع في القرن الرابع والخامس حتى استتر هذا المذهب إلى أن أعلنه الإمام ابن تيمية مرة أخرى.

المسلك القويم: والمسلك القويم كما قال الإمام الشوكاني: أن تجعل عمدتك في

هذه القضية هاتين الآيتين: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[١] وقوله: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[٢] فيهما الإثبات والنفي، إثبات صفات الباري ونفي المماثلة للحوادث ثم تقييد هذا الإثبات بظاهر ما صرحت به الآيات وأجملته والزجر عن الخوض في كيفية هذه الصفات، فإن الله ﷻ قد أخبرنا أنهم لا يحيطون به علماً فمن زعم أن ذاته كذا أو صفته كذا، فلاشك أن صحة ذلك متوقفة على الإحاطة، وقد نفيت عن كل فرد من الأفراد: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[٣]، ولذلك لما سئل ابن الصلاح عن رجلين تشاجرا في قوله ينـزل ربكم في كل ليلة إلى سماء الدنيا (الحديث) فقال أحدهما للآخر: الحديث يتأول. وقال الآخر: بل هو كما جاء ليس فيه تأويل بل ينـزل، وكذا في جميع الصفات والآيات والأخبار وكل واحد يدعي الصحة في قوله.

أجاب رضي الله عنه: الذي عليه الصالحون من السلف والخلف رضي الله عنهم في ذلك جميعاً على الإيمان الحق والإعراض عن الخوض في معانيها مع اعتقاد التقديس المطلق وإنه ليس معناها ما فهم من مثلها حق المخلوق والله أعلم.

ما قاله الإمام البنا: عد إلى رسالة العقائد فستجد نفس المعاني التي أثبتها علماء السلف والتي ذكرناها هي نفسها التي ذكرها الإمام البنا في رسالة العقائد فبعد أن تكلم عن صفات الله في القرآن من حيث الوجود والبقاء والقيام بنفسه والوحدانية والقدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام.

قال رحمه الله: وصفات الله تبارك وتعالى كثيرة وكمالاته تبارك وتعالى لا تتناهى ولا تدرك عقول البشر كنهها سبحانه لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه.

ثم قال الإمام البنا أيضًا: «اعلم أن جمهور المسلمين على أنه لا يصح أن نطلق على الله تعالى اسماً أو وصفاً لم يرد به الشرع بقصد اتخاذه اسماً له تعالى وإن كان يشعر بالكمال فلا يصح أن نقول، هو مهندس الكون الأعظم، ولا نقول مثلاً: المدير العام لشئون الخلق. على أن تكون هذه أسماء أو صفات له تعالى هذا أمر لا ينبغي؛

---

(١) من الآية ١١ من سورة الشورى.
(٢) من الآية ١١٠ من سورة طه.
(٣) من الآية ١١٠ من سورة طه.

لأن الصفات والأسماء توقيفية من عند الله ﷻ ليس لنا أن نزيد عليها أو أن ننقص. ولقد انقسم الناس في هذه المسألة على أربع فرق: الفرقة الأولى: أخذت بظواهرها كما هي فنسبت إلى الله وجهاً كوجوه الخلق-تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- ويداً كأيديهم وضحكاً كضحكهم وهكذا حتى فرضوا الإله شيخاً وبعضهم فرضه شاباً وهؤلاء هم المجسمة والمشبهة وصفوا هذه الصفات بصفات المخلوق، وهؤلاء ليسوا من الإسلام في شيء وليس في قولهم نصيب من الصحة؛ لأن المولى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[1] ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[2]، يقول هؤلاء هم المجسمة والمشبهة وهي فرقة من الفرق ليست الضالة فحسب، بل الكافرة بتجسيدهم الإله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وفرقة عطلت معاني هذه الألفاظ على وجه يقصدون بذلك نفي مدلولاتها مطلقاً عن الله تبارك وتعالى، فالله تبارك وتعالى عندهم لا يتكلم ولا يسمع ولا يبصر، عكس الأخرى فهم يقولون: لأن ذلك لا يكون إلا لجارحة فإذن هم يشبهونه بالمخلوق أيضًا، والجوارح يجب أن تنفي عنه سبحانه فبذلك يعطلون صفات الله ﷻ ويتظاهرون بتقديسه، وهذان رأيان باطلان لا حظ لهما من النظر. وبقي أمامنا رأيان هما محل أنظار العلماء في العقائد وهما رأي السلف ورأي الخلف.

ثم قسم الناس في هذه القضية إلى أربعة فرق وتكلم عن كل واحدة بما يوافق كلام السلف ثم عقد مقارنة بين السلف والخلف وقال:

ترجيح مذهب السلف: «ونحن نعتقد أن رأي السلف من السكوت وتفويض علم هذه المعاني إلى الله تبارك وتعالى أسلم وأولى بالاتباع حسماً لمادة التأويل والتعطيل - يقصد تفويض علم الكيفية- فإن كنت ممن أسعده الله بطمأنينة الإيمان وأثلج صدره ببرد اليقين، فلا تعدل عنه بديلاً ونعتقد -إلى جانب هذا- إن تأويلات الخلف لا توجب الحكم عليهم بكفر ولا فسوق ولا تستدعي هذا النزاع الطويل بينهم وبين

(١) من الآية ١١ من سورة الشورى.
(٢) سورة الإخلاص.

غيرهم قديماً وحديثاً وصدر الإسلام أوسع من هذا كله»[1].

فهل هذا الكلام فيه خروج علي رأي السلف؟

نحن نجمل لك: رأي السلف والخلف في سطور قليلة لتتضح لك المقارنة.

بين رأي السلف والخلف:

السلف يقولون:

١- نؤمن بما ثبت من الصفات (اليد والعين والاستواء...إلخ) كما هي؛ لأن القرآن والسنة قد ذكروا ذلك.

٢- ونحن نفهم من هذه الصفات معناً ذهنياً مطلقاً هذا المعنى عند إضافته للخالق ﷻ يختلف تماماً عنه إذا أُضيف للمخلوق ولا يشبهه فهو في حق الله كامل بما يليق بجلاله وفي حق المخلوق ناقص.

٣- لا يعرف حقيقة هذه المعاني وكنهها إلا الله فنحن نفوض إليه ﷻ معرفة المراد بهذه الصفات من حيث معانيها اللائقة به كمالاً وكنهًا.

الخلف يقولون:

١- نؤمن بكل ما جاء في القرآن والسنة مما يتعلق بصفات الله [اليد والعين والاستواء...إلخ].

٢- نؤمن أن هذه الصفات ليس المقصود منها معانيها في حق المخلوقين فالله لا يشبهه شيء.

٣- نقطع بأن معاني هذه الصفات [اليد والعين والاستواء...إلخ] ليست على ظاهرها المراد في حق المخلوقات. وليس هناك ظاهر إلا المعروف في حق المخلوق، وبذلك نحمله على ما تجيزه اللغة ولا يصطدم مع الشرع لنبتعد عن شبهة المماثلة التي تتبادر إلى الذهن؛ لأن الذهن ألف إطلاق هذه الصفات على المعنى المضاف إلى المخلوق، فالمسافة كما ترى ليست

---

(١) مجموعة الرسائل، حسن البنا، رسالة العقائد، ص ٣٠٠-٣٣١، بتصرف.

بعيدة بين الاثنين وهذا ليس رأي الإمام البنا وحده ولكن معه من أئمة السلف الكثير.

واسمع ما قاله الإمام الشاطبي: يقول: «ومن أشد مسائل الخلاف-مثلاً- مسألة إثبات الصفات حيث نفاها من نفاها فإذا نظرنا إلى مقاصد الفريقين وجدنا كل واحد منهما حائماً حول حمى التنزيه ونفي النقائص وسمات الحدوث وهو مطلوب الأدلة وإنما وقع اختلافهم في الطريق وذلك لا يخل بالقصد في الطرفين معاً فالحاصل في هذا الخلاف أشبه الواقع بينه وبين الواقع في الفروع»[1] أي أنها من مسائل الخلاف حيث قال: ولا يوجب هذا الخلاف تكفير كل من أخطأ فيها إلا أن تقوم فيه شروط التكفير.

ويقول الإمام ابن تيمية: «فأما سائر وجوه الاختلاف كاختلاف التنوع والاختلاف الاعتباري واللفظي فأمره قريب وهو كثير أو غالب على الخلاف في المسائل الخبرية»[2] والمسائل الخبرية أي مسائل العقيدة الدقيقة أغلبه خلاف اعتباري ولفظي.

ويقول الشيخ أبو زهرة: إن اختلاف العلماء في هذه المعاني لا يقتضي أن يُكفّر فريق لآخر؛ لأنه اختلاف نظر لا اختلاف حقيقة.

فلقد أصاب الإمام البنا فيما قال ووافق السلف في قولهم ولم يخالفهم فيما قالوا فالكلام الذي سمعته من الفقهاء هو عين ما قاله البنا.

ومع هذا يجب أن ننبه على أمرين:

١-إن الخلاف قريب بين السلف وهذه الطائفة التي أولت الصفات في دائرة اللغة والشرع ولا يصطدم.

٢-نحذر من شبهتين: الأولى شبهة من ظن أن الإثبات القصد منه مشابهة الحوادث، فيظن أن المقصود باليد يد كأيدينا -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - وانتهى الأمر بهم على التجسيد والتشبيه.

---

(١) الاعتصام، للإمام الشاطبي٢/ ١٨٧.
(٢) الفتاوى، لابن تيمية ٦/ ٥٨.

والشبهة الثانية: من ظن أن التأويل هو النفي فنفى عن الباري ﷻ السمع والبصر.... إلخ. فطريق أهل السنة والجماعة محصور بين من أثبت بالشروط التي ذكرناها- وهم من قال عنهم الإمام البنا فإن كنت ممن أسعده الله بطمأنينة الإيمان..« وبين من أوّل بالشروط التي ذكرنا وهم من قال عنهم الإمام البنا أنهم لا يجب الحكم عليهم بكفر ولا فسوق.

بعد هذا الذي سقناه لك لنبين مطابقة ما قاله الإمام البنا مع ما قاله علماء السلف في هذه القضية إلا أن من الغريب حقاً أن ترى بعض المسلمين يتركون كل ما قاله موضحاً رأيه ويتمسكون بكلمة قالها في معرض كلامه في هذه القضية حين قال »ونحن نعتقد أن رأي السلف من السكوت وتفويض علم هذه المعاني إلى الله تبارك وتعالى أسلم وأولى بالاتباع« فإذا بهم تارة يرمون الإمام البنا بالتفويض وأنه أشعري علماً بأنهم ينسون أن الأشعري كان إمام أهل السنة والجماعة في زمانه وتارة يرمونه بأنه جهمي والجهمية من المبتدعة الذين نفوا الصفات تماماً والإمام البنا منهم بريء.

والحقيقة التي نريد أن نؤكد عليها أن الإمام البنا ﷺلم يكن غرضه أن يكون مدرس عقيدة أو مدرس فقه ولكن كان كل همه أن يدعو إلى الإسلام ويربي عليه رجالاً والذي يقرأ ما كتبه يجد اهتمامه وتركيزه في غرس العقيدة وتربية جيل عليها وحين تكلم عن معاني الإسلام كان دائماً يشير إلى منهج الرسول ﷺ في غرس هذه العقيدة ونحى منحى رسول الله ﷺ في تربية الرجال عليها ودائماً كان يركز على أثرها في تربية الرجال، هذا هو الذي اهتم به ولم يخض لا في المصطلحات الفلسفية ولا في التعبيرات الكلامية ولا كان يميل إلى الدخول في هذه المساجلات التي لا تسمن ولا تغني من جوع ولكن كان منهجه في تقديم العقيدة هو منهج القرآن والسنة المطهرة يقول الإمام البنا:لم ألجأ إلى المصطلحات الفنية التي تواضع عليها العلماء المختصون بعلم الكلام ولا النظريات الفلسفية ولا الأساليب المتعمقة التي درج عليها المتكلمون ولكن سألجأ إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة وما عرفناه من سيرة الصدر الأول. ولو أننا نظرنا إلى منهج القرآن في عرض الأسماء والصفات بعيدًا عن هذا الجدل الذي يعيش فيه الناس لو أننا قرأنا آيات تثبت صفات لله ﷻ وقدرته القادرة كما يقول القرآن فمثلاً قول الله: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي

هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

وتأمل ما يقوله سيدنا إبراهيم عليه السلام: **﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**(٢) فانظر إلى عرض الصفات لتعطي العقل حقه من التفكير كما تعطي للقلب اطمئنانه واستقراره وشعوره بقدرة الله ﷻ، وهذا هو المنهج القرآني. ولذلك بَعُد الإمام البنا عن تكفير الناس؛ لأن هذه ليست مهمته ولا رسالته ولكن مهمته أن يبين ويدعو ويستثير العقول لتفكر ويستجيش عواطف القلوب ومشاعرها كي تستطيع أن ترى طريق الله ﷻ؛ ولذلك فإن الإمام البنا رضوان الله عليه لم يفاتح العامة في مثل هذه القضايا، فليست هذه القضايا لعامة الناس إنما هي كما قال المولى: **﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾**(٣).

التفويض:

فما هو التفويض الذي اتهم به الإمام البنا؟

إن التفويض من الألفاظ المجملة التي تضم تحتها معانٍ مختلفة فهو ينقسم إلى نوعين:

أ- نوع مذموم يجب أن ننأى عنه.

ب- نوع محمود يجب أن نقول به ونعتقده.

فأما المذموم الذي يجب أن ننأى عنه هو أن يظن امرؤ أن ألفاظ هذه الآيات وأحاديثها -آيات الصفات وأحاديثها- ليس لها معانٍ ولا يفهم منها شيء على أي وجه من الوجوه فهي عنده بمثابة «طسم» و«كهيعص».... إلخ. فالسلف كانوا يقرءون

(١) من الآية ٢٥٩ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ٢٦٠ من سورة البقرة.
(٣) من الآية ١٢٢ من سورة التوبة.

آيات الصفات وأحاديثها ويتدبرونها؛ لأن الله يقول: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(١) وكانوا يفهمون الآيات على معانيها ولكن ليست المعاني المرادفة للغة فليس هذا هو المقصود بمنهج السلف؛ لأن الخلف كانوا يفهمون هذه المعاني إنما المعاني التي كان يفهمها السلف من الآيات والأحاديث هي المعاني الكلية العامة المجردة فإذا أضيفت هذه المعاني المجردة اختلفت دلالتها تماماً في حق الخالق عن دلالتها في حق المخلوق فإذا تدبرت ذلك زال الإبهام.

أما النوع المحمود اعتقاده: هو تفويض حقيقة معناها عند إضافتها للمولى ﷻ؛ لأننا لا ندرك كنه الذات؛ ولذلك فلا يمكننا أن ندرك كنه الصفات فإنه تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(٢) ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾(٣).

ولذلك يقول الإمام السيوطي: السلف وأهل الحديث على الإيمان بها وتفويض معناها المراد إلى الله تعالى ولا نفسرها، هذا ما قاله الإمام السيوطي وإليك ما قاله الإمام البنا: «ومعرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه من أسمى عقائد الإسلام وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما لحق بذلك من المتشابه نؤمن به كما جاء من غير تأويل ولا تعطيل ولا نتعرض لما جاء فيه من خلاف بين العلماء ويسعنا ما وسع رسول الله ﷺ وأصحابه: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾(٤) ويقول: «والذي يجب أن يتفطن له المؤمن أن المعنى الذي يقصد باللفظ في صفات الله تبارك وتعالى يختلف اختلافاً كلياً عن المعنى الذي يقصد بهذا اللفظ عينه في صفات المخلوقين...إلخ. ثم يقول: فهذه كلها مدلولات الألفاظ فيها تختلف عن مدلولاتها في حق الخلق من حيث الكمال والكيفية اختلافاً كلياً؛ لأنه تبارك وتعالى لا يشبه أحداً من خلقه فتفطن لهذا المعنى فإنه دقيق».

فماذا في هذا حين يفوض حقيقة المعنى المتعلق بذات الله وعدم إدراك مدلولات

---

(١) من الآية ٢٤ من سورة محمد.
(٢) من الآية ١١ من سورة الشورى.
(٣) من الآية ١١٠ من سورة طه.
(٤) من الآية ٧ من سورة آل عمران.

الألفاظ من حيث الكمال والكيفية، فهل يدعي أحد معرفة حقائق ما يتعلق بذات الله والإحاطة بذلك؟ أم يفوضها لله تعالى؟ وهذا ما قال به الإمام البنا رحمه الله وهو نفس ما قاله الإمام مالك: إن الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: «واعلموا أن آيات الصفات كثير من الناس يطلق عليها اسم المتشابه وهذا من جهة غلط ومن جهة قد يسوغ كما قال مالك بن أنس بقوله الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب فكون الاستواء غير مجهول يدل على أن معناه غير متشابه بل هو معروف عند العرب وقوله والكيف غير معقول يدل على عجز البشر عن إدراكه وما استأثر الله بعلمه يسمى متشابهًا» كل ما استأثر الله بعلمه يسمى متشابهًا: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ﴾[1] وهو بالنسبة إلى المعنى غير متشابه وبالنسبة إلى كيفية الاتصاف به متشابه؛ ولذلك هذه الأمور تذكرنا موقف الرسول ﷺ مع الجارية التي سألها الرسول ﷺ: «أيْنَ اللهُ؟» فأشارت إلى السماء وقالت: في السماء **فقال**: «اعْتِقهَا فإنّها مُؤمِنَة»[2] جاء عن بعض السلف أنهم قالوا في الصفات أمِرّوها كما جاءت بلا تفسير ووضعوا لذلك قاعدة أسموها «الإقرار والإمرار» يعني نقر الصفة ونمرر الكيف.

وقال به الإمام السيوطي: «ومن المتشابه آيات الصفات نحو:﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[3] و﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[4] وجمهور أهل السنة ومنهم السلف وأهل الحديث على الإيمان بها وتفويض معناها المراد إلى الله تعالى ولا نفسرها مع تنزيهنا له عن حقيقتها».

فالمنهي عنه كما قال نعيم بن حماد والخزاعي شيخ البخاري هو أن ننكر ما وصف الله به نفسه فهذا كفر، أو أن نشبه الله بخلقه فهذا كفر، إنما نثبت لله تعالى ما أثبت لنفسه من الصفات ولكن معاني هذه الصفات يفهمها الناس كلٌ على قدر

---

(١) من الآية ٧ من سورة آل عمران.
(٢) رواه مسلم.
(٣) من الآية ٥ من سورة طه.
(٤) من الآية ١٠ من سورة الفتح.

فهمه كما قاله الإمام ابن تيمية فيفرقون بين السمع والبصر أما كيفية هذه الصفات فلا يعلمها إلا الله تعالى فهل قال الإمام البنا بغير ذلك؟

إن هذه الاتهامات ليست جديدة على علماء الأمة بل هي أمور قديمة فالمعتزلة أنفسهم يتهمون من لا يقول بتخليد مرتكب الكبيرة بأنه من المرجئة ونحن في نظرهم كذلك، وقد أطلق على أبي حنيفة وتلاميذه أبي يوسف ومحمد ابن الحسن وغيرهم اسم المرجئة وكذلك قيل عن سعيد بن جبير ومقاتل بن سليمان وحماد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة وغيرهم فكيف لا يُتهم الإمام البنا؟ ليس بدعاً من العلماء، ولو سرنا على منهج هؤلاء الذين يتهمون البنا لقلنا إن ابن القيم من الجهمية؛ لأنه قال كما قالوا بفناء الجنة والنار وإن أحداً لم يُبدِّعه؛ لأن هذا ليس بمنهج علمي؛ لأنه لا ينظر إلى جميع آراء ابن القيم كلها ويحكم عليها وإنما حكم مجرد أن قرأ له معنى واحدًا فساقه وعمم وهذا الأسلوب يفرق ولا يجمع، يُبغض ولا يحبب، يمزق ولا يؤلف، فما أطيب منهاج السلف!

للعقيدة أصول وفروع:

والذي يجب أن ننبه إليه ونؤكد عليه أن للعقيدة أصولاً وفروعاً والخلاف في فروع العقيدة فيه نظر ولا إنكار فيه طالما أنه يحتمل وجوهاً فهذه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها خالفت ابن عباس وغيره من الصحابة في أن محمداً ﷺ رأى ربه وقالت: من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، بينما جمهور العلماء على رأي ابن عباس ولا يبدعون المانعين الذين وافقوا أم المؤمنين رضي الله عنها.

لقد أنكرت أيضًا أن يكون الأموات يسمعون دعاء الحي لما قيل إن النبي ﷺ قال: «**وَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّد بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ**»[1] كما ثبت عن رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ رَجُلٍ يمرُّ بقبرِ أخيه كانَ يعرفه في الدنيا فيسلمُ عليه إلا ردَّ اللهُ عليه ورحمهُ حتى يردَ عليه السلامَ**»[2] إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة التي لم تمنع أم المؤمنين رضي الله عنها من خلافها مع ابن عباس رضي الله عنهم أجمعين، فهل نسوي بين أصول العقيدة وفروعها؟

(١) رواه البخاري في صحيحه.
(٢) رواه ابن عبد البر.

وعلى هذا فأهل السنة -كما رأيت- وسط بين الفرق في الأسماء والصفات، فهم بين من عطّل ومن شبه، ينزهون بلا تعطيل ويثبتون بلا كيف، وهم وسط بين القدرية والجبرية فأثبتوا للإنسان مشيئة وإرادة وقالوا: أفعال العبد من الله خلقاً وتقديراً وإيجاداً، ومن العبد فعلاً وكسباً ومباشرة.

وهم وسط بين من كفر مرتكب الكبيرة وبين المرجئة الذين قالوا: لا يضر مع الإيمان معصية ولا ينفع مع الكفر طاعة، فلا يقولون بتخليد مرتكب الكبيرة، ويقولون أهل الكبائر تحت المشيئة ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾[١] فما دون الشرك الأكبر تحت المشيئة فهو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته أي ليس مؤمناً كاملاً.

ووسط في نظرهم للصحابة رضوان الله عليهم بين من فسقهم وكفرهم ومن عصمهم وعظمهم تقديساً فهم يحترمونهم ويجلونهم ويحبونهم ويثنون عليهم: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً**﴾[٢] ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ**﴾[٣] وأمسكوا عن الخوض في خلافهم فالواجب اتباعهم فنتكلم فيما تكلموا فيه ونسكت عما سكتوا عنه ويسعنا ما وسعهم.

فهل نأخذ بهذا المنهج جميعاً ونتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه، ونضع ما أمرنا الرسول ﷺ به موضع التنفيذ: « **وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا**»[٤] حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله. يروي لنا البخاري عن زينب بنت جحش أن النبي ﷺ دخل عليها فزعًا يقول: «**لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ**» وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ:«**نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**»[٥].

---

(١) من الآية ٤٨ من سورة النساء.
(٢) من الآية ١٨ من سورة الفتح.
(٣) من الآية ١٠٠ من سورة التوبة.
(٤) رواه البخاري في صحيحه.
(٥) رواه البخاري في صحيحه.

يقول الشيخ أبو زهرة: يشير ﷺ إلى ما سيجري بين المسلمين من خلاف من بعده.
وعن كرز بن علقمة الخُزاعي ﷺ قال: قال أعرابي يا رسول الله هل للإسلام من منتهى قال: «**أَيُّمَا أَهْلِ بَيْتٍ**» وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ «**نَعَمْ أَيُّمَا أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ الْعَرَبِ أَوْ الْعُجْمِ أَرَادَ اللَّهُ بِهِمْ خَيْرًا أَدْخَلَ عَلَيْهِمْ الإِسْلامَ**» قَالَ ثُمَّ مَهْ «**قَالَ ثُمَّ تَقَعُ الْفِتَنُ كَأَنَّهَا الظُّلَلُ**» قَالَ كَلا وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَالَ «**بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ثُمَّ تَعُودُونَ فِيهَا أَسَاوِدَ صُبًّا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**»(١). قال الزُّهريُّ: أَسَاوِدَ صُبًّا قال سفيان: الحَيَّةُ السَّوداء تُنصب أي ترتفع

وفي رواية: «**وَأَفْضَلُ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ مُؤْمِنٌ مُعْتَزِلٌ فِي شِعْبٍ مِنْ الشِّعَابِ يَتَّقِي رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ**»(٢).وصدق الإمام البنا حين قال: «إلى متى تتقارض أمتنا التهم وتتبادل الظنون وتتنابز بالألقاب وتترك يقيناً يؤيده الواقع في سبيل ظن توحيه الشكوك؟ فاللهم جنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن واجعل أعمالنا خالصة لوجهك الكريم ليس لأحد فيها شيء، اللهم آمين.

***

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده.
(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده.

مردود الأصل العاشر

أولاً: حصيلة العقل:

أ- اختر الإجابة الصحيحة (من الممكن أن تكون أكثر من إجابة صحيحة).

١- من مظاهرمنهج القرآن في عرض العقيدة:

أ	عرض مفهوم الإيمان مجردًا.	ب	ربط الإيمان بأفعال المؤمنين.
ج	الجمع بين القلب والعقل.	د	الجمع بين الإيمان والعمل.

٢- من فروع العقيدة:

أ	الإيمان بالإسراء والمعراج.	ب	رؤية النبي ﷺ لله تعالى.
ج	رفع عيسى عليه السلام.	د	جميع ما سبق.

٣- من الفرق التي نفت صفات الرب سبحانه وتعالى:

أ	الجبرية.	ب	المعتزلة.
ج	الأشاعرة.	د	الماتريديه.

٤- رأي السلف في أسماء الله تعالى وصفاته سبحانه:

أ	إثباتها مع تأويلها.	ب	تعطيل بعضها.
ج	تأويل بعضها.	د	إثباتها بلا تأويل ولا تعطيل.

ب- ضع (أ) أما العبارة الصحيحة و (ب) أمام العبارة الخطأ فيما يلي:

٥	العقيدة هي الدافع لأي تصرف أو سلوك.	
٦	كان اهتمام الإمام البنا بالعقيدة من باب شرحها وتوضيحها للناس.	
٧	من الأمانة العلمية توضيح الفرق بين صفات الذات وصفات المعاني للعوام من الناس.	
٨	اتفق المسلمون والمشركون في توحيد الربوبية.	
٩	من المقبول أن نقول عن الله تعالى «مهندس الكون الأعظم».	
١٠	لم يفرق العلماء في مسائل العقيدة بين الإيمان بالأصول والفروع.	
١١	الاختلاف في فروع العقيدة اختلاف يؤدي إلى الكفر أو الإيمان.	
١٢	دخول اليهود والنصارى والمجوس للإسلام من أهم أسباب ظهور الفرق الإسلامية.	
١٣	التفويض المذموم هو تفويض معنى الأسماء والصفات لله تعالى مع إثباتها.	
١٤	من القواعد التي وضعها الخلف في التعامل مع آيات الصفات «الإقرار والإمرار».	

قارن إجاباتك بالإجابات النموذجية في آخر مردود الأصل، وأعط نفسك درجة لكل إجابة صحيحة وصفرًا للإجابة الخاطئة.

أكثر من ١٦	١٤-١٦	١٢-١٣	٩-١١	أقل من ٩
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثانيًا: رصيد القلب:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	أوقن أن الاعتقاد الصحيح يتبعه سلوك قويم.					
٢	لا أحب إثارة موضوعات الأسماء والصفات مع من لا يمكنه استيعابها.					
٣	أحزن حين أرى من المسلمين من يكفر غيره لاختلاف في فروع العقيدة.					
٤	أتألم حين أرى من ينشغل بدراسة مصطلحات العقيدة دون أن يكون لها أثر في حياته.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٣	١٢-١٣	١٠-١١	٨-٩	أقل من ٨
ممتاز	جيد جدًّا	جيد	متوسط	ضعيف

ثالثًا: حساب الجوارح:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	ألتزم منهج السلف في التعامل مع أسماء الله تعالى وصفاته.					
٢	أوضح للناس أن للعقيدة أصول متفق عليها وفروع مختلف فيها.					
٣	لا أثير قضايا الأسماء والصفات مع من لا يمكنه استيعابها.					
٤	لا أنشغل بدراسة العقيدة كمصطلحات مجردة دون أن يكون لها أثر في حياتي.					
٥	لا أخوض فيما دار بين العلماء من خلاف في قضية الأسماء والصفات.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٧	١٥- ١٧	١٣- ١٤	١٠ - ١٢	أقل من ١٠
ممتاز	جيد جدًّا	جيد	متوسط	ضعيف

إجابات حصيلة العقل (١٠)

السؤال	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤
أ			✓		✓			✓				✓		
ب	✓	✓	✓			✓	✓		✓	✓	✓		✓	✓
ج	✓	✓		✓										
د	✓			✓										

الأصل الحادي عشر
البدعة الضلالة التي يجب محاربتها

«وكل بدعة في دين الله لا أصل لها استحسنها الناس بأهوائهم سواء بالزيادة فيه أو بالنقص منه ضلالة يجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التي لا تؤدي إلى ما هو شر منها»[1].

(١) مجموعة الرسائل، حسن البنا،رسالة التعاليم،ص ٢٧٠.

هذا الأصل يعالج:

١-البدعة الحقيقية وماهيتها.

٢-محاربتها بأفضل الوسائل.

الحقيقة أن هذا الموضوع حدث فيه لغط كثير والتبست مفاهيمه عند كثير من الناس وخلطوا خلطاً كبيراً في معنى البدعة، وما نراها اليوم بتكرار كلمة البدعة وإطلاقها في صغير الأمر وكبيره خير شاهد على ما نقول، والأمر كما ترى يحتاج إلى ضبط المعنى الفقهي لهذا المصطلح حتى نتبين ما هي البدعة الضلالة التي يجب محاربتها، والبدعة التي اختلف فيها العلماء، ولكي نحدد المعنى الشرعي الصحيح لهذا الموضوع يجب أن نعلم أولاً أن رسول الله ﷺ جاء برسالة سمحة تتسع لكل مطالب الناس وتفي بكل مستلزمات الحياة: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾[1]، فالمولى ﷻ من يوم أن قال لرسولنا ﷺ: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**﴾[2]، فكلمات هذه الآية تبين لنا أن الأمر قد اكتمل وأن الرسول ﷺ بين أمر الدين ووضحه بما لا يدع مجالاً للتساؤل في أصول العقيدة وأصول العبادة وثوابت الإسلام.

ومن هنا فإن الرسول ﷺ حين شرع لنا سنن الهدى قال ﷺ: «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ**»[3] إنها رسالة شاملة فصَّلت ما لا يتغير من الشئون الدينية، وأجملت ما يتغير مما يتعلق بتنظيم الدنيا واستغلال خيرات الكون لتتيح للمسلم سبل التقدم المادي والرقي والتطور الحضاري والوصول في مجال العمل والإبداع والإنشاء والاختراع إلى أقصى غاية لتكون الأمة الإسلامية كما أرادها الله خير أمة أخرجت للناس.

وعلى هذا فإن الأمور التي أمر فيها الرسول ﷺ بأمر أو نهى عن شيء مطلوب

---

(١) من الآية ٣٨ من سورة الأنعام.

(٢) من الآية ٣ من سورة المائدة.

(٣) رواه أحمد في مسنده، وغيره.

فيها الطاعة والالتزام بفعل المأمور وترك المحظور مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا إن الله شديد العقاب﴾[١].

والمسلم وقَّاف عندها لا يتخطاها بحال من الأحوال؛ لأن كل ما خالف سنة رسول الله ﷺ بدعة لا يرضاها الله ورسوله؛ وذلك لأن حقيقة الدين تتمثل في أمرين:

أولاً- ألا يُعبد إلا الله.

ثانياً- ألا يُعبد الله إلا بما شرع.

فمن ابتدع في ذلك شيئاً فهي ضلالة ترد عليه؛ لأن الشارع وحده هو صاحب هذا الحق كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[٢]، هذا في العبادات.

وأما العادات أو المعاملات فليس الشارع الحكيم منشئ لها بل الناس هم الذين أنشأوها وتعاملوا بها، والشارع الحكيم جاء إما مصححاً لها أو معدلاً ومهذباً أو مقراً في بعض الأحيان لما خلا عن الفساد والضرر منها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: إن تصرفات العباد من الأقوال والأفعال نوعين:

١- عبادات يصلح بها دينهم.

٢- عادات يحتاجون إليها في دنياهم.

وباستقراء أمور الشريعة نعلم أن العبادات التي أوجبها الله أو أحبها لا يثبت الأمر بها إلا بالشرع.

وأما العادات فهي ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه، والأصل فيها عدم الحظر فلا يحظر منها إلا ما حظره الله ﷻ؛ وذلك لأن الأمر والنهي هما شرع الله، والعبادة لابد أن تكون مأمور بها، فمالم يثبت أنه مأمور به كيف يحكم عليه بأنه محظور؟

---

(١) من الآية ٧ من سورة الحشر.
(٢) من الآية ٣٦ من سورة الأحزاب.

قاعدة نفيسة: يقول الإمام أحمد وفقهاء أهل الحديث: إن الأصل في العبادات التوقيف فلا يشرع فيها إلا ما شرعه الله وإلا دخلنا في معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾[(١)].

أما العادات فالأصل فيها العفو، فلا يحظر فيها إلا ما حرمه الله وإلا دخلنا في معنى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وحَلاَلاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[(٢)]، ومن هذا قول جابر بن عبد الله ﷺ في الحديث الصحيح: »كُنَّا نَعْزِلُ وَالْقُرْآنُ يَنْزِلُ لَوْ كَانَ شَيْئًا يُنْهَى عَنْهُ لَنَهَانَا عَنْهُ الْقُرْآنُ«[(٣)]، فهم في حل لأفعالهم حتى يبين القرآن.

فالأصل في الأشياء الإباحة فلا حرام إلا ما ورد به نص صريح صحيح من الشارع بتحريمه وإلا بقي الأمر على أصل الإباحة والحِل، وذلك كما بينا في الأصل الخامس.

وهنا يعنّ لنا سؤال: ما هي البدعة إذن؟

لابد أن نعلم أن مقابل البدعة السنة فما هي معنى السنة؟ لأن ابن عباس ﷺ وقف أمام قول الله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[(٤)] فقال: تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة.

فما هي السنة؟

السنة: لها معنى لغوي، فهي تعني الطريقة سواء أكانت محمودة أم مرفوضة، لكن يختلف المعنى تماماً إذا انتقلنا إلى المعنى الشرعي فهي ما بيَّن الرسول ﷺ من كتاب الله تعالى بالقول أو الفعل، وهي طريقته المتبعة التي فيها بيان لهذا الدين سواء أكان قولاً أو فعلاً أو تركاً أو تقريراً كما بيَّن العلماء ذلك.

أما البدعة: لغة هي الاختراع على غير مثال سابق، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ

---

(١) من الآية ٢١ من سورة الشورى.
(٢) الآية ٥٩ من سورة يونس.
(٣) رواه البخاري في صحيحه، وغيره.
(٤) من الآية ١٠٦ من سورة آل عمران.

والأرضِ﴾[١] وقال: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ﴾[٢].

أما تعريفها شرعاً فهي ما أحدث بعد الرسالة على سبيل التقرب إلى الله ولم يكن فعلها الرسول ﷺ ولا أمر بها ولا أقرها ولا فعلتها الصحابة.

وهي الحديث في الدين و (في الدين) هذا لفظ مقصود بذاته، فعندما نقول في الدين نكون قد أخرجنا العادات والتقاليد إلا ما نهى الرسول ﷺ عنه بعينه، وما استُحدث من بعد النبي ﷺ من الأهواء والأعمال، هذه الأمور التي استحدثت في الدين هي ما يطلق عليها كلمة البدعة، وهناك خلط في هذه الأمور؛ ولذلك فإن التلقي في الدين يجب أن يكون من رسول الله ﷺ، وهذا أمر لا يمكن أن يماري فيه مسلم؛ لأن ربنا ﷻ يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[٣]، فهو التزام بما أمر به رسول الله ﷺ وتحذير من البدع.

التحذير من البدع:

هناك الآيات الكثيرة وكذلك أحاديث رسول الله ﷺ التي تحذر من الابتداع في الدينذ ومخالفة شرع الله تعالى مثل قوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [٤] ومثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٥] وما روته السيدة عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[٦]، وفي لفظ آخر: « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ »[٧].

وعن العرباض بن سارية ؓ أنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا

(١) من الآية ١٠١ من سورة الأنعام.
(٢) من الآية ٩ من سورة الأحقاف.
(٣) من الآية ٧ من سورة الحشر.
(٤) من الآية ٥٩ من سورة النساء.
(٥) من الآية ٦٣ من سورة النور.
(٦) رواه البخاري في صحيحه، وغيره.
(٧) المصدر السابق وغيره.

رسول الله كأنها موعظة مودِّع فماذا تعهد إلينا؟ قال: «**أُوصيكُمْ بتقْوَى اللّـهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشيًّا فَإِنَّهُ مَنْ يَعشْ منْكُمْ بَعْدي فَسَيَرَى اخْتلافًا كَثيرًا فَعَلَيْكُمْ بسُنَّتي وَسُنَّة الْخُلَفاء الْمَهْديِّينَ الرَّاشدينَ تَمَسَّكُوا بهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بالنَّوَاجذ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَات الأُمُور فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَة بدْعَةٌ وَكُلَّ بدْعَة ضَلالَةٌ**»(١).

وقال ﷺ: «**ستَّةٌ لَعَنْتُهُمْ وَلَعَنَهُمْ اللَّهُ وَكُلُّ نَبيٍّ كَانَ: الزَّائدُ في كتَاب اللَّه، وَالْمُكَذِّبُ بقَدَر اللَّه، وَالْمُتَسَلِّطُ بالْجَبَرُوت ليُعزَّ بذَلكَ مَنْ أَذَلَّ اللَّهُ وَيُذلَّ مَنْ أَعَزَّ اللَّهُ، وَالْمُسْتَحلُّ لحُرَم اللَّه، وَالْمُسْتَحلُّ منْ عتْرَتي مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَالتَّاركُ لسُنَّتي**»(٢). وعن ابن مسعود ﷺ قال: «الاقتصاد في السنة أحسن من الاجتهاد في البدعة»(٣).

بغض الصحابة للبدع:

كان الصحابة ﷺ حذرين جداً من أي أمر يتصل بالدين فكانوا يتحرون مصدر التلقي ويتأكدون من أن رسول الله ﷺ فعله أو أمر به أو أقره أو نهى عنه.

قال أبو بكر:«أنما أنا مثلكم وإني لا أدري لعلكم ستكلفونني ما كان رسول الله ﷺ يطيقه، إن الله اصطفى محمداً على العالمين وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع فإن استقمت فبايعوني وإن زغت فقوموني»(٤).

وقال ابن مسعود: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم»(٥).

وقال ابن عباس لمن سأله الوصية: «عليك بتقوى الله والاستقامة واتبع ولا تبتدع»(٦).

وعن حذيفة قال: «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تَعَبَّدوها فإن الأول لم يدع للآخر مقالاً»(٧).

---

(١) رواه أبو داود في سننه، وغيره.
(٢) رواه الترمذي، والحاكم وصححه، وغيرهما.
(٣) رواه الحاكم موقوفا، وقال: إسناده صحيح على شرطهما.
(٤) تحذير المسلمين من الابتداع والبدع في الدين، لابن حجر.
(٥) المصدر السابق.
(٦) رواه الدارمي في سننه.
(٧) رواه أبو داود في سننه.

شروط البدعة:

البدعة التي يجب محاربتها لابد أن يتحقق فيها:

أولاً-أن تكون من الأمور التي يفعلها العباد على أنها من العبادات.

ثانيًا-يتقربون بها إلى الله تعالى.

ثالثًا-لم يجيء بها أصل في الدين.

وبالتالي كل أمر يتصل بالعقيدة أو يتصل بالعبادة أو يتصل بالتشريع، هذه الأمور كلها إن كانت تخالف نصاً من النصوص أو فعلاً من أفعال رسول الله ﷺ أو قولاً فيه نهي عن هذا وتقرب به العبد لله ﷻ عبادة تعتبر من البدع التي يجب محاربتها.

ذلك لأنه ليس كل ما يقال عنه أنه بدعة بإطلاق يجب أن يحارب -وسنوضح ذلك تفصيلاً بمشيئة الله- لأنه يجري على ألسنة كثير من الناس كلمة «بدعة وابتداع» فيتسع معناهما تارة حتى لا يخرج عن دائرتها شيء، ويضيق تارة حتى لا يتناول شيئاً، والحق أن المولى ﷻ كلف عباده عقائد تتصل به سبحانه وبرسالاته وكتبه واليوم الآخر كما كلفهم عبادات هي غذاء لهذا الإيمان وعلامة الصدق فيه، وحرم عليهم أشياء صوناً لحياتهم وحفظاً لعقولهم وأخلاقهم، وقد فصل لهم ذلك في كتبه ورسالاته ومجموع ما حرمه عليهم وما فصل وبين الدين الذي تعبدهم به ولا يُقبل منهم سواه.

وعلى العبد أن يقف عند حد العقيدة والعبادة والحل والحرمة لا يتعدى ما شرع الله وبين، والتصرف في شيء منه انحراف عن دين الله وابتداع فيه.

فالابتداع في الدين في عقيدته أو عبادته أو ما حل وحرم؛ ولذلك قال الإمام البنا: «وكل بدعة في الدين الله لا أصل لها..» أما ما لم يتعبدنا الله بشيء منه فليس من هذا الباب في شيء، والتصرف فيه بالتنظيم والتغير لا يكون من الابتداع الذي يؤثر على تدين الإنسان وعلاقته بربه.

والبدعة التي نتكلم عنها هي باعتبارها أمر استحدثه بشر ليستكمل به عبادة قربى لله وما هي من الدين في شيء، فكل ما يتصل بمثل هذه الأمور منهي عنها نهياً قاطعاً وليس هناك خلاف بين العلماء في هذه القضية البتة، لكن الذي نريد أن نركز عليه ما قاله ابن تيمية ؓ: «إن تصرفات العباد من الأقوال والأفعال نوعين:

الأول: عبادات يصلح بها أمر دينهم.
الثـاني: عادات يحتاجون إليها.

١- والعادات بطبيعة الحال ترتبط ببيئة المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان ارتباطاً وثيقاً، وطالما أن هذه العادات لا تصطدم بنص شرعي ولا توجيهٍ نبوي فالأصل فيها الإباحة؛ وتخضع لقاعدة «الأصل في الأشياء الإباحة»، فلا يطلب أحد الدليل على الأمور المباحة شرعاً كالعادات والتقاليد المباحة؛ فالمطلوب دليل على الحرمة وليس للحِل دليل فالأصل فيه الإباحة: فالذي يقول حرام هو المطالب بأن يأتي بدليل الحرمة، فالدماء والأموال والفروج الأصل فيها الحرمة، ولا تنتقل إلى الحل إلا بحكم الله ﷻ، يقول القرآن الكريم: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾[1]، فالأصل في هذه المأكولات الإباحة إلا ما حرم الرسول ﷺ وما قصة الضب منا ببعيد، فحين هاجر المسلمون إلى المدينة وجدوا حيوانًا يسمى الضب كان يأكله أهل المدينة فسألوا رسول الله ﷺ: أحرام الضب يا رسول الله؟ قال:«لا وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ بِأَرْضِ قَوْمِي فَأَجِدُنِي أَعَافُهُ»[2]، أي لو رأيتموني لا آكله فهذا أمر لا يتصل بالشرع ولكن نفسه ﷺ تعافه ونحن نؤكد على هذه المعاني؛ لأن بعض الناس وصل بها الحال إلى أنها حرمت رابطة العنق (الكرافت) والبدلة والقمصان الأفرنجية وغير ذلك تحريمًا قاطعاً، وبذلك لم يفرقوا بين الأمور التعبدية وما يتصل بالعادات والتقاليد

٢- عن العرباض بن سارية قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل: يا رسول الله كأنها موعظة مودِّع فماذا تعهد إلينا؟ قال:« أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّه وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَة وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّة الْخُلَفَاء الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَات الأُمُور، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»[3]. ومن هنا كان الصحابة ﷺ حذرين من أي أمر يتصل

(١) من الآية ٥٩ من سورة يونس.
(٢) رواه البخاري في صحيحه وغيره.
(٣) رواه أبو داود في سننه، وغيره.

بالدين ويتأكدون من أن رسول الله ﷺ فعله، فهذا الصحابي الجليل حذيفة ﷺ يقول: «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تَعَبَّدوها»[1]. فالصحابة ﷺ بمنزلتهم ومصاحبتهم لرسول الله ﷺ ترجع إليهم أمر العبادات لاتصالهم برسول الله ﷺ في صغير الأمر وكبيره.

٣- والحقيقة أن العلماء صاغوا معنى الابتداع وقالوا: إنه الأمر الذي يخرج به المؤمن عن دائرة الرسالة الإلهية التي جاء بها رسول الله ﷺ والذي يغتصب به المبتدع حق الله في التشريع، وهذا يعني أنه يدعو الناس إلى تشريعات ليست من القرآن ولا من السنة في شيء، والذي به يضع المبتدع نفسه موضع من يرى أن العبادات أو العقائد التي وضعها المولى ﷻ ليتقرب بها العباد إليه ناقصة، كقصة الثلاثة الذين سألوا عن عبادة الرسول ﷺ فكأنهم تقالّوها، فقال أحدهم: أما أنا فأصوم ولا أفطر، وقال الثاني وأما أنا فأقوم ولا أنام، وقال الثالث أما أنا فلا أتزوج النساء، فلما جاء الرسول ﷺ قال: « **أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[2]، لذا كان لابد أن يلتزموا بما التزم به رسول الله ﷺ.

بين التطور والابتداع:

وعلى هذا فإن الابتداع في مقتضيات الحياة هو من التطور المطلوب كي نلبي حاجة العصر الذي نعيشه حتى لا نتخلف عن الركب ولا نكون في عزلة عن الدنيا ولا يُسمع للمسلمين فيها صوت ولا يعرف لهم فيها وجود.

فالمولى ﷻ ما تعبدنا بمنهج خاص للأرض الزراعية وأنواعها وطرقها -مثلاً- بل أطلق للعقل الإنساني حريته ولم يأمره إلا بالبحث والنظر والكد والعمل بقصد الإصلاح ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ**﴾[3]، وقد كان ما أخذ الله به الأمم السابقة وقبّحه منهم ونعاه عليهم خاصاً بالابتداع في العقائد والعبادات والحل والحرمة ولم

(١) رواه أبو داود في سننه.
(٢) رواه البخاري في صحيحه وغيره.
(٣) من الآية ٢٢٠ من سورة البقرة.

يكن شيء منه مما يتصل بزينة الحياة الدنيا التي أخرج لعباده أو بنموها وتقدمها، فلم ينكر سبحانه مثلاً على سبأ أن تكون لهم جنتان عن يمين وشمال، ولم ينكر على قارون أن كان له من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، وامتن على داود عليه السلام بإلانة الحديد له، ورضي عن دعوة سليمان ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾[١]، فسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، وأسال له عين القطر، وسخر له الجن يعملون له من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، ثم يطمّعه في المزيد ويغريه بالعمل ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[٢].

فالإنكار إذن على الذين بدلوا عقائدهم الصحيحة وغيروا في رسوم العبادة وكيفيتها فكانت الصلاة عند البيت مكاء وتصدية، وطافوا به عرايا وحرموا ما أحل الله ﴿وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾[٣].

وعلى هذا فإن الابتداع في الدين هو:

١-الذي يخرج به المؤمن عن دائرة الرسالة الإلهية.

٢- والذي يغتصب به المبتدع حق الله في تشريع هو لله وحده.

٣-والذي به يضع المبتدع نفسه موضع من يرى أن العبادات أو العقائد التي رسمها المولى ﷻ ليتقرب بها العباد إليه ناقصة، أو فاسدة فأكملها أو أصلحها بابتداعه.

٤-أو موضع من يرى أن الرسول ﷺ الذي اصطفاه الله لتبليغ دينه قد قصر فيما أمر بتبليغه، وحجز عن عباد الله بعض ما يقربهم إليه.

«ولقد كان هذا الابتداع هو السبب الوحيد في اندراس العقائد والعبادات وانتزاع التدين من القلوب، وبذلك انقطعت صلتهم بالخالق وصار أساس التعامل بينهم القوة الغاشمة والطغيان المزري بالإنسانية؛ وعلى هذا فإن الابتداع يكون من الهوى

---

(١) من الآية ٣٥ من سورة ص.
(٢) من الآية ١٣ من سورة سبأ.
(٣) الآية ١٣٨ من سورة الأنعام.

والظن»[١] ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾[٢].

فهْم يجب أن يسود:

بعد هذا الفهم المحدد للبدعة في الدين يتضح أن الأمور الخلافية والأحكام الظنية التي يختلف فيها العلماء ليست من البدع ولا من الهوى والظن، فليس كل من خالف أخاه في رأي -كما سنرى بالنسبة للبدعة التركية والإضافية- أو أخذ برأي فقيه يصير مبتدعاً وإنما هو مقلد، وبذلك تخرج الأمور التي في دائرة الخلاف الفقهي من الابتداع.

وعلى هذا أيضًا فإن على المسلم أن يفكر فيما يلائم عصره من طرق التثقيف وخطط التعليم بما يوسع مدارك أبناء الشعب ويصل بهم إلى الثقافة النافعة من أقرب الطرق وأيسرها، وليس له أن يجمد على ما ورث من ذلك من آبائه وأجداده ويقف مكتوف اليدين دون أن يسلك طريق الاختراع والابتداع بما يحقق له العزة والمجد من وسائل الحياة ما دام لم يخرج عن دائرة ما أبيح التصرف فيه إلى دائرة المنهي عنه. وليعلم المسلم أن كل ما يحدث في هذا الجانب من المخترعات التي لم يسبق بها يكون محفوظاً له في تاريخ العاملين على ترقية شعوبهم، ويكون له في الوقت نفسه الثواب عند الله بقدر ما ينتفع العباد بمخترعاته وإنتاجه، وليس لنا أن نقول: عن شيء يقع في هذه الدائرة أنه لم يفعله الرسول ﷺ ولا أحد من خلفائه؛ ذلك لأنهم لم يفعلوه لأن زمنهم لم يطلبه ولم تخلق لديهم بواعث عمله أو التفكير فيه، ومحال على الرسول ﷺ وخلفائه أن يعترضوا لأن تقدمهم في الحياة شيء لا يمس عمله عقيدة أو عبادة فضلاً عن أن لديهم وسائل القدرة عليه إلا أنهم لم يعملوه بحجة أن الله لم يأذن لهم فيه فهو من باب **«أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»**[٣].

وقد وافق الرسول ﷺ سلمان الفارسي في حفر الخندق حول المدينة واشترك في حفره، وما مشروعات عمر بن الخطاب في تنظيم الدولة وإنفاذ الجيوش وترتيب الخراج وحبس ما أفاء الله على المؤمنين وتعيين الولاة وتغييرهم إلا أثراً من آثار هذا

---

(١) الفتاوى، للشيخ شلتوت،ص١٨٠،بتصرف.
(٢) من الآية ٢٣ من سورة النجم.
(٣) رواه الإمام مسلم.

الإطلاق فتقدموا ودانت لهم الدنيا وأيقظوا الإنسانية من نومها فثبتت أقدامهم ودانت لهم قوى الفساد في الأرض.

إن الناس في زماننا هذا ترى على ألسنتهم كلمة بدعة في كل شيء عرفوه وحرموا باسمها كثيراً من العادات الطيبة ووسائل الحياة السهلة، ولقد عرفنا من تاريخ الأديان أن التحريف الابتداعي قد أصابها من جهات ثلاث:

١-**من جهة العقيدة**: ومنها دخل الشرك وعبادة غير الله ودعاؤه والاستعانة به واللجوء إليه.

٢-**من جهة العبادة**: ومنها دخل التغيير بالزيادة والنقص والتغيير في الكيفية.

٣-**من جهة الحلال والحرام**: ومنها حرم الحلال واحتيل فأحلوا الحرام.

ولذلك فإن أشد ما نخشاه على شخصيتنا الإسلامية أن تسلك أمتنا بالأهواء أو التعصب مسلك السابقين فتطغى البدع على ديننا الانحراف على استقامتنا ونتشبه بهم في أمورهم كلها، ونقصد بمشابهة المخالفين في الدين التشبه بهم في خصائصهم الدينية، أما مجرد المشابهة فيما تجري به العادات والأعراف العامة فإنه لا بأس بها طالما لا يوجد نص بتحريم أو كراهة فإن لم يوجد فلا كراهة ولا حرمة، فقد قيل لأبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة وقد رُئي لابساً نعلين مخصوفين بمسامير: إن فلاناً وفلاناً من العلماء كرها ذلك لأنه تشبه بالرهبان فقال: «كان رسول الله ﷺ يلبس النعال التي لها شعر وإنها لمن لباس الرهبان»[1].

اتفاق لا خلاف معه:

وعلى هذا فإنه لا يوجد بين المسلمين من يختلف في حكم البدعة في الدين بهذا التحديد الذي رأيت -أي البدعة الأصلية- والتي حدثت أول محاولة لها مع هؤلاء الثلاثة الذين أكرر قصتهم لأهميتها، فقد جاءوا إلى بيوت النبي ﷺ يسألون عن عبادته ﷺ، فلما أُخبروها كأنهم تقالّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً. وقال آخر:

---

(١) الفتاوى، للشيخ شلتوت، ص١٨٥، بتصرف.

أنا أصوم الدهر لا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء الرسول ﷺ فقال: « **أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[١]، وهنا تتدخل النية، هل يعمل هذا العمل قربى إلى الله ﷻ واستشعاراً بأن الشريعة وأن المنهج وأن الطريقة التي تعبد بها رسول الله ﷺ ناقصة فيكملها، فهذا يُخشى عليه من الكفر. أم أن هذا اجتهاد منه في أمورٍ جائزة بالنسبة له وليست في أصل العبادات.

عن أبي سعيد قال: «بينا الرسول ﷺ يُقسّم -أي يقسم الفيئ- جاء عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي فقال اعدل يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «**وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ**» فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، دعني أضرب عنقه. قال: «**دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاتَهُ مَعَ صَلاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ** »[٢]، فانظر إلى أي حد وصل التطاول ولم يوقر رسول الله ﷺ، فالرسول ﷺ يقسّم بأمر مَن؟ بأمر الله ﷻ، وعملية القسمة في الفيء محددة بنص؛ ولذلك فعندما يأتي هذا الرجل ويقول للرسول ﷺ: اعدل يكون قد وقع في أمرين كليهما يؤدي إلى الكفر، **الأمر الأول** منهما وصفه للرسول ﷺ بصفة لا ينطق بها مؤمن (اعدل)، أما **الأمر الثانى** فالاعتراض على كتاب الله الذي قسّم الفيء بأقسام محددة ليس لأحد من المسلمين أن يتقدم عنها أو يتأخر.

ولقد حاول هذا المعترض أن يفتح باب الاعتراض على رسول الله ﷺ والخروج عن حد التسليم الكامل له وتمام الاتباع فما بالك بالذين يعترضون على شرع الله كله!!

إن الوحي كان يتنزل والدين يتكون ورءوس الضلال تخمد، وباءت كل المحاولات للانحراف بالدين أو التشكيك فيه بالفشل. أليست هذه بدعة لا يختلف المسلمون فيها؟ فالبدعة ليست لها زمان أو مكان محدد ولكنها موجودة في كل زمان ومكان ولا ينجو منها أحد إلا بالتمسك بالكتاب والسنة.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه وغيره.
(٢) المصدر السابق وغيره.

نشأة البدع في عهد الصحابة:

لقد حدث أول خلاف بين المسلمين بعد رسول الله ﷺ فيمن يكون الخليفة من بعده، وحسم الأمر في سقيفة بني ساعدة، ومر أيضًا عهد عمر ولم تظهر البدع، ثم جاء عهد عثمان رضي الله عنهم أجمعين وحصل الخلاف في أواخر عهده وجرى ما جرى وقتل عثمان مظلوماً، ثم بايع المسلمون الساكنون في المدينة علياً إلا طائفة، وبحرب الجمل وصفين ظهرت الخوارج والشيعة ثم المرجئة.

وفي أواخر عصر بني أمية أظهر معبد الجهني القول بالقدر، ثم جاء تلميذه جهم بن صفوان وضم إلى ذلك قوله ببدعة التعطيل، وهي نفي أسماء الله وصفاته، ثم جاء المعتزلة في عصر المأمون بن هارون الرشيد فقويت شوكتهم، وقد تأثروا بالفلسفة فكانت بدعة خلق القرآن التي امتحن فيها الإمام أحمد بن حنبل، هذا كله قديماً، أما اليوم فما أكثر بل وما أشد البدع في زماننا هذا فهي لا تعد ولا تحصى، وأشدها بدعة الحكم بغير ما أنزل الله والاحتفال بأعياد لها مناسبات دينية عند غير المسلمين والعادات الغربية التي تصطدم بشرعنا كالسفور والنساء الكاسيات العاريات، والاختلاط بين الجنسين وغير ذلك من الأمور التي مسخت شخصيتنا حتى صدق في القوم قول رسولنا ﷺ: « **لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لاتَّبَعْتُمُوهُمْ** »[1]. وصدق سفيان الثوري حين قال: لا يقبل قول إلا بعمل، ولا يستقيم عمل إلا بنية، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة.

والواجب علينا كمتبعين لرسول الله ﷺ: محاربة هذه البدع والقضاء عليها بأفضل الوسائل التي لا تؤدي إلى ما هو شر منها، وقد بينا بتوفيق الله هذا تفصيلاً في الأصل الرابع، فلتعد إليه فإنه مفيد في هذا الأصل، والأصول كلها يكمل بعضها بعضًا حتى يستوي الفهم الكامل الصحيح.

وعلى هذا نقول: إن البدعة الأصلية هي التي في دين الله ولا أصل لها وهذه لا يختلف مسلم في إنكارها ومحاربتها بالطرق الشرعية، والجدير بالذكر أن البدعة عامة لها تقسيماتها وأحكامها التي تختلف باختلاف هذا التقسيم، وهذا ما سنبينه بتوفيق الله في الأصل الثاني عشر.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه وغيره.

مردود الأصل الحادي عشر

أولاً- حصيلة العقل:

أ- اختر الإجابة الصحيحة (من الممكن أن تكون أكثر من إجابة صحيحة):

١- المقصود بالسنة في الشرع:

أ	الطريقة محمودة كانت أو مذمومة.	ب	أفعال الرسول وأقواله وتقريراته.
ج	أفعال الصحابة والتابعين وأقوالهم.	د	جميع ما سبق.

٢- العادات والتقاليد:

أ	الأصل فيها الإباحة.	ب	الأصل فيها الحرمة.
ج	تحتاج إلى دليل لإباحتها.	د	تحتاج إلى دليل لتحريمها.

٣- من شروط البدعة التي يجب محاربتها:

أ	يقصد بها التقرب إلى الله.	ب	تُفعل على أنها من العبادات.
ج	لها أصل وأدخل عليها جديد.	د	جميع ما سبق.

ب- ضع (أ) أما العبارة الصحيحة و (ب) أمام العبارة الخطأ فيما يلي:

٤	فصّل الإسلام في الأمور التي لا تتغير من شئون الناس.	
٥	المنشئ لعادات الناس ومعاملتهم هو الشرع الحكيم.	
٦	الأصل في العبادات العفو، فلا يحظر إلا ما حرم الله.	
٧	لا حرام إلا فيما ورد فيه نص صحيح صريح.	
٨	للنية دور كبير في تحديد بدعية الفعل أو القول أم لا.	
٩	المسائل الخلافية لا تدخل تحت مسمى البدع.	

قارن إجاباتك بالإجابات النموذجية في آخر مردود الأصل، وأعط نفسك درجة لكل إجابة صحيحة وصفرًا للإجابة الخاطئة.

أكثر من ٩	٨-٩	٧	٦	أقل من ٦
ممتاز	جيد جدًّا	جيد	متوسط	ضعيف

ثانيًا- رصيد القلب:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	أستشعر خطورة انتشار البدع في الانحراف عن منهج الله.					

٢	لا يغيب عني أن المسلم مطالب بالإبداع في شئون الحياة.					
٣	أعتقد أن التقرب إلى الله لا يكون بما شرعه سبحانه.					
٤	أكره الخلط بين البدعة في الدين والبدعة في شئون الحياة.					
٥	أستشعر مسئوليتي في القضاء على البدع بأفضل الأساليب الشرعية المتاحة.					

دائما=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٧	١٥- ١٧	١٣- ١٤	١٠ – ١٢	أقل من ١٠
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثالثًا- حساب الجوارح:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	أبين للناس الفرق بين البدعة الدينية والبدعة الدنيوية.					
٢	ألتزم بما شرعه الإسلام من عبادات دون زيادة أو نقصان فيها.					
٣	أحذر من حولي من خطورة الوقوع في البدع.					
٤	أجتهد في أن أكون مبدعًا في كل شئوني الحياتية.					

دائما=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٧	١٥- ١٧	١٣- ١٤	١٠ – ١٢	أقل من ١٠
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

إجابات حصيلة العقل (١١)

السؤال	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
أ		✓	✓	✓			✓	✓	✓
ب	✓		✓		✓	✓			
ج									
د		✓							

الأصل الثاني عشر

البدع المختلف في الحكم عليها

«والبدعة الإضافية والتركية والالتزام في العبادات المطلقة خلاف فقهي لكلٍ فيه رأيه ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان»[1]

(١) مجموعة الرسائل، حسن البنا، رسالة التعاليم،ص٢٧٠.

هذا الأصل يعالج:

١-البدعة الإضافية.

٢-البدعة التركية.

٣-الالتزام في العبادات المطلقة.

هذا الأصل متمم لفهم البدع بأنواعها بل ومبين للفرق الواضح بين الأصل السابق وهذا الأصل؛ ذلك لأننا إذا قلنا أن الأصل السابق تكلم عن البدعة الأصلية والتي هي في أمور تتصل بأصل الدين ويقصد بها العبادة والتقرب إلى الله بالرغم من أنها لا أصل لها واستحسنها الناس بأهوائهم بالزيادة فيه أو بالنقص منه، وهذه هي البدعة التي يجب محاربتها بالطرق الشرعية وهذا أمر لا خلاف فيه بين العلماء لأنها - أي البدعة- عمل يخالف معلوماً من الدين بالضرورة أو نصًا لا يحتمل اجتهادًا أو تأويلاً أو إجماعًا، أو غير ذلك من الأمور القطعية التي لا اجتهاد فيها وهذا الأصل المختلف فيه بين العلماء؛ لذلك فإن الإمام البنا رحمه الله أفرد هذا الأصل وخصصه ليوضح الفرق بين البدعة الإضافية والتركية والالتزام في العبادات المطلقة وبين البدعة الحقيقية التي تتصل إما بالعقيدة أو العبادة أو الحل والحرمة.

فالذي نحن بصدده في هذا الأصل -ونكرر ذلك ونؤكد عليه- أنه من مسائل الخلاف الفقهي، فهناك من العلماء من جوزها وهناك من منعها ولكل رأيه، فأصبح من المسائل الظنية المجتهد فيها، والإمام النووي ﷺ يقول: «المختلف فيه لا إنكار فيه»، أي عند اختلاف العلماء في قضية من القضايا الفقهية فلا أمر فيها بالمعروف ولا نهي عن المنكر؛ لأن من شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن تكون القضية التي فيها أمر ونهي مُجمع عليها وليس مختلف فيها، فما حقيقة هذه البدع المختلف فيها في الأصل الذي نحن بصدده؟.

البدعة الإضافية:

هي كل بدعة لها أصل في الدين، أي أصلها مشروع وهذا هو الشرط الأول ولكن اختلف في الكيفية، أي كيفية الأداء ولها شائبتان.

إحداهما: لها من الأدلة متعلق فلا تكون من تلك الجهة بدعة لأن لها أصل في الدين مشروع كما قلنا.

الأخرى: ليس لها متعلق إلا بمثل ما للبدعة الحقيقية؛ ولذلك سميت بدعة إضافية لأنها بالنسبة إلى إحدى الجهتين سنة لأنها مستندة إلى دليل وبالنسبة للجهة الأخرى بدعة لأنها مستندة إلى شبهة لا إلى دليل أو غير مستندة إلى شيء، ولذلك سميت إضافية لأنهالم تتخلص لأحد الطرفين: إما المخالفة الصريحة أو الموافقة الصريحة.

مثال لذلك: الصلاة على رسول الله ﷺ بعد الأذان مباشرة بتغن وتلحين في الصوت كما يفعل بعض المسلمين في معظم مساجد الأوقاف وبعض المساجد الأهلية، فهي من حيث الأصل مشروعة لأن الرسول ﷺ طلب منا أن نصلي عليه ﷺ بعد الأذان ولكن الكيفية هنا هي التي اختلفت، فبعضهم يقول يردد المؤذن والسامعون الصلاة الإبراهيمية التي في آخر التشهد لأنها الصيغة الواردة والبعض من المؤذنين يستكمل بعد الأذان وبصوت جهوري الصلاة على النبي ﷺ بصيغ متعددة، ولذلك فقد اختلف الكيف مع اتفاق الجميع في أداء الصلاة على النبي ﷺ بعد الأذان، ولذلك سميت بدعة إضافية لأن الأصل موجود إلا أن الكيف تعددت وجوهه. وقس على ذلك هل لصلاة الجمعة أذان واحد يردده المؤذن والإمام على المنبر أم أذانين؟ وأكبر دليل على صحة هذا وذاك ما يحدث في الحرمين، المسجد الحرام ومسجد رسول الله ﷺ من رفع الأذانين وليس أذان واحد حتى يومنا هذا، بينما في بعض المساجد في بعض الأقطار يرفع أذان واحد فحسب والإمام على المنبر، والأدائان صحيحان.

مثال آخر: قراءة سورة الكهف في بعض المساجد من قارئ معين يجلس على كرسي بصوت مسموع والجميع ينصت له؛ وذلك لانتشار الجهل والأمية وعدم حفظ القرآن، وهذه الطريقة تعين هؤلاء على سماع القرآن، فقراءة سورة الكهف مشروعة وسنة من السنن فلو قرأها كل مسلم على حدة فقد أصاب السنة في رأي الذين يحكمون على ابتداع من قرأها بصوت يسمعه جميع المصلين والحكم الشرعي في هذين الوضعين أنهما صحيحين ومشروعين إلا أنهما اختلفا في الكيف كالمثال السابق الذي

سقناه، فالأصل مشروع واختلف الكيف فأشد حكم فيها أنها بدعة إضافية، وحكمها مختلف فيه، والمختلف فيه لا إنكار فيه.

لقد وصل الأمر ببعضهم أن يسمي المسجد الذي يؤذن فيه أذانين لخطبة الجمعة أنه مسجد بدعة لماذا؟ لأنه يؤذن أذانين وتنشب المعارك بل وصل الأمر إلى أن بعضهم أيضًا يسمع أذان الفجر يؤذن في رمضان ويتعمد أن يأكل ويشرب أمام الناس لأن هذا الفجر الكاذب ولم يأت وقت الفجر الصادق بعد وحتى الآن، إنها أمور عجيبة وغريبة ولا تستند إلى فقه حتى وصل الأمر إلى أن يقال لأحد الإخوة الدعاة الذين يعطون دروساً في المساجد: أنت أشد عداوة من اليهود؛ لأن اليهود هم أعداء الله ومعروفون أما أنت فباسم الدين تلبس على الناس أمر دينهم وتنشر البدع بينهم، فأولى بنا أن نحاربك أنت قبل أن نحارب اليهود.

المأثورات وورد الرابطة[١]: نستطيع أن نقول على أكثر الفروض أنهما من البدع الإضافية المختلف في حكمها، ذلك لأن الأدعية التي وردت في المأثورات مشروعة وأحاديثها صحيحة والدعاء بها سنة مستحبة ولكن قراءتها بهذا الترتيب الذي وضعه الإمام البنا غير واجبة وغير واردة، فالخلاف هنا في الكيف مع وجود الأصل؛ ولذلك نعتبرها في أشد الأحكام بدعة إضافية، ومن دقة الأستاذ البنا وتحرزه أنه قال في ورد الرابطة بعد أن ذكر المأثور من الدعاء قال يدعو الأخ بمثل هذا -الدعاء- حتى لا يظن أحد أن هذا الترتيب واجب الإتيان به.

يقول الدكتور القرضاوي: ولكي نتلافى هذا الخلاف -وإن كانت مسألة خلافية- يمكن قراءتها -أي المأثورات- بأن نقدم بعضها مرة ونؤخر بعضها مرة أخرى حتى لا يظن ما هو ليس بواجب واجب، ولقد كان أبو بكر وعمر لا يضحيان مخافة أن يرى ذلك الناس واجباً، وكان ابن عباس يشترى بدرهمين لحمًا ويقول هذه أضحية ابن عباس حتى لا يعتقد الناس وجوب الأضاحي، والأمثلة على ذلك كثيرة فكل بدعة

---

(١) المأثورات: أدعية مأثورة عن النبي ﷺ جمعها الإمام البنا في كتيب وكان ينصح كل أخ بقراءتها صباحا ومساء كما حببنا إليها رسول الله ﷺ،أما ورد الرابطة فدعاء طيب جزء منه مأثور عن النبي ﷺ والجزء الآخر أضافه الإمام البنا وكان يردده مع كل غروب وينصح إخوانه بذلك.

لها أصل في الدين مشروع، ولكن اختلفت الكيفية فهي بدعة إضافية من مسائل الخلاف الفقهي الذي لا إنكار فيه.

وها هو ابن عمر رضي الله عنهما يسمي صلاة الضحى جماعة في المسجد بدعة إلا أنه استحسنها، فعن مجاهد قال: دخلت أنا وعروة بن الزبير المسجد فإذا عبد الله بن عمر جالس إلى حجرة عائشة والناس يصلون الضحى في المسجد فسألناه عن صلاتهم فقال: بدعة. (١) وفي رواية: نعمت البدعة.

الذكر الجماعي ومشروعيته:

فضل الذكر(٢):

إن ذكر الله ﷻ ودعاءه ومناجاته بالمأثور عن رسول الله ﷺ في جميع الأحوال والأوقات والمناسبات هو إحدى الركائز الكبرى في هذا الدين العظيم، يقول المولى ﷻ موجهاً نداءه الكريم إلى عباده المؤمنين: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۞ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾**(٣)، وتلك الصفات العشر التي يجب على جميع العباد -رجالاً ونساءً- أن يكونوا من أهلها، والتي بدأها المولى ﷻ بالإسلام وجعل مسك الختام (الذكر والذكر الكثير) فقال عزَّ من قائل: **﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾**(٤)، وحسب الذكر والذاكرين شرفاً وفضلاً أن يقول رسولنا الحبيب ﷺ ردًا على هذا الصحابي الذي سأله: يا رسول الله إن شرائع الإسلام كثرت عليّ، فدلني على شيء أتشبث به. فقال: «**لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ**»(٥).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه وغيره.
(٢) الذكر الجماعي، الشيخ نصر عبد الفتاح، بتصرف.
(٣) الآيات ٤١-٤٢ من سورة الأحزاب.
(٤) الآية ٣٥ من سورة الأحزاب.
(٥) رواه الترمذي في سننه وغيره.

والمؤمن قوي الإيمان يذكر ربه على جميع حالاته ذكراً كثيراً، ولقد وصف الذكر المأمور به في القرآن بالكثرة في عدة مواضع. فنعوذ بالله من الغفلة عن ذكره، كما نعوذ به كذلك أن نشبه المنافقين -ولو في الشكل والصورة- ذلك أن الله تعالى قد وصفهم بقوله: ﴿وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[1]، ولنسعتن به ﷻ على ذكره وعلى أمرنا كله، داعين ملحين مخبتين: «اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»، «اللهم لا تولنا غيرك، ولا تُؤمنا مكرك، ولا تنسنا ذكرك، ولا تكشف عنا سترك، ولا تجعلنا من الغافلين».

فوائد الذكر:

إن للذكر فوائد جليلة الشأن عظيمة الأثر في حياة المسلم في دنياه وآخرته وقد ذكر أكثرها الإمام ابن القيم في كتابه المبارك« الوابل الصيب».

فمنها: أنه يطرد عنك عدوك اللعين إبليس وجميع شياطين الإنس والجن، ويزيل عن قلبك كل هم وغم وحزن، ويملؤه بالفرح والسرور والبهجة، وبه يقذف الله في قلبك نور الإيمان وحلاوته فإذا بهما ينعكسان على وجهك وظاهرك مهابة وإشراقاً ونضرة وجمالاً، كما أن الذكر يغرس في قلبك حب الله تعالى ومراقبته والإنابة إليه ويجعلك قريباً منه ﷻ فيحبك ويرضى عنك ويرزقك من حيث لا تحتسب ويعلمك مالم تكن تعلم إلى آخر الفوائد الجمة التي لا تعد ولا تحصى نتيجة ذكر الله كثيرًا.

وما أشد افتقار المسلمين إلى مذاكرة هذه الفوائد كلها، وهضمها واستشعارها وتذوقها واليقين بصدقها، حتى يدفعهم ذلك بقوة وعزيمة إلى الإكثار من ذكر الله تعالى بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم في كل لحظة من لحظات هذا العمر المحدود في طريق الرحلة الطويلة الشاقة إلى الله ﷻ: إلى فردوسه الأعلى، إلى رضوانه الأكبر.

نذكر هذه المقدمة لأهميتها لنذكر أنفسنا بفضل الذكر وقد يقول قائل: وهل هذا ينكره مسلم؟ إننا نتحدث عن الذكر الجماعي وبدعيته ونقر الذكر الفردي بين الإنسان وبين ربه وندعو إليه ولكننا ننكر الذكر الجماعي وهذا ما نقصده ونسأل: هل هو بدعة أم لا؟

(١) من الآية ١٤٢ من سورة النساء.

فنقول وبالله التوفيق للإجابة عن هذا عقد الإمام الفقيه المحدث محي الدين النووي ﷺ بابًا في كتابه الأذكار تحت عنوان: «فضل حلق الذكر والندب إلى ملازمتها والنهي عن مفارقتها لغير عذر» ذكر فيه خمسة أحاديث صحاح عن رسول الله ﷺ في هذا الموضوع واستفتح الباب بقوله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾(١)، ولعل مما يحسن في هذا المقام أن نورد تفسير الإمام ابن كثير لهذه الآية الكريمة السابقة قال: «اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشيا من عباد الله سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء»(٢).

ويسوق ابن كثير نفسه عدة أحاديث في هذا المعنى كذلك على طريقته في تفسير القرآن بالسنة، ومنها:

١-روى أبو داود الطيالسي عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأن أجالس قوماً يذكرون الله من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلي مما طلعت عليه الشمس**»(٣).

٢- وروى الإمام أحمد عن أنس أيضًا ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «**مَا مِنْ قَوْمٍ اجْتَمَعُوا يَذْكُرُونَ اللَّهَ لا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ إِلا وَجْهَهُ إِلا نَادَاهُمْ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ قُومُوا مَغْفُورًا لَكُمْ قَدْ بُدِّلَتْ سَيِّئَاتُكُمْ حَسَنَاتٍ**»(٤).

٣-وروى الطبراني عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف رضي الله عنهما قال: نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾(٥)، فخرج يلتمسهم فوجد قوماً يذكرون الله تعالى فلما رآهم جلس معهم وقال: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ أُمِرْتُ أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ**»(٦).

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة الكهف.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٨٠،٨١.
(٣) رواه أبو داود الطيالسي في مسنده، وغيره.
(٤) رواه أحمد في مسنده، وغيره.
(٥) من الآية من سورة الكهف:٢٨.
(٦) رواه أبو داود في سننه،والطبراني في المعجم الأوسط وفيه عن أبي سعيد الخدري.

وأما الأحاديث الخمسة التي أشرنا إليها آنفًا فهي:

١-روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ قَالَ: فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يَقُولُونَ يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ هَلْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لا وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا، قَالَ: يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟ قَالَ: يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً، قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: مِنْ النَّارِ، قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً قَالَ: فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، قَالَ: يَقُولُ مَلَكٌ مِنْ الْمَلائِكَةِ: فِيهِمْ فُلانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: هُمْ الْجُلَسَاءُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»(١).

٢-وفي إحدى روايات الإمام مسلم:«إِنَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَلائِكَةً سَيَّارَةً فُضُلا(٢) يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ حَتَّى يَمْلَئُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَإِذَا تَفَرَّقُوا(٣) عَرَجُوا وَصَعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبَادٍ لَكَ فِي الأَرْضِ يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيُهَلِّلُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيَسْأَلُونَكَ، قَالَ: وَمَاذَا يَسْأَلُونِي؟ قَالُوا: يَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ، قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قَالُوا: لا أَيْ رَبِّ، قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قَالُوا: وَيَسْتَجِيرُونَكَ، قَالَ: وَمِمَّ يَسْتَجِيرُونَنِي؟ قَالُوا: مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ، قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: لا قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا، قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبِّ فِيهِمْ فُلانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

(٢) يعني أنهم زائدون على الحفظة وغيرهم من الملائكة المقربين مع الخلائق.

(٣) أي: تفرق الذاكرون بعد انتهاء المجلس.

مَعَهُمْ، قَالَ: فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ هُمْ الْقَوْمُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»[١].

٣-روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال:«**لا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلا حَفَّتْهُمْ الْمَلائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»[٢]. والرواية المذكورة لهذا الحديث في (بلوغ المرام) للحافظ ابن حجر: «**ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله فيه إلا حفتهم الملائكة...**» إلخ، ويقول الإمام الصنعاني في شرحه لهذا الحديث: «دل الحديث على فضيلة مجالس الذكر والذاكرين، وفضيلة الاجتماع على الذكر».

٤-عن أبي واقد الحارث بن عوف ﷺ أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، فوقفا على رسول الله ﷺ فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «**أَلا أُخْبِرُكُمْ عَنْ النَّفَرِ الثَّلاثَةِ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ**»[٣].

٥-عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: خرج معاوية ﷺ على حلقة في المسجد فقال: ما أجلسكم؟ قالوا جلسنا نذكر الله تعالى، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثًا مني وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: «**مَا أَجْلَسَكُمْ**». قَالُوا: جلسنا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنَحْمَدُهُ على ما هدانا للإسلامِ ومَنَّ بِهِ علينا. قال: «**آللَّه مَا أَجْلَسَكُمْ إِلا ذَاكَ**». قالوا: واللَّه ما أَجلسنا إلا ذاك. قال: «**أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلائِكَةَ**»[٤].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.
(٢) المصدر السابق.
(٣) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.
(٤) رواه مسلم في صحيحه،وغيره.

هذه الأحاديث الخمسة التي ذكرها الإمام النووي في هذا الباب من كتابه «رياض الصالحين».

وقال في كتابه الأذكار[١]: «اعلم أنه كما يستحب الذكر يستحب الجلوس في حلق أهله، وقد تظاهرت الأدلة على ذلك، وسترد في مواضعها إن شاء الله تعالى ويكفي في ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما الذي قال فيه: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا**». قلت: يا رسول اللّه، وما رياض الجنة؟ قال: «**حِلَقُ الذِّكْرِ**»[٢]. ثم ساق حديثين آخرين مما تقدم.

وقد ذكر الإمام ابن القيم في كتابه «الوابل الصيب»[٣] هذا الحديث بزيادة لطيفة فقال: «ذكر ابن أبي الدنيا وغيره من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «**يا أيها الناس ارتعوا في رياض الجنة**». قلنا: يا رسول الله، وما رياض الجنة؟ قال: «**مجالس الذكر**». ثم قال: «**اغدوا وروحوا واذكروا، فمن كان يحب أن يعلم منزلته عند الله تعالى فلينظر كيف منزلة الله تعالى عنده، فإن الله تعالى ينزل العبد من حيث أنزله العبد من نفسه**»[٤].

وذكر ابن القيم في هذا الموضع من كتابه بقية الأحاديث التي ساقها في فضل الذكر الجماعي، وقد روى الإمام شمس الدين الجزري في كتابه «الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين» الحديث السابق بلفظ مختصر رواه الترمذي وهو: «**إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا**». قالوا: يا رسول الله، وما رياض الجنة؟ قال: «**حِلَقُ الذِّكْرِ**»[٥].

كما روى الإمام الجزري في كتابه المذكور أحاديث عديدة عن موضوعنا هذا، منها ما تقدم وغيره ومما يجذب القلب منها بصورة أقوى هذان الحديثان:

١ -قال رسول الله ﷺ: « **يَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: سَيُعْلَمُ أَهْلُ الْجَمْعِ مِنْ أَهْلِ**

---

(١) الأذكار، للنووي، ص٦.
(٢) رواه الترمذي في سننه من حديث أنس، وغيره.
(٣) الوابل الصيب١/ ١٠٠.
(٤) رواه البزار (٣٠٦٤- كشف الأستار).
(٥) تقدم تخريجه.

الْكَرَمِ. فقيل: ومن أهل الكرم يا رسول اللَّه؟ قال: مَجَالِسُ الذِّكْرِ فِي الْمَسَاجِدِ»[1].

٢- قال رسول الله ﷺ: **«لأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ صَلاةِ الْغَدَاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتِقَ أَرْبَعَةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَعِيلَ وَلأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللَّهَ مِنْ صَلاةِ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ مَنْ أَنْ أَعْتِقَ أَرْبَعَةً »**[2].

وليكن مسك الختام لهذه المجموعة الطيبة من الأحاديث الدالة على هذا الفضل العظيم لأهل مجالس الذكر ما رواه البزار بإسناد حسن عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«إن لله سيارة من الملائكة يطلبون حلق الذكر، فإذا أتوا عليهم حفوا بهم ثم بعثوا برائدهم إلى رب العزة تبارك وتعالى فيقولون: ربنا أتينا على عباد من عبادك يعظمون آلاءك ويتلون كتابك ويصلون على نبيك محمد ﷺ ويسألونك لآخرهم ودنياهم، فيقول تبارك وتعالى: غشوهم رحمتي، فيقولون: يا رب إن فيهم فلاناً الخطاء إنما اغتنقهم اغتناقاً، فيقول تبارك وتعالى: غشوهم رحمتي فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم»**[3].

ألا ما أجزل هذا الثواب!! وما أعظم هذا الأجر!! وما أجل هذا الفضل الذي يمنحه الله تعالى ويتكرم به على عباده الصالحين الذين يتحلقون حلقاً حلقاً، فيتلون كتابه ويهللونه ويكبرونه ويسبحون بحمده ويذكرونه بما علمهم إياه رسول الله ﷺ ويستغفرونه من ذنوبهم ويحمدونه على آلائه ونعمه عليهم ويصلون على نبيه ﷺ ويسألونه جنته ويستعيذون به من ناره ويدعونه في كل ما يشمل مصالح آخرتهم ودنياهم.

تُرى ما هذا الفضل الكبير؟ وهل هناك أعظم من المغفرة؟ ومن الرحمة؟ وأن يجيرهم الله مما استجاروا ويعطيهم ما سألوا؟ هل هناك أروع وأبلغ من أن تحفهم ملائكة الرحمن بأجنحتها العلوية، وأن تتنزل عليهم السكينة فتطمئن منهم القلوب وتنشرح الصدور، وينعمون بالرضا والأمان والراحة النفسية؟ أليسوا في رياض الجنة؟ بلى، ألم يبشرهم الصادق الصدوق ﷺ بذلك؟! بلى، ثم ماذا؟ ثم مباهاة ربهم بهم

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، وغيره.
(٢) رواه أبو داود في سننه، وقال العراقي إسناده حسن.
(٣) رواه البزار (٣٠٦٢- كشف الأستار).

لدى الملائكة، بل إن الله تبارك وتعالى يـذكرهم هنـاك.. هنـاك في الملأ الأعلـى كمـا ذكروه سبحانه هنا في جمعهم المبارك ذِكرٌ بِذِكرٍ.. وجمع بجمع.. وشتان بـين الـذكرين!! وشتان بين الجمعين.

وهناك نقطة مهمة ينبغي إبرازها في هذا المقام ذكرهـا الإمـام النـووي في شـرح مسلم تحت باب «**فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر**»

فقد ربط بين هذين الحديثين:

١-حـديث: «.. **مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَـالَى يَتْلُـونَ كِتَـابَ اللَّـهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمْ الْمَلائِكَةُ وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**..» [1].

٢-وحديث: «**مَا قَعَدَ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا حَفَّتْ بِهِمْ الْمَلائِكَةُ وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ وَتَغَشَّتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**» [2].

فقال وهو يشرح الحديث الأول: «ويلحق بالمسجد في تحصيل هذه الفضيلة: الاجتمـاع في مدرسة ورباط ونحوهما إن شاء الله تعالى، ويدل عليه الحديث الذي بعده [مـا قعـد قـوم يذكرون الله عز وجل...إلخ] فإنه مطلق يتناول جميع المواضع، ويكـون التقييـد في الحـديث الأول خرج على الغالب لا سيما في ذلك الزمان» حيث كان المسجد هو مجمع المسـلمين في كل أمورهم وأيضًا كما أن الحديث الثاني مطلق من حيث المواضع فهو مطلـق كـذلك مـن حيث أنواع الذكر سواء أكانت قرآناً أو غيره كالتسبيح والتحميد ونحوهما، ولـذلك كانـت ترجمة النووي السابقة بعطف «الذكر» على «تلاوة القرآن».

لإيضاح هذا المعنى بجلاء:

الجهر غير المكروه والرفع غير المذموم:

١-روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول اللَّـهُ تعالى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ**

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، وغيره.
(٢) رواه أحمد في مسنده.

ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنهُمْ...»[١].

والشاهد في هذا الحديث القدسي على ما نحن بصدده هو قوله تعالى: «**وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنهُمْ**» في مقابلة قوله تعالى: «**فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي**»، والملأ هم الجماعة كما في القاموس[٢] وغيره، فمعنى الجملة الأولى «ذكرني في نفسه» أي سرًّا منفرداً لم يُسمع أحداً، ومعنى الجملة الثانية: «ذكرني في ملإٍ» أي: ذكرني في جماعة جهراً بحيث يسمعون ذكره لله تبارك وتعالى. ولذلك كان ثوابه أن يذكره الله تعالى هناك في الملأ الأعلى وهم الملائكة، وهم المعبر عنهم هنا بقوله: «في ملإٍ خير منهم». حيث يحدثهم عن عباده الذاكرين له في جماعة، ويباهيهم بهم، ويثني أمامهم عليهم. وكل هذا الذكر الكريم من المولى ﷻ إنما يكون جهراً في مقابلة أن عباده ذكروه جهراً كذلك فيما بينهم.

وهنا ملاحظة مهمة نُبادر بذكرها لتندفع بها شبهة[٣] قد تَرِدُ، وذلك أن العلماء الذين جمعوا أحاديث الأذكار في كتب خاصة كالنووي وابن القيم والجزري وغيرهم يوردون هذا الحديث في هذه الكتب الخاصة، وكذلك فإن كثيراً من العلماء الذين يجمعون السنة المطهرة ويؤلفونها أبواباً أبواباً، إنما يدونون هذا الحديث في أبواب الذكر[٤]، وليس في أبواب العلم والتفقه في الدين، ولا في أبواب النصيحة والتذكير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢-في قوله ﷺ في الحديث السابق: «فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة». وفي رواية: «إنما مر فجلس معهم». وأمثال ذلك من أحاديث النبي ﷺ السابقة دلالة واضحة على ارتباط هؤلاء الذاكرين واتفاقهم على أن يذكروا الله تعالى في جماعة بعضهم مع بعض.

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.
(٢) انظر: القاموس المحيط (م ل أ)، والمعجم الوسيط، ٢/ ٨٨٢.
(٣) والشبهة هنا والتي يرد عليها المؤلف هى ما يثيره البعض بغير دليل من بدعة الذكر الجماعي.
(٤) كالإمام مسلم في صحيحه، والإمام النووي في رياض الصالحين، وقد رواه البخارى في كتاب التوحيد من صحيحه،كما ورد فيه غيره من أحاديث الأذكار والدعوات؛ وذلك لاشتماله واشتمالها على الكثير من أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله.

أضف إلى ذلك أن مادة «التحلق» الواردة بلفظ: «الحلقة»، و «الحِلَق» مرات عديدة في تلكم الأحاديث المذكورة في الفقرة السابقة تدل على أن اجتماعهم وتحلقهم إنما هو على ذكر موحد يشتركون فيه جميعاً، سواء أكان قرآناً يتلى ويتدارس أو غيره من أنواع الأذكار والدعوات، إذ لو لم يكونوا مجتمعين على ذكر معين يجهرون به كلهم أو بعضهم أو أحدهم على الأقل لما كان لهذا التحلق فائدة، وكان الأولى بهم أن يتفرقوا ويبتعد بعضهم عن بعض دفعاً لأية شبهة رياء، وكان الأولى بهذه الحلقة أن تنفضّ، حتى يتمكن كل منهم من استقبال القبلة، ويخلو بنفسه مع ربه ويذكره على الوضع الذي يريد ما دام كل منهم منفرداً ومستقلاً تماماً عن الآخرين.

والحق أن كلاً من النوعين: الذكر الفردي والذكر الجماعي مطلوب، ولكل منهما أهميته ودواعيه وظروفه وفوائده وثوابه الخاص به.

٣-اشتراك حديث (الذكر العام المطلق) وحديث (الذكر الخاص بتلاوة القرآن ومدارسته) في هذا الثواب العظيم المشتمل على هذه الأمور الأربعة المحددة: غشيان الرحمة، ونزول السكينة، وحفّ الملائكة، وذكر الله لهؤلاء المجتمعين على ذكره فيمن عنده يشير بوضوح إلى الاشتراك والتماثل بينهما في الصفة، ومعلوم أن تلاوة القرآن ومدارسته في جماعة لا تكون إلا جهراً، فهذه قرينة على أن الذكر الذي يُجتمع عليه يكون جهراً كذلك.

٤-قوله ﷺ: «**وذكرهم الله فيمن عنده**». يلتقي من حيث المعنى في خط واحد مع قوله ﷻ في الحديث القدسي: «**...ذكرته في ملإ خير منهم**»، وبما أن الحديث القدسي يدل على الجهر دلالة واضحة كما سبق، فإن الثواب المماثل له في الحديث الآخر يدل على أن الذكر الوارد فيه جهرٌ أيضًا.

٥-روى أبو داود والترمذي وابن ماجة عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ**»[1].

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه في سننهم، وأحمد في مسنده.

فها هو ذا عليه الصلاة والسلام يجهر بالاستغفار وهو في مجلس أصحابه، ولم يكن بضمير الجمع كدعاء عام مثلاً وهم يؤمّنون، بل كان بصيغة المفرد، ويظل يجهر طوال المجلس حتى يفرغ من المائة، والصيغة سهلة محدودة كان يمكن حفظها بمرة أو اثنتين أو ثلاث!! ويبعُد أنهم رضوان الله عليهم لم يشاركوه هذا الاستغفار؛ حيث يستغفر كل منهم لنفسه سرًّا أو جهراً خفيفاً، فهم أشد منه ﷺ افتقاراً واحتياجاً إلى مغفرة ربهم، كما يبعد أن ينصرفوا إلى شيء آخر وهم في مجلسه ﷺ، ويسمعونه ويرونه وهو يستغفر ربه وهم لا يستغفرونه، بل وينشغلون بشيء آخر غير الاستغفار مهما كان خيراً؛ لأن هذا يتنافي مع تمام الأدب معه وكمال التأسي به، وحرصهم الشديد على الثواب. كما أن «العد» لا يتعارض مع «الفعل» فهم يعدون ويستغفرون كما يعد الإنسان لنفسه، وواضح أيضًا أنه ﷺ لم يجهر ببعض المائة ويسر ببعضها، ولكنه جهر بها جميعاً وإلا لما انضبط العدد، كما يتضح من أسلوب سيدنا عبد الله بن عمر أن هذا كان يحدث كثيراً، فهو لم يحدث مرة واحدة وقضي الأمر وإلا لقال مثلاً: عددنا لرسول الله ﷺ في أحد مجالسه كذا ولكنه قال: «كنا نعد». وقال: «في المجلس الواحد».

والحق أن هذا الحديث جليل الشأن في الباب كله؛ فهو دليل على الجهر بالذكر، وهو دليل على الاجتماع على الذكر الجهري، وهو دليل على تكرار الذكر الواحد في مجالس متعددة. فالحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات.

٦-روى الترمذي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قَلَّما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: **«اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا به جَنَّتَكَ وَمِنْ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ به عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا وَلا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا وَلا تَجْعَلْ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلا مَبْلَغَ عِلْمِنَا وَلا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لا يَرْحَمُنَا»**[1].

فهذا الحديث الشريف يدل بلا ريب على مواظبة الرسول ﷺ على هذا الدعاء

---

(١) رواه الترمذي في سننه، وقال: حديث حسن.

في كل مجالسه إلا قليلاً، وإنه ﷺ كان يجهر به دائماً، وإلا لما سمعه عبد الله في كل مرة.. وهذا هو منحى الإمام النووي في فقه هذا الحديث، حيث ترجم له في كتاب (الأذكار) بهذا العنوان: (باب دعاء الجالس في جمع لنفسه ومن معه). وذكر النووي أيضًا في (الأذكار): أن السلف كان يجمع بعضهم بعضاً للدعاء عند ختم القرآن، يقولون: لتنزُّل الرحمة، ولاستجابة الدعاء في هذا الموطن[١]. وقال النووي أيضًا في الكتاب نفسه: روى ابن أبي داود بإسنادين صحيحين عن قتادة التابعي الجليل صاحب أنس ﷺ قال: «كان أنس بن مالك ﷺ إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا». وذلك تطبيقاً للحديث الشريف: «**من ختم القرآن فله دعوة مستجابة**»[٢].

٧-هذا الحديث الكريم الذي أخرجه السبعة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «إنَّ رَفْعَ الصَّوتِ بالذِّكْر حين يَنْصَرِفُ النَّاسُ مِنْ المَكْتُوبَةِ كان على عَهْدِ النَّبي ﷺ»[٣]. فها أنت ذا ترى أن رسول الله ﷺ وصحابته رضي الله عنهم كانوا بعد تسليمهم من صلاة الفريضة يرفعون أصواتهم بالأذكار التي تقال عقب الصلاة كالتكبير والتهليل، ولا شك أن الصيغ كانت مُوَحدة فيما بينهم، وإلا لحدثت جلبة وضوضاء وتشويش من بعضهم على بعض ولا شك أيضًا أنه كان رفعًا مناسباً ومعقولاً حتى لا يحدث تشويش على المسبوقين.

فها هي جماعة مجتمعة على ذكر معين قد رفعوا به أصواتهم في بيت الله ﷻ والحديث صحيح صريح محكم لم يقل أحد بنسخه، والعلماء الذين لم يذهبوا هذا المذهب وقالوا باستحباب الإسرار بأذكار ما بعد الصلاة تأولوا الحديث على أنه ﷺ جهر مدة بقصد التعليم ثم أسَرَّ، علمًا بأن هذا التفسير لم ينقل قط كخبر من أحد الصحابة وهم المعاصرون المشاهدون. فهذه سبعة أدلة على مشروعية الجهر بالذكر في جماعة، كل دليل منها يكفي وحده في بيان مشروعية هذا الأمر في دين الله، فما بالك إذا اجتمعت هذه الأدلة وتضافرت وقوى بعضها بعضًا؟

---

(١) الأذكار، للنووي، ص٨٧،٨٨.
(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير.
(٣) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما وغيرهما.

وأوضح من ذلك وأشد صراحة ما قرره حامل لواء السنة الإمام الحافظ ابن حجر في كتابه (فتح الباري شرح صحيح البخاري) قال: «المراد بمجالس الذكر الواردة: ما اشتمل على تسبيح وتكبير وغيرهما وعلى تلاوة كتاب الله وعلى الدعاء بخيري الدنيا والآخرة» ثم يقول: «وفي دخول قراءة الحديث النبوي ومدارسة العلم الشرعي ومذاكرته والاجتماع على صلاة النافلة في هذا المجلس نظر، والأشبه: اختصاص ذلك بمجلس التسبيح والتكبير ونحوهما والتلاوة فحسب، وإن كانت قراءة الحديث: ومدارسة العلم والمناظرة فيه من جملة ما يدخل تحت مسمى ذكر الله تعالى».

وقد علق الشيخ عبد الجليل عيسى في كتابه (الصفوة) على هذه العبارة موضحاً لها فقال: «يعني: إن دخول مجلس التسبيح وما يليه[1] في مجلس الذكر لا شك فيه، وأما دخول مجلس قراءة الحديث وما يليهما[2] في هذا المجلس ففيه احتمالان، والأشبه عنده[3] عدم دخوله لأن هذه الأمور لا تدخل تحت مسمى الذكر حقيقة وإن دخلت تحته مجازاً، وذلك بتشبيهها بالتسبيح ونحوه بجامع التقرب إلى الله تعالى ثم إطلاق اسم الذكر عليها».

ولذا فإن الأئمة الذين يجمعون أحاديث الأذكار والدعوات في كتب خاصة بها يدونون في هذه الكتب تلك الأحاديث التي أوردناها في الفقرات السابقة عن مجالس الذكر؛ وما ذاك إلا لأنهم فقهوا هذا المعنى الذي فصلناه سابقًا ونقلناه عن الإمامين الصنعاني وابن حجر ولم يفهموا منها أنها خاصة بمجالس العلم والفقه أو مجالس الأمر والنهي والتذكير وإن شملتهما من حيث المعنى العام، بعد شمولها الأولى المباشر من حيث المعنى الخاص لمجالس التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والاستغفار وتلاوة القرآن والدعاء والصلاة على رسول الله ﷺ وسائر الأذكار.

ومما يجب التنبيه إليه هنا: أن الذي حمل بعض العلماء قديماً أو حديثاً على صرف هذه الأحاديث عن ظاهرها البين الواضح وجعلها قاصرة على مجالس العلم

---

(١) أي وما عطف في العبارة السابقة.

(٢) أي وما عطف عليهما.

(٣) أي والأرجح والأقوى عند الحافظ ابن حجر.

والتذكير دون مجالس الذكر هو ما تعقده بعض الطرق الصوفية -قديماً وحديثاً أيضًا- من مجالس الذكر البدعية المنحرفة، فهم قد انحرفوا عن الصراط السوي للذكر الجماعي الشرعي إلى ذكر شيطاني ما أنزل الله به من سلطان؛ وذلك لاشتمال هذه المجالس على كثير من البدع والمنكرات، كالرقص والغناء والشطحات والتشويش والإيذاء واللحن في القراءة والبناء على قراءة الغير، والمبالغة في رفع الأصوات بصورة فيها إزعاج ورعونة، والإتيان بأذكار غير واردة وتفضيلها على الواردة وما إلى ذلك، وهم مع هذا جاهلون بأمور دينهم، لا يعرف بعضهم كيف يستبرئ أو يتوضأ ولا يحسن قراءة الفاتحة، وقد يضيعون بسبب هذه المجالس الليلية الطويلة صلاة الصبح من جراء سهرهم المفرط في هذا الذكر المبتدع أصلاً وشكلاً...إلخ.

وفي هذا المقام يتبادر هذا السؤال إلى الأذهان:

ما هي الصورة الطيبة للاجتماع على الذكر حتى نحظى بتلك الفضائل الواردة فيه دون أن نقع في شيء من هذه الآثام؟

والجواب: أن من سعة رحمة الله وفضله أن جعل هيئة الذكر من الهيئات الموسعة فليست كهيئة الصلاة مثلاً، ذلك أن المسلم يذكر ربه في كل أوقاته وعلى جميع حالاته قائماً وقاعداً وماشياً وسابحاً وراكباً ومضطجعاً بقلبه ولسانه معاً، أو بقلبه فقط، أو بلسانه فقط، سرًا أو جهراً، منفرداً أو مع الناس، طاهراً أو محدثاً حدثاً أصغر أو أكبر..إلخ، ولم يستثنوا اتفاقاً إلا حالتي (الجماع وقضاء الحاجة) بالنسبة للذكر اللساني.

وتفرع عن هذه السعة في هيئة الذكر أنه لم ترد لنا صورة معينة للاجتماع في مجالس الذكر الوارد فضلها العظيم في تلكم الأحاديث، وهذا يدل على جواز انعقادها بأية صورة تحقق مقاصدها والمصالح المترتبة عليها، والثواب الموعود به في أحاديثها.

والشرط الرئيسي الواجب تحقيقه في هذه المجالس حتى تكون مجالس ذكر شرعية لا نكير عليها: هو خلوها من جميع المحظورات الشرعية السابقة وأمثالها، فإن اشتملت على أي محظور شرعي منعت، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

وكذلك ينبغي أن تتحقق في المجلس وفي أفراده: آداب الذكر والدعاء المحررة في مظانها من (كتب الأذكار) وغيرها، كالوضوء، والإخلاص وتدبر المعاني، وحضور القلب، واستحضار الثواب، واليقين بصدق الوعد، وتعظيم الله تعالى، والتأدب معه سبحانه ظاهراً وباطناً، وطرح الوساوس الشيطانية والخواطر الدنيوية، والتفرغ من المشاغل والعوائق قبل الاجتماع وارتياد المكان الصالح الطاهر الملائم، واختيار الأوقات الفاضلة والمناسبة، وسد فرجات الحلقة...إلخ.

فإن خلا المجلس من الموانع واشتمل على الآداب استُحب انعقاده على أي شكل يناسب كل ظرف وكل مجتمع وكل موضع. ومن هذه الصور المحتملة[1]:

١-أن يقرأ الجميع بصوت خفيف وسط بين الجهر القوي والسر الخفي، ومما يستشهد به لهذه الصورة حديث ابن عباس السابق ذكره وهو أنهم كانوا يرفعون أصواتهم بالأذكار التي تقال عقب الصلاة.

٢-أن يقرءوا سراً بحيث يُسمع كل منهم نفسه فقط، ما عدا واحداً منهم يرفع صوته بعض الشيء، بحيث يُسمع من بالحلقة فقط؛ حتى يحققوا الاشتراك والاجتماع على الذكر. ولعل مما يستأنس به لأرجحية هذه الصورة حديث الاستغفار مائة مرة حيث كان يجهر الرسول ﷺ وهم في مجلسه يسمعون ويعدون، ويبعد كما قلنا- أنهم كانوا لا يستغفرون مع النبي ﷺ.

٣-أن يسروا جميعًا بحيث يُسمع كل منهم نفسه فحسب، متفقين مثلاً على وقت البداية والنهاية وعلى بعض الأذكار أو أكثرها أو كلها، ويستفتح أمير مجلسهم هذا المجلس ويختمه.

٤-الصورة السابقة، ويزداد عليها مثلاً: أن يرفع أمير مجلسهم أو أحدهم صوته بما تيسر من القرآن وهم مستمعون منصتون، أو أن يرفع صوته ببعض الدعوات وهم يؤمِّنون.

٥-الصورة الأولى بالنسبة لصيغ الذكر التي ليست قرآناً ولا دعاء بشرط أن لا

(١) هذه الصور استنباطات واستنتاجات من المؤلف، وليست كل الصور محصورة فيها، والباب مفتوح لأي صورة أخرى ما دامت آداب الذكر تُراعى فيها.

يشوش بعضهم على بعض. أما في القرآن والدعاء فيتوقفون عن القراءة، إلا واحداً منهم فهو الذي يتلو ويدعو، وهم يستمعون لتلاوته ويؤمِّنون على دعائه.

وليس معنى هذا تفضيل هذه الصورة الخامسة على الصورة الأولى مطلقًا، فقد يكون ما يُتلى من قرآن وما يُدعَى الله به من دعاء: من الصيغ التي ورد بشأنها أحاديث معينة تقول مثلاً: إن من تلا كذا (من الآيات والسور) فله كذا وإن من قال كذا (من صيغ الدعوات) فله كذا، كما هو الحال في أذكار الصباح والمساء مثلاً، ففي نحو هذا ربما يُفضل الاشتراك من كل فرد على الاكتفاء بمجرد الاستماع أو التأمين.

٦-الصورة الأولى أيضًا إلا في الصيغ التي يزيد عددها عن ثلاث مثلاً كالسبع والعشر والمائة، فيمكن أن يُسر الجميع بها، على أن يحدد أحدهم وقت البداية والنهاية لكل صيغة منها.

وفي مقدمة كتاب الأذكار (رسالة المأثورات)[1] عن الرسول ﷺ توجه مؤلفه الجليل ذلكم الشيخ الصالح إلى تلاميذه وقال ما معناه: إليكم خاصة وإلى المسلمين عامة نقدم بعض أذكار الصباح والمساء (الوظيفة الكبرى أولاً، فإن كان هناك عذر أو فتور فالوظيفة الصغرى) فلتجتمعوا عليها في دوركم وتقرءوها جماعة فيما بينكم، حتى يتعلم أميكم وينشط ضعيفكم، وتقوى هممكم، وتتآلف على الله قلوبكم، ويذهب الفتور والكسل عنكم، وتحفكم الملائكة وتغشاكم الرحمة بشرط أن لا تقعوا في أي محظور شرعي، كالتشويش على مصلٍّ، أو بناء البعض على قراءة البعض الآخر...إلخ الكلام الطيب حول هذه المعاني.

ولقد نشرت جريدة الأهرام فتوى لمفتي الجمهورية فضيلة الدكتور علي جمعة تحت عنوان: الذكر الجماعي ومدح الرسول ﷺ مشروع وسنة ثابتة، تقول:

أكد مفتي الجمهورية فضيلة الدكتور علي جمعة على أن الذكر الجماعي أمر مشروع ولا شيء فيه وأن مدح النبي ﷺ عمل مطلوب وممدوح شرعاً وهو سنة ثابتة منقولة بالتواتر أخذها الخلف عن السلف، على أن يكون في إطار الحد الذي وضعه

---

(١) رسالة المأثورات، للإمام الشهيد حسن البنا، بتصرف.

النبي ﷺ في قوله: «لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ»[١]. يقصد في اتخاذهم إياه ولداً لله أو إلهاً معه، فالرب رب والعبد عبد وهناك فارق بين المخلوق والخالق.

وأضاف أنه إذا ما عرف المسلم تلك الثوابت فليمدح بعد ذلك كما يشاء وليعلم أن كل غلو هو في حقيقته تقصير؛ لأنه لا يحيط بصفاته وشمائله ﷺ إلا الذي خلقه ﷻ ولا يبلغ المادحون في مدحه ﷺ إلا على قدر ما يفهمونه من ذلك لا على قدره ﷺ كما أن المدائح النبوية كانت وما زالت تحبب الناس في رسول الله ﷺ عبر العصور وترغبهم في اتباع سنته والاقتداء بشمائله الشريفة وسجاياه الكريمة التي تنير القلوب وتنشرح بها الصدور وتزكو النفوس، وأوضح أن هذه السنة من السنن المهجورة عند كثير من المسلمين ونسأل الله أن يحييها في الأمة كما كان يفعل السلف الصالح.

ووصف د.علي جمعة مدح الله تعالى ورسوله ﷺ بأنه من أعظم الطاعات تقرباً إلى الله تعالى كما أن المدح والذكر من أعظم ما يثبت حب الله تعالى ورسوله ﷺ في القلوب، وقد وردت أحاديث كثيرة بأنه لا أحد أحب إليه المدح من الله تعالى. وفي حديث الأسود بن سريع ﷺ أنه قال: قلت: يا رسول الله، إني قد مدحت الله تعالى بِمَدْحَةٍ وَمَدَحْتُكَ بأخرى. فقال النبي ﷺ: «هَاتِ وَابْدَأْ بِمَدْحَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[٢]. وقد سمع مدحه بأذنه من حسان بن ثابت وعمه العباس وأنس بن مالك وعبد الله بن رواحة وزهير وغيرهم ولم ينكر أحد ذلك كما تغنى المتغنون بين يديه بمدحه فرادى وجماعات عند استقبال الأنصار له ولم يرد إنكار لهذا الأمر.

وأشار فضيلة المفتي د. علي جمعة إلى أن معظم الآيات القرآنية التي أمرت بالذكر جاء الأمر الإلهي فيها بصيغة الجمع كقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[٣]، وقوله: ﴿فَاذْكُرُواْ اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾[٤]، وقوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، وغيره.
(٢) رواه أحمد في مسنده، وغيره.
(٣) من الآية١٥٢ من سورة البقرة.
(٤) من الآية ١٩٨ من سورة البقرة.

كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[١]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا﴾[٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على مشروعية الاجتماع على ذكر الله تعالى ودعائه.

وقال: إن هناك من الأحاديث النبوية الشريفة الدالة على ذلك، فعن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «مَا قَعَدَ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إلا حَفَّتْ بِهِمْ الْمَلائِكَةُ وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ وَتَغَشَّتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ »[٣].

وعن أنس بن مالك ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ قَوْمٍ اجْتَمَعُوا يَذْكُرُونَ اللَّهَ لا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ إلا وَجْهَهُ إلا نَادَاهُمْ مُنَادٍ مِنْ السَّمَاءِ أَنْ قُومُوا مَغْفُورًا لَكُمْ قَدْ بُدِّلَتْ سَيِّئَاتُكُمْ حَسَنَاتٍ»[٤]. كما أوضح أنه يوجد الكثير من الأحاديث الدالة على مشروعية الاجتماع على الذكر، وعلى ذلك فإن القول بأن هذا اللون من الذكر بدعة هو نفسه بدعة مذمومة إذ من البدعة تضييق ما وسع الله ورسوله ﷺ، وعلى ذلك أيضًا فإن الذكر في الجمع أرجى للقبول وأيقظ للقلب وأجمع للهمة وأدعى للتضرع بين يدي الله تعالى.

الالتزام في العبادات المطلقة:

وهي أن يلتزم المسلم بعبادة لها أصل مشروع ولكنه يحدد لها مكاناً معيناً أو زماناً محدداً أو عدداً بعينه مكرراً ذلك مثل قراءة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مائة مرة بعد الفجر أو في أي وقت معلوم، أو استمرارية قراءة سورة الكهف كل يوم جمعة بطريقة معينة، فإلزام المسلم نفسه بعبادة لها أصل في الدين مشروعة واستمراره عليها تسمى التزام عبادة مطلقة، وحكمها كالبدعة الإضافية سواء بسواء فقد اختلف العلماء في الحكم عليها، فهي من مسائل الخلاف الفقهي الذي لا إنكار فيه أيضًا.

البدعة التركية:

يقول الإمام الشاطبي الترك فعل من الأفعال الداخلة تحت الاختيار، وعلى ذلك

(١) من الآية ٣٥ من سورة الأحزاب.
(٢) الآيات ٤١-٤٢ من سورة الأحزاب.
(٣) رواه أحمد في مسنده.
(٤) رواه أحمد في مسنده، وغيره.

يكون طاعة ويكون معصية ما دام داخلاً تحت الاختيار، فإذا ما خرج الترك من حد الاختيار ولم يقصد الإنسان إليه فلا أثر له في ثواب ولا في عقاب.

والبدعة كما تشمل الفعل المخالف للسنة تشمل أيضًا الترك المخالف للسنة كذلك، والمسلم إن عزم على ترك المباح من الطيبات لغير سبب مقبول كمرض يزيد بتناوله أو ضرر ينتج عنه فإن كان تركه لذلك على وجه من التحريم بحيث لو رغب فيه لتناوله فلا شيء عليه؛ لأن المباح يستوي فيه الفعل والترك وإن حرمه على نفسه أو نذر ترك تناوله مطلقاً أو لمدة محدودة فهو مبتدع بهذا التحريم وبهذا النذر.

ومن هذا الباب ترك المباح تقرباً إلى الله في كثير من أنواع الزهد وعند بعض المتصوفة، فلقد قُدم لأحدهم تفاحة فرفض أن يأكلها فقيل له لم؟ قال: لا أستطيع أن أقدم شكرها كنعمة، فقال له الحسن البصري: وهل يستطيع الأحمق شكر نعمة الماء البارد، ومثل ذلك ترك الزواج كي لا يقرب النساء تعففاً أو غير ذلك.

وكقاعدة فإن البدعة التركية هي ترك الأشياء المشروعة بغية التقرب إلى الله تعالى، وعلى كل حال فهي من المسائل الخلافية بين العلماء كما ذكرنا.

الخلاصة:

نخلص من هذا أن العلماء اختلفوا في حكم البدعة باختلاف مفهومها، فمن العلماء من عم البدعة في كل حادث مذموماً كان أو ممدوحاً فالبدعة عنده ليست على مرتبة واحدة بل تختلف فيما بينها من ناحية القبول والرد، فمنها ما هو واجب ومنها ما هو حرام. يقول ابن حزم: «البدعة في الدين كل ما لم يأت في القرآن ولا عن رسول الله ﷺ إلا أن منها ما يؤجر عليه صاحبه ويعذر بما قصد من الخير، ومنها ما يؤجر عليه صاحبه ويكون حسناً وهو ما كان أصله الإباحة كما روى عن عمر ﷺ «نعمت البدعة هذه»[1] حين جمع المسلمين على صلاة التراويح، ومنها ما يكون مذموماً ولا يعذر صاحبه وهو ما قامت الحجة على فساده فتمادى القائل به»[2].

---

(١) رواه مالك في موطئه.

(٢) البدعة، للدكتور عزت عطية،ص٣٤ وما بعدها.

ومن أصحاب هذا الرأي الإمام القرافي يقول: «فالبدعة إذا عُرضت تعرض على قواعد الشرع وأدلته فأي شيء تناولها من الأدلة والقواعد أُلحقت به من إيجاب أو تحريم وغيرهما، وإن نظر إليها من حيث الجملة إلى كونها بدعة مع قطع النظر عما يتقاضاها كُرهت، فإن الخير مع الاتباع والشر كله في الابتداع»(١).

ولقد تعقب الإمام الشاطبي هذا القول بما يفيد تناقضه فقال ما خلاصته:

«هذا كلام يقتضي أن الابتداع شر كله فلا يمكن أن يجتمع مع فرض الوجوب أي كيف، يقول الإمام القرافي: إن البدعة أحيانًا تكون واجباً وقد ذكر أن البدعة قد تجب وإذا وجبت لزم العمل بها فقد اجتمع في رأيه الأمر بها والأمر بتركها؛ لأنه يقول: والبدعة من حيث الجملة مكروهة ولا يمكن فيها الانفكاك وإن كان من جهتين لأن الوقوع يستلزم الاجتماع لأنها إذا وجبت فإنما تجب على الخصوص وقد فرض أن الشر فيها على الخصوص فلزم التناقض»(٢).

ورد الشيخ البراد ما قاله الشاطبي بأن: «المقصود أن حكم البدعة المقررة لها بحسب ذاتها والثابت لها من حيث أصلها وبقطع النظر عن عوارضها هو الكراهة وليس القصد أن الكراهة من جهة والوجوب من جهة أخرى حتى يرد ما زعم، فهي نظير النكاح مثلاً له حكم بحسب أصله وهو الندب وقد يخرج عنه لعارض وكذلك أكل الميتة يخرج إلى الوجوب عن أصله وهو الحرمة عند الاضطرار»(٣).

وأصحاب هذا الرأي -كما رأيت- لا يجيزون إحداث شيء يتصل بالشريعة إلا إذا اقتضت الظروف والأحوال ذلك لمصلحة الدين وهو ما قيل فيه إنه مندوب أو واجب.

والحق يقال: إن العلماء اختلفوا من حيث تقسيم البدع فللعلماء فيها أقوال فمنهم من وسع في التحديد فاتسع عنده مدلولها وما يندرج تحت اسمها ويمثل هذا الاتجاه بعض العلماء ذوو المكانة العلمية الفائقة منهم:

الإمام الشافعي: يقسم البدعة إلى حسنة وسيئة ومحمودة ومذمومة وهي عنده

---

(١) الفروق، للإمام القرافي ٤/ ١١.
(٢) الاعتصام، للشاطبي،ص١٢٣.
(٣) تحفة البديع، للبراد،ورقة ٥٦.

تشمل كل حادث بعد عصر رسول الله ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين، يقول حرملة بن يحيى: سمعت الشافعي رحمه الله يقول: «البدعة بدعتان: بدعة محمودة وبدعة مذمومة، فما وافق السنة فهو محمود وما خالف السنة فهو مذموم»[١].

وابن الأثير: «يقول أيضًا البدعة بدعتان: بدعة هدى وبدعة ضلالة، وبدعة الهدى هي ما كانت واقعة تحت عموم ما ندب الله إليه وحض عليه سبحانه أو رسوله ﷺ، وبدعة ضلالة هي ما كانت على خلاف ما أمر الله به ورسوله ﷺ وما لم يكن له مثال موجود»[٢].

أما الإمام الغزالي فيقول: «وما يقال أنه أبدع بعد رسول الله ﷺ فليس كل ما أبدع منهياً عنه بل المنهي عنه بدعة تضاد سنة ثابتة وترفع أمراً من الشرع مع بقائه عليه بل الابتداع يجب في بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب»[٣].

ومنهم من ضيق هذا المدلول وما يندرج تحته من الصور والأحكام وهذا الاتجاه **ينقسم إلى قسمين:**

القسم الأول: لا تتقيد فيه البدعة بشيء سوى مخالفة السنة، بحيث تكون البدعة على غير مثال سابق في الشرع سواء اتخذت ديناً أم لا ومن هؤلاء:

ابن رجب الحنبلي يقول: «البدعة ما أحدث مما لا أصل له في الشرائع يدل عليه، أما ما كان أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعاً».

وابن حجر العسقلاني يقول: «البدعة أصلها ما أحدث على غير مثال سابق، وتطلق في الشرع في مقابل السنة فتكون مذمومة».

أما ابن حجر الهيثمي يقول: «البدعة كل ما أُحدث خلاف أمر الشارع ودليله الخاص والعام».

ويقول الإمام الزركشي: «البدعة في الشرع موضوعة للحادث المذموم».

---

(١) انظر: « البدعة وموقف الإسلام منها»، للدكتور عزت عطية، ص١٩٥.
(٢) انظر: النهاية، لابن الأثير ١/١٠٦، بتصرف.
(٣) إحياء علوم الدين، للغزالي، ٢/٢.

القسم الثاني: ويمثله:

الإمام الشاطبي: وعرف البدعة بتعريفين:

الأول: «البدعة عبارة عن طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله ﷻ»، وهذا رأي من لا يدخل العادات في معنى البدعة.

الثاني: «البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية»[1].

ويقول الإمام الشاطبي في تعريفه: «طريقة في الدين» ليخرج الطريقة في الدنيا كإحداث الصنائع والبلدان ويقول: «مخترعة» أي لا أصل لها في الشريعة ولا تعلق لها بها، ويقصد بالسلوك عليها ليخرج العادات من البدعة.

ونحن نكتفي هنا بهذا القدر لنؤكد أن ما قاله الأستاذ البنا رحمه الله -إنما هو تأصيل فقهي قال به كثير من فقهاء الأمة وعلماء السلف، وفي المسألة تفصيل ليس هنا مجاله، فقد قسم العلماء البدعة إلى عادية وتعبدية وحقيقية وإضافية وحسنة وسيئة وفعلية وتركية واعتقادية وقولية وفعلية وكلية وجزئية، وكل نوع منها له حكمه عند العلماء، وفي هذا القدر ما يكفي لتبيان صواب ما ذهب إليه الإمام البنا في هذه القضية فما كان بدعاً من العلماء ولكنه سار على طريقهم ونهج نهجهم.

الاحتفال بمولد الرسول ﷺ:

والذي نريد أن نقف عنده مسألة الاحتفال بمولد الرسول ﷺ:

فلقد أُعلنت الحرب الشعواء على الاحتفال بمولد الرسول ﷺ بحجة أن هذا لون من ألوان البدع التي يجب محاربتها، واتهم الإخوان بأنهم مبتدعة لاحتفالهم بمولد الرسول ﷺ بل وبالمناسبات الإسلامية المختلفة والمتعددة، وقال بعضهم: إن الإخوان ما وجدوا بدعة إلا وأحيوها وما وجدوا سنة إلا وأخفوها، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

فنقول وبالله التوفيق: لا خلاف بين المسلمين في أن الاحتفال بيوم مولد الرسول ﷺ

(١) الاعتصام، للشاطبي، ص٧٣.

عمل محدث لم يعهد في عهد رسول الله ﷺ ولا في عهد أصحابه أو التابعين لهم بإحسان. يقول الإمام السخاوي: إن عمل المولد حدث بعد القرون الثلاثة.

وأول من أحدثه في القاهرة المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٦٢ هجرية، ودام الاحتفال به إلى أن أبطله الأفضل أمير الجيوش بدر الجمالي سنة ٤٨٨ هجرية في عهد المستعلي بالله، ولما ولي الخلافة الآمر بأحكام الله ابن المستعلي أعاد الاحتفال به سنة ٤٩٥ هجرية[١].

والغريب أنه بالرغم من أن حكم الاحتفال بمولد الرسول ﷺ هو من المسائل الخلافية بين العلماء -كما سنرى- إلا أن بعض العلماء الأجلاء غيرة منهم على دين الله، وخوفاً من الانحرافات التي تظهر في المجتمعات الإسلامية بوجه عام وفي الموالد بوجه خاص، غالوا في الحكم في هذا الموضوع حتى إننا وجدنا عالماً جليلاً يكتب في رسالة سماها «الإنصاف فيما قيل في المولد من الغلو والإجحاف» يهاجم فيها الإمام السيوطي هجوماً شديداً لأنه يقول بجواز الاحتفال بمولد الرسول ﷺ فيقول عن رأي الإمام السيوطي بجواز الاحتفال بمولد الرسول ﷺ: «كان رده ساقطاً بارداً لأنه يجادل بالباطل ليدحض به الحق، والعياذ بالله تعالى»[٢].

أليست هذه مغالاة في الأحكام الشرعية؟ وهل مثل الإمام السيوطي يُقال عنه أن يجادل بالباطل ليدحض به الحق!! إلى هذا الحد يصف عالماً جليلاً من علماء السنة بأنه يجادل بالباطل أي أنه يعلم أنه الباطل الذي يريد أن يدحض به الحق الذي يعلمه، فهل هذه صفة المسلم الذي يعرف الحق فضلاً عن أن يكون عالماً جليلاً؟ وهل علماء الإسلام حين يختلفون يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق؟ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

إن الأمر لا يحتاج إلى هذا الغلو الشديد في أمر اجتهادي فكلا طرفي الأمور ذميم؛ لأن العلماء اختلفوا في الاحتفال بمولد الرسول ﷺ، فالبعض أجرى عليه أدلة ذم البدع باعتبار حدوثه وترك النبي ﷺ له ومن بعده السلف الصالح، هذا من ناحية، وقالوا من ناحية أخرى: لأنه تخصيص بغير مخصص وقد ورد النهي عن مثله، فقد نهى النبي ﷺ عن تخصيص يوم الجمعة بصيام[٣]، ولولا أن المفسدة إنما تنشأ من

---

(١) تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي للشيخ حسن السندوبي،والبدعة، للدكتور عزت عطية،ص٤٨١.
(٢) الإنصاف فيما قيل في المولد من الغلو والإجحاف، للشيخ أبي بكر الجزائري،ص٥٦.
(٣) روى معناه مسلم في صحيحه،وأحمد في مسنده.

تخصيص ما لا خصوصية له كما في الاحتفال بالمولد لما نهى عنه ﷺ، فإن الناس إنما يخصصون هذا اليوم بالاحتفال لاعتقادهم فيه فضيلة تقتضي ذلك ولا فضيلة فيه فأقل أحوال هذا الاحتفال -في نظر الشرع- أن يكون مكروهاً[1].

وقالوا أيضًا: إن الواجب على الناس في نظرهم إلى الأيام من ناحية التشريف والتكريم وتخصيص بعضها بالعبادة أو الاحتفال به دون البعض الآخر اتباع الكتاب والسنة وإن لم يدركوا ذلك من المصلحة أو المفسدة.

ومن أشهر هؤلاء المانعين الاحتفال بمولد رسول الله ﷺ تاج الدين عمر بن على اللخمي السكندري المالكي المعروف بالفاكهاني، حيث ألف كتاباً سماه «المورد في الكلام على عمل المولد» رد فيه هذا الاحتفال وقال: بمنعه لأنه لا يعلم له أصلاً في كتاب ولا سنة.

وهذا الرأي يوافق رأي الإمام ابن تيمية والشاطبي وغيرهما، ومما يوضح أن هذا الأمر مختلف فيه بين العلماء وبالتالي لا إنكار فيه كما شدد البعض هو من رأوا إباحة هذا الاحتفال بل ويحبذون القيام به ويستحسنونه وإليك ما قالوه:

يقول العلامة أبو شامة: «إن من أحسن ما أحدث في زماننا ما يفعل كل عام في اليوم الموافق ليوم مولده ﷺ من الصدقات والمعروف وإظهار الزينة والسرور، فإن ذلك مع ما فيه من الإحسان إلى الفقراء مشعر محبته ﷺ وتعظيمه في قلب فاعل ذلك وشكر الله تعالى على ما منّ به من إيجاد رسوله الذي أرسله رحمة للعالمين ﷺ»[2]، هذا رأي إمام من الأئمة.

ويمثل هذا الاتجاه الإمام السيوطي، وأما ابن حجر فيرى أن الاحتفال بالمولد بدعة اشتملت على محاسن وضدها، فمن تحرى في عمله المحاسن وتجنب ضدها كان بدعة حسنة وإلا فلا. ويستدل الإمام ابن حجر بقول الرسول ﷺ حين قدم إلى المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء فقال: «**مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَهُ**».فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه وأغرق فرعون وقومه فصامه موسى شكراً فنحن نصومه، فقال رسول الله ﷺ: «**فَنَحْنُ أَحَقُّ وَأَوْلَى بِمُوسَى مِنكُمْ**» فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه[3].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم،لابن تيمية،ص١٣٦.
(٢) الإبداع في مضار الابتداع، للشيخ علي محفوظ،ص٢٥٥.
(٣) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

فإذا نظرنا إلى ما منّ الله به على الناس أجمعين برسالة محمد ﷺ لكان أولى بالاحتفال به فإن كان ابن حجر استخدم القياس فإن ابن الحاج -في المدخل- كان موفقاً في توصله إلى دليل على تخصيص هذا اليوم باستحباب عبادة خاصة فيه إظهاراً للسرور بالمولد شكراً لله على مولده ﷺ ألا وهو تعليل الرسول ﷺ استحباب صوم يوم الاثنين بقوله: « **قَالَ ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ وَيَوْمٌ بُعِثْتُ أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ**»[١].

ويرجع ابن الحاج ترك الرسول ﷺ ومن بعده من السلف للاحتفال بهذا اليوم إلى رحمة النبي بأمته ورفقه بهم حيث كان يترك العمل خشية أن يفرض على أمته ومما يدل على ذلك أنه ﷺ حرم المدينة بقوله: «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لَهَا وَحَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ وَدَعَوْتُ لَهَا فِي مُدِّهَا وَصَاعِهَا مِثْلَ مَا دَعَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام لِمَكَّةَ**»[٢].

ومع ذلك فإنه ﷺ لم يشرع في قتل صيدها أو في قطع شجرها شيئاً من الجزاء تخفيفاً على أمته ورحمة بهم.

وقد يكون سبب ترك الصحابة لهذا الاحتفال: إنما لانشغالهم بما هو أهم وهو الجهاد وإعداد الدولة الإسلامية أو كانوا يحتفلون به فرادى أو أسراباً.

والغريب أن البعض قالوا: إن الحزن في هذا اليوم والذي توفي فيه أولى من الفرح بمولده ﷺ فإن الإمام السيوطي يقول: «الشريعة حثت على إظهار شكر النعم والصبر والسكوت والكتم عن المصائب فيأمر بالعقيقة وهي إظهار شكر وفرح بالمولود وينهى عن النياحة وإظهار الجزع عند الموت، ولا يأمر بذبح ولا بغيره وذلك يدل على أن الأحسن في هذا الشهر إظهار الفرح لولادته ﷺ دون إبداء الحزن على وفاته ﷺ »[٣]. قال ابن رجب: «لم يأمر الله ولا رسوله باتخاذ أيام مصائب الأنبياء وموتهم مأتماً فكيف بمن دونهم».

ويمكن أن نضيف إلى ما ذكره الإمام السيوطي في ذلك أن الرسول ﷺ أشار إشارة واضحة إلى أن وفاته نعمة لا نقمة فقال: «**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَرَادَ رَحْمَةَ أُمَّةٍ مِنْ**

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.

(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحهما.

(٣) الحاوي، للإمام السيوطي ١/ ٢٩٨.

عباده قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا فَجَعَلَهُ لَهَا فَرَطًا وَسَلَفًا بَيْنَ يَدَيْهَا وَإِذَا أَرَادَ هَلَكَةَ أُمَّةٍ عَذَّبَهَا وَنَبِيُّهَا حَيٌّ فَأَهْلَكَهَا وَهُوَ يَنْظُرُ فَأَقَرَّ عَيْنَهُ بِهَلَكَتِهَا حِينَ كَذَّبُوهُ وَعَصَوْا أَمْرَهُ»[1].

ومن هنا يظهر بوضوح اختلاف العلماء في الحكم على الاحتفال بيوم المولد في صورة شخصية أو أسرية بل استحب بعض العلماء هذا الاحتفال وذلك لما يأتي:

١-تخصيص يوم الاثنين بفضيلة الصوم وبيان أن سبب هذا التخصيص أنه ﷺ ولد فيه.

٢-حث الرسول ﷺ على صوم يوم عاشوراء شكراً لله تعالى على نجاة موسى ومن معه، وفي ذلك ما يشير إلى الحث على صوم مولده والاحتفال به بشتى ألوان العبادة والطاعة.

٣-تخصيصه ﷺ الأوقات الفاضلة بمزيد العناية كزيادة الجود في شهر رمضان والاجتهاد في العبادة فيه أكثر من غيره من الشهور، ومن أفضل الأيام مولده ﷺ.

هذا ومما تجدر الإشارة إليه أن الاحتفال بالمولد على ما اخترناه في تعريف البدعة ليس من المنهي عنه شرعاً بدعة. فلم يقترن به ادعاء ورود الشرع به أو حثه على هذا التخصيص أو نسبة ما ليس من الشرع في هذا المجال إليه.

وعلى ذلك فهذا الاحتفال ليس مما تحقق فيه تعريف البدعة الأصلية على أي اتجاه من الاتجاهات في تعريف البدعة لثبوت أصله من السنة، وتوارد الأدلة المؤيدة لوقوعه وهو كما رأيت من الأمور المختلف فيها ولا إنكار فيها أيضًا.

أما ما يعمل فيه أو كيفية ممارسته فذلك مشروط بأن يقتصر فيه على ما يفيد الشكر لله تعالى من التلاوة والتذكير بسيرته ومآثره ﷺ والإطعام والصدقة وإنشاء شيء من الأشعار في المدائح النبوية والزهدية المحركة للقلوب إلى فعل الخير والعمل للآخرة، وهذا مقيد بشرط ألا يشغل عن فرض أو يعطل عن طاعة أو يسوق إلى إرهاق من كثرة السهر؛ لأن الغرض تحصيل السرور عن طريق مشروع وإظهار الشكر لله تعالى على أي وجه. أما كشف العورات والاختلاط المزري والألعاب الملهية المشتملة على فنون النصب والاحتيال فيجب تجريد ذكرى المولد من كل ذلك على أي حال[2].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.

(٢)

وهذا ما نراه إذ لا يمكن أن يستوي الاحتفال بشم النسيم مثلاً أو أعياد الغربيين الدينية أو «غدير خم»[1] مع الاحتفال بمولد الرسول ﷺ فليسوا سواءً.

وفي النهاية يجدر بنا أن نشير إلى أهم الأسباب التي بها تنتشر البدع كي نحذر منها:

أسباب انتشار البدع:

١-سكوت كثير من العلماء على تلك البدع وعدم تبيانها.

٢-تأييد كثير من الحكام لتلك البدع ومحاربة شرع الله.

٣- الفتوى في الدين بغير علم.

٤- الجهل بالسنة من حيث مكانتها في التشريع أو الجهل بتمييز الأحاديث.

٥- اتباع المتشابه والهوى والجهل بأساليب اللغة.

٦- عمل العالم نفسه بالبدعة فيقلده العامة.

وللوقاية من هذا كله علينا أن نحيي السنة ونميت البدعة بالوسائل الأتية:

وسائل الوقاية من البدع:

١- نشر السنة وإحياؤها والتعريف بها.

٢- تطبيق السنة في سلوك الفرد والمجتمع وإنزالها على الواقع ليحيى بها الناس.

٣- عدم قبول الاجتهاد ممن لا يتأهل لذلك ويجب التأكد وتحري مصدر التلقي.

٤- نبذ التعصب للرأي ورد الأمر للكتاب والسنة والنزول عليهما.

٥- الرد على ما يوجه إلى الدين من حملات ظاهرة أو خفية على أساس من العلم وصد التيارات الفكرية والعقائدية الباطلة.

٦- تحذير العامة من القول في الدين بغير علم وذلك بالتوعية والدعوة الرشيدة.

٧- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالطرق المشروعة وبأحسن الأساليب الدعوية.

وبذلك نكون ممن أحيى السنة وأمات البدعة، فنحي الحق بذكره ونميت الباطل بهجره.

(١) عيد يحتفل به الشيعة الاثنى عشرية احتفالاً دينياً وليس له أصل في الدين بل هو موضوع.

مردود الأصل الثاني عشر

أولاً- حصيلة العقل:

أ- اختر الإجابة الصحيحة (من الممكن أن تكون أكثر من إجابة صحيحة):

١- من أسباب انتشار البدع:

أ	تبني بعض الحكام لها.	ب	التطورات الاجتماعية والصناعية.
ج	الفتوى بغير علم.	د	جميع ما سبق.

٢- يرى الإمام بن حزم أن البدعة:

أ	يأثم صاحبها بشكل مطلق.	ب	قد يأثم فاعلها
ج	قد يؤجر فاعلها.	د	جميع ما سبق

٣- البدعة الإضافية:

أ	يقصد بها التقرب إلى الله.	ب	ليس لها أصل في الدين.
ج	لها أصل وأدخل عليه جديد.	د	جميع ما سبق.

٤- من أمثلة البدعة الإضافية:

أ	الطواف حول الأضرحة.	ب	الأذانان قبل الجمعة.
ج	إلحاق الصلاة على النبي بالأذان.	د	جميع ما سبق

٥- الالتزام في العبادات المطلقة:

أ	ليس له دليل في أصله.	ب	هو تحديد مكان أو زمان معين لأدائها.
ج	هو تحديد عدد معين لأدائها.	د	جميع ما سبق

٦- من أمثلة الالتزام في العبادات المطلقة:

أ	عدم الزواج تقربًا إلى الله.	ب	تخصيص يوم محدد لقيام الليل.
ج	الوقوف على غير عرفه.	د	قراءة سورة الكهف يوم الجمعة.

ب- ضع (أ) أما العبارة الصحيحة و (ب) أمام العبارة الخطأ فيما يلي:

٧	البدعة الإضافية تستند إلى دليل شرعي ومن جهة أخرى تخالف النصوص الواردة.	
٨	البدعة التركية هي ترك أشياء مباحة بنية التقرب إلى الله.	
٩	الاحتفال بالمولد النبوي بدعة لا يجوز فعلها.	
١٠	الذكر الجماعي لا أصل له في الشرع.	
١١	من شروط النهي عن المنكر ألا يكون مختلف في حكمه.	

قارن إجاباتك بالإجابات النموذجية في آخر مردود الأصل، وأعط نفسك درجة لكل إجابة صحيحة وصفرًا للإجابة الخاطئة.

أكثر من ١٣	١٣-١٣	١٠-١١	٨-٩	أقل من ٨
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثانيًا- رصيد القلب:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	أعتقد أن البدعة إذا كان لها أصل في الدين فهي من المسائل الخلافية.					
٢	لا يغيب عني أن البدع ليست على درجة واحدة من الإباحة أو التحريم.					
٣	أعتقد أن البدعة التي يجب محاربتها هي المجمع على حرمتها.					

دائما = ٤، غالبًا = ٣، أحيانًا = ٢، نادرًا = ١، أبدًا = ٠

أكثر من ١٠	٩-١٠	٧-٨	٦	أقل من ٦
ممتاز	جيد جدًّا	جيد	متوسط	ضعيف

ثالثًا- حساب الجوارح:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	لا أخلط بين البدع الحقيقية والبدع التي لها أصل شرعي.					
٢	أبين لمن حولي أن جميع البدع ليست لها حكم شرعي واحد.					
٣	لا أنكر على أحد بدعة مختلف في حكمها الشرعي.					

دائما=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٠	٩-١٠	٧-٨	٦	أقل من ٦
ممتاز	جيد جدًّا	جيد	متوسط	ضعيف

إجابات حصيلة العقل (١٢)

السؤال	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١
أ	✓		✓				✓	✓			✓
ب		✓		✓	✓	✓			✓	✓	
ج	✓	✓	✓	✓	✓						
د											

الأصل الثالث عشر

محبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم



«ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربة إلى الله تبارك وتعالى، والأولياء هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[1]، والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً في حياتهم أو بعد مماتهم فضلاً عن أن يهبوا شيئاً من ذلك لغيرهم»[2].

(١) الآية ٦٣ من سورة يونس.
(٢) مجموعة الرسائل، حسن البنا،رسالة التعاليم،ص ٢٧٠.

هذا الأصل يعالج:

١-حب الصالحين من الحب في الله.

٢-احترام الصالحين والثناء عليهم.

٣-من هم أولياء الله؟

٤- ما هي الكرامة وشرائطها الشرعية؟

٥-الاعتقاد بأن الذي يملك الضر والنفع هو الله وحده.

ركائز دعوتنا:

تقوم دعوتنا على دعامتين أساسيتين:

١-قوة الإيمان.

٢-قوة الحب.

نعلم جميعاً أن الله ﷻ خلق الإنسان وأودع فيه نفسًا تطيع وتعصي، تحب وتكره، هذا أمر مركوز في فطرة الإنسان وأشار المولى في كتابه لهذا المعنى حين قال: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾[1]، فمن التزكية أن تحمل نفس الإنسان الحب وأن يصرِّف هذا الحب ويوجهه فيما يحبه الله ﷻ، كما يصرِّف البغض في كل ما يبغضه الله ﷻ ولا يحل لمسلم أبداً أن يصرف عاطفة الحب فيما يغضب الله ولا يصرف عاطفة البغض فيما يحب الله ﷻ اتباعاً لتوجيه الرسول ﷺ حيث يقول ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ لِلَّه وَأَبْغَضَ لِلَّه وَأَعْطَى لِلَّه وَمَنَعَ لِلَّه فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ**»[2]، فهذه العاطفة يجب على المسلم أن يتحكم فيها تبعاً لما جاء به الشرع الحكيم فحينئذ يؤلف بين المحبين فيحب بعضهم بعضًا ﴿**وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ**﴾[3]، وهذه الألفة لها أسباب لا تتحقق

(١) من الآية من سورة الشمس:٧-١٠.
(٢) رواه أبو داود في سننه.
(٣) من الآية ٦٣ من سورة الأنفال.

إلا بها وهو الإيمان والعمل الصالح اللذان هما سبب هذا الحب مصداقاً لقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾[١]، ومن أجل ذلك ذكر ربنا ﷻ الصحابة بهذه النعمة التي نقلتهم من الجاهلية بظلمتها إلى الإسلام بنوره فقال لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۞ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾[٢]، ولكي تحقق هذا الحب في الله ﷻ كان لابد أن تتحقق من حب الله لك أولاً وتسعى لتحقيق ذلك، فإن حققت حب الله لك كان حب الصالحين لك أمراً محتوماً لا شك فيه؛ لأن المولى لا يصطفي إلا من أحبه ليجري النصر على أيديهم كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ﴾[٣]، ثم يقول ربنا ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٤].

وهاتان الدعامتان يقوى عود كل منهما ويشتد ساعدهما، وتعمق جذورهما، ويؤتى أُكُلهما كل حين بإذن الله حيث يقوى الإيمان ذاته، وقوة الإيمان تتحقق بصحة الاعتقاد، وإسلام الوجه لله، أما قوة الحب فتتحقق بصدق الاتباع كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٥].

وحب الله تعالى يتحقق بفعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور، فإذا أنعم عليك شكرت، وإذا ابتلاك صبرت، وإن أذنبت استغفرت، فترضى بقضائه وتقنع بعطائه، فإذا تحقق ذلك فيك نادى المولى سبحانه: «يَا جِبْرِيلُ إِنِّي أُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ»[٦]، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

---

(١) الآية ٩٦ من سورة مريم.
(٢) الآيات ١٠٢ - ١٠٣ من سورة آل عمران.
(٣) من الآية ٥٤ من سورة المائدة.
(٤) من الآية ٥٤ من سورة المائدة.
(٥) الآية ٣١ من سورة آل عمران.
(٦) رواه أحمد في مسنده، والحديث في الصحيحين بنحوه.

سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾[١]، حينئذ تدخل في عداد الصاحين ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾[٢].

فالصالحون هم صناعة الله وعطاء الله وهم الذين أحبهم الله ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٣]. فمن هذا الذي لا يحب من أحب الله؟ والله يحب المحسنين، والمتقين، والصابرين، والمؤمنين، وعباد الله الصالحين.

يقول ابن تيمية ﷺ: «العبودية هي كمال الحب وكمال الذل لله»، أمران لا يجتمعا أبداً إلا لله؛ لأن الإنسان الذي يذل إنساناً آخر لا يحبه أبداً فضلاً عن أن يتبادلا الحب، ولكن العبودية لله لا تتحقق إلا بكمال الحب وكمال الذل لله ﷻ، فمن لا يحب الله فلا محبة له، لأنه لا حب إلا بإسلام، لأن المحبة هي الإسلام ولا محبة لمن لا إسلام له.

يقول ابن القيم ﷺ: المحبة حقيقة العبودية وهل تتمكن الإنابة بدون محبة؟! وكذلك الرضا والحمد والشكر والخوف والرجاء، بل وهل الصبر إلا صبر المحبين؟. والصبر في البلاء لا يتحقق إلا به ولولا الحب لله ﷻ ما كان الصبر، فالصبر أصلاً على المصائب صبر المحبين لله ﷻ، وما قصة سيدنا إبراهيم مع ابنه إسماعيل منا ببعيد حين قال: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[٤]، لكي يكون خليلاً للرحمن ﷻ لم يرد المولى ﷻ أن يتعلق بابنه محبة له فوضعه في هذا البلاء الشديد لكي يكون القلب خالصاً في محبته لله وحده.

ولكي تتحقق هذه المحبة لابد من اتباع الرسول ﷺ يقول ربنا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[٥]، فجعل اتباع رسوله مشروطًا بمحبتهم لله وشرطًا

---

(١) الآية ٩٦ من سورة مريم.
(٢) الآية ٩ من سورة العنكبوت.
(٣) الآية ٥٤ من سورة المائدة.
(٤) الآية ١٠٢ من سورة الصافات.
(٥) من الآية ٣١ من سورة آل عمران.

لمحبة الله لهم، ولذلك يستحيل ثبوت محبتهم لله ومحبة الله لهم بدون متابعة الرسول ﷺ، كما يستحيل أن يزعم الإنسان أنه يحب الله ويعص الرسول ﷺ، وكما قالوا: لكي تتحقق المحبة لابد أن تهب نفسك كلها لمن أحببت فلا يبقى لك منك شيء، سُئل الجُنيد وهو في مكة عن المحبة: ما المحبة يا جُنيد؟ فأطرق رأسه ودمعت عيناه ثم قال: «عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، واضع إليه بقلبه، فإن تكلم فبالله وإن نطق فعن الله وإن تحرك فبأمر الله وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله» فبكى مَن سمعه وقالوا: ما على هذا نزيد، يقول ابن القيم رضوان الله عليه وأرضاه: «إن الأسباب الجالبة لمحبة الله والموجبة لها عشرة:

١- قراءة القرآن للتدبر والتفكر بمعانيه وما أريد منها.

٢- التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل.

٣- دوام ذكره في كل حال باللسان والقلب.

٤- إيثار محبته على محبتك عند غلبات الهوى.

٥- مطالعة القلب لأسمائه ﷻ وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها.

٦- مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الظاهرة والباطنة.

٧- انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى.

٨- الخلوة لمناجاته والتأدب بأدب العبودية بين يديه والاستغفار، بل وكثرته.

٩- مجالسة المحبين والصالحين الصادقين ولا نتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام.

١٠- مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ.

ولا يتحقق ذلك كله إلا باليقظة، وأولى مراحل العبودية اليقظة، واليقظة هي انتباه القلب من رقدة الغافلين ولذلك كان دعاء داود: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَالْعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَأَهْلِي وَمِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ**»[1] ولقد ذكر لنا القرآن من يحبهم الله فقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ**

(١) رواه الترمذي في سننه.

الْمُحْسِنِينَ﴾[١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾[٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[٤]، كما ذكر من لا يحبهم فقال: ﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[٥]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[٦]، إذا فقهنا هذا عرفنا أن التفاوت في الطاعة سببه التفاوت في المحبة، وأنصت لرسول الله ﷺ يقول: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[٧]. ويقول: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإِيمَانِ مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».[٨] ويحكي لنا عبد الله بن هشام فيقول: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال ﷺ: «لا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ»، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إليَّ من نفسي. فقال له ﷺ: «الآنَ يَا عُمَرُ»[٩]. وما أفقه وأدق ما قاله العلماء يقولون: «ليس الشأن في أن تحب الله ولكن الشأن في أن يحبك الله»؛ لأن ما أكثر الذين يدعون حب الله.

ومن الطبيعي أن محبتك لرسول الله ﷺ يتبعها محبتك لآل بيته وعشيرته المؤمنة، ثم الصحابة من بعده، ثم التابعين ثم من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. يقول أنس: أن أعرابياً سأل الرسول ﷺ فقال: يا رسولَ اللَّه متى السَّاعةُ قائمةٌ؟ قال: «وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا»، قال: ما أَعْدَدْتُ لها إلا أني أُحِبُّ اللَّهَ ورسُولَهُ. قال: «إِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ». فقلنا: ونحنُ كذلكَ. قال: «نَعَمْ» ففرحْنا يومئذٍ فَرَحًا شَدِيدًا [١٠]، وفي رواية لأحمد قال أنس: فما رأيت المسلمين

---

(١) من الآية ١٩٥ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ٢٢٢ من سورة البقرة.
(٣) من الآية ٤ من سورة الصف.
(٤) من الآية ٤ من سورة التوبة.
(٥) من الآية ٢٠٥من سورة البقرة.
(٦) من الآية ١٨ من سورة لقمان.
(٧) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.
(٨) المصدران السابقان.
(٩) رواه البخاري في صحيحه،وغيره.
(١٠) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

فرحوا بشيء بعد الإسلام أشد من فرحهم بقوله ﷺ[(١)].

لقد عرفنا كيف تتحقق محبة الله لنا بالعشر التي أشرنا إليها آنفًا ولكي نحافظ على ذلك كان لابد من معرفة الأسباب التي تؤدي إلى ضعف هذا الحب، فما هي هذه الأسباب؟

١- ضعف النية لعمل الآخرة.

٢- حين تصير الأبدان مهيأة للشهوات ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[(٢)].

٣- أن يدخل على المرء طول الأمل مع قصر الأجل.

٤- تقديم إرضاء المخلوقين على رضا الله.

٥- اتباع الأهواء ونبذ السنة وتركها.

٦- أن تجعل ذلَّات السلف حجة لنفسك وتكتم مناقبهم.

يقول عيسى عليه السلام: «تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، وتقربوا إلى الله بالتباعد عنهم، والتمسوا رضا الله بسخطهم». قالوا: يا روح الله فمن نجالس؟ قال: جالسوا من تذكركم بالله رؤيته، ومن يزيد في إيمانكم كلامه، ومن يرغبكم في الآخرة علمه»[(٣)]. وتأمل قول الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾[(٤)]، ولذلك يقول الرسول ﷺ: «وَاللَّهِ لا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، قَالَ: إِنْ شِئْتُمْ دَلَلْتُكُمْ عَلَى مَا إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ»[(٥)]، فالسلام تلازمه المحبة والترابط والأخوة والإيثار وكل المعاني الطيبة وليس كلام اللسان الذي يقول غير ما يفعل حاملاً في طياته الأذى كما قال ربنا: ﴿ومِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ويُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وهُوَ أَلَدُّ

(١) أحمد في مسنده.
(٢) من الآية ١٤ من سورة آل عمران.
(٣) رواه ابن المبارك في الزهد، والبيهقي في شعب الإيمان
(٤) من الآية ٢٨ من سورة الكهف.
(٥) رواه أحمد في مسنده.

الخصَامِ ۞ وإذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فيهَا ويُهْلِكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ واللَّـهُ لا يُحِـبُّ الفَسَادَ ۞ وإذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادُ﴾[١].

عن أنس بن مالك أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إني أحب فلان في الله، قال: «فَأَخْبَرْتَهُ»، قال: لا، قال: «فَأَخْبِرْهُ»[٢]، إنه شيء يدعو إلى السرور، حين تقابل أخاك فتقول له: والله إني أحبك في الله، فكأن هذه شهادة بأن هذا الذي أحبه هو الذي يغشى المجالس الطيبة ويكثر الخطى إلى المساجد، قائم لله ﷻ مجاهد في سبيله فإذا بالرد الطيب: أحبك الله الذي أحببتني من أجله. فيكون الحب كله لله ﷻ ورحمة الله على إمامنا الشهيد حسن البنا الذي علمنا هذا الدعاء الذي نردده بعد الدعاء المأثور والذي نقول فيه: «اللهم إنك تعلم أن هذه القلوب قد اجتمعت على محبتك، والتقت على طاعتك، وتوحدت على دعوتك، وتعاهدت على نصرة شريعتك، فوثق اللهم رابطتها، وأدم ودها، واهدها سبلها، واملأها بنورك الذي لا يخبو، واشرح صدورها بفيض الإيمان بك، وجميل التوكل عليك، وأحيها بمعرفتك، وأمتها على الشهادة في سبيلك، إنك نعم المولى ونعم النصير»[٣]، وصدق الإمام حين قال: «سنقاتل الناس بالحب»، وتأمل قول الله: ﴿وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾[٤]، فإذا زال الحب انفرط العقد وتفرق الجمع وأكله الذئب؛ ولذلك فإن المولى سبحانه يحذر المؤمنين قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[٥]، يقول ابن القيم: هذه عداوة المحبة من شدة تعلق الوالد بولده يعوقه عن الجهاد في سبيل الله، فكأن هذا الولد أصبح عدواً، وأنت بسبب هذا الحب لا تؤدي ما عليك من واجب فأصبح هذا الحب عدواً لك؛ لأنه يمنعك من فعل الخيرات وتأمل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[٦]، ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٧].

---

(١) الآيات ٢٠٤-٢٠٦ من سورة البقرة.
(٢) رواه أحمد في مسنده وأبو داود في سننه بمعناه.
(٣) مجموعة الرسائل، حسن البنا،رسالة المأثورات،ص٣٧٧.
(٤) من الآية ١٠ من سورة الحشر.
(٥) من الآية ١٤ من سورة التغابن.
(٦) من الآية ١٤ من سورة التغابن.
(٧) الآية ٢٨ من سورة الأنفال.

ألم تر كيف بدأ رسول الله ﷺ في بناء المجتمع المسلم في المدينة فأقام المسجد لغرس الإيمان وآخى بين المسلمين لتقوى العلائق بالحب ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[1] وبهذا الحب الذي يسود مجتمع المؤمنين الصالحين تتكون الجماعة المسلمة المتآلفة المتحابة ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[2] وتتوثق عرى المحبة التي لا تنفصم لأنها من الله ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[3]، فإذا بهم صفاً واحداً تنعدم فيه الانشقاقات وتقل فيه الخلافات لأنهم يقولون ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[4] فاهدنا يا رب صراط الصالحين ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾[5]، فهم معاً في الدنيا في صلاح وتقوى ومحبة وهم في الآخرة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

فمن هم الصالحون؟

يقول ربنا ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾[6]، فتدبر هذه الآية الكريمة تجد الصالحين هم صناعة الله وهم الذين عناهم المولى ﷻ في قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ وبهذا الحب تتكون جماعة المسلمين المتحابة وهم الذين أحبوا لله وأبغضوا لله وأخذوا لله وتركوا لله، قلوبهم صافية وعيونهم باكية وأيديهم حانية- كما قلنا- وأرجلهم ساعية وأعمالهم خالصة، يبيت أحدهم وليس في صدره شيء لأحد، وبهذه الصفات أقاموا بناء الدولة ووطدوا أركان الدعوة؛ ومن أجل ذلك كانت أولى خطوات الرسول ﷺ في مدينته بعد الهجرة بناء المسجد ليحقق قوة الإيمان والمؤاخاة ليحقق قوة الحب، ذلك الرباط المتين وهذا الحصن الحصين الذي لا يستطيع عدو أن يخترقه فقد يخترق أعداء الإسلام الصفوف فيحتلوا البلاد بقوتهم الغاشمة

(١) من الآية ٥٤ من سورة المائدة.
(٢) من الآية ٩ من سورة الحشر.
(٣) من الآية ٦٣ من سورة الأنفال.
(٤) الآية ٥ من سورة الفاتحة.
(٥) الآية ٧ من سورة الفاتحة.
(٦) الآية ٩ من سورة العنكبوت.

ولكنهم لا يستطيعون أن يخترقوا قلوب العباد مهما أوتوا من قوة.

من هنا كانت محبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم من العبادة التي يتقرب بها العبد لربه ومن الإيمان الذي وقر في القلب «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ»[١].

وهنا لابد لنا من وقفة ألا وهي: لماذا قال الإمام البنا «ومحبة الصالحين واحترامهم»؟ ولم يقل «ومحبة المصلحين»؛ ذلك لأن الصالحين أعم وأشمل من المصلحين فهناك فرق بين الصالح وبين المصلح، فالصالح هو الذي يكون صلاحه في نفسه ولا يتعدى إلى غيره، أما المصلح فصلاحه يتعدى غيره ويتحرك به بين الناس ويدعوهم إليه ويتحمل الإيذاء في سبيل هذه الدعوة التي يوقن وينشر هذا الصلاح، فلو قال الإمام البنا: «محبة المصلحين» لقصرها على المصلح وخرج منها الصالحون، لكن عندما يقول محبة الصالحين فيدخل الصالحون ومعهم المصلحون من باب أولى لأنك إذا أحببت الصالح يكون من الأولى أن تحب المصلح، وتأمل قول الله تعالى وتدبره وهو يقول: ﴿**وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ**﴾[٢] لأنه إذا تولى الصالحين فهو يتولى المصلحين، فليس كل صالح مصلح ولكن كل مصلح لا شك صالح، ومن رحمة الله أن كانت ولاية الله للصالحين؛ لأن المصلحين عُمّار الأرض والقائمون على الحق الحارسين وهم قلة، ولذلك قال ربنا: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾[٣]، فلا تُهلك القرى وأهلها مصلحون؛ لأنهم لا يسكتون على باطل ولا يتركون الفساد يستشري بل يتصدون له وينكرونه مهما أصابهم من أذى من حاكم جائر.

ولذلك سألت السيدة عائشة رسول الله ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نَعَمْ إِذَا ظَهَرَ الْخُبْثُ**»[٤]، فلم تقل وفينا المصلحون ولكن قالت: وفينا الصالحون لأنه القائل: ﴿**وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ**﴾[٥]، ومن هنا يبين لنا المولى ﷻ أن المنافقين يدعون

(١) رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول.
(٢) من الآية ١٩٦ من سورة الأعراف.
(٣) من الآية ١١٧ من سورة هود.
(٤) رواه الترمذي في سننه.
(٥) من الآية ١٩٦ من سورة الأعراف.

الإصلاح، فهم الذين قال عنهم القرآن: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۞ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لا يَشْعُرُونَ﴾(١)، فوصفهم القرآن بأنهم «مفسدون» وليسوا فاسدين فحسب لأن الفاسد فساده في نفسه لا يتعدى غيره، أما المفسد ففساده يصيب الغير وينتشر في الأرض، ولذلك قال ربنا: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾(٢)، ولم يقل والله يعلم الفاسد من الصالح، ومن أجل ذلك نهانا القرآن أن نجلس مع هؤلاء الذين قال فيهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٣).

والقرآن يثني على الصالحين، ولذلك يعلمنا ربنا الثناء على الصالحين؛ لأنه سبحانه أثنى عليهم ونوه بأخلاقهم ومسالكهم فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾(٤)، وقال: ﴿واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وكَانَ رَسُولاً نَّبِياً ۞ وكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ والزَّكَاةِ﴾(٥).

وكذلك رأينا الأنصار يثنون على المهاجرين ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(٦)، ويستمر هذا الموكب المتحاب يورث بعضه بعضاً هذا الحب ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٧).

المحبة منطلق كل خير:

إن المحبة منطلق كل خير وفلاح؛ لأنها تجمع المسلمين على وجهة واحدة وغاية واحدة وقدوة واحدة، فهي الحياة ودونها الموت والهلاك، يقول عمر بن الخطاب ﷺ:

(١) الآيات ١١، ١٢ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ٢٢٠ من سورة البقرة.
(٣) الآية ٦٨ من سورة الأنعام.
(٤) الآية ٤١ من سورة مريم.
(٥) الآيات ٥٤، ٥٥ من سورة مريم.
(٦) من الآية ٩ من سورة الحشر.
(٧) الآية ١٠ من سورة الحشر.

«لولا ثلاثة ما أحببت البقاء: لولا أن أحمل على جياد في سبيل الله، ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب التمر». ويقول ابنه عبد الله: «والله لو صمت النهار لا أفطره وقمت الليل لا أنامه وأنفقت مالي غلقاً غلقاً في سبيل الله أموت يوم أموت وليس في قلبي حب لأهل طاعته ولا بغض لأهل معصيته ما نفعني ذلك شيئاً».

كيف نقدر الصالحين ونثني عليهم؟

محبة الصالحين من الحب في الله لأن الله يحبهم ويحبونه فنقدرهم ونثني عليهم ثناء حسنا، ولقد كره العلماء بعض العلماء تقبيل يد الصالحين تعظيماً لهم، وفي مسألة التقبيل بالذات خلاف. كرهها الإمام مالك وآخرون من الفقهاء.

قال **سليمان بن حرب**: «قبلة اليد هي السجدة الصغرى»، وقال **ابن عبد البر**: «تقبيل اليد إحدى السجدتين». ولقد قبض هشام بن عبد الملك يده من رجل أراد أن يقبلها وقال: «مَه فإنه لا يفعل هذا إلا هلوعًا[1] ومن العجم إلا خضوعاً».

ورخص أكثر العلماء كالشافعي وأحمد بن حنبل رحمهما الله، يقول: إن كان للدين لا للدنيا فلا يكره تقبيل اليد لزهد وعلم وكبر سن بل يستحب ذلك.

قال الشعبي: «صلى زيد بن ثابت على جنازة فقُرِّبت إليه بغلة ليركبها، فجاءه ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد: خل عني يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء[2]، فقبل زيد بن ثابت يده وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا محمد ﷺ» [3].

ويكره لدنياه وثروته وشوكته ووجاهته كراهة شديدة.

ومن طريف ما قيل لبعض الفقهاء في تقبيل اليد أنه باعتبار موقعه على أنواع:

- تقبيل المودة للولد ويكون على الخد.

---

(١) هلوع شديد الجزع جبان.

(٢) المراد: ذوو الأسنان والشيوخ.

(٣) رواه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم.

- وتقبيل الرحمة للوالدين ويكون على الرأس.
- وتقبيل الشفقة للأخ ويكون على الجبهة.
- وتقبيل الشهوة للزوجة ويكون على الفم.
- وتقبيل التحية للعلماء العاملين والحكام العادلين ويكون على اليد.

واتفق العلماء على كراهة مد اليد للناس ابتداءً ليقبلوها، فهذا منهي عنه بلا نزاع كائناً من كان هذا الإنسان ولكن النزاع فيما إذا كان المقبل هو المبتدئ بذلك[١]، هذا كله يخص تقبيل اليد والذي يظهر فيه الخلاف المعتبر شرعاً الذي لا إنكار فيه.

التبرك بالصالحين:

التبرك هو التيمن بالشيء والبركة هي النماء في الخير والزيادة فيه، ولقد قال المولى أنه بارك في أرض الشام فقال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[٢]، وعيسى عليه السلام قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[٣]، بل إن القرآن نفسه كله مبارك ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾[٤].

ومن الأدعية المأثورة «وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ»،[٥] فطلب البركة والتماسها أمر مستحسن شرعاً لأنه من طلب الخير والتماسه ولكن بما يكون التبرك وكيف يكون؟

بمَ يكون التبرك؟

التبرك يكون بما عُلم شرعاً أن فيه بركة وأذن الشارع في طلبها منه والتماسها فيه، وذلك كبيت الله الحرام، وزمزم والمساجد الثلاثة وكالأرض المقدسة،وكمجالس العلم والذكر وقراءة القرآن ومجالسة الصالحين، وطلب دعائهم ومرافقتهم[٦]، **يقول الإمام الشاطبي** في (الاعتصام): «التبرك بغير آثار النبي ﷺ بدعة إضافية، لأن الصحابة كانوا يتبركون بآثار النبي ﷺ، فقد ثبت أن الصحابة كانوا يتمسحون بفضل وضوءه ﷺ بل

---

(١) الإبداع في مضار الابتداع، للشيخ علي محفوظ،ص١٩٢.
(٢) الآية ٧١ من سورة الأنبياء.
(٣) من الآية ٣١ من سورة مريم.
(٤) من الآية ٢٩ من سورة ص.
(٥) رواه الترمذي في سننه وغيره.
(٦) عقيدة المؤمن،لأبي بكر الجزائري،ص١٦٦،بتصرف.

ويدلكون وجوههم بنخامته ﷺ ليس هذا فحسب بل وشربوا دم حجامته وشربت خادمة بوله عليه السلام، وتبركوا بشعره وثوبه وغيرهما».

فعن أبي جحيفة قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ بالهاجرة فأتى بوضوء فتوضأ فجعل الناس يأخذون من فضل وضوءه فيتمسحون به»[١].

وعن السائب بن يزيد قال: ذهبت بي خالتي إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إن ابن أختي وجع فمسح رأسي ودعا لي بالبركة ثم توضأ فشربت من وضوئه[٢].

وحكى القاضي عياض أن مالك بن سنان مص دم النبي ﷺ يوم أحد فقال ﷺ: «**لن تصيبه النار**». وأن عبد الله ابن الزبير شرب دم حجامته ﷺ فلم ينكر ذلك منه، وأن امرأة شربت بوله ﷺ فقال لها: «لا تشتكى وجع بطنك أبداً»[٣].

قالوا: إن الصحابة تبركوا بآثار الرسول ﷺ ولكنهم لم يتبركوا بآثار غيره وتركهم لذلك لسببين:

١-أن يعتقدوا في التبرك بالرسول الله ﷺ خصوصية له، ومرتبة النبوة تتسع لذلك كله فكما اختص بأشياء دون غيره اختص بالتبرك بآثاره ﷺ ولا يشاركه في ذلك أحد.

٢-ألا يعتقدوا الاختصاص ولكنهم تركوا ذلك من باب سد الذرائع[٤] خوفاً من أن يجعل ذلك سنة أو لأن العامة لا تقتصر في ذلك على حد، بل تتجاوز فيه الحدود وقد قطع عمر رضي الله عنه الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ، فقد يبالغ قوم في التبرك بالصالحين إلى حد الاعتقاد الفاسد بأنهم ينفعون ويضرون كما يحدث في زيارة أضرحة بعض الصالحين، ولقد بالغ أصحاب الحلاج في التبرك به حتى ادعوا فيه الألوهية.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فالولاية وإن ظهر لها في الظاهر آثار قد يخفى أمرها، فإنها في الحقيقة راجعة إلى أمر باطن لا يعلمه إلا الله، فربما ادعيت الولاية لمن ليس بولي أو ادعاها لنفسه أو أظهر خارقة بطريق السحر أو الشعوذة ونحو ذلك، فبهر من ذلك الجاهلون وخدعوا وظنوا في ذلك الظنون واعتقدوا فيه اعتقادًا يوشك

---

(١) رواه البخاري في صحيحه.

(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

(٣) الشفا،للقاضي عياض١/ ٥٤.

(٤) سد الذرائع معناه أن الشارع منع من أشياء لأنها تجر إلى المنهي عنه وتوصّل إليه، فهو منع الجائز لأنه يجر إلى غير الجائز،وبحسب عظم المفسدة في الممنوع يكون اتساع المنع في الذريعة وشدته.

أن يهلكهم، وكل هذا لا يمنع من التبرك بالصالحين.

ولقد رد العلماء على خصوصية التبرك فقالوا: «لا دليل عليها» أما قولهم [لسد الذريعة] فإن اعتبار سد الذرائع في بعض الأمور لا يدل على اعتبارها في كل أمر، فالشارع لم يعتبر سد الذرائع في المنع من زراعة العنب خشية استخراج الخمر منه ونحو ذلك، وكذلك لم يعتبر سد الذريعة في وأد البنات وقتل الأولاد خشية الإملاق أو خشية العار.

ولو أن الشارع اعتبر مثل هذا سداً للذريعة لمنع منه بالنسبة إلى التبرك بالنبي ﷺ بالأولى، لأن الأمر الذي يخشى من ترتبه على مثل هذا التبرك أقرب منه حينئذ بالنسبة إلى من عداه.

وخلص أصحاب هذا الرأي إلى أنه لا بأس بهذا التبرك في حدود الشريعة؛ لأنه من باب حب الصالحين وهو الحب في الله وقد أمرنا بهذا الحب وورد ما يدل عليه من آثار، فلا يتبرك بدم أو بول مثلاً للحكم بأنه غير طاهر، ولا يمكن تسليم الخروج عن طريق هذا التبرك إلى ما يخالف الشرع كما حدث مع اتباع الحلاج، فهذه عبادة وليست بالتبرك، وقد ورد في الحديث الشريف ما يفيد التبرك بالأرض وريق المؤمن في قوله ﷺ: «**تُرْبَةُ أَرْضِنَا بِرِيقَةِ بَعْضِنَا يُشْفَى سَقِيمُنَا بِإِذْنِ رَبِّنَا**»[1]، وفي الأثر: «سؤر المؤمن شفاء».

وأما التمسك بما وقع من عمر ﷺ من قطع الشجرة فلا يدل على الإطلاق لأنه واقعة حال - أي حالة معينة- وعلى هذا إذا كان التبرك في حدود الشرع فلا مانع يمنع منه، ولا دليل من الشرع على خصوصيته للرسول ﷺ ولم يرو عن الرسول ﷺ ما يمنع من مثل هذا التبرك، وقد صح عن الربيع بن سلمان أن الإمام الشافعي ﷺ كان يتبرك بغسالة ثوب الإمام أحمد ﷺ كما ذكره صاحب الطبقات الكبرى في قصة طويلة.

الحكم على الظواهر:

وهذا التبرك نفعله على أساس ما نراه من ظاهر سلوك الصالحين، لأن التعامل في نظر الشارع إنما يقوم على أساس ما نراه من الظواهر، ولسنا مطالبين بالكشف عن السرائر أو التنقيب عما في القلوب، فظهور الصلاح كاف في استحقاق صاحبه ما يترتب عليه من المحبة والرعاية والتوقير والمؤمن كيس فطن ﴿**وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا**

---

(١) رواه البخاري في صحيحه وغيره.

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾[١]، ولما رواه البخاري ومسلم من قول النبي ﷺ: «إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَلا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ»[٢]، ولما رواه البخاري عن عمر قال: «إنَّ أُناسًا كانوا يُؤْخَذُونَ بالوحي في عهْد رسول اللَّه ﷺ وإنَّ الوحيَ قدْ انْقطعَ وإنَّما نأخذُكُم الآن بما ظهرَ لنا مِنْ أعمالِكُمْ فَمَنْ أَظْهَرَ لنا خيرا أَمِنَّاهُ وقرَّبناهُ وليس إلينا مِنْ سَريرَتِهِ شيءٌ اللَّهُ يُحاسبُهُ في سَريرَتِهِ...»[٣]، فليس لنا أن نحكم بعد انقطاع الوحي إلا بما ظهر لنا من أعمال صالحة تدل على الإيمان والتقوى فيصبح ذلك في عداد الصالحين، وهذا بحكمنا البشري ولا شأن لنا بحكم الله فيه.

فمن هو الولي؟

الأولياء هم أهل الإيمان والتقوى ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾[٤]، في دنياهم، وهم الذين تبشرهم الملائكة عند موتهم ﴿أَلا تَخَافُوا ولا تَحْزَنُوا وأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وفِي الآخِرَةِ﴾[٥]، فهم لا يخافون ولا هم يحزنون ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٦]، من هم؟ ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[٧].

يقول أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[٨]. هؤلاء أولياء الله الذين يحافظون على الفرائض في أوقاتها والذين لا يقصرون في السنن الراتبة، ثم

---

(١) من الآية ٨١ من سورة يوسف.
(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.
(٣) رواه البخاري في صحيحه.
(٤) من الآية ٣٠ من سورة فصلت.
(٥) من الآيات ٣٠، ٣١ من سورة فصلت.
(٦) من الآية ٦٢ من سورة يونس.
(٧) من الآيات ٦٣،٦٤ من سورة يونس.
(٨) المصدر السابق.

يكثرون من النوافل صوماً وقياماً وإنفاقاً وعطاءً من أموالهم، هؤلاء هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فكل من آمن واتقى فهو ولي.

معنى الولاية:

هي كلمة تجمع بين الخير والشر معاً ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾[1]، ولقد استعملها رسول الله ﷺ في الغالب الأعم في جانب أولياء الله كما في الحديث « مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا »، وقد فهمها الصحابة بهذا المعنى وهي في اللغة تعني المحبة أو القرب أو الحماية والنصرة فالولي هو النصير.

ولقد خصصتها الصوفية والشيعة لأشخاص معينين إما من آل البيت وإما من شيعة آل البيت وإما من المتصوفة، وأصبحت في الغالب والأعم عند الناس تطلق على رجل من المتصوفة أو الشريف المنتسب إلى آل البيت الذي ربما يدعي ذلك ليتكسب من وراء هذا الادعاء.

إلا أن البعض أوقفهما على الصحابة بنص القرآن لأنه وصف لمن نال محبة الله وهي غاية يسعى إليها كل مؤمن. ولكن ولا ندري من وصل إليها إلى أن يأتي اليوم الذي تجادل فيه كل نفس عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون، ويدلنا عليها حديث رسول الله ﷺ الذي رواه عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمْ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى». قالوا: يا رسول الله، أخبرنا من هم وما أعمالهم؛ فإنا نحبهم لذلك؟ قال: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَاللَّهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ لا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2] »[3]. والذي نريد أن نؤكد عليه أن للولاية شروطًا كي تتحقق في العبد الصالح.

---

(١) من الآية ٢٥٧ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٦٢ من سورة يونس.

(٣) رواه أبو داود في سننه.

شروط الولاية:

١-التمسك بكتاب الله والسنة.

٢-الاقتداء بأقوال رسول الله ﷺ وأفعاله.

٣-أن تزن الأفعال والأقوال بميزان الكتاب والسنة.

أما العلم اللدني، والوصاية من الشيخ عند الشيعة، والعصمة والفناء وخوارق الأمور، كل هذه ليست من الولاية في شيء، وصدق من قال: «إذا رأيت الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء ويترك ما أمر الله ورسوله فاعلم أنه ساحر أو شيطان».

فبعض المشعوذين يترك الفرائض ويقول:﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[(١)]، ولقد أتاني اليقين فسقطت عني الفرائض، بينما اليقين هنا هو الموت يقول ربنا: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۞ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾[(٢)] أي الموت، واسمع إلى أبي هريرة ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**»[(٣)].

هؤلاء هم الأولياء الذين يحافظون على النوافل حفاظهم على الفرائض ويتقربون إلى الله بالطاعات فيرزقون الفراسة والإلهام فلقد قال رسول الله: «**لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنْ الْأُمَمِ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ**»[(٤)] والمحدث هو الملهم.

الكرامـــات:

الكرامة الاسم من كَرم والجمع كرامات، وهي ما يكرم الرب تبارك وتعالى به عباده من أنواع الإفضالات وهي عامة لبني آدم وتتمثل فيما كرم الله به بني آدم كلهم

---

(١) الآية ٩٩ من سورة الحجر.

(٢) الآيات ٤٦، ٤٧ من سورة المدثر.

(٣) المصدر السابق.

(٤) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[١] وتتمثل فيما يكرم الله تعالى به بعض عباده من هدايتهم إلى الإيمان وتوفيقهم إلى طاعته، فهذه الاستقامة على الإيمان والطاعة من أعظم الكرامات وأهلها من أصحاب اليمين[٢].

والكرامة نفاها المعتزلة وأثبتها أهل السنة وقالوا: إن القرآن أثبتها فهؤلاء هم أهل الكهف مكثوا في كهفهم ﴿ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾[٣]، وهذه مريم يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾[٤]، وقصة الخضر مع موسى عليه السلام وإن كان يرجح أنه نبي وليس ولياً، ويرجح ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾[٥]، فهي منّة من الله ومنحة للذين آمنوا وكانوا يتقون.

سقوط الكرامة:

وتسقط المنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه بالذنوب والمعاصي لأن المولى سبحانه يقول: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[٦]، فعلى قدر طاعة العبد تكون منزلته عنده، فإذا عصاه وخالف أمره سقط عند الله، فأسقطه من قلوب العباد فأصبح ساقط القدر، وسقوط القدر والجاه جالب كل غم وهم وحزن لأن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۞ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾[٧]، ذلك لأن من أعظم نعم الله على العبد أن يرفع له بين العالمين ذكره ويعلي قدره ولهذا خص أنبياءه ورسله بما ليس لغيرهم فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾[٨]، أي خصصناهم بخصيصة وهي الذكر

---

(١) من الآية من سورة الإسراء:٧٠.
(٢) عقيدة المؤمن،لأبي بكر الجزائري،ص١٧٥.
(٣) من الآية ٢٥ من سورة الكهف.
(٤) من الآية ٣٧ من سورة آل عمران.
(٥) من الآية ٨٢ من سورة الكهف.
(٦) من الآية ١٣ من سورة الحجرات.
(٧) الآيات ١-٣ من سورة محمد.
(٨) الآيات ٤٥، ٤٦ من سورة ص.

الجميل الذي يذكرونه في هذه الدار، وهي لسان الصدق الذي سأل إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾[(١)]، ولقد قال لنبينا ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[(٢)] فأتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم، وكل من خالفهم فإنه بعيد من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم[(٣)].

ولقد قرر الإمام ابن تيمية أن لبعض الناس كرامات، وأن بعضهم يجري الله على يديه خوارق العادات ولكنهم غير معصومين من الخطأ، ويقول: إن الكرامة ليست أفضل من الاستقامة ولذلك كان بعض الصالحين يطلب من الله تعالى أن يهبه الاستقامة ولا يهبه الكرامة، يقول أبو على الجرجاني: كن طالباً للاستقامة لا طالباً للكرامة، فإن نفسك منجبلة على الكرامة وذلك يتطلب منك الاستقامة[(٤)].

كرامات للصحابة والتابعين:

وكم للصحابة والتابعين من كرامات:

* فهذا عمر على منبره ينادى سارية يقول: «يا سارية الجبل» والقصة معروفة لدرجة أن سارية سمع صوت عمر رضي الله عن الجميع.

* وعن أنس قال: كان أسيد بن حضير وعباد بن بشر عند رسول الله ﷺ في ليلة ظلماء فتحدثا عنده حتى إذا خرجا أضاءت لهما عصا أحدهما فمشيا في ضوئها فلما تفرق بهما الطريق أضاءت لكل منهما عصاه فمشيا في ضوئها[(٥)].

* وهو نفسه -أُسيد بن حضير - الذي كان يقرأ سورة الكهف فنزلت عليه السكينة من السماء مثل الظلة فيها أمثال السَرَج وهي الملائكة فأخبر بذلك النبي ﷺ فقال: «**تِلْكَ الْمَلائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ**»[(٦)].

* وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين.

---

(١) من الآية ٨٤ من سورة الشعراء.
(٢) من الآية ٤ من سورة الشرح.
(٣) الداء والدواء، لابن القيم،ص٧٨.
(٤) المذاهب الإسلامية،للشيخ محمد أبو زهرة، ص٢٩٩.
(٥) رواه البخاري في صحيحه، وأحمد في مسنده.
(٦) رواه مسلم في صحيحه وغيره.

* وكان أبو الدرداء يأكل من صحفة فسبحت وسبح ما فيها.

* وكان الصديق رضي الله عنه يأكل هو وأضيافه من القصعة، فلا يأكلون لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها فشبعوا وهي أكثر مما كان فيها قبل أن يأكلوا.

* وأما خُبيب بن عدي رضي الله عنه لما أسره المشركون كان يؤتى إليه بقطف من العنب في غير وقته فيأكل منه.

* أما سُفَيّنة فكان في سفينة فكسرت فنزل الشاطئ على خشبة فأخذته الريح إلى غابة، فوجد أسداً أمامه فخاطبه قائلاً له: أُقسم عليك أنا مولى رسول الله ﷺ فلا تقترب مني، فماذا حدث؟ مشى معه الأسد حتى أوصله إلى مقصده ولم يصبه بأي أذى.

* وهذه امرأة من الصحابيات عُذبت حتى ذهب بصرها فقال المشركون: ما أصابها هذا العمى إلا من اللات والعزى، فقالت: كلا والله كذبتم. فعاد بصرها إليها.

وأما التابعون فكان لبعضهم كرامات مشهودة منهم مَن أُلقي في النار فوجد قائماً يصلي، فقال عمر بن الخطاب: الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أرى في أمة محمد ﷺ من فُعل به كما فُعل بإبراهيم عليه السلام.

* وهذا عامر بن قيس وضع رجله على رقبة الأسد فاستسلم له حتى مرت القافلة ولم يصب أحد من القافلة بسوء.

* وأما مطرف بن الشِخّير كان إذا دخل بيته سبحت معه آنيته.

والكرامات التي أثبتها التاريخ الصحيح كثيرة واسألوا المجاهدين الأفغان في زماننا هذا في جهادهم الإسلامي مع الملاحدة وما رآه المجاهدون من كرامات سجلت في كتب ببركة الجهاد.

لا يملكون نفعاً ولا ضراً:

ومع هذا كله فنحن لسنا مطالبين بأن نصدق بهذه الكرامات لفرد بعينه، ولا يخدش إيماننا إن سمعنا عن كرامة لفلان فلم نصدقها أو نؤمن بها، فنحن نؤمن بالكرامات وإن كنا غير مطالبين بالإيمان بإسنادها لفرد بعينه.

فكم من مشعوذ دجال يستطيع أن يسحرنا بلعبه ودجله، فهذا أحدهم كان يركب مركباً فسرقت لؤلؤة واتهم فيها فقال: يا حيتان البحر أقسمت عليكم أن يأتي الحوت

باللؤلؤة، فهذا دجل وشعوذة!!

ويحكي الإمام الغزالي عن أحدهم وكان لا يُعرف عنه صلاح ولا عبادة، وكان لديه ضيف فتعرض له أسد، فقال: له لا تتعرض لضيفي فهز الأسد رأسه، فقال الرجل الدجال: اشتغلتم بتقويم الظاهر فخفتم الأسد، ولكننا انشغلنا بتقويم الباطن فخافنا الأسد.

مثل هذا الدجل تسمعه ممن يقولون أن للدنيا أقطاباً أربعة: السيد البدوي والسيد الرفاعي والسيد الجيلاني والسيد الدسوقي كل واحد منهم له ربع الدنيا ولا يعتدى على ربع صاحبه. فهل مثل هذا الرجل يصدقه عاقل؟

أما الكرامة فتثبت بشرائطها الشرعية كما ذكرنا.

والجدير بالذكر أنه ليس معنى الكرامة أن نعتقد أنهم يملكون الضر والنفع؛ ذلك لأنهم لا يملكون لأنفسهم لا نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا يعلمون غيباً، فأفضل الخلائق عند الله عز وجل يقول له ربه: ﴿**قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ**﴾ (١).

وهكذا تبنى العلاقات بين الأفراد على الفهم الدقيق والإيمان العميق والحب الوثيق فتجتمع القلوب وتتوحد الصفوف ويدعو المسلم لأخيه الصالح بظهر الغيب في كل ليلة وعند الغروب فيردد قول الله تعالى: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ (٢)، اللهم إن هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك فاغفر لنا، ثم يدعو بمثل هذا الدعاء لإخوانه الصالحين «اللهم إنك تعلم أن هذه القلوب قد اجتمعت على محبتك والتقت على طاعتك وتوحدت على دعوتك وتعاهدت على نصرة شريعتك فوثق اللهم رابطتها وأدم ودها واهدها سبلها واملأها بنورك الذي لا يخبو واشرح صدورها بفيض الإيمان بك وجميل التوكل عليك وأحيها بمعرفتك وأمتها على الشهادة في سبيلك إنك نعم المولى ونعم النصير.

---

(١) من الآية ١٨٨ من سورة الأعراف.

(٢) الآيات ٢٦، ٢٧ من سورة آل عمران.

مردود الأصل الثالث عشر

أولاً- حصيلة العقل:

أ- اختر الإجابة الصحيحة (من الممكن أن تكون أكثر من إجابة صحيحة):

١- يرى الإمام أحمد بن حنبل في تقبيل يد الآخرين:

أ	كراهة ذلك مطلقًا.	ب	جوازها للعلماء والزهاد.
ج	جوازها لكبار السن.	د	كراهيتها إذا كانت لمكانة دنيوية.

٢- من صور تبرك الصحابة بالنبي ﷺ التي وردت في الصفحات السابقة:

أ	التبرك بفضل وضوئه.	ب	التبرك بدم حجامته.
ج	التبرك بنخامته.	د	جميع ما سبق.

٣- من الذين يخصهم الله بكرامته سبحانه:

أ	كل من آمن بالله واتقاه.	ب	آل بيت النبي ﷺ فقط.
ج	صحابة النبي ﷺ فقط	د	الصالحين من العلماء فقط

٤- من الذين ينكرون كرامات الأولياء:

أ	الحنابلة.	ب	المعتزلة.
ج	الحنفية.	د	الشافعية.

ب- ضع (أ) أمام العبارة الصحيحة و (ب) أمام العبارة الخطأ فيما يلي:

٥	محبة الصالحين قربة يتقرب بها المرء إلى الله تعالى.	
٦	اختلف العلماء في كراهة مد اليد للناس ليقبلوها.	
٧	طلب البركة والتماسها أمر مستحسن من الناحية الشرعية.	
٨	الولاية هي الحماية والنصرة.	
٩	من المقبول شرعًا التبرك بدماء الصالحين.	
١٠	من علامات الولاية ظهور بعض الخوارق على يد المرء.	
١١	الإيمان بالكرامة لفرد معين من أصول الإيمان.	

قارن إجاباتك بالإجابات النموذجية في آخر مردود الأصل، وأعط نفسك درجة لكل إجابة صحيحة وصفرًا للإجابة الخاطئة.

أكثر من ١١	٩-١١	٨	٦-٧	أقل من ٦
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثانيًا- رصيد القلب:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	أشعر بحب وود لكل من ألمس فيه الصلاح والتقوى.					
٢	أعتقد أن محبة الصالحين قربة إلى الله تعالى.					
٣	أعتقد أن الله يجري بعض الكرامات على يد من يشاء من عباده الصالحين.					
٤	لا يغيب عني أن الصالحين لا يملكون لأنفسهم أو لغيرهم نفعًا ولا ضررًا.					

دائمًا = ٤، غالبًا = ٣، أحيانًا = ٢، نادرًا = ١، أبدًا = ٠

أكثر من ١٣	١٢-١٣	١٠-١١	٨-٩	أقل من ٨
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثالثًا- حساب الجوارح:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	أتقرب إلى الله بمحبة الصالحين واحترامهم.					
٢	أحكم على الناس بظاهر سلوكهم وأدع الباطن لله تعالى.					
٣	أجتهد في التزام شرع الله تعالى عسى أن أنال محبته وولايته.					
٤	أبين لمن حولي أن الكرامات أقرها الشرع الحنيف.					
٥	أذكر من حولي أن الصالحين لا يملكون لأنفسهم أو لغيرهم نفعًا أو ضررًا.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٧	١٥ - ١٧	١٣ - ١٤	١٠ - ١٢	أقل من ١٠
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

إجابات حصيلة العقل (١٣)

السؤال	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١
أ			✓		✓		✓	✓			
ب	✓			✓		✓			✓	✓	✓
ج	✓										
د	✓	✓									

الأصل الرابع عشر

زيارة القبور آدابها وحكمها وكيفيتها

«وزيارة القبور أياً كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة ولكن الاستعانة بالمقبورين أياً كانوا ونداءهم لذلك وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد والنذر لهم وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها ولا نتأول لهذه الأعمال سداً للذريعة»[1].

(١) مجموعة الرسائل، حسن البنا، رسالة التعاليم، ص٢٧٠.

هذا الأصل له صلة وثيقة بالأصل السابق؛ لأن المغالاة في حب الصالحين إلى حد الانحراف عن الشرع هذا أمر غير مقبول بل منهي عنه، والوقوف على قبر الصالحين وسؤالهم النفع أو دفع الضر لون من ألوان الشرك الذي نستعيذ بالله منه، لا يجب أبداً على المسلم أن يقع فيه بل لابد من التحرز منه؛ لأنهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ففي حديث رسول الله ﷺ «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثٍ...**»[1]، فهو العمل الصالح الذي يلقى به العبد المؤمن ربه ﴿**يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ**﴾[2].

ولذلك فإن هذا الأصل يعالج:

١-المغالاة في حب الصالحين.

٢-زيارة القبور سنة مشروعة.

٣-الكيفية المأثورة للزيارة.

٤-عدم الاستعانة بالمقبورين.

٥-الحلف بغير الله.

زيارة القبور:

قبل أن نتكلم عن المقابر التي هي إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار أعاذنا الله منها فإننا نعرّج على الموت الذي أمرنا رسول الله ﷺ أن نكثر من ذكره، فالموت سنة ماضية وكل نفس ذائقة الموت، وعش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزى به، فالموت حق لا ينكره جاحد، فلقد أنكر الكفار البعث ولم يستطيعوا أن ينكروا الموت؛ لأنهم يرونه رأي العين، فهو حقيقة واقعة لا شك في ذلك وكل إنسان له أجل معلوم كما قال ربنا: ﴿**إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**﴾[3]، وهذه الحقيقة من عقيدتنا -نحن المسلمين، فإذا مات العبد قامت قيامته وانتهى أمره وأصبح في القبر إما أن يكون

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، والترمذي والدارمي في سننهما.
(٢) من الآية ٤٠ من سورة النبأ.
(٣) من الآية ٨٤ من سورة الأعراف.

روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[١]، ولذلك فإنه من المستحب لكل مسلم أن يكثر من ذكر الموت ليرق قلبه ويخشى ربه، روي عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «**اسْتَحْيُوا مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاءِ قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَسْتَحيِي وَالْحَمْدُ للَّه قَالَ لَيْسَ ذَلِكَ وَلَكِنْ مَنْ اسْتَحَى مِنْ اللَّه حَقَّ الْحَيَاءِ فَلْيَحْفَظْ الرَّأْسَ وَمَا حَوَى وَلْيَحْفَظْ الْبَطْنَ وَمَا وَعَى وَلْيَذْكُرْ الْمَوْتَ وَالْبِلَى وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاءِ**»[٢].

ولقد روى البراء بن عازب رضي الله عنهما أن النبي ﷺ أرسل جماعة يحفرون قبراً فبكى حتى بل الثرى بدموعه وقال: «**يَا إِخْوَانِي لِمِثْلِ هَذَا فَأَعِدُّوا**»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَازِمِ اللَّذَّاتِ الْمَوْتِ**»[٤]. ويقول عبد الله بن عمر: «**إِذَا أَمْسَيْتَ فَلا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ**»[٥]. ولقد أكد القرآن هذه الحقيقة وأنها تسري على جميع الخلائق بما فيهم أنبياء الله ورسله فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[٦]، فهي سنة الله التي تجري على جميع الأحياء: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[٧]، ويوم موت رسول الله ﷺ قال عمر بن الخطاب ﷺ: من قال إن محمداً قد مات قطعت رقبته بسيفي هذا، فأمسك به أبو بكر ﷺ وجذبه إليه وقال: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم قرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[٨]، قال عمر: كأني أسمعها لأول مرة.

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة الروم.
(٢) رواه الترمذي في سننه، وأحمد في مسنده.
(٣) رواه ابن ماجه في سننه.
(٤) رواه الترمذي في سننه وغيره.
(٥) رواه البخاري في صحيحه.
(٦) من الآية ٣٠ من سورة الزمر.
(٧) الآيات ٢٦، ٢٧ من سورة الرحمن.
(٨) الآية ١٤٤ من سورة آل عمران.

فالناس جميعاً غنيهم وفقيرهم، سيدهم ومولاهم، حاكمهم ومحكومهم، أنبياؤهم ورسلهم، أتقياؤهم وأشقياؤهم لا يفرق الموت بين أحد منهم، فكلهم يذوقون الموت، ولكن كثيرًا من الناس كأن الموت على غيرهم قد كتب وكأن الذين يشيعون إلى الأجداث سفر عما قليل إليهم راجعون يبوؤنهم أجداثهم ويأكلون من تراثهم وكأنهم مخلدون بعدهم.

والحقيقة التي يجب أن يتنبه إليها المربون أن دعوة الرسول ﷺ للمؤمنين بأن يكثروا من ذكر الموت منهج تربوي عظيم فحين يقول ﷺ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَازِمِ اللَّذَّاتِ»[1]، أكثروا منه لأن الإنسان إذا أكثر من ذكر الموت فسوف يستقيم سلوكه فيحذر ضمة القبر، ويخاف من نزوله وحده لأنه إذا مات العبد صحبه ثلاث: ماله وأهله وعمله، فإذا تم دفنه رجع المال والولد وبقي العمل. ولما كان الموت يأتي بغتة كان توجيه رسول الله ﷺ بالإكثار من ذكر الموت دافعاً لمواصلة العمل ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[2]، وتأمل قوله: ﴿فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[3]، من أجل ذلك يقول ابن عمر: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»[4]، فالناس جميعاً مساقون إلى ربهم موتًا: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[5].

من أجل ذلك سن رسول الله ﷺ لنا زيارة المقابر للعظة والاعتبار وترقيق القلوب والتذكير بالقبر وما بعده: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ ۞ إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[6].

حكم زيارتها:

في أول رسالة الإسلام كانت زيارة القبور محرمة على الرجال والنساء حتى إذا

(١) تقدم تخريجه.
(٢) من الآية ٣٤ من سورة لقمان.
(٣) من الآية ١٣٢ من سورة البقرة.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) من الآية ٣٠ من سورة الزمر.
(٦) الآيات ٨٨، ٨٩ من سورة الشعراء.

استقرت العقيدة في القلوب وعرفت أحكامه وأهدافه أبيحت الزيارة وجاءت فيها جملة من الأحاديث الصحيحة تضمنت مشروعيتها وكيفيتها، فعن علي ﷺ أنه النبي ﷺ قال: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا وَتُذَكِّرُ الآخِرَةَ**»(١)، ومنها أن عائشة أقبلت ذات يوم من المقابر فقال عبد الله بن أبي مليكة: من أين أقبلت يا أم المؤمنين؟ قالت: من قبر أخي عبد الرحمن، فقال لها: أليس كان نهى رسول الله ﷺ عن زيارة القبور؟ قالت: نعم، كان نهى عن زيارة القبور ثم أمر بزيارتها(٢).

والذي يدل على أن زيارة النساء للقبور ليست بحرام حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ مر بامرأة تبكي عند قبر فقال: «**اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي**»، قالت: إليك عني فإنك لم تُصَبْ بمُصيبتي ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ. فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين فقالت: لَمْ أعرِفْك. فقال: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى**»(٣).

وموضع الدلالة أنه ﷺ وعظها بالصبر ولم ينكر زيارة القبر. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كيف أقول يا رسول الله -تعني إذا زرت المقابر-؟ قال: قولي: «**السَّلامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ وَيَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَلاحِقُونَ**»(٤).

إلا أن الحافظ المنذري يقول: قد كان الرسول ﷺ نهى عن زيارة القبور نهياً عاماً للرجال والنساء ثم أذن للرجال في زيارتها واستمر النهي في حق النساء، فالمسألة -كما ترى- فيها خلاف فقهي، فمن العلماء من حرمها مطلقاً، ومنهم من كره الزيارة كراهة تنزيهية، ومنهم من فصل بين الشابة وغيرها، ومنهم من جوزها أو اعتبرها سنة بإطلاق، فقد روى مسلم: «...**زُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ**»(٥)، وبالمناسبة فإن الإمام ابن تيمية منع زيارة قبور الصالحين والأنبياء للتيمن كما منع زيارة قبر الرسول ﷺ

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه.
(٢) الفتاوى، للشيخ محمود شلتوت، ص٢١٩.
(٣) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما وغيرهما.
(٤) رواه مسلم في صحيحه، وغيره.
(٥) رواه مسلم في صحيحه،وغيره.

بقصد التبرك أو التيمن أو التقرب إلى الله، فقال: لا يجوز، وإن كان القصد العظة والاعتبار فهو جائز بل مندوب إليه.

يقول الشيخ أبو زهرة في كتابه «المذاهب الإسلامية»: ولقد خالف ابن تيمية بقوله جمهور المسلمين، تحداهم في عنف بالنسبة لزيارة قبر النبي ﷺ ونحن قد نوافق - إلى حد ما- على قوله بزيارة قبور الصالحين والنذر لها، ولكن نخالفه مخالفة تامة في زيارة الروضة الشريفة وذلك لأن الأساس الذي بنى عليه منع زيارة الروضة بقصد التبرك والتيمن هو خشية الوثنية، وأنه إذا كان في ذلك تقديس لمحمد ﷺ فهو تقديس لنبي الوحدانية، وتقديس نبي الوحدانية إحياء لها إذ هو تقديس للمعاني التي بُعث بها؛ ولأن الروضة بها تذكير بمواقف النبي ﷺ في الصبر والجهاد والنضال والعمل على شأن التوحيد.

ولقد قال نافع مولى عبد الله بن عمر: كان ابن عمر يسلم على القبر، رأيته مائة مرة أو أكثر يجيئ إلى القبر ورئي واضعاً يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر ثم وضعها على وجهه ولقد كان الأئمة الأربعة كلما قدموا إلى المدينة زاروا قبر النبي ﷺ، يقول: والغريب أن ابن تيمية نفسه يروي أن الأئمة الأعلام كانوا يسلمون على النبي ﷺ كلما مروا بقبره الشريف وكانوا يذهبون إليه كلما هموا بسفر أو أقبلوا من سفر، ثم يقرر الشيخ أبو زهرة على ذلك أن التبرك بزيارة قبر النبي ﷺ مستحسن لأن فيه التذكرة والاعتبار والاستبصار[١].

وسنحاول أن نوجز حكم زيارة قبر الرسول ﷺ وما قاله العلماء فيها:

أورد الشوكاني في نيل الأوطار نبذة صالحة فيما قاله العلماء في زيارة قبر الرسول وحكمها معزواً كل قول بدليله وما قاله المحققون فيه، فليرجع إليه من أراد زيادة بيان.

قال رحمه الله: اختلفت أقوال العلماء في زيارة قبر النبي ﷺ إلى:

مذهب الجمهور: أنها مندوبة.

---

(١) المذاهب الإسلامية، للشيخ محمد أبو زهرة، ١/ ٢٣٢.

بعض المالكية وبعض الظاهرية: ذهبوا إلى أن الزيارة واجبة.

قال ابن تيمية وبعض الحنابلة:إنها غير مشروعة وروي ذلك عن مالك والقاضي عياض، ولقد رد الجمهور على هذا الرأي فليرجع إليه في نيل الأوطار.

وقال الإمام النووي في (شرح المهذب): «اعلم أن زيارة قبر رسول الله ﷺ من أهم القربات وأنجح المساعي فإذا انصرف الحجاج والمعتمرون من مكة استُحب لهم استحباباً متأكداً أن يتوجهوا إلى المدينة لزيارته ﷺ».

وينوي الزائر مع الزيارة التقرب بزيارة مسجده وشد الرحال إليه والصلاة فيه فإذا توجه فليكثر من الصلاة والتسليم عليه ﷺ في طريقه ثم شرح آداب الزيارة وما يفعل من يريدها[(١)].

أما الإمام مالك: فقد روي عنه القول بكراهة الزيارة وأجيب بأنه قال بكراهة زيارة قبره ﷺ قطعاً للذريعة. وقيل: إنما كره إطلاق لفظ الزيارة؛ لأن الزيارة من شاء فعلها ومن شاء تركها وزيارة قبره ﷺ من السنن الواجبة، كذلك قال عبد الحق.

يقول الشوكاني: واحتج كذلك من قال بمشروعيتها بأنه لم يزل دأب المسلمين القاصدين للحج في جميع الأزمان على تباين الديار واختلاف المذاهب الوصول إلى المدينة المشرفة بقصد زيارته ﷺ، ويعدون ذلك من أفضل الأعمال، ولم يُنقل أن أحداً أنكر ذلك عليهم فكان إجماعاً. هكذا نقله الشوكاني رحمه الله.

القصد من زيارة المقابر:

أباح الرسول ﷺ لأصحابه وعلمهم زيارة القبور ولقد زارها ﷺ وزاروها رجالاً ونساءً ودرج المسلمون الأولون على ذلك للتذكر والتسليم والدعاء.

فالقصد من الزيارة الإحسان إلى الميت بالسلام عليه والدعاء له بالرحمة والمغفرة وسؤال العافية وحينئذ تسن الزيارة، ففي الحديث الصحيح عن بريدة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: «**السَّلامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنْ**

---

(١) الفتح الرباني ج١٣ ص ١٧، ٢٢

الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَلاحِقُونَ أَنْتُمْ لَنَا فَرَطٌ وَنَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ فَنَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ»(١).

ويقصد بالزيارة أيضًا الإحسان إلى نفسه فيتذكر الموت والآخرة والاتعاظ بحال الميت ويتذكر قول الرسول: «**يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلاثَةٌ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ**»(٢). ولقد كان الربيع بن خيثم إذا وجد غفلة خرج إلى القبور ويبكي ويقول: كنا وكنتم ثم يحي الليل كله فيصبح كأنه نشر من قبره فيتذكر انقضاء اللذات ويتفكر فيما يصير إليه من ضيق اللحود وصولة الدود ويستشعر ما سيؤول إليه حاله من شدة الحساب وصعوبة الجواب.

والجدير بالذكر أنه يراعى عند زيارة القبور ألا يُجلس على المقابر أو يطأها أحد، فهذا أمر منهي عنه، يقول أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**لأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُمْ عَلَى جَمْرَةٍ فَتُحْرِقَ ثِيَابَهُ فَتَخْلُصَ إِلَى جِلْدِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى قَبْرٍ**»(٣). وكذلك الاستناد إليه، فعن عمرو بن حزام قال رآني النبي ﷺ متكئاً على قبر فقال: « **لا تُؤْذِ صَاحِبَ هَذَا الْقَبْرِ**»(٤).

وبالمناسبة فإنه لا يكره المشي في المقابر بالنعلين والخفين ونحوهما كما يقول: البعض بالكراهة، بل لا كراهة إن مشى بهما، وهذا مذهب أكثر العلماء، إلا أن الإمام أحمد يكره ذلك فأصبح بذلك خلاف فقهي معتبر شرعاً لا إنكار فيه.

أمور خلافية تتعلق بالجنائز:

١ -**النعي للميت**: وهو أن يبعث منادياً ينادي في الناس: إن فلاناً قد مات ليشهدوا جنازته، روى حذيفة ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ ينهى عن النعي(٥). قال ابن قدامة الحنبلي في المغني: استحب جماعة من أهل العلم ألا يعلم الناس بجنائزهم، قال: وقال كثير من أهل العلم: لا بأس أن يعلم الرجل إخوانه ومعارفه وذوو الفضل من غير

---

(١) رواه أحمد في مسنده، وغيره.
(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، وغيرهما.
(٣) رواه مسلم في صحيحه، وأبو داود في سننه، وغيرهما
(٤) رواه أحمد في مسنده.
(٥) رواه الترمذي في سننه.

نداء، قال إبراهيم النخعي: لا بأس إذا مات الرجل أن يؤذن صديقه وأصحابه وإنما كانوا يكرهون أن يطاف في المجالس: أنعي فلاناً كفعل الجاهلية. وممن رخص في هذا: أبو هريرة وابن عمرو وابن سيرين. وروي عن ابن عمر أنه نعى إليه رافع ابن خديج فقال: كيف تريدون أن تصنعوا به؟ قالوا: نحبسه حتى نرسل إلى قباء وإلى من بات حول المدينة ليشهدوا جنازته. قال: نعم ما رأيت.

وقال النبي ﷺ في الذي دفن ليلاً: «**ألا آذَنْتُمُونِي؟**»(١)، وقد صح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ نعى للناس النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى فصف بهم وكبر أربع تكبيرات(٢). ولأن في كثرة المصلين عليه أجراً لهم ونفعاً للميت، فإنه يحصل لكل مصل منهم قيراط من الأجر. وقال الإمام النووي في المجموع: والصحيح الذي تقتضيه الأحاديث الصحيحة وغيرها أن الإعلام بموته لمن لم يعلم ليس بمكروه، بل إن قصد به الإخبار لكثرة المصلين فهو مستحب، وإنما يكره ذكر المآثر والمفاخر والتطواف بين الناس بذكره بهذه الأشياء، وهذا نعي الجاهلية المنهي عنه، فقد صحت الأحاديث بالإعلام فلا يجوز إلغاؤها، وبهذا الجواب أجاب بعض الأئمة في الفقه والحديث المحققين.

٢-**وأما الندب**: فهو تعداد محاسن الميت وما يلقون بفقده بلفظ النداء، مثل قولهم: وارجلاه واجبلاه وانقطاع ظهراه، وأشباه ذلك. وأما النياحة وخمش الوجوه، وشق الجيوب، وضرب الخدود، والدعاء والويل والثبور.

قال ابن قدامة في المغني: قال بعض أصحابنا: هو مكروه. ونقل حرب عن أحمد كلاماً فيه احتمال إباحة النوح والندب واختاره الخلال وصاحبه لأن واثلة بن الأسقع وأبا وائل رضي الله عنهما كانا يستمعان النوح ويبكيان، وقال أحمد بن حنبل: إذا ذكرت المرأة مثل ما حكي عن فاطمة رضي الله عنها في مثل الدعاء لا يكون مثل النوح، يعني لا بأس به، فقد روي عن فاطمة رضي الله عنها أنها قالت: «وا أبتاه إلى جبريل أنعاه، وا أبتاه من ربه ما أدناه، وا أبتاه جنة الفردوس مأواه، وا أبتاه أجاب

(١) رواه البخاري في صحيحه، وغيره.
(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

ربًا دعاه»[١]. قال ابن قدامة: وظاهر الأخبار تدل على تحريم النوح، قالت أم عطية: «أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة ألا ننوح»[٢]. وعن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**»[٣]. وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ يُنَحْ عَلَيْهِ يُعَذَّبْ بِمَا يُنَاحُ بِهِ عَلَيْهِ**»[٤].

٣-وأما تلقين الميت عند دفنه: قال ابن تيمية في الفتاوى: تلقين الميت في قبره بعد الفراغ من دفنه نُقل عن طائفة من الصحابة أنهم أمروا به كأبي أمامة الباهلي وغيره، وروي فيه حديثاً عن النبي ﷺ مما لا يحكم بصحته، ولم يكن كثير من الصحابة يفعل ذلك، فلهذا قال الإمام أحمد وغيره من العلماء: إن هذا التلقين لا بأس به، فرخصوا فيه ولم يأمروا به واستحبه طائفة من أصحاب الشافعي وأحمد، وكرهه طائفة من العلماء من أصحاب مالك وغيره.

«وقد ثبت أن المقبور يسأل ويمتحن وأنه يؤمر بالدعاء له، فلهذا قيل إن التلقين ينفعه فإن الميت يسمع النداء كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ**»[٥]، وأنه أمرنا بالسلام على الموتى فقال: «**ما من رجل يمر بقبر الرجل الذي يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله روحه حتى يرد عليه السلام**»[٦]»[٧].

وقال ابن قيم الجوزية الحنبلي في كتابه الروح: ويدل على أن الميت يعلم من حال الأحياء وزيارتهم له وسلامهم عليه ما جرى عليه عمل الناس قديماً وإلى الآن من تلقين الميت في قبره، وقد سئل الإمام أحمد رحمه الله تعالى فاستحسنه واحتج عليه بالعمل. ويروى فيه حديث ضعيف ذكره الطبراني في معجمه من حديث أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول: يا فلان بن فلانة، فإنه يسمع ولا يجيب، ثم ليقل: يا فلان بن فلانة الثانية فإنه**

---

(١) رواه ابن ماجه والدارمي في سننهما،وغيرهما.
(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، وغيرهما.
(٣) المصدران السابقان وغيرهما.
(٤) رواه أحمد في مسنده، وغيره.
(٥) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، وغيرهما.
(٦) رواه الذهبي في ميزان الاعتدال، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد.
(٧) مجموع الفتاوى، لابن تيمية ٢٤/٢٩٦ وما بعدها، بتصرف.

يستوي قاعداً، ثم ليقل: يا فلان بن فلانة، يقول: أرشدنا رحمك الله ولكنكم لا تسمعون، فيقول: اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله وأنك رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبيًا وبالقرآن إماماً، فإن منكراً ونكيراً يتأخر كل واحد منهما ويقول: انطلق بنا، ما يقعدنا عند هذا وقد لقن حجته؟ ويكون لله ورسوله حجيجه دونهما»، فقال رجل: يا رسول الله فإن لم يعرف أمه؟ قال: **ينسبه إلى أمه حواء: يا فلان ابن حواء**»[١]. قال ابن القيم: فهذا الحديث وإن لم يثبت فاتصال العمل به في سائر الأمصار والأعصار من غير إنكار كاف في العمل به[٢]. وأقول وعلى هذا القول فإن ترك التلقين هذا يعتبر بدعة تركية.

٤-**الوقوف على القبر بعدما يدفن ويدعى للميت**: قال ابن قدامة الحنبلي في المغني: سئل عن ذلك أحمد فقال: لا بأس به، قد وقف عليّ والأحنف بن قيس، وروى أبو داود عن عثمان قال: «كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: «**اسْتَغْفِرُوا لأَخِيكُمْ وَسَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ**»[٣]، وروى السرِّي قال: لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة قال: «اجلسوا عند قبري قدر ما ينحر جزور ويقسم فإني أستأنس بكم»[٤].

قال ابن تيمية في الفتاوى: وأما القراءة على القبر فكرهها أبو حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين ولم يكن يكرهها في الأخرى وإنما رخص فيها لأنه بلغه أن ابن عمر أوصى أن يقرأ عند قبره بفواتح البقرة وخواتيمها، وروي عن بعض الصحابة قراءة سورة البقرة، فالقراءة عند الدفن مأثورة في الجملة، وأما بعد ذلك فلم ينقل فيه أثر والله أعلم وأما المستحب الذي أمر به وحضّ عليه النبي ﷺ فهو الدعاء للميت[٥].

٥-**العزاء والتعزية**: وهما الصبر على ما به من مكروه، وعزاه أي صبره وحثه على الصبر، وأصلها التصبير لمن أصيب بمن يعز عليه. عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير.
(٢) الروح،لابن القيم ١/ ١٣.
(٣) رواه أبو داود في سننه وغيره.
(٤) رواه مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده، والحاكم في مستدركه بنحوه.
(٥) مجموع الفتاوى ٢٤/ ٢٩٨.

الله ﷺ: «مَنْ عَزَّى مُصَابًا فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِه»[١]. وعن أبي برزة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَزَّى ثَكْلَى كُسِيَ بُرْدًا فِي الْجَنَّة»[٢]. وعن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه، عن جده ﷺ، عن النبي ﷺ، أنه قال: «أَنَّهُ قَالَ مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَزِّي أَخَاهُ بِمُصِيبَةٍ إِلا كَسَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ حُلَلِ الْكَرَامَةِ يَوْمَ الْقِيَامَة »[٣]. قال ابن قدامة في المغني: والمقصود بالتعزية تسلية أهل المصيبة وقضاء حقوقهم والتقرب إليهم، والحاجة إليها بعد الدفن كالحاجة إليها قبله، ويستحب تعزية أهل المصيبة كبارهم وصغارهم ويُخص خيارهم والمنظور إليه من بينهم، قال: ولا نعلم في التعزية شيئًا محدوداً إلا أنه يروى أن النبي ﷺ عزى رجلاً فقال: «رحمك الله وآجرك»[٤]. وعزى أحمد أبا طالب فوقف على باب المسجد فقال: أعظم الله أجرك وأحسن عزاءك. ويرد المعزى فيقول: استجاب الله دعاك ورحمنا وإياك. قال ابن قدامة أيضًا: وتوقف أحمد بن حنبل عن تعزية أهل الذمة، وهي تخرج على عيادتهم وفيها روايتان: إحداهما لا نعودهم فكذلك لا نعزيهم، لقول النبي ﷺ: «فَلا تَبْدَءُوهُمْ بِالسَّلامِ»[٥] وهذا في معناه، والرواية الثانية: نعودهم لأن النبي ﷺ: «أتى غلاماً من اليهود كان مريضًا يعوده فقعد عند رأسه، فقال له: «أَسْلِمْ». فنظر إلى أبيه وهو عند رأسه فقال له: أطع أبا القاسم. فأسلَمَ، فقام النبي ﷺ وهو يقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنْ النَّارِ»[٦]. فعلى هذا نعزيهم[٧]. وقال ابن بطة: يقول: أعطاك الله على مصيبتك أفضل ما أعطى أحد من أهل دينك. وقال النووي في المجموع: يعزى الكافر فيقول: أخلف الله عليك. قال النووي: وتجوز التعزية قبل الدفن وبعده، ولكن بعد الدفن أحسن وأفضل لأن أهله قبل الدفن مشغولون بتجهيزه، ولأن وحشتهم بعد دفنه لفراقه أكثر، فكان ذلك الوقت أولى.

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه في سننهما.
(٢) رواه الترمذي في سننه.
(٣) رواه ابن ماجه في سننه.
(٤) رواه أحمد.
(٥) رواه أبو داود وابن ماجه في سننهما.
(٦) رواه البخاري في صحيحه.
(٧) المغني ٢/ ٢١٢.

ويكره الجلوس للتعزية فإن ذلك يجدد الحزن ويكلف المؤنة، ولكن ثبت في البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما جاء قتل زيد بن حارثة وجعفر وعبد الله بن رواحة جلس النبي ﷺ يعرف فيه الحزن وأنا أطلع من شق الباب، فأتاه رجل فقال: يا رسول الله، إن نساء جعفر وذكَر بكاءهن، فأمره بأن ينهاهن، فذهب الرجل، ثم أتى فقال: قد نهيتهن، وذكر أنهن لم يطعنه، فأمره الثانية أن ينهاهن، فذهب ثم أتى فقال: والله لقد غلبنني..»[١]. أقول: وذلك جاء في فقه المالكية (المجلد الأول من بلغة السالك للصاوي وشرحه للدردير): يجوز أن يجلس الرجل للتعزية كما فعل النبي ﷺ حين جاء خبر جعفر وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ومن قتل معهم يوم مؤتة، والأولى عند رجوع الولي إلى بيته من الدفن.

٦-**قال في المغني**: يستحب إصلاح طعام لأهل الميت يبعث به إليهم إعانة لهم وجبراً لقلوبهم، فإنهم ربما اشتغلوا بمصيبتهم وبمن يأتي إليهم عن إصلاح طعام لأنفسهم. وروى أبو داود عن عبد الله بن جعفر، قال: لما جاء نعي جعفر قال رسول الله ﷺ: «**اصْنَعُوا لآلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا فَإِنَّهُ قَدْ أَتَاهُمْ أَمْرٌ شَغَلَهُمْ**»[٢]، قال: وهل يجتمعون عند أهل الميت ويجعلون طعامًا؟ قال: إذا دعت الحاجة إلى ذلك جاز، فإنه ربما جاءهم من يحضر ميتهم من القرى والأماكن البعيدة ويبيت عندهم ولا يمكنهم إلا أن يضيفوه. وهذا ما عليه الناس في القرى الآن من صنع الطعام وتقديمه لمن حضر للعزاء. وقال الشافعي في المختصر: وأحب لقرابة الميت وجيرانه أن يعملوا لأهل الميت في يومهم وليلتهم طعاماً فإنه سنة.

٧-**إقامة السرادقات**: أخذ العزاء من العادات وليست من العبادات، والحكم عليها من قِبَل المصالح أي النفع والضرر، والحسن والقبيح، فإن احتيج إليها للإيواء من الشمس والبرد وللجلوس لعدم وجود مكان يتسع لمن يجيء للعزاء، فهي من المصالح المرسلة يفعلها الناس عادة ولا يتقربون بها إلى الله ويفعلها البر والفاجر، والمسلم وغير المسلم، وقد ثبت في البخاري أن النبي ﷺ جلس لأخذ العزاء في قتلى

---

(١) رواه البخاري في صحيحه وغيره.
(٢) رواه أبو داود والترمذي في سننهما.

مؤتة. قال الإمام ابن القيم في إعلام الموقعين: «فصل في تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد»، قال: «هذا فصل عظيم النفع جداً وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة، أوجب من الحرج والمشقة وتكليف مالا سبيل إليه ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به، فإن الشريعة مبناها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد وهي كلها عدل ورحمة ومصالح وحكمة، فكل مسألة خرجت عن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن دخلت فيها بالتأويل».

ويقول الإمام الشاطبي في الموافقات: إن مثل هذا النوع ينظر فيه على ضوء الشريعة ويجري الحكم فيه على ما تقرر في كلياتها، ومن أمثلة ذلك ما أحدثه السلف الصالح من تدوين العلم وتضمين الصناع وما أشبه ذلك مما لم يجر له ذكر في زمن الرسول ﷺ ولم تكن من نوازل زمانه ولا عرض للعمل بها موجب يقتضيها وأن القصد الشرعي في مثل هذه الأمور معروف من الجهات التي ثبت لها الحكم بالنص، وعلى ذلك فمثل هذا القسم يشرع له أمر زائد يلائم تصرفات الشرع في مثله وهو المصالح المرسلة.

المغالاة في قبور الصالحين:

من المغالاة اتخاذ الناس المقابر والأضرحة موسماً من مواسمهم وعيداً من أعيادهم، يشدون إليها الرحال كما تُشد لزيارة بيت الله الحرام، ويبيتون عندها الليالي ذوات العدد، وهناك تصنع ألوان الأطعمة وتذبح الذبائح وتنصب ملاعب الصبية وتقام أسواق الباعة، وفي زماننا هذا سكنوا القبور وأقاموا فيها الأفراح والليالي الملاح يأكلون ويشربون، ويشاهدون التلفاز فقست القلوب ودست النفوس، وأما بعض الصوفية فأحيوا أعياد المقابر الأسبوعية ويسمونها الحضرة، فمثلاً ليلة الثلاثاء ويومه للإمام الحسين، وليلة السبت ويومه للإمام الشافعي وهكذا بالرغم من أنه ورد النهي عن ذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «**لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا وَلا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ**»[1].

---

(١) رواه أحمد في مسنده، وأبو داود في سننه.

والغريب أنك ترى في هذه الأعياد والاجتماعات مفاسد لا يرضاها الله ورسوله، فترى النساء يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ويختلطن بالرجال، وترى الهزل والعبث والغناء والمداعبة وكثرة الضحك بل والقمار والميسر بأنواعه وكل الموبقات في موضع الخشية والاعتبار ويذهب الحياء ويتأذى بذلك الأموات أنفسهم في قبورهم.

ومن المفاسد أيضًا المبيت في المقابر وإيقاد السرج والشمع ونحوه على القبور، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لعن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج(١).

ومن المفاسد أيضًا تقبيل قبور الأولياء والأنبياء والعلماء واستلامها والطواف حول الأضرحة، فإنه لم يعهد عبادة إلا بالبيت وكذا لم يشرع التقبيل والاستلام إلا للحجر الأسود، فكيف بمن يرفعون أكف الضراعة للضريح ويناجون صاحبه ويقبلون جوانبه ويتمسحون بحديده أو خشبه ويشرحون له القضايا والمهام وتقدم له العرائض ويطلب الفصل فيها؟ فهل هذا عمل مشروع يرضاه الله والرسول؟ لا والله إن أصحاب الأضرحة أنفسهم يغضبون لذلك إن كانوا من أولياء الله حقاً ولو بعثوا لنهوا عنه وأنكروا ذلك بكل وسائل الإنكار.

وأضف إلى ذلك وضع الستور على القبور وتجصيصها والبناء عليها في حريم القبر أو خارجه، فيتناول البناء على نفس القبر أو بناء تحويطة وقبة عليه أو مقصورة، فعن جابر ﷺ، أن النبي ﷺ نهى عن تجصيص القبر وأن يبنى عليه(٢)، إلا إذا دعت ضرورة للبناء كأن يخشى نبش القبر من نحو آدمي أو سبع، قال الإمام الشافعي في (الأم): «وأحب أن لا يزاد في القبر تراب من غيره وإنما أحب أن يشخص على وجه الأرض شبراً أو نحوه وأحب أن لا يبنى ولا يجصص، فإن ذلك يشبه الزينة والخيلاء وليس الموت موضع واحد منهما، ولم أر قبور المهاجرين والأنصار مجصصة »، فأين نحن اليوم من تزيين القبور لدرجة تستطيع بها أن تفرق بين الغني والفقير والخفير والوزير حتى إن بعضهم يكتب على القبر صفة صاحبه في

---

(١) المصدران السابقان وغيرهما.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، وغيره.

الدنيا فهو الرئيس والباشا واللواء إلى غير ذلك من الألقاب والصفات، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

النذور للموتى:

قال العلماء: لا يجوز النذر للقبور لا شمع ولا زيت ولا غير ذلك، فإنه نذر معصية لا يجوز الوفاء به بالاتفاق. جاء في الدر المختار وحواشيه من كتب الحنفية ما ملخصه: «اعلم أن النذر الذي يقع للأموات من أكثر العوام وما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت ونحوها إلى ضرائح الأولياء الكرام تقرباً إليها كأن يقول: يا سيدي فلان إن رُد غائبي أو عُوفي مريض أو قُضيت حاجتي فلك من النقد أو الطعام أو الشمع أو الزيت كذا فهو بالإجماع باطل حرام لوجوه منها:

١- إنه نذر لمخلوق والنذر للمخلوق لا يجوز لأنه عبادة وهي لا تكون إلا لله.

٢- إن المنذور له ميت، والميت لا يملك.

٣- إن ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله تعالى فاعتقاده ذلك كفر والعياذ بالله.

بناء المساجد على القبور:

عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية فذكرت ما رأته فيها من الصور فقال رسول ﷺ: « **أُولَئِكَ قَوْمٌ إِذَا مَاتَ فِيهِمْ الْعَبْدُ الصَّالِحُ أَوْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ** »[1].

يقول ابن القيم: «اعلم أن الشيطان أول ما كاد للناس وهم على الهدى ودين الحق عبادة الأصنام والأوثان فتارة أدخلها عليهم من جهة تعظيم الموتى وتصويرهم الصور التي ينصبونها كما قص الله تعالى عنهم في كتابه في قوله: ﴿**لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا**﴾[2]، قال ابن عباس: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا على مجالسهم

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

(٢) من الآية ٢٣ من سورة نوح.

التي كانوا يجلسون عليها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا ولم تعبد حتى هلك هؤلاء القوم ونُسخ العلم فُعبدت»[١] من دون الله تعالى فأرسل الله لهم نوحاً لعبادة الله وحده فكذبوه فأهلكهم الله بالطوفان»[٢].

وهذا الذي أدى بهم إلى الشرك بالله وأنت ترى في أيامنا هذه من يقف على باب هذه المساجد التي أقيمت على القبور بخشوع وتذلل كأنه يستأذن ثم يدخل وهذا مسلك الشيعة، فهم عند زيارتهم للأئمة ينادى أحدهم أدخل يا أمير المؤمنين؟ ويقولون: إن علامة الإذن رقة القلب ودمع العين.

ولذلك قال ابن حجر الهيثمي في الزواجر: «ويجب المبادرة لهدم المساجد والقباب التي على القبور المشرفة، وتجب إزالتها وإزالة كل قنديل أو سراج على قبر ولا يصح وقفه ونذره»[٣] ولا شك أنه يقصد الإزالة بالطرق الشرعية التي لا يترتب عليها مفسدة وإلا قام بها الإمام ولى أمر المسلمين فيأمر أصحابها بذلك.

الصلاة في المساجد ذات القبور:

شرعت الصلاة لتكون رباطاً بين العبد وربه ليستشعر عظمته مستحضراً جلاله فتخشع له جوارحه ويخلص له قلبه ويستعين به في أمره كله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٤].

ولذلك لا يجوز للمسلم أن يكون في نفسه شيء من تعظيم غير الله؛ ولهذا كان من أحكام الإسلام فيما يختص بأماكن العبادة تطهيرها من هذه المشاهد، يقول ربنا: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[٥] ويقول: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[٦]، ويقول: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[٧].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه.
(٢) حكم الإسلام في التوسل بالأنبياء والأولياء، للشيخ محمد حسنين مخلوف، ص٩٢، بتصرف.
(٣) نقلا عن كتاب «الإبداع في مضار الابتداع»،للشيخ علي محفوظ، ص٢٠١.
(٤) من الآية من سورة الفاتحة:٥.
(٥) من الآية ١٢٥ من سورة البقرة.
(٦) من الآية ٢٦ من سورة الحج.
(٧) من الآية ١٨ من سورة الجن.

ولسد ذرائع الفساد قال ﷺ: « .. وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ أَلا فَلا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ »[(١)]، فشدد رسول الله ﷺ النهي عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد؛ لأن هذا سبب انحراف الأمم السابقة عن إخلاص العبادة لله وحده.

قال العلماء: إنه لما كثر المسلمون وفكر أصحاب رسول الله ﷺ في توسيع مسجده ﷺ وامتدت الزيادة إلى أن أدخلت في بيوت أمهات المؤمنين وفيها حجرة عائشة مدفن الرسول ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر فبنوا على القبر حيطاناً مرتفعة تدور حوله مخافة أن تظهر القبور في المسجد فيصلي إليها الناس ويقعوا في الفتنة والمحظور.

ولذلك وجب إخفاء الأضرحة من المساجد وألا تتخذ لها أبواب ونوافذ فيها خاصة إذا كانت جهة القبلة فيجب أن تفصل عنها فصلاً تاماً بحيث لا تقع أبصار المصلين عليها ولا يتمكنون من استقبالها وهم بين يدى الله، ومن باب أولى يجب منع الصلاة في نفس الضريح وقاية لعقائد المسلمين.

ولذلك رأى العلماء أن الصلاة إلى القبر أياً كان محرمة ومنهي عنها واستظهر بعضهم بحكم النهي بطلانها[(٢)].

وفي المسألة كلام للعلماء إن كان القبر خلف القبلة -أي خلف المصلين- أو أمامها ومعزول عن مكان الصلاة كل ذلك له أحكامه ليس هنا مجال التفصيل فيها، وإن كان هناك خلاف فقهي في مثل هذه الحالات.

وأخيراً فإن بعض العامة يحلفون بسيدي فلان أو الولي فلان، ولقد نهي عن ذلك كله، فعن عمر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: « أَلا إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ وَإِلا فَلْيَصْمُتْ »[(٣)].

والسر في النهي عن الحلف بغير الله أن الحلف بالشيء يقتضي تعظيمه والعظمة

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.

(٢) الفتاوى،للشيخ شلتوت،ص١٠٣ وما بعدها،بتصرف.

(٣) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

في الحقيقة إنما هي لله وحده، ولذلك يروي لنا ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رجلاً يحلف لا والكعبة، فقال له ابن عمر: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»[1]، وفسر ذلك بعض العلماء قوله: «كفر أو أشرك» على التغليظ كما روى أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الرِّيَاءَ شِرْكٌ»[2].

كبائر يجب محاربتها:

هذه كلها كبائر لا يشك في ذلك مسلم ولكن يجب أن نبين بالتي هي أحسن لنجمع ولا نفرق ونؤلف ولا ننفر فلا نقسو باسم الدين ولا نلقي الناس بالطين ونتطرف في الحكم ونغالي فيه باسم الدعوة إلى الله ونحكم بالشرك وعبادة الأصنام على الزائرين لهذه الأضرحة كيف ونحن نعلم أن هؤلاء الزائرين -كما تنطق به أحوالهم- مؤمنون بعقائد الدين كله وبفرائضه كلها، ومؤمنون بأن النبي والولي من عباد الله خلقهما كما خلق العباد وأمدهما بأسباب الحياة وأماتهما كما يميت العباد وأنه سيبعثهم وتلك عقيدة الإيمان الحق التي لم يكن يؤمن بها عُباد الأصنام، فالواجب علينا ألا نصف أصحاب القبور بالأصنام، وقد يكونون من عباد الله الصالحين وما ذنبهم؟

علينا أن نبذل الجهد في تعليم من لا يعلم لا تكفيره ولا الإساءة إلى تلك الأرواح الطاهرة ثم نحي فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقواعدها الشرعية.

* * *

---

(١) رواه الترمذي وأبو داود في سننهما.
(٢) رواه الترمذي في سننه.

مردود الأصل الرابع عشر

أولاً- حصيلة العقل:

أ- اختر الإجابة الصحيحة (من الممكن أن تكون أكثر من إجابة صحيحة):

١- كانت زيارة المقابر في أول الإسلام:

أ	مباحة للرجال والنساء.	ب	محرمة على الرجال والنساء.
ج	مباحة للرجال فقط.	د	مكروهة للنساء.

٢- زيارة النساء للمقابر:

أ	حرام مطلقًا عند بعض العلماء.	ب	سنة عند بعض العلماء.
ج	مكروهة عند بعض العلماء	د	لا شيء ما سبق.

٣- زيارة قبر النبي مندوبة عند:

أ	جمهور العلماء.	ب	المالكية والظاهرية.
ج	الإمام ابن تيمية.	د	جميع ما سبق.

٤- من المقاصد المقبولة شرعًا لزيارة القبور:

أ	الإحسان إلى الأموات بالسلام والدعاء.	ب	التبرك بالصالحين فيهم.
ج	عظة النفس وتذكيرها.	د	جميع ما سبق.

٥- من المسائل المتفق على عدم جوازها:

أ	تقبيل الأضرحة والطواف حولها.	ب	نعي الميت.
ج	وضع الستور على القبور.	د	طلب العون من الموتى الصالحين.

ب- ضع (أ) أما العبارة الصحيحة و(ب) أمام العبارة الخطأ فيما يلي:

٦	اختلف العلماء في حكم النذر للموتى.	
٧	يجب الوفاء بالنذر للموتى بغض النظر عن حرمة أو حل النذر أصلاً.	
٨	من المقبول شرعًا الحلف بصلاح بعض الصالحين.	

قارن إجاباتك بالإجابات النموذجية في آخر مردود الأصل، وأعط نفسك درجة لكل إجابة صحيحة وصفرًا للإجابة الخاطئة.

أكثر من ١١	٩-١١	٨	٦-٧	أقل من ٦
ممتاز	جيد جدًّا	جيد	متوسط	ضعيف

ثانيًا- رصيد القلب:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	أستشعر رقة في قلبي حين أزور القبور.					
٢	يحزنني أن أرى أحد يستعين بالمقبورين.					
٣	ألوم نفس لومًا شديدًا إذا نسيت وأقسمت بغير الله.					
٤	أكره بناء الأضرحة والطواف حولها.					
٥	أستشعر مسئوليتي تجاه تعليم الناس آداب زيارة القبور.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٧	١٥-١٦	١٣-١٤	١٠-١٢	أقل من ١٠
ممتاز	جيد جدًّا	جيد	متوسط	ضعيف

ثالثًا- حساب الجوارح:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	ألتزم بآداب زيارة القبور عند زيارتها.					
٢	أجتهد في تبصير من حولي بآداب زيارة القبور.					
٣	أحذر من حولي من الاستعانة بغير الله.					
٤	أبين لمن حولي حرمة النذر لغير الله.					
٥	أحفظ لساني عن القسم بغير ا لله.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٧	١٥- ١٦	١٣- ١٤	١٠ – ١٢	أقل من ١٠
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

إجابات حصيلة العقل (١٤)

السؤال	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨
أ		✓	✓	✓	✓			
ب	✓	✓				✓	✓	✓
ج		✓		✓	✓			
د					✓			

الأصل الخامس عشر

التوسل إلى الله بأحد من خلقه

«والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة»[1].

(١) مجموعة الرسائل حسن البنا رسالة التعاليم ص٢٧٠.

هذا الأصل يعالج:

١-الدعاء مخ العبادة.

٢-التوسل والوسيلة المجمع عليها والمختلف فيها.

٣-رأي العلماء في الدعاء إذا قرن بالتوسل بأحد من خلقه.

نتكلم بمشيئة الله تعالى في هذا الأصل عن الدعاء ثم نتكلم عن التوسل، وإذا تكلمنا عن التوسل لابد أن نعرج على الاستغاثة؛ لكي نفرق بين التوسل والاستغاثة ثم نتكلم عن أنواع التوسل، ما هو متفق عليه، وما هو مختلف فيه، وهل هو من مسائل الاجتهاد التي فيها الصواب والخطأ أم من مسائل العقائد التي فيها الكفر والإيمان؟

وقبل أن نجيب عن هذه الأمور حرى بنا أن نؤكد على أمور ربما ذكرناها في بعض الأصول من قبل ولكن نحب أن نؤكد عليها مرة أخرى في هذا الأصل.

الأمر الأول: إن الخلاف في فروع الدين أمر طبيعي ولا يمكن أن يجتمع الناس في الفرعيات على رأي واحد، وهذه سنة الله ﷻ، وهناك فرق بين الأصول الثابتة القطعية التي يجتمع عليها جميع العلماء بل ويجتمع عليها المسلمون، وفيها كفر وإيمان، والمسائل الفرعية المجتهد فيها والتي يدلي فيها كل إمام برأيه حسب المدارس الفقهية وحسب ما عنده من دليل، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على سعة الدين ومرونته، فقد يكون الدليل النقلي واحد ويختلف العلماء في استنباط الحكم فيه بعيدًا عن الهوى المتبع؛ لأن هذا الخلاف في استنباط الحكم قد يكون راجعًا حسب فهم كل منهم وإدراكه وبأدلته فمثلاً آية الوضوء:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ**﴾[1] يقول العلماء: استخرج منها الإمام الشافعي مائة مسألة كلها حسب اجتهاده.

الأمر الثاني: بعد أن أكدنا على وحدة الأصول ووحدة العقائد وهذا أمر قطعي لا

---

(١) من الآية ٦ من سورة المائدة.

خلاف فيه، فإن وجد الخلاف المعتبر فإن العيب ليس في الخلاف ولكن العيب والإثم في التعصب للخلاف نفسه، والذي يأتي من تبني رأي من الآراء ثم يكون التعصب له وعدم قبول الرأي الآخر أو الاعتراف به باعتباره رأياً فقهيًا، وطالما أن الأمر فيه سعة فلماذا لا يُقبل الرأي وضده طالما أنه استنباط عالم من العلماء وفقيه من الفقهاء اجتهد في الوصول إليه.

وما قضية القنوت في الصلاة منا ببعيد، حيث يأخذ أحدهم رأيًا واحدًا يتعصب له ويرفض بقية الآراء وينكر على الناس الأخذ بغيره، بينما هناك ما يقرب من سبعة آراء في حكم القنوت في الصلاة كلها صحيحة، لأنها أراء فقهاء معتبرين.

الأمر الثالث: إن الجدل في المسائل الدينية- أي المسائل المختلف فيها- سبب كثيراً من النكبات للمسلمين وتمزيق الصف ولذلك كرهه الرسول ﷺ كراهة شديدة ونهى عنه نهياً مؤكداً.

عن أبي الدرداء وأبي أمامة ووائلة بن الأسقع وأنس بن مالك قالوا: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتمارى في شيء من أمر الدين فغضب غضباً شديداً لم يغضب مثله، ثم انتهرنا فقال: **«مهلاً يا أمة محمد إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ذروا المراء لقلة خيره، ذروا المراء فإن المؤمن لا يماري، ذروا المراء فإن المماري قد تمت خسارته، ذروا المراء فكفى إثماً أن لا تزال ممارياً، ذروا المراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة، ذروا المراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة في رياضها ووسطها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق، ذروا المراء فإن أول ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الأوثان المراء»**(1).

فلو أن إنسانًا يماري ويجادل في المسائل الخلافية فالمطلوب منا ألا نجاريه ونصمت؛ لأننا سنصل للجدل الذي يوصل الإنسان إلى التعصب الذي نهى عنه الرسول ﷺ.

ومن هنا كان عدم الجري وراء مثل هذه الأمور والخوض فيها وهي التي يحرم علينا أن نضيع وقتًا في المراء فيها ولكن نتمسك بالثوابت والأصول وهي أمور واضحة عندنا وضوح الشمس في رابعة النهار لا شبهة فيها لا تهزها الريح يمينًا أو

---

(1) رواه الطبراني في المعجم الكبير.

شمالاً عندما يتحدث إلينا إنسان بكلمة من هنا أو كلمة من هناك لا يهتز الفهم عندنا فليس أضر على الإنسان من أمراض ثلاثة: الجهل والتعصب والهوى، وهذه الثلاثة هي منبت الغلو الممجوج سواء أكان قصوراً أو تقصيراً، ليس عند الفرد فحسب بل بالنسبة للأمة، فمن المصيبة أن تفترق الأمة وتتضارب وتفسد الصلات ويتقطع ذات البين بمثل هذه المسائل الخلافية، ولأن نجتمع على خلاف بين العلماء قالوه كل يأخذ برأي منهم أفضل بكثير من أن نفترق على أمور يتصور صاحبها أنها من أصول الاعتقاد التي لا خلاف فيها ويفاصل الناس عليها وهي ليست كذلك.

ولذا فإن علماءنا يقولون: لابد من رد أمور الخلاف إلى الفقهاء والعلماء ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[١]، وبذلك ينتفي الغلو في الدين وهو مجاوزة الحد المشروع في أي أمر من الأمور بأن يزاد فيه أو ينقص عن الحالة التي شرع لها، ولا يدخل في الغلو طلب الكمال في العبادة إذا لم يتجاوز الحد فإنه يعتبر من الأمور المحمودة. ونحن لا نستطيع أبداً أن نجاري من يغلو في دينه لأن الله تعالى يقول: ﴿لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾[٢] وما قصة الثلاثة الذين جاءوا يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما وضحت لهم كأنهم تقالّوها فقال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر كله، وقال الثاني: أما أنا فأقوم الليل كله، وقال الثالث: أما أنا فلا أتزوج النساء، ولما علم الرسول ﷺ أراد أن يعلمهم أنه لا غلو في الدين فقال لهم: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[٣].

وهذا غير الاجتهاد في العبادة -كما قلنا- فالإنسان عندما يأخذ نفسه بالعزيمة فإنه لا يأمر الناس بالأخذ بها ولكن يرحمهم ويعذرهم إن ترخصوا، وأما هو فيجتهد في عبادته كما شاء « أَحَبَّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ وَأَحَبَّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا»[٤]

---

(١) من الآية ٨٣ من سورة النساء.
(٢) من الآية ١٧١ من سورة النساء.
(٣) متفق عليه.
(٤) متفق عليه.

هذا شأنه إن اقتدى بذلك وليس فيه مغالاة، إنما المغالاة أن يطلب من الناس أن يصوموا مثله وإلا أثموا فهذا عين المغالاة.

ولذلك فمن التطرف عدم الاعتداد بأقوال المخالفين طالما أنهم يستندون في اجتهاداتهم إلى دليل وطالما أنهم أهل للاجتهاد وأهل للفتيا، واسمع إلى مقولتهم فكان الواحد منهم يقول: رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب، هذا في المسائل الخلافية ولا يمكن أبداً أن يتصور عقل أن الصواب في هذه الأمور هو الذي يقوله هو، وأن الخطأ هو الذي يقوله غيره، يقول النبي ﷺ: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**»[1]، والتنطع هو التجاوز في الحد والغلو في التعمق في الدين فيجب أن نزن الأعمال بميزان الشرع ﴿**أَلا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ**﴾[2].

ومن هنا فبعد هذه المقدمة السريعة وهذه النقاط الحاكمة في هذا الموضوع نجد الذين رموا الإمام البنا حين قال: «**الدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة**». وخطَّأوه فيما قال هم المخطئون، فليس هذا القول قول الإمام البنا وحده بل سبقه كثير من العلماء فإذا جاء من يقول: هذا مخالف لإجماع العلماء، نقول له: هذا لون من ألوان الافتراء على العلماء أو جهل بأقوالهم؛ لأن العلماء لم يجمعوا في هذه المسألة مطلقاً بل هي من الأمور المختلف فيها، أما اللجوء إلى الله فليس فيه مجال للاختلاف.

اللجوء إلى الله:

اللجوء إلى الله أمر فطري في النفس، فالفطرة تستصرخ خالقها وبارئها وتوقن وتشعر بوحدانيته ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾[3]، فلا عجب إذن أن يقول المسلم: الغوث الغوث، النجاء النجاء حين يحس بأي خطر من الأخطار

---

(١) رواه مسلم في صحيحه وغيره.
(٢) الآيات ٨، ٩ من سورة الرحمن.
(٣) من الآية ١٧٢ من سورة الأعراف.

أو ضرر من الأضرار لا يماري في ذلك أحداً ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(١)، فطرة الله ﷻ التي فطر الناس عليها؛ لأنه هو ﷻ الذي أشهدهم على أنفسهم: ﴿أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا﴾(٢)، فكان من الطبيعي أن يلجأوا إلى الله ﷻ.

ولذلك فإن المسلم دائماً يستشعر ضعفه الإنساني في مواقف الشدة، ومن الطبيعي أن يبحث عمن يلجأ إليه ويرفع أكف الضراعة إليه كلما وقف بين يدي الله سبحانه وتعالى ويعترف بالإله القوي وهو يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾(٣) فيستعينه ويستهديه فيحقق بذلك أسمى أنواع العبودية باستشعاره كمال الذل وكمال الحب وهما لا يجتمعان إلا لله رب العالمين فكأن الدعاء بذلك مخ العبادة بحق.

الاستعانة بالله لا تمنع الاستعانة بالمخلوق:

والاستعانة بالله ﷻ والدعاء له والابتهال إليه لا تمنع من الاستغاثة بالمخلوق الحي تناديه وتطلب غوثه وتحتمي به، فالاستعانة –فيما يقدر عليه البشر– أمر طبيعي لأنه من الأمور التي في استطاعتهم ولا يجوز شرعًا اللجوء إلى الإنسان في الأمور المستحيلة التي يعجز عن الإتيان بها أو التي ليست في مقدورهم، هذه بديهية لا تحتاج إلى دليل أو برهان.

فقد تنشب النار أو يشتعل الحريق في بيت من البيوت فيستغيث صاحبه بالشرطة أو الجيران طلباً للإنقاذ، أو يعتدي عليك لص آثم فتستنصر الناس ليخلصوك منه ويحموك من اعتدائه فهذا أمر معتاد يحدث بين كل الناس؛ لذلك فإن القرآن الكريم بين لنا أن هذا النوع من الاستنصار والاستعانة مألوف بين البشر ولقد حكى لنا القرآن طرفًا منه فتراه مثلاً في قصة موسى عليه السلام حين استغاثه الذي من شيعته على

---

(١) من الآية ١٢ من سورة يونس.
(٢) من الآية ١٧٢ من سورة الأعراف.
(٣) الآيات ٥، ٦ من سورة الفاتحة.

الذي من عدوه: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾[١] وكما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ...﴾[٢].

وأما الأمور التي لا يقدر عليها إلا الخالق القادر ﷻ فلا يصح أن يستغاث لها بالبشر ولكن يستغاث بمن بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، ككشف الضر، وتفريج الهم، والشفاء من السقم، ودفع الفقر، وغفران الذنب، والهداية إلى سواء السبيل، وغير ذلك من الأمور والأحوال التي يداولها المولى بين الناس فلا يلجأ فيها إلا إليه وحده: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[٣]، فإن استغاث الإنسان بمخلوق في مثل هذه الأمور فقد ضل ضلالاً مبيناً، وافترى إثماً عظيماً، وقال منكراً من القول وزورًا، ووقع في المحظور وخالف الشرع الحكيم، واتبع الهوى المشين، وصاحب الشيطان الرجيم.

وفي هذه الحالة يجب علينا أن نوضح له هذا المنزلق إن كان جاهلاً ونحذره من الهاوية حتى لا تتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق؛ ذلك لأن مولاه هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير وهو وحده المسئول والمأمول وإليه وحده يرجع الأمر كله ﴿وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا، وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٤]، ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[٥].

الدعاء مخ العبادة:

من هنا كان الدعاء مخ العبادة وسمة المؤمنين والأنبياء والصالحين والرسل الكرام المبعوثين رحمة للعالمين، فهم يلجأون إلى الله في صغير الأمر وكبيره، فهذا آدم عليه السلام يقول: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٦]، وهذا إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ

---

(١) من الآية ١٥ من سورة القصص.
(٢) من الآية ٧٢ من سورة الأنفال.
(٣) من الآية ٦٢ من سورة النمل.
(٤) من الآية ١٨٠ من سورة الأعراف.
(٥) من الآية ١٤ من سورة غافر.
(٦) من الآية ٢٣ من سورة الأعراف.

أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[١]، وهذا نوح يقول: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾[٢]، وهذا أيوب يقول: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[٣]، وهذا يونس: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٤]، وانتهى هذا الموكب الكريم بمحمد ﷺ وهو يتضرع إلى ربه: «إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين»[٥]، وكان حال المؤمنين به ودعاؤهم: ﴿إِلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[٦].

وهنا تظهر لنا قضية التوسل والوسيلة فما هي حقيقتها؟

حري بنا أن نبين أولاً الفرق بين الاستغاثة والتوسل:

فما هو الفرق بين التوسل والاستغاثة؟

الاستغاثة: معناها اللغوي هي طلب العون وتفريج الكروب، وتستغيث أي تطلب العون وهي يعتريها أحكام، فبعض العلماء جعل فيها الإباحة أو المندوب أو الممنوع.

فالاستغاثة المباحة: هي في طلب الحوائج من الأحياء فيما يقدرون عليه كما حدثنا القرآن في قصة سيدنا موسى عليه السلام حينما اعتدى على صاحبه رجل من غير شيعته: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾[٧]، فهذه استغاثة ولذلك أغاثه موسى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾[٨]، فهي استغاثة بإنسان يقدر على دفع الأذى بأمر يقدر عليه وهذا أمر مباح.

الاستغاثة المندوبة: هي الاستغاثة بالله ﷻ فهي أمر مطلوب: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[٩]، ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ

---

(١) من الآية ١٢٧ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ١٠ من سورة القمر.
(٣) من الآية ٨٣ من سورة الأنبياء.
(٤) من الآية ٨٧ من سورة الأنبياء.
(٥) رواه الضياء في المختارة، وابن عدي في الكامل، وذكره القرطبي في تفسيره ١٦/ ٢١١.
(٦) من الآية ١٤٧ من سورة آل عمران.
(٧) من الآية ١٥ من سورة القصص.
(٨) من الآية ١٥ من سورة القصص.
(٩) الآية ٩ من سورة الأنفال.

وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[١].

الاستغاثة الواجبة: هي الاستغاثة التي يترتب على تركها هلاك إنسان.

أما الاستغاثة الممنوعة: فهي التي تكون في الأمور المعنوية مثل: تفريج الكروب وطلب الرزق هذا كله ممنوع ومنهي عنه بإجماع العلماء.

فما معنى التوسل والوسيلة؟

معنى التوسل: هي ما يُتقرب به إلى الرب ﷻ، وفرق كبير بين الوسيلة التي نتقرب بها إلى الله ﷻ والاستغاثة التي هي طلب العون من الإنسان، فالفرق واضح بين النوعين وإذا اختلف النوع اختلف الحكم، فهذه وسيلة أتقرب بها إلى الله وأما الثانية فهي طلب العون الذي في قدرة الإنسان.

الوسيلة: هي المنزلة عند الملك، ودرجة القربى، ووسل فلان إلى الله وسيلة إذا عمل عملاً تقرب به إليه، والواسل الراغب إلى الله، وتوسل إليه وسيلة قرب إليه بعمل، هكذا جاء في لسان العرب وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾[٢]، أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله فيما أخبرهم ووعدهم من الثواب وأعد للمخالفين من العقاب ﴿اتَّقُواْ اللّهَ﴾ فيما أمركم ونهاكم من الطاعة له في ذلك، وحققوا إيمانكم وتصديقكم ربكم ونبيكم بالصالح من الأعمال ﴿وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [٣] أي اطلبوا القربة إليه بما يرضيه[٤]، والوسيلة كل ما يتقرب به إلى الله ﷻ من فعل الطاعات وترك المنهيات أو بطلب الدعاء من الغير أو الدعاء المُتقرب به إلى الله ﷻ بأسمائه وصفاته أو بأحد من خلقه كنبي أو رجل صالح، وهذا الخلط يأتي لعدم اطلاع البعض على أقوال العلماء في الفرق بين الاستغاثة والتوسل فخلطوا بينهما ونقلوا الحكم من الصواب والخطأ إلى الكفر والإيمان لخلطهم بين الاستغاثة والوسيلة.

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة النمل.
(٢) من الآية ٣٥ من سورة المائدة.
(٣) من الآية ٣٥ من سورة المائدة.
(٤) تفسير الطبري، لابن جرير الطبري ٦/ ٢٢٦.

وعن قتادة: تقربوا إليه بطاعته: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [١] أي القربة، وكما قال الإمام النسفي: الوسيلة هي كل ما يتوسل به أي يتقرب من قرابة أو صنيعة أو غير ذلك واستعيرت لما يتوسل به إلى الله من فعل الطاعات وترك السيئات.

ولقد اتفق المعنى اللغوي مع المعنى الشرعي للوسيلة وإن كان الرسول ﷺ قد جعل لها معنى آخر هي منزلة الرسول ﷺ في الجنة وذلك في الحديث الذي رواه عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِذَا سَمِعْتُمْ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إِلا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»** [٢].

والوسائل للقربى إلى الله لا تعد ولا تحصى؛ لأن كل طاعة وسيلة ابتداء من إماطة الأذى عن الطريق إلى الجهاد في سبيل الله، فهذا ميدان فسيح أبوابه متعددة يلجه المؤمن من أي باب شاء، وهذا هو التوسل إلى الله بأعمال الخير مالاً ووقتاً ونفساً فكل هذه الطاعات وسيلة تقربنا إلى الله [٣].

وهذه القضية: لم تأخذ شكل المشكلة إلا بعد أن تحولت الآراء الاجتهادية إلى تعصبات حزبية تفرق المسلمين وتحول العلماء إلى كسب الأنصار، كل يحاول تدعيم آرائه التي يدعو إليها ورد كل ما يعارضها ولو كان الأصوب وأصبح لكل رأيه الذي يتعصب له، ولا يرى صواباً في غيره ولا أدلّ على ذلك من أن فريقاً من العلماء جعلها شركاً أو طريقاً إلى الشرك رغم أنها من القضايا الخلافية التي تنازع فيها العلماء بين صواب وخطأ وليس بين كفر وإيمان؛ ولذا نشبت المعارك العلمية بين من يجيز وبين من يمنع وزادت الفرقة والتعصب والشقاق، ونود أن ننبه إلى أن التوسل الذي أشار إليه الإمام البنا في هذا الأصل لا دخل له بما يفعله عوام الناس والجهال من

---

(١) من الآية من سورة الإسراء:٥٧.
(٢) رواه مسلم في صحيحه، وغيره.
(٣) منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام للمؤلف.

دعاء الموتى والتوجه إليهم بالسؤال وطلب قضاء الحاجات منهم والاستعانة بهم – وهذا ما بينه الإمام البنا في الأصل الرابع عشر – أنها كبائر تجب محاربتها.

أما هذا الأصل -الذي نحن بصدده- فهو يشير إلى من توجه إلى الله وحده بالدعاء سائلاً إياه وحده بجاه فلان أو ذاته الحي لا متوجهاً إلى فلان الميت يطلب منه ويسأله فهذا ليس توسلاً بل هي كبائر -كما قلنا- يجب التصدي لها بالطرق المشروعة وبحكمة الداعي إلى الله.

ولقد كثر الكلام -في هذا الأصل الذي نحن بصدده- وطال النزاع بين أئمة كرام كالإمام السبكي وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمهما الله- فلقد أتى كل منهما بأدلة أيد فيها رأيه ورد أدلة الآخر، فالأول يجيز والثاني يمنع بشدة ولكل من الشيخين الفقيهين أشياع وأنصار تتلاحى وتتشاتم حتى سارت باباً من أبواب الفتنة والتفريق بين جماعة المسلمين، وما أحوجنا اليوم إلى الوفاق والوئام خاصة أن المسألة خلاف فرعي -كما سنوضح بمشيئة الله- وكما ذكر الإمام البنا ومن سبقه من علماء السلف الصالح.

موقف العلماء من القضية:

ما اتفق عليه العلماء: اتفق العلماء دون أدنى خلاف على أن التوسل المشروع هو:

أولاً–التوسل باسم من أسماء الله تعالى الحسنى أو بصفة من صفاته العليا، وهذا مجمع عليه عند العلماء لا يختلف فيه عالم، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1]، فالآية صريحة في أمر العباد بأن يدعوه ﷻ بأسمائه الحسنى؛ لأن الدعاء بأسمائه وصفاته هذا أول نوع من أنواع الوسيلة وأقرب إلى الإجابة وقد ورد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[2].

وفي الحديث الصحيح: « **أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي**

---

(١) من الآية من سورة الأعراف:١٨٠.

(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

وَنُورَ صَدْرِي وَجِلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا...»[١] إلى آخر الدعاء المأثور.

ثانياً– التوسل بالعمل الصالح، كأن يكون قد قدم عملاً صالحاً موافقاً للكتاب والسنة، فإذا دعا يقول في دعائه: اللهم إني أسألك بعملي الفلاني أو يقول: اللهم إني أسألك بحبي لنبيك أو بإيماني أو بتوحيدي ونحو ذلك، ويكون العمل خالصاً لله ﷻ وصالحاً: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[٢]، أي أن العمل لابد أن يكون موافقاً للكتاب والسنة، إذن فالأول أسماء الله وصفاته، أما الثاني فهو عمل صالح يتقرب به، فالمؤمنون قالوا: ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ﴾[٣]، فقدموا التوسل وهو الإيمان على الدعاء رجاء الإجابة، وكذلك قول ربنا: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾[٤]، فقدموا التوسل بالإيمان على طلب المغفرة والرحمة.

وكذلك توسل أصحاب الغار بأعمالهم الصالحة فتوسل أحدهم بعفته من الزنا، وتوسل الثاني ببره لوالديه، وتوسل الثالث بتنمية أجر أجيره وإعطائه الأجرة كاملة بعد مضي فترة طويلة من الشهور والسنين.

وعلى هذا يستحب للإنسان أن يدعو في حال كربه وفي دعاء الاستسقاء وغيره بصالح عمله ويتوسل إلى الله تعالى به لأن هؤلاء الثلاثة فعلوه فاستجيب لهم، وفرج الله كربهم ورفع الصخرة التي أطبقت عليهم وذكره النبي ﷺ في معرض الثناء عليهم بجميل فضائلهم[٥].

ثالثاً– التوسل بدعاء الرجل الصالح، فإذا نابت المسلم نائبة أو وقع في قحط وجدب فمن المندوب أن يذهب إلى رجل صالح يدعو له لكي يفرج الله الشدة ويقول: له ادع

---

(١) رواه أحمد في مسنده.
(٢) الآية ١١٠ من سورة الكهف.
(٣) من الآية ١٩٣من سورة آل عمران.
(٤) من الآية ١٠٩من سورة المؤمنون.
(٥) حديث الثلاثة الذين حبستهم الصخرة في الغار رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

لي، وهذا لون من ألوان: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[(١)]، والرسول ﷺ يقول:« **وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**»[(٢)].

وفي الحديث الصحيح عن أنس بن مالك ﷺ:«أَنَّ رَجُلا دَخَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ بَابٍ كَانَ وِجَاهَ الْمِنْبَرِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكَتْ الْمَوَاشِي وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثُنَا قَالَ فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ فَقَالَ:«**اللَّهُمَّ اسْقِنَا اللَّهُمَّ اسْقِنَا اللَّهُمَّ اسْقِنَا**» قَالَ أَنَسُ: وَلا وَاللَّهِ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ وَلا قَزَعَةً وَلا شَيْئًا وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلا دَارٍ قَالَ فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ فَلَمَّا تَوَسَّطَتْ السَّمَاءَ انْتَشَرَتْ ثُمَّ أَمْطَرَتْ قَالَ وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سِتًّا ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فِي الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَتْ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ فَادْعُ اللَّهَ يُمْسِكْهَا. قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلا عَلَيْنَا اللَّهُمَّ عَلَى الآكَامِ وَالْجِبَالِ وَالآجَامِ وَالظِّرَابِ وَالأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ**». قَالَ: فَانْقَطَعَتْ وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ»[(٣)]. فقد أقر رسول الله ﷺ هذا الأعرابي على التوسل به وسعى في تحقيق من توسل إليه ولم يصدر عنه ما يشير -مجرد إشارة- إلى أن الدعاء الصادر من الشخص لنفسه أولى من دعاء غيره له بناء على طلبه، بل لقد دل بإقراره ﷺ واستجابته على أن طلب الدعاء من الغير أرجى للإجابة إذا كان المطلوب منه الدعاء من أهل التقوى والصلاح[(٤)].

وإذا كان هذا عن التوسل بدعاء النبي ﷺ فإن التوسل بدعاء غيره ﷺ قد سنه لنا حينما استأذنه عمر ﷺ في العمرة فأذن له وقال: «**يَا أُخَيَّ أَشْرِكْنَا فِي صَالِحِ دُعَائِكَ وَلَا تَنْسَنَا**»[(٥)]، وسنه لعمر بن الخطاب ﷺ ولغيره تبعاً له فيما رواه مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:«**إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ**

---

(١) من الآية ٢ من سورة المائدة.

(٢) رواه مسلم في صحيحه وغيره.

(٣) متفق عليه.

(٤) البدعة، د/ عزت عطية، ص ٤٤٥.

(٥) رواه الترمذي في سننه،وأحمد في مسنده، وغيرهما.

لَهُ أُوَيْسٌ وَلَهُ وَالِدَةٌ وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ»[١]. وفي رواية «لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ فَاسْتَغْفِرْ لِي فَاسْتَغْفَرَ لَهُ»[٢]، وقد طلب عمر أن يستغفر له، فدل ذلك على جواز التوسل بدعاء المسلمين حتى ولو كان الداعي أقل درجة من المدعو له.

ومما يدل على ذلك أيضًا حثه ﷺ لنا على سؤال الله له الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود وسؤالنا الله أن يصلي عليه وما إلى ذلك.

وقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[٣] يدل على مشروعية التوسل لما فيه من حث الأمة على المجيء إليه ﷺ والاستغفار عنده واستغفاره لهم وليس ذلك خاصاً به ﷺ لعدم دليل الخصوص.

وقد ورد الحث على دعاء المرء لأخيه عن ظهر غيب طلب منه أو لم يطلب ولا يتوقف على أفضليته من الطالب بل قد يطلب الفاضل من المفضول.

يقول ابن تيمية: ولفظ التوسل يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين:

أحدهما: هو أصل الإيمان والإسلام وهو التوسل إلى الله بالإيمان بالرسول ﷺ.

الثاني: التوسل بدعاء الرسول ﷺ وشفاعته فهذان جائزان بإجماع المسلمين.

التوسل المختلف فيه بين العلماء: ومنه المسألة التي أشار إليها الإمام البنا في هذا الأصل.

١-هو التوسل إلى الله ﷻ بأحد من خلقه في مطلب العبد من ربه أجازه بعضهم إذا كان بمعنى الشفاعة كما في صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب ؓ استسقى العباس وقال: «اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقنا وإنَّا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا»[٤] فيُسقون.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.
(٢) المصدر السابق.
(٣) من الآية ٦٤ من سورة النساء.
(٤) رواه البخاري في صحيحه.

فلا يخفى أن توسلهم به هو استسقاؤهم بحيث يدعو ويدعون معه فهو شفيع لهم وسائل لا مسئول، هذا رأي من لم يجز التوسل بذات المتوسل به وقال: يتوسل بدعائه لا بذاته، والذي يقول بهذا الرأي هو الإمام ابن تيمية الذي يقول «ودعاء عمر في الاستسقاء المشهور بين المهاجرين والأنصار وقوله: كنا نتوسل إليك بنبينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا يدل على أن التوسل المشروع عندهم هو التوسل بدعائه وشفاعته لا السؤال بذاته إذ لو كان هذا مشروعًا لم يعدل عمر والمهاجرون والأنصار عن السؤال بالرسول ﷺ إلى السؤال بالعباس[1].

٢-وأجازه بعض العلماء وإن لم يكن بمعنى الشفاعة بل بمعنى التوسل بجاه الوسيلة نحو القسم على الله بنبيه ﷺ.

إلا أن الشيخ عز الدين بن عبدَ السلام خصه به ﷺ، للحديث:«إن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أُصبت في بصري فادع الله لي فقال النبي:«**إنْ شئْتَ دَعوْتُ وَإنْ شئْتَ صَبَرْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**» قال: فَادْعُهْ. قال: **فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ فَيُحْسِنَ وُضُوءَهُ وَيَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعَاءِ**: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّد نَبِيِّ الرَّحْمَةِ إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ لِتُقْضَى لِيَ اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِيَّ** »[2] وقال: **فإن كان لك حاجة فمثل ذلك**، فرد الله بصره، فعلم أن النبي ﷺ شفع له فسأل الله أن يشفعه فيه، من أجل هذا الحديث استثنى الشيخ العز بن عبد السلام التوسل بذاته ﷺ من المنع الذي أفتى به حيث قال: ينبغي أن يكون مقصوراً على النبي ﷺ لأنه سيد ولد آدم وأن لا يقسم على الله غيره من الأنبياء والملائكة والأولياء؛ لأنهم ليسوا في درجته وأن يكون هذا مما خص به لعلو درجته ومرتبته ﷺ»[3].

٣-وأجازه بعض العلماء على إطلاقه كالإمام السبكي وغيره، وقالوا: إن ما قاله الشيخ عز الدين بن عبد السلام بأنه خاص برسول الله ﷺ فيه نظر لأن الخصائص لا تثبت إلا بدليل ولا يكفي فيها الاحتمال لأنه خلاف الأصل، ويتضح لك بعد ذلك

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل، لابن تيمية، ص ٥٨.
(٢) رواه النسائي وابن ماجه والترمذي في سننهم.
(٣) الإبداع في مضار الابتداع، ص٢١٠.

أن التثبث لا يصح إلا بدليل ولا يكفي فيها الاحتمال مثل ما قلنا. فالذين يقولون إن هذا خصوصية للرسول ﷺ عليهم أن يأتونا بالدليل الذي يثبت الخصوصية؛ لأن الأصل أن الأمر يكون على الإطلاق فإذا قلنا: إن الأمر فيه خصوصية فلابد أن يأتي بدليل يدل على التخصيص.

مثال: إن زوجات النبي ﷺ لا يتزوجن من بعده، بالرغم من أن العموم أن الزوجة إذا توفي عنها زوجها تتزوج بعد انقضاء العدة، وهذا على إطلاقه لكل الزوجات إلا أننا بالنسبة لزوجات النبي ﷺ نجد دليلاً فيه خصوصية لهن ﴿**لستن كأحد من النساء**﴾[1]، هذه واحدة أما الثانية فالنص أن لا ينكح أحد أزواج النبي ﷺ من بعده أبداً فهذا هو الدليل بالخصوصية.

فأصبحت المسألة كما رأينا مسألة خلافية وليست مسألة مجمع عليها. فما الخطأ إذا اختار الإمام البنا وجهاً من الوجوه المختلف فيها واستحسنه وهو الفقيه.

كما يتضح لك أيضًا أن المستغيث بإنسان طالب منه سائل له بخلاف المتوسل به، فليس مطلوب منه و لا بمسئول وإنما يطلب به وأي إنسان يستطيع أن يفرق بين المدعو والمدعو به[2].

والجدير بالذكر أن الذين أجازوا هذا النوع من التوسل ردوا على الإمام ابن تيمية فقالوا: إن المتأمل في قول ابن تيمية يجده ينفي وقوع التوسل أو سؤال الله تعالى بمخلوق مطلقاً ولكنه لا يقدم لنا دليلاً على ذلك، بل إن الأدلة قد قامت على خلافه فقد روى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمان عن مالك الدار وكان خازن عمر قال: أصاب الناس قحط في زمان عمر فجاء إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله استسق الله لأمتك فإنهم قد هلكوا فأتى الرجل في المنام فقال له: ائت عمر فقل له: إنكم مستسقون فعليك الكفين، قال فبكى عمر وقال: يا رب ما آلو إلا ما عجزت عنه.

وروى الدارمي أن أهل المدينة لما قحطوا أشارت عليهم عائشة رضي الله عنها أن

---

(١) من الآية ٣٢ من سورة الأحزاب.
(٢) المصدر السابق ص٢١٠.

يحملوا من قبر النبي ﷺ كوىً إلى السماء حتى لا يكون بينه وبينها سقف، ففعلوا فمطروا حتى نبت العشب وسقت الإبل حتى تفتقت فسمى عام الفتق[(١)].

ويرى الشيخ زاهد الكوثري أن هذا الحديث -حديث عمر- نص على عمل الصحابة في الاستسقاء به ﷺ بعد وفاته حيث لم ينكر عليه أحد مع بلوغ الخبر إليهم وما يرفع إلى أمير المؤمنين يذيع ويشيع[(٢)].

ثم إنه لا يلزم عن عدم شيوع هذا الحديث وانتشاره عدم الاستدلال به؛ لأن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ما كان يقر على باطل أو يسكت على ضلال. يقول ابن حجر: يحتمل أن يكونوا طلبوا السقيا من الله مستسقين به ﷺ[(٣)]، ولم لا يكون التوسل بعم النبي ﷺ العباس أراد به عمر رضي الله عنه أن يبين جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل.

ولما كان هذا الحديث -حديث الاستسقاء- لم يكن نصاً صريحاً في جواز التوسل بغيره من الصالحين فإن الأرجح في فهمه وما يوافق ظاهر لفظه هو دلالته على الجواز؛ ذلك لأن بعضهم قال لكي يؤيد رأي عدم الجواز أن هناك مضافًا محذوفاً في قول عمر «وإنا نتوسل إليك بعم نبينا) أي بدعاء عم نبينا، فلا ندري لم لا يجرى على ظاهره»[(٤)].

حديث الأعمى: ولقد روى الطبراني بسنده عن عثمان بن حُنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته فلقي عثمان بن حُنيف فشكى ذلك إليه، فقال له عثمان ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل: (اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد ﷺ نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربى فيقضي لي حاجتي وتذكر حاجتك)، فانطلق الرجل فصنع ما قال له ثم أتى باب عثمان فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان، فأجلسه معه على الطنفسة وقال: ما حاجتك؟ فذكر حاجته فقضاها له ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة، وقال: ما كانت لك من

---

(١) البدعة، د/ عزت عطية، ص٤٥٢.
(٢) محض النقول، ص١٠.
(٣) فتح الباري ٣ /١٤٧.
(٤) هذا رأي د/عزت عطية في كتابه (البدعة) ص٤٥١ وما بعدها.

حاجة فأتنا ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حُنيف فقال له: جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي ولا يقضيها لي حتى كلمته فيَّ، فقال عثمان بن حُنيف: والله ما كلّمته، ولكن شهدت رسول الله أتاه رجل ضرير فشكا إليه ذهاب بصره، فقال له النبي ﷺ: «أو تصبر؟» فقال له: يا رسول الله، ليس لي قائد وقد شق عليّ. فقال له النبي ﷺ: «ائت الميضاة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم ادع بهذه الكلمات». قال عثمان بن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل عليه الرجل كأنه لم يكن به ضر قط.

والنص واضح في التوسل بالرسول ﷺ بعد وفاته ولذلك صرفه بعضهم ومنهم الشيخ الكوثري والشيخ حسنين مخلوف على الجواز بالتوسل بغيره «إذ إن دلالة الحديث على التوسل صراحة بذات الرسول ﷺ وليس بغيره فالتوسل بغيره الاختلاف فيه مجال والذي نرجحه هو الجواز حيث لم يرد دليل على المنع والله أعلم»[1].

يقول الشيخ محمد حسنين مخلوف[2]: «التوسل بذوات الأنبياء والصالحين بمعنى الاستشفاع بذواتهم وسيلة عند الله تعالى لنيل مآرب المتوسلين لما لهم عند الله تعالى من الزلفي والكرامة كأنه يقول: اللهم إني أتوسل إليك بنبيك ﷺ أو بفلان الصالح أن تقضي حاجتي أو ترزقني أو تشفي مريضي بهذا ونحوه لا شيء فيه ولا وجه لمنعه».

ولقد قال معاوية: «إنا نستسقي بخيرنا وأفضلنا، إنا نستسقي بزيد بن الأسود فاستسقى معاوية بها الرجل الصالح، ومن أنواع التوسل الخلافية التوسل بجاه النبي ﷺ وحقه وحرمته، فقد وافق العلامة الألوسي على جواز التوسل بجاهه وحرمته حياً أو ميتاً، وصرف الجاه والحرمة إلى صفة من صفات الله تعالى أي أجعل محبتك له وسيلة في قضاء حاجتي وقال: نعم لم يعهد التوسل بالجاه والحرمة عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ولعل ذلك كان تحاشياً منهم عما يخشى أن يعلق منه شيء في أذهان الناس، إذ ذاك وهم قريبو عهد بالتوسل بالأصنام ثم اقتدى بهم من

---

(١) هذا رأي د/ عزت عطية في كتابه (البدعة) ص٤٥٨.

(٢) في كتاب حكم الإسلام في التوسل، للشيخ محمد حسين مخلوف، ص ٤٥.

خلفهم من الأئمة الظاهرين، وقد ترك رسول الله هدم الكعبة وتأسيسها على قواعد إبراهيم لكون القوم حديثي عهد بكفر كما ثبت ذلك في الصحيح»[١].

فالمسألة بعد هذا التبيان نزاعية خلافية كما قال العلماء وليست من أمور العقيدة في شيء، وصدق الإمام البنا حين قال: **«والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة»**، فهي مقولة لا إنكار فيها.

فأنت تلاحظ أن الإمام البنا في هذه المقولة لم يرجح رأياً على رأي ولم يظهر أن رأيه هو الصواب وإنما قال وجهًا فقهيًّا عند علماء السلف ليوضح أن المسألة تتعلق بالصواب والخطأ وليست متعلقة بكفر وإيمان.

يقول الإمام ابن تيمية: «نقل عن أحمد بن حنبل في مسند المرودي التوسل بالنبي ونهى عنه آخرون فإن كان مقصودهم التوسل بذاته فهو محل النزاع، وما تنازعوا فيه يرد إلى الله والرسول ﷺ»[٢]، **ويقول أيضًا:** «بل غايته أن يكون ذلك مما يسوغ فيه الاجتهاد، ومما تنازعت فيه الأمة فيجب رده إلى الله والرسول»[٣]، **ويقول:** «وإن كان في العلماء من سوغه فقد ثبت عن غير واحد من العلماء أنه نهى عنه -فتكون مسألة نزاعية - وليس هذا من مسائل العقوبات بإجماع المسلمين بل المعاقب على ذلك معتد جاهل ظالم، فإن القائل بهذا قد قال ما قالت العلماء والمنكر عليه ليس معه نقل يجب اتباعه لا عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة»[٤].

ويقول الشيخ ناصر الدين الألباني: بعد أن أشار إلى التوسل المشروع الذي أشرنا إليه - وغير المختلف فيه- قال: «وأما ما عدا هذه الأنواع من التوسلات ففيه خلاف، والذي نعتقده وندين الله به غير جائز ولا مشروع لأنه لم يرد فيه دليل يقوم به الحجة، وقد أنكره العلماء المحققون في العصور الإسلامية المتعاقبة مع أنه قال ببعضه بعض الأئمة، فأجاز الإمام أحمد التوسل بالرسول ﷺ وأجاز غيره كالإمام الشوكاني

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٦.
(٢) الفتاوى، لابن تيمية ١/ ٢٦٤.
(٣) المصدر السابق ١/ ١٧٩.
(٤) المصدر السابق ١/ ٢٨٥.

التوسل به وبغيره من الأنبياء والصالحين»[١].

ولقد أجاب فضيلة الشيخ «ابن باز -رحمه الله- حين سئل عن هذا النوع من التوسل بأن من العلماء من أجازه ومنهم من منعه وليس بشرك»[٢].

ويقول فضيلة الشيخ محمد نجيب المطيعي رحمه الله: «إن هذه الأمور -أي الدعاء والتوسل- ليست من صميم العقائد عند السلف، وإنما هي أمور وُزعت وصُنفت عندهم في أبواب ليست من أبواب التوحيد، فالقبور وتجصيصها وما يتصل بها صُنفت في كتاب الجنائز، أما الأدعية فتجدها في كتاب الأذكار، ولا تجد شيئاً منها عند السلف في كتاب التوحيد، ونحن نشير إليها هنا بعد أن احتدم الخلاف وأصبح هذا الأمر يُنظر إليه على أنه يخل بشيء من العقائد، ولذلك يجب عرضها بطريقة لا تخرج مسلماً عن ملته فهم ذلك السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين»[٣].

وعلى هذا فقد تأكدنا أن التوسل بذات النبي وبغيره مسألة خلافية، فإن الإمام أحمد بن حنبل وابن حجر العسقلاني صاحب فتح الباري في صحيح البخاري يجوز بالنسبة للنبي ﷺ كما أجازه العز بن عبد السلام وأما الإمام السبكي والشوكاني فيجوزانه بالنسبة للنبي ﷺ وبغيره، وكذلك العلامة الألوسي، كما أجازه الشيخ زاهد الكوثري كما رأيت بالنسبة للأحياء والأموات، بينما منع ذلك الإمام ابن تيمية والشيخ ناصر الدين الألباني وغيرهم، فهل ينازع أحد بعد ذلك أنها مسألة خلافية؟

فهي إذن خلاف فقهي كما بين الإمام البنا في كيفية الدعاء وليست من أمور العقيدة في شيء فلا تتصل بكفر وإيمان إنما تتصل بصواب وخطأ مما يسوغ فيه الاجتهاد ولا يجوز الخصام بسببها أو الهجر أو التدابر والتقاطع فضلاً عن العقوبة كما ذكر الإمام ابن تيمية رحمه الله.

---

(١) التوسل وأنواعه وأحكامه، للشيخ الألباني.
(٢) من محاضرة للدكتور عصام البشير.
(٣) منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام، للمؤلف، ص ٤٥.

فأصبح هناك نوع من التوسل لا خلاف فيه وهو:

أولاً - التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته.

ثانيًا-التوسل إلى الله بدعاء الرسول ﷺ حال حياته.

ثالثاً-التوسل بالأعمال الصالحة.

رابعاً-التوسل إلى الله بدعاء من تُرجى إجابته من أهل الصلاح والتُقى وأهل العلم بالكتاب والسنة.

أما خامساً- فهو التوسل بالنبي ﷺ بعد مماته.

فقد اختلف العلماء في مشروعية التوسل بالنبي ﷺ بعد وفاته كقول القائل: اللهم إني أسألك بنبيك أو بجاه نبيك أو بحق نبيك، فإذا كان بمعنى بإيماني وحبي له فهو متفق عليه بعد مماته أما المختلف فيه بعد مماته هو قولهم بجاه النبي ﷺ وفيها ثلاثة أقوال:

الرأي الأول: لجمهور العلماء المالكية والشافعية والمتأخرة من الحنفية وعند الحنابلة، وهؤلاء قالوا: بجواز هذا النوع من التوسل سواء في حياة النبي ﷺ أو بعد وفاته، فقالوا جائز أن تقول بحقْ النبي أو بجاه النبي ﷺ، قال القسطلاني: وقد روى أن مالكاً لما سأله أبو جعفر المنصور -ثاني خلفاء بني العباس-: يا أبا عبد الله أأستقبل رسول الله ﷺ وأدعو أم أستقبل القبلة وأدعو عند زيارة قبر الرسول ﷺ؟

فقال له مالك ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله ﷻ يوم القيامة، بل استقبله واستشفع به فيشفع الله لك.

الرأي الثاني: قال الإمام النووي في بيان آداب زيارة قبر النبي ﷺ:«ثم يرجع الزائر إلى موقف قبالة وجه رسول الله ﷺ فيتوسل به ويستشفع به إلى ربه ومن أحسن ما يقول الزائر ما حكاه الماوردي والقاضي وأبو الطيب وسائر أصحابنا عن العظمى مستحسنين له قال: كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ فجاءه أعرابي فقال السلام عليك يا رسول الله سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[1] وقد جئتك مستغفراً من ذنبي

(١) من الآية ٦٤ من سورة النساء.

ومستشفعاً بك إلى ربي ثم أنشأ يقول شعراً.

وقال الإمام السبكي: ويحسن التوسل والاستغاثة والتشفع بالنبي ﷺ إلى ربه وفي إعانة طالبيه، وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي، وهذه من أقوال الشافعية وأيضًا المالكية. أما الحنابلة فقال ابن قدامة في المغني بعد أن نقل قصة العظمى هذه مع الأعرابي قال: ويستحب لمن دخل المسجد أن يقدم رجله اليمنى إلى أن قال: ثم تأتي القبر فتقول: وقد جئتك مستغفراً من ذنبي ومستشفعاً بك إلى ربي، وأما الحنفية فقد صرح متأخروهم أيضًا بجواز التوسل بالنبي ﷺ، فقال الكمال ابن الهمام في فتح القدير. ثم يقول في موقفه السلام عليك يا رسول الله ويسأل الله تعالى حاجته متوسلاً إلى الله بحضرة نبيه عليه الصلاة والسلام.

قال الشوكاني: ويتوسل إلى الله بأنبيائه والصالحين وقد استدلوا لما ذهبوا إليه بما يأتي، وساق الأدلة التي تؤكد ما قلناه.

واسمع إلى هذه القصة التي حدثت مع الإمام البنا نفسه فقد سأله أحد الإخوان عن التوسل بالنبي ﷺ والصالحين والاستغاثة فأجاب رضي الله عنه إجابة الفقيه العالم فقال: «بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، السلام عليكم ورحمة الله فأحب أن ألفتكم قبل الجواب عن هذه الأسئلة إلى أمور مهمة، أولها أرجو أن تلاحظوا أن الخلاف في أمور الدين أمر طبيعي ولا يمكن أن يجتمع الناس في الفرعيات، والإخوان يعلمون ذلك تمام العلم، بل إن الإخوان يعلمون أن الأئمة رضوان الله عليهم متعددون ولكل رأيه في الدين مع وحدة الأصول ووحدة الاعتقاد، ثانياً: إن الجدل في المسائل الدينية جاء على الأمة بنكبات كثيرة وكرهه النبي ﷺ -ثم انتقل إلى المسألة وقال- ونحن حين نفتى في هذه الشئون نبين ما هدانا الله إليه في هذه المسائل، واعتقادنا فيها بحسب ما وضح لنا من الأدلة ولا نلزم أحداً اعتقاد عقيدتنا ولا نزكي أنفسنا، بل ربما كنا مخطئين ونحن لا نشعر، فمرحباً بمن يدلنا على مكان النقص أو يرشدنا إلى مواطن الخطأ نقرر رأينا ونحترم رأي غيرنا ولا نجرح من خالفنا وتجمعنا دائرة الأخوة الإسلامية العامة، ثم بين هذا الأمر كما ذكرنا.

والخلاصة:

وخلاصة ما نريد أن نقوله: إن الشريعة الغراء جاءت فاصلة بين حدود الإيمان والشرك مبينة ما يجب اتباعه من آداب الألسن والجوارح والقلوب، وغاية من يؤخذ على بعض العوام من الناس الذين نعذرهم بجهلهم صدور بعض الألفاظ الموهمة التي يقولونها، والحقيقة أنهم لم يريدوا منها أن النبي أو الولي ينفع ويضر بمعنى يخلق الضر والنفع فدعوه فدعوه بها إذ هم يعتقدون أنه لا خالق إلا الله ﴿لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1]، ولا يستحق العبادة إلا هو ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[2] فيجب أن نعلمهم أن يجتنبوا كل ما فيه إيهام مشابهة للمشركين، ويجب أن نسد هذا الباب سداً منيعاً -إن هم أتوا بأمور تنافي الشرع- وننهى كل من يدعو بمثل هذا الذي يوقع في الشرك والضلال -مما نراه في الأضرحة والقبور- علماً بأن الشرك الأكبر لا يقع من مسلم خالط قلبه شُعب الإيمان، ولكن الشرك الخفي أنواعه كثيرة وكلها -وإن كانت لا تخرج المؤمن عن ملة الإسلام- فقد تجر إليه كما قيل إن المعاصي بريد الكفر، وقول بعض الناس: إن هذا كفر صراح وشرك جلي -دون تبيان ذلك للجاهل وتعريفه بالإسلام- من الغلو في الدين والله يقول: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ﴾[3]، وصدق الله القائل: ﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ومن ذلك يتضح:

١- إن التوسل بالأنبياء والصالحين بمعنى الإقسام بهم أو السؤال بهم خلاف فقهي يسوغ فيه الاجتهاد.

٢- إنها تخضع للصواب والخطأ لا الكفر والإيمان؛ لأن الكفر إنما يكون بإنكار ما علم من الدين بالضرورة أو إنكار الأحكام المتواترة والمجمع عليها ونحو ذلك مما حدده العلماء.

---

(١) من الآية ١٠٢ من سورة الأنعام.
(٢) من الآية ٣ من سورة الزمر.
(٣) من الآية ١٧١ من سورة النساء.

٣- ليس هناك دليل قاطع في الجواز أو المنع، وعلى ذلك فالاختلاف فيها لا يترتب عليه فساد اعتقاد بل هو خلاف مشروع.

٤- أجمع علماء المسلمين على أن المسألة لا يعاقب عليها.

٥- الذي يُعَاقِب مخالفه -في مثل هذه المسألة- معتدٍ ظالم جاهل كما قال ابن تيمية أو كما قال العز بن عبد السلام: «المكفر بمثل هذه الأمور يستحق من غليظ العقوبة والتعزير ما يستحقه أمثاله من المفترين على الدين»[1].

فلنا بعد هذا الإيضاح أن نؤكد ما قاله الإمام البنا:

«والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة»، فرحمة الله عليك ياإمام.

***

(١) الفتاوى، لابن تيمية ١/ ١٠٦، وكتاب« معًا على طريق الدعوة»، لمحمد عبد الحليم حامد، ص٢٠١.

مردود الأصل الخامس عشر

أولاً- حصيلة العقل:

أ- اختر الإجابة الصحيحة (من الممكن أن تكون أكثر من إجابة صحيحة):

١- الاستغاثة الواجبة التي ذكرها العلماء:

أ	طلب الحوائج من الناس	ب	الاستغاثة بالبشر فيما لا يقدرون عليه
ج	يترتب على تركها هلاك الإنسان	د	جميع ما سبق

٢- من أشكال التوسل التي اتفق العلماء على حكمها الشرعي:

أ	التوسل بأسماء الله الحسنى	ب	التوسل بالنبي بعد مماته
ج	التوسل بدعاء الصالحين	د	التوسل بالعمل الصالح

٣- من الأئمة الذين قالوا بجواز التوسل إلى الله بأحد من خلقه:

أ	الإمام السبكي	ب	الإمام الشوكاني
ج	الإمام الألوسي	د	الإمام بن تيمية

٤- اقتران الدعاء بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه:

أ	ليست من أصول العقيدة	ب	أجمع العلماء على جوازها
ج	من أفعال الشرك بالله	د	أجمع العلماء على حرمتها

ب- ضع (أ) أما العبارة الصحيحة و (ب) أمام العبارة الخطأ فيما يلي:

٥	الاستعانة بالبشر لا تتعارض مع الاستعانة بالله.	
٦	التوسل هو كل ما يتقرب به إلى الله.	
٧	التوسل إلى الصالحين من المسائل التي اختلف فيها العلماء.	

قارن إجاباتك بالإجابات النموذجية في آخر مردود الأصل، وأعط نفسك درجة لكل إجابة صحيحة وصفرًا للإجابة الخاطئة.

أكثر من ٩	٨	٧	٦	أقل من ٦
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثانيًا- رصيد القلب:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	أشعر باطمئنان حين أتوجه إلى الله بالدعاء.					
٢	لا أتحرج من الاستعانة بالآخرين في قضاء مصالحي الدنيوية.					
٣	لا يغيب عني أن الوسيلة كل ما يتقرب به العبد إلى الله.					
٤	أعتقد أن التوسل إلى الله بأحد من خلقه مسألة خلافية.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٣	١٢-١٣	١٠-١١	٨-٩	أقل من ٨
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثالثًا- حساب الجوارح:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	أبين لمن حولي أهمية الدعاء ومكانته في الإسلام.					
٢	أوضح للناس الفرق بين التوسل بأحد من البشر وبين التوجه بالدعاء إليه.					
٣	لا أنكر على من يتوسل إلى الله بأحد من خلقه.					
٤	أبين للناس أن التوسل بأحد من البشر مسألة خلافية.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٣	١٢-١٣	١٠-١١	٨-٩	أقل من ٨
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

إجابات حصيلة العقل (١٥)

السؤال	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
أ		✓	✓	✓	✓	✓	
ب			✓				✓
ج	✓	✓	✓				
د		✓					

الأصل السادس عشر

العرف الخاطئ لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية

«والعرف الخاطئ لا يغير من حقائق الألفاظ الشرعية بل يجب التأكد من حدود المعاني المقصود بها والوقوف عندها كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظي في كل نواحي الدنيا والدين، فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء».

هذا الأصل يعالج:

١-العرف الخاطئ.

٢-الخداع اللفظي.

٣-منع التحايل، وأيضًا الحيلة في إصدار أو استنباط الحكم.

٤- العبرة بالمسميات لا بالأسماء.

قبل أن نتكلم عن هذا الأصل نود أن نقول: إن المولى ﷻ ما خلق الإنسان عبثاً وما تركه سداً، ولكن خلقه لرسالة في هذا الوجود الذي نعيش فيه، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]، وعندما سألت الملائكة ربها ﷻ: ﴿قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2]، ولكي يعمر هذا المخلوق الكون أمدّه المولى ﷻ بإمكانات يستطيع بها أن يتلمس طريقه الذي يسير فيه، فمنذ اليوم الذي خلق المولى ﷻ فيه آدم وخلق له أبناءه حدد له الطريق الذي يسير فيه وقال: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى، وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[3]، ووهب المولى لهذا الإنسان الذي سيقوم برسالته عقلاً يفكر به ومنحه نداءين: نداء داخلي، ونداء خارجي يستشعر به الحل من الحرمة وما يرضي المولى ﷻ وما يغضبه، هذا النداء الداخلي هو الفطرة ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[4]، فلو تركنا الناس لفطرهم لألهمهم الله ﷻ السداد والرشاد والصواب ولكن الإنسان كثيراً ما يلوث هذه الفطرة ويلحق بها ما ليس منها. ويصحبه الشيطان ويجري منه مجرى الدم ويزين له ويغويه ويوسوس له ولذلك عندما قال الشيطان لآدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾[5]

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ٣٠ من سورة البقرة.
(٣) الآيات ١٢٣-١٢٦ من سورة طه.
(٤) من الآية ٣٠ من سورة الروم.
(٥) من الآية ١٢٠ من سورة طه.

اغتر آدم عليه السلام بهذا الكلام وبدأت الفطرة يصيبها ما يجعلها تنزع بعيداً عن الصواب ﴿فَأَكَلا مِنْهَا﴾[١]، فابتعدت عن هذا الإحساس الرباني بالرغم من تحذير المولى له، وأمره بأن لا يقرب الشجرة بعينها وقال: ﴿وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾[٢]، ولما شعر آدم عليه السلام بخطئه قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٣]، وهذه القصة بينت لنا طبيعة النفس الإنسانية التي قال عنها ربنا: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[٤]، فالفلاح دائماً في تزكية هذه النفس؛ لأنها كالبذرة تحتاج إلى رعاية وعناية وإلا فسدت وطغت وأهلكت صاحبها.

أما النداء الثاني فهو نداء الشريعة، وهي أوامر الله ﷻ التي تتنزل على الرسل ويبلغونها لأقوامهم هم في نفس الوقت نماذج في طاعة الله ﷻ طاعة مطلقة، والجدير بالذكر أن الرسالات السماوية في بدايتها كانت تشريعات محددة، وكان الناس ينزعون بفطرهم إلى صواب الأعمال؛ لأن هذه الفطر لم تكن قد لُوثت من قبل، ومن هنا انتشرت الأعراف بين الناس، وفي هذه الفترة لم يكن قد اكتمل الأمر بعد فكان الناس يتحاكمون إلى القدر المنزل من الوحي وفي نفس الوقت يرجعون في أحكامهم إلى العادات والتقاليد والأعراف التي تحكم سيرهم.

الفرق بين الشرائع الوضعية والسماوية:

قبل أن نتعرف على المعنى الفقهي والشرعي للعرف، يجدر بنا أن نذكر أهم الفروق الأساسية بين الشرائع الوضعية والسماوية، فهناك شرائع وضعية وضعها البشر تحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وفيما ينظم حياتهم، كما أن هناك شرائع سماوية نزلت من عند الله وحياً وهي الحاسمة في سلوك الناس ولذا وجب الرجوع إليها والاحتكام بها؛ ولذا يجدر بنا أن نشير إلى هذه الشرائع الأرضية الوضعية ونتعرف عليها ونعلم كيف تكونت؟

---

(١) من الآية ١٢١ من سورة طه.
(٢) من الآية ٣٥ من سورة البقرة.
(٣) من الآية ٢٣ من سورة الأعراف.
(٤) الآيات من ٧-١٠ من سورة الشمس.

الشرائع الوضعية -القوانين- في المجتمعات البشرية التي كانوا يسمونها يومئذ المجتمعات البدائية والتي كانت تتكون عادة تدريجياً من صور العادات والأعراف في هذا المجتمع، إلا أنه ولما ارتفعت حياة الأمة وزادت مداركها بدأت بعض هذه الأعراف تقنن أي تصير قانونًا يحكم المجتمع، وبذلك انتقلت من شيوع العرف إلى تقنينه ليصبح قانونًا له السلطة الحاكمة على هذا المجتمع نفسه وذلك بتقنين العادات والتقاليد كنظام آمر يحكم هذا المجتمع البدائي.

ثم ارتقى التشريع بعض الشيء في المجتمع، وكلما نضج هذا المجتمع وازداد علماً وفهمًا وضعت له الأسس القانونية التي تحكمه وتحكم سلوكه في هذا المجتمع نفسه، حتى أصبح العرف قانونًا حاكمًا يحكم، وبذا أصبحت الأعراف نفسها قوانين ثابتة داخل المجتمع نفسه، فإذا سُن قانون وضعي وضع هذه الأعراف في اعتباره بشرط أن تكون هذه أعرافًا حسنة ومعتبرة، أعرافًا جيدة يقرها الجميع؛ ويستبعد العادات والأعراف الفاسدة.

فالشرع بوجه عام في أمة من الأمم ليس إلا صورة صحيحة لحياة المجتمع وللحياة الاجتماعية، فهدف هذا القانون إقامة العدل، وحفظ التوازن بين الحقوق والواجبات، وصيانة حقوق الناس بوجه عام، حتى لا يعتدي أحد على أحد، وهذه القواعد إما أن تكون وقتية غير صالحة للخلود إذا كانت تعبر عن أوضاع خاصة، أو أن تكون صالحة للخلود لها صفة الاستمرار والدوام والسمو.

وليس اختلاف الشرائع بين الأمم إلا تعبيراً عن الاختلاف في الحياة الاجتماعية والاقتصادية وفي الأهداف التي تتجه إليها أو نحوها هذه الحياة، والمُثل العليا التي تستنتجها الأمة من عقيدتها، وهذه كلها أمورٌ تتصل بالقوانين الوضعية، فضلاً عن الأعراف التي يقرها القانون؛ لأنها لا تصطدم بخلق أو قيمة من القيم أو حتى بدين من الأديان، ويستبعد دائماً من القوانين ما يصطدم بعادات الناس وأعرافهم في هذا المجتمع نفسه، ومن هنا كان التشريع الوضعي بوجه عام له ثلاث وظائف: وظيفة علاجية، ووظيفة وقائية، ووظيفة توجيهية، وفي الأمر تفصيل ليس هنا مكانه.

أما الشرائع السماوية فنجدها ثلاثة أنواع:

- **النوع الأول**: يأتي للتقويم الأخلاقي وتصفية النفوس ودعم الفضيلة، وهذا النوع يركز على الجانب الأخلاقي والسلوكي وليس له نظام قانوني، وهذا الذي اشتهرت به الديانة المسيحية.

- **النوع الثاني**: يتضمن نظاماً قانونياً خاصاً ببيئة أو قوم معينين كالشريعة اليهودية الخاصة باليهود، وكانت هذه الشرائع تتناسب مع الظرف الزماني والمكاني الذي كانوا فيه.

- **النوع الثالث**: يتضمن نظامًا قانونيًا مؤسساً على الشمول والعموم والدوام والسمو والكمال وهو نظام «يُصلِح الزمان والمكان»، وهي الشريعة التي جاء بها محمد ﷺ، فقد جاءت إصلاحية لتحقيق أهداف ثلاثة، هي:

١- تحرير العقل من رق التقليد والخرافات.

٢- إصلاح الفرد نفسياً وخلقياً وتوجيهه للخير.

٣- إصلاح المجتمع أي الحياة الاجتماعية الذي يسود فيها العدل والأمن والحرية والكرامة.

ومصادر التشريع للنوع الثالث هي: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وهي المصادر الأساسية التي اتفق عليها الفقهاء وإن اختلفوا في القياس كمصدر أساسي، وهناك مصادر أخرى فرعية منها الاستحسان والمصالح المرسلة ورأي الصحابي والعرف الذي نحن بصدده، وبذلك أصبح العرف مصدرًا من مصادر التشريع.

ما هو العرف؟

العرف لغة: بمعنى الشيء المعروف المألوف المستحسن الذي تتلقاه العقول السليمة بالقبول والذي أشار إليه قول ربنا: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[1].

والأعراف منها الحسن ومنها القبيح، إذ ليس كل ما يعتاده الناس ويتعارفونه

---

(١) الآية ١٩٩ من سورة الأعراف.

ناشئاً عن حاجة صادقة ومصلحة حكيمة يكون الأمر المعتاد وسيلة ميسرة لها.

فقد يعتاد الناس عادات تقوم على جهالات وضلالات موروثة يشقى بها المجتمع وليس فيها ما ينفع كاسترقاق المدين المعسر عند الرومان، وفي جاهلية العرب كوأد البنات، وكدفن الزوجة حية مع زوجها إذا مات عند الهنود الوثنيين، وكدفن نفائس الأموال مع أصحابها الموتى عند قدماء المصريين، فكل هذا وأمثاله عادات وأعراف قبيحة يجب أن تكافح بالتعليم والتشريع، وما أكثر الأعراف القبيحة في زماننا هذا، فهي لا تعد ولا تحصى مثل عدم توريث المرأة وتوزيع الميراث على الرجال، وهذه الأمور كلها لم يعترف بها الإسلام كأعراف، وحين جاء الرسول ﷺ أصبحت هذه كلها أعراف غير معتبرة تماماً، وقد نقل الإسلام الأعراف إلى معان ترتبط بالقيم والمبادئ، فمثلاً نحن نعلم أن هناك قولاً كان يردده الناس في الجاهلية وهو: «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**»، وكانوا يطبقون هذا الكلام بلفظه ينصر أخاه ظالماً أو مظلوماً، وهذا الأمر مازال موجوداً حتى الآن في بعض القبائل والعائلات، وعندما قال الرسول ﷺ: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**» قال الصحابي: يا رسول الله أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قال: «**تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنْ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ**»[١]، فصحح ﷺ العرف الجاهلي الخاطئ إلى سلوك محمود ذو قيمة أخلاقية، كما يقص علينا التاريخ والسيرة أنهم كانوا إذا سرق الغني تركوه وإذا سرق الفقير أقاموا عليه الحد، وهذا عرفٌ جائر ظالم، ولما جاء الإسلام وسطع نوره وبدد ظلمات الجاهلية منع هذه الأعراف ولم يعتد بها بالكلية.

العرف اصطلاحاً: أما العرف في الاصطلاح الفقهي فهو «عادة جمهور قوم في قول أو عمل»[٢].

ويفهم من هذا التعريف أنه لا يتحقق هذا العرف في أمر من الأمور إلا إذا كان مطرداً بين الناس في المكان الجاري فيه، أو غالباً بحيث يكون معظم أهل هذا العرف كل منهم يرعاه ويجري على وفقه كتعارف الناس مثلاً في الشام أن المهر الذي يسمى

---

(١) رواه البخاري في صحيحه.
(٢) المدخل العام لمصطفى الزرقا ج١ ص١٣٠.

للمرأة في عقد النكاح يكون ثلثاه معجلاً وثلثه مؤجلاً.

ولذا يجب أن يتحقق في تكوين العرف اعتياداً مشتركًا بين الجمهور، وهذا لا يكون إلا في حالة الاطراد أو الغلبة على الأقل، وإلا كان تصرفاً فردياً لا عرفاً بين الناس.

شأن العرف بين مصادر الأحكام:

في الحياة الاجتماعية التي لدى الأفراد الذين لا شريعة عندهم تكون الأعراف والعادات هي الشريعة التي يحتكم إليها، ولما كانت بعض الأعراف قد تكون في ذاتها حسنة عادلة أو قبيحة جائرة؛ كان من الطبيعي أن تأتي الشرائع لتقر العرف الحسن وتنهى عن القبيح.

والجدير بالذكر أن علماء القانون الوضعي يعتبرون مصادرهم خمسة: العرف والدين وآراء الفقهاء وشراح القوانين واجتهاد القضاء أي أحكام المحاكم وقواعد العدل والإنصاف.

ولذلك فإن العرف والعادات كانا مصدراً من أهم المصادر للقوانين الوضعية فيستمد منها واضعوها كثيراً من الأحكام المتعارفة ويبرزونها في صورة نصوص قانونية، ونلاحظ أن للأحكام التي تستمد من قواعد العرف ميزتين:

الأولى: إن الناس يكونون على علم سابق بها في معاملاتهم فيقل اختلافهم؛ لأن جهل الناس بالأحكام يولد المشكلات بينهم، أما حين يكون مستمدًا من العرف يتقبلونه بسهولة.

الثانية: إن تلك الأحكام تكون مألوفة مستساغة ومقبولة؛ لأنهم اعتادوها قبل أن تصبح قانوناً.

ولقد جاءت الشريعة الإسلامية فأقرت كثيراً من التصرفات والحقوق المتعارفة بين العرب والإسلام، وهذبت كثيراً من الأعراف ونهت عن كثير فكانوا يقولون: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» فجاء الإسلام وصحح هذا المفهوم كما بينا من قبل، وكما أتت بأحكام جديدة استوعبت بها تنظيم الحقوق والالتزامات بين الناس في حياتهم الاجتماعية على أساس وفاء الحاجة والمصلحة والتوجيه إلى أفضل الحلول والنظم؛ لأن الشرائع الإلهية إنما تبغي بأحكامها المدنية تنظيم مصالح البشر وحقوقهم

فتقر مما تعارف عليه الناس ما تراه مناسبًا لغايتها وملائمًا لأسسها وأساليبها.

أهم القواعد الفقهية في العرف هي:

١-العادة محكّمة: أي أن العرف يصبح حاكماً في إثبات الأحكام الشرعية والالتزامات بين الناس ويلزمهم بها قضاء.

٢-الحقيقة تترك بدلالة العادة: والحقيقة هنا يراد بها المعنى الأصلي للفظ في مقابل المعنى المجازي، أي أن ألفاظ الناس في أقوالهم وتصرفاتهم تُحمل على معانيها المتعارفة بينهم، لا على معانيها الحقيقية في أصل اللغة.

٣-المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً.

٤-لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان.

٥-استعمال الناس حجة يجب العمل بها.

العرف في الفقه الإسلامي:

وللعرف في الفقه الإسلامي اعتبار شرعي، والاجتهادات الفقهية في الإسلام متفقة على هذا الاعتبار للعرف، وإن كان بينها شيء من التفاوت في حدوده ومداه.

وهو-أي العرف- في نظر بعض الفقهاء دليل شرعي كافٍ في ثبوت بعض الأحكام الإلزامية والالتزامات التفصيلية بين الناس حيثما لا دليل سواه. «أما إذا عارض العرف نصاً تشريعياً آمراً بخلاف الأمر المتعارف ففي اعتبار العرف وعدمه وفي محل الاعتبار ودرجته تفصيل لا يتسع له المقام»[1].

وغني عن البيان أن ما بُني من الأحكام على العرف يتبدل بتبدل العرف؛ ولذا وضعت القاعدة: «لا ينكر تغير الأحكام بتغير الزمان»، ولكن متى يكون للعرف هذا السلطان؟

شرائط اعتبار العرف:

لكي يكون للعرف سلطان يجب أن تتوافر فيه شرائط:

١-أن يكون العرف مطرداً غالباً كما ذكرنا.

---

(١) المدخل العام لمصطفى الزرقا ص١٣٥.

٢-ألا يعارض العرف نصًا شرعيًا أو أصلاً قطعيًا في الشريعة يكون العمل بالعرف تعطيلاً له.

فالنصوص التشريعية يجب أن تفهم بحسب مدلولاتها اللغوية والعرفية في عصر صدور النص؛ لأنها هي مراد الشارع ولا عبرة لتبديل الألفاظ في الأعراف الزمنية المتأخرة وإلا لم يستقر للنص التشريعي معنى.

فمثلاً لفظ (في سبيل الله) في آية مصارف الزكاة ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[1] له معنى عرفي إذ ذاك وهو مصالح الجهاد الشرعي، أو سبل الخيرات مطلقاً على اختلاف بين العلماء في ذلك، ولفظ (ابن السبيل) معناه العرفي هو من ينقطع من الناس في السفر، فإذا تبدل عرف الناس، فأصبح مثلاً يعني (في سبيل الله) طلب العلم خاصة (وابن السبيل) الطفل اللقيط الذي لا يُعرف له أهل فإن النص التشريعي يظل محمولاً على المعنى العرفي الأول عند صدوره ومعمولاً به في حدود ذلك المعنى؛ لأنه هو مراد الشارح ولا عبرة للمعاني العرفية أو الاصطلاحات الحادثة بعد ورود النص.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن العرف إذا كان مخالفًا لبعض الأدلة الشرعية من نصوص الشريعة أو من قواعدها وأحوالها فالمبدأ العام الذي يستخلص من أقوال الفقهاء الباحثين إجمالاً، هو أنه إذا ترتب على العمل بالعرف تعطيل لنص شرعي أو أصل قطعي في الشريعة لم يكن عندئذ للعرف اعتبار؛ لأن نص الشارع مقدم على العرف.

وأما إذا لم يترتب على العرف هذا التعطيل بل كان مما يمكن تنزيل النص الشرعي عليه أو التوفيق بينهما فالعرف عندئذ معتبر وله سلطان محترم فمثلاً عرف التبني في الجاهلية لا اعتبار له لاصطدامه بنص قرآني هو قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾[2]، «وكذلك الخمر والربا، وزواج الشغار»[3] وكل ما كان عرفًا سائدًا عند العرب وجاء القرآن بمنعه.

---

(١) من الآية ٦٠ من سورة التوبة.
(٢) من الآية ٥ من سورة الأحزاب.
(٣) هو أن يتفق شخصان فيزوّج كل منهما الآخر قريبته فتكون كمهر للأخرى، وبعضهم إذا ماتت إحدى المرأتين يستعيد زوجها قريبته من عند الآخر حتى يزوجه امرأة أخرى بدلاً من التي ماتت فكأنه ضامن لحياتها.

تقسيم العرف:

العرف إما أن يتعلق باستعمال بعض الألفاظ في معان بتعارف الناس على استعمالها فيها، وإما أن يتعلق باعتياد أنواع من الأعمال أو المعاملات.

ومن هنا انقسم العرف من حيث موضوعه ومتعلقه إلى نوعين:

١-عرف لفظي.

٢-عرف عملي.

ومن جهة أخرى فقد يكون العرف موضوعه عامًا فاشيًا في جميع البلدان، بين جميع الناس من أرباب الأعمال أو الصنائع أو العلوم دون سواهم، وهو من هذه الناحية ينقسم إلى نوعين أيضًا:

١-عرف عام.

٢-عرف خاص.

والذي يهمنا هو العرف اللفظي الذي أشار إليه الإمام البنا.

العرف اللفظي: النظر الفقهي في حكم هذا العرف ومدى سلطانه أن كل متكلم يُحمل كلامه على لغته وعُرفه فينصرف إلى المعاني المقصودة بالعرف حين التكلم، وإن خالفت المعاني الحقيقية التي وضع لها اللفظ في أصل اللغة؛ ذلك لأن العرف الطارئ قد نقل تلك الألفاظ إلى معانٍ أخرى صارت هي الحقيقة العرفية المقصودة باللفظ في مقابل الحقيقة اللغوية.

ولذلك أعيد على مسامعك ما قاله الإمام البنا ليتضح لك المقصود، يقول رحمه الله: **«والعرف الخاطئ لا يغير من حقائق الألفاظ الشرعية بل يجب التأكد من حدود المعاني المقصود بها والوقوف عندها كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظي في كل نواحي الدنيا والدين فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء»**

العبرة بالمسميات لا بالأسماء:

ولذلك وجب الاحتراز من الخداع اللفظي في كل نواحي الدنيا والدين -كما قال الإمام البنا-؛ ذلك لأنه من الخطورة بمكان أن تعوَّد أعداء الإسلام أن يستخدموا

مصطلحات يزرعونها ويشيعونها بين الناس حتى تصبح أعرافًا بينهم، وهي مصطلحات خادعة براقة مهلكة يخدعون بها المسلمين باستخدام ألفاظ غير مقبولة، بل منهي عنها -في اللغة- معنى حسن، بينما معناها في الشرع مرفوض غير مقبول بل منهي عنه وإليك أمثلة على ذلك.

المشروبات الروحية معناها اللغوي غير معناها المقصود لديهم وهي الخمور بأنواعها، أو ما يطلقون عليه الفن الرفيع وهو فن رخيص مبتذل يثير الغرائز في الإنسان ويبعده عن الله تعالى، فماذا لو سميت الأقرع «أبو شعر»؟ فهل هذا الاسم يغير من حقيقته أنه أقرع؟ وكذلك لو سميت الأعمى «أبو العيون» والكسيح «أبو سريع» لا يغير ذلك من المسميات شيئًا.

وقس على ذلك الكثير، وإليك بعض ما شاع بين الناس:

الفائدة ويقصدون الربا، واليانصيب الخيري ويقصد به الميسر، والقيم الروحية ويقصدون وحدة الأديان سواء أكانت سماوية أو وضعية ليتميع الإسلام، والروح الجامعية ويقصد بها اختلاط الرجال بالنساء، والعمولة ويقصد بها الرشوة في الغالب الأعم، والتطرف ويقصد به التمسك بالإسلام، والتقدم والحضارة ويقصد بهما أهل الغرب والشرق اللاديني والعلمانية وترك منهج الله، وفي هذه الأيام كثرت المصطلحات الخبيثة والمنحرفة بقصد تضليل المسلمين بل الناس أجمعين، فمثلاً يُطلقون مصطلح زواج المثلية ويُقصد به فعل قوم لوط وانتشار الفاحشة، وهكذا؛ ولذلك قال العلماء: لو صرف كلام المتكلم إلى حقيقته اللغوية دون العرفية التي هي معناه في عرف المتكلم لترتب عليه إلزام المتكلم في عقوده وإقراره وحلفه وسائر تصرفاته القولية بما لا يعنيه هو ولا يفهمه الناس من كلامه.

وقد استمد العلماء القواعد الفقهية في الأعراف والتي أشرنا إليها من قبل كالعادة محكَّمة، والمعروف عرفاً كالمشروط شرطاً، ولا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان، وغير ذلك من القواعد التي ذكرناها. وهناك بعض الأمور التي تفرعت من هذه القواعد ومنها على سبيل المثال تقسيم المهر إلى معجَّل ومؤجَّل إذا لم يبين في العقد يُرجع للعرف، فهذا أمر راجع للأعراف نفسها، فالأصل أن المهر يدفع كله

مقدماً وجرت العادات على تقسيمه وهذا لا يصطدم بنص ولا يخالف الشرع، فهذا التقسيم يرجع للأعراف فلا بأس به ولا شيء فيه وتكون العادة هنا محكَّمة.

أيضًا تقسيم ثمن البيع إذا لم يصرح به في التعاقد لا شيء فيه إذا كان راجعًا إلى العادات والتقاليد والأعراف في المجتمع، وأيضًا العيوب التي وجدت في السلعة نفسها هل تفسخ العقد أم لا؟ هذا يرجع أيضًا للأعراف نفسها، وكيفية حفظ الوديعة والاتفاق على حفظها هذا أمرٌ حكم التقصير فيه يرجع إلى الأعراف الموجودة بين الناس إن كان مقصراً أو غير مقصر، كل هذه الأمور تعود إلى الأعراف، ولهذا المعنى قال فيه ابن مسعود: «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن».

أيضًا وضع الفقهاء المبدأ العام القائل: « يحمل كلام الحالف والناذر والموصي والواقف وكل عاقد على لغته وعرفه وإن خالف لغة العرب ولغة الشارع»[1] يُحمل الكلام على نفس المعنى الذي عنده هو.

مثلاً[2]: لو حلف الإنسان ألا يضع قدمه في دار فلان، انصرفت اليمين إلى معنى دخول الدار؛ لأنه المعنى العرفي لا إلى مجرد وضع القدم الذي هو الحقيقة اللغوية فلو دخلها راكبًا دون أن تمس قدمه أرضها يحنث في يمينه شرعًا وتجب عليه الكفارة، ولو مد رجله من خارجها فوضعها فيها دون أن يدخل لا يحنث.

مثال آخر: إذا تعارف الناس على إيقاع الطلاق بلفظ «أنت طالق »، أو الظهار « أنت على كظهر أمي» بألفاظ وتعابير جديدة فشى استعمالها بينهم فإنه يقع بها، ولو كانت في أصل اللغة لا تقتضي الوقوع كلفظ «**عليّ الطلاق**» الذي يستعمله الرجال في هذا الزمان عند إرادة التطليق مع أن الطلاق وصف يقع على المرأة التي هي محله شرعًا لا الرجل.

ويتضح من ذلك أن العرف اللفظي بوجه عام تنشأ به لغة جديدة تكون هي المعتبرة في تنزيل كلام الناس عليها، وتحديد ما يترتب على تصرفاتهم القولية من

---

(١) مجموعة رسائل ابن عابدين نقلاً عن فتاوى العلامة قاسم ٢/ ١٣٣ ومن كتار المدخل العام لمصطفى الزرقا ج٢ ص٨٥٣.

(٢) الأمثلة من كتاب المدخل العام لمصطفى الزرقا ص٨٥٣.

حقوق وواجبات بحسب المعاني العرفية، وبالنسبة للغة العامية يحمل كلام الناس فيها على معناه المتعارف عليه بينهم -فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء- وقد يختلف المعنى من بلد لآخر، فمثلاً في اليمن المال يسمى «زلط» فإذا أقسم إنسان وقال: «والله لابد أن تأخذ الزلط»، أو يحكم بين اثنين ويقول من حقك:«أن تأخذ الزلط»، فالزلط عندنا هو الزلط المعروف-نوع من الحجارة- أما عندهم فيعني المال فيحمل الكلام على معناه العرفي عند الحالف أو الناذر أو الذي يحكم بحكم، وهذه كلها واضحة جداً لدى بعض القبائل التي لها ألفاظ وكلمات تختلف اختلافًا كلي وجزئي عما نفهمه نحن؛ ولذا يُصرف على مفهوم اللفظ عند القوم، ولكل مكان عرفه الخاص في التخاطب فيجب أن تنضبط الأعراف بضوابط الشرع الحكيم.

منع التحايل:

بعض الناس تشيع بينهم أعراف ظاهرها يبدو وكأنه عمل مشروع، ولكن في الحقيقة يقصد به إسقاط واجب أو ارتكاب الحرام ليكون حلالاً في الظاهر أمام الناس أو المستمع إليه.

وإليك بعض الأمثلة[1] أيضًا ليزداد الأمر وضوحًا بها:

١-البيع مثلاً له مقاصد ومصالح هي حاجة المشتري إلى السلعة وحاجة البائع إلى الثمن، فإذا باع شخص سلعة بعشرة قروش إلى أجل ثم اشتراها نفس البائع قبل الأجل بخمسة نقدًا، هذا البيع يحقق مفسدة وقد استخدم الخداع اللفظي فيه بكلمة البيع بينما الحقيقة هي الإقراض بالربا بينما يراد من هذا البيع التحايل وهو عين الحرام.

٢-الهبة مشروعة لما لها من مقاصد كريمة، ولكن إذا وهب شخص ماله في آخر الحول هربًا من الزكاة فإن الهبة في هذه الحالة لا تحمل إلا اسمها؛ لأنها لم تحقق الغرض منها ولكن مآل هذه الهبة المنع من الزكاة وهي مفسدة إن قصد بها ذلك.

٣-عقد الزواج ينعقد بالألفاظ -الإيجاب والقبول- وهي الصيغة، والألفاظ وهي المعبرة عن الرضا، ولكن إذا قصد بالألفاظ غير ما وضعت له فإن الرضا بالعقد يكون

---

(١) نظرية المصلحة في الفقه الإسلامي د.حسين خالد، طبعة ١٩٧١م، ص ٢٦٩وما بعدها.

منعدمًا، وعلى ذلك فإن المحلل يقول نفس الألفاظ بعينها ولكن الألفاظ في هذه الحالة لا تكون سببًا لترتب الآثار عليها إلا إذا كان القصد منها معناها وموجبها، فلفظ النكاح لم يوضع ليحلل مطلقة وإنما هو لدوام العشرة وحفظ النسل وغير ذلك من المقاصد الكريمة.

وعلى ذلك إذا كان ظاهر الفعل موافقاً للشرع والمصلحة مخالفة له فالفعل غير صحيح وغير مشروع؛ لأن الأعمال الشرعية ليست لذاتها وإنما قصد بها أمور هي المعاني والمقاصد التي شرعت لها، فالألفاظ لا عبرة بها إذا لم توافق المعاني الشرعية التي قصدها الشارع.

وهكذا يطهر باطنه وتصحح نيته ويتقبل الله قوله حتى ولو خالف المعنى الذي يقصده -دون قصد- كالذي كاد أن يهلك في الصحراء بعد أن فقد راحلته فلما وجدها فإذا به من شدة فرحه يقول: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك» -من سعادته الغامرة- وهو يقصد أن يقول: «اللهم أنت ربي وأنا عبدك»، فالعبرة بالمقاصد وعلى المسلم أن يطهر قوله كما يطهر فعله حتى يصبح ظاهره كباطنه ويستشعر قول الله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1].

* * *

(١) الآية ١٨ من سورة ق.

مردود الأصل السادس عشر

أولاً- حصيلة العقل:

أ- اختر الإجابة الصحيحة (من الممكن أن تكون أكثر من إجابة صحيحة):

١- يهدف أي قانون حتى لو كان وضعيًا إلى:

أ	إقامة العدل.	ب	حفظ التوازن بين الحقوق والواجبات.
ج	صيانة حقوق الناس	د	لا شيء مما سبق

٢- من الأديان السماوية التي جاءت بنظام قانوني:

أ	اليهودية	ب	المسيحية
ج	الإسلام	د	جميع ما سبق

٣- من القواعد الفقهية المرتبطة بالعرف:

أ	العادة محكمة	ب	الضرورات تبيح المحذورات
ج	الحقيقة تترك بدلالة العادة	د	المعروف عرفًا كالمشروط شرطًا

ب- ضع (أ) أما العبارة الصحيحة و (ب) أمام العبارة الخطأ فيما يلي:

٤	عند وضع القوانين يوضع في الاعتبار الأعراف سواء كانت صالحة أو فاسدة.	
٥	للتشريعات الوضعية وظيفة وقائية.	
٦	يعد العرف أحد مصادر التشريع المتفق عليها عند علماء المسلمين.	
٧	من شروط اعتبار العرف أن يكون غالبا بين الناس.	
٨	من المقبول الاكتفاء بفهم المصطلحات في ضوء معناه اللغوي الدقيق.	

قارن إجاباتك بالإجابات النموذجية في آخر مردود الأصل، وأعط نفسك درجة لكل إجابة صحيحة وصفرًا للإجابة الخاطئة.

أكثر من ١١	٩-١١	٨	٦-٧	أقل من ٦
ممتاز	جيد جدًّا	جيد	متوسط	ضعيف

ثانيًا- رصيد القلب:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	أعتقد أنه من الضروري فهم المصطلحات في ضوء خلفياتها الثقافية.					
٢	أحب أن تسمى الأشياء بمسمياتها.					
٣	لا يغيب عني أن للعرف دور كبير في وضع التشريعات					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٠	٩-١٠	٧-٨	٦	أقل من ٦
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثالثًا- حساب الجوارح:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	أبين لمن حولي أن للعرف دور في وضع التشريعات.					
٢	احرص على فهم المصطلحات في ضوء خلفياتها الثقافية.					
٣	أوضح لمن حولي أن العبرة بمسميات الأشياء وليس بأسمائها.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٠	٩-١٠	٧-٨	٦	أقل من ٦
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

إجابات حصيلة العقل (١٦)

السؤال	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨
أ	✓	✓	✓		✓		✓	
ب	✓			✓		✓		✓
ج	✓	✓	✓					
د			✓					

الأصل السابع عشر

عمل القلب وعمل الجارحة

« والعقيدة أساس العمل، وعمل القلب أهم من عمل الجارحة، وتحصيل الكمال في كليهما مطلوب شرعًا، وإن اختلفت مرتبتا الطلب» .

هذا الأصل يعالج:

١-العقيدة أساس العمل.

٢-عمل القلب وعمل الجارحة.

٣- تحصيل الكمال في كليهما مطلوب.

ما هي العقيدة؟

هي التصديق بالشيء والجزم به دون شك أو ريبة، فهي بمعنى الإيمان. يقال: «أعتقد في كذا أي أومن به، والإيمان بمعنى التصديق، يقال: آمن بالشيء أي صدق به تصديقاً لا ريب فيه ولا شك معه»[(١)].

وعلى هذا فهي ما بلغه الرسول ﷺ من الحقائق المتعلقة بالغيب مثل الوجود الإلهي وثبوت صفات الكمال المطلق للذات الإلهية، وثبوت الوحي والبعث وعالم الملائكة والجن وغير ذلك مما بلغه رسول الله ﷺ متصلاً بالاعتقاد.

وهي رأس التدين وأساسه وكل ما سواها من الأعمال مبني عليها وتابع لها؛ ولذلك فإن صلاح الأعمال رهين بحسن الاعتقاد، فلا يكون المسلم مسلماً حقاً إلا إذا صح اعتقاده أولاً وصدق اتباعه؛ لأن العقيدة هي الركن الركين والأساس المتين والصراط المستقيم الذي عليه يقام صرح الإسلام العظيم، فبدونها لا تقام أركانه، ولا يستوي نظامه، ولا تقبل أعماله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[(٢)].

فكلمة [لا إله إلا الله محمد رسول الله] هي الكلمة الوحيدة التي يعصم المرء بها دينه وماله وعرضه، وهي الكلمة الوحيدة أيضًا التي ترفع الإنسان من حضيض الجحيم إلى أعلى درجات النعيم، وهي التي يدخل بها المرء في عداد المؤمنين ويكون أخاً لكل المسلمين، وهي الكلمة التي جُعلت عنوان الإيمان وشرط الإسلام، وهي الكلمة المحببة إلى قلب كل مؤمن، وهي التي يقول فيها الرسول الأعظم ﷺ: «وَخَيْرُ مَا

(١) العقائد الإسلامية، الشيخ السيد سابق، ص٨.

(٢) من الآية ١١٠ من سورة الكهف.

قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»(١).

إن المؤمن بالله بخير ما صحت عقيدته فيه، وصح إيمانه به، فأسلم وجهه لله وهو محسن، إنه حينئذ يراه مالك الأمر كله، الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، وهو سبحانه الذي يقدر على النفع والضر والعطاء والمنع، وليس لأحد مهما كان سلطانه وجبروته أن يملك ذلك، فهو سبحانه الذي يجير ولا يجار عليه ولا يرجى غيره ولا يخاف سواه، وهو سبحانه الذي يوثق في نصره وعونه وتأييده، وبهذا التصور يتميز رجل العقيدة عن غيره.

ولم تحرز العقيدة هذا الفضل إلا لكونها تقرر معنى الربوبية وتثبت معنى الألوهية، وهما حق الله تعالى فتثبتهما لله وحده، وتنفيهما عمن سواه كائناً من كان، ومن هنا وجب على قائلها فهم معناها والعمل بمقتضاها وإلا حرم هذا الفضل.

ولا تقوى هذه العقيدة في القلوب ولا تضرب بجذورها في أعماق الفؤاد إلا بمعرفة الله تعالى وتقديره حق قدره؛ ولذلك دعا المولى عباده إلى معرفته بما أنزل من آيات، وما نصب من علامات وآياته التنزيلية والكونية تدل على وجوده سبحانه.

وإذا كان المولى يدعو خلقه إلى معرفته، فإن الغرض من ذلك ليس هو مجرد المعرفة السطحية فحسب، فإن هذه المعرفة السطحية قلّ من ينكرها، فقد أقر بها كثير من أهل الملل والنحل: **﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾**،(٢) **﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾**(٣).

أثر معرفة الإله:

«إن الغرض من معرفة رب العالمين تأليهه دون سواه، فمن عرف ربه وجب عليه تأليهه بالالتجاء إليه، والتوكل عليه والرغبة إليه، والرهبة منه بطاعته وتقواه وبحبه الشديد وابتغاء رضاه بصرف جميع أنواع العبادات له وحده لا شريك له»(٤).

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) الآية ٩ من سورة الزخرف.
(٣) من الآية ٨٧ من سورة الزخرف.
(٤) رسائل الجزائري.. الشيخ أبو بكر جابر الأنصاري ص١٧.

فمعرفة الله تستلزم عبادته، ومن كان أكثر معرفة كان أشد خشية وأكثر إنابة، وفي هذا المعنى يقول الرسول ﷺ: «إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»[١] والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٢].

فالأعمال الصالحة والخشية الصادقة لا تكون إلا نتيجة إيمان عميق بالله ومعرفة حقة به، وكلما زادت المعرفة وقويت ازدادت الطاعة وكثر العمل الصالح، فدعوة الرسل هي الدعوة إلى عبادة الله وإفراده بالعبادة مع الدعوة إلى معرفة الله؛ لأن من لم يعرف الله لا يعبده، فمن الطبيعي أن تسبق الدعوة إلى الله الدعوة إلى معرفته ﷻ؛ لأنها ضرورة لازمة لها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٣].

فلابد لمن عرف أنه لا إله إلا الله أن يعبد الله كما أمره أن يعبده، وإلا فلا قيمة لاعترافه بأن الله هو الإله الحق وما عداه باطل، فمعرفة الله تستوجب عبادته وطاعته في كل صغير أو كبير.

أولى ثمرات المعرفة عمل القلب:

للعلم بلا إله إلا الله ثمرات طيبة ونتائج حسنة، فالله ﷻ يخاطب نبيه ﷺ بقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾[٤]، وفي ذلك إشارة إلى وجوب المعرفة وإلى ثمرة المعرفة المترتبة على ذلك العلم الكامل النافع، والقرآن الكريم يقرر هذا المعنى نفسه تقريراً واضحاً، إذ يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٥]، فقد قصر صفة الخشية الحقة الكاملة على صنف من عباده وهم العلماء بالله، العارفون بربهم إذ إن العمل أو القول لا يمكن أن

---

(١) انظر فيض القدير.
(٢) من الآية ٢٨ من سورة فاطر.
(٣) الآيتان ٢١، ٢٢ من سورة البقرة.
(٤) الآية ١٩ من سورة محمد.
(٥) من الآية ٢٨ من سورة فاطر.

تنتج عنهما أية نتيجة صالحة مالم يصحبهما العلم الكامل الذي يكون سبباً فيما يثمر من ثمرات طيبة ونتائج حسنة.

فلا إله إلا الله لا يمكن أن تثمر في قلب قائلها الخشية والتقوى والكمال النفسي والسمو الروحي إلا إذا صاحبها العلم بمعناها والمعرفة التامة لما تضمنته من نفي وإثبات، يحقق الإخلاص بكلمة الإخلاص التي لا تزال طريق الوصول إلى زكاة النفس وطهارة الروح ما صاحبها من العلم بمعناها والعمل بمقتضاها؛ ولذلك كانت الكلمة التي يقول فيها الرسول ﷺ: «**وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**».(١)

إن لكل غرس طيب في تربة طيبة ثمرات طيبة، ولا إله إلا الله إذا ثبتت جذورها في قلب المؤمن بالله وبما جاء عن الله، وسقيت بمعين المعرفة فإنها تثمر -ولا شك- وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾(٢).

لذلك كان من ثمرات لا إله إلا الله: الخشية والخوف من الله ﷻ، فصاحبها لا تعرف المعاصي والذنوب إليه سبيلاً، ما دام الوازع في نفسه يحمله كلما ذكر الله تعالى على الابتعاد عن اقتراف الدنايا واجتراح السيئات، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**﴾(٣).

فالذاكر [لا إله إلا الله] العارف بمعناها تثمر له هذه المعرفة في قلبه الشجاعة فهو لا يعرف الخوف أياً كان مصدره إلا من الله، ومن الله فحسب فلا يرهب موتاً ولا يخاف فقراً ولا يكترث برزايا ولا يأبه بمحن، يجاهد نفسه في الله ويحيا من أجل الله، يفضل الموت على الحياة حباً في لقاء الله وبذلك يحقق التقوى.

«فالتقوى من أوضح الأدلة على معرفة المرء للا إله إلا الله وتفهمه لمعناها، فإن

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) الآيتان ٢٤،٢٥ من سورة إبراهيم.
(٣) من الآية ٤٥ من سورة العنكبوت.

من عرف أن له رباً قادراً على عذابه والانتقام منه إن عصاه، وقادرًا على رحمته وتكريمه إن أطاعه واتبع هداه، فإنه يلزم نفسه دائماً بالعمل على طاعته واجتناب معاصيه؛ لأنه خاف الجليل وعمل بالتنزيل ورضي بالقليل واستعد ليوم الرحيل، فكان عابدًا لله حق عبادته، عالماً بسر العبودية وغايتها وحكمتها؛ لأنه عرف معنى الألوهية وحقيقتها؛ فعبد الله؛ لأن العبادة موجب ألوهيته ﷻ وأثرها ومقتضاها»[١].

ولذلك فإن مفهوم الإيمان والعقيدة ينتظم:

أولاً-المعرفة بالله، والمعرفة بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، والمعرفة بدلائل وجوده ومظاهر عظمته في الكون.

ثانياً-المعرفة بعالم ما وراء الطبيعة أو العالم غير المنظور، وما فيه من قوى الخير التي تتمثل في الملائكة، وقوى الشر التي تتمثل في إبليس وجنوده، والمعرفة بما في هذا العالم أيضًا من جن وأرواح.

ثالثاً-المعرفة بكتب الله التي أنزلها لتحديد معالم الحق والباطل، والخير والشر والحلال والحرام والحسن والقبيح.

رابعاً-المعرفة بأنبياء الله ورسله الذين اختارهم ليكونوا أعلام الهدى وقادة الخلق إلى الحق.

خامساً-المعرفة باليوم الآخر، وما فيه من بعث وجزاء وثواب وعقاب وجنة ونار.

سادساً-المعرفة بالقدر الذي يسير عليه نظام الكون في الخلق والتدبير.

وهذا هو مفهوم الإيمان، وهي عقيدة واحدة جاء بها كل الرسل لا تتبدل ولا تتغير زماناً ومكاناً ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[٢]، وما وصى به هو أصول العقائد وقواعد الإيمان وليس فروعه وشرائعه؛ لأن المولى ﷻ يقول: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[٣].

---

(١) المرجع السابق بتصرف ص٣٦.
(٢) من الآية ١٣ من سورة الشورى.
(٣) من الآية ٤٨ من سورة المائدة.

بصائر في جانب العقيدة:[١].

أول ما عني القرآن في مكة عني ببناء العقيدة وتصحيحها فعمل على تثبيت العقيدة الصحيحة وترسيخها قبل أن يعمل على بيان الأحكام الشرعية وتوضيح الأمور الفرعية.

وفي هذا تقول السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وهي تتحدث عن نزول القرآن الكريم: «إنما نزل أول ما نزل منه سور المفصل، فيها الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبداً»[٢].

ومن هنا فإن المعول على العقيدة ليس علمها فحسب بل هو عملها؛ لأنه الوازع أو الباعث الداخلي الذي يزعه عن الخطأ بعد تعرفه على خالقه، وهو الوازع الداخلي الذي يمنعه من الوقوع في المعاصي والآثام، فلابد أن نفرق بين مقام الدعوة والتعليم وهذا أمر مطلوب، ولكن الأهم هو مقام الفهم والتطبيق، إذ إن العقيدة أساس العمل.

والعبرة في فقه الداعي في معالجة أمور العقيدة مشاكل عصره وزمانه، فلا ينفصل عن الواقع الذي يعيشه وإلا أصبح في واد والمدعوين في وادٍ آخر.

فحين نشأ اتجاه تقديم العقل على النقل عند بعض المسلمين في العصور الأولى كان همّ العلماء والمصلحين في تلك العصور مُركّزاً على معالجة هذا الأمر، ودحض الشبهات المؤدية إليه أكثر من تركيزهم على مسائل عقدية أخرى، ويوم ظهر موضوع المحنة (بالقول بخلق القرآن) انصرف العلماء إلى معالجته ورد شبهاته وجعلوه أولوية لازمة في عصرهم وتحملوا ما تحملوه من أجله.

وهكذا فعل العلماء والمصلحون يوم برز اتجاه الإرجاء والتعطيل وما إلى ذلك من اتجاهات عقدية فاسدة، فأنزلوا موضوع التصدي لها ومناقشتها المنزلة الأولى من اهتماماتهم، وقدموا تلك المسائل على غيرها من المسائل العقدية الهامة الأخرى.

---

(١) تعقبه من بصائر دعوية، د.محمد أبو الفتح البيانوني ص ١١.

(٢) رواه البخاري باب تأليف القرآن حديث رقم ٤٩٩٣.

حاجتنا اليوم للعقيدة:

واليوم حيث تبرز اتجاهات الإلحاد والعلمنة والتحاكم لغير شرع الله، فتكون البصيرة الدعوية التركيز عليها أكثر من غيرها، ولا يجوز لنا بوجه من الوجوه أن نُشغل عنها بجزئيات عقدية مهما كانت مهمة وإلا نكون كمن يشغل بالجزئيات عن الكليات والفرعيات عن الأساسيات أو يشغل بمسائل تاريخية عن مسائل واقعية معاصرة، ومسائل نظرية عن مسائل عملية، وهكذا فإن لكل عصر أولوياته وقضاياه، ولكل زمان مشكلاته وشبهاته، ولكل حال مقتضياتها ومتطلباتها.

وحذار من تقرير العقيدة وتعليمها للناس بالأساليب الكلامية والمناهج الفلسفية التي صيغت بها كثير من كتب العقائد في عصور سابقة، وأن تقدم العقيدة إلى الناس بمنهج القرآن بنصوصه القرآنية والأحاديث النبوية التي عرضت بها في الصدر الأول، وليس اعتمادها على أساليب علم الكلام والمنطق التي كانت سائدة في بعض العصور السابقة ومقبولة سائغة من قبل أهل تلك العصور.

بل لابد من المزج بين العقل والعاطفة والحكم والأثر.

يقول ابن القيم: إن للا إله إلا الله قلب وقالب: قالبها علمها، وهذا يجتمع فيه المؤمن والكافر على حد سواء، أما قلبها فعملها وأثرها، وهذا الذي يميز المؤمن عن الكافر.

سمات منهج الإخوان في عرض العقيدة:

أولاً-اهتم الإمام البنا بتقديم العقيدة بمنهج القرآن والسنة المطهرة والسلف الصالح بعيداً عن اصطلاحات الجدليين والكلاميين.

وفي ذلك يقول الإمام البنا: «لن ألجأ إلى المصطلحات الفنية التي تواضع عليها العلماء المختصون بعلم الكلام ولا النظريات الفلسفية، ولا الأساليب المتعمقة التي درج عليها المتكلمون، ولكن سألجأ إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة وما عرفنا من سيرة الصدر الأول».

ثانياً-الاهتمام ببيان أثر العقيدة في النفوس كما وضح ذلك في قصة أصحاب

الأخدود وأم موسى وسحرة فرعون وهاجر والغزوات مثل: حمراء الأسد - الخندق... إلى غير ذلك من القصص القرآني الذي يرمي إلى تعميق العقيدة في النفوس.

ثالثاً-اعتماد طريقي المعرفة النقلية والعقلية، فالنقلية مصدرها الوحي بشقيه الكتاب والسنة، أما العقلية فمصدرها الكون بشقيه الطبيعي والبشري وفق قاعدة: موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ودرء تعارض العقل والنقل كما ذكرنا في الأصل التاسع عشر.

رابعاً- الأخذ بمبدأ الشمول عقيدة وشريعة.

خامساً-البعد عن تكفير الأفراد أو المجتمع إلا بعد إقامة الحجة الشرعية. والذي يهمنا هو دعوة الناس لا الحكم عليهم، فنحن دعاة ولسنا قضاة.

سادساً-عدم مفاتحة العامة في مسائل الأسماء والصفات؛ لأن الصحابة رضوان الله عليهم لم يعرفوا ذلك ولم يتكلموا فيه.

وبتعمق وتدبر في فهم الأصول العشرين تجد أن في:

الأصل الأول: النظرة الشمولية من خلال العقيدة.

الأصل الثاني: بيان الأصلين اللذين نستقي منهما العقيدة والأخلاق والعبادة والتشريع، وهما الكتاب والسنة الصحيحة.

الأصل العاشر: أنواع التوحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

الأصل الرابع والحادي عشر والرابع عشر: ذكر ما يخل بتوحيد العبادة.

في الأصل الثالث والسابع عشر: أثر العقيدة في النفوس وارتباط العقيدة بالعمل.

الأصل العشرين: نواقض العقيدة والإيمان.

فماذا بقي من الأصول لم يتحدث عن العقيدة، وبعد ذلك يقال إن الإمام البنا لم يهتم بالعقيدة في دعوته.

لا تخالط في عقيدتك:

إن ما ينعم به البشر من نعم مادية وروحية إنما يرجع إلى سمو العقيدة وصفائها وقدسيتها، فبها فتح الله قلوب العباد قبل البلاد، وعم الخير وانتشرت الدعوة في مشارق الأرض ومغاربها: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ﴾[1]، ولكن للأسف حين خالط العقيدة أفكار البشر وضعفت في ذاتها وأصبحت مجرد أفكار ومجموعة آراء لا تمثل الاعتقاد الحق ولا تصل إلى أعماق النفس، ولا توجه التوجيه النافع في الحياة ولا تعين على السلوك النظيف الذي يمثل الرشد الإنساني والرقي الروحي، حدث ما قاله القرآن: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[2]، وكما أخبر المصطفى ﷺ: «يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»، فَقَالَ قَائِلٌ وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاء السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ»، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْت»[3].

وجاء التقدم العلمي في كل ناحية من مناحي الحياة وكان تأثيره على العقول التي بعدت عن التفكير السليم والقلوب التي خوت من الإيمان بالغاً فأصيبت العقيدة بهزة عنيفة وأزمة حادة.

وحاول المخلصون أن يردوا الآبقين إلى الرشد، ولكن العلم المادي مضى في طريقه يحقق للناس الرفاهية المادية ويوفر لهم الرخاء ويستخرج قوى الكون وما أودع فيه من خيرات، إلا أنه عجز ولم يستطع أن يوفر للناس الأمن والسلام ولا المودة والمحبة ولا الرحمة والحنان ولا التعاون والإيثار ولا تهذيب النفس وتقويم الخلق، فكان أن أصيبت الإنسانية بنكسة خطيرة من جراء سعة العقل وضيق القلب وأنى لهم هذه الأمور التي تسكن القلب ولا تتحقق إلا بالإيمان ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم

---

(١) من الآية ٩٦ من سورة الأعراف.
(٢) الآية ٥٩ من سورة مريم.
(٣) رواه أبو داود.

بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[١]، ﴿وألو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا﴾[٢]، ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[٣]، ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾[٤].

لذا كان من الضروري العمل على تغيير جوهري في النفس الإنسانية عن طريق غرس العقيدة الصحيحة الصافية ببساطتها ونقائها وقدسيتها، لتعود إلينا شخصيتنا الإسلامية الأخلاقية التي افتقدناها والتي هي مفتاح كل خير: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[٥].

ولما كان الإسلام هو دين الله الذي أوحاه إلى محمد ﷺ، وهو إيمان وعمل، الإيمان يمثل العقيدة والأصول التي تقوم على شرائع الإسلام، وعنها ينبثق فروعه.

والعمل يمثل الشريعة، والفروع التي تعتبر امتدادًا للإيمان والعقيدة والإيمان والعمل أو العقيدة والشريعة كلاهما مرتبط بالآخر، فلا إيمان بدون عمل ولا عمل مقبول إلا بعقيدة سليمة: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾[٦]، ولذلك دائماً ما تقرأ في القرآن: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾[٧]، وما أكثر ما يردد القرآن: ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾[٨]، وبفضل الله فإن القرآن الكريم منهج حياة المسلمين تكفل بتجليتها التجلية الحقة كلما علاها غبار أو هجرها كثير من أهلها كما قال القرآن: ﴿يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا﴾[٩]، يأتي القرآن بمنهجه ليبدد الظلام ويشيع النور ويرتب العقول ويطهر القلوب ويقوِّم السلوك ويوجه المسلم إلى المثل العليا والقيم الصالحة ويحييه بعد ممات:

---

(١) الآية ٨٢ من سورة الأنعام.
(٢) الآية ١٦ من سورة الجن.
(٣) الآية ٩٧ من سورة النحل.
(٤) من الآية ١٢٣ من سورة طه.
(٥) من الآية ١١ من سورة الرعد.
(٦) الآية ١١٠ من سورة الكهف.
(٧) من الآية ٢٧٧ من سورة البقرة.
(٨) من الآية ٢٥ من سورة البقرة.
(٩) من الآية ٣٠ من سورة الفرقان.

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[1]، ثم تأتي السنة المطهرة لتستكمل مسيرة الإيمان وتقدم النماذج العملية لرجال: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[2].

فالإيمان بالله يمثل أكرم صلة بين الإنسان وخالقه، وأشرف ما في الإنسان قلبه، وأشرف ما في القلب الإيمان، فالإيمان أجل نعمة: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[3] ومن آثاره أن يكون الله ورسوله أحب إلى المرء من كل شيء: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[4].

فالإيمان لا يكمل إلا بالحب، حب الله وحب رسوله ﷺ: « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حلاوةَ الإيمانِ»[5]، جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: لأنتَ أحبُّ إلي مِنْ كلِّ شيءٍ إلا مِنْ نفسي، فقال النبيُّ ﷺ: «لا وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِه حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفسك»، فقال لهُ عمر فإنهُ الآن واللَّهِ لأنتَ أحبُّ إلي مِنْ نفسي، فقال النبيُّ ﷺ «الآنَ يا عُمَرُ»[6]، (أي الآن تم إيمانك).

إنه ﷺ القائل: « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْه مِنْ وَالِده وَوَلَده وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[7]، ويقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[8]. ولذلك كان الجود بالنفس والمال والولد دليل على كمال الإيمان: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[9].

---

(١) من الآية ١٢٢ من سورة الأنعام.
(٢) من الآية ٢٣ من سورة الأحزاب.
(٣) الآية ١٨ من سورة الحجرات.
(٤) الآية ٢٤ من سورة التوبة.
(٥) رواه البخاري.
(٦) رواه البخاري.
(٧) رواه البخاري.
(٨) فيض القدير.
(٩) الآية ١٥ من سورة الحجرات.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾(١)، ودليل كمال الإيمان طاعة الله ورسوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٢)، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(٣)، ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾(٤).

ودليل كمال الإيمان الأخوة في الله:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(٥) فللدين سلطان على القلوب والنفوس وتأثير على المشاعر والأحاسيس (وحدة المشاعر)، فإذا توحدت المشاعر ساد الحب وارتفعت الخصومة وانقطع النزاع وحل الوفاق محل الشقاق وتقارب الناس وتآلفوا وسعى الفرد لخير الجماعة، وحرصت الجماعة على إسعاد الفرد ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾(٦)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(٧)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾(٨)، ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٩)، وبذلك يتحول الإيمان إلى قوة إيجابية في الحياة فيحول الضعف إلى قوة والهزيمة إلى نصر واليأس إلى أمل والأمل إلى عمل.

فيبعث في نفس العبد تحررها من سيطرة الغير، وتملؤها روح الشجاعة والإقدام واحتقار الموت ويشم للجنة رياحين، فلا تخشى ضياع الرزق، وتسري في نفسه

---

(١) من الآية ١١١ من سورة التوبة.
(٢) الآية ٥١ من سورة النور.
(٣) من الآية ٣٦ من سورة الأحزاب.
(٤) الآية ٦٥ من سورة النساء.
(٥) الآية ١٠ من سورة الحجرات.
(٦) من الآية ٢٩ من سورة محمد.
(٧) من الآية ٥٤ من سورة المائدة.
(٨) الآية ٩٦ من سورة مريم.
(٩) الآية ٦٣ من سورة الأنفال.

طمأنينة في القلب وسكينة في النفس وحلاوة اليقين، وكيف لا وقد ربط نفسه بالله مصدر الخير والبر والكمال ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[١]، فأي حياة طيبة يحياها في الدنيا قبل الآخرة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٢]، ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾[٣].

وبذلك تصبح العقيدة:

١-مصدر العواطف النبيلة.

٢-تغرس المشاعر الطيبة وتعمقها.

٣-منبت الأحاسيس الشريفة.

فما من فضيلة إلا وتصدر عنها ولا صالحة إلا وترد إليها.

منهج الرسل في عرض العقيدة:

لذلك كان منهج الرسل هو:

أولاً-لفت الأنظار إلى ملكوت السماوات والأرض.

ثانياً-إيقاظ العقول إلى التفكير في آيات الله في الكون والإنسان والحياة.

ثالثاً-استثارة العواطف والفؤاد إلى ما في الحياة من جمال يدل على القوة: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٤].

رابعاً- تنبيه فطرهم إلى ما غرس فيها من شعور بالتدين ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[٥].

خامساً-الإحساس بالعالم الآخر الذي وراء هذا العالم المادي، مثل الإيمان بأخبار

---

(١) من الآية ٣٦ من سورة الزمر.
(٢) الآية ٩٧ من سورة النحل.
(٣) الآيتان ٣٠،٣١ من سورة النحل.
(٤) من الآية ٨٨ من سورة النمل.
(٥) الآية ١٧٢ من سورة الأعراف.

القبر والآخرة والحساب، وهكذا كانوا يلفتون الأنظار، ويوجهون الأفكار، ويوقظون العقول وينبهون الفطر، وهكذا كانوا يتعهدون الغراس بالتربية والتنمية فيمتلئ القلب بالإيمان واليقين، وهكذا فعل الرسول ﷺ حتى إن بعض الصحابة من أثر هذه التربية كان يقول:«لو كشف عني الحجاب لما ازددت يقيناً».

وها هو الحارث بن مالك الأنصاري يعطينا الصورة المشرقة لهذا الإيمان، فقد مر حارثة برسول الله ﷺ فقال له الرسول ﷺ: «**كيف أصبحت يا حارثة؟** قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: «**انظر ماذا تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك**»؟ قال عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار في النار يتضاغون (يصرخون) فقال: **عرفت فالزم**»[١].

والواقع أن العقائد تختلف وتتعدد، فمنها الفاسد ومنها الصالح، فالذين اعتقدوا في الأصنام والأوثان وعبدوها والذين عبدوا البقر عقائدهم فاسدة لا محالة، ولقد دلنا القرآن على قوم عبدوا البشر، وعبادة البشر هنا ليس بالركوع والسجود، ولكنها بطاعة أوامرهم التي تخالف شرع الله ﷻ، وقصة عدي بن حاتم ﷺ توضح ذلك فعنه قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: «**يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ**»، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾[٢]، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ**»[٣].

فنحن المسلمون العقيدة عندنا هي مجموعة الأمور التي تتصل بمعرفة الله ﷻ ومعرفة أنبيائه ورسله واليوم الآخر وكل الأمور الجازمة التي ليس فيها اجتهاد من عقول البشر بل نتلقاها من الوحي كحقائق لا اجتهاد فيها ولكن بتصديق وتسليم، والواقع أن المولى ﷻ دعا المسلم أن يُعمل عقله في هذه القضية ويفكر ويتدبر حتى

---

(١) رواه الطبراني.
(٢) من الآية ٣١ من سورة التوبة.
(٣) رواه الترمذي.

ترسخ العقيدة وتكون عن يقين جازم وعن معرفة صحيحة سليمة إذا هو أعمل عقله وتدبر أمره، وحين تكون الفطر سليمة لم تلوث ولم يصبها من الأمراض التي تنتشر في مجتمعها وحافظت على نقائها فإنها تصل إلى هذه الحقيقة: أن لهذا الكون إلهٌ واحدٌ أحد فرد صمد. والآيات المبثوثة في الكون والإنسان والحياة خير دليل على ذلك، والقرآن الكريم عرض هذا الأمر عرضاً طيباً بوجوه متعددة تقنع الناس مع اختلاف تفكيرهم ومشاربهم وبيئاتهم ومعارفهم؛ ذلك لأنه في البداية أمرنا المولى ﷻ بأن نتعرف عليه ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ﴾[1]، والعلم سابق على العمل؛ لأن العلم هو الذي يحدد التصور الذي يدفع الإنسان إلى السلوك السليم طالما أن هذا التصور لم يشبه أية شائبة، ولم ينحرف عن الصواب، وللعلماء في هذه القضية أمور كثيرة منها العلمي البحت ومنها العقلي الذي يستطيع أن يدركه عامة البشر بفطرهم السليمة.

وانظر إلى هذا الأعرابي الأمي الذي يعيش في صحراء جرداء ولم يتخرج من الجامعة ولم يدرس علم المنطق ولا القياسات ولكن استخدم عقله الاستخدام السليم حين قال:« البعرة تدل على البعير والروثة تدل على الحمير وآثار الأقدام تدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ألا يدل على الصانع العليم القدير».

وسيدنا إبراهيم ﷺ له مناقشات ومجادلات أثبتها القرآن، وها هو ذا بعدما حطم الأصنام وتهكم على قومه حين سألوه: من حطم هذه الأصنام؟ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾[2]، وهو الذي ناقش النمرود حين قال له: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾[3]، ولتفاهة هذه العقول المادية فإنهم يأتون دائماً بأمور يتصورونها عقلية وما هي من العقل في شيء، فقد جاء هذا التعيس برجلين أحدهما قاتل فأطلق سراحه وآخر مظلوم فقتله، أليس هذا لون من ألوان العبث ولا يمت إلى العقل بصلة؟! ولذلك فسيدنا إبراهيم ﷺ لفت نظره إلى سنن الله في الكون والتي لا تتغير ولا تتبدل ليستثير عقله العاجز عن إدراك حقائق الكون قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ

---

(١) من الآية ١٩ من سورة محمد.
(٢) الآية ٦٣ من سورة الأنبياء.
(٣) من الآية ٢٥٨ من سورة الأنعام.

يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾[١]، وانظر إلى التعبير القرآني أنه يذكره بالإله الذي يعبده -الله- ليثبت وحدانية الله ﷻ بالحجة البالغة؛ ولذلك يقول رب العزة ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[٢]، إنها الحجج القوية في هذا السجال وهذا النقاش الذي يثير العقل لكي يفكر حين يرى كوكباً في السماء: ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾[٣]، كيف أقف بين يدي إله أدعوه فيختفي ويولي دبره ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٤].

إن العقيدة هي ما بلغه الرسول ﷺ من الحقائق المتعلقة بالغيب من مثل الوجود الإلهي وثبوت صفات الكمال المطلق للذات الإلهية وثبوت الوحي والبعث، وعالم الملائكة والجن وغير ذلك مما بلغه رسول الله ﷺ متصلاً بالاعتقاد. ولذلك فإن العقيدة هي رأس التدين وأساسه وكل ما سواها من الأعمال مبني عليها وتابع لها؛ ومن هنا فإن صلاح الأعمال رهين بصحة الاعتقاد فلا يكون المسلم مسلمًا حقًا إلا إذا صح اعتقاده أولاً ثم يصدق اتباعه؛ لأنها هي الركن الركين والأساس المتين والصراط المستقيم الذي عليه يقام صرح الإسلام العظيم.

شبهة يجب توضيحها:

يجب أن نفرق بين السنن التي جعلها المولى في الكون، فيصيبها من اجتهد في الوصول إليها بصرف النظر عن إيمانه أو كفره، فقد يصيبها الكافر باجتهاده ويخطئها المؤمن بإهماله، نقول هذا حتى لا يحدث خلط عند بعض الناس حين يرون الكفار والمشركين هم المسيطرون على الدنيا والتي ملكوها بعلومهم وتقدمهم المادي والتكنولوجي، أما المسلمون فازدادوا انحطاطًا بتبعيتهم وعدم اتباعهم المنهاج العلمي

---

(١) من الآية ٢٥٨ من سورة الأنعام.
(٢) الآية ٨٣ من سورة الأنعام.
(٣) من الآية ٧٦ من سورة الأنعام.
(٤) الآيات ٧٦-٧٩ من سورة الأنعام.

الإسلامي كما نرى هذه الأيام، وإن كانت هذه الأعمال من التقدم العلمي المذهل قد استفادت منها البشرية إلا أن جزاءهم الأخروي كما قال ربنا: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾[١]، وكما يقول: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ، ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾[٢]، فنحن حين نقول أن للمولى ﷻ سننًا مبثوثة في الكون يجتهد فيها من اجتهد، وأولى بالمسلمين أن يجتهدوا في الوصول إليها، وهذا شيء وقبول المولى ﷻ هذا العمل في الآخرة شيء آخر، بمعنى أن التقدم العلمي شيء وصلاح القلب شيء آخر، وتقدم المسلمين مرهون بهما معًا، وما تخلف المسلمون إلا حين تركوا منهاج الله، فلا هم تقدموا في علوم الدنيا ولا عملوا للآخرة.

من أجل ذلك فإن المولى ﷻ وضع شرطين لقبول العمل: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[٣]، وبالنظر إلى التقدم العلمي في الغرب نجد هذا التقدم مادي بحت نُزع منه جانب الأخلاق ولم يصدر عن العقيدة الصحيحة، فنحن نريد أن نصعد إلى السماء بالعلوم التي توصلنا لذلك ولكن حين نصعد نقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[٤]، نعمر الكون ونسخره ونستخرج ما في باطن الأرض حتى يصبح مجتمع المسلمين مجتمع الكفاية والعدل لا ينقصه شيء؛ لدرجة جعلت علماء المسلمين يعتبرون نقص شيء بسيط مثل «إبرة الحياكة» في مجتمع المسلمين يؤثم المسلمين جميعًا حتى تقوم فئة أو مجموعة منهم بصناعة هذه الإبرة التي تكفي هذا المجتمع، وللتشجيع على عمارة الكون وهب الإسلام الأرض لمن أصلحها، يقول النبي ﷺ: «مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ»[٥].

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الفرقان.
(٢) الآيتان ١، ٢ من سورة محمد.
(٣) من الآية ١١٠ من سورة الكهف.
(٤) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران.
(٥) رواه أبو داود.

إن العقيدة هي ميراث رسل الله جميعًا، وهي التي ربطت بين المؤمنين بدين الله الواحد الذي لا يختلف في الزمان والمكان، بل هي التي توجه إلى شرف الحياة، ألا ترى كيف دان للحفاة العراة رعاة الشاة القياصرة والأكاسرة وأصبحوا خير أمة أخرجت للناس بفضل عقيدة التوحيد.

إن المؤمن بالله بخير ما صحت عقيدته فيه، وصح إيمانه فأسلم وجهه لله وهو محسن. إنه حينئذ يراه مالك الأمر كله والذي بيده ملكوت السماوات والأرض وهو وحده الذي يقدر على النفع والضر والعطاء والمنع وليس لأحد مهما كان سلطانه وجبروته يملك ذلك، فهو سبحانه الذي يجير ولا يجار عليه ولا يرجى غيره ولا يخاف سواه، وهو سبحانه الذي يوثق في نصره وعونه وتأييده وبهذا الاعتقاد يتميز رجل العقيدة عن غيره.

فعندما يقول الإمام البنا بأن أعمال القلب مقدمة على أعمال الجوارح؛ فذلك لأن عمل القلب هو الذي يوجه عمل الجارحة؛ ذلك لأن العقل عندما تنيره العقيدة تجده كما يقول ابن القيم: يصرف أوامره للجوارح، فالعين تغض البصر واليد لا تمتد إلا إلى ما أحل الله ﷻ، والرجل لا تسعى إلا لرضى الله ويتدرج الأمر إلى درجة أن الإنسان يطرد الأفكار الخبيثة من داخل عقله، فالفكرة السيئة يطردها، وما التوبة إلا ليشعر بعدها الإنسان أن الله ﷻ سيحاسبه فيستغفر من ذنبه في دنياه قبل أن يموت ويستأنف عمل الخيرات بل ويسارع إليها، وها هي ذا قصة الغامدية تضرب لنا المثل في إخلاص التوبة بعد ارتكاب كبيرة، فيقول الرسول ﷺ: « **لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ وَهَلْ وَجَدْتَ شَيْئًا أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** »[1] فاستقامة السلوك تأتي من عمق العقيدة؛ لأن العقيدة لها أثرها الأخلاقي الذي يظهر في سلوك الإنسان؛ ولذلك كانت أولى مراحل النصر أن تنتصر على نفسك، فإذا حققت هذا النصر كان النصر على الهوى والشيطان وأعداء الله أهون وأسهل.

إن العقيدة إذا رسخت في قلوب الرجال هزمت الأعداء؛ لأنك ستقول بثبات

---

(١) رواه أحمد في مسنده.

ويقين وإيمان يملأ القلب «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه»، وهذا الذي جعل الإمام البنا يقول: إن عمل القلب مقدم على عمل الجارحة بإيمان يثبت الأقدام على الطريق والأمثلة على ذلك واضحة جلية، ولقد رأيتموها رأي العين وما زلتم حتى الآن ترونها، فهذه أم تتحدث في التليفزيون، يهدم بيتها ويستشهد لها ابن واثنان وزوج ثم تقول: «والله لا نترك هذه الأرض أبداً. »هذه الأرض المقدسة وطننا وفيها مسجدنا«، يقتلون ويستشهد منهم من يستشهد فلولا هذه العقيدة ما استطاعت الأمهات والزهرات اليانعات والعروس حديثة الزواج أن تتقدم الصفوف لكي تهلك العدو بجسدها الذي ينفجر، إنها صور الجهاد في فلسطين والذي يدل دلالة قاطعة على عمق الإيمان، ورسوخ العقيدة وحب الآخرة بل وحب الموت في سبيل الله. هذه بعض الأمثلة الصادقة التي رأيناها في فلسطين، كما رأيناها في أفغانستان والشيشان، وفي كل أرض يجاهد عليه رجال يحبون الموت كما يحب أعداؤهم الحياة ويحرصون عليها.

العقيدة والرجال:

إن عقيدة التوحيد هي التي صنعت الرجال في كل مكان وزمان، وسل التاريخ عن أعمالهم بعد أن تمكنت العقيدة من قلوبهم، ونظرة إلى المسلمين الأوائل -بل ومن كان قبلهم- نجد الرجال الصادقين المخلصين الذين يقفون أمام الطغاة بهذا الإيمان الذي يحمله كل منهم في قلبه، وما قصة أصحاب الأخدود منا ببعيد: **﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُود، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُود، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ، وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيد، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾**[1].

وقف متأملاً أمام سحرة فرعون عندما دخل الإيمان في قلوبهم، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، قال لهم الفرعون: **﴿فلأقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ولأصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى، قَالُوا لَن**

(١) الآيات ٤-٩ من سورة البروج.

﴿نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾[(١)].

وسل عن ياسر وعمار وسمية، وبلال وصهيب وخباب وغيرهم، رجال ونساء، شباباً وشيبة، بل صبية وأطفالاً، سل عنهم في بدر وأحد وحمراء الأسد يوم أن ﴿قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[(٢)]، فحين تحزب الأحزاب يصف القرآن حالهم فيقول:﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾[(٣)].

سل عن رجال العقيدة في اليرموك وحطين والقادسية، وغيرها من المواقف التي سجلها التاريخ بسطور من النور، وما قصة العقيدة وأثرها اليوم منا ببعيد، فرجال الأفغان يضربون المثل الأعلى، وأطفال الحجارة البواسل في فلسطين، وفي كل مكان فيه رجال يحبون أن يتطهروا، هذا هو الإيمان الحق والذي رأينا أمثلة منه من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم وأرضاهم وكانوا رجالاً بحق فهانت عليهم الدنيا، وفي أقل من قرن من الزمان فتحوا الدنيا بهذه العقيدة، وسادوا وأصبح الفرس والروم الذين كانت تشرئب إليهم الأعناق أصبحوا تبعاً لهم وغزوهم في عقر دارهم، وفتحوا مشارق الأرض ومغاربها بلا إله إلا الله محمد رسول الله، إنها ليست كلمة تقال باللسان فحسب بل صيغ بها رجال ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۞ وفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ والْمَحْرُومِ﴾[(٤)]، لنعلم أن الحالة القلبية من أهم ما يهتم به المسلم، فهو يقف بينه وبين نفسه مع قلبه، يعالج أمراض هذه القلوب ويبذل الجهد ويجاهد نفسه لتصفو هذه العقيدة وتصير أفعاله أثر من آثارها وثمرة من ثمارها ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[(٥)]

وما زال عطاء العقيدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يدفع الرجال إلى أعظم

---

(١) الآيتان ٧١، ٧٢ من سورة طه.
(٢) من الآية ١٧٣ من سورة آل عمران.
(٣) الآية ٢٢ من سورة الأحزاب.
(٤) الآيات ١٧-١٩ من سورة الذاريات.
(٥) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.

الأعمال: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[(١)]، ولو سئلت: كم عدد المسلمين في زماننا هذا وكم عددهم بالأمس؟ لعرفت لمَ عز هؤلاء مع قلتهم وذل هؤلاء مع كثرتهم؟ ولمَ انتشر هؤلاء بدينهم، ولمَ انحسر هؤلاء في بلادهم؟ ولمَ أصبح المسلمون اليوم ذيلاً وتبعاً لغيرهم، بينما كانوا شهداء على الناس يوم مجدهم، والإجابة بكل بساطة أنها العقيدة التي تصنع الرجال.

العقيدة أساس العمل: إن بناء الإسلام دعامتة العقيدة، فإذا انهارت الدعامة أو اختلفت الغاية فقدت نظم الإسلام قيمتها، وصارت شيئاً آخر لا يمت إلى الإسلام بصلة: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ﴾[(٢)].

إن العقيدة هي مفترق الطريق بين سبيل الله وسبل الشيطان، وبين الحياة الإسلامية، والحياة الأخرى الدونية، والتصور الصحيح والاعتقاد السليم؛ ذلك لأن التفرد والتميز بطبيعة الحياة الإسلامية كلها لا لطبيعة الاعتقاد وحده، فالحياة الإسلامية بكل مقوماتها إنما تنبثق من عقيدة الإسلام، فأثر العقيدة في القلب ينشأ عنه التوكل على الله في كل عمل والثقة في الله ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[(٣)].

ولذلك فإن المسلم حين كان يقبل على الإسلام كان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إليه أنه يبدأ عهداً جديداً منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها قبل الإسلام، وأن أعماله قبل ذلك كانت كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، أما اليوم فإنه يرتوي من المعين الذي لا ينضب ويستظل بشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

ذلك لأن إصلاح الفرد إصلاحاً يجعله جديرًا بحمل المبادئ الفاضلة، والعمل

---

(١) من الآية ١١١ من سورة التوبة.
(٢) من الآية ١٨ من سورة إبراهيم.
(٣) من الآية ١٢ من سورة إبراهيم.

لتحقيق الأهداف السامية لا يتم ولا يؤدي ثمرته المرجوة إلا إذا مس التغيير نفسه التي بين جنبيه، باعتبارها مصدر السلوك وموطن الشعور ومبعث العمل التي توصف بالخير أو الشر وتضع الإنسان مع الأخيار المفلحين أو الأشرار الخائبين ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[١].

والعقيدة هي التي يتوقف عليها مصير الإنسان وسعادته؛ ذلك لأن العقيدة الإسلامية تهذب السلوك فتسمو النفس، وتحب الفضائل فإذا بعمل المسلم يزينه الصدق والوفاء والكرم والشجاعة والإيثار والتضحية، فتنشأ شخصية ذات مثل أعلى يتصل بالله فإذا بصاحبها يطلب الحقيقة أين كانت، وسيطرة هذه المثل العليا على النفس المؤمنة توحدها وتربط دوافعها وعادتها برباط واحد تحت قيادة واحدة تسير النفس في ظلها منسجمة آمنه مطمئنة ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٢]، وهو بهذه العقيدة الحقة لا يخاف ظلماً ولا هضماً، ولا يخاف بخساً ولا رهقاً، ولا يضل ولا يشقى، ويعيش حياة هنيئة سعيدة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[٣] كما ذكرنا.

وصاحب العقيدة الصحيحة يتعلم من القرآن قيمة العمل في حياة الإنسان في الدنيا والآخرة فيجد -أي القرآن- يقرن الإيمان -بمعني التصديق- بالعمل دائماً يقول الحق ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلا﴾[٤]، ويقول:﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾[٥]، ويقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾[٦]، وما أكثر الآيات التي ربطت الإيمان بالعمل الصالح.

عقيدة بلا عمل:

وكيف لعقيدة أن تدوم وتسود دون عمل؟ فهل لنهر لا يفيض ماؤه قيمة؟ وما

---

(١) الآيات ٧-١٠ من سورة الشمس.
(٢) الآية ٨٢ من سورة الأنعام.
(٣) من الآية ٩٧ من سورة النحل.
(٤) الآية ١٠٧ من سورة الكهف.
(٥) من الآية ٩ من سورة التغابن.
(٦) الآية ٢٩ من سورة الرعد.

فائدة قمر لا ينساب ضياؤه؟ وزهر لا يفوح عبيره؟ بل ما معنى الفضيلة إن لم تصبح سلوكاً للأفراد والجماعات؟ وما معنى أن تصبح المثل العليا نظريات للبحث والدراسة دون أن تتمثل لها قدوة فاضلة وسلوك رشيد؟

ولعمري إن الأمر على ما يقول الشاعر الواقعي:

كل نهر لا ارتواء به   لا أبالي سال أم نضبا
كل نجم لا اهتداء به   لا أبالي راح أم غربا
إن صدقًا لا أحس به   لهو شيء يشبه الكذبا

قيمة العقيدة:

«إن قيمة العقيدة أن تتجاوز التصور إلى العمل والقدوة وأن تجعل من صاحبها أسوة حسنة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1]، وقيمة العبادة أن تنشئ المعاملة الحسنة وبذلك يظهر المثال الواقعي لما ندعو إليه»[2]، ولذلك فإن الذي ضاع من المسلمين اليوم وافتقدوه هو شخصيتهم الإسلامية والأخلاقية والتي صنعتها العقيدة.

إن عقيدة الإسلام ليست تلك العقيدة التي تنزوي في الوجدان أو تلوذ بالمسجد أو تعتصم بركن من أركان الحياة، كلا إنها منهج حياة متكاملة تأبى إلا أن تخضع كل شيء فيه للواحد القهار.

فهي عقيدة علم وحياء تنعكس آثارها الواقعية على الوجدان ضياء وعلى المجتمع بناء، وعلى العلم صديقاً ودوداً في رحلة الحياة، ومن ثم فإن كل إنجاز علمي يعد رصيداً رائعاً للعقيدة والإيمان لا يزحزحهما عن مكانهما وإنما يدعمهما ويمنحهما الصمود والبقاء: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[3].

ولذلك فإن أعداء الإسلام يحاولون دائماً أن يحاصروا تلك العقيدة القوية أو يذيبوا روحها حتى تبرد حرارة المسلمين، أو يحبسوها في الوجدان منفصلة عن الحياة

---

(١) من الآية ٢١ من سورة الأحزاب.
(٢) واقعية المنهج القرآني توفيق محمد سبع.
(٣) الآية ٥٣ من سورة فصلت.

معتزلة واقع المجتمع سياسياً واجتماعياً وأخلاقياً وتنظيمياً وأنى لهم هذا وهي عقيدة شمول وتوحيد لوجدان المسلم فيما يعتقد، وتوحيد لخضوعه لله، وتوحيد في مطالب جسده وروحه ودنياه وآخرته، إذا تدبرت ذلك أدركت لم كانت دعوة النظام العالمي إلى تغيير مناهج التعليم وتشويه التعليم الديني ومحاولة مسخ الأزهر والمعاهد الدينية في البلاد الإسلامية، كل ذلك لتغيير الهوية الإسلامية.

وكم جهد أعداء الإسلام أنفسهم ليحولوا هذه العقيدة إلى مجرد قيم روحية لا واقع لها في مناحي حياتهم فلم يستطيعوا؛ لأن طبيعة العقيدة الإسلامية تأبى ذلك، وسل عن تركيا وما أحدثه أتاتورك فيها وهلك أتاتورك وعاد الإسلام لتركيا وها نحن ذا نسمع (الله أكبر) من جديد تعلو مآذنها ويعود شبابها إلى الإسلام من جديد. وسل عن الولايات الروسية وما حدث فيها وفي غيرها وقد خاب من افترى.

تفاوت الناس في الأعمال الصالحة:

إن الأعمال الصالحة المأمور بها يتفاوت الناس في أدائها، وكذلك يتفاوتون في اجتناب المحرمات صغائرها وكبائرها، ولذلك يقال: إن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، فليست الزيادة والنقص منصبين على نفس الاعتقاد بوجود الله وثبوت صفاته العظمى له؛ إذ إن ذلك لا يزيد ولا ينقص عادة إنما الذي يزيد وينقص هو مقدار الاطمئنان القلبي بآيات الله وحسن التوكل عليه، وجميل عدله وعظيم ثوابه وعقابه على الأفعال الإنسانية.

يقول لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني إن الإيمان قائد، والعمل سائق، والنفس حرون، فإن فتر سائقها ضلت عن الطريق، وإن فتر قائدها حرنت، فإذا اجتمعا استقامت.

ويقول الإمام علي رضي الله عنه[1]: إن الإيمان ليبدو لمعة بيضاء، فإذا عمل العبد الصالحات نمت فزادت حتى يبيض القلب كله، وإن النفاق ليبدو نكتة سوداء فإذا انتهكت المحرمات نتم وزادت حتى يسود القلب كله فيطبع عليه فذلك هو الختم وتلا

(١) العقيدة الإسلامية في المرآة أو التوحيد الخالص للأستاذ عبد العزيز عطية ص١٧.

قوله: ﴿كلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(١).

عمل القلب:

ولما كانت العقيدة-الإيمان- محلها القلب، فإن معاصي القلوب أخطر بكثير من معاصي الجوارح فالأولى تؤدي إلى الكفر وأما الأخرى فتؤدي إلى الصغائر أو الكبائر فليسوا سواءً.

إن القلب السليم هو المحور الفذ للقبول، والله وحده يعلم أين يكون، وكان علماؤنا الأوائل موفقين عندما قسموا المعاصي إلى معاصي القلوب ومعاصي الجوارح أو بتعبير معاصر: معاصي بدنية ومعاصي نفسية.

فالمعاصي البدنية -الجوارح- شهوات محدودة الخطر على قبحها وسوء مغبتها، أما معاصي القلوب أو الرذائل النفسية فهي تسيطر على أصحابها فلا يعرفون منها متابًا، وتأمل موقف إبليس بعد ما عصى الأمر بالسجود، لقد مضى في تحد يقول لله أهذا آدم الذي فضلته علي؟ ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ على لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً﴾(٢).

«فقسوة القلوب وعماها لعنة إلهيه على رءوس الناقضين للمواثيق المارقين من التقوي، اللاعبين بالإيمان: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً...﴾ (٣)، فهم بهذا السلوك والاعتقاد الفاسد قساة القلوب لا يعرفون تواضعها»(٤).

فمعاصي القلوب أخطر من معاصي الجوارح، ولا نستطيع أن نساوي بين أكل آدم من الشجرة المحرمة وهي معصية مع تكبر إبليس على الله فشتان بين الاثنين.

فتقوى القلوب في الحقيقة هي التي تقود تقوى الجوارح كما قال المولى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾(٥)، وقال: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا ولا

(١) الآية ١٤ من سورة المطففين.
(٢) الآية ٦٢ من سورة الإسراء.
(٣) من الآية ١٣ من سورة المائدة.
(٤) دستور الوحدة الثقافية للشيخ محمد الغزالي ص١٨٩ بتصرف.
(٥) الآية ٣٢ من سورة الحج.

دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ [١]، ولذلك فإننا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «**التَّقْوَى هَا هُنَا**»[٢] وأشار إلى صدره.

فالكيِّس يقطع المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة وتجريد القصد، وصحة النيل مع العمل القليل، يقول على ﷺ: لا تهتموا بقلة العمل واهتموا بالقبول فإن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل: «**أخلص العمل يجزك منه القليل**»[٣].

إن العزيمة والمحبة في القلب تذهب المشقة وتطيب السير، والتقدم والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل[٤].

وأنت تسمع قول ربنا لرسولنا ﷺ: **﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾** [٥]، وهذا الثقل تخففه النية الصادقة في القلب المحب؛ لأن هداية القلب وإضاءة النفس وعلو الهمم إنما يزكيها الجد، فاستجلب نور الجد بدوام الجد فلابد من الجد الدائم؛ لأن خواطر الفكر دائمة وحركات الجوارح متصلة، فالفكرة لا تحد واللسان لا يصمت والجوارح لا تسكن؛ ولذا يقول بعض السلف: إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلي ومشربي ونومي ودخولي الخلاء، يقول الحسن البصري: «إن المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي، ما أردت بأكلتي، ما أردت بحديثي، وإن الفاجر يمضي قدمًا ولا يعاتب نفسه»، «لأن حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في القلب حتى يتعرض المسلم لمجاهدة النفس والناس، ولذلك كان علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة، بحيث يغلب ذلك على القلب، فإذ ذاك يتيسر الإخلاص»[٦]، وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغروراً؛ لأنه لا يرى وجه الآفة فيها؛ ولذلك علمنا الرسول ﷺ

---

(١) الآية ٣٧ من سورة الحج.
(٢) روه الترمذي.
(٣) رواه الديلمي.
(٤) الفوائد لابن القيم ص١٤٠.
(٥) الآية ٥ من سورة المزمل.
(٦) الدعوة قواعد وأصول للمؤلف ص٤٨.

لكي يكون العمل خالصاً لوجهه سبحانه ليس لأحد فيه شيء أن نقول: « اللهم إني أعوذ بك من أن أشرك بك شيئًا أعلمه وأستغفرك لما لا أعلمه».

يقول عثمان بن عفان ﷺ: لو سلمت منا القلوب ما شبعت من كلام الله ﷻ، وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غايه مطلوبه.

فما هو القلب السليم؟

القلب السليم: هو القلب الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتي به: ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ ۞ إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾[1]. «وهو القلب الذي سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية سواه، وسلم من تحكم غير رسوله فتوكل على الله وأناب إليه وذل له وخلصت عبوديته لله تعالى إرادة ومحبة وتوكلاً وإنابة وخشية ورجاء»[2].

«ومتي كان القلب كذلك فهو سليم من الشرك ومن البدع ومن الباطل؛ ولذلك تسلم جميع أذواقه وأحواله وأعماله ومواجده ظاهراً وباطناً لله فيسالم أولياء الله ويعادي أعداءه»[3]. وصدق ابن مسعود إذ يقول: هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعارف وينكر به المنكر.

ولذلك فإن القلب يمرض بل ويموت، وله أحوال عند ورود الحق المنزل عليه، فهناك قلب يفتن به كفراً وجحوداً، وقلب يزداد به إيماناً وتصديقاً وقلب يتيقنه فتقوم عليه به الحجة، وقلب يوجب له حيرة وعمى، فلا يدري ما يراد به. يقول حذيفة بن اليمان ﷺ قال رسول الله ﷺ: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوب كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْب أُشْرِبَهَا نُكتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْب أَنْكَرَهَا نُكتَ فيه نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مثْلِ الصَّفَا فلا تَضُرُّهُ فتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إلا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ**»[4].

(١) الأيتان ٨٨،٨٩ من سورة الشعراء.
(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم.
(٣) مفتاح دار السعادة لابن القيم ص٤١ بتصرف.
(٤) رواه مسلم.

والخلاصة هي:

أن الإسلام هو دين الله وهو إيمان وعمل.

والإيمان يمثل العقيدة والأصول التي تقوم عليها شرائع الإسلام، ومنها تنبثق فروعه.

والعمل يمثل الشريعة والفروع التي تعتبر امتداداً للإيمان والعقيدة.

والإيمان والعمل أو العقيدة والشريعة كلاهما مرتبط بالآخر، ارتباط الثمار بالأشجار أو ارتباط المسببات بالأسباب والنتائج بالمقدمات.

ومن أجل هذا الترابط الوثيق يأتي العمل مقترنًا بالإيمان يبشر المؤمنين بالثواب السرمدي وتجد ذلك في أكثر آيات القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (١).

من أجل ذلك أقسم المولى فقال: ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(٢)، والحق هو الإيمان والعمل ولا يتمان إلا بالصبر عليهما والتواصي بهما، فكان حقيقًا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره -بل أنفاسه- فيما ينال به المطالب العلية، وينجو به من الخسران المبين وليس ذلك إلا بتقوى الله وتقوى الله تتحقق بذلك: ﴿الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(٣).

كيف نحقق ذلك؟ لكي نحقق تقوى القلوب علينا بالإقبال على القرآن نتفهمه ونتدبره ونستخرج كنوزه وآثاره ودفائنه، وصرف العناية إليه والعكوف بالهمة عليه، فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد والموصل لهم إلى سبيل الرشاد، ولذلك كان الراعي والخليفة والولاة والأمراء دائمًا وأبدًا ينصحون الرعية بتقوى الله لتحصيل الكمال في عمل القلب والجوارح؛ لأن كليهما مطلوب شرعاً، فهذا عمر بن الخطاب يكتب إلى سعد بن أبي وقاص أمير الجنود في حرب الفرس يقول له: «أما

---

(١) الآية ٩٦ من سورة مريم.
(٢) الآيات ١-٣ من سورة العصر.
(٣) من الآية ٢ من سورة البقرة.

بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى العدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من العدو فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا».

ومن هذا العرض الذي تعمدنا التأكيد عليه مراراً وتكرارًا لنؤكد على أهمية العقيدة، وإنك ترى جميع المسلمين يقرون أن العقيدة هي الأساس لا يختلف في ذلك مسلم، ولكن الخلاف في كيفية أسبقية طرحها، فيجب أن تقدم في إطارها الكلي، ونعالج بها مشاكل عصرنا سواء أكانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو أخلاقية.

فحينما نتكلم عن جوانب التوحيد الثلاثة: الربوبية والألوهية والأسماء والصفات فننزه الله تعالى عن المشابهة بخلقه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1]، ونصفه بما وصف به نفسه من غير تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل ولا كيف «أمروها بلا كيف».

فإن من المهم أيضاً إذا أبرزنا توحيد العبادة أو الألوهية فلا نتكلم عن شرك القبور والاستعانة بغير الله فحسب، لأننا إذا اكتفينا بذلك نكون قد اختزلنا أثر العقيدة، فليس هذا هو الخلل وحده ولا الانحراف الوحيد، وإذا قلنا لا يستغاث بغير الله فيجب أن نقول لا تشريع لغير الله: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[2]. ولا حكم إلا لكتاب الله وهذه أخص خصائصه سبحانه.

فلماذا نتكلم عن شرك القبور ولا نتكلم عن شرك التشريع: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾[3]، ولقد بينه الرسول ﷺ عندما رأى عدي بن حاتم في رقبته صليب فقال له: ألق عنك هذا الوثن ثم قرأ: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ

---

(١) من الآية ١١ من سورة الشورى.
(٢) من الآية ٥٤ من سورة الأعراف.
(٣) من الآية ٢١ من سورة الشورى.

﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [(١)] فقال عدي: يا رسول الله ما كنا نعبدهم فبين له الرسول ﷺ أن عبادتهم هو تحريم الحلال لهم وتحليل الحرام.

فالشرك في العقيدة لا يقتصر على شرك العبادة بل هناك شرك السياسة حين تتخذ الأوامر المخالفة لشرع الله طاعة، وهناك بجوار ذلك شرك الهوى، وشرك المحبة: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [(٢)]، وشرك الاقتصاد في حب المال.

لذلك يجب ألا يقتصر نظرنا على الشرك في جانب واحد، حتى نصحح للناس مفهوم العقيدة الشامل ثم نقدم للناس العقيدة والعمل معاً كمنهاج حياة؛ لأن العقيدة هي أساس العمل حقاً وعمل القلب كما فهمنا أهم من عمل الجارحة، وتحصيل الكمال في كليهما مطلوب شرعاً وإن اختلفت مرتبتا الطلب.

ولهذا فإننا لا نستطيع أبداً أن نعود إلى ما كان عليه السلف الصالح وجيل رسول الله ﷺ إلا إذا نهجنا نهجهم، وعدنا لنقف وقفة مع القلب؛ ليصفو ويطهر، حتى يتحقق فينا قول ربنا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [(٣)]، وأصحاب هذه القلوب هم: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [(٤)]، الذين يصفهم المولى بالوصف الكامل الذي يستحقونه في قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [(٥)]، وبهذا المنهج الرباني يتكون الفرد المسلم أداة التغيير في المجتمع: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [(٦)]، فإذا صلح الفرد صلحت الأسرة، وإذا صلحت الأسرة صلح المجتمع، فالصلاح دائمًا قبل الإصلاح، ومن هنا كان عمل القلب أهم من عمل الجارحة وفي كليهما الخير كله.

---

(١) من الآية ٣١ من سورة التوبة.
(٢) من الآية ١٦٥ من سورة البقرة.
(٣) الآية ٢ من سورة الأنفال.
(٤) الآية ٣ من سورة الأنفال.
(٥) الآية ٤ من سورة الأنفال.
(٦) الآية ١٥ من سورة الشورى.

مردود الأصل السابع عشر

أولاً- حصيلة العقل:

أ- اختر الإجابة الصحيحة (من الممكن أن تكون أكثر من إجابة صحيحة):

١- من المسلمات المتفق عليها:

أ	الأعمال أساس التفاضل بين الناس	ب	صحة الاعتقاد أساس قبول العمل
ج	أعمال الكافر لا أساس لها	د	العمل الصالح مقدم على صحة العقيدة

٢- قد يستوي المؤمن والكافر في:

أ	علم القلب	ب	علم العقل
ج	عمل القلب	د	جميع ما سبق

٣- أعمال القلب:

أ	تؤثر في أعمال الجوارح	ب	تتأثر بأعمال الجوارح.
ج	هي أساس أعمال الجوارح	د	لا شيء مما سبق

٤- أعمال الجوارح:

أ	الخلل فيها يؤدي إلى الكفر	ب	مقدم على عمل القلب
ج	الخلل فيها يؤدي إلى معصية	د	جميع ما سبق

٥- من السمات التي تميز بها منهج الإخوان في عرض العقيدة:

أ	الرد على الجدليين والكلاميين	ب	الأخذ بمبدأ شمولية العقيدة
ج	الاهتمام بالمعرفة النقلية والعقلية	د	الاهتمام بأثرها في النفوس

ب- ضع (أ) أما العبارة الصحيحة و(ب) أمام العبارة الخطأ فيما يلي:

٦	أول ما عنى القرآن بمكة عنى بتنظيم سلوكيات المجتمع.	
٧	اهتم الإخوان بشرح أسماء الله وصفاته للعامة من الناس.	
٨	من أمثلة معاصي القلوب عصيان آدم عليه السلام لربه.	

قارن إجاباتك بالإجابات النموذجية في آخر مردود الأصل، وأعط نفسك درجة لكل إجابة صحيحة وصفرًا للإجابة الخاطئة.

أكثر من ١٢	١١-١٢	٩-١٠	٧-٨	أقل من ٧
ممتاز	جيد جدًّا	جيد	متوسط	ضعيف

ثانيًا- رصيد القلب:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	لا يغيب عني أن صحة الاعتقاد هي أساس قبول العمل الصالح.					
٢	لا ينتابني شك في أن عمل القلب أهم من عمل الجوارح.					
٣	لا يغيب عني أن صلاح القلب يدفع الجوارح إلى فعل الخيرات.					
٤	أخشى اقتراف المعاصي خوفًا على قلبي من الفساد.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٣	١٢-١٣	١٠-١١	٨-٩	أقل من ٨
ممتاز	جيد جدًّا	جيد	متوسط	ضعيف

ثالثًا- حساب الجوارح:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	أشرح لمن حولي أن صحة الاعتقاد أساس قبول الأعمال.					
٢	أوضح لمن حولي أن العمل الصالح هو معيار التفاضل بين الناس.					
٣	أجتهد في اجتناب المعاصي حتى لا يفسد بها قلبي					
٤	أسارع بالاستغفار إذا ما اقترفت ذنبا لأجلو قلبي من الران.					
٥	أحرص على معالجة قلبي من أمراضه المعنوية.					
٦	اذكر من حولي بأن عمل القلب أهم من عمل الجوارح.					

دائمًا = ٤، غالبًا = ٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من٢٠	١٨ - ٢٠	١٥ - ١٧	١٢-١٤	أقل من ١٢
ممتاز	جيد جدًّا	جيد	متوسط	ضعيف

إجابات حصيلة العقل (١٧)

السؤال	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨
أ	✓	✓	✓					
ب	✓	✓	✓		✓	✓	✓	✓
ج	✓		✓	✓	✓			
د					✓			

الأصل الثامن عشر

استخدام العقل في التفكر والتدبر في الأنفس والآفاق واحترام العلم والعلماء

«والإسلام يحرر العقل، ويحث على النظر في الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحب بالصالح النافع من كل شيء، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.»

هذا الأصل يعالج:

١-الإسلام والعقل.

٢-التفكير في الأنفس والآفاق.

٣-احترام العلم والعلماء.

٤-الترحيب بكل صالح نافع.

٥-الحكمة ضالة المؤمن.

هذا الأصل يعالج أمراً مهمًا هو موضوع العقل والإسلام؛ ذلك لأن أكثر الناس في زماننا المادي هذا عبدوا العقل من دون الله ﷻ والواقع أننا يجب علينا أولاً أن نحدد ما هو العقل، فإذا حددنا ماهيته وعرفنا وظيفته وحدوده استطعنا أن نتفهم هذه الشريعة الإسلامية التي أنزلها المولى ﷻ على رسوله ﷺ بعد أن أرسى العقيدة في القلوب.

ما هو العقل:

هو تلك الملكة الفطرية في الإنسان التي يستطيع بها أن يرتب محصول الحواس، وأن يدرك ما وراءها من المعاني المجردة وأن يميز بطرق ومناهج معينة ما هو حق وما هو باطل -إن استخدم الإنسان عقله في وظيفته التي أرادها الله له- ولأن العقل أساس التكليف فمن لا عقل له ليس مخاطباً بتعاليم الدين أصولاً وفروعاً، فعن عائشة عن النبي ﷺ قال: «**رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلاثٍ عَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ وَعَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ وَعَنْ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ**»[1].

والعقل محله القلب وهو مروي عن الإمام الشافعي ؓ ودليلهم قوله تعالى: ﴿**فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا**﴾[2]، وقوله: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ**﴾[3]، قالوا المراد لمن كان له عقل فعبر بالقلب عن العقل لأنه محله.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده.

(٢) من الآية ٤٦ من سورة الحج.

(٣) من الآية ٣٧ من سورة ق.

«ونقل الفضل بن زياد عن أحمد ﷺ أن محله الدماغ وهو اختيار أصحاب أبي حنيفة ﷺ»[١].

والواقع أن أهم قضية وهي قضية التوحيد، وحدانية الله ﷻ هي في المقام الأول قضية عقلية؛ لأن من الطبيعي أنك إن أعملت عقلك فإنك تصل بهذه الفطرة السليمة وهذا العقل السديد الذي لم يلوثه شيء إلى حقيقة وجود الخالق ﷻ وذلك بالتفكر والتدبر واستخدام العقل في الوصول إلى هذه الوحدانية لله ﷻ، فإذا تأملت الكون وناموسه وجدت نظاماً بديعاً بتقدير العليم القدير، وانظر مثلاً إلى الشمس والقمر: ﴿**لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ ولا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾[٢]، ويدعونا المولى ﷻ إلى التأمل بعقولنا في آيات كتابه الحكيم فيقول: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الألْبَابِ**﴾[٣] أولئك أصحاب العقول الراجحة النابضة الواعية: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[٤]

وحين تفكر هذا الأعرابي البسيط في هذا الكون قال: «البعرة تدل على البعير، وآثار الأقدام تدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل على الواحد القهار»؟! لقد استخدم هذا الأعرابي الأمي عقله الراجح، فإذا القرآن يؤكد ما وصل إليه هذا الأعرابي من قواعد منطقية فيقول: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾[٥]، أما هذا التعيس الذي مسخ عقله وفسدت فطرته حين جادله سيدنا إبراهيم ﷺ وقال له: ﴿**رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾[٦]، فانظر إلى إجابته السخيفة بعد أن اعتدى على الإنسان المظلوم فقتله وترك

---

(١) ذم الهوى لابن الجوزي ص٥.
(٢) الآية ٤٠ من سورة يس.
(٣) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران.
(٤) الآية ١٩١ من سورة آل عمران.
(٥) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.
(٦) من الآية ٢٥٨ من سورة الأنعام.

الظالم الذي قتل وقال لسيدنا إبراهيم ﵇: أنا أحيي وأميت، فلفت إبراهيم ﵇ نظره إلى الكون بسننه الثابتة وقال له: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾(١).

واسمع إلى هذا الحوار الذي يستثير عقلك والذي دار بين سيدنا عيسى ﵇ وربه يقول له ربه: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾(٢)، تسليم بالوحدانية، وإقرار بالعبودية عقلاً وشرعاً.

ثم تأتي بعد ذلك قضية العقل قضية الرسل وهي قضية عقلية في المقام الأول؛ لأننا طالما نعتقد أن لهذا الكون إلهًا واحدًا أحدًا فردًا صمدًا، فمن الطبيعي أن نبحث عن شكل العلاقة بيننا وبينه ﷻ، وكيف تكون هذه العلاقة؟ وما الذي يريده منا هذا الإله الواحد الأحد؟ لماذا خلقنا؟ وما الذي يحبه؟ وما الذي يكرهه؟ وما الذي أمرنا به؟ وما الذي نهانا عنه؟ أسئلة كلها منطقية متمشية مع تفكير العقل السليم فكان إرسال الرسل نتيجة عقلية لتسليمنا بوجود الإله؛ إذ من الضروري أن نتعرف على هذا الإله: صفاته وقدراته وأسمائه ﷻ، لماذا خلقنا؟ فكان من الطبيعي أن يرسل الرسل تجيب عن هذه الأسئلة إجابة شافية ليتعرف المخلوق إلى خالقه، وهنا يقف العقل عند حده ولا يتجاوز حدوده ولا شأن له بعد ذلك إلا التسليم بما يأتي به الرسل؛ لأن في رسالة الرسل أمورًا يعجز العقل عن إدراكها، فلا بد أن يسلم تسليماً ولا يخرج عن وظيفته المحدودة بالزمان والمكان.

فهم لابد منه:

إننا لا نستطيع أن نُحكّم العقل في كل شيء يمتد مداه إلى ما لا نهاية؛ لأن العقل يتعامل مع محسوسات وملموسات ويحده زمان ومكان، ولا يستطيع أن يدرك شيئاً

(١) من الآية ٢٥٨ من سورة الأنعام.
(٢) من الآيتان ١١٦،١١٧ من سورة المائدة.

حتى يحصره بين هذين الأمرين: **الزمان، والمكان فحسب**. فما لم ينحصر بينهما لم يدركه العقل بنفسه، فالعقل لا يحكم إلا في حدود الزمان والمكان فما كان خارجًا عنهما من مسائل مثل الروح، والقبر وعذابه ونعيمه، والجنة، والنار، وأمور القدر، وأسماء الله وصفاته، وغير ذلك من الأمور الغيبية، فلا حكم للعقل عليها، ولابد من التسليم إيمانًا بما أخبرلا به الرسل؛ وذلك لأن العقل محدود والمحدود لا يحكم على غير المحدود، لأنه لا يستطيع أن يحيط به.

فالعقل يختل ميزانه إن حاول الحكم على غير المحدود، ويقع في التناقض المستحيل إذا بحث فيما لا ينتهي، كالبحث في عالم الغيب مثلاً وخلود المؤمنين في الجنة، فعقل المؤمن موقن بأن ذلك حقيقة، وجاءه هذا اليقين ليس من تفكير العقل المجرد، ولكن من الخبر الصادق وأما عقله فلا يحيط بهذا الخلود، فهو يحتاج إلى الإيمان بنور الوحي لكي يضيء له الطريق ويحدد له المعنى المراد من رب العباد.

فعندما يخبرنا الرسول ﷺ بأن القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، فإذا أتى من يريد أن يحكم عقله المريض فيما أخبر به الرسول ﷺ فيحفر القبر ليرى الروضة أو الحفرة التي أكد وجودها النبي ﷺ، فإنه لن يرى هذه أو تلك؛ لأن تأكيد وجودها ليست مهمة العقل الذي يريد أن يراها رأي العين في دنياه؛ ولهذا السبب يسمي العلماء العبادات غير معقولة المعنى، ففيها التسليم والطاعة؛ ولهذا أيضًا فإن والمسلم يتهم عقله بالعجز ولا يتهم الشرع بالنقص؛ ولذا وجب على المسلم أن يعي ذلك ويتفهمه.

فكم زلت أقدام بعد ثبوتها حين أطلقت للعقل العنان، وجعلته هو المنشئ المريد، وكم هوت عقول في مكان سحيق وتخطفتها الطير لهذا السبب، وكم من عقل مضى في الطريق فضلّ حين رفض الوحي مرشداً، فإذا هو ﴿**كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ**﴾[1]، أويصبح في حالة ﴿**كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ**

---

(١) من الآية ٣٩ من سورة النور.

﴿بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[١].

ولا يحسبن أحد أننا بذلك ندعو إلى تعطيل العقل أو تحجيمه، بل ندعوه لانطلاق بعيد المدى في التفكير في جميع الأنفس والآفاق ولكن في حدود مجاله وفيما خلق من أجله، فالذين عطلوا أسماعهم وأبصارهم وعقولهم، وغفلوا عن الحق واتبعوا الباطل الذي لا دليل عليه ولا برهان، استثار الحق عقولهم فقال: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾[٢]، ويذكرهم بيوم يقولون فيه: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ، فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[٣].

تلاميذ إبليس والعقل:

إن عباده العقل والتحاكم إليه ليسّ بجديد، بل هو من يوم أن قاس إبليس بعقله -إن كان له عقل- وقال لربه: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[٤]، والنار أقوى من الطين، وهذا هو القياس الفاسد الذي بدأ به هذا اللعين وجعل له رأيًا مع أمر الله، وقارن بين النار والتراب واستخدم حواسه فضلّ وأضل.

وتلاميذ إبليس الذين تخرجوا من مدرسته وحكَّموا عقولهم في أمور ليس للعقل أن يُحكَّم فيها وصلوا إلى أن قالوا: ﴿أَرِنَا اللَّهِ جَهْرَةً﴾[٥] بأعين لا تستطيع أن ترى كل ما في الكون المادي المحسوس، وقالوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾[٦] نأكل منها وتطمئن قلوبنا فأكلوا وشربوا وكفروا لأن العقل ممسوخ والجحود موجود.

وصدق الله حين قال: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ

---

(١) الآية ٤٠ من سورة النور.
(٢) من الآية ١٤٨ من سورة الأنعام.
(٣) الآية ١٠ من سورة الملك.
(٤) من الآية ١٢ من سورة الأعراف.
(٥) من الآية ١٥٣ من سورة النساء.
(٦) من الآية ١١٢ من سورة المائدة.

حَسِيرٌ﴾[١]، فهل هذا الذي فعلوه من العقل أو من التفكير السديد؟ ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٢].

وأمثال هؤلاء في زماننا، منهم من يتكلمون عن الحجاب تارة وعن الختان تارة، وعن قطع يد السارق ورجم الزاني، وبإسفاف يناقشون أوامر الله ومن سخافاتهم يقولون: لماذا غطاء الشعر؟ هل الشعر نجاسة من النجاسات على الرأس كي نغطيها؟ وأمثال هؤلاء يؤمنون بما يقوله ماركس وفرويد وغيرهما من وهؤلاء الأفاكين الذين يدّعون أنهم قادة للعلم وأساتذة للفكر، فعندما تقول لهم: قال الله وقال الرسول ﷺ، تراهم يلوون رءوسهم ويستكبرون، وهم أنفسهم الذين يتعجبون ويقولون: كيف نقبل حجراً لا يضر ولا ينفع -أي الحجر الأسود- إنها وثنية!! ﴿فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ﴾[٣].

إن هذا التفكير التافه المريض أوصل بعضهم إلى أن يقول: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾[٤]، وهو لم يصعد بعد ليرى طلبه وبالرغم من هذا أصدر الحكم ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾[٥]، أهذا هو المنهج العلمي الذي يدعونه؟ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾[٦]

ويحضرني قصة لطيفة وقعت في إحدى المدارس في إحدى الأقطار العربية حين وقف معلم ابتدائي يقول لتلاميذه: أترونني؟ قالوا: نعم. قال: فإذن أنا موجود، أترون اللوح؟ قالوا: نعم. قال: فاللوح إذن موجود، أترون المكتب؟ قالوا: نعم. قال: فالمكتب إذن موجود، قال: أترون الله؟ قالوا: لا. قال: فالله إذن غير موجود تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

---

(١) الآية ٤ من سورة الملك.
(٢) من الآية ٤٦ من سورة الحج.
(٣) من الآية ٣٣ من سورة الأنعام.
(٤) الآيتان ٣٦،٣٧ من سورة غافر.
(٥) من الآية ٣٧ من سورة غافر.
(٦) الآية ٢٣ من سورة النجم.

فوقف أحد التلاميذ الأذكياء وقال: أترون عقل الأستاذ؟ قالوا: لا. قال: فعقل الأستاذ إذن غير موجود.

ولذلك فإن العقل لابد أن يقوده الوحي ويوجهه الوجهة الصحيحة ويبصره بالطريق ويهديه السبيل حتى لا يضل؛ ولذا كان ضمن منهج التربية الإسلامية تربية العقل لتكون مخرجاته إسلامية.

الإسلام والعقل:

اهتم الدين الإسلامي بالعقل -كما قلنا- اهتماماً بالغاً ويكفي أن تكريم الله للإنسان بدأ بتكريم عقله ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾[1]، وهذه الأسماء للأشياء كلها يفكر فيها العقل كيف يستخدمها لكي يسخرها في عمارة هذا الكون بمنهج الله، «فهو دين عملي لا يعرف الكهانة ولا يتوسط فيه السدنة والأحبار بين المخلوق والخالق، ولا يفرض على الإنسان قربانًا يسعى به إلى المحراب بشفاعة من ولي متسلط أو صاحب قداسة مطاع، فلا ترجمان بين الله وبين عباده يملك التحريم والتحليل أو يقضي بالثواب والعقاب، ودين هذا شأنه لن يتجه فيه الخطاب بداهة إلى غير الإنسان العاقل»[2].

ولذلك خلق الله الإنسان وأمده بإمكانات تؤهله للسيادة على الأرض بهذه العقيدة الصافية التي يشيد بها نظاماً ربانياً يحقق للبشرية سعادتها في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة، ومن هذه الإمكانات: العقل الذي يهدي الإنسان في مسالك الحياة، فإذا بالإيمان يملأ قلبه فيدفعه إلى ارتياد هذه المسالك فيسعى ليسخر ما في الكون لرسالته فيسيطر على البر والبحر، ويحصل رزقه من الطيبات مما في الأرض: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[3]، ويبين لنا ربنا ﷻ عجز الإنسان بالرغم من عقله الذي يفكر به فيضرب الأمثال له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ

---

(١) من الآية ٣١ من سورة البقرة.

(٢) الاجتهاد في الشريعة الإسلامية أطراف من بحث التربية الإسلامية وأثرها في المجتمع للدكتور عبد الرحمن عميرة ص٢٧٦.

(٣) الآية ٧٠ من سورة الإسراء.

وَالْمَطْلُوبُ، مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[١]، فأي عجز للإنسان أمام ما يبين القرآن له ويوضح له.

«وبذلك يكون قد استخدم عقله للهداية لا للإفساد، وقلبه للإيمان ومحبة عباد الله الصالحين، لا للكفر والحقد والكراهية، ويسعى في تحصيل الخير وعمران الأرض، فإذا به -بهذا العقل الراجح والقلب السليم- يصبح سيد نفسه فيؤمن بالحق وينصره، ويكفر بالباطل ويطارده؛ لأن الإسلام يريد للإنسان أن يكون إنساناً»[٢].

ومن أجل هذا كان خطاب المولى ﷻ للعقل الصائب، والإدراك السليم أن يعقل ويفكر ويتأمل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[٣].

إنها دعوة إلى العقل المجرد ليفكر تفكيراً سليماً بعيدًا عن الهوى والظن ويعرف أن له خالقاً خلقه وصانعاً أوجده. ولقد ضرب القرآن المثل ليوضح ذلك للعاقلين، يقول بعض السلف: إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن الله يقول: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ﴾[٤]، قال الحسن: لا يتم دين الرجل حتى يتم عقله وما أودع الله امرأ عقلاً إلا استنقذه به يوماً.

واسمع إلى القرآن وهو يثير العقول لتعي وتنظر وتتدبر قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾[٥]، والآيات التي تثير العقل وتدعوه إلى التفكير للوصول للهداية الحقة كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ[٦]﴾، ويقول للرسول ﷺ: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ

---

(١) الآيتان ٧٤،٧٣ من سورة الحج.
(٢) منهج القرآن فى عرض عقيدة الإسلام للمؤلف ص١٣.
(٣) الآية ٤٦ من سورة سبأ.
(٤) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت.
(٥) الآية ٢٦ من سورة البقرة.
(٦) من الآية ٩١ من سورة المؤمنون.

﴿إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾[١]، وبذلك يحرر الإسلام العقل ويدعوه إلى التفكير السليم ولا يصادره.

وتأمل هذا القول من رجل طمس الله على قلبه فبدل أن يسأل الله الهداية يقول: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾[٢]، العقل يقول: فاهدني، ولكنه يطلب طلبًا يستنكره العقل السديد، فماذا يطلب من الله؟! ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٣] ألا فما أقبحها عقول ممسوخة قال عنها ربنا: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[٤].

العقائد الأخرى والعقل:

لقد أشارت كتب الأديان الكبرى إلى العقل ولكن الحديث عنه كان يأتي عرضاً غير مقصود بل إننا نري بعد تحريف هذه الكتب -التحذير من العقل- يقولون مثلاً: اطفئ مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى[٥]. فاحمد الله على إسلامك الذي يدعوك لتعقل الأمور، وتفكر قبل أن تعتقد.

إن رجال الدين في أوربا وغيرها كانوا يعتبرون التفكير والنظر في مسائل الدين قرين الكفر والإلحاد ومن ثم ظل الفكر الإنساني قرونًا طويلة مكبلاً بالقيود والأغلال في ظل العقائد والعبادات الضالة المنحرفة وهو سر الأسطورة التي ذاعت في العصر الحديث في أوربا من عداء الدين للعلم والنظر والتفكير والكشف.

ولقد ابتدع رجال الدين في أوربا كثيراً من الأساطير والألغاز، وأحاطوا العقيدة السمحة بكثير من الغموض والأسرار حتى يكون لهم على نفوس الناس سلطان، ويكون لهم في الحياة عمل يحلون الرموز، ويكشفون الأسرار فلا يتوب مذنب ولا

---

(١) من الآية ٤٢ من سورة الإسراء.
(٢) من الآية ٣٢ من سورة الأنفال.
(٣) من الآية ٣٢ من سورة الأنفال.
(٤) الآية ١٧٩ من سورة الأنعام.
(٥) دائرة معارف القرن التاسع عشر كتاب الإسلام دين خالد ص١١٤ نقلاً عن كتاب منهج القرآن في التربية محمد شديد ص١٢٨.

يصلي عابد ولا يدعو إنسان أو يتصل بخالقه أو يفارق الدنيا إلا على يد كاهن أو قديس كما ادعو.

فأين هذا من قول ربنا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2].

ومن ثم ثار القرآن ثوره عارمة على الشرك والكهانة والوساطة، فقضى على جميع مظاهر العبودية لغير الله، وحرر العقول وطالبها بالتفكير والتدبر، وأشاع فيها اليقظة والنور وجعل الصلة مباشرة بين العبد وخالقه لا تحتاج إلى وساطة ولا كهانة- كما بينا.

لقد كانت الرسالات السابقة تعتمد علي المعجزات الحسية التي تراها العين لترغم الناس على التصديق والإيمان، فجاء القرآن بمنهج جديد يتفق مع ما أراد للبشرية من اكتمال ورشد. منهج العقل الذي لا يعتمد على قسر أو معجزة، طليق من كل قيد أو إكراه؛ ولذلك فإن العقل في الإسلام لا يذكر إلا في مقام التعظيم والتنبيه وإلى وجوب العمل به والرجوع إليه، وفي القرآن آيات كثيرة تحث المؤمن على تحكيم عقله أو يلام فيها على إهماله عقله وقبول الحجر عليه. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ، وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ، وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3] وفي المقابل يقول تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[4].

العقل ثورة على الهوى والتقليد:

ولقد حمل القرآن على الغافلين الذين يعطلون عقولهم ويغلقون على أنفسهم منافذ المعرفة والنور، وهبط بهم دون مستوى الأنعام: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ

(١) من الآية ١٨٦ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ٦٠ من سورة غافر.
(٣) الآية ١٤٦ من سورة البقرة.
(٤) الآية ٢٢ من سورة الأنفال.

الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[١]، وهاجم التقليد والمقلدين لآبائهم الضالين وصورهم في صورة السائمة التي لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر ولا تنطق ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ۞وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[٢].

وعرض صورة معبرة مثيرة للذين لا يريدون أن يسمعوا أو يفكروا من قوم نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلا وَنَهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا، وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾[٣]، فأين هؤلاء من الذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[٤].

تحرير العقل من التعطيل:

لاشك أن الإسلام بعقيدته الصافية يحرر العقل من سلطان الخرافة والوهم والجمود والتقليد-كما بينا- ذلك لأن العقيدة ترسخ الحقائق في العقول، وتدحض منطق الانحراف والضلال وتنبه الإنسان إلى مشاهد هذا الكون بإثارة نزوعه الفطري الأصيل نحو التأمل المنتج والتدبر الهادف فيما خلق الله في هذا الكون من مخلوقات تحيط بالإنسان من كل جانب، وتدل بروعة إنشائها ودقة إحكامها وكمال تناسقها، ووحدة نواميسها على عظمة بارئها، وقدرة مصورها وفي ذلك أعمق إيحاء وأجل برهان على وحدانية الله تبارك وتعالى واستحقاقه للعبادة والخضوع والشكر.

وملاك الأمر في هذه القضية أن توحيد الله تبارك وتعالى هو مفرق الطريق في حياة الإنسان بين ما يجب أن يكون عليه رعاية للعمل العقلي السليم والمنطق السديد الذي يحقق الدقة والنظام في أخطر شأن من شئون البشر-وهو العقيدة- وبين ما لا

---

(١) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف-ذرأنا=حلقنا.
(٢) الآيتان ١٧٠، ١٧١ من سورة البقرة وينعق يصيح غنمه، وألفينا وجدنا.
(٣) الآية ٧ من سورة نوح واستغشوا غطوا.
(٤) الآية ١٨ من سورة الزمر.

ينبغي له ولا يليق به من استخفاف بما يحكم به العقل السوي وما يحمل عليه المنطق الصحيح وما يؤدي إليه الاستخفاف من اضطراب وفوضى في العقيدة بسبب الانسياق وراء الخرافات الباطلة والأوهام الزائفة التي يأباها العقل ويرفضها المنطق.

ذلك لأن توحيد الله ﷻ وحده الذي يحرر العقل الإنساني من التعطيل المزري والانسياق وراء الأهواء والخرافات والأساطير الغامضة والباطلة؛ لأن المنهج الإسلامي ليس به أوهام وأسرار وخرافات تصطدم مع العقل الإنساني السليم والمنطق الصحيح، بل لقد جعل هذا المنهج الرباني العقل الإنساني هادياً إلى الحق، وأمر بالاحتكام إليه في حقائق الوجود، وجعله مناط الفصل في حسم الجدال بين الملحدين والمؤمنين، وحول أي قضية يثور النزاع فيها بين الشك واليقين.

والقارئ للتاريخ يرى أن الحفاة العراة رعاة الشاة البسطاء في تفكيرهم كانوا يفضلون تطبيق المنهج الذي يحترم العقل. هم الذين كانوا أول من صنعوا الأساطيل في البحار، وأول من اكتشف المناظير، وأول أطباء في كل مجال من المجالات، بل إنني لا أبالغ إن قلت إن أوربا في هذه الفترة لا أقول كان يفخر الواحد منهم أنه تعلم حرفة أو صنعة أو اختراع قام به المسلمون ولكن كان يفخر بأنه تعلم اللغة العربية مفتاح العلوم يومئذ، ومن أجل ذلك فإن ربنا ﷻ يعلي من شأن العقل والدعوة إلى إعماله في فهم آيات الله وإدراك دلائل الهداية في الكون والحياة وتأمل هذه الآيات:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]، ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2]، ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[3]، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[4].

وهذا المنهج يقرر أن الذي يعمل عقله فيعلم الحق ويوقن به، هو الإنسان السوي والبصير، وأن الجاهل الذي يعطل عقله فلا يعلم ولا يهتدي، هو الأعمى مطموس

---

(١) من الآية ٦١ من سورة النور.
(٢) من الآية ١٧ من سورة الحديد.
(٣) الآية ١٥١ من سورة الأنعام.
(٤) الآية ٢ من سورة يوسف.

البصيرة، مشلول الإدراك. كما قال ﷻ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[١]، فليس هناك أبداً تضارب أو صدام بين آيات الله ﷻ المقروءة وآياته المنظورة واستحالة أن يكون هناك تضارب: ﴿ألا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[٢]، بل هناك انسجام في هذا الكون الذي يسجد لله ﷻ ويهتز من الشرك ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۞ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۞ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۞ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۞ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۞ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۞ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾[٣]، هكذا يقف العقل المسلم عند حدوده؛ لأنه مجال يفكر فيه فإن خرج عن مجاله تحطم فهو كالكوكب والنجم في السماء له محور ومدار إن حاول أن يخرج عنه سقط من عليائه، كذلك العقل المسلم حُدد له إطار ومدار يدور فيه: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفلا تُبْصِرُونَ، وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ﴾[٤]، فهو يفكر في ذاته وفي نفسه وفي خلقه لكي يستشعر قدرة الله ﷻ عليه.

«إن هذا التحرر للعقل هو الذي يفتح المدارك، ويثير الفكر، ويحمل على الاستزادة من العلوم والمعارف، ويفصل فصلاً حاسماً بين الحقائق والأوهام. ذلك أن الإنسان إنما يفكر ويتقدم في مضمار العلم بالعمل العقلي، فإذا تعطل العقل، انحسرت المعرفة، وضمر العلم؛ لهذا فإن الإسلام يعقد أوثق الأواصر بين الإيمان والفكر، والإيمان والمعرفة والإيمان والتقدم في الميدان العلمي، حين يدعو الإنسان إلى النظر والتأمل والتدبر في خلق السماوات والأرض ويحثه على التفكير في عالم النفس»[٥] وفي آفاق الكون، ويرى أن خير عظة توجه إلى الإنسان هو أن يفكر تفكيراً سليماً وينظر نظراً صحيحاً في آيات الله في الأنفس والآفاق.

ومن أجل ذلك لا يتصور في ظل منهج الإسلام أي ضرب من ضروب النزاع

(١) الآية ١٩ من سورة الرعد.
(٢) الآية ١٤ من سورة الملك.
(٣) الآيات ٨٨-٩٥ من سورة مريم.
(٤) الآيتان ٢١،٢٢ من سورة الذاريات.
(٥) لمحات في الثقافة الإسلامية ص٢٢٢ عمر عودة الخطيب.

بين الدين والفكر أو العلم كمثل ما عرفت أوربا من نزاع طويل مرير بين العلماء وبين رجال الكنيسة، وشتان بين هذا ومنهج القرآن الذي يصادق العلم والفكر ولا يعاديهما، فلا تجد حكماً في الإسلام يشل حركه العقل أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم.

دور العقل:

ليس في طاقة العقل أن ينشئ تصورًا واقعياً شاملاً للكون والحياة والإنسان وأن يحيط بالخالق ويدرك -وحده- أسماءه الحسني وصفاته المثلى، وأن تكون له الكلمة في نشأة الحياة ومصيرها.

فلابد للعقل أن يعرف حدوده ويحدد وظيفته حتى تستقيم الحياة وينجو الفكر الإنساني من التيه والضلال، فليس يضر العقل أن يعجز عن إدراك مما ليس في طاقته، إنما يضره أن يضنيه العناء والجهد في غير ما خلق له، ولا يملك أداة البحث فيه. والعقل في الإسلام له دوره في قضية الإيمان ومنهج الحياة ونظامها ولقد حدد الإسلام له دوره ووضح له القواعد لذلك. فمن ذلك أنه يتلقى عن الرسالة ووظيفته أن يفهم ما يتلقاه عن الرسول ﷺ ومهمة الرسول أن يبلغ ويبين، وينبه العقل إلى تدبر دلائل الهدى وموجبات الإيمان في الأنفس والآفاق، وأن يرسم له منهج التلقي الصحيح وليس دوره أن يكون حاكماً على الدين ومقرراته من حيث الصحة والبطلان والقبول والرفض، بعد أن يتأكد من صحة صدورها عن الله، ولكنه ملزم بقبول مقررات الدين متى بلغت إليه عن طريق صحيح، ومتى فهم عقله المقصود بها والمراد منها، فرسالة الإسلام تخاطب العقل بمعنى أنها توقظه وتوجهه وتقيم له منهج النظر الصحيح، لا بمعني أنه هو الذي يحكم بصحتها أو بطلانها، وبقبولها أو رفضها متي ثبت النص كان هو الحكم وكان على العقل البشرى أن يقبله ويطيعه وينفذه سواء كان مدلوله مألوفاً أو غريباً عليه، وأكبر دليل على هذا هو عجز العقل عن إدراك حكمة الله البالغة في كثير من الأمور مما جاء في القصص القرآني من مواقف تدل على التسليم المطلق لأمر الله دون عرضها على العقل لتستفتيه طالما أنها تخالف منطوق العقل كما حدث مع نوح وهو يصنع الفلك بأمر الله في أرض صحراوية لا

تمطر ماء ولا تنبت زرعاً ومع هذا صنعها فلما انتهى من صنعها قال لنا في القرآن: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ۞ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۞ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۞ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۞ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾[١].

وإبراهيم حين أُمِر بذبح ابنه الحليم وترك ولده، وزوجته في صحراء جرداء لا يملك إلا أن يقول: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[٢].

فكان ما كان من فضل الله على هذا المكان الذي أصبح مثابة للناس وأمناً: ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[٣]، وكانت زمزم التي لا ينضب ماؤها أبداً.

وأم موسى التي ألقت بفلذة كبدها في اليم انصياعًا لأمر الله وقال لها ربها: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[٤]، وهذا أمر غير معقول؛ لأن العقل يقول إن خفت عليه فهربيه، إن خفت عليه فأخفيه، ولا يقول في هذا الموقف إن خفت عليه فألقيه في اليم، فلما كان عقل أم موسى مرتباً ترتيباً إيمانياً بعد ما عرفت الله تعالى بقدرته وقوته وحكمته وصفاته ﷻ كان التسليم، فعين العقل هو التسليم لله ﷻ، ولهذا فإن إيمان أم موسى هو الذي جعلها تلقي بفلذة كبدها ووضعت كلمات ربها موضع التنفيذ وهي تسمع لقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[٥]، ولقد صدق الله وعده ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[٦].

عندما تشوق سيدنا موسى لرؤية الله ﷻ وهو بشر، وبشريته دفعته لأن يرى هذا الإله القوي فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ

---

(١) الآيات ١٠-١٤ من سورة القمر.
(٢) الآية ٣٧ من سورة إبراهيم.
(٣) من الآية ١٢٥ من سورة البقرة.
(٤) من الآية ٧ من سورة القصص.
(٥) من الآية ٧ من سورة القصص.
(٦) الآية ١٣ من سورة القصص.

مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾[١]، وأين هو من الجبل: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

أما سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يره الله كيف يحيي الموتى حين سأله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[٣]، ولكن أراه قدرته لكي ينشأ في قلبه العابد لله الثقة، فأين هذا من التعيس الكافر الذي أمسك بعظام نخرة وذهب بها إلى الرسول ﷺ وقال له: يا محمد أيستطيع ربك أن يحيي هذه العظام النخرة بعدما ما بليت ورمت وأصبحت بهذه الصورة؟ فلم يجبه رسول الله ﷺ لكن أجابه القرآن إجابة تثير العقول وتنير القلوب فقال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[٤]، فالذي ينشئ شيئاً قادر على إعادته مرة أخرى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ، الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ، أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٥].

فلا تعجب من موقف إسماعيل عليه السلام حين يقول له سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾[٦]، انظر إلى عَجُز الآية العجيب: ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾[٧]، أب يقول لابنه: أريد أن أذبحك فما رأيك؟ لكن الابن الحليم الذي عرف حدود عقله فلم يتركه يفكر ولكن لابد وأن يطيع أمر الله ﷻ تسليماً واستسلاماً فلم يقل له: يا أبت افعل ما أَمرت، فليس هذا بأمر أبيه، فلو كان هذا الأمر صادراً من أبيه لما استمع له ولكنه صادر من عند الله ﷻ؛ لذا قال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[٨].

---

(١) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.
(٢) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.
(٣) من الآية ٢٦٠ من سورة البقرة.
(٤) الآيتان ٧٨، ٧٩ من سورة يس.
(٥) الآيات ٧٩-٨٢ من سورة يس.
(٦) من الآية ١٠٢ من سورة الصافات.
(٧) من الآية ١٠٢ من سورة الصافات.
(٨) من الآية ١٠٢ من سورة الصافات.

وهذا سيدنا موسى عليه السلام نفسه يخرج بقومه وأعداؤه من خلفه والبحر من أمامه ومنطوق العقل يقول: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[1]، لكن منطوق الإيمان التسليم ومنطوق العقل التفكير، فكان منطوق الإيمان ﴿قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[2]، فضرب بعصاه البحر: ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[3].

وقصته عليه السلام مع الخضر معروفة نقرؤها في سورة الكهف كل يوم جمعة، وتصور حاله عليه السلام وهو يسير مع فتاه يوشع بن نون فذكر له عبدًا من عباد الله بمجمع البحرين، عنده من العلم ما لم يحط به موسى، فأحب الرحيل إليه كما حكى لنا ابن عباس عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسُئِلَ: أي الناس أعلم؟ قال: أنا فعتب الله إذ لم يردّ العلم إليه، فأوحى الله إليه أن لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب وكيف لي به؟ فوصف له كيف يصل إليه حتى إذا التقى به قال له موسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ۞ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾[4]، قال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾[5]، قال له الخضر: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ۞ فَانطَلَقَا..﴾[6] وكان ما كان من تصرفات الخضر التي لا يدركها العقل ولا يتصور ما ورائها من حكمة حين خرق السفينة، فالعقل يقول: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ۞ قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾[7]، فكانت الثانية حين أبصر غلامًا يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾[8]، قال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ۞

---

(١) من الآية ٦١ من سورة الشعراء.
(٢) الآية ٦٢ من سورة الشعراء.
(٣) من الآية ٦٣ من سورة الشعراء.
(٤) الآيتان ٦٦،٦٧ من سورة الكهف.
(٥) من الآية ٦٩ من سورة الكهف.
(٦) الآيتان ٧٠،٧١ من سورة الكهف.
(٧) الآيات ٧١-٧٣ من سورة الكهف.
(٨) من الآية ٧٤ من سورة الكهف.

قَالَ إن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً ۞ فانطَلَقَا حَتَّى إذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جداراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْه أَجْراً ۞ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ۞ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وكَانَ وراءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ۞ وأَمَّا الغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وكُفْراً ۞ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وأَقْرَبَ رُحْماً ۞ وأَمَّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المَدِينَةِ وكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ويَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ومَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾[1].

أرأيت إلى العقل وعجزه عن إدراك حكمة الله البالغة في هذا الوحي من الله إلى هذا العبد الصالح، إنها أمور على غير مألوف العقول لا نستطيع معها إلا التسليم: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[2].

وإليك صورة أخرى مع رسول الله ﷺ في غزوة الأحزاب، تجمع الأحزاب من جميع القبائل مع اليهود على رسول الله ﷺ، حتى إن سيدنا سعد بن معاذ لما ذهب الرسول ﷺ إلى يهود وعرض عليهم ثلث ثمار المدينة على أن يكفوا عن حربه، وبدأ يستشير الصحابة ومنهم سعد بن معاذ، قال: يا رسول الله آأمر تصنعه لنا أم أمر أمرك الله ﷻ به؟ قال بل أمر أصنعه لكم، قال: يا رسول الله كنا نعبد الأصنام وكنا لا نعطيهم شيئاً إلا قرى أو بيعاً، أفبعد أن أعزنا الله بالإسلام ثم بك نعطيهم! والله لا نعطيهم شيئاً. تفكير بمنطق إيماني وليس بمنطق عقل مجرد وكأن سعدًا يقول: أنعطي الدنية في ديننا يا رسول الله! بالرغم من وصف القرآن لهذا الحال ﴿إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾[3]، ماذا يقول المنطق أمام هذا الجيش الجرار -عشرة آلاف أمام ثلاثة آلاف- غير العتاد، ماذا يقول؟ يقول إنها الهزيمة لا محالة أمام هذا الجيش الجرار لكن ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا

---

(١) الآيات ٧٥-٨٢ من سورة الكهف.
(٢) من الآية ٣٦ من سورة الأحزاب.
(٣) الآية ١٠ من سورة الأحزاب.

إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا﴾[1]، لذلك قال ربنا: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾**[2].

فللعقل مجاله الذي يعمل فيه فإن تعداه اعتدى وضل ولا يهتدي سبيلاً. فما هو مجال العقل؟

مجال العقل إذن:

أولاً: له أن يعارض مفهوما عقليًا بشريًا للنص بمفهوم عقلي بشري آخر له، فلا حرج عليه في هذا ولا حجر ما دامت هناك أصوله الصحيحة مجال للتأويل والأفهام المتعددة، مثلما يحدث بين العلماء من اجتهاد في الأمور الظنية.

ثانيًا: أن يتدبر دلائل الهدى وموجبات الإيمان في الأنفس والآفاق.

ثالثاً: محاولة فهم النصوص القرآنية والاقتناع بها ليسلم تسليمًا كاملاً ويخضع لأوامر الله ويلتزم بها؛ لأن الأحكام القطعية ليس للعقل مجال للاجتهاد فيها، فالإسلام يخاطب العقل ويكل إليه فهم مدلولات النصوص التي تحمل مقرراته، ولا يفرض عليه أن يؤمن بما لا يفهم مدلوله ولا يدركه، فإذا وصل إلى مرحلة إدراك المدلولات وفهم المقررات لم يعد أمامه إلا التسليم وإلا كان العقاب الذي ينتظره[3].

منهج الإسلام في تربية العقل:

اهتم الإسلام بتربية العقل تربية تتفق مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها ويحوطه بسياج من العناية والرعاية؛ لأنه مناط التكليف وعليه المعول في فهم الشريعة وتطبيقها. وإذا ما اختل العقل سقطت التكاليف عن صاحبه جملة- وقد يفقد خصائصه التي فيه، فهو حينئذ إلى الأنعام أقرب!

---

(١) الآيتان ٢٢،٢٣ من سورة الأحزاب.

(٢) من الآية ٣٦ من سورة الأحزاب.

(٣) الاجتهاد في الشريعة الإسلامية وبحوث أخرى للدكتور عبد الرحمن عميرة ص٢٧٨ بتصرف.

ويعمد الإسلام أولاً إلى تفريغ العقل من كل المعتقدات والتصورات التي لا تتفق ومنهجه سواء أكانت:

تصورات عن الألوهية، أو تصورات عن طبيعة الكون، أو معتقدات عن الخلق والحياة، تلك المعتقدات الفاسدة والتصورات الضالة التي تردت البشرية فيها ردحًا من الزمن ولا زالت تتردى فيها إلى الآن والتي لم تقم على يقين، وإنما قامت على مجرد الظن والتقليد: ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى**﴾[1].

ولذلك بدأ الإسلام برحلة طويلة مع العقل الإنساني للكشف عن هذه الانحرافات، وأخذ في نقضها واحدة تلو الأخرى، فتعرَّف الإنسان على خالقه الذي ليس كمثله شيء والذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، والذي إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فعرفه بصفاته وأسمائه وقدرته: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾[2].

وتعرَّف على نفسه: مَن هو ومن أي شيء خلق وما رسالته في الوجود؟ وما المصير الذي ينتظره: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ**﴾[3]، ويقول إبراهيم عليه السلام عن ربه: ﴿**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ،وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ**﴾[4]، كما دعاه إلى النظر في الكون والحياة بمنهج فيه التفكر والتدبر وإعمال العقل ليزداد إيماناً مع إيمانه.

دعوة إلى النظر في الكون:

بعد أن كانت العقول أسيرة الأوهام والخرافات محصورة في حيز الأرض لا تحلق

---

(١) من الآية ٤٣ من سورة النجم.
(٢) الآية ١٢ من سورة الطلاق.
(٣) الآيات من ١٢-١٦ من سورة المؤمنون.
(٤) الآيات ٧٨-٨١ من سورة الشعراء.

ولا ترتفع، حبيسة العقائد الفاسدة، أطلقها القرآن الكريم من أسرها وأخرجها من محبسها وضيقها ودعاها إلى النظر وإعمال العقل وساح بها من المنشأ إلى المصير، وطاف بها على بدائع صنع الله في السماء والأرض، وجعل لها الكون محراباً للتفكر والتدبر والاعتبار، ودعاها إلى تتبع يد القدرة ورؤيتها وراء كل شيء.

«فأنت تقرأ كتاب الله المنظور في هذا الكون وتتأمل صفحاته استجابة لأمر الله بالتفكر في خلقه، وهذا أسلوب من أساليب القرآن الفريد في إرساء العقيدة وتعميقها ومعرفة للأدلة الحية المتحركة التي توصلك إلى اليقين وتنأى بك عن التقليد؛ إذ إن الناس في قوة العقيدة أقسام كثيرة بحسب وضوح الأدلة وتمكنها من نفوس كل قسم، فمنهم من تلقاها يقينًا واعتقدها عادة، وهذا لا يؤمَن عليه من أن يتشكك إذا عرضت له الشبهات، ومنهم من نظر وفكر فازداد إيمانه وقوي يقينه وثبت فؤاده»[١]: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ﴾[٢].

ولذلك دعانا القرآن للتأمل في هذا الكون لنتعرف على الله كوسيلة من وسائل تربية العقل وأسلوب من أساليب إرساء العقيدة ومعرفة الأدلة الحية المتحركة في هذا الكون الذي نعيش فيه؛ ولذلك دعانا المولى ﷻ للتأمل والتدبر فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ، وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٣].

وتأمل وحدانية الخالق وأنت تقرأ كتاب الله المنظور فترى تطابقه مع كتاب الله المقروء: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن

(١) رسالة العقائد للإمام البنا ص٣٧٩ من مجموعة الرسائل.
(٢) الآية ١٧ من سورة محمد.
(٣) الآيات ٣-٤ من سورة الرعد.

تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۞ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ۞ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ۞ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّن يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[١].

«فالآيات التي تدعوك للتأمل والتفكر في الأنفس والآفاق لا تعد ولا تحصى لتوقظ القلب، وتنبه العقل وتفتح العين ثم تترك للفكر أن يصل إلى مداه»[٢].

ولذلك كانت حياة رسول الله ﷺ فكراً متصلاً ودعوة وتربية على النظر والتفكر، يبيت ليله عابداً باكياً مفكراً في آلاء الله وخلقه، يقول عبد الله بن عمر لعائشة رضي الله عنها: أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ

فبكت وقالت: كان أمره عجباً، أتاني في ليلة حتى مس جلده جلدي ثم قال: «**ذريني أتعبد لربي عز وجل**»، فقلت: والله إني لأحب قربك وأحب هواك، فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي، فبكى حتى بلّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بل الأرض، ثم اضطجع على جنبه حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾**[٣]»، ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»[٤].

اهتمام القرآن بالعلم والعلماء:

لقد اهتم القرآن بالعلم والعلماء؛ لأن العلم مادة التفكير عند العلماء، والعلماء هم الذين يقدمون العلم أو ثمار هذا العلم ومردوده سواء أكان دعويًا أو تربويا،

---

(١) الآيات ٥٩-٦٤ من سورة النمل.

(٢) راجع منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام في موضوع الكون للمؤلف.

(٣) الآيتان ٩٠،٩١ من سورة آل عمران.

(٤) ذكره الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء.

يقدمونه لنا ثمرات تفيد الإنسان وتوجه عقله إليه؛ ولذلك بدأ الوحي بالأمر بالقراءة والإشادة بالعلم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[(١)]، وأقسم بمادته: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[(٢)]، وهذا القسم يدل على ما للعلم من قيمة وما له من مكانة في رسالة الإسلام، واعتبر القرآن العلم عنصراً من عناصر تكوين الإنسان وسرًا من أسرار تكريمه، فبالنفخة العلوية أسجد الله لآدم ملائكته رفعة وتكريماً وعلمه الأسماء كلها ثم أنزل على محمد ﷺ قرآنًا مفصلاً على علم ليكون منهجاً للبشرية: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[(٣)]، ومن أجل ذلك: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[(٤)] بهذا العلم الذي هو نتاج إعمال العقل وثمرة من ثماره والذي يُقدم للبشرية لكي تسعد في دنياها كما تحظى بجنة الله في أخراها إن استقامت على منهج الله.

والعلم الذي يقصده القرآن هو العلم بمفهومه الشامل الذي ينظم كل ما يتصل بالحياة ولا يقتصر على علم الشريعة أو العلم الديني كما يتبادر إلى بعض الأذهان: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾[(٥)].

والعلم لا يناوئ العقل ولا يسعه أن يناوئه؛ لأن العقل يؤيد الدين فليس للذين يجدون اختلافاً بين العلم والدين المستند إلى دليل عقلي منطقي أن يرفضوا الدين ويرفضوا معه العقل استناداً منهم إلى العلم وتفضيلاً له على العقل، وإن فعلوا فلا يعتد بهم بل يرفضهم العقلاء وغداً سيندمون؛ لأنهم لم يفكروا التفكير السليم وسيقولون يومها: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ، فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[(٦)].

لهذا كله فقد احترم الإسلام العلماء وأمر بتقديرهم واحترامهم؛ لأنهم أولى

---

(١) الآية ١ من سورة العلق.
(٢) الآية ١ من سورة القلم.
(٣) الآية ٥٢ من سورة الأعراف.
(٤) من الآية ١١ من سورة المجادلة.
(٥) الآيتان ٢٠، ٢١ من سورة الذاريات.
(٦) الآيتان ١٠، ١١ من سورة الملك.

الناس بخشية الله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[١]، ولقد تحدثنا عن فضلهم وأدب التعامل معهم فليرجع إليه بين دفتي هذا الكتاب.

حرص الأعداء على تغيير هويتنا:

بعد هذه السطور التي طوفنا بها معك حري بنا أن نؤكد على أن أعداء الله يحاولون ويلحون في تغيير المناهج التعليمية، ولِمَ يركزون على تغيير المناهج؟ فما أسهل الإجابة، إنها: لتغيير العقول لكي يوجهوا العقل توجيهاً يرضونه؛ لأنهم أصحاب دنيا؛ ولأنهم مفسدون في الأرض؛ لأن منطقهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۞ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لا يَشْعُرُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لا يَعْلَمُونَ﴾[٢]، نحن أمام قضية خطيرة: ماذا يعني تغيير هويتنا الإسلامية، وهي عقيدتنا، وهي طريقة تفكيرنا، وهي منهجنا في الحياة، هم يركزون ويضغطون على ذلك حتى وصل الأمر إلى التحريض على إغلاق الكتاتيب القرآنية التي تربط الإنسان بكتاب الله وتربطه بلغة القرآن التي تشكل عقله تشكيلاً إسلامياً، وهو بهذه القراءة تعمق في نفسه حب من أحب الله ورسوله وبغض من أبغضهما.

فالآيات التي تتكلم عن اليهود وتصفهم وتكشف دخيلة أنفسهم ومؤامراتهم تحذف؛ لأن المسلم إذا قرأ في كتاب الله قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾[٣] يبدأ عقله في التفكير وتبدأ كراهية هؤلاء لأمر الله ببغضهم، فإذا بدأت الكراهية تحددت المعاملات، فلا تطبيع ولكن بغض وكراهية عند التعامل معهم طالما أنهم يقاتلوننا، وهذا هو القصد من تغيير المناهج وتجديد الخطاب الديني، ولقد رأينا الحرب على الحجاب، بل والالتزام بوجه عام فضلاً عن الحرب على المعاهد الأزهرية، وليس هذا فحسب بل الأمر الأعجب أن تتدخل وزارة الأوقاف في طول صلاة التراويح وقيام الليل بل والأذان حتى يضيع الولاء وتميع الأمور وتهن الشخصية فتختلط الأمور فلا نعرف من نحب ومن نبغض؟ ولمن الولاء ولمن البراء؟

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة فاطر.
(٢) الآيات ١١-١٣ من سورة البقرة.
(٣) من الآية ٨٢ من سورة المائدة.

وبفضل الله لقد خاب أملهم وانكشفت ألاعيبهم ووضحت مؤامراتهم وقد خاب من حمل ظلمًا، بعد أن سموا الجهاد إرهابًا ويسموا الاستشهاديين إرهابيين وينكرون علينا حين نقول بتفكيرنا الإسلامي أن الحرب في فلسطين حرب إسلامية وبيت المقدس جزء منا وفلسطين ليست للفلسطينيين فحسب بل هي للمسلمين، فهم يبذلون المهج والأرواح حماية لبيت المقدس برقابهم ودمائهم.

فإذن قضية العقل عندنا من الأهمية بمكان، فيوم كان للمسلمين عقول ناضجة ومفاهيم سليمة وصلت حدود الدولة الإسلامية من أواسط آسيا شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً باكتفاء ذاتي في المجتمع، وكان التصدير للعلوم والفنون بجانب الغذاء والكساء إلى البلاد الأخرى وتحقق فيهم قول الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [(١)]، ولذلك يقول ﷺ: «**تركتُ فيكمْ شيئينِ لنْ تضلُّوا بعدَهما كتابَ اللهِ وسُنتي**»[(٢)].

الحكمة ضالة المؤمن:

وفضلاً عن ذلك فالحكمة ضالة المؤمن والمسلم أحق الناس بها أنى وجدها، فهو يرحب بالصالح النافع في كل شيء، حريص على ألا يستورد العقائد الفاسدة والأخلاق الهابطة ولكنه في نفس الوقت يرحب بالعلوم والمعارف التي تخدم أهدافه وتحقق غايته؛ لأنه لا معنى لنبذها إذا كانت تفيد.

فنحن مثلاً نتمسك بمعاني الجهاد حين يعتدى على الأوطان، وتنتهك الأعراض، وتنهب الثروات؛ ولذا فإننا لا نحيد عنه ونعتز بديننا ولكن هل الاعتزاز بالدين يعني أن أرفض تعلم التكنولوجيا والصواريخ والأقمار الصناعية وأن أنقل صناعتها إلينا وأن أجتهد في تعلم أساليب الزراعة الحديثة ووسائل تنظيم الأوقات وتدريب الجيوش وكل حديث يجدد أمر ديني ولا يصطدم بثوابتي؟

وما الذي يمنع الفقيه المسلم من قبول كل وسيلة أصيلة أو مستوردة في كل

---

(١) من الآية ٩٦ من سورة الأعراف.
(٢) انظر فيض القدير ج٣.

مناحي الحياة من سياسية واجتماعية واقتصادية وتعليمية وتنظيمية لا تصطدم بـديني وعقيدتي وشريعتي لتحقيق الغايات التي قررها ديني.

إن النقل والاقتباس في شئون الدنيا وفي المصـالح المرسـلة وفي الوسـائل الحسـنة ليس مباحاً فحسب، بل قد يرتفع إلى مستوى الواجب، فنحن مع الذين يعادون الغزو الفكري والعسكري الذي يضر بديننا، ولكن مع تمسكي بديني أتعلـم مـن غـيري مـا ينفع مجتمعي المسلم، فهذا عين العقل وأمر الرب ونهج محمد ﷺ وهي الحكمـة الـتي يجب أن ينشدها كل مسلم يحافظ على شخصيته الإسلامية وهويته الإيمانية.

«وإذا كنا نستورد من الخارج ثمرات التقدم الصناعي وننتفع مـن خـبرات غيرنـا في آفاق الحياة العامة فليكن ذلك في إطـار صـلب شـرائعنا وشـعائرنا»[1]، وأن نفـتح الباب على مصراعيه لكل ما يفيد المجتمع المسلم ونبني أفراده بالإيمان الصادق والعلـم النافع لنكون بحق خير أمة أخرجت للناس ننشر ذلك كله بإيمان المسلم بربه وانتفاعـه بغيره، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

***

(١) الوحدة الثقافية للشيخ محمد الغزالي ص٢١٣ بتصرف.

مردود الأصل الثامن عشر

أولاً- حصيلة العقل:

أ- اختر الإجابة الصحيحة (من الممكن أن تكون أكثر من إجابة صحيحة):

١- من أعمال العقل المقبولة شرعًا:

أ	البحث في الغيبيات	ب	التفكر في الكون
ج	استنباط مالم يصرح به الوحي	د	جميع ما سبق

٢- من مجالات إعمال العقل:

أ	معارضة المفاهيم البشرية	ب	محاولة فهم النصوص
ج	البحث عن مقاصد وعلل العبادات	د	جميع ما سبق

ب- ضع (أ) أما العبارة الصحيحة و (ب) أمام العبارة الخطأ فيما يلي:

٣	العقل لا يحده زمان ولا مكان.	
٤	من المقبول شرعا تحكيم العقل في كل شيء.	
٥	من المتعارف عليه في الإسلام أن العبادات معقولة المعنى.	
٦	هناك نزاع دائم بين العلم وما جاء به الإسلام.	
٧	لا يستطيع العقل وحده أن يضع تصورا شاملا عن الكون والحياة	
٨	من وظائف العقل أن يكون حاكما على الدين.	

قارن إجاباتك بالإجابات النموذجية في آخر مردود الأصل، وأعط نفسك درجة لكل إجابة صحيحة وصفرًا للإجابة الخاطئة.

أكثر من٨	٧-٨	٦	٥	أقل من ٥
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثانيًا- رصيد القلب:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	أعتقد أن العقل هو أثمن ما وهبه الله لعباده.					
٢	أوقن أن الإسلام يدعو لتحرير العقل وتنميته.					
٣	أستشعر مسئوليتي الشخصية تجاه تنمية عقلي.					
٤	أحب أن أتأمل في كل شيء حولي.					
٥	أرجو ثواب الله بطلبي للعلم.					
٦	لا أتحرج من الانتفاع بالعلم النافع أيًا كان مصدره.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ٢٠	١٨ - ٢٠	١٥ - ١٧	١٢-١٤	أقل من ١٢
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثالثًا- حساب الجوارح:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	أوضح لمعارفي مكانة العلم والعقل في الإسلام.					
٢	لا آلو جهدًا في تنمية قدراتي العقلية.					
٣	أتعبد إلى الله بإعمال فكري في المخلوقات من حولي.					
٤	لا أتكاسل عن طلب العلم وتحصيله.					
٥	لا أعمل عقلي إلا فيما ينفعني وينفع غيري.					
٦	أحرص على الاستفادة من العلم أيًا كان مصدره.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ٢٠	١٨ – ٢٠	١٥ – ١٧	١٢-١٤	أقل من ١٢
ممتاز	جيد جدًّا	جيد	متوسط	ضعيف

إجابات حصيلة العقل (١٨)

السؤال	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨
أ		✓					✓	
ب	✓	✓	✓	✓	✓	✓		✓
ج	✓							
د								

الأصل التاسع عشر

النظر الشرعي والنظر العقلي

«وقد يتناول كل من النظر الشرعي والنظر العقلي ما لا يدخل في دائرة الآخر ولكنهما لن يختلفا في القطعي، فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة. ويؤول الظني منهما ليتفق مع القطعي، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعي أولى بالاتباع حتى يثبت العقلي أو ينهار».

هذا الأصل يعالج:

١-النظر الشرعي والنظر العقلي.
٢-الفرق بين النظرية العلمية والحقيقة العلمية.
٣-لا تصطدم حقيقة علمية بقاعدة شرعية ثابتة.
٤-بين الظني والقطعي.

هذا الأصل له ارتباط وثيق بالأصل الذي قبله بل ومتمم له، وارتباط الأصلين ببعضهما يعالج موضوعهما معالجة كاملة إذ لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر فتأمل!!

النظر العقلي:

قلنا إن العقل ليس في إمكانه الاستقلال بهداية الإنسان إلى ما يصلحه ويسعده؛ ذلك لأننا رأينا الكثير من الأمم لما فقدت هداية الوحي الإلهي لم تغن عنها هداية العقول شيئًا، فضلت وهلكت وصدق الله القائل: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون﴾[١].

«إن العقول لا تهتدي إلى معرفة كل ما ينفع الإنسان في حياته ليأخذ به، ولا إلى معرفة كل ما يضر الإنسان في حياته ليتجنبه وينجو مما يضره إلا في ضوء الشرع الإلهي ونور وحيه، ومن رأى غير هذا فإنه يغالط نفسه»[٢].

فتاريخ الفلسفة وتراث الفكر الإنساني وحصيلة العلم تشهد بعجز العقل عن معرفة حقيقة الكون أو إدراك أسرار الحياة أو الإحاطة بالخالق، أو أن يقول كلمة الفصل في حقيقة النشأة والمصير. وليس معنى ذلك تعطيل العقل وهو الذي له صلة وثيقة بالعقيدة، وهذه الصلة هي صلة المدرك بالمدرك، فلا غرابة إذن إن دعا الإسلام الناس جميعاً أن يستعملوا عقولهم التي وهبها الله لهم وميزهم بها عن غيرهم من المخلوقات.

---

(١) الآية ٢٦ من سورة الأحقاف.
(٢) عقيدة المؤمن.. أبو بكر الجزائري ص٢٩.

ولقد شبه الإمام الغزالي العقل السليم بالعين المبصرة، والقرآن بالضياء، وأن العين السليمة لا تقدر أن تبصر الأشياء على وجهها الصحيح إلا بالضياء الخارجي الذي يوضح للعين الحقائق، كذلك إذا لم يستعمل الإنسان عقله لم يستفد بإيمانه شيئًا كثيراً، ومن أغمض عينيه أو أغشاهما لم يستفد من النور والضياء.

لقد خلق المولى ﷻ الإنسان ولا علم له ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾(١) إلا ما علمه الله لآدم عليه السلام ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾(٢) وحدد له ما يعقله، وجاءت ذرية آدم واكتسبت علوماً وخبرات متراكمة كما زاد علمهم واتسعت دائرته بإرسال الأنبياء والرسل، وعلم المولى ﷻ الإنسان ما لم يعلم، وخاطب رسولنا ﷺ بقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾(٣)، كما علم الإنسان كيفية التعامل مع بني البشر والكون والحياة.

ومرت السنون وتوالت القرون وأرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين ومعلمين، فاهتدى من اهتدى وضل من ضل وأخذ العلماء والفلاسفة بعد ذلك -على مستوى العالم- يبحثون في كل مجال في (الكون-الإنسان-الحياة) بعيداً عن الدين فزلت أقدام حين حكّموا العقل في غير مجاله، وحاولوا أن يخضعوا العلم للتجربة والمشاهدة والاستنتاج، وبدأ العلماء من غير المسلمين سنة ١٦٦٥م على مستوى العالم من خلال الجمعية الملكية البريطانية وضع الضوابط العلمية لكل علم، وظنوا أنهم قد أتوا بجديد ونسوا أن المسلمين بما آتاهم الله من علم عرفوا أن للعلم بداية ونهاية ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(٤)، ومهما علم العلماء فهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(٥)، وهو ﷻ القائل: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(٦).

والجدير بالذكر أن علماء المسلمين قد سبقوهم بقرون بهذا المنهج التجريبي الذي

---

(١) من الآية ٧٨ من سورة النحل.
(٢) من الآية ٣١ من سورة البقرة.
(٣) من الآية ١١٣ من سورة النساء.
(٤) من الآية ٨٥ من سورة طه.
(٥) الآية ٧ من سورة الروم.
(٦) من الآية ٦٦ من سورة البقرة.

تكلموا عنه حين علموا من كتاب الله أنهم مأمورون بالنظر والتفكر وإعمال العقل في آيات الله المبثوثة في هذا الكون: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ (١)، ولقد هيأ الله الكون كله -بل وكل مخلوقاته- بما ينفع الناس، وتدبر ذلك تجد على سبيل المثال أن الله خلق الهواء؛ لأن رئة الإنسان الذي سيخلق تحتاجه، وكذلك الماء والطعام بتنوعاته مائدة لهذا المخلوق قبل أن يخلق، أعطى ﷺ لكل شيء خلقه ثم هدى، فلمن يخرج العسل من النحل، واللبن من البقر والبيض من الدواجن، ولماذا تقدم الأسماك له كيفية العوم، والطيور كيفية الطيران، أليس ذلك لكي يفكر ليعمر الكون باستخدام عقله وهداية الله له.

ألم يدخر المولى البترول في باطن الأرض منذ آلاف السنين حتى اهتدى الإنسان إليه بالبحث والعلم، لقد ادخره له حتى يبلغ أشده ويعرف كيف ينتفع به: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ﴾ (٢)، لذلك فإنه في آخر الزمان يقبض الله العلم بقبض العلماء خاصة العلم الشرعي، فلا يبقى إلا رؤساء جهلاء يفتون بغير علم فيضلوا ويُضلَوا.

المسيرة البشرية والعلم:

ولا ننسى أنه أثناء المسيرة البشرية كانت هناك اختراعات واكتشافات ونظريات تتأرجح بين الشك واليقين إلى حين، بل حين حُرفت الكتب المنزلة قبل القرآن الكريم كما حدث مع النصرانية التي قالت: إن الله ثالث ثلاثة -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- وعجز الإنسان عن معرفة ذاته وكونه وبعد هذا الانحراف، هذا الاعتقاد الفاسد الذي وصل إلى أن: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ﴾(٣)، وأصبحوا هم المرجعية الشرعية، فما يقولونه هو الدين الحق، ومن يخرج عليه فقد كفر، ولقد أثاروا قضايا ما أنزل الله بها من سلطان بين العلم والدين وتبنوا النظرية الكنسية للكون والتي تقول: إن الأرض ثابتة والكون هو الذي يدور حولها، ومن

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة الروم.
(٢) من الآية ١٠ من سورة فصلت.
(٣) من الآية ٣١ من سورة التوبة.

يقول بغير هذا يكفر ويقتل.

ولما أكد العلماء صدق نظريتهم التي تقول بعكس ذلك بأدلة علمية ثابتة قتلوهم وصلبوهم، فأرهبوا من تسول له نفسه أن يقول بنظرية أو حتى حقيقة علمية تخالف ما تقول به الكنيسة من نظريات خاطئة اعتبرتها دينًا، وأضفت عليها قدسية تمنع مخالفتها أو حتى مناقشتها واستمر الحال كذلك حتى بعث محمد ﷺ.

وجاء الإسلام الحنيف فكرّم العلم والعلماء ورحب بالصالح النافع من كل شيء ومن أي مصدر ولكنه في نفس الوقت أكد أن مصدر العلم واحد ومصدر الدين واحد وكله من عند الله الذي قال: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (١)، بل إنه فتح باب الحوار وإعمال العقل في المناقشة للوصول إلى الحقيقة في أساسيات الدين: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ (٢)، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣)، ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤)، ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ (٥)، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (٦)، وكلها آيات بينات تدعو العقل للتدبر والاستنتاج الصحيح دون حجر عليه، ولكنه حدد له مجال تفكيره حتى لا يضل.

والذي نريد أن نؤكد عليه أن المنهج التجريبي: من تجربة ومشاهدة واستنتاج جاء به القرآن من قبلهم، وتأمل صدر سورة الحج على سبيل المثال يتبين لك أن الأمر لم يقف عند التجربة والمشاهدة فحسب، بل جاء في الاستدلال بالمحسوس على المغيب وهو مجال لم يجرؤ أحد في الدخول فيه، كيف؟

يقول ربنا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ (٧)، وهذه فرضية غيبية

---

(١) من الآية ١١ من سورة المجادلة.
(٢) من الآية ٦٠ من سورة النمل.
(٣) من الآية ٦٤ من سورة النمل.
(٤) من الآية ٤ من سورة الأحقاف.
(٥) من الآية ١١ من سورة لقمان.
(٦) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.
(٧) من الآية ٥ من سورة الحج.

يقدمها القرآن ليشجع العقل على الاستدلال: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾[(١)]، أليست هذه مرحلة لم نرها، ثم جاءت بعدها مرحلة مرئية قبل الاكتشافات الحديثة واعتبرها العلماء غيباً مؤقتاً حتى رأوها: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾[(٢)]، ثم مرحلة شاهدها الجميع في كل الأجيال: ﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾[(٣)].

هذه تجارب بعضها غيب كلي، وبعضها غيب مؤقت، وبعضها مُشاهَد.

ثم يؤجل الاستنتاج؛ لأن هناك تجربة علمية أخرى، وهي ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾[(٤)] هذا مغيب عنك ما بداخلها ولا تعلم عنه شيئاً إلا أنها هامدة: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[(٥)].

إنهما تجربتان مختلفتان على كائنين مختلفين، ومشاهدات يجمعها استنتاج جزئي وكلي: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾[(٦)]، أليس هذا هو أصل المنهج العلمي التجريبي؟ تجربة ومشاهدة واستنتاج، بل أشمل من ذلك: الاستدلال بالمحسوس على المغيب، وهذا هو الذي يقود العقل إلى الإيمان بالغيب عن يقين واطمئنان وتسليم: ﴿بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[(٧)].

وجاء الإسلام نور:

ولذلك عندما ثبتت الحقائق العلمية حطمت النظريات الكنسية الخاطئة وجاء الإسلام وصحح الأخطاء وحدد لنا مصدر التلقي حتى لا يكون هناك تصادم بين

(١) من الآية ٥ من سورة الحج.
(٢) من الآية ٥ من سورة الحج.
(٣) من الآية ٥ من سورة الحج.
(٤) من الآية ٥ من سورة الحج.
(٥) من الآية ٥ من سورة الحج.
(٦) الآيتان ٦، ٧ من سورة الحج.
(٧) من الآية ٢٦٠ من سورة البقرة.

العلم والدين؛ ولذلك عندما فهم بعض علماء المسلمين فهماً خاطئاً من تفسيرهم بعض آيات القرآن ومعانيها، جاءت الحقائق الثابتة لتؤكد تطابق العلم والقرآن لسبب بديهي؛ هو أن الذي أنزل القرآن هو سبحانه الذي بث في الكون سننه وعلومه فهما معًا من عند الله وأن الخطأ أو اللبس في فهمنا نحن: ﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[1]، ومهما بلغ العلماء بعلمهم ما بلغوا فرب العزة يقول: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء﴾[2].

فالعلم هبة من الله سيكتسبه البشر الباذلين الجهد في تحصيله، ولقد رأينا كيف نثر الله آياته في الكون لتدل الخلق وليستدل بها الخلق على الخالق، ولقد أشرنا إلى إعمال ذلك الأعرابي البسيط عقله وهو الذي لم يتخرج من جامعة من الجامعات ليتعلم كيفية الاستدلال، فقال: البعرة تدل على البعير والقدم يدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج.. ألا تدل على العلي القدير!!

فأي عقل راجح هذا الذي وصل به إلى هذا التوحيد لله رب العالمين باستنتاج عقلي صحيح.

لقد كشفت الأدلة العلمية القاطعة حقائق كثيرة منها مثلاً حقيقة كروية الأرض بل بيضاويتها ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾[3]، ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾[4]، أليست هذه حقائق قرآنية أثبتتها الحقائق العلمية؟

إن كلمة واحدة في كتاب الله كانت سبباً علمياً معجزاً لإسلام الأستاذ الدكتور كيث مور (الكندي) الملقب بأبي علم الأجنة، إنها كلمة الله في الآية السابقة (مضغة)، فلقد فهم بعض المفسرين بأن المقصود بها (قدر ما يمضغ)، فإذا بالرجل يسأل عن الشكل وليس الحجم، وأحضر صورًا التقطها داخل الرحم لهذه المرحلة فكانت الحقيقة العلمية الثابتة التي أوضحت إشارة الآية وصححت مفهوم المفسرين.

---

(١) من الآية ٣٢ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ٢٥٥ من سورة البقرة.
(٣) الآية ٣٠ من سورة النازعات.
(٤) من الآية ٥ من سورة الزمر.

حيث إن مضغة اسم هيئة وليس اسم مرّة، وإذا بالشكل المصور داخل الرحم ينطق فعلاً بأنها شيء قد يُمضغ مع ترك آثار الأسنان فيه على هيئة حفر متجاورة تنطق بأن من يصف هذه المرحلة من آلاف السنين هو الذي خلقها وصورها؛ مما جعل هذا العالم يتنادى بعد أن أفحمه الدليل القرآني المعجز: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، ويقول: إن هذا كلام الله الذي عجزت عن وصفه كما وصفه ﷺ وأصدر ملزمة باللغة العربية وألحقت بكتابه الذي يُدرَس في كليات الطب في العالم بعنوان: «علم الأجنة في القرآن والسنة».

إن من الثابت الشرعي أن يد الله تزجي السحاب وتدفعه من مكان إلى مكان، ثم تؤلف بينه وتجمعه فإذا هو ركام بعضه فوق بعض، وقد اصطلح علماء الجغرافيا المناخية على تسمية هذا السحاب بالسحاب الركامي، فإذا ثقل خرج منه الماء والوابل الهابط وهو في هيئة الجبال الضخمة الكثيفة، فيها قطع البَرَد الثلجية الصغيرة، ومشهد السحب كالجبال يبدو كما يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السحب أو تسير بينها، فإذا المشهد مشهد الجبال حقاً لها مساقطها وارتفاعاتها وانخفاضاتها، وإنه ليبدو مصوراً للحقيقة التي لم يرها الناس إلا بعدما ركبوا الطائرات[(١)].

وكذلك حين تمعن النظر في حقيقة علمية أخرى وهي حقيقة الخلق في قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[(٢)].

فنرى في هذه الحقيقة الضخمة التي يعرضها القرآن والتي قد تعني وحدة العنصر الأساسي في تركيب الأحياء جميعاً وهو الماء، وقد تعني ما يحاول العلم الحديث أن يثبته من أن الحياة خرجت من البحر ونشأت أصلاً في الماء ثم تنوعت الأنواع وتفرعت الأجناس، ولكننا نحن على طريقتنا في عدم تعليق الحقائق القرآنية الثابتة على النظريات العلمية القابلة للتعديل لا نزيد على هذه الإشارة شيئاً مكتفين بإثبات الحقيقة القرآنية وهي أن الله خلق الأحياء كلها من الماء، فهي ذات أصل واحد، ثم

---

(١) في ظلال القرآن ص٢٨ بتصرف.
(٢) الآية ٤٥ من سورة النور.

هي -كما ترى العين- متنوعة الأشكال منها الزواحف التي تمشي على بطنها ومنها الإنسان والطير يمشي على قدمين، ومنها الحيوان الذي يدب على أربع، كل أولئك وفق قدرته سبحانه وسنته ومشيئته لا عن فلتة ولا مصادفة: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ غير مقيد بشكل ولا هيئة، فالنواميس والسنن التي تعمل في الكون قد اقتضتها مشيئته المطلقة وارتضتها ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، «وصورة الإنسان -عند خواء قلبه من الإيمان- كما رسمها القرآن صورة عجيبة في صدقها ودقتها وتعبيرها الكامل عن الملامح الأصيلة في هذا المخلوق والتي لا يعصمه منها ولا يرفعه عنها إلا العنصر الإيماني الذي يصله بمصدر يجد عنده الطمأنينة التي تمسك به من الجزع عند ملاقاة الشر ومن الشح عند امتلاك الخير»[2].

وما من شك أن هذا الغوص في أعماق النفس البشرية وفي دروبها ومنحنياتها وكشفها للإنسان على هذا النسق مما يتفق مع ما أثبته علم النفس من شتى دوافع الإنسان ونوازعه دون أدنى تعسف منا ولا تأويل، مع ما ينبغي أن يكون عليه فهْم المسلم من أن القرآن الكريم ليس كتاباً علمياً تستقى منه علومه الكونية، وإنما تأتي الإيماءات واللفتات إلى ما في الكون كله من بديع خلق الله في السماوات الأرض وما احتوت عليه من دلالات على تفرد الخالق ﷻ بالألوهية وقدرته ومشيئته المطلقة لتؤكد وحدانيته ﷻ.

ولكي تتم الفائدة رأيت أن أنقل إليك ما كتبه الإمام البنا في هذا الموضوع بشيء من التفصيل؛ لأنه مفيد ونفيس، يقول رضوان الله عليه:

أحب أن ألفت النظر إلى أصلين مهمين:

أولهما: حكمة ذكر المظاهر الكونية في القرآن الكريم.

ثانيهما: معرفة مدى ما وصل إليه العقل الإنساني في تعرف حقائق هذه المظاهر.

إنك تجد هذه الحقائق العلمية في كثير مما نتأمل من الآيات التي تتعلق بخلق

---

(١) في ظلال القرآن ص١٨ بتصرف.
(٢) في ظلال القرآن ص٢٨.

الإنسان في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ﴾[١]، فلقد اطلع العلم الحديث على هذه الحقيقة، وعرف أنه في عظام الظهر الفقارية يتكون ماء الرجل وفي عظام الصدر العلوية (الترائب) يتكون ماء المرأة حيث يلتقيان في قرار مكين فينشأ منهما الإنسان.

وفي قوله تعالى في سورة النور: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِه وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾[٢].

لماذا تُذكر هذه المظاهر الكونية في القرآن الكريم؟

جاء في القرآن الكريم ذكر السماوات والأراضين والشمس والقمر والسحب والأمطار والنبات والحيوان وعجائب الخلق وغرائب المكونات في كثير من المواطن، فهل يريد القرآن بهذا أن يتناول هذه النواحي بالتحليل العلمي فيوضح للقارئين ماهيتها وكنهها وعناصرها وأجزاءها، ويبين لهم طبائعها وخواصها، ويكشف لهم عن أسرار نواميسها وحقيقة قوانين سيرها ووقوفها ونموها وضعفها، أم أن القرآن الكريم يعرض لكل هذه الظواهر الكونية لغرض آخر غير هذا التحليل العلمي ويدع هذا التحليل لوقته والظروف الملائمة له عندما تتهيأ العقول البشرية لقبوله وإدراك غوامضه وأسراره؟

لا شك أن القرآن لم يجيء ليكون كتاب فلك ولا هيئة ولا كيمياء ولا هندسة ولا غير ذلك من الشئون التي تتناولها العلوم الكونية، وإنما جاء ليكون كتاب هداية وإرشاد وتطهير للنفس البشرية، ويسمو بها إلى الكمال الممكن اللائق بجمالها، وإيضاح وتقوية للصلة بين الخالق والمخلوقين بعضهم بعضًا، وتقرير للحقوق والواجبات، وتفصيل للمصالح والمضار في المأمور والمنهيات التي تتصل بسعادة الناس في معاشهم ومعادهم وإن أشار في كثير من الأحيان إلى دقائق العلوم الكونية وعجائب النواميس التي تسير عليها المخلوقات، إنما جاء القرآن كذلك لحكم جليلة منها:

---

(١) الآيات ٥-٧ من سورة الطارق.
(٢) الآية ٤٣ من سورة النور.

١-إنه إذا تناول حقائق العلوم والمعارف الكونية بالشرح والبيان فقد قطع على العقل البشري سبيل الرقي، وحرمه لذة الجهاد العلمي، وقضى على استقلاله وحريته بالجمود، والخمود، ولم يبق للعلماء فضل على الجهلاء، وكان الناس في المواهب سواء، فلم تشهد الإنسانية إلا جيلاً واحداً ثم يقضي عليها بعد ذلك بالفناء.

٢-إن طبيعة العقل البشري في نشوئه وتكوينه لا تقبل هذه الطفرة ولا تحتملها، وإنما يسلك العقل البشري في النوع الإنساني مسلكه في الفرد الواحد له أطوار وأدوار، فهو ينشأ ضعيفاً لا يكاد يدرك ما حوله ثم تتسع أمامه آفاق الإدراك وحدوده فلا يزال يتعلم فيعلم حتى يبلغ أقصى قوته ويأخذ من المعرفة بالنصيب الذي كتب له، وأنت إن فاجأته وهو في دور طفولته وضعفه بما لا يستطيع إدراكه ولا يقوى على اكتناه ماهيته آذيته وشردته وأضللته وقذفت به في مهاوي الفتنة والشك والارتياب، وتصور أن طفلاً سألك عن قوانين التيار الكهربائي كيف يتولد؟ وكيف يسير؟ وكيف تتحرك به القوى العظيمة وتشتعل بضوئه المصابيح القوية على البعد والقرب سواء؟ أو سألك عن أوجه القمر في نشوئه هلالاً ثم اكتماله بدراً ثم عودته بعد ذلك من الكمال إلى النقص حتى يختفي جرمه ويخبو نوره، أو سألك عن البخار كيف يدير البواخر ويحمل على الماء الأعلام المواخر؟ أتستطيع أن تتبسط في شرح ذلك لطفل صغير لم يتلق هذه العلوم ولم يستقِ بعد من معين هذه المعارف؟

كذلك العقل الإنساني في نشأته وأدوار حياته وأطوار نموه دائم الرقي والاكتمال بحسب ما يكتسب من المعارف المتجددة والتجارب المتكررة المتعددة، وما كان القرآن -وهو كتاب العصور كلها والعقول جميعاً- أن يتناول من علوم الكون إلا ما يتفق مع مدركات هذه العقول، ثم يدع لرقيها الفكري الكشف عما سوى ذلك بحسب قوانين النمو والارتقاء، وذلك من أدب الإسلام في التعليم ومن سننه في إرشاد الناس إلى حقائق المعارف. روى البخاري في صحيحه عن علي ﷺ: **«حدِّثوا الناس بما يعرفون؛ أتحبون أن يكذب الله ورسوله»**[1]، وروى مسلم عن ابن مسعود ﷺ قال: **«ما أنت بمحدث**

(١) رواه البخاري، كتاب (العلم) باب (من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن يتهموا)، عن علي موقوفاً برقم ١٢٧.

قومًا حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[١].

ومن هنا نستطيع أن نفهم السر في إجابة القرآن الكريم للسائلين عن أوجه القمر فصرفهم عن السؤال ولفت أنظارهم إلى فوائد ذلك ومزاياه: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**﴾[٢].

٣- إن القرآن الكريم لو عرض لبيان هذه الشئون كلها واستوعب حقائقها وتفصيلاتهم لصعب على الناس حفظه ولمضت الأزمان الطويلة دون استيعابه نزولاً أو معرفة، ولنسي الناس هديه وإرشاده، فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً، ولقد يسره الله تعالى وسهله ليكون ذلك أدعى إلى تذكره وأقرب للوصول إلى مقاصده والعمل بما فيه: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾[٣].

الخلاصة من ذلك:

تلك هي بعض الحكم التي من أجلها يتناول القرآن الكريم حقائق العلوم الكونية بالتفصيل والتوضيح وترك ذلك للعقل البشري يرقى إليه ببحثه المتواصل ويتذوق لذة معرفته بكفاحه وجهاده، وهناك حكم أخرى لا نطيل القول فيها والكلام في أسرار كتاب الله ذو سعة.

ومن ذلك نستطيع أن نقول: إن القرآن الكريم جاء بهذه الظواهر واستعرضها وعرضها على الناس في كثير من المواضع لغرض واحد هو العبرة والعظة، ولفت العقل والقلب إلى ما فيها من جمال وروعة وإعجاز وإبداع لا يكون إلا من صانع حكيم متصف بالكمالات كلها، لا يلحقه ولا يناله قصور، جل ربنا عن ذلك وتعالى علواً كبيراً، يسوق القرآن كل ذلك ليكون سبيلاً إلى معرفة الخالق والإيمان بالله، وفي الوقت الذي يقصد فيه إلى هذا المعنى نجد أن في ذكر هذه المخلوقات ولفت الأنظار

---

(١) ذكره الإمام مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن مسعود، ورواه الديلمي من طريق حماد بن خالد عن ابن عباس، ورواه البيهقي في (الشعب) عن المقدام بن معدي كرب مرفوعاً. انظر (كشف الخفاء ومزيل الإلباس) للإمام العجلوني، حرف الهمزة مع الميم.

(٢) من الآية ١٨٩ من سورة البقرة.

(٣) الآية ١٧ من سورة القمر.

إليها ومطالبة الناس بالتفكير فيها والتصريح بعلو منزلة العلماء بها دفعاً بكل مؤمن أن يتعلم وأن يحيط بأسرار هذا الكون العجيب.

ذلك مع الإشارات اللطيفة إلى بعض الحقائق الدقيقة التي تعنو[١] لها عقول الخاصة، وتنحني أمامها رءوس الفطاحل من الراسخين في العلم، يتلوها عليهم أميٌّ كريم لم يدخل جامعة علمية ولم يتعلم في مدرسة، كذكر ناموس التلقيح: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾[٢]، وذكر ناموس التقدير في المخلوقات: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٣]، وغيرها من النواميس.

والعجيب في شأن القرآن الكريم أنه حين عرض لهذه المكونات ساق الكلام عنها في مساق غريب وأسلوب مدهش معجز حقاً، يساير تمام المسايرة الإدراك الفطري، ويتفق تمام الاتفاق مع التحليل العلمي والبحث الفلسفي المنطقي، فهو يجمع بين الشعر والمنطق، ويغذي العاطفة والعقل ويرقي الشعور والفكر، ويستولي على الإرادة كل الاستيلاء، ويفيد هذا وذاك الأثر المقصود والعزة المنشودة، وذلك من أسرار الإعجاز التي انفرد بها القرآن الكريم، وامتاز بها كلام الخالق العليم عن كلام المخلوق القاصر العاجز.

تقرأ مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾[٤]، فتصور هذه الآية الكريمة في النفس ذلك المعنى الفطري السهل وتمثل لها ذلك الضال رجلاً منهوكًا متعباً قد بهرت أنفاسه وتقطع نياط قلبه مما حمل من أعباء الضلال كأنما عليه أن يقاسي -في مرارة متجددة- هول صعود السماء، والآية بهذا المعنى الفطري تحدث في تلك النفس العامية ما قصدت إليه من تأثير في تقبيح صورة الضلال والإبعاد عنه، وهذه الآية نفسها تثير في النفس العلمية ذلك المعنى الكوني الذي أيده البحث، وأثبته العلم من

(١) «عنا» عُنوًا: خضع وذل، ويقال عنا فلان للحق، وفي التنزيل ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾، المعجم الوسيط باب «عنو».
(٢) من الآية ٢٢ من سورة الحجر.
(٣) من الآية ٤٩ من سورة القمر.
(٤) من الآية ١٢٥ من سورة الأنعام.

تخلخل طبقة الهواء كلما علا الإنسان عن سطح الأرض، وفناء عنصر الأكسجين منها، وهو العنصر الصالح للتنفس فتنقطع بذلك أنفاسه، ويقف عن التنفس صدره، فيزول عنه معنى الحياة جملة، بل إن الضغط الهوائي ليختل توازنه على جنبات جسمه باطنها وظاهرها فتنفجر عروقه، ويسير في الفضاء دمه مهدوراً، والآية بهذا المعنى تحدث الأثر المقصود لها كذلك من تقبيح صورة الضلال وإبعاد الناس عنه.

هذا معنى من معاني الإعجاز لم يتفق لغير القرآن الكريم، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

رأي الإمام محمد عبده في موقف الوحي من العلوم:

وأسوق لك هنا بمناسبة هذا البحث ما ذكره الأستاذ الإمام محمد عبده عند تفسير آية الأهلة في بيان موقف الوحي من العلوم[1]، قال رحمه الله: «العلوم التي نحتاج إليها في حياتنا على أقسام»:

١-منها ما لا نحتاج فيه إلى أستاذ كالمحسوسات والوجدانات، فهذا هو (القسم الأول).

٢-ومنها ما لا نجد له أستاذاً؛ لأنه مما لا يطمح البشر في الوصول إليه ألبتة، وهو كيفية التكوين والإيجاد الأول المعبر عنه بسر القدر. يمكن للنباتي أن يعرف ما يتكون منه النبات، وكيف ينبت وينمو ويتغذى، وللطبيب أن يعرف كيف يولد الحيوان والأطوار التي يندرج فيها مذ يكون نطفة إلى أن يكون إنساناً عاقلاً مستقلاً، ولكن لا يعرف نباتي ولا طبيب كيف وجدت أنواع النبات وأنواع الحيوان أو مادتهما لأول مرة، ولا كيف وجد غيرها من المخلوقات، ومن هنا كانت العلاقة بين الخالق والمخلوق من هذه الجهة، جهة الإيجاد والخلق لا يمكن اكتناهها، وكذلك لا يمكن اكتناه ذات الله تعالى وصفاته، وهذا هو (القسم الثاني).

٣- ومنها ما يتيسر للناس أن يعرفوه بالنظر والاستدلال والتجربة والبحث كالعلوم الرياضية والطبيعية والزراعية والهيئة الفلكية، ومنها أسباب تطور الهلال

(١) راجع تفسير المنار، ج٢ص١٩٨. [حسن البنا].

وتنقله من حال إلى حال وهذا هو (القسم الثالث).

٤-ومنها ما يجب علينا للخالق العظيم الذي أودع فطرنا الشعور بسلطانه وهدى قلوبنا إلى الإيمان به بما نراه من آياته في الآفاق وفي أنفسنا، فإن هذا الشعور وهذه الهداية مبهمان لا سبيل لنا إلى تحديدهما من حيث ما يجب اعتقاده في الله تعالى، وفي حكمة خلقنا ومراده منا، وما يتبع ذلك من أمر مصيرنا ومن حيث ما يجب له من الشكر والعبادة وهذا مما لا سبيل إلى معرفته بطريق صناعي أو كسب بشري، فقد وقعت الأمم في الحيرة والخطأ في مسائله لجهلهم بالصلة والنسبة بين المخلوق والخالق، فمنهم من وصفه تعالى بما لا يصح أن يوصف به، ومنهم من توهم أن أعمالنا تفيده أو تؤلمه وأنه ينعم علينا أو ينتقم منا بالمصائب لأجل ذلك، ومنهم من توهم أن الحياة الآخرة تكون بهذه الأجساد والجزاء فيها يكون بهذا المتاع فاخترعوا الأدوية لحفظ أجسادهم ومتاعهم.[1]

وإذا كان الإنسان عاجزاً عن تحديد ما يجب عليه ويحتاج إليه من الإيمان بالله وبالحياة الأخرى، وما يجب عليه في الحياة الأولى شكراً لله واستعداداً لتلك الحياة؛ لأن الحواس والعقل لا يدركان ذلك، فلا شك أنه محتاج إلى عقل آخر يدرك به ما يعوز أفراده من هذه الأمور وهذا العقل هو النبي المرسل وهذا هو (القسم الرابع).

٥-وبقي قسم خامس، وهو ما يستطيع العقل البشري إدراك الفائدة منه، ولكنه عرضة للخطأ فيه دائماً لما يعرض له من الأهواء والشهوات التي تلقي الغشاوة على الأبصار والبصائر فتحول دون الوصول إلى الحقيقة أو تشبه منافع الضار وتلبس الحق بالباطل ومثال ذلك: السعاية[2] يدرك العقل ما فيها من الضرر والقبح، ولكنه إذا رأى لنفسه فائدة من السعاية لشخص يزينها له هواه ويراها حسنة من حيث هو يخفي عليه ضررها لذاتها، وكذلك شرب الخمر والحشيش، قد يعرف الإنسان مضرتهما في غيره ولكن الشهوة تحجبه عن إدراك ذلك في نفسه فيؤثر حكم لذته على حكم عقله

---

(١) والذي يؤخذ على هؤلاء قصور إدراكهم عن إمكان الإعادة بعد التحليل في الأجساد، والمساواة بين نعيم الدنيا والآخرة، مع أنه لا نسبة بينهما، فنعيم الآخرة أجل واعظم من أن يقاس بهذا المتاع الغالي، مهما بالغ الناس في المحافظة عليها.[حسن البنا].

(٢) السعاية: معرفة أخبار الناس او الوشاية أونقل الأخبار والمعلومات إلى الناس-لسان العرب ٦/ ٢٣٢.

الذي ينهاه عن كل ضار، فصار محتاجاً إلى معلم آخر ينصر العقل على الهوى، ووازع يكبح من جماح الشهوة ليكون على هدى.

فما يمكن للإنسان أن يصل إليه بنفسه لا يطالب الأنبياء ببيانه، ومطالبتهم به جهل بوظيفتهم وإهمال للمواهب والقوى التي وهبه الله إياها ليصل بها إلى ذلك، وكذلك لا يطالبون بما يستحيل على البشر الوصول إليه كقول بعض بني إسرائيل لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾[١]، وأما ما كان إدراكه ممكناً وكسبه بالحس والعقل متعذراً أو تحديده متعسراً فهو الذي نحتاج فيه إلى هادٍ مخبر عن الله تعالى لنأخذ عنه بالإيمان والتسليم؛ ولذلك قلنا: إن الرسول ﷺ عقل الأمة.

لو كان من وظيفة النبي أن يبين العلوم الطبيعية والفلكية لكان يجب أن تعطل مواهب الحس والعقل وينزع الاستقلال من الإنسان ويلزم بأن يلتقي كل فرد من أفراده ومعلوماته بالتسليم، ولوجب أن يكون عدد الرسل في كل أمة كافياً لتعليم أفرادها في كل زمن كل ما يحتاجون إليه من أمور معاشهم ومعادهم، وإن شئت فقل لوجب ألا يكون الإنسان هذا النوع الذي نعرفه.

نعم إن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ينبهون الناس بالإجمال إلى استعمال حواسهم وعقولهم في كل ما يزيد منافعهم ومعارفهم التي ترتقي بها نفوسهم، ولكن مع وصلها بالتنبيه على ما يقوي الإيمان ويزيد في العبرة.

القرآن والعلوم الكونية:

ونستطيع بعد ذلك أن نلخص موقف القرآن من العلوم الكونية العصرية وغير العصرية مما سبقها أو مما سيلحقها، أو موقف هذه العلوم من القرآن الكريم في هذه النقاط:

١-ليست مهمة القرآن شرح بحوث هذه العلوم تفصيلياً، وإنما ترك ذلك للعقل الإنساني يكشف في كل طور من أطوار رقيه وكماله جزءًا منه يتناسب مع مقدرته وما أتيح له من وسائل البحث والإدراك السليم.

---

(١) من الآية ٥٥ من سورة البقرة.

٢-إنما عرض القرآن لما عرض له من هذه البحوث تنبيهاً لما فيها من دقة الصنع وجمال الإبداع ليكون ذلك حافزاً إلى معرفة الله وصدق الإيمان به، كما يكون حافزاً إلى دوام البحث والنظر كذلك.

٣-إن هذا لم يمنع القرآن الكريم من أن يتعرض لكثير من النواميس الدقيقة في هذه العلوم، إرشاداً للخاصة من الناس، وإثباتاً لنسبة هذا الكتاب الكريم إلى العليم الحكيم.

٤-كان أسلوب القرآن في التكلم عن هذه المظاهر الكونية أسلوباً معجزاً حقًا، فيه إجمال وفيه دقة، وفيه وضوح إلى جانبهما، فهو يرضي النفس الفطرية، كما يشبع نهمة الفكرة العلمية، كما لا يمكن أبداً أن يصطدم في مرونته وسعة معاني ألفاظه بنتائج البحث العلمي أيًا كان في أي عصر من العصور، وهذا من أبلغ وجوه إعجاز القرآن.

٥-إن القرآن بهذا الأسلوب فارق عما في أيدي الناس مما يزعمونه التوراة والإنجيل، فقد امتلأت بالتفريعات الدقيقة لهذه العلوم والتفصيلات الشاملة للتحدث عن كل مظاهر الكون، والتصوير المادي لكل ما فيه فكانت نتيجة ذلك أن اصطدمت هذه الصور والأحكام بنتائج البحوث العقلية الثابتة، فسقطت قيمتها العلمية في نظر الكونيين سقوطاً لا قيام لها بعده، وكان من ذلك الخصومة الحادة التي ذهب ضحيتها كثير من العلماء أمثال «جاليليو»[1] وغيره، وانتهت بأن قبع الدين في زوايا الكنائس والأديرة، وليس في القرآن الكريم شيء من هذا كله وهو قدساير العلوم والمعارف منذ نزل على قلب محمد ﷺ فأشرقت الدنيا بنوره إلى الآن، فلم يصطدم مع قانون

---

(١) جاليليو (١٥٦٤-١٦٤٢م) عالم إيطالي اشتغل بالفلك والرياضة والطبيعة، ووضع أسس العلم التجريبي الحديث، اتجه أولاً للدراسات الطبية ثم تغلبت عليه رغبة البحث في الرياضة والطبيعة فأثبت بالتجربة أن مدة ذبذبة البندول ثابتة مهما تغيرت سعتها، اخترع الميزان المائي وأثبت خطأ تعليمات أرسطو عن حركة الأجسام فوجد أنها تسقط بنفس السرعة وبعجلة ثابتة مهما اختلف وزنها، وأثبت أن مسار القذيفة قطع مكافئ، وفي ١٦٠٩م صنع أول منظار فلكي أظهر به أن سطح القمر جبلي وأن الطريق اللبنية بها عدد لا يحصى من النجوم، وفي ١٦١٠م اكتشف أربعة أقمار للمشترى ودرس أوجه الزهرة والبقع الشمسية وأيد نظرية كوبرنيكوس في دوران الأرض حول نفسها فحوكم وأرغم على نبذها- محمد شفيق غربال- الموسوعة العربية الميسرة ج١ ص٥٩٧.

علمي صحيح، ولم يخالف حقيقة كونية ثابتة، ولم يأته الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ ذلك لأنه تنزيل من عزيز حكيم.

٦-والنتيجة من هذا البحث: إنه لا يصح للمسلم أن يعترض نصوص القرآن بنتائج هذه العلوم، فإن من هذه النتائج مالم يثبت بعد، ومنها ما توهم العقل البشري ثبوته في عصر ثم نقضه أشنع النقض في عصر آخر، وتلك طبيعة الترقي العلمي، وفي التفسير الذي يجمع بين الإيمان بالنص وإرضاء نتائج البحث الصحيح مندوحة، بل مخارج كثيرة هذا من جهة، ومن جهة أخرى فلا يجوز للمسلمين أن يقفوا عن البحث العلمي في مستورات الكون وخفاياه اعتماداً على ما جاء في القرآن من ذلك، ولا سيما والقرآن نفسه مملوء بالحث على النظر في الكون ووجوب الازدياد من العلم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1]، ولعلك بعد ذلك تدرك سر هذه الآية الكريمة مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[2]، فالأولى حث على تعرف ما يمكن معرفته مما هو في حيز البحث العلمي، والثانية نهي عن مزاولة ما لا يمكن الوصول إليه حتى تنصرف الجهود للنافع.

إلى أي مدى وصل العقل في العلوم الكونية؟

يحسن بعد هذا البحث أن نجيب عن هذا السؤال؛ ليعلم المغرورون بنتائج البحث العلمي إلى أي مدى وصل العقل الإنساني في حل مشكلات الكون وكشف مستوراته؟ وسنورد في هذا البحث بعض الشواهد من كلام علماء الكون غير المسلمين ونعتذر عن ذلك مقدماً، فلسنا في حاجة إلى تأييد كتاب الله تبارك وتعالى بغير ما هو فيه، ولكننا قصدنا بذلك إلى أمرين:

أولهما:انتزاع الدليل من غير المؤمنين بالقرآن؛ ليكون ذلك أبلغ في الفضل وأقوى في الاستدلال «والفضل ما شهدت به الأعداء».

وثانيهما: إقناع المغرورين بعلوم الفرنجة المفتونين برقي أوربا المادي أعظم الفتنة إذا

---

(١) من الآية ١١٤ من سورة طه.
(٢) من الآية ٣٦ من سورة الإسراء.

عرفوا أن أساتذتهم قد أعلنوا العجز واعترفوا بالقصور، وطامنوا من غرورهم وخفضوا من حدة تعصبهم لما لا يعلمون، والله الهادي إلى سواء السبيل.

لقد أتى على الناس زمان توالت فيه الكشوف العلمية المادية ولمس الناس آثارها العملية في مجرى حياتهم الدنيا، وظن علماء الكون أنهم وصلوا إلى لب الحقائق، وابتكروا من النظريات والقواعد ما يستطيعون بها تفسير كل المظاهر الكونية، وأعلن كثير منهم في ذلك الوقت تبرمه بالأديان وأهلها والعقائد ومعتقديها، وطغت موجة من الإلحاد على العقول والأفكار، ثم لم تلبث هذه الموجة أن انحسرت أمام ما تجلى لهؤلاء العلماء أنفسهم من عظمة الكون، وأمام ما انكشف لهم من النواميس التي هدمت ما اطمأنوا إليه من قبل وما اعتقدوا أنه الحق فطامنوا من غرورهم واعترفوا بقصورهم وأعلنوا هذا العجز التام، وواصلوا بحوثهم في تواضع وأدب.

ذلك أمر طبيعي؛ فإن هذا العقل السائح في ملكوت الله لا يستطيع أن يكشفه جملة ولا أن يصل إلى مكنوناته طفرة، فهو لابد أن يبلغ المدة التي كتبها الله له باحثاً منقباً، ولابد أن يصل إلى الحقائق متدرجاً، ولابد أن يخطئ مرة ويصيب أخرى فيتلقى عن الخطأ درساً، ويكشف بالصواب حقيقة وهكذا دواليك، على أن العقل مهما بلغ من الكمال فهو لم يصل بعد إلى حقيقة شيء من الأشياء، إنما كل ما ظفر به بعض العوارض والصفات التي تنفع الناس، أما حقائق البسائط المجردة فهو لم يصل إلى شيء منها بعد، وأغلب الظن أن ذلك ليس من شأنه ولا مما يعنيه وإنما سر الخلق الذي استأثر الله بعلمه.

رأي بعض العلماء فيما وصل إليه العقل:

وإليك بعض أقوال علماء الكون في ذلك نستفتحها بقول الأستاذ الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد في هذا المقام: «إذا قدرنا عقل البشر قدره وجدنا غاية ما ينتهي إليه كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الإدراك الإنساني حساً كان أو وجداناً أو تعقلاً، ثم التوصل بذلك إلى معرفة مناشئها وتحصيل كليات لأنواعها والإحاطة ببعض القواعد، لعروض ما يعرض لها، وأما الوصول إلى كنه حقيقته فمما لا تبلغه قوته؛ لأن اكتناه المركبات إنما هو باكتناه ما

تركبت منه وذلك ينتهي إلى البسيط الصرف وهو لا سبيل إلى اكتناهه بالضرورة، وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره، خذ أظهر الأشياء وأجلاها كالضوء..فقد قرر الناظرون فيه أحكاماً كثيرة حصلوها في علم خاص به، ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ما هو ولا أن يكنه معنى الإضاءة نفسها، وإنما يعرف من ذلك ما يعرف كل بصير له عينان وعلى هذا القياس».

١-تحدث الفيلسوف الفرنسي «جوستاف لوبون»[1] في كتابه «تحول المادة» عن تطور المعارف الإنسانية الكونية وقصور العقل البشري عن إدراك حقائق النواميس الطبيعية في كلام طويل نقتطف منه ما يلي: «كل نظرياتنا العلمية العظيمة ليست بقديمة العهد؛ لأن تاريخ العلم التجريبي المحقق لا يصعد إلى أبعد من ثلاثة قرون، وفي هذا العهد القريب قُرباً نسبياً حدث دوران مختلفان من أدوار التحول في أفكار العلماء، فالدور الأول كان دور الثقة والاعتقاد، فكانت فيه المقررات الفلسفية والدينية، وهي قواعد مدركاتنا القديمة عن الوجود تضمحل وتزول ببطء أمام المكتشفات العلمية التي تتوالى يومياً، ولا سيما النصف الأول من القرن الماضي، وكان يظن مؤسسو كل علم جديد أنهم متى أتموا بناء الصرح العلمي استمر هذا الصرح قائمًا على أنقاض أوهام الزمان الماضي، فكانت العقيدة العلمية في هذا الدور على غاية تمامها. دامت هذه العقيدة في المقررات الكبرى للعلم العصري حافظة لقوتها إلى أن حدثت في الأيام الأخيرة مكتشفات غير منتظرة قضت على الفكر العلمي أن يكابد من الشكوك في نتائج بحثه ما كان يعتقد أنه قد تخلص منه أبد الآبدين، فإن الصرح الذي كان لا يرى صدوعه إلا عدد قليل من العقول العالية تزعزع فجأة بشدة عظيمة فصارت التناقضات والمحالات التي فيه ظاهرة للعيان بعد أن كانت من الخفاء بحيث تكاد لا تبلغها الظنون.

«أدرك الناس على عجل أنهم كانوا مخدوعين، وأسرعوا يتساءلون عما إذا كانت الأصول المكونة للمقررات اليقينية لمعارفنا الطبيعية لم تكن إلا فروضاً واهية تحجب

(١) جوستاف لوبون: عالم الاجتماع الفرنسي ذائع الصيت بفضل مصطلحاته في مجال علم النفس العام ومن مؤلفاته «علم نفس الجماهير» المؤرخ له بسنة١٨٩٥م.

تحت غشائها جهلاً لا يسبر له غور، فحدث في إدراك المقررات العلمية مثل ما حدث قبل ذلك للعقائد الدينية»[١]، عندما شرعوا في مناقشتها الحساب، فبدأت ساعة الانحطاط ثم تلاها دور الزوال والنسيان. لا مشاحة في أن الأصول التي كان العلم يختال بها اختيالاً لم تزل كل الزوال، بل هي ستبقى أمداً طويلاً في نظر الدهماء كحقائق مقررة، وستستمر الكتب الابتدائية على نشرها ولكنها قد فقدت كل ما كان لها من الإجلال في نظر العلماء الحقيقيين، تلك المكتشفات التي نوهت بها آنفاً قد كشفت اللثام عن الظنيات التي بدأت تفضحها الكتب الحديثة، وبذلك دخل العلم نفسه في دور من الفوضى كانوا يظنون أنه قد سلم منها إلى الآن، وأصبحنا نرى أصولاً كان يظن أنها ذات قاعدة رياضية محققة صارت موضوع النزاع بين العلماء الذين من وظائفهم تعليمها والدفاع عنها. ثم أورد بعد ذلك عدة شواهد على قوله هذا الكلام من كلام «هنري بوانكاريه»[٢] و«إميل بيكار»[٣] و«ماتش» و «لوسيان بوانكاريه» ختمها بقول هذا الأخير: «فالآراء التي كانت تظهر لمن سبقنا كأنها تأسست تأسيساً ثابتًا صارت اليوم لدينا موضوعاً للمناقشة، وقد رفض اليوم على وجه تام الرأي القائل بأن كل الظواهر الطبيعية تقبل تفسيراً ميكانيكياً، فإن أصول علم الميكانيكا نفسه صارت مشكوكاً فيها، وقد شوهدت حوادث جديدة زعزعت عقائدنا المتعلقة بالقيمة المطلقة للنواميس التي اعتبرت أساسية إلى اليوم » ثم قال بعد ذلك: «من حسن الحظ أنه لا شيء أكثر ملاءمة للترقي العلمي من هذه الفوضى، فالوجود مفعم بمجهولات لا نراها والحجاب الذي يحجبه عنا منسوج غالباً من الآراء الضالة أو الناقصة التي توجبها علينا تقاليد العلم الرسمي. وأشد الأشياء خطراً على

---

(١) يقصد المؤلف العقائد الدينية عندهم، وإلا فإن عقائد الإسلام قد سايرت العلم في كل عصر فلم تضعف أمامه [حسن البنا].

(٢) بوانكاري: هو جول هنري بوانكاري (١٨٥٤-١٩١٢م) عالم رياضة وفيزيقا وكاتب فرنسي، يعتبر أحد أساطين الرياضة في عصره، وكان لأبحاثه في نظرية الدوال أثر في اتساع مجال الفيزيقا الرياضية، وله أعمال هامة في المعادلات التفاضلية ونظرية المسارات الفلكية، تشمل مؤلفاته «الطرق الحديثة للميكانيكا السماوية» ١٩١٣م، وثلاث مؤلفات أخرى بالإنجليزية تحت عنوان «أسس العلم» ١٩١٣م-انظر محمد شفيق غربال-الموسوعة العربية الميسرة ج١ص٤٢١-دار الجيل-بيروت١٩٩٥م.

(٣) إميل بيكار: عالم رياضيات فرنسي، كان يهتم بالعديد من القضايا مثل: نظرية الدالة الرياضية، وحساب التكامل، ونظرية المجاميع، وطريقة المقاربات المتتابعة، انظر قاموس روبرت الفرنسي ص٨٢٦.

تقدم العقل الإنساني هو تقديم الظنيات للقراء لابسة حلل الحقائق المقررة على نحو ما تفعله كتب التعليم، والتطاول لوضع تخوم للعلم ورسم حدود لما تمكن معرفته كما كان يود ذلك «أوجست كنت»[1].

٢-حتى «دارون»[2]، نفسه الذي فتن مذهبه كثيراً من الأغرار قد بيّن أن غاية نجاحه العلمي لم يتعد بعض التفسيرات في أصل الأنواع، وقد كتب في هذا المعنى إلى صديقه المستر «هيات» فقال: «اسمح لي أن أضيف إلى هذا بأني لست من قلة العقل بحيث أتصور أن نجاحي يتعدى رسم دوائر لبيان أصل الأنواع».

٣-ومن كلام «وليم جيمس»[3] الأستاذ بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية: «إن علمنا ليس إلا نقطة ولكن جهلنا بحر زاخر، والأمر الوحيد الذي يمكن أن يقال بشيء من التأكيد هو أن عالم معارفنا الطبيعية الحالية محاطة بعالم أوسع منه من نوع آخر لم تدرك خواصه المكونة له إلى اليوم».

٤-وقال الأستاذ «وليم كروكس»[4] الإنجليزي من خطبة له في مجمع العلوم: «متى امتحنا من قرب بعض النتائج العادية للظواهر الطبيعية لم نبدأ بإدراك إلى أي حد تحصر هذه النتائج أو النواميس كما نسميها في دائرة نواميس أخرى ليس لنهايتها أقل علم عندنا، أما أنا فإن تركي لرأس مالي العلمي الوهمي قد بلغ حداً بعيداً، فقد تقبض عندي هذا النسيج العنكبوتي للعلم، كما عبر بذلك بعض المؤلفين إلى حد أنه

---

(١) كونت أوجست كونت (١٧٩٨-١٨٥٧م) فيلسوف فرنسي مؤسس الفلسفة الوضعية التي ترفض الميتافيزيقا وتعتمد على نتائج العلوم الحديثة، كان يهدف إلى إصلاح المجتمع ليعيش الناس في توافق وسلام، ومذهبه مبسوط في كتابه «محاضرات في الفلسفة الوضعية» انظر الموسوعة العربية الميسرة ج٢ص١٥١٧.

(٢) دارون، تشارلز روبرت دارون (١٨٠٩-١٨٨٢م) عالم طبيعة إنجليزي درس الطب ثم درس العلوم في كيمبردج، قاده شغفه بالتاريخ الطبيعي إلى القيام برحلة بحرية استمرت خمس سنوات وكانت هذه الرحلة سبباً في تكوين رأيه عن التطور، وضع أسس نظرياته في كتابه «أصل الأنواع «من مؤلفاته «أصل الإنسان» والانتخاب بالنسبة للجنس» انظر الموسوعة العربية الميسرة ج١ص٧٧٤.

(٣) وليم جيمس: عالم نفس أمريكي وفيلسوف الأديان المعروف والأستاذ بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمركية وفارس المذهب البراجماتي «النفعي»، انظر قاموس روبرت الفرنسي ص٨٢٦.

(٤) كروكس، سير وليم (١٨٣٢-١٩١٩م) كيميائي وفيزيائي إنجليزي، اكتشف عنصر الثاليوم، ودرس النشاط الإشعاعي، اخترع أنبوبة عالية التفريغ سميت باسم «أنبوبة كروكس»، له دراسات للثروات النادرة والماس- انظر الموسوعة العربية الميسرة ج٢ص١٤٥٦.

لم تبق منه إلا كرة صغيرة تكاد لا تدرك».

٥-وقال «كاميل فلامريون»[1] في كتابه (المجهول): «ترانا نفكر، ولكن ما هو الفكر؟ لا يستطيع أحدنا أن يجيب عن هذا السؤال، وترانا نمشي، ولكن ما هو العمل العضلي؟ لا يعرف أحدنا ذلك بل، كيف ينقل العصب البصري الصور الخارجية إلى الفكر؟ وقل لي: كيف يدرك هذا الفكر وأين مستقره؟ وما هي طبيعة العمل المخي؟ أستطيع أن أسأل عشر سنين ولا تستطيع أكبر رأس فيكم-يقصد العلماء الكونيين- أن يجيب على أحقر أسئلتي».

٦-وقال الفيلسوف «أندريه كريسون» في كتابه (قواعد الفلسفة):«العلم لا يعطينا عن الوجود في مجموعه إلا معارف مبهمة للغاية، فإننا لا نعلم البدء الحقيقي للنجوم ولا للكواكب التي تحيط بالشموس البعيدة، فإبداء فرض والحالة هذه على تركيب مجموع الكون لا يمكن أن يكون إلا تحكماً».

تلك صورة مصغرة في الحقيقة عن اعتراف علماء الكون بجهالتهم بنواميس الكون، نسوقها تذكرة لإخواننا الذين افتتنوا بهذه البحوث وأرادوا أن يتخلصوا من سلطان العقيدة الدينية استناداً إليها، بل أزيدهم في ذلك أن الفيلسوف الإنجليزي «هربرت سبنسر» كان من حججه القوية في المطالبة بالعناية بالعلوم الطبيعية أن معرفتها مما يقوي الإيمان ويؤدي إلى معرفة الله، فإن ما في الموجودات من جمال التناسق والإبداع ودقة الصنع والاختراع يثير في النفس الإنسانية فطرة الإيمان العميق، فتعترف راضية مطمئنة بعظمة الخالق العظيم، ويزيدها تسليماً وتفويضاً عجز العقل البشري عن تخطي الحدود العرفانية المقررة لله وضرب لذلك عدة أمثلة في غاية الروعة فلتراجع في رسالته في التربية.

ومن كلام هذا الفيلسوف الإنجليزي «هربرت سبنسر» في هذا المعنى أيضًا في (رسالة التربية): «العلم يناقض الخرافات ولكن لا يناقض الدين نفسه. يوجد في شيء كثير من العلم الطبيعي الشائع روح الزندقة، ولكن العلم الصحيح الذي

---

(١) فلكي فرنسي ولد عام ١٨٤٢م وتوفي عام ١٩٢٥م، وهو مؤسس الجمعية الفلكية الفرنسية ومن مؤلفاته «علم الفلك العام».

فات المعلومة السطحية ورسب في أعماق الحقائق براء من هذه الروح. العلم الطبيعي عبادة صامتة، واعتراف صامت بنفاسة الأشياء التي تعاين وتدرس ثم بقدرة خالقها، فليس ذلك التوجيه تسبيحاً شفهياً، بل هو تسبيح عملي وليس باحترام مدَّعى، إنما هو احترام أثمرته تضحية الوقت والتفكير والعمل، وهذا العلم لا يسلك طريق الاستبداد في تفهيم الإنسان استحالة إدراك «ذات الله»، ولكنه ينهج بنا النهج الأوضح في تفهيمنا هذه الاستحالة بإبلاغنا جميع أنحاء تلك الحدود التي لا يستطاع اجتيازها، ثم يقف بنا في رفق وهوادة عند هذه النهاية وهو بعد ذلك يرينا بكيفية لا تعادل صغر العقل الإنساني إزاء ذلك الذي يفوت العقل».

الإنسان والطبيعة:

إن القرآن بهذا الأسلوب البديع الفريد قد ربط بين القلب المؤمن والعقل المفكر، وآخى بذلك بين الدين والعلم ورفق بين الإنسان والطبيعة، وبين الفرد وبيئته، وهذا أقصى ما وصل إليه الاجتماعيون والمربون من سمو الغاية ونبل المقصد، وقد سبقهم به الإسلام بعدد كبير من الأجيال. يتبرم كثير من الشبان العصريين بالطقوس والترانيم التي جعلتها الكنيسة لب العبادة وعماد المناجاة، ويرى هذا الفريق من الشبان أن هذا الوجود هو أقدس سفر يتلو فيه الإنسان آيات عظمة الله تبارك وتعالى، وهم لذلك يرددون آثار «شوبنهور» و«جوته» و «بيرون» و «لامرتين» وغيرهم من شعراء الغرب الذين تناولوا الكون بالوصف الرائع البديع.

هذا الفريق من الشباب لو قرءوا القرآن الكريم ودرسوا الدين الإسلامي الحنيف لوجدوا فيه فوق ما يتصورون من تغذية العقول والأرواح بالتأمل في خلق الله ﷻ والتفكر في كونه ومخلوقاته، ولوجدوا في ذلك حياة أرواحهم وسعادة أنفسهم: **﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**.[١]

---

(١) الآية ٥٠ من سورة الروم.

الخلاصة:

من ذلك كله نعلم أن الإنسان ما زالت أمامه مراحل واسعة لإدراك حقائق الظواهر الكونية، فإذا عجز الآن عن إدراك ملكوت السماوات وعن تعرف عجائب الأرض وعن اكتناه سر الحياة، إذ إن القرآن لم يكشف لنا من ذلك إلا ما نحتاجه للعظة والعبرة، والعقل البشري لم يصل في كشفه إلا إلى بعض الجوانب دون بعض.

إذا عجزنا الآن فليس ذلك بنقص ولا عيب ولسنا ملزمين أبداً بإدراك كل الحقائق، فلنقنع مؤقتاً بما وصلنا إليه، ولنعمل بجد لإدراك ما خفي عنا أمره، ولكل مجتهد نصيب ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[١].

العقل مناط التكليف:

ولقد شرف الله العقل بالخطاب، وجعله مناط التكليف وندبه إلى البحث والنظر ولكنه في ذات الوقت محدود المؤهلات، فهو ليس مأمون الخطأ، ولقد ضل أقوام استخدموا العقل في غير مكانه فضلوا حين تكلموا في ذات الله تبارك وتعالى فتركوا للعقل أن يفكر فيما لا يدرك كنهه وهذا النظر عقلي غير معتبر؛ لأن عقولنا القاصرة تعجز عن إدراك حقيقة نفسها فما بالك بإدراك حقيقة ذات الله.

روي الإمام مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لاَ يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ هَذَا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ**»[٢].

والمسلم له قوتان: قوة من دينه وقوة من عقله، وهما سليمتان في قلب المؤمن متحالفتان، وقوة الدين مقدمة على قوة العقل إن كانت يقينية ولقد أخطأ المتكلمون – المعتزلة– حين قدموا القضايا العقلية قبل النظر في الآيات القرآنية بالرغم من أنهم يأخذون بالعقل والنقل، إلا أنهم يقدمون النظر العقلي على الشرعي فيؤلون على مقتضى العقل وإن كانوا لا يخرجون عن عقائد الإسلام ويقولون: الحسن ما حسنه العقل والقبيح ما قبحه.

---

(١) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.
(٢) رواه مسلم في صحيحه.

وهناك فريق آخر -الماتريدية- الذين يستعينون بالعقل ليبرهنوا على عقائد القرآن عكس الأشاعرة الذين يستعينون بالأدلة العقلية بجوار الأدلة القرآنية، ولكل نظره العقلي في مثل هذه الأمور إلا أن الدليل العقلي في مثل هذه المسائل مقيد حين ينظر في مسائله بقيود علمية بيَّنها العلماء ووضعوا لها القواعد والأصول ليكون الدليل العقلي معتبراً وليس هنا مجال تفصيل ذلك.

مجال آخر للدليل العقلي:

ونحب أن نؤكد أن الحقائق العلمية التي توصَّل إليها البحث العلمي محال أن تصطدم بالنظر الشرعي فيها؛ ذلك لأن أحكام القرآن كلها صادقة لا تخطئ ولا تتغير ولا تبديل لكلمات الله، وربنا الذي نزل القرآن هو ﷻ الذي علم الإنسان، فمحال أن يتناقض العلم الصحيح مع صريح القرآن، فإذا قرر القرآن أن الله قد استأثر بعلم ما في الأرحام مثلاً فلن يصل العلم أبداً إلى معرفة ما في بطن الأم حين لا يكون للحمل حجم ولا جرم، ونوع هذا الحمل ذكر أو أنثى حين لا يملك أحد أن يعرف عن ذلك شيئًا في اللحظة الأولى لاتحاد الخلية والبويضة وملامح الجنين وخواصه وحالته واستعداداته، فكل هذا مما يختص به علم الله تعالي.

ويجب أن نوقن أن الحقيقة العلمية والحكم الشرعي القاطع لا يختلفان أبداً، فالمولي مثلاً يقول: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾[1]، هذا حكم شرعي والعلم يقطع بأن القمر يتنقل من منزلة إلى منزلة ويتحول من هلال إلى ما فوقه حتى يصير بدرًا.

ومن البيِّن أن الحقائق العلمية بلغت من الثراء في العلم الحديث ما تكون به مصدراً لا ينفد للاستئناس والاستدلال على حقائق العقيدة، وهو مصدر متجدد بنمو الاكتشافات لقوانين العلوم، ففي كل قانون جديد دليل جديد على تلك الحقائق.

«إن ما جاء في القرآن صريحاً يجب الإيمان به، وذلك مثل ما حكاه القرآن عن أن الكون كان شيئًا واحداً ثم فصله الله بالخلق والتقدير وهو من صريح قوله: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا

(١) من الآية ٣٩ من سورة يس.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾[١]، هذه حقيقة أثبتها العلم وذكرها القرآن، أما البحث وراء ذلك من كيفيه الفتق وعوامله وتاريخ أجزائه ووضع كل جزء مكانه مما لا يدل عليه نص قرآني صريح، فهو مهمة البحث العقلي الذي وُكِّل إلى الإنسان، ولا ينبغي التماس حقيقته من ظواهر القرآن التي سيقت للاستدلال بها على قوة الله، ولفتح أبواب البحث والمعرفة أمام الناس»[٢].

ولذلك فقد يتناول كل من النظر الشرعي والنظر العقلي ما لا يدخل في دائرة الآخر -كما رأيت- ولكنهما لا يختلفا في القطعي، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعي أولى بالاتباع حتى يثبت العقلي أو ينهار.

القرآن والحقائق العلمية:

إن لفيفاً من الباحثين وجد أن أوصاف القرآن للكون دقيقة مثيرة فهي تومئ إلى أسرار علمية وسنن فطرية لم يعرفها الناس إلا في هذا العصر، وتبين بالموازنة المنصفة أن حديث القرآن عن بناء الكون وقوانينه ووظائفه ينسجم مع الحقائق العلمية انسجاماً لم يعرف له شبيه في أي كتاب آخر.

فأنت تقرأ -كما قلنا- عن الوصف العلمي للسحاب والأمطار والرعد والبرق فتجده مطابقاً لأوصاف القرآن، وتقرأ في خلق الإنسان بين الطب والقرآن تجده مطابقاً لآيات العليم الخبير، وتقرأ في مضار جماع الزوج لزوجته في فتره الحيض، وعن مضار أكل لحم الخنزير وشرب الخمر والدم والميتة وغير ذلك مما ذكر تحريمه في القرآن فتجد مطابقة ذلك للعلم.

بل وتعجب لوصف القرآن للكافر ﴿كأنما يصعد في السماء﴾[٣]، وتجد العلم يبين لك قلة الأكسجين كلما صعدت إلى أعلى حتى يكاد المرء أن يختنق، واقرأ عن عذاب الكافرين في النار يقول المولى: ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾[٤]، فإذا بالعلم

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الأنبياء.
(٢) الفتاوى للشيخ محمود شلتوت ص ٤٢٥.
(٣) من الآية ١٢٥ من سورة الأنعام.
(٤) من الآية ٥٦ من سورة النساء.

الحديث يكتشف أن مناطق الإحساس هي الجلد، وتقرأ: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [١] وتجد علم تحقيق الشخصية -البصمات- وما أكثر الأبحاث الطبية التي قام بها علماء على عسل النحل فتحققوا -وهم غير مسلمين- من قول الله: ﴿فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ﴾ [٢].

وعلام نعجب وصاحب الكون وما فيه وهو منزل القرآن وحياً على النبي الأمي محمد ﷺ، والصلة بين الحياة وما فيها وبين القرآن وما أخبر به صلة قوية: ﴿إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [٣].

وعلى هذا فلا يمكن أن تتصادم حقيقة علمية مع حقيقة قرآنية، فالكون خلقه الله والقرآن كلام الله، وما دام القائل هو الخالق فلا تصادم: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [٤].

ومع هذا فإن القرآن ليس كتاب كيمياء ولا فيزياء ولا طب ولا فلك كما أنه ليس كتاب نظريات علمية ولم يجئ ليكون علمًا تجريبيًا كذلك، إنما هو كتاب عقائد وأخلاق وعبادات ومعاملات تكوّن منهج حياة يقوّم العقل ليعمل وينطلق في حدوده، وليسمح للعقل بالعمل والانطلاق دون أن يدخل في جزئيات وتفصيلات علمية بحتة، فهذا متروك للعقل بعد تقويمه وإطلاق سراحه ليصل إلى الحقائق العلمية الثابتة.

ولهذا فإننا نؤكد أنه يستحيل أن توجد حقيقة علمية يقال بأن الإسلام يناقضها، إن الدين الحق والعلم الحق يتصادقان ولا يتكاذبان أبداً، إنما الخلاف قد يقع بين ظن علمي وظن ديني أو بتعبير آخر بين مسائل دينية ظنية ونظرية علمية [٥]، وحينئذ يقدم الظن الشرعي حتى يثبت العقلي ويصبح قطعياً أو ينهار.

ومن هنا يجب أن نفرق بين النظرية العلمية الظنية والحقيقة العلمية القطعية.

---

(١) الآية ٤ من سورة القيامة.
(٢) من الآية ٦٩ من سورة النحل.
(٣) الآيتان ٤،٥ من سورة النجم.
(٤) الآية ١٤ من سورة الملك.
(٥) دستور الوحدة الثقافية للشيخ محمد الغزالي ص ٢١٤ بتصرف.

الحقيقة العلمية والنظرية العلمية:

النظرية العلمية: هي الرأي الراجح عند القائلين به في تفسير ظاهرة طبيعية أو تحليل قضية اجتماعية، وهي احتمالية لا تصل إلى حد اليقين الجازم.

أما الحقيقة العلمية فإنها لا تتحقق إلا بأمرين:

أولاً- إقامة دليل دامغ على صحتها.

ثانياً- إقامة الدليل على استحالة تغييرها، فتصبح بذلك قطعية لا تحتمل تغييراً ولا تبديلاً، فتكون من سنن الله حينئذ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً، ذلك أن الكون قائم على الناموس الواحد الذي يربط بين أجزائه جميعًا وينسق بين أجزائه جميعًا وبين حركات هذه الأجزاء وبين حركة المجموع المنظم، هذا الناموس من صنع إرادة واحدة لإله واحد فلو تعددت الذوات -تعالى الله عن ذلك علوًا كبيراً- لتعددت الإرادات ولتعددت النواميس تبعًا لها، فالإرادة مظهر الذات المريدة والناموس مظهر الإرادة النافذة.

ومن هنا يتضح الفرق بين النظرية والحقيقة العلمية، فالحقيقة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل فهي سنة من سنن الله -كما قلنا- على عكس النظرية، فإن النظرية التي تقوم اليوم يمكن أن تقوم بعدها أخرى تناقضها، فلا يجب أن نحمل النص المتيقن على نظرية غير مستيقنة تُقبل اليوم وتُرفض غداً، فلا يصح محاولة توفيق النصوص القرآنية القطعية مع النظريات العلمية المتغيرة، فالحقيقة العلمية كتمدد المعادن بالحرارة، وتحول الماء إلى بخار أو تجمده بالبرودة وغير ذلك من الحقائق العلمية الثابتة شيء آخر غير النظريات العلمية التي تحتمل الصواب والخطأ.

فالخطر إذن أن نعتقد في شيء أنه حقيقة علمية وهو ليس كذلك، ولكنه ظن أو احتمال وشك لم يصل إلى مرتبة الحقيقة العلمية أو أن يكون هناك سوء فهم لحقيقة قرآنية، فكم من أشياء حسب الناس أنها حقيقة علمية ثم تبين بعد ذلك كذبها، وهناك مئات مما قال عنه العلماء أنه حقيقة علمية ثبت أنه غير صحيح وما زال تحت البحث والدراسة، ولم يصلوا إلى نتيجة قاطعة له.

لا تصادم بين الدين والعلم:

الإسلام لا يتصادم أبدًا مع العلم، والذين يقولون بذلك إنما هم أصحاب العقائد الفاسدة التي تتصادم مع الفطرة بل مع الكون والإنسان والحياة؛ ذلك لأن الكتب السماوية قبل القرآن حرفت بشريًا فأوجدت تصادم بين العلم والدين، أما القرآن فالله حافظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]، وما زال القرآن يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[2]، وستستمر ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وأعطيك مثالاً لهذا اللبس:

قالوا إن القرآن يقول: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾[3]، ومعنى المد هو البسط، ففسرت بأن الأرض مبسوطة، وقالوا: إن هناك تصادمًا بين الدين والعلم، فالعلم يقول: إن الأرض كروية.

والحقيقة أن القرآن لم يأت بالدلائل التي تؤكد أن الأرض كروية في آية واحدة - كما ذكرنا- بل جاء بها في آيات متعددة مثل قوله تعالى: ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[4].

فهذه الآية ترد على اعتقاد خاطئ غير صحيح كان موجودًا عند العرب وقت نزول القرآن وهو أن الليل يأتي أولاً ثم بعد ذلك يأتي النهار، أي أن النهار لا يسبق الليل ويجيء الحق ليصحح هذا الاعتقاد الخاطئ فيقول: ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾[5]: أي أن الليل أيضًا لا يسبق النهار ومعنى ذلك أنهما موجودان معًا على سطح الكرة الأرضية ولا يمكن أن يوجد الليل والنهار معًا في وقت واحد على سطح الكرة الأرضية إلا إذا كانت الأرض كروية فيكون نصف الكرة مضيئًا والنصف الآخر مظلمًا.

---

(١) الآية ٩ من سورة الحجر.
(٢) من الآية ٥٣ من سورة فصلت.
(٣) من الآية ٧ من سورة ق.
(٤) الآية ٤٠ من سورة يس.
(٥) من الآية ٤٠ من سورة يس.

بل إن الآية نفسها: ﴿والأرض مددناها﴾[1] تدل على كروية الأرض؛ لأن الشكل الوحيد الذي يمكن أن تكون فيه الأرض ممدودة في كل بقعة تصل إليها هي أن تكون الأرض كروية[2]، وليس هنا مجال التفصيل ونكتفي بهذا القدر بعد هذا التفصيل المتعمد لتثبيت الفهم لهذه القضية.

فلا بأس من الائتناس بالحقائق العلمية المكتشفة التي يأذن الله للإنسان بعلمها أو المبثوثة في الكون بسنن يصل إليها، والتي تطابقت مع النصوص القرآنية، فهي في هذه الحالة تكون شاهداً على ما ذكره القرآن من آيات الله، فيعلم الناس أنه الحق من ربهم فتخبت له قلوبهم ويزدادوا إيماناً مع إيمانهم.

علمية العقلية الغيبية:

إذا أردنا أن نقيم أي فكر أو تصور أو مذهب، فإننا يجب أن نبحث عن: كيف نظر إلى الكون والتاريخ والإنسان؟ أهي نظرة تجريبية واقعية محضة أم نظرة غيبية قلبية بحتة؟ وبعبارة أخرى: ما هو دور الحسي والعقل والوحي؟ وأين يبدأ؟ وأين ينتهي كل منهما؟ وما هي العلاقة بينهما؟ وبدون ذلك لا يتم لقاء.

الواقع أن عقل العصر قد اصطبغ بالصبغة التجريبية في البحث، والحسية في المعرفة، والواقعية في الأخلاق، وأهمل دور الغيب وصلته بهم جميعاً، وشبّت أجيال من المسلمين في مدارسهم العصرية على هذا النهج من طفولتهم؛ فكانوا ماديين في طريقة بحثهم رغم أن الغيب كما يشهد العلم يحيط بهم من أصغر ذرة في هذا الكون إلى أكبر جرم فيه، ومن هنا كان التناقض بين واقع الذين ورثوا الإسلام تقليداً وبين أهدافهم الإسلامية.

والدين يقدر العقل ويأمر به في الإدراك والبحث، حتى إنه تكلف به في أعظم أمر وهو إدراك وجود الله تعالى بتتبع الآثار الدالة على ذلك في كتاب الكون المنظور وكتاب الله المسطور، ولكن العقل حين يصل إلى اليقين بوجود هذه الحقيقة عليه أن يدرك محدوديته في إدراك الحقائق المطلقة.

---

(١) من الآية ٧ من سورة ق.

(٢) مقال للشيخ محمد شعراوي، جريدة الأخبار عدد ٨/ ١٢/ ١٩٨٩ بتصرف شديد.

فهو لا يرى الأشعة تحت الحمراء ولا فوق البنفسجية، ولا يسمع أطول ولا أقصر موجة صوتية إلا إلى حد معين، فهناك وجود لا يحس به مغيب عنه لا جدال في ذلك.

لذلك كان الإيمان بالغيب هو العلم في أرفع درجاته، واستخدام الحس في هذا المجال عمل ينطوي على جهل وغرور ينتهي إلى ضلال وأباطيل، وفي هذا المجال لابد من التسليم لله بما أخبرنا به رسول الله ﷺ، فالعقلية الغيبية هي إذن العقلية العلمية؛ لأنها تؤمن بالغيب الموجود يقيناً ولا تسجن نفسها في قيود الحس، والعقلية التي تنكر الغيب عقلية جاهلة مغرورة لا ترى أبعد من نفسها: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[1].

هذه حقيقة منطقية تمهد الطريق لحقائق إيمانية هي:

أولاً- «علينا أن نفرق بين نقل واقع المسلمين المتخلف مادياً إلى العصر وهو أمر مرغوب وبين نقل دين الله إلى العصر؛ لأن هذا مسخ»[2] له.

ثانياً- علينا أن نذكر دائماً أن تربيتنا في مدارس العصر بعقلية الغرب قد تركت فينا من الرواسب المادية والحسية ما يدعونا -أولاً- إلى أن نتحرر منها قبل أن نعمل دين الله في العصر.

ثالثاً- علينا أن نعرف أن علم العصر قد اكتشف في مرحلة متأخرة تصور فيها الإنسان أن بإمكانه أن يعرف كل شيء بالرغم من أنه عجز عن الإدراك الحسي لأصغر جزء وصل إليه من الكون وهو إلكترون الذرة، وعجز عن الإدراك لأكبر جزء من الكون في المجرات التي تنطلق بسرعة إلى حيث لا يعلمه إلا الله.

ومن هنا أصبح الإيمان بالغيب هو العقلية كما قلنا، والتي تضع الأساس الصحيح لإدراك الوعي عن الكون والحياة؛ لهذا كان لابد حين النظر في حقائق الكون والحياة وسننها أن نفهم حقائق ثلاث:

---

(١) الآية ٧ من سورة الروم.

(٢) القرآن ومنهج التفكير-محمد عبد الواحد حجازي ص٧.

١-اتصال الوجود بخالقه الذي له الإرادة والمشيئة الكاملة في الإيجاد والفناء والحياة والموت والتقدم والتأخر والنصر والهزيمة والهدى والضلال، وهي إرادة طليقة من كل قيد، لا كما قال أرسطو: خلق الكون وقوانينه وأطلق حركته ثم تركه دون أي تدخل، ولا كالملكة الإنجليزية تملك ولا تحكم: ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[1].

٢-ثم اتصالاً بعد ذلك بسنن الله الثابتة التي لا تتبدل ولا تتغير بفعل البشر كقوانين المادة والحياة سواء أكان ذلك في حركتها أو وجهتها وغايتها.

٣-ثم اتصالاً ثالثاً أخيراً بالإنسان كما خلقه الله بأشواق روحه ونزعات غرائزه والحرية الكاملة لاختيار سلوكه في الكون والحياة، وهذه هي النظرة الشمولية.

والذي ينكر الغيب لم يفرق بين ما يستحيل وجوده وما يستحيل إدراكه، فثبت علمه على أساس ضعيف وافتراضات ناقصة فما صحت أو اكتملت له نظرية وما صلح له منهاج.

«وهنا يختلف المسلمون عن غيرهم في طريقة تفكيرهم في أنهم أطلقوا عقولهم التي تخلصت من كل إصر لتبدع في حدود مجالها وهي حرة طليقة؛ ولذلك قام منهاجنا الإسلامي على الإقناع العقلي والحرية في الاختيار ليكون الإيمان العميق الذي يحمي العقيدة ويضحي من أجلها، فلا إيمان دون إعمال فكر ولا فكر صحيح دون حرية»[2].

والفكر هو نتاج العقل الإنساني، والعقل الإنساني يفكر حسب ما يحمل من تصورات وعقائد ومعارف، وهو كالإناء ينضح بما فيه، فالذين كانوا يئدون البنات كانوا أصحاب عقول تفكر، بل إن فرعون الذي كان يذبح الأبناء ويستحيي النساء كان له عقله الذي يفكر به ولكنها عقول لا يفقهون بها.

ولكي تصح العقول وتسلم يجب أن تراعي الأمور الآتية:

أولاً-إن الإيمان بالله يحرر الإنسان فكراً وشعوراً وإرادة من كل القيود

---

(١) من الآية ٥٤ من سورة الأعراف.

(٢) القرآن ومنهج التفكير-محمد عبد الواحد حجازي ص٧.

الأسطورية والكهنوتية والاجتماعية وغيرها.

ثانياً-إن الإيمان بالله يفرض على الإنسان التفكر بوجدان واعٍ يقظ بما يحيي وجوده ويعمر حياته ويزكي كيانه.

ثالثاً-إن كل درجات الفكر -على شريعة الإسلام الحنيف- تقتضي إفضاءً تلقائياً منطقياً إلى إثبات أن الله واحد لا شريك له وأن القرآن هدى ورحمة للمؤمنين وأن محمداً ﷺ رسوله للناس أجمعين.

بين الفكر والحرية:

إن إطلاق العنان للعقل ليفكر دون حدود ودون تصور سليم صحيح يهلكه، فكم زلت أقدام بعد ثبوتها حين أطلقت للعقل العنان وجعلته هو المنشئ المريد، وكم هوت عقول في مكان سحيق وتخطفها الطير، وكم من عقل مضى في الطريق فضلّ حين رفض الوحي مرشداً، فإذا هو ﴿**كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ**﴾[1]، أويصبح حاله ﴿**كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾[2].

ولا يحسبن أحد أننا بذلك ندعو إلى تعطيل العقل أو تحجيمه، بل ندعوه لانطلاق بعيد المدى في جميع الآفاق، ولكن في حدود مجاله وفيما خُلق من أجله، فالذين عطلوا أسماعهم وأبصارهم وعقولهم وغفلوا عن الحق واتبعوا الباطل الذي لا دليل عليه ولا برهان استثار الحق عقولهم فقال: ﴿**قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ**﴾[3]، ويذكرهم بيوم يقولون فيه: ﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾[4]، فللعقل مجاله الذي يعمل فيه فإن تعداه اعتدى وضل ولا يهتدي سبيلاً، وعلى المسلم إن

(١) من الآية ٣٩ من سورة النور.
(٢) الآية ٤٠ من سورة النور.
(٣) الآية ١٤٨ من سورة الأنعام.
(٤) الآيتان ١٠، ١١ من سورة الملك.

عجز عن الإدراك حينذاك أن يتهم العقل بالعجز ولا يتهم الشرع بالنقص؛ لذلك وجب علينا أن نحدد للعقل مجاله.

فما هو مجال العقل؟

مجال العقل:

أولاً- له أن يعارض مفهوماً عقلياً بشرياً للنص بمفهوم عقلي بشري آخر، فلا حرج عليه في هذا ولا حجر ما دام هناك للأصول الصحيحة مجال للتأويل والأفهام المتعددة.

ثانياً- أن يتدبر دلائل الهدى وموجبات الإيمان في الأنفس والآفاق.

ثالثاً- محاولة فهم النصوص والاقتناع بها ليسلم تسليماً كاملاً ويخضع لأوامر الله ويلتزم بها، فالإسلام يخاطب العقل ويكل إليه فهم مدلولات النصوص التي تحمل مقرراته ولا يفرض عليه أن يؤمن بما لا يفهم مدلوله ولا يدركه، فإذا وصل إلى مرحلة إدراك المدلولات وفهم المقررات لم يعد أمامه إلا التسليم وإلا كان العقاب الذي ينتظره.

ولذلك اهتم الإسلام بتربية العقل تربية تتفق مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ويحوطه بسياج من العناية والرعاية؛ لأنه مناط التكليف وعليه المعول في فهم الشريعة وتطبيقها، وإذا ما اختل العقل سقطت التكاليف عن صاحبه جملة.

حاجتنا لصياغة العقل صياغة إسلامية:

إننا في حاجة ماسة اليوم إلى إعادة صياغة وتشكيل العقل المسلم صياغة تواكب العصر بضوابط الشرع؛ ذلك لأن الإسلام يُصلح الزمان والمكان، وعقل المسلم الواعي لابد وأن يتعامل مع متغيرات العصر فيعيد المسلم ترتيب عقله ليجتهد اجتهاداً عصرياً سليماً، فلا يطوع الإسلام للعصر ويجعله عجينة لينة قابلة للتشكيل في أي صورة أو يجمد الإسلام في قوالب حجرية صنعتها عقول من قبلنا مناسبة لزمانهم ولم تعد مناسبة لزماننا.

«فالدعوة إلى الاجتهاد لعصرنا لا تعنى الفوضى وفتح الباب على مصراعيه لكل

مدع متطاول وإن لم يُحَصِّل شروط الاجتهاد الأساسية كبعض دعاة التجديد أو التطور الذين يريدون أن يطوروا الإسلام ذاته حتى يوافق أهواءهم ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[1]، وأهواؤهم إنما كونتها المعارف التي تسولوها من موائد الثقافة الغربية مع معرفة ضحلة بالإسلام أو جهل مطبق في بعض الأحيان»[2]، فلا يفرقون بين ثابت ومتغير.

أو الذين فهموا الإسلام بشموله وعمومه ويدعون إليه لكنهم تأثروا بالمنهج الغربي فكان منطلقهم -كما وضحنا- منطلقاً حضارياً لا تعبدياً نتيجة تأثر عقولهم بشكل أو بآخر بالبيئة التي يعيشون فيها، فاختلطت التصورات فاختل المنطلق نتيجة هذا الخلل.

إن دعوتنا إلى إعادة صياغة العقل المسلم ذات بعدين[3]:

أولاً-تصحيح التصور، وذلك بالقدرة على رؤية المسارات الإسلامية متواصلة متكاملة متوازية، لا يصطدم بعضها بالآخر لتأخذ بعدها بضبط وربط، والقدرة على تكوين العقلية التي تمتلك أبجديات الثقافة الإسلامية، فتحسن القراءة الإسلامية التي تستطيع من خلالها أن تفسر الظواهر الاجتماعية تفسيراً إسلامياً، وتصدر عن تصور شامل للكون والإنسان والحياة ولا تقع فريسة للتفسيرات غير الإسلامية، كما أنها لا تبقى مشوشة غير قادرة على التوازن والاعتدال.

ثانياً- تخليص العقل من آفاته المتعددة التي توجهه إلى نظرات غير سليمة، ومن أهمها النظرة الجزئية والتي تؤدي إلى العجز والانكسار وإلى تضخيم دور الفروع والجزئيات، الأمر الذي يقتل الإبداع ويصيب قدرة العطاء عند الإنسان ويوقع في التقليد ويحرم صاحبه من الإفادة من جهود الآخرين سواء أكان بالتعامل مع التراث أم بالقدرة على استلهام الكتاب والسنة لمواجهة حاجات العصر المتجددة، فإن فقهنا ذلك كله مما سبق شرحه تأكدنا من صحة هذا الأصل وفحواه ومعناه فاستقام الفهم وصح السلوك.

---

(١) من الآية ٧١ من سورة المؤمنون.

(٢) الدكتور يوسف القرضاوي-ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده ص ١٨٠.

(٣) المرجع السابق.

مردود الأصل التاسع عشر

أولاً- حصيلة العقل:

أ- اختر الإجابة الصحيحة (من الممكن أن تكون أكثر من إجابة صحيحة):

١- قد يتعارض:

أ	قطعي الشرع وقطعي العلم.	ب	قطعي الشرع وظني العلم.
ج	قطعي العلم وظني الشرع.	د	ظني الشرع وظني العلم.

٢- إذا حدث خلاف بين الشرع والعلم يقدم:

أ	قطعي الشرع على ظني العلم	ب	قطعي العلم على ظني الشرع
ج	ظني الشرع على قطعي العلم	د	جميع ما سبق

٣- ظني الشرع:

أ	يؤول لظني العلم	ب	يؤول لقطعي العلم.
ج	يقدم على ظني العلم	د	جميع ما سبق.

ب- ضع (أ) أما العبارة الصحيحة و (ب) أمام العبارة الخطأ فيما يلي:

٤	من المقبول شرعًا ربط الحقائق القرآنية الثابتة ببعض النظريات العلمية القائمة.	
٥	الحقائق العلمية قد تصطدم أحيانا بنص شرعي قطعي.	
٦	من إعجاز القرآن تناوله الدقيق المفصل لبعض العلوم الكونية.	
٧	من سمات النص القرآني مسايرته للفطرة الإنسانية واتفاقه مع التحليل العلمي	

قارن إجاباتك بالإجابات النموذجية في آخر مردود الأصل، وأعط نفسك درجة لكل إجابة صحيحة وصفرًا للإجابة الخاطئة.

أكثر من ٩	٨-٩	٧		
ممتاز	جيد جدًّا	جيد	متوسط	ضعيف

ثانيًا- رصيد القلب:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	أعتقد أن للشرع اختصاصاته وأن للعلم اختصاصاته.					
٢	أوقن أن الحقيقة العلمية لا تصطدم بنص شرعي قطعي.					
٣	لا أتحرج من تأويل ظني الشرع إذا تعارض مع الحقائق العلمية.					
٤	أميل إلى تقديم ظني الشرع إذا تعارض مع ظني العلم.					
٥	أكره أن يربط بين القرآن والنظريات العلمية.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٧	١٥-١٧	١٣-١٤	١٠-١٢	أقل من ١٠
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثالثًا- حساب الجوارح:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	أبين لمن حولي أن للشرع مجالاته وللعلم مجالاته.					
٢	أشرح لمعارفي أن الحقيقة العلمية لا تصطدم بنص شرعي قطعي.					
٣	أقدم الحقيقة العلمية على ظني الشرع.					
٤	أقدم قطعي الشرع على ظني العلم.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٣	١٢-١٣	١٠-١١	٨-٩	أقل من ٩
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

إجابات حصيلة العقل (١٩)

السؤال	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
أ		✓			✓		✓
ب	✓	✓	✓	✓		✓	
ج	✓		✓				
د	✓						

الأصل العشرون

الحد الفاصل بين الكفر والإيمان

«لا نكفر مسلماً أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما، وأدى الفرائض برأي أو معصية، إلا إن أقر بكلمة الكفر، أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، أو كذب صريح القرآن، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً غير الكفر».

هذا الأصل يعالج:

١-مفهوم الكفر والإيمان.

٢-حكم الناطق بالشهادتين.

٣-الكفر والجهل بالعقيدة والعذر بالجهل.

٤-أصحاب الذنوب والكفر الأصغر.

٥-أنواع الكفر.

٦-الجماعة ليست شرطاً للإيمان.

٧-حكم ومن لم يحكم بما أنزل الله.

الواقع أن هذا النص دقيق في معناه وفي مبناه؛ ذلك لأنه جمع القواعد والضوابط الفقهية لتبيان الحد الفاصل بين الكفر والإيمان، وقبل أن نتكلم عن الحد الفاصل بين الكفر والإيمان يجب أن نعود إلى أصل دعوتنا التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور، والتي هي نور مبين: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1] هذه الدعوة الحريصة على الناس والرحيمة بهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[2]، والتي تعلمنا كيف ننتقي اللفظ عند دعوة الناس لها، ولا أقول اختيار السلوك الحميد فحسب بل اختيار، بل الكلمة ذاتها كيف تنتقى، وكيف يكون الداعي حريصاً على المدعو، الذي هو في الأصل غير المسلم -وإن كنا نحن حتى الآن ندعو المسلمين إلى الإسلام- بينما أصل الدعوة هو دعوة غير المسلمين إلى الإسلام فمع أخلاق رسول الله ﷺ الفاضلة وسلوكه الحميد وشهادة العدو قبل الحبيب برحمته ﷺ وحسن خلقه إلا أن المولى ﷻ وجهه إلى أسلوب هذه الدعوة وأمره قائلاً له: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[3]، وكانت القدوة التي حققها الرسول ﷺ والتي أمرنا المولى أن

(١) الآية ١٦ من سورة المائدة.

(٢) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

(٣) من الآية ١٢٥ من سورة النحل.

نتأس بها قبل الدعوة، والدارس لسيرة رسول الله ﷺ يعلم أنه مكث أربعين سنة بين قومه، ومَن قومه؟ شاربو الخمر، ولاعبو الميسر، وآكلو الربا، ومقترفو الزنا، وعابدو الصنم والوثن والحجر، هؤلاء الذين وأدوا البنات وتفاخروا بالأنساب، هذه هي معظم الموبقات التي كانت موجودة في هذا المجتمع المشرك، ومع هذا الشرك الواضح وهذه الجاهلية إلا أنهم حين تعاملوا مع رسول الله ﷺ وعايشوه وصفوه بصفتين: **الصادق الأمين**؛ ذلك لأنهم مع شركهم كانوا لا يأتمنون غيره على أموالهم، وكانوا يلجئون إليه في حل مشاكلهم، وما قصة الحجر الأسود منا ببعيد حين اختلفوا وقدم لهم رسول الله ﷺ حلاً لهذا الخلاف بحكمته، فكانوا لا يسمعون منه إلا كل قول حسن، ولين الجانب وحسن العشرة مع شركهم وكفرهم، وما كان رسول الله ﷺ يهتم بالحكم عليهم وهم الذين أعلنوا كفرهم. ومع ذلك لم يؤذي كافراً بلفظ قط وكل هذا السلوك الحميد الذي شهدوا له به قبل الرسالة؛ ولذلك حين أمر بتبليغ الرسالة وجدناه ﷺ يصعد الصفا ويخاطب عقول القوم ويقول: «**يَا صَبَاحَاهْ يَا صَبَاحَاهْ**»، فاجتمعتْ إليهِ قريشٌ فقالوا له: ما لك، فقال: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ مُصَبِّحُكُمْ أَوْ مُمَسِّيكُمْ أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي**»، فقالوا بلى، فقال: «**إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**»، فقال: أبو لهبٍ أَلِهذا جمعتنا تبًّا لك[1].

وانفض من انفض ممن حوله، وتهكم من تهكم وصُب عليه الإيذاء فكيف كان موقفه؟ لم يحطم صنماً؟ ولم يكسر قارورة خمر؟ ولم يسب هؤلاء المشركين وآلهتهم؟ كلا، لم يسمعوا منه إلا كل خير، ولم يرو منه إلا كل حرص فكان يقول لهم: أنتم تلقون بأنفسكم في النار وأنا آخذ بحجزكم، وحاله قبل البعثة كحاله بعدها فبأخلاقه الراقية الفاضلة هي هي بل زادت بالوحي نوراً وتوهجاً واستقامة وإصرارًا وثباتاً على هذه الأخلاق ولا عجب في ذلك فهو القائل: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ**»[2]، ولذلك فالمسلم مطالب بأن يقول للناس كل الناس وليس للمؤمنين فحسب ما وجهه إليه القرآن: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾[3]، فالمسلم يتجنب أي صفة

---

(١) رواه الإمام أحمد.
(٢) رواه الإمام أحمد.
(٣) من الآية ٨٣ من سورة البقرة.

تؤذي مشاعر من يدعوه إلى هذا الدين، حتى ولو كان مشركاً بالله ﷻ، أو كان كافراً عابد صنم فليس لنا إذا تصدينا لدعوته إلا أن نقول له ما يشرح صدره، وما يلين جنبه وما يجعله يصغ السمع إلينا، ألم تر رسول الله ﷺ وموقفه مع الوليد بن المغيرة حين سب الله تعالى وقال قولاً كله كفر، فماذا كان رد رسول الله ﷺ؟ ناداه بأحب الأسماء إليه، بكنيته «**أقد فرغت يا أبا الوليد**»، ثم يقول له كأنه يستأذنه: «**فاسمع مني**»[(١)]، ذلك لأن الإنسان الداعي لا يهتم بالحكم على الناس فنحن دعاة ولسنا قضاة. هذه الأمور يجب أن تكون واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، ألا تعلم أن رسول الله لم يكتف بهذه الأخلاق فحسب ولكنه ﷺ تحالف مع هؤلاء المشركين قبل الرسالة في حلف الفضول المعروف والذي يدعو إلى نصرة المظلوم والقصاص من الظالم ورد الحقوق لأهلها، ولكي لا يقول قائل إن هذا الحلف كان قبل رسالته ونسخه الإسلام وجدنا رسول الله ﷺ يقول: «**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت**»[(٢)].

ولذلك أحببنا قبل أن نتكلم في هذا الأصل أن نضع النقاط على الحروف كي نفرق بين الداعي إلى الله وبين القاضي الذي يحكم على الناس حكماً من كتاب الله أو من سنة رسوله ﷺ بما اقترفوه ولا شأن له بحال المذنب على أمر من الأمور أمر الله ﷻ بها، ولكي ندعو إلى الله على بصيرة لا يشغلنا ابتداءً الحكم على الناس ولو سبّونا، يقول المولى ﷻ: ﴿**وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾[(٣)]، إننا حريصون كل الحرص على العلاقة الطيبة، التي تفتح القلوب والتي تجعل الأذن مفتوحة لسماع الكلمات الطيبات دون إيذاء، ونتأدب بأدب القرآن الذي يقول: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾[(٤)]، ومن البر الكلمة الطيبة لمن هم على غير ديننا فقد أمرنا المولى ﷻ أن نبرهم ونقسط إليهم: ﴿**إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ**

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام.
(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام.
(٣) من الآية ١٠٨ من سورة الأنعام.
(٤) الآية ٨ من سورة الممتحنة.

قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(١)، هذا في حالة العدوان علينا أما في غير هذه الحالة فإن المسلم يشغله دائماً هداية الخلق لدعوة الحق، فيشغله تبيان هذه الدعوة والصبر عليها، ولا ينشغل أبداً بأي حال من الأحوال بتصنيف الناس: هذا كافر، وهذا مسلم، بل يتفاءل دائماً وعلى أمل أن يشرح الله الصدور للهداية، فلعل العداوة تنقلب إلى محبة، وتأمل قول ربنا: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢)، وهذه الأسباب التي لابد أن يأخذ بها المسلم الداعي إلى الله لا تأتي أبداً بالحكم على الناس فتؤذي ولكن بالكلمة الطيبة، والبر والقسط؛ ولذلك كان لابد من العلم بكيفية الدعوة إلى الله ﷻ وتبسيط الأحكام، حين نقدمها للناس وللمجتمع متدرجة مقبولة، بلسان القوم ومفاهيمهم دون أن يعنف أو يجبر أويكره، وحين يري الناس أخلاق الداعي وأثر الإيمان فيه وحرصه عليهم، وعد إلى سيرة الرسول ﷺ لترى كيف كانت مواقفه وتصرفاته مع العصاة والكفرة، فمن خلال السيرة نتعلم كيف كانت العلاقة بين رسول الله ﷺ وبين هؤلاء القوم الذين حاربوا الدعوة من أول يوم سمعوها فيه.

قضية التكفير:

نسمع من آن لآخر من أعداء الدعوة أن الإخوان يكفرون الناس فإذا لم يصدقهم الناس

قالوا: كل الذين يكفرون خرجوا من عباءتهم. ومع تأكيد الإمام الهضيبي رحمه الله بكتابه [دعاة لا قضاة] زال كل لبس، واستبان للجميع منهج الإخوان الحكيم بالرغم مما لاقوه في السجون، والغريب أن هؤلاء الذين أرادوا تشويهًا للحركة الإسلامية لم يهتموا بقضية التكفير: ما مصدرها؟ وما أسبابها؟ بل يهال عليها التراب ويقال إن هؤلاء يكفرون، وأنا شاهد عيان وكنت من الذين عاصروا هذه القضية في السجون أرى بعيني بل ويفعل فيّ كل أنواع التعذيب بل تعدى التعذيب إلى لعن الله،

(١) الآية ٩ من سورة الممتحنة.
(٢) الآية ٧ من سورة الممتحنة.

فأحد الزبانية يقول لأخ وهو يتألم من التعذيب ويقول: يا رب، فيقول له هـذا المجـرم: «لو نزل ربنا سأحبسه في هذه الزنزانة» تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فقال لـه الأخ: أنت إن شاء الله الـذي سيوضـع في هـذه الزنزانـة، وتحقـق دعـاء الأخ عليـه ودخـل مسجونًا في نفس الزنزانـة بعـد حـرب ١٩٦٧م، وكانـت آيـة، ودعونـا مـن الإيـذاء الجسدي فما بالنا بمنعهم الصلاة وقراءة القرآن، والسخرية والاستهزاء من كل ما هـو إسلامي، فكل ما يتصوره الإنسان من النطـق بكلمـات لا تحتمـل التأويـل إلا الكفـر قالوه، فبالله عليك ماذا ننتظر من شباب فُعل فيه هذا؟ وسمع بأذنيه كلمات يهتز مـن هولها الكون، أيقول لهم أنتم مؤمنون وأنتم مسلمون؟ ووالله إني لأتحـرج مـن أشـياء فعلوها معنـا فيهـا خسـة ودنـاءة وسـوء أخـلاق وانحطـاط إلى أبعـد الحـدود الـتي لا يتصورها عقل مؤمن، كنا إذا أردنا أن نصلي فلا بد أن نصلي خفية، وما كنا نسـتطيع أن نصلي جماعة بل كنا نصلي فرادى ويقف أحـد الإخـوة علـى بـاب الزنزانـة لكـي يراقب الحارس أو الضـابط فـإذا رآه قـادم إلينـا سـرعان مـا يقطـع الأخ صـلاته ولا يستطيع أن يستكملها، ولقد حدث معي شخصيًا وأنا في التحقيق، وأوقفوني في مكان التعذيب، وأردت أن أجمع بين الصلوات فكنت أصـلي إمـاءة حتـى لا يرانـي أحـد، وللأسف فقد رآني أحدهم فوضـع سيجارته المشتعلة في رقـبتي حتـى انتهـت تمامًا واحترقت رقبتي، وأنزل الله سكينته علي فصبرت واحتسبت.

في هذا الجو الكئيب نشأ فكر التكفير حيث يأتي الشـاب ويسـأل أي واحـد مـن المسجونين: أترى الـذين يفعلـون كـذا وكـذا بنـا ويسـخرون مـن كتـاب الله أتـراهم مسلمون؟ فإن قلت له: اصبر واحتسب إن المسلم مبتلى وأسمعته قول الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَـاءُ وَالضَّـرَّاءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّـهِ قَرِيـبٌ﴾[1]، فيطأطأ لك رأسه أو لا يلقي لما تقول بـالا، بـل يعلـن كفـرهم بمشـاعر لا بالأحكـام الفقهية التي تضبط القول والفعل والحركة؛ ولذلك كان كتاب [دعاة لا قضاة] الـذي وضع النقاط على الحروف وبين الحد الفاصل بين الكفر والإيمـان بالقواعـد الفقهيـة،

---

(١) من الآية ٢١٤ من سورة البقرة.

والحمد فقد تبين به الرشد من البغي والتزم جميع الإخوان بما جاء به أما هؤلاء الذين يكفرون فقد غضبوا منه غضبًا شديداً ورموا الإخوان بالممالأة والركون إلى الأرض والخوف والجبن ويا ليت هؤلاء الذين كفروهم حكموا على أعيان أمثال من وضع المصحف تحت قدمه، أو الذي يمنع المسجونين من الصلاة أو الذي يستهزأ بربه، والذي يسب الدين، وليت حكمهم اقتصر على الذين أعلنوا هذا الكفر بفعلهم الذي لا يحتمل تأويلاً إلا الكفر ولكنهم بالتدريج صرفوا الحكم على الحاكم وزبانيته وجنوده وقالوا: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾[1] إلى أن قعدوا قاعدة «من لم يكفر الكافر فهو كافر»، وبدءوا يقولون: أنت كافر إن قلت ليس هؤلاء كفرة؛ لأن القاعد كما قلنا «من لم يكفر الكافر فهو كافر»، لكنهم لم يفكروا فيمن هو الكافر الذي تنطبق عليه هذه القاعدة؟ فعمموا الحكم على كل من خالفهم.

ولذلك زلت في هذه القضية أقدام حين غاب عنها الضوابط الفقهية والأصول الشرعية؛ ولذلك فإن الأصل الذي نحن بصدده يقعد القواعد ويضع الأمور الحاكمة ويبين الحد الفاصل بين الكفر والإيمان وقبل أن نتناوله بالشرح يجب أن نوضح بعض المفاهيم الهامة التي التبست على بعض الناس.

مفاهيم يجب أن توضح:

يظن بعض الناس -خاصة الشباب منهم- أن الحكم على إنسان بالكفر أو الإسلام في حياته إنما ينصرف إلى آخرته، وهذا فهم خاطئ، فالحكم بإسلام المرء أو كفره في الدنيا لا شأن له بما يؤل إليه مصيره في الآخرة إنما هذا الحكم يتصل بدنياه فحسب، لا يتعداه ولا شأن له بآخرته، يوم يضع الله الموازين القسط ليوم القيامة وتوفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون، ويحكم الله بحكمه النهائي على الإنسان، فهذا أمر مرجعه إلى الله ﷻ، لذلك فإننا نحكم على أي إنسان في الدنيا لنجري عليه أحكام الإسلام في مجتمع المسلمين لا شأن لنا بجنة أو نار فإن كان مسلماً له ما لنا وعليه ما علينا من الموالاة والمحبة والنصرة وجميع الحقوق

---

(١) من الآية ٨ من سورة القصص.

والواجبات، كما أنهم يتزوجون من بعضهم البعض، وتقبل شهادته، وإذا مات يرث ويورث ويصلى عليه ويدفن في مدافن المسلمين.. وغير ذلك مما يجري في مجتمع المسلمين، وإن كانت الأخرى فهذه الأمور ليست من حقه ولا تجري عليه، فلا نصلي عليه إن مات، ولا يورث ولا يدفن في مدافن المسلمين وتنزع عنه الولاية والنصرة.. إلى غير ذلك من الأحكام التي حددها الشرع وطبقها رسول الله ﷺ في مجتمع المسلمين في دنياهم.

وتبيان ذلك أننا ربما نحكم على إنسان حكماً في الدنيا يختلف عن حكم الله فيه في الآخرة فإذا وقفنا أمام ما صنعه الرسول ﷺ بالمنافقين في مجتمع المسلمين نجده ﷺ بالرغم من أن الوحي أخبره بهم؟ وحدد له المنافقين اسمًا اسمًا وذكرهم ﷺ لسيدنا حذيفة ﷺ حتى إن سيدنا عمر ﷺ كان يقول لحذيفة: «أذكرني عندك رسول الله يا حذيفة؟»، هؤلاء المنافقون أجرى عليهم رسول الله ﷺ أحكام الإسلام وكانت لهم جميع حقوق المسلمين بالرغم من أنهم كانوا يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، فنحن لا شأن لنا إلا بما يظهر لنا من أعمال ولا دخل لنا بحركة القلب وما يحمل من نفاق، فالمنافق بالرغم من أن الرسول ﷺ يعلم نفاقه الخالص، إلا أنه كان يجري عليه أحكام المسلمين في الدنيا وهو أمام الناس مسلم بالرغم من أنه في الدرك الأسفل من النار في آخرته، يقول لنا الرسول ﷺ: «أَوَّلُ النَّاسِ يُقْضَى لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلاثَةٌ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِه فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِيُقَالَ فُلانٌ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِه فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِه حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِه فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِه فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِه حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّه فَأُتِيَ بِه فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا فَقَالَ مَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ قَالَ أَبُو عَبْد الرَّحْمَنِ وَلَمْ أَفْهَمْ تُحِبُّ كَمَا أَرَدْتُ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنْ لِيُقَالَ إِنَّهُ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِه فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِه فَأُلْقِيَ فِي النَّارِ»[1].

(١) رواه النسائي.

إن حكمنا على إنسان في الدنيا لا علاقة له بالحكم في الآخرة، ولذلك فإن المولى ﷻ يعلمنا أن الحكم على الإنسان بظاهر عمله ولكنه ﷻ ما كان ليترك مجتمع المسلمين على هذا الحال كما قال: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[1]، فيبتلي الإنسان في دنياه لكي يقيم المولى الحجة عليه ويستظهر سلوكه؛ كي يكون هذا السلوك الظاهر هو مناط الحكم عليه في الدنيا، أما في الآخرة فمرده إلى الله.

وها نحن ذا يأمرنا الإسلام بأن نحكم على إنسان بأنه كاذب بل فاسق إن أخبر عن إنسان زنا ورآه رأي العين، إلا أنه حين تكلم بهذه قبل أن يكون معه أربعة شهود فهو يشهد وله معه على واقعة الزنا، فإن تكلم قبل ذلك فهو عندنا من الكاذبين الفاسقين ويجلد ثمانين جلدة حداً وترد شهادته، وإن كان عند الله من الصادقين فيما قال؛ ذلك لأنه تعدى حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه وهو في الآخرة من الخاسرين، فيصبح هذا العقاب لتعديه أمر الله وإن كان صادقًا عند الله فيما أخبر عنه.

إنه درس في التربية عظيم يعطيه المولى لعباده كي يتعاملوا مع الناس بما استعلن من سلوكهم لا بما تكن صدورهم، فهو سبحانه حين يبتلي عبداً من عباده وهو جل شأنه يعلم ما في نفسه وقلبه ولكنه سبحانه يبتليه ليحاسبه على ما وقع من عمله لا على ما يعلم ﷻ من دخيلة نفسه ومن سرائر أمره، وهذا فضل الله من جانب وعدله من جانب آخر وإرشاد لنا نحن المسلمين من جانب ثالث كي لا نأخذ الناس إلا بما استعلن من أمرهم وبما حققه فعلهم يقول المولى: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[2]، ليظهر ما كانوا يخفون ويبطنون ليحاسبهم بما ظهر من السلوك ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾[3].

---

(١) الآية ١٧٩ من سورة آل عمران.
(٢) الآيات ١-٣ من سورة العنكبوت.
(٣) من الآية ٨١ من سورة يوسف.

والدليل على أن شهادتنا على إنسان في الدنيا ليست بالضرورة هو اليقين الذي هو عليه أن الرسول ﷺ يقول: «**إِذَا رَأَيْتُمْ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالإِيمَانِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**»(١)، فهذه شهادة بالإيمان لظاهر السلوك. أما حقيقته ونيته فلا يعلم ذلك إلا الله تعالى، فقد يسر أمراً آخر في نفسه يعلمه من يعلم السر وأخفي بدليل قول أسامة بن زيد ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «**يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ أَيْ فُلانُ مَا شَأْنُكَ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنْ الْمُنْكَرِ قَالَ كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلا آتِيهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ**»(٢)، فأنت ترى الناس قد شهدوا له بأنه عالم، بينما عند الله ظالم لنفسه، الناس ترفع مكانته والله يخفضها بل ويعاقبه في الآخرة.

وعلى هذا فإننا حين نتكلم عن الحد الفاصل بين الكفر والإيمان إنما نقصد حكم الله على الناس في الدنيا فنحكم عليهم بالظاهر من السلوك والأفعال والله يتولى السرائر وما تخفي الصدور.

والحقيقة أننا يجب ألا ننشغل بالحكم على الناس في دنيانا ولكن ننشغل بدعوتهم إلى دين الله ونحن رحماء بهم حريصون عليهم ونقول لهم: «أنتم تلقون بأنفسكم في النار وأنا أخذ بحجزكم»؛ لأننا دعاة ولسنا قضاة.

فما هو الإيمان:

هو أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، كما جاء في حديث جبريل، أي تصديق الله في كل ما أخبر به رسوله ﷺ بهذه الأمور الغيبية على النحو الذي بينه رسول الله ﷺ.

أما الكفر:

فأصله في اللغة التغطية والستر، والكفر في الدين صفة من جحد شيئاً مما افترض الله تعالى الإيمان به بعد قيام الحجة عليه ببلوغ الحق إليه، والجحود يكون إما بالقلب

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) متفق عليه.

دون اللسان أو اللسان دون القلب من غير إكراه أو بهما معاً، وهذا أيضاً صفة من عمل عملاً جاء النص بأنه مخرج لفاعله عن اسم الإيمان، فالجحود هو الإنكار والتكذيب مع العلم بالأمر المنكر المكذوب، فهو يقتضي معرفة الجاحد بما افترض الله ﷻ عليه الإيمان به أو بلوغ الحق إليه وقيام الحجة عليه، مصداقًا لقول ربنا: **﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾**[1]، وقوله ﷻ: **﴿فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾**[2].

حكم الناطق بالشهادتين:

وحكم الناطق بشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ أننا نعتبره مسلماً تجري عليه أحكام الإسلام وليس لنا أن نبحث في مدى صدق شهادته إذ إن ذلك متعلق بما استشعره واستيقنه بقلبه ولا سبيل لنا للكشف عن ذلك والتثبت منه، وإنما ذلك شأن الذي يعلم السر وأخفى، فإن استيقن قلبه ما نطق به كان عند الله مسلماً ونفعه ما نطق به إلا أن ينقضها، ونقضها بأمور حددها الشارع الحكيم وذكرها الإمام البنا في هذا الأصل فقال: «**إلا إن أقر بكلمة الكفر، أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، أو كذب صريح القرآن، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً غير الكفر**».

وليس هذا الكلام المحدد من عند الإمام البنا بل إنها هي قواعد أصولية فقهية أجمع عليها الفقهاء وصاغها الإمام هذه الصياغة الدقيقة؛ ولذلك فإن مجرد أن ينطق الإنسان بالشهادتين قائلاً: (**لا إله إلا الله محمداً رسول الله**) ﷺ صار عندنا مسلماً، وبرهان ذلك:

أولاً- الحديث الذي رواه لنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلا بِحَقِّ الإِسْلامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ**»[3].

ثانياً- عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَدْرُسُ الإِسْلامُ كَمَا يَدْرُسُ**

---

(١) من الآية ١٤ من سورة النمل.
(٢) من الآية ٣٣ من سورة الأنعام.
(٣) رواه البخاري.

وَشْيُ الثَّوْبِ حَتَّى لا يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلا صَلاةٌ وَلا نُسُكٌ وَلا صَدَقَةٌ وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ فَلا يَبْقَى فِي الأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنْ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ يَقُولُونَ أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ فَنَحْنُ نَقُولُهَا»، فقال له صلة -أي لحذيفة-: ما تغني عنهم لا إله إلا الله وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة، فأعرض عنه حذيفة ثم ردّها عليه ثلاثًا كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة فقال: «يا صلة تنجيهم من النار ثلاثًا»[1].

ثالثًا- عن أبي معبد المقداد بن الأسود قال: قلت يا رسول الله أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فاقتتلنا فعزل إحدى يدي بالسيف فقطعها ثم لاذ بشجرة وقال إني أسلمت لله، أأقتله بعد أن قالها؟ قال النبي ﷺ: «**لا تَقْتُلْهُ فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ**»[2].

رابعاً- حديث معاذ حين قال له الرسول ﷺ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ**»، قَالَ: يا رسولَ اللَّه أفلا أُخْبِرُ به النَّاس فَيَسْتَبْشِرُوا قال: «**إِذًا يَتَّكِلُوا**» وأَخْبَرَ بها معاذ عند موْتِهِ تَأَثُّمًا[3].

خامساً- يقول حذيفة قال النبي ﷺ: «**اكْتُبُوا لِي مَنْ تَلَفَّظَ بِالإِسْلامِ مِنْ النَّاسِ**»، فكَتَبْنَا له أَلْفًا وخَمْسَ مائةِ رَجُلٍ، فقلْنا نَخافُ ونحن أَلْفٌ وخَمْسُ مائةٍ، فلقدْ رأَيْتَنا ابْتُلِينا حتى إنَّ الرَّجُلَ لَيُصلِّي وحدَهُ وهو خائفٌ[4]. وهكذا يبين أن إحصاء المسلمين في مجتمعهم يتوقف على كل من تلفظ بالإسلام فحسب.

سادساً- عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة فصبحنا القوم على مياههم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم فلما أغشيناه قال: لا اله إلا الله فكف الأنصاري عنه، وطعنته برمحي حتي قتلته، فلما قدمنا المدينة بلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «يَا أُسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ **بَعْدَ مَا قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ**»، قَالَ: قُلْتُ يا رسولَ اللَّهِ إِنَّمَا كان مُتعَوِّذًا، قال: «**أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ**»، قال فما زالَ يُكَرِّرُهَا على

---

(١) رواه ابن ماجة.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه البخاري.

حتى تَمَنَّيْتُ أنّي لم أَكنْ أَسلمتُ قبل ذلك اليومِ[١]. بمعني أنه تمنى لو كان إسلامه قد تأخر بحيث لم يشهد هذه المعركة ولم يقتل هذا الرجل. وفي رواية أخرى قال النبي ﷺ: «**أَفَلا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لا**».

سابعاً- الحديث الذي رواه ابن عباس في تحديد معنى الإيمان فيما قاله الرسول ﷺ لوفد عبد القيس، قال النبي ﷺ: «**أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ؟**»، قالوا اللَّهُ ورسولُهُ أعْلَمُ، قال: «**شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامُ الصَّلاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصِيَامُ رَمَضَانَ وَأَنْ تُعْطُوا مِنْ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ**»[٢].

فالنبي ﷺ حكم بالإسلام لمن أعلن النطق بالشهادتين، يقول الشهيد سيد قطب - الذي يُتهم دائماً بتكفير الناس- كلاماً يدحض هذه الفرية في قول الله تعالى: ﴿**وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا**﴾[٣]، يقول: يأمر الله المسلمين إذا خرجوا غزاة ألا يبدءوا بقتال أحد أو قتله حتى يتبينوا وأن يكتفوا بظاهر الإسلام في كلمة اللسان إذ لا دليل يناقض كلمة الإسلام»[٤]، وأيضاً قد ثبت عن النبي ﷺ الحكم لكل من نطق بالشهادة ثم توفاه الله، فقد روى أحمد عن أبي صخر العقيلي أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أَتى علَى رَجُلٍ مِنْ اليهودِ ناشرًا التَّوراةَ يقرؤُها يُعزِّي بِها نفْسَهُ على ابْنٍ لهُ فِي الموتِ كأحسنِ الفتيانِ وأَجملِهِ فقال الرسول ﷺ: «**أَنْشُدُكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ هَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِكَ ذَا صِفَتِي وَمَخْرَجِي**» فقال برأسه هكذا أي لا، فقال ابنه إني والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك وأشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال: «**أَقِيمُوا الْيَهُودَ عَنْ أَخِيكُمْ**»، ثم وَلي كَفَنَهُ وحَنَّطَهُ وصلَّى عليه ثم تولي دفنه»[٥]، فهذا دليل أيضًا على أن الرسول ﷺ ما كان يأخذ الناس أبداً بسرائرهم إنما كان يكفيه منهم النطق بالشهادتين، وروى البخاري عن عمر ﷺ قال: إن أناساً كانوا يؤاخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ وإن الوحي قد انقطع، وإنما نؤاخذكم بما ظهر من

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) من الآية ٩٤ من سورة النساء.

(٤) في ظلال القرآن، المجلد الخامس، سورة النساء.

(٥) رواه أحمد.

أعمالكم »، فليس لنا أن نحكم بعد انقطاع الوحي إلا بما ظهر من أعمال تدل على إسلامه ولا دخل لنا بحركة القلوب.

الرسـول ﷺ والشفاعة:

ودليل آخر نسوقه على أن الناطق بالشهادتين من أهل القبلة وليس مخلداً في النار، ولو ارتكب الكبائر على خلاف ما قال الخوارج كما سنبين بمشيئة الله تعالى، هو دليل شفاعة المصطفي ﷺ لأهل التوحيد من أصحاب المعاصي.

ففي الحديث الصحيح: «**... وَشَفَاعَتِي لِمَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ مُخْلِصًا يُصَدِّقُ قَلْبُهُ لِسَانَهُ وَلِسَانُهُ قَلْبَهُ**»[1]، وشاهده في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا**»[2].

فهي شفاعة لجميع أهل التوحيد من أهل الطاعات أو أهل المعاصي والكبائر، ففي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**شَفَاعَتِي لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**»[3].

واسمع إلى ما رواه الإمام البخاري في كتاب التوحيد: (باب كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم) إلى أن قال: حدثنا معبد بن هلال العنزي قال: اجتمعنا ناس من أهل البصرة فذهبنا إلى أنس بن مالك وذهب معنا ثابت البناني فسأله عن حديث الشفاعة، فإذا هو في قصره فوافقناه يصلي الضحى فاستأذنا فأذن لنا وهو قاعد على فراشه فقلنا لثابت: لا تسأله عن أي شيء أولى من حديث الشفاعة. فقال: يا أبا حمزة هؤلاء إخوانك من أهل البصرة، جاءوك يسألونك عن حديث الشفاعة. فقال: حدثنا محمد ﷺ قال: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ فَيَأْتُونَ مُوسَى**

---

(١) رواه أحمد.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه الترمذي.

فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَيَأْتُونِي فَأَقُولُ أَنَا لَهَا فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لا تَحْضُرُنِي الآنَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقُولُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقُولُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ»، فلما خرجنا من عند أنس قلت لبعض أصحابنا: لو مررنا بالحسن وهو متوار في منزل أبي خليفة، فحدثناه بما حدثنا أنس بن مالك، فأتيناه فسلمنا عليه فأذن لنا، فقلنا له: يا أبا سعيد، جئناك من عند أخيك أنس بن مالك، فلم نر مثل ما حدثنا في الشفاعة، فقال: هِيهِ، فحدثناه بالحديث، فانتهى إلى هذا الموضع، فقال: هِيهِ، فقلنا: لم يزد لنا على هذا، فقال: لقد حدثني وهو جميع منذ عشرين سنة، فلا أدري أنسي أم كره أن تتكلوا، قلنا: يا أبا سعيد فحدثنا، فضحك وقال: خلق الإنسان عجولاً، ما ذكرته إلا وأنا أريد أن أحدثكم، حدثني كما حدثكم به، وقال: **«ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ فَيَقُولُ وَعِزَّتِي وَجَلالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لأخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ»**[1].

ولذلك فإن ابن القيم حين ذكر أنواعاً ستة للشفاعة قال في النوع الرابع: «شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم والأحاديث فيها متواترة عن النبي ﷺ وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة وبدعوا من أنكرها وصاحوا به من كل جانب ونادوا عليه بالضلالة».

ومعروف أن أهل الشرك والكفر مخلدون في النار، أما العصاة من أهل التوحيد

---

(١) رواه البخاري.

فسيخرجون منها بعد عقابهم على المعاصي بمشيئة، ربهم وهذا هو الحد الفاصل بين الكفر والإيمان ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىَ إِثْماً عَظِيماً﴾[١]، وفي شرح المنازل للعلامة ابن القيم قال: اتفق أهل السنة والجماعة على أن الشخص الواحد قد يكون فيه إيمان وشرك -شرك أصغر- وهو الذي قال عنه الرسول ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ»، فقال من شاء الله أن يقول وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال «قُولُوا اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا نَعْلَمُ»[٢]، ويكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الآخر كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[٣]، فأثبت ﷻ لهم الإيمان مع مقارفة الشرك، فإن كان مع هذا الشرك تكذيب برسله واليوم الآخر -أي أصول الإيمان- لم ينفعهم إيمانهم؛ حيث إنه انتقل إلى الشرك الأكبر وإن كان معه تصديق بذلك وهم يرتكبون أنواعًا من الشرك لا تخرجهم من الإيمان بالرسل واليوم الآخر، فهم مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أهل الكبائر.

ولهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار ثم خروجهم ودخولهم الجنة لما قام بهم من السببين، قال ابن عباس وعطاء وطاووس أنه صح عن النبي ﷺ أنه قال: «يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ»[٤]

العذر بالجهل:

ينكر بعض الناس العذر بالجهل ويقولون: لا عذر بجهل؛ لأن ربنا ﷻ يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾[٥]، ويقولون أن كل فرد أيام رسول الله ﷺ على وجه التحديد أدرك بغير لبس ولا إيهام ما دعي إليه، وهذا كلام يلقى على عواهنه ولا يقوم به دليل، فمن ذا الذي أحصاهم عددا

---

(١) الآية ٤٨ من سورة النساء.
(٢) رواه أحمد.
(٣) الآية ١٠٦ من سورة يوسف.
(٤) رواه الترمذي.
(٥) الآية ٤ من سورة المائدة.

وتأكد من كل فرد بعينه على ذلك، لقد قابل الرسول ﷺ إسلام الناس الذين دخلوا في دين الله أفواجاً من العرب والمستعربين والأرقاء والعبيد المستجلبين وأهل الحيرة وغيرهم ممن فتحت بلادهم على عهد الرسول ﷺ دون إجراء يفيد ضرورة التأكد من أن كل فرد منهم قد فهم معنى محدداً معينا أو أن معاني محددة معينة شائعة معروفة بينهم فدل عمله ﷺ على افتراض ما يكفي من العلم في حق من نطق بالشهادتين للحكم بإسلامه وأن جهله بمعاني الألوهية والربوبية ومفهوم الشهادتين وغير ذلك من الأحكام لا يضر إسلامه شيئًا وليس بمانع من الحكم بإسلامه.

وما كان الرسول ﷺ غافلاً عن أنه مبعوث إلى الناس كافة عربيهم وأعجميهم وهو القائل في الحديث: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلا بِحَقِّ الإِسْلامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ**»[١].

نعم يقاتل الناس -كل الناس- بلا تمييز بين الناس ودون تمييز بين العرب وغيرهم، وهذا هو حكم الله نطق به الأمين ﷺ وفي هذا الأمر تفصيل وضوابط.

ولو كان النطق بالشهادتين يختلف بشأنه وحكمه بين الناطقين بالضاد بين غيرهم أو يلزم إجراء آخر في حق الناطقين به من العرب، أو غيرهم ما سكت رسول الله ﷺ عن بيانه ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِياً**﴾[٢].

ولقد فتح المسلمون على عهد الصحابة والتابعين بلاد الشام وفارس ومصر وبلاد البربر وشمال أفريقيا والأندلس وتركيا وأجزاء من البلقان وغيرهم، وكلها بلاد لم تعرف العربية وكان إجماع الصحابة وكافة المسلمين على قبول أهلها في الإسلام بشهادة لا إله إلا الله محمداً رسول الله ﷺ وعصمت دماؤهم وأموالهم وأجريت عليهم شرائع الإسلام ثم تعلموا شيئاً فشيئا ما كانوا يجهلونه من فرائض الإسلام وشرائعه.

«ولك أن تسأل:لم كان رسول الله ﷺ يلح على عمه أبى طالب وهو يحتضر على فراش الموت أن يقول لا إله إلا الله محمداً رسول الله ﷺ إن كانت بذاتها لا تخرج

---

(١) رواه البخاري.
(٢) من الآية ٦٤ من سورة مريم.

قائلها من الكفر إلى الإيمان وتدخل به في الإسلام»[١].

وهناك أيضًا عذر بالجهل في أمور العبادة بل في أمور العقيدة، فهذا أحدهم يطوف بأحد الأضرحة ويشكو مخاطباً الرفاة في الضريح قائلاً: «أنا قلت لك كل حاجة وسأترك الموضوع لك افعل فيه ما تشاء»، فهو يستغيث به جاهلاً أن الذي في داخل الضريح لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، كما قال الصحابي لرسول الله ﷺ: «اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»، فعذره الرسول ﷺ بجهله ولم يحكم عليه بأي حكم.

والعذر بالجهل في العبادات كاعذر بالجهل في العقائد، فلقد كان معنا أخ يحج معنا، وبعد الطواف والسعي جلسنا ننتظره أن يأتي وبعد نصف ساعة أو أكثر وجدناه قادمًا إلينا فسألناه: أين كنت؟ فأخبرنا أنه انتهى الآن فحسب من السعي!! قلنا لماذا؟ فوجدناه يحسب الشوط الواحد من الصفا للمروة ومن المروة للصفا شوطاً واحداً أي أنه سعى أربعة عشر شوطاً، بل إن ما يحدث عند رمي الجمرات من الضرب بالأحذية والنعال وسب إبليس لأكبر دليل على العذر بالجهل.

فالعذر بالجهل أمر يقره الدين، والصحابة رضوان الله عليهم أنفسهم فاتهم أشياء، فهذا صحابي يتمعك في التراب كي يتيمم والرسول ﷺ يصحح له ما فعل، وما قصة الصحابي الذي شج رأسه ومعه الماء باردًا فسأل صاحبه عن الرخصة فأخبروه بأنه لا رخصة له في وجود الماء فأزال جنابته بالماء البارد فمات لتوه، فذهبوا للرسول ﷺ وقصوا عليه القصة فقال: «**قَتَلُوهُ قَتَلَهُمْ اللَّهُ أَلا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ**»[٢]، ألا تبين هذه الأحداث أن هناك من يعلم ومن لا يعلم وإلا لماذا يقول ربنا: ﴿**فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ**﴾[٣]، ويقول: ﴿**وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾[٤]، ويقول: ﴿**فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ**﴾[٥]، ألا تدل هذه الآيات على أن

(١) دعاة لا قضاة للأستاذ حسن الهضيبي رحمه الله.
(٢) رواه أبو داود.
(٣) من الآية ٤٣ من سورة النحل.
(٤) من الآية ٨٣ من سورة النساء.
(٥) من الآية ١٢٢ من سورة التوبة.

هناك أناس يُعذرون بجهلهم، وما أكثر الأمثلة على ذلك سواء أيام الرسول ﷺ أو في أيامنا هذه.

إن الذين يسلمون من الأوربيين والأمريكيين وغيرهم يكفينا منهم النطق بالشهادتين لدخولهم الإسلام وهم معذورون بجهلهم حتى يتعلموا أحكام الإسلام شيئًا فشيئًا.

واسمع إلى ما بينته أحاديث رسول الله ﷺ حسماً لهذه القضية:

أولاً- جاء خالد بن الوليد بنى خزيمة، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلوا يقولون صبأنا، فجعل خالد يقتل ويأسر وأمر من معه أن يقتل كل منهم أسيره، فامتنع عبد الله بن عمر حتى قدموا على النبي ﷺ فقال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ**» (مرتين) [(١)]، حتى إن العلماء يقولون لو أن النبي ﷺ قال اللهم إني أبرأ إليك من خالد لهلك خالد، ولكنه قال: مما صنع خالد أي من فعله. ألا يدل ذلك دلالة قاطعة على العذر بالجهل؟!

قال الشوكاني في نيل الأوطار: وهو دليل على أن الكناية مع النية بصريح لفظ الإسلام لا يتوقف على الإحاطة بمعاني الإيمان والكفر، ولم يقل أحد من الصحابة بالتوقف في الإيمان لهؤلاء حتى يحيطوا بذلك علمًا.

ثانياً- عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل خيبر ونحن حديثو عهد بكفر وللمشركين سدرة يلتفون حولها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط، فقالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال: «**اللَّهُ أَكْبَرُ هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةً إِنَّكُمْ تَرْكَبُونَ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**» [(٢)]، هؤلاء الصحابة يا من تقولون ليس هناك عذر بجهل، وهذا رسول الله ﷺ يبين لهم الخطأ الذي وقعوا فيه ولم يحكم بكفر، بل لن يعاتبهم.

ثالثاً- «روى ابن حزم أن عبد الرحمن بن حاطب كانت له نوبية صامت وصلت وهي أعجمية لا تفقه وكانت ثيباً فحملت فأرسلها إلى عمر بن الخطاب فسألها:

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه أحمد.

أحبلت؟ قالت: من مرعوش بدرهمين، فاستشار عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف فقال عليّ وعبد الرحمن: وقع عليها الحد، قال عثمان: أراها تستهل به كأنها لا تعلمه وليس الحد إلا على من علمه، قال: صدقت يا عثمان ثم أمر بجلدها مائة وتغريبها عاماً تأديباً لها لتهاونها في السؤال عن الحرام والحلال في أمر دينها»(١).

رابعاً: نقل القرطبي أن الإمام مسلم قد روى عن ابن عباس أن رجلاً أهدى لرسول الله ﷺ راوية خمر (قربة)، فقال النبي ﷺ: «**هَلْ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا بَعْدَكَ**»، فأقبل صاحب الراوية على إنسان معه فأمره، فقال النبي ﷺ: «**بِمَاذَا أَمَرْتَهُ**»، قال: ببيعها، قال: «**هَلْ عَلِمْتَ أَنَّ الَّذِي حَرَّمَ شُرْبَهَا حَرَّمَ بَيْعَهَا وَأَكْلَ ثَمَنِهَا**»، قال: فأمرَ بالمزادة «**فأُهْرِيقَتْ**»(٢). فعذر الاثنين بجهلهما واحد جهل تحريم شرب الخمر والآخر جهل تحريم بيعها.

وهكذا ترى أن الجهل عذر خلافاً لما يدعيه أصحاب أفكار بعينها، فلا يعتبرون هذا العذر بالجهل نوعًا من الخطأ والمولى يقول: ﴿**وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ**﴾(٣)، والرسول ﷺ يقول: «**إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ**»(٤).

ويبين لنا رسول الله ﷺ هذه القاعدة فيقول: «**إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**»(٥).

«أما إذا تعلق الأمر بحق الناس، فالقاعدة ألا يعذر أحد بجهالته حفاظاً على حقوق الناس»(٦)، يقول رسول الله ﷺ: «**لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لادَّعَى نَاسٌ دِمَاءَ رِجَالٍ وَأَمْوَالَهُمْ وَلَكِنَّ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ**»(٧).

---

(١) الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم، ص٤.
(٢) رواه أحمد.
(٣) من الآية ٥ من سورة الأحزاب.
(٤) رواه ابن ماجة.
(٥) رواه البخاري.
(٦) الحكم وتكفير المسلم للأستاذ سالم البهنساوي ص٥٩.
(٧) رواه مسلم في باب القضاء.

الواجب في أمر العقيدة:

«يتضح مما تقدم أن أصل واجب الإسلام وما يتعلق بالعقائد يكفي فيه التصديق بكل ما جاء به رسول الله ﷺ اعتقادًا جازماً سليمًا من كل شك، ولا يتعين على من حصل له هذا تعلم أدلة المتكلمين، هذا هو الصحيح الذي اتفق عليه السلف والفقهاء والمحققون والمتكلمون وغيرهم، ولم يطلب النبي ﷺ من أحد شيء سوى هذا»[(١)].

فالواجب في أمر العقيدة وفرض العين فيها أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وما يجب في حق الله ورسله، حتى إن بعض الفقهاء قال: يكفي التصديق بالنبي ﷺ فيحكم له بالإسلام؛ لأنه إذا صدق بالنبي ﷺ يكون بالتبعية كأنه نطق بالشهادتين في نفس الوقت، وهذا ما يجب على كل مسلم أن يقر به وهي الأصول الكلية كقاعدة للاعتقاد، وهناك أمور بالنسبة لشهادة التوحيد لا بد للمسلم أن يأتي بها ولا تنافيها كالعلم الذي ينافي الجهل، والإخلاص الذي ينافي الشرك، والانقياد المنافي للترك، والمحبة المنافية لردها، والصدق المنافي للنفاق، والكذب حتى يصبح اعتقاده سليمًا صحيحًا متقبلاً إن شاء الله.

الإيمان والعمل:

«يقول الإمام الغزالي: اكتفى رسول الله ﷺ من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل»[(٢)]، فالتصديق هو الذي ينقل الإنسان من الكفر إلى الإيمان وهذا الذي كان عليه العمل في عهد رسول الله ﷺ وصحبه الأخيار؛ ذلك لأنه لم يثبت أن الرسول ﷺ حكم على أحد بالكفر لعدم العمل بأحكام الشرع، فقد قال عبادة بن الصامت: أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء: أن لا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا يَعْضَهَ بعضا بعضا، «**فَمَنْ وَفَى منكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَمَنْ أَتَى منكُمْ حَدًّا فَأُقِيمَ عَلَيْهِ فَهُوَ كَفَّارَتُهُ وَمَنْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ**»[(٣)]، واستمر الحال على ذلك حتى عهد عليّ رضي الله عنه، وأثير الجدل حول مرتكب الكبيرة وأثار ذلك الخوارج بعد التحكيم،

---

(١) المجموع للإمام النووي ج١ ص٤٩ تكملة الأستاذ نجيب المطيعي رحمه الله.

(٢) الإحياء، ج١، ص٢٥.

(٣) رواه مسلم.

إذ حكموا بكفر من رضي التحكيم باعتباره كبيرة في نظرهم، وكفروا عليًا ﷺ كما كفروا من معه وقد جر هذا إلى الجدل في شأن مرتكب الكبيرة: أهو مؤمن أم غير مؤمن، وهل هو مخلد في النار يوم القيامة أم يرجى له الغفران، وأن رحمة الله وسعت كل شيء، ومن هنا ظهرت الفرق الإسلامية التي منها:

الخوارج:

قالوا إن الإيمان ليس اعتقادًا وإنما هو اعتقاد وعمل، وهذا مخالف لأهل السنة والجماعة إذ يعتبرون الإيمان اعتقاداً فحسب، ومرتكب الكبيرة عندهم كافر، بل منهم من يرون تكفير أهل الذنوب ولم يفرقوا بين ذنب وذنب بل اعتبروا الخطأ في الرأي ذنب.

وأهم ما يميز هذه الفرقة الحماسة والتمسك بظواهر الألفاظ فضلاً عن حب الفداء والرغبة في الموت والاستهداف للمخاطر من غير داع قوي يدفع إلى ذلك، وربما كان منشؤه هوسًا عند بعضهم واضطرابًا في أعصابهم لا مجرد شجاعة فهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية.

ولقد كان منهم من يقاطع سيدنا على ﷺ في خطبته، بل من يقاطعه في صلاته، ومن يتحدى المسلمين بسبب على وعثمان ورمي أتباعهما الشرك.

يقول الكامل في المبرد: «من طريف أخبارهم أنهم أصابوا مسلمًا ونصرانيًا فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني خيرًا، وقالوا احفظوا ذمة نبيكم، لقيهم عبد الله بن خباب بن الأرت وفي عنقه مصحف ومعه امرأته وهي حامل فقالوا: إن الذي في عنقك يأمرنا أن نقتلك، قالوا فما تقول في أبى بكر وعمر فأثنى خيراً، قالوا: فما تقول في على قبل التحكيم وفي عثمان في ست سنين (أي السنين الأولى من الخلافة)، فأثنى خيراً، قالوا: فما تقول في التحكيم؟ قال: أقول: أن علياً أعلم بكتاب الله منكم، وأشد توقياً على دينه وأنفذ بصيرة، قالوا: إنك لست تتبع الهدى إنما تتبع الرجال على أسمائهم. ثم قربوه على شاطئ النهر فذبحوه وساموا رجلاً نصرانياً نخلة له فقال هي لكم، فقالوا: والله ما كنا نأخذها إلا بثمن، فقال: ما أعجب هذا أتقتلون مثل عبد الله بن خباب ولا تقبلون منا نخلة»[1].

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة ص٦٨.

ومن غريب أقوالهم لكي يدللوا على آرائهم بتكفير مرتكب الذنوب يقولون: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[١]، يقولون: جعل الله تارك الحج كافر وترك الحج ذنب، فكل مرتكب للذنب كافر، وهذه مقاييس فاسدة.

وفي قول الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[٢] يقولون: كل مرتكب للذنوب فقد حكم لنفسه بغير ما أنزل الله فيكون كافراً.

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[٣] قالوا: إن الفاسق لا يجوز أن يكون ممن ابيضت وجوههم فوجب أن يكون ممن اسودت وجوههم ووجب أن يسمى كافراً.

وكذلك في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۞ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۞ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۞ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۞ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾[٤] قالوا: الفاسق على وجهه غبرة فوجب أن يكون من الكفرة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[٥] «يقولون: وبهذا ثبت أن الظلم جحود وكفر ولا شك أن مرتكب الذنب ظالم»[٦].

والحق أن الإخلاص كان سمة الكثيرين منهم لكنه إخلاص يشوبه الانحياز لناحية استولت على مداركهم بالهوى حتى إنك ترى فيهم صفات متناقضة: تقوى وإخلاص، وانحراف وتشدد، وخشونة وجفوة، وشجاعة متهورة في الدعوة إلى ما يعتقدون، وحمل الناس على آرائهم المنحرفة بالعنف والقسوة من غير رفق، وبصورة لا تتفق مع سماحة الدين ولا مع ما يبعثه الإخلاص والتقوى من الرحمة في القلوب، «والسبب أن الإيمان أصاب شغاف قلوبهم مع سذاجة في التفكير وضيق التصور

---

(١) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران.
(٢) من الآية ٤٤ من سورة المائدة.
(٣) الآية ١٠٦ من سورة آل عمران.
(٤) الآيات ٣٨-٤٢ من سورة عبس.
(٥) من الآية ٣٣ من سورة الأنعام.
(٦) نهج البلاغة ج٢ ص٣٠٧ عن المذاهب الإسلامية لأبي زهرة ج١ ص٧٢.

وبُعد عن العلوم الإسلامية فتكون من ذلك نفوس مؤمنة متعصبة ضيقة العقول»[١].

مناقشة سيدنا علي ﷺ لهم: كان سيدنا عليّ بن أبي طالب حين يناقش الخوارج يناقش ويحتج بعمل رسول الله ﷺ وعدل عن مناقشتهم بالنصوص؛ لأنهم يأخذون بظواهر النصوص كما رأيت ولكن الاحتجاج بالعمل الذي عليه الرسول ﷺ لا يقبل تأويلاً ولا يفهم إلا على وجهه الصحيح فلا يكون فيه مجال لنظراتهم السطحية.

اسمع إليه ﷺ يخاطبهم بقوله: «فإن أبيتم إلا أن تزعموا أني أخطأت وضللت، فلم تضلون عامة أمة محمد ﷺ وتأخذونهم بخطئي، وتكفرونهم بذنبي، سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسقم وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب، وقد علمتم أن رسول الله ﷺ رجم الزاني المحصن ثم صلى عليه ثم ورثه أهله، وقتل القاتل وورث ميراثه أهله، وقطع يد السارق وجلد الزاني غير المحصن ثم قسَّم عليهما الفيء ونكحا المسلمات، فآخذهم رسول الله ﷺ بذنوبهم وأقام حق الله فيهم، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام ولم يخرج أسماءهم من بين أهله»[٢].

والخوارج أهل جدل يتمسكون بآرائهم أشد الاستمساك وكان التعصب يسود جدلهم، فهم لا يسلمون لخصومهم بحجة ولا يقتنعون بفكرة مهما تكن قريبة من الحق أو واضحة الصواب؛ ولذلك انقسموا إلى فرق منها الأزارقة والنجدات والصفرية والعجاردة والأباضية، وهناك بعض الفرق التي أتت بمبادئ تعد خروجًا على الإسلام كاليزيدية ادعوا أن الله سيبعث نبياً من العجم ينزل عليه كتابًا ينسخ الشريعة المحمدية، والميمونية الذين أباحوا نكاح بنات الأولاد وبنات أولاد الإخوة، وكل ذلك من الانحراف في التفكير والاضطراب في التصور.

ومع هذا فإن سيدنا على بن أبي طالب ﷺ لم يحكم على الفئة الأولى منهم بكفرهم، فنظر إليهم على أنهم ضلوا من حيث أرادوا الخير وأجهدوا أنفسهم وأجهدوا الناس معهم؛ ولذا روى عنه ﷺ أنه أوصى أصحابه بألا يقاتلوهم من بعده؛

---

(١) المرجع السابق، ج١ص٦٨.
(٢) المذاهب الإسلامية لأبي زهرة، ج١ ،ص٧٣.

لأنه من طلب الحق فأخطأه ليس كمن طلب الباطل فناله، فعليّ ﷺ كان يعتبرهم طالبين للحق ولكن جانبو طريقه ويعتبر الأمويين طالبين للباطل ونالوه»[1]، هؤلاء هم خوارج الأمس.

بدعة التكفير بين الأمس واليوم:

تعتبر بدعة الخوارج من البدع البارزة المشهورة والتي لا زالت آثارها تتردد بين أنحاء العالم الإسلامي إلى الآن، وقد أخبر الرسول ﷺ عن شرها وحذر من الأخذ بها وطالب بالقضاء عليها ومحاربتها.

روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن زيد بن خالد الجهني أنه كان في الجيش الذين كانوا مع علي ﷺ والذين ساروا إلى الخوارج فقال عليّ: أيها الناس إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ وَلا صَلاتُكُمْ إِلَى صَلاتِهِمْ بِشَيْءٍ وَلا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ لا تُجَاوِزُ صَلاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الإِسْلامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ لَوْ يَعْلَمُ الْجَيْشُ الَّذِينَ يُصِيبُونَهُمْ مَا قُضِيَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ ﷺ لاتَّكَلُوا عَنْ الْعَمَلِ وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ فِيهِمْ رَجُلا لَهُ عَضُدٌ وَلَيْسَ لَهُ ذِرَاعٌ عَلَى رَأْسِ عَضُدِهِ مِثْلُ حَلَمَةِ الثَّدْيِ عَلَيْهِ شَعَرَاتٌ بِيضٌ**». «فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتتركون هؤلاء يخلفونكم في ذراريكم وأموالكم!! والله إني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم. فإنهم قد سفكوا الدم الحرام. وأغاروا في سرح[2] الناس. فسيروا على اسم الله»[3].

قال سلمة بن كهيل: «فنزلني زيد بن وهيب منزلاً حتى قال: مررنا على قنطرة فلما التقينا وعلى الخوارج يومئذ عبد الله بن وهب الراسبي، فقال لهم: ألقوا الرماح وسلوا سيوفكم من جفونها فإني أخاف أن يناشدوكم كما ناشدوكم يوم حروراء فرجعوا فوحشوا[4] برماحهم وسلوا السيوف وشجرهم[5] الناس برماحهم قال: وقتل

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٨٦.
(٢) الأنعام التي ترعى ومن رعاها.
(٣) رواه مسلم.
(٤) أي رموا بها عن بعد.
(٥) طعنوهم.

بعضهم على بعض، وما أصيب من الناس يومئذ إلا رجلان، فقال عليّ ﷺ: التمسوا المخدج[1]، فالتمسوا فلم يجدوه، فقام عليّ بنفسه حتى أتى أناساً قد قتل بعضهم على بعض. قال: أخروهم فوجدوه مما يلي الأرض، فكبر ثم قال: صدق الله وبلغ رسوله، قال فقام إليه عبيدة السلماني فقال: يا أمير المؤمنين، آلله الذي لا إله إلا هو لسمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ؟ فقال: إي والله الذي لا إله إلا هو، حتى استحلفه ثلاثاً وهو يحلف له»[2].

لقد نبتت بدعتهم وترعرعت في خفاء وتستر طوال عهد النبوة الكريمة وعهد الخليفتين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم في عهد عثمان ﷺ إلى أن انتشرت الفتنة فكانوا ممن اشترك في قتله ظلماً وعدواناً ثم بادروا إلى مبايعة على ﷺ بالخلافة فيمن بايع واشتركوا معه في حرب صفين، وما كاد على ﷺ يشرف على الانتصار حتى أشار عمرو بن العاص على معاوية رضي الله عنهما برفع المصاحف على الرماح والمبادرة بطلب الاحتكام إلى كتاب الله تعالى والدعوة إلى حقن دماء المسلمين فوافقه معاوية على ذلك ثم نقدوا -أي الخوارج- علياً ومن معه في موقفهم وناقشهم ابن عباس حتى قال علي ﷺ كلمته المشهورة فيهم في قولهم «لا حكم إلا لله» قال:[كلمة حق أريد بها باطل].

وقال لهم: إن لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا:

١-لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه.

٢-ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا.

٣-ولا نقاتلكم حتى تبدءونا.

ولكنهم عاندوا واتبعوا أهواءهم واستمروا في ضلالهم حتى قاتلهم وأقام عليهم الدليل على أنهم المقصودون بالأحاديث النبوية وأنهم خرجوا ببدعتهم عن الدين خروجاً كلياً أو جزئياً[3].

---

(١) أي الذي تقدم وصفه بأن له عضد وليس له ذراع.

(٢) رواه مسلم، انظر شرح النووي ج٧ص١٧١ وأبو داود ج٤رقم ٢٤٤ وفي البخاري بعضه ج٤ص١٦٠.

(٣) البدعة د/ عزت عطية ص٣٨٤ بتصرف.

قول ابن عمر فيهم: ومن أصدق ما يصور حال الخوارج ما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يراهم شرار خلق الله، يقول فيهم: إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين وقال: «يكفرون المسلمين ويستحلون دماءهم وأموالهم وينكحون النساء في عدتهن وتأتيهم المرأة فينكحها الرجل منهم ولها زوج فلا أعلم أحداً أحق بالقتال منهم»[1].

فبدعة كبدعة الخوارج التي كانت سبباً في فرقة المسلمين وتشعبهم إلى فرق تتناحر وتتضارب بالرأي لابد وأن يحاول إحياءها أعداء الإسلام من آن لآخر، إن هم عجزوا عن ضرب الإسلام نفسه؛ لأنه عقبة كئود في طريق كفرهم، فكان لابد من محاولة تفتيت هذه الصخرة وإحياء هذا الفكر حتى يتفرق المسلمون ولا تقوم للإسلام قائمة ولكن هيهات:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فأوعى وأوهى بقرنه الوعل

ويكفي أن تعلم أن من ضرر تكفير الناس بالذنوب:

أولاً: ضرب كتاب الله بعضه ببعض.

ثانياً: إهمال السنة الموضحة والمبينة لنصوص القرآن.

ثالثاً: تحكيم الهوى والظن السيئ.

رابعاً: ترك الكفار وتأمينهم.

خامسًا: محاربة المسلمين وإرهابهم.

سادساً: اعتبار المسلمين العصاة مرتدين عن الإسلام.

والردة: هي الرجوع إلى الكفر بعد الإسلام -بعد نقض الشهادة بشروطها- وحكم المرتد القتل، قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»**[2]، وقال: **«لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلا بِإِحْدَى ثَلاثٍ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالثَّيِّبُ الزَّانِي وَالْمَارِقُ مِنْ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ»**[3].

---

(١) البخاري ج٩ ص ١٥.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه البخاري ومسلم.

والإجماع أن من جحد شيئاً مما افترضه الله تعالى الإيمان به فقد كفر وارتد عن الإسلام، إلا أن يكون الجاحد غير عالم بالنص فيبلغ إليه ويعرّف بما يجب عليه الإيمان به، فمن أصر على الجحود والتكذيب كان كافراً مشركاً. فهل يكف الشباب عن تكفير المسلمين ويعودون إلى الإسلام بدقة أحكامه حتى تتوحد الصفوف وتتآلف القلوب.

المرجئة: وهم الذين قالوا: الاعتقاد بالقلب والعمل لا أثر له مطلقاً حتى قالوا عبارتهم المشهورة لهم: لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

المعتزلة: الذين قالوا أن مرتكب الكبيرة غير مؤمن وقد سمي مسلماً، وقالوا بالمنزلة بين المنزلتين، فمرتكب الكبيرة الذي مات ولم يتب مخلد في النار وليس مؤمناً ولا كافراً.

أما جمهور المسلمين ورأي أهل السنة والجماعة قالوا: هو مؤمن عاصٍ أمره بيد الله إن شاء عذبه بقدر ذنبه وإن شاء عفا عنه.

ولقد استدل الفقهاء ومنهم ابن حزم الظاهري -الذي لا يعرف القياس- أن الأحاديث في هذا المعنى تفيد أن الإيمان يكون بالنطق بالشهادتين، أما الأعمال فلا يكفر تاركها وقد أجمعت الأمة على أن الدخول في الإيمان يكون بالتصديق بالشهادتين، والخروج من الإيمان يكون بجحود وإنكار ما جاء من عند الله؛ لأنه رد للشهادتين وجحود بهما، ولهذا أطلق اسم الكفر الأصغر أو العملي أو المجازي على الأعمال التي سماها الشرع كفرًا ودلت الآثار على أنها ليست كذلك ولا تخرج من الملة.

أما التكاليف الشرعية والأعمال من جهاد وحج وصوم وصلاة فيزيد الإيمان بوجودها وينقص بتركها.. قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ**﴾[1]، ويقول: ﴿**وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا**﴾[2]، فالإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، وهذا هو رأي أهل السنة

---

(١) من الآية ٤ من سورة الفتح.
(٢) من الآية ١٢٤ من سورة التوبة.

والجماعة. يقول النبي ﷺ: « **يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَفِي قَلْبِه وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ وَيَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَفِي قَلْبِه وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ وَيَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَفِي قَلْبِه وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ**»[١]، فالخير الوارد هنا الإيمان؛ لأن الله أخرج المشركين من المغفرة: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء**﴾[٢].

ولا توجد واقعة واحدة تفيد أن رسول الله ﷺ حكم بالكفر على المعصية أو توقف بالحكم على من نطق بالشهادتين بالإيمان انتظاراً للتأكد من مدى اعتقاده بها أو علمه بمفهومها أو عمله بأحكام الشرع ولكن جميع الآثار والنصوص تثبت الحكم بالإيمان بمجرد النطق بالشهادة.

وليس معنى ذلك أنه إذا فعل ما ينافي هذا التصديق يظل مؤمناً بل يرتد عن الإيمان إن تبين أنه يشرك مع الله غيره قاصداً ذلك، أما من آمن وعمل عملاً لا يدري أنه كفر أو شرك فلا ينافي هذا إيمانه؛ لأنه لم تتجه إرادته إلى ذلك إلا إذا نُبه فأصر على الشرك عالماً به قاصداً له وهو غير مكره عليه أو متأولاً.

وها هو ذا رسول الله ﷺ يدعو صباح مساء: «**اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه**»[٣].

والذين يقولون بشرط العمل نقول لهم: إن أول العمل النطق بالشهادتين، فعن أبي هريرة أن الرسول ﷺ سُئِلَ: أيُّ العملِ أفضلُ، فقال: «**إِيمَانٌ بِاللَّه وَرَسُولِه**»، قيل: ثم ماذا، قال: «**الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**»، قيل: ثم ماذا قال: «**حَجٌّ مَبْرُورٌ**»[٤].

ثم ما هو العمل وما مقداره الذي يصبح به المسلم مع عقيدته مسلماً لا يستطيع أحد أن يحدده كمقياس لقبول الإيمان.

---

(١) رواه البخاري.
(٢) من الآية ٤٨ من سورة النساء.
(٣) رواه الطبراني وأبو يعلى.
(٤) البخاري.

وأخيراً نقول: إن في كل عبادة جانبين من الامتثال: الجانب الأول هو الجانب الاعتقادي والثاني هو التنفيذ، ومثال ذلك القتال، يجب اعتقاد فرضيته على كل مسلم ثم يجب تنفيذه إذا تعين على كل فرد معين أو جماعة معينة، وذلك بشروط معروفة في كتب الحديث والفقه، ولذلك يقول الرسول ﷺ: « **مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِغَزْوٍ مَاتَ عَلَى شُعْبَةِ نِفَاقٍ**»[١]، فحديث النفس هو الجانب الاعتقادي، فيجب على كل مسلم اعتقاد وجوب القتال على مجموع الأمة لقوله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ**﴾[٢]، والقيام به عند تعيين ذلك.

«وهذا الجانب الاعتقادي نفيه كفر، وهو ما يسميه العلماء (الجحود) حيث يقولون: من جحد وجوب الحج كفر وأما تركه كسلاً أو بعذر ما غير مقبول شرعاً يعتبر عاصياً والفرق واضح بين الجحود والأعذار الأخرى، وهي تبين مدى دقة الأحكام في الإسلام»[٣].

وصدق الإمام النووي حين قال: اعلم أن مذهب أهل الحق أن لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب[٤].

أنواع الكفر:

والذين يقولون بتكفير أهل المعاصي يتعلقون بما ورد من الأحاديث التي تدمغ مرتكبي الكبائر بالشرك أو ما يقتضيه مثل: .

- قول النبي ﷺ: «**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»[٥].
- وقوله ﷺ لأبي ذر: «**إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**»[٦].
- وقوله ﷺ: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»[٧].

---

(١) رواه النسائي.
(٢) من الآية ٢١٦ من سورة البقرة.
(٣) الحد الفاصل بين الإيمان والكفر عبد الرحمن ص٢١ بتصرف.
(٤) شرح مسلم ج١ ص ٧٠ للإمام النووي.
(٥) مسلم ج١ ص ٢٨٤ شرح النووي وأبو داود ج٢ ص ١٨١ وقال حسن صحيح وابن ماجة.
(٦) البخاري ج١ ص١٢.
(٧) البخاري ج١ ومسلم ج١ ص ١٥٣ والترمذي وقال حسن صحيح.

- وقوله ﷺ: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاةِ»[١].
- وقوله ﷺ: «لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[٢].
- وقوله ﷺ: «لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[٣].

وليس في كل ما سبق من هذه النصوص دليل صريح على كفر مرتكب الكبيرة؛ ذلك لأن الأدلة قد قامت على ضده، وعلى المسلم ألا يكفر بشيء من المعاصي ولو كانت كبيرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[٥]، أي ما عدا الشرك الذي بينت الآية السابقة أن الله لا يغفره، وقال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾[٦]، فسماهم رغم الاقتتال مؤمنين، والطائفة تطلق على الواحد والجمع. وسمى الله القاتل مؤمناً وجعله أخاً لولي المقتول ولم يخرجه بالقتل عن الإيمان في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾[٧].

ومما يدل على أن هناك كفرًا دون كفر أن لفظ الكفر قد يرد في القرآن والسنة النبوية بمعنى آخر غير الكفر المخرج من الملة، والذي من نتائجه مفارقة الزوجة المسلمة للمسلم الذي كفر، وخروج أولاده عن ولايته وانعدام التوارث عند الوفاة مع دفنه في مقابر غير المسلمين.

ذلك لأن لفظ الكفر أو الشرك يطلق على بعض المعاصي من قبل المجاز للزجر

---

(١) رواه مسلم.
(٢) البخاري.
(٣) البخاري.
(٤) من الآية ٤٨ من سورة النساء.
(٥) من الآية ٥٣ من سورة الزمر.
(٦) من الآية ٩ من سورة الحجرات.
(٧) من الآية ١٧٨ من سورة البقرة.

وبيان عظم أمر هذه المعصية ومن أمثلة ذلك ما أشرنا إليه قبل ذلك مثل: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ**»(١)، فهذه الألفاظ لا تعني الكفر الأكبر المخرج من الملة.

وأنت ترى ذلك أيضًا في قول رسول الله ﷺ للصحابيات: «**يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الاسْتِغْفَارَ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ**»، فقالت: امرأةٌ منهُنَّ جزْلَةٌ وما لنا يا رسول اللَّه أكثر أهل النَّار؟ قال: «**تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ**»(٢)، فكفر العشير أو كفر النعمة لا يخرج عن الملة. وفي رواية البخاري ورد سبب دخول النساء النار وهو قول النبي ﷺ: «**أُريتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ يَكْفُرْنَ**»، قيل: أيكفرن باللَّهِ؟ قال: «**يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ**»(٣).

وعلى هذا فإن الكفر والظلم والفسق مراتب كما ورد عن ابن عباس قوله: «كفر دون كفر»، ولقد جعل البخاري كتاب الإيمان عدة أبواب منها باب كفر العشير وكفر دون كفر؛ ولذلك قد يوصف المؤمن بالفسق والظلم أو الشرك أو عدم الإيمان لفعل منكر ولكن لا يعد مرتداً عن الملة، فالذي شرب الخمر وأقيم عليه الحد فقال بعض القوم أخزاك الله، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تَقُولُوا هَكَذَا لا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ وَلَكِنْ قُولُوا رَحِمَكَ اللَّهُ**»(٤).

كما روى البخاري استنكار النبي ﷺ من لعن ذلك الذي أكثر من شرب الخمر ثم قال: «**لا تَلْعَنُوهُ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**»(٥).

وحديث عبادة بن الصامت الذي جاء فيه: «**فَمَنْ أَتَى مِنْكُمْ حَدًّا مِمَّا نُهِيَ عَنْهُ فَأُقِيمَ عَلَيْهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ أُخِّرَ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ**»(٦)، أي أن العاصي مؤمن غير مشرك؛ لأن المشرك لا يغفر الله له، والمولى جعل للعاصي

---

(١) رواه أبو داود.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه أحمد.
(٥) رواه البخاري.
(٦) رواه أحمد.

حدوداً أي عقوبات كالجلد وقطع اليد، أما الخروج عن الإسلام فعقابه القتل.

دعوة إلى العمل:

ليس معنى أن العمل ليس شرطاً للإيمان أنها دعوة إلى التكاسل وترك العمل فما قيمة إيمان لا ثمرة له، ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، وإن قوماً ألهتهم الأماني وخرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحسن الظن بالله كذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل».

إن الذي يترك الفرائض ويأتي بالمنهيات متكلاً على إيمان في القلب، كرجل وضع حبة في الأرض ولم يروها ولم يرعها ولم يتعهدها ثم جلس ينتظر الثمرة. إنه لعابث غير جاد في زراعته الحبة، والذي يستهين بعذاب الله ولو يوماً واحداً خطره عظيم وجرمه كبير، فكيف ينتظر عفو ربه ثم شفاعة نبيه ﷺ من كان يحمل في عقله هذا التفكير السقيم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[١].

فوجل القلب أي خوفه وخشيته وزيادة الإيمان أي التصديق في القلب وتأكيده والتوكل على الله، كل هذا استجابة حسية يحسها القلب المؤمن، ومعنى هذا أن حقيقة الإيمان ليست مجرد تصديق خامل في القلب وإنما هو تصديق مستجيب حي ثم يأتي بعد ذلك أعمال الإيمان وأثره.

أما العصاة التاركون لأوامر الله والعمل بما أنزل الله سيدخلون النار لأمد لا يعلمه إلا الله، فهم داخلون بمشيئة الله فمن هذا الذي يتحمل ﴿نَارًا تَلَظَّى، لا يَصْلاهَا إِلا الأَشْقَى، الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾[٢]، فهم مع هؤلاء وإن اختلفت دركاتهم، وسيخرجون منها بمشيئة ربهم لتوحيدهم.

والمسلم لا يستهين بذنب ولا يستصغر إثماً، فالإصرار على الصغائر كبائر وباب

---

(١) الآيات ٢-٤ من سورة الأنفال.
(٢) الآيات ١٤-١٦ من سورة الليل.

التوبة مفتوح وشرط قبولها العمل الصالح ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾[١]، وسنرحل من هذه الدنيا ولا يبقى لنا إلا العمل: عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزي به، البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت اعمل ما شئت كما تدين تدان، والكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

وهذه الظاهرة -ظاهرة المسلمين الذين لا يعملون- الموجودة في ديار المسلمين من أناس يشهدون بألسنتهم أن لا إله إلا الله محمد رسول الله ولا يعملون بما أمر الله به، وينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل بل ربما يصل الأمر إلى أن يفسدوا في الأرض ويتحقق فيهم قول الله: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[٢].

إنما ترجع هذه الظاهرة إلى عدم تحكيم كتاب الله وإحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأصبحت الفاحشة شائعة بين الناس وأصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، وانتشر الفساد واستشرت الفتن وكأني برسول الله ﷺ يعنيهم بقوله: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[٣]، فاستهان الناس بدين الله لأنهم لم يجدوا من يزجرهم ويعيد الحق لنصابه فإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

ويوم يعود المسلمون إلى شرع الله ويقام دين الله على الأرض لن تجد هذه الظاهرة الأليمة ويومها يفرح المؤمنون: ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٤].

نقض الشهادة:

إن الذي يترك العمل مطمئناً لإيمانه على شفا جرف هار بل على شفا حفرة من النار، ويخشى عليه أن يقترب من نقض هذه الشهادة فيرتد على أعقابه خاسراً خاسئاً

---

(١) الآية ٨٢ من سورة طه.
(٢) الآية ٥٩ من سورة مريم.
(٣) من الآية ٣٠ من سورة الفرقان.
(٤) الآيتان ٥،٦ من سورة الروم.

وعليه أن يجدد إيمانه؛ لأن الإيمان يخلُق كما يخلق الثوب ويحتاج إلى تجديد، وإن كانت الشريعة قد حددت كلمات للدخول في الإسلام فهي أيضًا حددت أقوالاً وأفعالاً إذا قالها أو فعلها المسلم خرجت به عن الملة السمحاء إلى الكفر، وهذه الأقوال والأفعال حددت تحديداً واضحاً لا لبس فيه ولا إيهام، حتى لا يحكم على مسلم بكفر وهو من أهل القبلة فينوء بها من حكم عليه بذلك وتكون عاقبته خسرًا.

والذي نحب أن نؤكد عليه أن إنكار الأصول: الإيمان بالله والإيمان برسله والإيمان باليوم الآخر أو إنكار ما لا يحتمل التأويل في نفسه مما تواتر نقله كإنكار الحشر والجنة والنار وعلم الله تعالى بتفاصيل الأمور وأركان الإسلام ونحو ذلك كفر.

وأما ما تطرق إليه احتمال التأويل ولو بالمجاز البعيد فيجب التريث فيه قبل الحكم.

ولا يكفر المسلم هكذا بإطلاق إذ لابد من التحقق من وجود شروط التكفير فيه، وانتفاء موانعه عنه، فإذا توافرت هذه الأمور حكم عليه بالكفر، وهكذا ترى أن أمر التكفير من الأمور الدقيقة التي ضبطها الشارع الحكيم.

هل الجماعة شرط للإيمان؟

نحن نفهم إسلامنا على أنه ينتظم الحياة جميعاً، ويفتي في كل شأن من شئونها ويضع لها نظاماً محكماً دقيقاً، ولا يقف مكتوف الأيدي أمام المشكلات الحيوية والنظم التي لابد منها لإصلاح الناس، فهو ليس مقصوراً على ضروب من العبادات أو أوضاع من الروحانيات كما فهمه بعض الناس لكننا نفهمه على أنه ينتظم شئون الدنيا والآخرة، فمهمتنا إذن سيادة الدنيا وإرشاد الإنسانية كلها إلى نظم الإسلام الصالحة وتعاليمه فلا يمكن بغيرها أن يسعد الناس.

لهذا جاء أول ما جاء بعقيدة لتوحيد المشاعر ثم عبادات لتوحيد الشعائر ثم بشريعة تنتظم الحياة جميعاً شاملة لألوان النشاط البشري اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وفكرياً، وبذلك أصبح الإيمان بالتوحيد يقتضي الإيمان بالتشريع، إذ لو كان الإسلام شعائر دون شرائع لأصبح علاقة بين العبد وربه لا شأن له بتنظيم الحياة وبالتالي فلا

حاجة لنا لحاكم ينظم ويقيم دولة على منهج رباني.

وكل مسلم يعلم علم اليقين أن دعوة الإسلام دعوة عالمية وليست محلية فهي ليست لقوم دون قوم ولا جنس دون جنس ولا لغة دون لغة: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[١]، وفي الحديث المتفق عليه: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[٢]، واقرأ إن شئت قول ربنا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٣]، فموسى يرسل إلى قومه ليخرجهم من الظلمات إلى النور، أما رسولنا محمد ﷺ فيقول له ربه: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٤]، الناس كل الناس عربيهم وعجميهم أبيضهم وأسودهم لتقوم دولة الإسلام العالمية.

فإن قال قائل: أنا أستطيع أن أحكم بالإسلام على نفسي فلا أظلم ولا أرابي ولا أسكر ولا أزني وأقوم بصلاتي وزكاتي وصومي وحجي وكل واجباتي الإيمانية الفردية.

نقول هذا جميل ولكن كيف نطبق المنهج السياسي والاقتصادي والاجتماعي والتربوي، بل من يقيم الحدود فيقطع يد السارق، ومن يجلد الزاني؟ بل ومن يقيم العدل ويرد الظلم؟ ومن يحدد المال الحلال والحرام. ومن يحدد أنواع العمل ووسيلة الكسب؟ ومن يَسوس الأمة ويحمي البيضة وينشر الدعوة؟

إن المسلمين إذا لم يحققوا ذلك في واقع حياتهم واكتفوا بالمشاعر والشعائر فإنهم يقعون في تناقض اعتقادي لا مخرج منه وهم يستمعون إلى ربهم يقول: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٥]، ويسمعون لتحذير القرآن

---

(١) الآية ١ من سورة الفرقان.

(٢) رواه البخاري.

(٣) من الآية ٥ من سورة إبراهيم.

(٤) من الآية ١ من سورة إبراهيم.

(٥) من الآية ٨٥ من سورة البقرة.

لرسولهم وهو يقول: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[(١)].

وجوب الإمامة:

من هنا أجمع المسلمون من بعد وفاة الرسول ﷺ على من يخلفه ليحفظ الدين وتستمر الدعوة ويحمي الأمن وتبلغ رسالة الإسلام إلى سائر أنحاء الدنيا.

ولذلك قال الإمام الجويني: الإمامة إنما تقوم على أصل الإجماع الثابت.

ويقول ابن خلدون: إن نصب الإمامة قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين ولم يقل أحد بغير ذلك.

ويقول الشهرستاني: قال أبو بكر بعد خطبته في سقيفة بني ساعدة: «ولابد لهذا الدين من قائم يقوم به فناداه الناس من كل جانب: صدقت يا أبا بكر».

ويقول الماوردي: الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا. وصدق القائل: الدين أصل والسلطان حارس، وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع، ولقد وضع الفقهاء شروطاً لتنصيب الإمام أو خلعه وعزله، ليس هنا مجال الحديث عنها.

ولكي نحقق هذا الأمر لابد من تحديد أهداف توصلنا إلى الهدف الأكبر؛ ولذلك كان من أهداف الإخوان:

الفرد المسلم، فالبيت المسلم، فالشعب المسلم، فالحكومة المسلمة، فالدولة التي تقود الدول الإسلامية وتضم شتات المسلمين، ومن هنا فإن الجماعة المسلمة هي التي يتم الوصول بها إلى تحقيق هذا الواجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وكأني بربي يذكرنا بهذه الجماعة التي تقيم الإسلام على الأرض في كل ركعة من الركعات وأنت تقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[(٢)]، ولا تقول: «إياك أعبد وإياك أستعين» حتى لو صليت بمفردك ليس لك إمام، فكأن العبادة الحقة لا تتم إلا من

---

(١) من الآية ٥٠ من سورة المائدة.
(٢) الآية ٥ من سورة الفاتحة.

خلال هذه الجماعة المؤمنة مستعينة بالله وهي تسير على طريق الهداية وتقول: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾[1].

ولو تدبرت القَسَم الذي أقسم الله به في قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[2]، لوجدت أن الذين استثناهم المولى من الخسران هم الجماعة المسلمة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ولم يقل إلا الذي آمن وعمل صالحاً؛ لأن هذا الكتاب الذي ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[3] وليس هدى للمتقي، فهي الجماعة التي تشير إليها كثير من آيات القرآن لتثبت هذا المعنى عند المسلمين.

ولا يتم معنى الجماعة في نفس الفرد إلا إذا شعر:

١- بالاعتزاز بانتمائه إليها.

٢- الطمأنينة في وجوده فيها.

٣- أنها حققت أمانيه.

٤- أنه عضو فيها ولبنة من لبناتها يمدها وتمده ويشدها وتشده.

٥- أنه بها وليس بغيرها وهم إن لم يكونوا به فبغيره ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[4].

ومع هذا كله فهل الجماعة تعتبر شرطاً للإيمان؟

جماعة المسلمين: هي الجماعة التي تقيم شرع الله على الأرض، وتحكم بالشورى، ولها إمام للمسلمين له شروط منها:

الإسلام والذكورة والتكليف والعلم والعدل والكفاية وغير ذلك من الشروط التي وضعها الفقهاء.

---

(١) الآيتان ٦،٧ من سورة الفاتحة.
(٢) الآيات ١-٣ من سورة العصر.
(٣) من الآية ٢ من سورة البقرة.
(٤) من الآية ٣٨ من سورة محمد.

ولا يجوز الخروج عليه طالما أنه يضع منهج الله موضع التنفيذ، فالخروج عليه إثم عظيم وفتنة وفساد كبير وفي هذا الموضوع كلام كثير ليس هنا أيضًا مجاله.

أما ما نراه في أيامنا هذه فهي جماعات من جماعات المسلمين وليس فيهم جماعة تدعي أنها الجماعة المسلمة يأثم من تركها ولم يلتحق بها، فسعي المسلمين للجماعة التي لها خبرتها وتاريخها وفقهها ورجالها ليشدوا من عضدها ويسيروا على طريقها أمر مرغوب ومطلوب وواجب التعاون معها.

ومع هذا فالخروج من هذه الجماعة أو تلك لا يعتبر إثماً إلا بقدر الدافع الذي دفع صاحبه للخروج منها وبقدر سلوكه المنافي لأخلاق المسلمين وآدابهم، فلا يأثم للخروج نفسه ولكن لما ارتكبه في حقها من آثام.

أما إذا تركها لسبب أو لآخر أو انتقل من جماعة إلى أخرى يرى أنها الأوْلى والأصلح لتحقيق الأهداف السامية والغاية الكريمة فلا بأس ولا حرج عليه طالما أنه رأى أنها الأوْلى، فالنبي ﷺ حكم بالإسلام لمن أعلن النطق بالشهادتين فبهما وحدهما يصبح المسلم مسلماً، أما القول بكفر من نطق بهما؛ لأنه لم يلتحق بجماعة من المسلمين فهو قول خاطيء وتشريع زائد وادعاء لا برهان عليه.

يقول ربنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١).

فالذين لم يهاجروا إلى رسول الله ﷺ وجماعته -وهي الجماعة المسلمة الوحيدة- لم يسلب الله إيمانهم بل حكم لهم بالإيمان في موضعين هما:

أولاً- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾ فأثبت لهم الإيمان.

ثانياً- ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ إنما سلب منهم فقط النصرة إن هم طلبوا المناصرة على كفار بينهم وبين جماعة المؤمنين ميثاق وعهد وأمان: ﴿فَعَلَيْكُمُ

(١) الآية ٧٢ من سورة الأنفال.

النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾، فإن تحول الأمر إلى موالاة الكفر والاعتراف لأهله بحق التحليل والتحريم سُلب الإيمان.

فالمسلم الذي لم ينضم إلى النبي ﷺ والمسلم الذي أعلن إسلامه بكلمة اللسان كلاهما لم يخرج عن الإيمان، ولا يجوز أن نزعم أنه كافر؛ ذلك لأن المعاصي لا يترتب عليها الحكم بكفر صاحبها -كما بينا بتفصيل- كما أن الانضمام إلى الجماعة الإسلامية ولو كانت هي الجماعة الوحيدة في العالم بل ولو كانت السلطة والحكم بيدها، هذا الانضمام فريضة وليس شرطاً من شروط الإيمان، فعدم الانتقال إلى مجتمع هذه الجماعة لا يترتب عليه كفر لمن آثر الخوف، ولم يجاهد مع هذه الجماعة؛ لأن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ﴾، فنفى عنهم حق النصرة ولم ينف عنهم الإيمان وليس معنى ذلك أنهم على حق، بالطبع لا ولكن إثمهم دون الكفر.

يقول الشهيد سيد قطب في معنى الآية: ثم وجد آخرون دخلوا هذا الدين عقيدة ولكنهم لم يلتحقوا بالمجتمع المسلم فعلاً ولم يهاجروا إلى دار الإسلام التي تحكمها شريعة الله وتدبر أمرها القيادة المسلمة ثم يقول: إن هؤلاء ليسوا أعضاء في المجتمع المسلم ومن ثم لا يكون بينهم وبينه ولاية ولكن هناك رابطة العقيدة[1]، نعم رابطة العقيدة ولكنهم مقصرون أو معذورون أو جاهلون أو آثمون لكنهم ليسوا كافرين.

هذا بالنسبة لجماعة المسلمين فما بالك بمن يلتحق بجماعة من جماعات المسلمين فليتق الله من لا همّ لهم إلا تكفير المسلمين وبدل أن يفتحوا للناس باباً للتوبة يلقون بهم في النار، فهل هذه رسالة المسلم في الوجود؟! ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[2].

حكم من لم يحكم بما أنزل الله:

أجمع أهل السنة والجماعة على أن المعاصي صغرت أم كبرت لا تؤدي بذاتها إلى الحكم على المسلم بالكفر، إنما يكون الكفر بسبب استحلال المعصية بتحليل ما حرم

(١) في ظلال القرآن المجلد السادس، سورة الأنفال.
(٢) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

الله أو تحريم ما أحل الله تعالى وهذه مسألة لا يختلف فيها اثنان من العلماء فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾[١].

بل واستحقاق المغفرة لمرتكب الكبيرة أيضًا، واسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢]، وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[٤].

فالكافر يدخل في الإسلام بالنطق بالشهادتين ويعد بهذا الإعلان مسلماً تجري عليه أحكام المسلمين ولو كان يظهر الإسلام ويبطن الكفر فأمره إلى الله؛ لأن الله تعالى أمرنا في هذه الدنيا أن نأخذ بظاهر أحوال الناس وأن نترك البواطن لحكم الله تعالى في الآخرة، ولقد أنكر الله على من رد هذا الظاهر فقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾[٥].

فالمسلمون جميعاً يؤمنون إيماناً كاملاً أن شريعة الله هي الحق والعدل، وما دونها باطل وظلم ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[٦] فماذا بعد الحق إلا الضلال؟! وأن شريعة الله هي التي تلزمنا بمقتضى أمره تعالى سواء ارتضاها حاكم أم لم يرتضها، وهي نافذة وواجب على كل مسلم العمل بها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، سواء أنفذها الحاكم أم عمل على تعطيلها ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾[٧]، وهي الشريعة التي لا يجوز التحاكم إلا إليها، ففيها يرد الحلال والحرام وما هو فرض وما هو نهي وما هو مندوب إليه وما هو مكروه وما هو مباح ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ

---

(١) من الآية ١١٦ من سورة النساء.
(٢) الآية ١١٠ من سورة النساء..
(٣) الآية ٥ من سورة الرعد.
(٤) الآية ٥٣ من سورة الزمر.
(٥) الآية ٩٤ من سورة النساء.
(٦) من الآية ١٠٥من سورة الإسراء.
(٧) الآية ٣٦ من سورة الأحزاب.

بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[١].

هذا ما يجب أن يكون عليه العباد لكن المولى ﷻ علم أن عباده يعصون بعض أوامره ويتبعون في ذلك -بالعمل دون العقيدة- الشيطان وأهواءهم، ولقد فرق المولى ﷻ -رحمة بنا- بين المعصية التي سماها كفراً وشركاً لا يغفران، وبين المعصية التي سماها ذنباً قد يغفر وقد لا يغفر، ويجازى مرتكبه بالعذاب في جهنم ولكن لا يخلد، وتلك المعاصي التي حكم الله تعالى أن مرتكبها لا ينتفي عنه اسم الإيمان.

ومن هذا قول الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[٢]، قال بعض الناس إن هذا الحكم معلوم من الدين بالضرورة كما أن حال الحاكم الذي لا يحكم بما أنزل الله معروف لدى الناس بالضرورة فلزم من ذلك ضرورة، أن يقطع كل مكلف بكفر ذلك الحاكم وأن يعتقد ذلك فيه بقلبه ويعلن بلسانه فمن توقف عن الحكم على ذلك الحاكم بذلك فهو قد أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، فهو كافر.

وهذه حقيقةً معادلات رياضية وليست أحكاماً فقهية، ولقد قلنا من قبل أن كل عبادة عملية لها جانبان من الامتثال، الجانب الأول هو فرضيته على كل مسلم ثم وجوب تنفيذه إذا تعين على كل فرد معين أو جماعة معينة.

والجانب الاعتقادي نفيه كفر وهو ما يسمى بالجحود، فمن جحد وجوب الحكم بما أنزل الله فقد كفر، وأما تركه كسلاً أو بعذر ما غير مقبول شرعاً يعتبر عاصياً، والفرق واضح بين الحالين.

لذلك قال ابن عباس: إن الآية ليست على ظاهرها وإطلاقها، وكذلك التابعي الجليل طاووس اليماني قال: «إن الكافر هو من حكم بغير ما أنزل الله جاحداً، أما من أقر بحكم الله وحكم على خلافه فهو ظالم فاسق»[٣]، «وبذلك قال السدي وعطاء وطاووس وكثير من أئمة الفقه، وهذا هو المدون في كتب الفقه وتفاسير القرآن

---

(١) الآية ٦٥ من سورة النساء.

(٢) من الآية ٤٤ من سورة المائدة.

(٣) البخاري ج١ ص ٢٩.

المتداولة بين الناس مثل القرطبي وابن كثير وصفوة البيان وغيرهم»[(١)].

والحق يقال بأن أهل السنة اختلفوا اختلافاً لفظياً لا يترتب عليه فساد وهو: هل يكون الكفر على مراتب أي كفر دون كفر؟ كما اختلفوا هل يكون الإيمان على مراتب: إيماناً دون إيمان، وهذا الاختلاف نشأ من اختلافهم في مسمي الإيمان: هل هو قول وعمل يزيد وينقص أم لا؟ بعد اتفاقهم على أن من سماه الله ورسوله كافراً إذ من الممتنع أن يسمي الله ﷻ الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً ويسميه رسوله ﷺ ولا نطلق نحن اسم الكفر على ذلك.

ولكن من قال: إن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص قال: هو كفر عملي لا اعتقادي، والكفر عنده على مراتب: كفر دون كفر كالإيمان عنده.

«ومن قال: إن الإيمان هو التصديق ولا يدخل العمل في مسمى الإيمان، والكفر هو الجحود ولا يزيدان ولا ينقصان قال: هو كفر مجازي غير حقيقي إذ الكفر الحقيقي هو الذي ينقل عن الملة»[(٢)].

ولذلك فإننا نقول: من **اعتقد** أن شخصاً أو هيئة ما أو جماعة ما كائناً من كان له الحق أن يحل ما حرم الله أو يحرم ما أحل الله وثبت عليه حكم التحليل أو التحريم القطعي، وكان هذا **الاعتقاد** بعد أن بلغه الحق وقامت عليه الحجة ولم يكن متأولاً لنص من كتاب الله أو السنة فهو كافر مشرك خارج عن ملة الإسلام **﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾**[(٣)].

أما إذا انتفى عنه اعتقاد ذلك وآمن بما أنزل على محمد ﷺ وهو الحق ولكنه لم يضعه موضع التنفيذ فهو -كما قلنا من قبل- عاص ظالم فاسق حسب ما بين علماء الأمة وليس بكافر كفراً يخرج عن الملة.

قال سعيد بن جبير: مما يتبع الحرورية من المتشابه قوله تعالى: **﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا**

---

(١) دعاة لا قضاة للأستاذ المستشار حسن الهضيبي رحمه الله.
(٢) المرجع السابق.
(٣) من الآية ٢١ من سورة الشورى.

أنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[١]، ويقولون معها: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾[٢]. مع أن الكفر هنا دون الكفر هناك كما قال ابن عباس في تفسيره للآية، قال: «إنه ليس بالكفر الذي يذهبون إليه، إنه ليس كفراً ينقل عن الملة. إنه كفر دون كفر»[٣]، «بل روى أبو داود أن تلك الآيات نزلت في اليهود خاصة بني قريظة والنضير»[٤].

وقد كان إمامنا الأستاذ حسن الهضيبي على فقه ودقة فهم وكان على وعي كبير حين ظهرت هذه البدعة في السجون عندها حسم الأمر حسماً واضحاً في كتابه «دعاة لا قضاة» الذي كتب في سجن طره وكنا ندرسه بل ووزع على باقي السجون التي كان فيها الإخوان، وكان الأستاذ الهضيبي رحمة الله عليه حاسماً جداً مع هذا الفكر حين قال: «هذا هو فكر الإمام البنا، والله لقد تسلمتها بيضاء نقية ولا يمكن أن أفرط فيها ولكن كما تسلمتها، فمن أراد أن يسير طريقنا فهذا هو طريقنا، ومن لم يرد فليحدد موقفه من الجماعة وهو وشأنه»، وحُسمت القضية. والجدير بالذكر أن عدد الذين التبس عليهم الأمر في السجن كان عدداً كبيراً في أول الأمر، وبفضل الله ثم بفضل هذا الكتاب عاد الإخوان إلى الفهم السليم إلا قليل القليل، وخرجنا من السجون بفضل الله ﷻ وأمر العقيدة واضح والحد الفاصل بين الكفر والإيمان أشد وضوحًا من وضوح الشمس في رابعة النهار، نتعامل ونحن نرى بفضل الله ﷻ أثر ذلك اليوم والإخوان يخالطون الناس ويتعاملون معهم بالحسنى ويدعون إلى الإسلام بالحكمة الموعظة الحسنة ويشاركون الناس في كل مكان، فهم مسلمون يخالطونهم ويؤازرونهم ولا يرمون أحداً منهم بكفر.

وهكذا ترى فقه الإمام البنا ودقة حكمه حين قال: **«لا نكفّر مسلماً أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض برأي أو بمعصية إلا أن أقر بكلمة الكفر أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة أو كذب صريح القرآن أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة بحال أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً غير الكفر»**.

فرضي الله عنك يا إمام وأرضاك وألحقنا الله بك في الصالحين. آمين.

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة المائدة.
(٢) من الآية ١ من سورة الأنعام.
(٣) مستدرك الحاكم ج٢ ص٣١٣.
(٤) أبو داود ج٢ ص١١٤ الساعاتي من كتاب البدعة للدكتور عزت عطية ص٤١٦.

مردود الأصل العشرين

أولاً- حصيلة العقل:

أ- اختر الإجابة الصحيحة (من الممكن أن تكون أكثر من إجابة صحيحة):

١- ليس بمسلم من لم:

أ	يؤد الفرائض	ب	يعمل بمقتضى الشهادتين
ج	يقر بالشهادتين	د	لا شيء مما سبق

٢- يكفر المسلم إذا:

أ	أخطأ في مسألة اجتهادية.	ب	قال عن نفسه أنه كافر.
ج	أنكر معلومًا من الدين بالضرورة.	د	جميع ما سبق

٣- تنتفي عن المسلم صفة الإسلام إذا:

أ	اعتقد عدم وجوب الحج.	ب	ترك الحج بعذر غير مقبول.
ج	ترك الحج تكاسلاً أو بخلا	د	جميع ما سبق.

ب- ضع (أ) أما العبارة الصحيحة و (ب) أمام العبارة الخطأ فيما يلي:

٤	لا فرق بين تعلم متى يكفر المرء وبين الحكم عليه بالكفر.	
٥	الحكم بإسلام المرء أو كفره ليس له علاقة بمصيره عند ربه.	
٦	ينبغي أن تجري أحكام الكفر على من أظهر الإسلام وأبطن الكفر.	
٧	يجب أن نبحث ونتحرى عن صدق من نطق بالشهادتين قبل اعتباره مسلمًا.	
٨	يرى جمهور العلماء أن مرتكب الكبيرة كافر.	
٩	لا ينفي عن المرء صفة الإسلام إذا عمل عملا ولا يدري أنه يؤدي إلى الكفر.	
١٠	ينبغي أن نعامل أصحاب الشرك الأصغر كما نعامل من خرج عن الإسلام.	
١١	تنتفي عن المرء صفة الإسلام إذا لم يلتحق بجماعة المسلمين.	
١٢	من المتعارف عليه شرعا أن هناك كفر دون كفر.	

قارن إجاباتك بالإجابات النموذجية في آخر مردود الأصل، وأعط نفسك درجة لكل إجابة صحيحة وصفرًا للإجابة الخاطئة.

أكثر من ١١	٩-١١	٨	٦-٧	أقل من ٦
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثانيًا- رصيد القلب:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	أعتقد أن كل من نطق بالشهادتين مسلم يحرم دمه.					
٢	يؤلمني أن أرى أحدًا يطلق كلمة الكفر على بعض المسلمين.					
٣	أكره أن أحكم على أحد بالكفر وأترك ذلك لأهل الاختصاص.					
٤	أعتقد أن هناك فرق بين إنكار أحد الفرائض وبين التكاسل عن أدائها.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٣	١٢-١٣	١٠-١١	٨-٩	أقل من ٨
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

ثالثًا- حساب الجوارح:

اختر الخانة التي توافق حالك فيما يلي:

م	العبارات	دائمًا	غالبًا	أحيانًا	نادرًا	أبدًا
١	أبين لمن حولي أن كل من نطق بالشهادتين مسلم يحرم دمه.					
٢	أحفظ لساني عن النطق بكلمة الكفر لأحد من المسلمين.					
٣	أنصح من حولي بالبعد عن إطلاق كلمة الكفر على الآخرين.					
٤	أوضح لمن حولي الفرق بين معرفة أسباب الكفر وبين الحكم بالكفر على شخص بعينه.					

دائمًا=٤، غالبًا=٣، أحيانًا=٢، نادرًا=١، أبدًا=٠

أكثر من ١٣	١٢-١٣	١٠-١١	٨-٩	أقل من ٨
ممتاز	جيد جدًا	جيد	متوسط	ضعيف

إجابات حصيلة العقل (٢٠)

السؤال	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢
أ			✓		✓				✓			✓
ب		✓		✓		✓	✓	✓		✓	✓	
ج	✓	✓										
د												

خاتمة

هذه الأصول ضرورة شرعية

إن من يتدبر هذه الأصول العشرين التي حددها الإمام البنا -رحمه الله- للفهم يجد أمامه منهجاً متكاملاً في المعرفة، فهو يحدد لك مصادر التلقي ويستبعد أموراً لا تعتبر أدلة للأحكام ولا يتجاهل دور العقل في الحوار، ويعتبره وسيلةً من وسائل المعرفة إن استخدم في مجاله وفكر بأسلوب علمي منهجي مع التأمل في خلق السماوات والأرض وما خلق الله فيهما؛ لأن المعارف لا سبيل للحصول عليها إلا بالتعرف على أسرار المخلوقات واكتشاف قوانينها وسننها والتي ارتضتها حكمة الله ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١).

وليس التعرف على السنن وقوانين الخلق هي السبيل الوحيد للحصول على المعرفة الشاملة دون سواها بل هناك الإيمان الصادق، والعبادة الصحيحة والمجاهدة لها نور يقذفه الله في قلب من يحب من عباده فيزداد علماً ويقيناً ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (٢).

ثم ينتقل بك الإمام من فنن إلى فنن ومن غصن إلى غصن في شجرة وارفة الظلال عطرية النسيم وشهية الثمر أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، فيبين لك دور الإمام فيما لا نص فيه وأن كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد إلا المعصوم ﷺ، ويحثك على تحصيل العلم للوصول إلى درجة النظر بشروطه وقواعده.

ويؤكد لك أن العقيدة أساس العمل، وأن عمل القلب أهم من عمل الجارحة، ويضبط لك موازين الأمور ليحدد لك الحد الفاصل بين الكفر والإيمان إلى غير ذلك من الموضوعات الدقيقة التي إن وعاها المسلم وسار على هداها كان على بصيرة من دعوته تعريفاً وتكويناً وتنفيذاً.

---

(١) الآية ٢٠ من سورة العنكبوت.

(٢) من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة.

ذلك لأن طبيعة الإسلام أنه في معركة مستمرة ذات جوانب متعددة: معركة مع الانحراف عن التوحيد لتحرير العقول من الشك والشرك والخرافة والوهم والجمود وموروثات الباطل وتقليد الآباء في الضلال، ومعركة مع النفوس والضمائر ترمي إلى إقامتها على منهج الفطرة السوي في صفائه ونقائه ونوره حتى لا يستبد بها الأهواء، ومعركة مع الأوضاع الفاسدة في علاقات البشر وشئون الحكم والتربية ونظم الاجتماع والاقتصاد وسائر دروب الحياة الإنسانية، ولا يمكن أن يميز المسلم الخبيث من الطيب إلا بالفهم السليم للإسلام فكانت هذه الأصول.

تحديد الشخصية المسلمة:

كانت هذه الأصول لتحدد للشخصية الإسلامية طريقها حتى لا تضل الطريق إلى الهدف المنشود، توجهها عقائد الإسلام، وتحكمها شرائع الإسلام، وتقودها مفاهيم الإسلام، وتسودها أخلاق الإسلام، وتسيطر عليها تقاليد الإسلام، وتسري في جنباتها روح الإسلام، فتصطبغ بصبغة الإسلام ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾[1].

وذلك أنه قبل قيام المجتمع المسلم لابد أن يسبقه إسلام الفكر وإسلام النفس وإسلام السلوك حتى يتأسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، ويقوم تشريعه وتوجيهه كله على قواعد الإسلام، وتشيع القيم في نواحيه وتسري في كيانه كله كالدم في العروق يبعث الحياة.

وهنا يبرز معدن المسلم المتميز ذي الشخصية الأخلاقية التي افتقدناها في زماننا هذا، صاحب الأيدي المتوضئة والقلب العامر والنفس الأبية وهو مع إخوانه يمثل الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى فإذا بهم جماعة تتحلى بقوة إيمانية ونفسية عظيمة تتمثل في إرادة قوية لا يتطرق إليها ضعف، ووفاء ثابت لا يعدو عليه تلون ولا غدر، وتضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل، ومعرفة بالمبدأ وإيمان به وتقدير له يعصم من الخطأ فيه والانحراف عنه والمساومة عليه والخديعة بغيره.

فهذه الأصول ليفهم الشباب أن أولى الخطوات لإقامة الدولة، هذه اللبنات التي

---

(١) من الآية ١٣٨ من سورة البقرة.

أسست على هذا الفهم الدقيق من غرس للمبادئ وتغذيـة للـروح، ولبـاس التقـوى وزاده فالمسلم كالمصباح إذا نفذ زيته انطفأ.

لسنا طلاب سلطة:

وهنا يظهر أهمية الفهم الدقيق بأننا لسنا طلاب سلطة ولا نعمل على الاسـتيلاء على السلطة، فالأولى فيها إكراه للناس عليها فتحل سلطة تكره الناس على الحق والله يقول: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[(١)] مكان سلطة كانت تكره النـاس علـى الباطـل والمـولى يقول: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[(٢)].

إن القرآن يلفت النظر إلى هذه الحقيقة فيعبر تعبيراً دقيقاً إذ يقول: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُـوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[(٣)]، وقف طويلاً أمام قوله: ﴿أَقِيمُوا الـدِّينَ﴾ لـتعلم أن الإقامـة للدين غير الاستيلاء على السلطة، فالإقامة للـدين تتطلـب مجاهـدة للـنفس وإنكـاراً للذات مع التصدي للشهوات وذلك كله يتحقق بفعل المأمور وترك المحظـور والصـبر على المقدور، فإذا أنعم الله عليك شكرت وإذا ابتليت صبرت وإذا أذنبت استغفرت، وهنا يتحقق فيك القلب السليم فيرضى الله عنا وعنك ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[(٤)].

إن الضعيف لا ينتصر على القوي والقليل على الكثير والأعزل على المسلح إلا إذا تحققت معية الله فيتم النصر، ولن يتنزل النصر إلا إذا كان الله معك ولـن يكـون الله معك إلا إذا حققت ما أراد، والله تعالى يقـول: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَـنًا﴾[(٥)]، فكـان لابـد مـن بنـاء الشخصية قبل بناء الدولة ولن يكون ذلك إلا بالفهم الدقيق؛ ولذلك طالـت مرحلـة البناء في مكة ليربي رجالاً يقيمون بناء يجمعهم على صحة الاعتقـاد وصـدق الاتبـاع

---

(١) من الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ٩٩ من سورة يونس.
(٣) من الآية ١٣ من سورة الشورى.
(٤) الآية ١٨ من سورة الفتح.
(٥) من الآية ١٢ من سورة المائدة.

بفهم سليم؛ فكانت هذه الأصول.

مسلم اليوم:

إن مسلم اليوم تتجاذبه تيارات ضخمة تعكس في أعماقه صراعاً داخلياً عميقاً، فهو بفطرته يحن إلى إسلامه وماضيه، وهو بواقعه خاضع لمؤثرات فكرية غربية وشرقية، وإذا نظرنا إليه وجدناه يعيش في كل جانب من جوانب حياته نكسة خطرة لعل أبرزها وأوضحها بعُده عن الفهم السليم للإسلام، فتلاشت دولته التي أرادها له المولى، وهذه سنة من سنن الله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[1].

وإنسان هكذا يعيش انتكاسة في روحه ووجوده مضطرباً تائهاً تتجاذبه المذاهب والفلسفات مقطوع الصلة بالله لا يعرف دوره في الحياة ولا يدرك غاية وجوده، فلابد له من أن تُصحح له المفاهيم ويُوضح له التصور وتحدد له معالم الطريق حتى ينتصر في معركة الحياة والوجود فكانت هذه الأصول.

إن أول الخطا على الطريق أن نعلم أن الحكم الإسلامي فريضة والطريق إليه واجبة، والتخلف عنه إثم عظيم فهو مآل الرجاء وغاية الاطمئنان؛ ولذا لابد أن يقرر المسلم أنه خليفة الله في الأرض ليقيم حضارة [لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ]، ولا يتحقق ذلك إلا بالفهم الدقيق والإيمان العميق والحب الوثيق والوعي الكامل والعمل المتواصل فكانت رسائل الإمام البنا رضوان الله عليه وفي مقدمتها رسالة التعاليم التي منها هذه الأصول العشرين فجزى الله عنا الإمام الشهيد خير ما يجزي به عباده الصالحين وجمعنا وإياه في مستقر رحمته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) الآية ١٦ من سورة الإسراء.

المراجـــع

أولاً-القرآن الكريم.

ثانياً-التفاسير:

١-تفسير القرآن العظيم – لابن كثير.
٢-جامع البيان عن تأويل آي القرآن –الإمام المفسر أبي جعفر بن محمد بن جرير الطبري.
٣-جامع الأحكام – للقرطبي.
٤-أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن – محمد الأمين الشنقيطي.
٥-صفوة التفاسير – الشيخ محمد على الصابوني.
٦-في ظلال القرآن – سيد قطب.

ثالثاً- السنة المطهرة والحديث:

١-صحيح البخاري- الإمام البخاري.
٢-صحيح مسلم – الإمام مسلم.
٣-الترغيب والترهيب – المنذري.
٤-سنن الدارمي- للدارمي.
٥-رياض الصالحين – للنووي.
٦-سلسلة الأحاديث الصحيحة – الشيخ ناصر الدين الألباني.
٧-السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي – للدكتور مصطفي السباعي.

رابعاً-السيرة وفقهها:

١-السيرة النبوية – لابن هشام.
٢-فقه السيرة – للبوطي.
٣-فقه السيرة – الشيخ محمد الغزالي.
٤-حياة الصحابة – محمد يوسف الكاندهلوي.
٥-من روائع البيان النبوي – مصطفى عبد الواحد.
٦-الشفا – للقاضي عياض.

خامساً- الفقه وأصوله وما يتصل به:

١-الفتاوى الكبرى – لابن تيمية.
٢-الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- لابن تيمية.
٣-إعلام الموقعين – لابن القيم.
٤-القواعد – العز بن عبد السلام.
٥-المدخل الفقهي العام – مصطفى أحمد الزرقا.
٦-أصول الفقه – الشيخ عبد الوهاب خلاف.
٧-أصول الفقه – الشيخ محمد أبو زهرة.

٨-فقه السنة – الشيخ سيد سابق.
٩-بيان النصوص التشريعية – الشيخ بدران أبو العينين.
١٠-التسهيل لعلوم لتنزيل – ابن جزي.
١١-التشريع الجنائي في الإسلام – عبد القادر عودة.
١٢-التشريع والفقه في الإسلام – الشيخ مناع القطان.
١٣-الإتقان في علوم القرآن – جلال الدين السيوطي.
١٤-البرهان – للزركشي.
١٥-الموافقات – للشاطبي.
١٦-فتاوى ابن الصلاح – لابن الصلاح.
١٧-الفتاوى – للشيخ محمود شلتوت.
١٨-الحلال والحرام – للدكتور يوسف القرضاوي.
١٩-روائع البيان – للشيخ محمد على الصابوني.
٢٠-الأحكام – للآمدي.
٢١-المدخل للفقه الإسلامي – للأستاذ محمد سلام مدكور.
٢٢- المدخل للفقه الإسلامي – للأستاذ عيسوي أحمد.
٢٣- تاريخ الفقه الإسلامي – محمد السايس.
٢٤-سبل السلام – للصنعاني.
٢٥- الرسالة – للإمام الشافعي.
٢٦-الأحكام في أصول الأحكام – لابن حزم الظاهري.
٢٧-التنبيه على أسباب الاختلاف – للفقيه البطليموسي تحقيق الدكتور أحمد حسن خليل وحمزة عبد الله النشرقي
٢٨-ما لا يجوز الاختلاف فيه بين المسلمين – للدكتور عبد الجليل عيسى.
٢٩-الإنصاف في الأسباب الداعية للخلاف – لابن السيد.
٣٠-الفقه المقارن – حسن الخطيب.
٣١-كتاب الشهاوي – إبراهيم الشهاوي.
٣٢-المجموع للنووي – تكملة الشيخ محمد نجيب المطيعي.
٣٣-التحف في مذهب السلف – للشوكاني.
٣٤-الموطأ – للإمام مالك.
٣٥-المدخل – لابن الحاج.
٣٦- مجموعة رسائل ابن عابدين – ابن عابدين.
٣٧-فتاوى العلامة قاسم – للعلامة قاسم.
٣٨-نظرية المصلحة في الفقه الإسلامي – للدكتور حسين حامد.

٣٩-الاجتهاد في الشريعة الإسلامية وبحوث أخرى - بحث الدكتور عبد الرحمن عميرة.
٤٠- الفروق - للإمام القرافي.
٤١-تحفة البديع - للبراد.
٤٢-المذهبية أخطر بدعة - محمد سعيد البوطي.
٤٣- التمهيد في تخريج الفروع على الأصول - للشيخ عبد الرحمن الأسنوي.
٤٤- تخريج الفروع على الأصول- للشيخ محمود الزنجاني.
٤٥-الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف - للشيخ ولى الله الدهلوي.
٤٦-أسباب اختلاف الفقهاء - للشيخ على الخفيف.
٤٧- أسباب اختلاف الفقهاء - الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي.
٤٨-القواعد والفوائد الأصولية - لابن اللحام.
٤٩-نظرة عامة في تاريخ الفقه - على حسن عبد القادر.
٥٠-محاضرات في المدخل لعلم الفقه - عبد الرحمن الصابوني.
٥١-تاريخ التشريع الإسلامي - عبد الوهاب خلاف.
٥٢-معاً على طريق الدعوة - شيخ الإسلام ابن تيمية - والإمام حسن البنا - محمد عبد الحليم حامد.

سادساً-كتب أخرى متنوعة لها اتصال بالأصول العشرين:

١-الإصابة في تمييز الصحابة - ابن حجر العسقلاني.
٢-إحياء علوم الدين - للإمام الغزالي.
٣-مدارج السالكين - لابن القيم.
٤-جمع الفوائد - لابن القيم.
٥-أمراض القلوب - لابن القيم.
٦-إغاثة اللهفان - لابن القيم.
٧-مفتاح دار السعادة - لابن القيم.
٨- الجواب الكافي - لابن القيم.
٩-قاعدة جليلة في التوسل - ابن تيمية.
١٠-اقتضاء الصراط المستقيم - ابن تيمية.
١١-الآداب الشرعية والمنح المرعية - للإمام شمس الدين بن عبد السلام الحنبلي.
١٢-الحلية - لأبي نعيم.
١٣-تنبيه الغافلين - للسمرقندي.
١٤-معترك الأقران في إعجاز القرآن - للسيوطي.
١٥-جامع بيان العلم وفضله - لابن عبد البر.
١٦-الاعتصام - للشاطبي.

١٧-تحذير المسلمين من الابتداع والبدع في الدين – لابن حجر.
١٨-عقيدة المؤمن – الشيخ أبو بكر الجزائري.
١٩-الإنصاف فيما قيل في المولد من الغلو والإجحاف- الشيخ أبو بكر الجزائري.
٢٠-العلم والعلماء- الشيخ أبو بكر الجزائري.
٢١-تبسيط العقائد- الشيخ حسن أيوب.
٢٢-تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي- الشيخ حسن السندوني.
٢٣- البدعة وموقف الإسلام منها- الدكتور عزت عطية.
٢٤-الإبداع في مضار الابتداع- للشيخ على محفوظ.
٢٥-حكم الإسلام في التوسل- الشيخ محمد حسنين مخلوف.
٢٦-التوسل وأنواعه وأحكامه- الشيخ ناصر الدين الألباني.
٢٧-المذاهب السياسية- الشيخ محمد أبو زهرة.
٢٨-البدعة والمصالح المرسلة- الدكتور توفيق يوسف الواعي.

سابعاً- كتب أخرى فكرية ودعوية:

١-مجموعة رسائل الإمام البنا- للإمام حسن البنا.
٢- دروس الثلاثاء – للإمام حسن البنا.
٣-دعاة لا قضاة- للإمام حسن الهضيبي.
٤-العقيدة الإسلامية في المرآة- للأستاذ عبد العزيز عطية.
٥-الإسلام فكرة وحركة- فتحي يكن.
٦-الدولة في الإسلام- خالد محمد خالد.
٧-الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ- محمود عبد الحليم.
٨-فقه التدين فهماً وتنزيلاً- الدكتور عبد المجيد النجار.
٩-الحكم وتكفير المسلم- سالم البهنساوي.
١٠-الحد الفاصل بين الكفر والإيمان- عبد الرحمن عبد الخالق.
١١-دستور الوحدة الثقافية- الشيخ محمد الغزالي.
١٢-واقعية المنهج القرآني- الشيخ توفيق محمد سبع.
١٣-منهج القرآن في التربية- محمد شديد.
١٤-فقه الدعوة ملامح وآفاق- مجموعة أبحاث- بحث الدكتور يوسف القرضاوي.
١٥-المذاهب السياسية- الشيخ محمد أبو زهرة.
١٦-منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام- جمعة أمين عبد العزيز.
١٧-الدعوة قواعد وأصول – جمعة أمين عبد العزيز.
١٨-دائرة معارف القرن التاسع عشر- (الإسلام دين خالد).
١٩-لمحات من الثقافة الإسلامية- عمر عودة الخطيب.

الفهـــرس

الأصل الثالث – مصادر ليست من أدلة الأحكام الشرعية

الأصل الرابع- المنكر التي يجب محاربته

الأصل التاسع عشر-النظر الشرعي والنظر العقلي

الأصل العشرون-الحد الفاصل بين الكفر والإيمان